

مَجْلَدٌ

كَلِیَّةُ الْأَدَابِ

بِطَبْعِ

المملكة المغربية

جامعة عبد الملك السعدي

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بتطوان

تصدر مرة كل سنة

المدير المسؤول : قيدوم الكلية د. محمد الكتاني

أعضاء هيئة التحرير الأساتذة

سيدي محمد ياملحي حسن الطريبق

عبد الله اجبيلو عبد اللطيف أقييب

المحمد بن عبود

العنوان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

صندوق البريد 210 — مرتيل — تطوان

المغرب

تعتبر المقالات والأبحاث الواردة
على المجلة لنشرها عن آراء
أصحابها. وعليهم وحدهم
مسئوليتها ولا ترد إليهم هذه
المقالات نشرت أو لم تنشر

مطبعة الشارقة البيضاء

الإيداع القانوني رقم 1 / 1987

جَامِعَةُ عَبْدِ الْمَلِكِ السَّعُودِي

مَجَلَّةُ

كَلِيَّةُ الْأَدَابِ

بِطَرُوقِ

الفهرس

- 7 القوانين العرفية بالمغرب (قانون ماسة اداومط نموذجاً).....
عبد الخالق أحمدون
- 39 إسماعيل
عبد الله المرابط الترغي
- 65 تقييم مصادر التاريخ الإجتماعي للأندلس خلال عصري الطوائف والمرابطين
مع تحليل نماذج منها.....
المحمد بنعبود ومصطفى بنسباع
- 79 العلاقات الفرنسية العثمانية خلال القرن السادس عشر وانعكاساتها المستقبلية
قراءة في معاهدة 1535.....
مصطفى العاشي
- 97 جنوة وبلاد المغرب في العصر الوسيط.....
جورج جيها/ترجمة : محمد الشريف
- 127 التحولات الإجتماعية والإقتصادية والمجالية بالمراكز الحضرية (مرتيل والمضيق
والفنيديق) بالساحل التطواني الشمالي والمجالات المحاذية لها.....
نور الدين الشيخخي ومحمد العبدلاوي

- خطبة القضاء بالأندلس على عهد المرابطين من خلال «نوازل الأحكام في
مذاهب الحكام» 211 محمد الصمدي
- حول فلسفة محمد ابن مسرة القرطبي 221 عبد الواحد العسري
- حماسة السموأل : «تعدد الأنظار وقضية النسبة» 245 محمد الحافظ الروسي
- المصادر العربية المسيحية في إسبانيا خلال القرون الوسطى محاولة تحقيق 293
شورد فان كونيكنسفيلد

القوانين العرفية بالمغرب

(قانون ماسة اداومط نموذجاً)

د. عبد الخالق أحمدون

كلية الآداب — تطوان

الأعراف بمعناها القانوني : هي مجموعة القواعد المستمدة من العادات اليومية المألوفة لدى الناس في بيئة اجتماعية معينة، وتتكون بشكل تلقائي، ثم تتحول إلى نوع من الالتزام الأخلاقي والقانوني دون أن تستند إلى سلطة شرعية، فتحظى بالاحترام من طرف الجماعة، ويصبح لها قوة قانونية إلزامية. فحين تحدد العلاقات الاجتماعية في مجتمع ما مجموعة الاجراءات المألوفة لدى جميع الناس، فإن هذه الاجراءات تصبح مع مرور الزمن قواعد متفق عليها يحكم الناس إليها لفض النزاعات والخصومات، وإقرار التعامل فيما بينهم، وفرض الاستقرار والأمن في محيطهم الاجتماعي⁽¹⁾.

وبصفة عامة، فإن العرف يمكن اعتباره قانوناً طبيعياً يعكس متطلبات البيئة التي تكتنفه،⁽²⁾ أو هو حصيلة كل ما هو مألوف لدى الناس على مستوى التزامات الاجتماعية، ويكاد يمس كل المظاهر الحياتية. فحين نتحدث عن العرف، فإننا أمام نظام من القواعد المترسخة في ذاكرة الجماعة، وتنقلها الأجيال فيما

(1) راجع : 216 - 221 - P - A. Lebrun - La coutume : ses sources, son autorité en droit privé - وقارن مع : مقاصد الشريعة الاسلامية لعلال الفاسي ص 26 — 27.

(2) Le droit dans la société bedouine - J. Chelhod P : 14 - 425

وقارن مع : ألواح جزولة لمحمد العثماني ص : 88.

بينها،⁽³⁾ ويتم بواسطتها الحفاظ على التلاحم والتضامن داخل النظام القبلي، ويشكل في ذات الوقت واجهة للدفاع عما يهدد هذا التلاحم والتضامن.⁽⁴⁾ ومن ثم، يرفض البعض تفسير العرف باعتباره نظاما قانونيا متعارضا مع الشرع، كما ذهب إلى ذلك الأطروحة الاستعمارية التي قسمت المغرب إلى أزواج : المخزن / السبية، العرب / البربر، الشرع / العرف، ويعتبرونه تقنيا خاصا بالحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تعيشها القبيلة⁽⁵⁾ غير أنه بغض النظر عن نتائج البحث الاستعماري، أو النظرة الاجتماعية والتكنولوجية للعرف، فإن الباحث في هذه الأعراف، ومن خلال مقارنة بسيطة بينها وبين الأحكام الشرعية يتبين له أن كثيرا من هذه الأعراف متعارضة مع الشرع، ومتصادمة مع روح القانون الاسلامي. مما دفع الكثير من الباحثين إلى وضعها في الجهة المقابلة للشرع على وجه التعارض⁽⁶⁾. وحتى الذين يؤكدون على وجود «تداخل وتفاعل بين الشرع والعرف، وأنه لم يكن بينهما تعارض وانفصال»⁽⁷⁾ لا تستهويهم هذه الفكرة كثيرا، وسرعان ما يقررون العكس. يقول أحمد التوفيق : «ومع وجود تداخل مستمر بين الشرع والعرف في ميدان العمل، كان السكان في بعض البوادي، لأسباب موضوعية، يؤثرون اتباع أعراقهم المخالفة للنص الشرعي الصريح»⁽⁸⁾.

ويتركز العمل بهذه الأعراف خاصة في المناطق القروية البعيدة عن الحواضر والمدن. ويشكل هذا البعد عاملا رئيسيا في بقاء بعض المناطق القريبة من المراكز العلمية محافظة على تطبيق الشرع، وفي حماية من تأثير العادات والأعراف وتغلغلها

(3) Chelhod P : 78

(4) الدولة والسلطة والمجتمع : رحمة بورقية ص 81 — 82.

(5) نفس المرجع ص : 81 — وقارن مع يوسف شلهود، السابق ص : 78 — ورسالة أحمد التوفيق : المجتمع المغربي في القرن 19 م ص : 399 وكتاب بنعلي محمد بوزيان : واحة فكيك : تاريخ وأعلام ص : 69.

(6) — Documents pour servir à l'étude du droit coutumier du sud - marocain - R. Montagne et M. Bend Daoud - P : 401

(7) أحمد التوفيق ص : 399 — وقارن مع :

- Introduction à l'étude du droit musulman - L. Milliot P : 166

(8) أحمد التوفيق السابق.

في نظامها القضائي، خاصة مناطق شمال المغرب الذي سعى أهله إلى نبذ العادات القديمة المخالفة للشرع، والتمسك بالدين **الإسلامي** **والحرص على أن تكون** معاملاتهم في الزواج والبيع والميراث قائمة على أسس الشريعة الإسلامية،⁽⁹⁾ وذلك بفضل الدور الاصلاحى الكبير الذي اضطلع به أهل العلم من الفقهاء ورجال التصوف، في سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة البدع والمنكرات، أمثال سيدي عبد الله الهبطي صاحب الألفية المشهورة : «تنبيه العامة والخاصة على ما وقعوا من التغيير في الملة الإسلامية»، وسيدي أبي القاسم بن خججو، وموسى بن علي الوزاني، وابن عرضون وغيرهم، غير أن هذا لايعني عدم وجود أعراف يحتكم الناس إليها في معاملاتهم في هذه المناطق.

ونتيجة لتنوع العالم القروي في المغرب واختلافه، فإن الاعراف تنوعت بحسب هذا التنوع، واختلفت من مناطق بين الجنوب والأطلس الكبير والأطلس المتوسط وسهول زمور وجبال الريف، مما يعكس صورا من واقع الحياة اليومية للقبائل المغربية، ويشكل مصدرا خصباً لتاريخ البادية بالمغرب. وهذا التنوع دفع بعض الباحثين إلى التأكيد على أنه لا يوجد قانون عرفي بالمعنى التقني لكلمة القانون، بقدر ما هناك مجموعة من الأعراف في شكل قوانين.⁽¹⁰⁾ وينقل الأستاذ علال الفاسي في هذا الشأن عن م. كلوديل ما نصه : «اننا لانملك شيئا من تشريع الماضي. ولكن يمكننا أن نكون فكرة كافية عنه إذا نظرنا إلى القوانين الحالية الموجودة في قبائلنا بجرجرة والأوراس، انها بدائية وتالدة. ان هذه القوانين لاتشتمل إلا على إجراءات تتعلق بالعقوبات.. ولكن فكرة التشريع لاتبدو بعد، ولا تظهر أبدا الشخصية القانونية.. فإثبات الواقع، وظهور الوعي الصحيح بالعمل، ثم تقرير العقوبات وتعيينه، تلك هي العمليات الثلاث البسيطة التي يتمكن كل فكر من

(9) العرف والعمل لعمر الجيدي ص : 217 — 218 وقارن مع : رحمة بورقية ص : 77 يذهب أحمد التوفيق، استنادا إلى رأي لويس مليو في المرجع السابق، إلى أن العرف كان معمولا به حتى في المدن الرئيسية كفاس مثلا. المرجع السابق.

(10) Quelques considérations sur le droit coutumier sa nature - son étude J. Delhome P : 108

وقارن مع مقاصد الشريعة للأستاذ علال الفاسي ص : 29 ويوسف شلهود السابق ص : 411.

عملها، وهي معاني القانون والعدل في أبسط حدودها البدائية، وعندها وقف العرف البربري»⁽¹¹⁾.

وتختلف تسمية هذه الأعراف باختلاف المناطق القروية، فهي عند مجموع قبائل صنهاجة يطلق عليها لفظ «أزر» ، ويطلق عليها لفظ «أبريد» أو «أغراس» عند سكان الأطلس المتوسط، ولفظ «تعقيدين» عند القبائل البربرية في الأطلس الكبير، إلى سجلماسة، ولفظ «الألواح» في بلاد سوس،⁽¹²⁾ ويطلقون عليها كذلك لفظ «العرف» أو «القانون» أو «الديوان» أو «الشروط»⁽¹³⁾.

وهذه التسميات كلها تعبر عن نوع الأعراف المحلية التي كان معمولاً بها في المجتمع القبلي.

ويحدثنا المشرفي عن «أزر» عند قبائل البربر المستوطنة جبل مازار الذي هو بعض من جبل درن، وهم بطون من صنهاجة فيقول : «فمن ذلك عرفهم المختص بهم في الأحكام المسمى لديهم بأزر، ويعنون به الحكم المقابل للشرع. فيقولون

(11) مقاصد الشريعة 29 — 30 نقلا عن كتاب كلوديل : إفريقيا الشمالية ص : 61.

(12) راجع :

— Essai sur la littérature des berbères H. Basset P : 85 - 87
— Etude de droit musulman et de droit coutumier berbère M. Marcel P : 274 - 296
— Le Tafilalt - L. Mezzine - P : 26

(13) الألواح جزولة للعثماني، ص 69 — 71 — 235 — يتحدث الدكتور تقي الدين الهلالي عن نموذج من كتاب «الشروط» فيقول : رأيته مجلدا ضخما قد كتبت فيه الأحكام على نحو هذا النمط :

— حكم السارق في داخل البلد : من سرق سرقة قلت أو كثرت في داخل البلد يدفع غرامة قدرها خمسون ريالاً، فإن عاد دفع مثلها، فإن عاد الثالثة دفع مثلها وأخرج من البلد، ومن شفع له يخرج معه أيضاً.

— حكم الزاني : أن يدفع غرامة قدرها 100 ريال ويخرج من البلد.

— حكم القاتل : النفي من البلد أبداً، إلا إذا رضي أولياء القتيل بأخذ الدية، فحينئذ يمكنه الرجوع.

— حكم الجروح : من وضع يده على مقبض سيف أو خنجر يدفع خمسة أريلة، فإن سل ولم يضرب يدفع عشرين ريالاً، فإن ضرب ولم يؤثر يدفع كذا وكذا، فإن جرح جرحاً غير بليغ يدفع كذا وكذا، وأرش الجروح كذا وكذا.

— انظر الحركة الوطنية والظهر البربري للحسن بوعباد. ص : 601 — 602.

ماحكم الشرع في هذه النازلة، وما حكم أزرف فيها، كما يقولون للمتحاكمين تزارفوا أي تحاكموا به. ولغتهم هذه توافق اللغة العربية في هذا المعنى من حيث التقدم والزيادة. وفي القاموس : زرف إليه : تقدم، وأزرف الرجل : تقدم، وزرف في الكلام : زاد فيه. فيكون وجه تسمية الحاكم لديهم بأزرف من زيادته في الكلام عند حكمه على ما هو مشروع، أو من تقدمه إلى الحكم بالعقل»⁽¹⁴⁾.

ويتحدث العربي مزين عن «تعقيدين» باعتبارها مجموعة من القوانين المحلية التي تحتكم إليها بصفة عامة جميع المؤسسات التي تكون البنية الاجتماعية للمجتمع القبلي، كالقصر، والحصن (أكادير)، والقبيلة، والحلف. وتخفي هذه القوانين آثار التطورات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة في هذا المجتمع، وتأتي على رأس الوثائق المرصودة لمعرفة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمنطقة الجنوب الشرقي من المغرب⁽¹⁵⁾.

والألواح عبارة عن سجل يكتب فيه مجموعة من القوانين العرفية التي وضعتها القبائل قصد تدبير شؤونها الداخلية، والحفاظ على أمنها الخارجي، وتشمل على إجراءات صارمة تتعلق بعقوبات مالية على المخالفات التي تمس شرف الإنسان وحقوقه وأمن القبيلة ومصالح الجماعة. ولعل وجه تسميتها بالألواح يرجع إلى كونها كانت تكتب قديما في الألواح، ولا يستبعد أن تكون لها علاقة إسمية بالألواح القانون الروماني⁽¹⁶⁾.

والألواح قديمة في سوس. يقول محمد المختار السوسي : «أسس أهل السوس قواعد وحتموا اعتبارها، وقوانين أيّدوا أعمالها وأقرارها، ورتبوا جنايات الأموال. فمن تعرض لأحد ذهب لأسواقهم أو مواسمهم أو مدارسهم أو حصونهم المخزون فيها مؤونتهم وأمتعتهم، أو تعرض لفقيه أو عالم أو طالب علم ولو بسب أو شتم، أو تعرض ليهودي في ملاحه، أو في طريقه، أو سرق، أو جنى جروحاً، أو سفك

(14) الحلل البهية : ص : 256.

(15) Le Tafilat P : 26

وقارن مع La justice coutumière marocaine - A. Plantey P : 21

Documents pour servir à l'étude du droit coutumier P : 402

(16) ألواح جزولة ص : 71 — 73.

دما، أو غير ذلك، وشددوا في ذلك وعينوا النفاليس، أعضاء الجمعية في كل قبيلة، تجتمع في مدرستها عند وقوع تلك النوائب، ويكون الفقيه المدرس في المدرسة هو الحاكم الأمر المرجوع إليه في الأمور الشرعية. وعلى هذا التمثل بنيت أحوال السوس الأقصى من أوله إلى آخره...»⁽¹⁷⁾

ولم يتقدم البحث التاريخي والاجتماعي كثيرا في سبيل الحصول على الألواح القديمة. فأقدم لوح عثر عليه هو لوح «أكادير أوجاريف» المؤرخ ب 904 هـ موافق 1498 م، ولوح مسجد الخروبة بآيت وافقا المؤرخ ب 977 هـ موافق 1569 م⁽¹⁸⁾ وأحدث لوح مكتوب هو لوح أهل «أنكصا» الذي كتب سنة 1348 هـ موافق 1929 م⁽¹⁹⁾ وتبين دلالة التاريخية أن كتابة مثل هذه الألواح توقفت قبل سنة من إصدار الظهير البربري (16 ماي 1930)، وهو تعبير عن الرفض القاطع لهذا الظهير من طرف القبائل، خاصة في مناطق سوس التي استمرت عليها العمليات العسكرية.⁽²⁰⁾

ومن المهمات الأساسية التي تطرح على المهتمين بحقل التاريخ، هي كيفية الحفاظ على هذه الأعراف القديمة من الضياع والإتلاف،⁽²¹⁾ وهي مهمة لا تخلو من الصعوبات، للعيوب التي لحقت بهذه الوثائق بسبب الرطوبة والتلاشي، أو لكونها محجوبة عن الأنظار، محبوسة في خزائن خاصة.⁽²²⁾

(17) المسول 3/ 269. ان وجود بعض المصطلحات الشرعية ضمن هذه الأعراف، جعل البعض يعتقد أن هذه الأعراف ذات أصل عربي دخلت إلى المغرب مع الفاتحين العرب. انظر :

- G. Salmon : contribution à l'étude du droit coutumier du Nord - marocain - P : 332

(18) ألواح جزولة ص : 73.

(19) نفس المصدر ص : 270.

(20) يحتفظ قسم التاريخ العسكري بقصر (فانسان) بباريس بملفات كاملة لتقارير الضباط حول هذه العمليات العسكرية وستنشر مقتطفات من تلك التقارير في جينها بالمغرب في جريدة السعادة إلى حدود مارس 1934، حيث وقع الاحتفال بنهاية مقاومة الجنوب. جريدة السعادة عدد 20 — 24 مارس 1934. راجع عمر أفا : قراءة تاريخية في ألواح قبائل سوس ص : 40 مع هامش 11

(21) Organisation judiciaire et procédure Marocaine J. caillé P : 76

(22) Les sources du droit coutumier dans le sous J. Lafond P : 5

إن الطابع الغالب على هذه الأعراف منذ القدم، أنها كانت تنقل شفاهيا ولم يكن أهلها يفكرون في كتابتها في بداية الأمر،⁽²³⁾ ثم دوت بعد ذلك بلغة «تمازيغت» وكتابتها «تيفيناغ»⁽²⁴⁾، ثم كتبت باللغة العربية على يد بعض الطلبة عن طريق نقل ألفاظها وعباراتها الأمازيغية إلى ما يقابلها من الألفاظ العربية بكيفية يصعب فك عبارات تلك النصوص وفهمها⁽²⁵⁾.

إن عملية تحرير بنود هذه الأعراف كانت موكولة إلى الجماعة التي كانت تتمتع بسلطة أخلاقية وقانونية مطلقة، مما ينفي عن الألواح صفة الاستبداد والانفرادية في إصدار القرارات. وقد اختلفت وجهات نظر الباحثين في الحكم على هذا النظام من حيث هذه الصفة، فوصفه البعض بالديموقراطية،⁽²⁶⁾ ووصفه البعض بالفوضوية، لانعدام السلطة المركزية الفعالة،⁽²⁷⁾ في حين اعتبره البعض نظاما أوليغارشيا تستبد فيه الأقلية النخبوية بالحكم.⁽²⁸⁾ ويعتبر محمد الحبابي هذه المجالس المحلية نوعا من ممارسة اللامركزية الادارية التي لاتتناقض مع التماسك الحكومي الوطني⁽²⁹⁾.

وهذه الأحكام في نظري إسقاطية، لا قيمة لها من الناحية النظرية على الأقل، لأن النظام القضائي العرفي المعمول به في البوادي هو نتيجة ظروف اجتماعية واقتصادية معينة، تفرضها البيئة الاجتماعية التي تحتضنها، وليس نظاما قائما على نظرية في الحكم أو فلسفة سياسية خاصة.

(23) انظر M. Marcel op.cit P : 275 J. Caillé P : 77

وأحمد التوفيق ص : 409.

(24) منتهى القول لعلي السوسي ص : 14.

(25) أحمد التوفيق P : 98 - 409 H.Basset op.cit

M. Marcel op. cit P : 275و

(26) ألواح جزولة : ص : 128 — و J.caillé op cit.P 76

J. caillé P : 76 (27)

A. Plantey op.cit p : 22 (28)

(29) مسألة النقود في تاريخ المغرب، عمر أفا — ص : 112 ورحمة بورقية — السابق — ص :

23 وما بعدها.

ومهما يكن من اختلاف في طبيعة هذا النظام، فإن القوانين العرفية كانت تصدر عن هيئة منتخبة تدعى «إنفلاس»⁽³⁰⁾ يتم تحديد عدد أعضائها بواسطة انتخاب حر ونزيه، حيث تختار كل عشيرة أو قرية من قرى القبيلة من يمثلها في اجتماع النواب (انموقار انيفلاس) داخل القبيلة أو خارجها⁽³¹⁾.

والوظيفة التي يقوم بها هذا المجلس ليست سهلة، وإنما هي التزام لا برشح للقيام به إلا من رغبت فيه الجماعة لاعتبارات متعددة، وقد يكون للقبيلة رأي في المنتخب، فتطالبه بإحضار «لائحة السوابق»⁽³²⁾ التي تثبت كفاءته لتحمل المسؤولية.

وقد كانت هذه القوانين تحرر بصفة جماعية وفي حضور جميع هيئة مجلس انيفلاس⁽³³⁾ ممن يستطيعون تحمل المسؤولية. ومن أجل صحة الشهادات، يحضر إمام المسجد أو فقيه المدرسة أو عدلي القرية. وفي بداية كل لوح تتردد عبارات تدل على الاتفاق والرضى الجماعي. وهذا نص قانون أهل قرية «أكرض» إحدى قرى تمانارت، نقدمه كنموذج لهذا الاتفاق الجماعي: «اتفقت الجماعة كلها بمحضرهم جميعا عند الشيخ إبراهيم ابن القائد محمد التامانارتي.

أولا: من جمر النخلة يعطي مثقالا في الانصاف — الغرامة — ويغرمها لربها، سواء ولدت أم لا، ومن جاء بحزمة الجريد ينصف أيضا بعشرة أوجه، الوجه من الفلوس القديمة التي يتبايع بها الناس قديما. ومن قبض في البحيرة ينصف، أو سرقها، أو خرجت عليه كذلك.

ومن نزع التين ناضجا أو غير ناضج ينصف بعشرة أوجه، ومن نزع (هكذا)

(30) إنفلاس جمع أنفلوس، ويعبر عن عضوية المجلس باسم «تأنفلوست»، ويجمعه الفقهاء في الألواح بجنوب المغرب أسماء متعددة مرادفة للفظ «إنفلاس»، ومنها: المقدمون (إمزرور) — الشيوخ — النقباء — العمال — الرؤساء — الضمان أو الضوامن — العرفاء — النظار (إمزران) الجماعة آيت الربيعن. انظر: قراءة تاريخية في ألواح سوس، هامش: 31.

(31) ألواح جزولة ص: 131.

(32) ألواح جزولة ص: 124 — وانظر في ص: 10 نص مخطوط لشهادة عدم السوابق منحت لمحمد بن بيهي بن علي المسكيني وقت ترشيحه لمجلس الأعيان انيفلاس.

(33) ألواح جزولة ص: 74 — 75.

الحمد لله وحده وصلى الله وسلم على محمد وآله

عليه السلام الواقف على رتبة هذا ان تجزى الشكوز
له عزمك الهوارى واولاد اجماع الطرق اخذت له من عظام
مطالع الحصن بعد ثلثه بثلثه ثلثا على رتبة
وبسيفه واتبعه بالكل وعدم انقياد له الحصن
والسيف هذا ان حاد به تجزى عزمه من رتبة
من رتبة ونبت الحاد تجزى عزمه من رتبة
دخلت رتبة الحصن واختل رتبة السيف ولم
منه لا بعد نداء رتبة الحصن وبنائه من رتبة
واجمع الاعوان وغيرهم في الحصن وبنائه من رتبة
هذه البعثة الفبيحة المخلقة للشرعية الواردة بها
نوره صلى الله عليه وسلم لا تجوز رجل بدور البعثة
منه بهرم الا والشيلس ثلثه ثلثا واولاد رتبة
بجوز الخدش المذكور لبقية الفارسة جازت مع
نقيلاد وراثة رتبة في تاديبها بالكل وعزمه من رتبة
لفوز العزماء وعزمه الامام لبعثة الله وسلك
سبيل العصيان بترق رتبة والحق في المطالبة والخط
عزمه ثلثه رتبة والحق بترق رتبة والحق بترق رتبة
والعزم بركات البعثة ان تشتعل نارها ثم حاد
هذا الله بركة الشيخ الزمهر رتبة ثم اخذت له من
امور الحصن ورمز رتبة هو رتبة واورثه
وتاديب رتبة رتبة واورثه رتبة واورثه رتبة

شهادة عزل محمد اسكور الهوارى من مجلس
حصن سيدي يعقوب الهيلالي لعدم كفاءته

يعطي خمسة أوجه، ومن كسر ماء الناس ينصف بمثقال إذا كسرها بغير إذن أربابها، ومن وجد امرأة في متاعه تنزع الكرموس الناضج أو سوى ذلك، فليقبضها ولا يفلتها حتى تؤدي له ما أفسدت، ثم تنصف بعشرة أوجه. ومن ذهب وطبع الماء من الشركاء بغير إذن رب النوبة ينصف بعشرة أوجه، وطبع الماء : طرح النبات في وسط الجدول لينظر إلى أي الشقين اللذين يفرق إليهما الماء في الجدول أكثر أو هما متساويان. قد جعلوا أحمد ابن حمو بن بلا في النفاليس عوضا عن محمد بن محمب بن عمر، وكذلك إبراهيم بن صالح بن يحيى عوضا عن عبل بن علي الجراري. قيد الجميع عبد ربه تعالى مبارك بن أحمد بن محمد بن أحمد التمارناري.

ومن قبض بدار أو بيت ينصف بخمسة مثاقيل، وإن أنكر يحلف خمسا وعشرين يمينا، وذلك في جميع ما حازه سور البلد، وبه متمه وملحقه مبارك بن أحمد. ومن اتهم بسرقة دار أو قبض فيها، وأقام رب الدار شاهدا واحدا، يحلف عليه بخمس وعشرين يمينا مع إخوانه. وبه عنهم عبد ربه بن أحمد التمارناري⁽³⁴⁾.

ويرد في بعض نصوص القوانين التصريح بنفي أي إكراه، كما ينص على ذلك لوح آيت عمرو قبيلة إداو باعقيل بالأطلس الصغير : «وهذا العرف المكتوب بينهم كله برضائهم ورضى شيوخهم بأمرهم من غير إكراه لواحد منهم»⁽³⁵⁾.

فهذه الهيئة عبارة عن مجالس استشارية، يقوم أعضاؤها بالاستشارة في القضايا التي تهم القصر أو القبيلة.⁽³⁶⁾ ويصور علي السوسي مجالس أهل فجيح الاستشارية فيقول : «القاعدة عند أهل فجيح إذا نابهم أمر في قصر من القصور، فإن في كل ربع رجلا يختار للرأي والتدبير. فإذا نزل أمر في ذلك القصر، اجتمعت تلك الأربعة، فإذا نزل أمر في ذلك القصر، اجتمعت تلك الأربعة، فإذا اختاروا رأيا خرج كل واحد لأربعة مختارة في ربه فيتشاور معهم. فجميع ما يتوقف عليه الأمر في قصر ستة عشر رجلا، فإذا ناب أمر جميع قصور فجيح، فلا يتم

(34) خلال جزولة محمد المختار السوسي 3 / 20 — 21.

(35) ألواح جزولة ص : 239.

(36) Etudes du droit musulman... M. Marcel P : 296 (36)

إلا بإجماع ستة وتسعين رجلاً»⁽³⁷⁾.

ولا يكون لهذه الأعراف قوة التنفيذ إلا بعد نشرها على العموم بجميع وسائل النشر المتاحة، وذلك بقراءتها على كل أفراد القبيلة، في جمع عام يحضره الرجال والنساء والصبيان، وتشرح بنوده باللغة الأمازيغية، ويرح بها في الأسواق، والأندية، وفوق المساجد. وقد ينص اللوح في مضمونه على نوع الاعلان، كما ورد في لوح قبيلة، «المعذر» ما ذكر أعلاه برحوا به كله فوق مسجدهم ليسمعه الداني والبعيد»⁽³⁸⁾.

ولنع أية زيادة أو نقصان في النص، يوضع اللوح في مكان مصون لدى أمين الحصن أو أمام المسجد، أو تكتب منه نسخ بعدد النواب، ليكون عند كل واحد منهم.⁽³⁹⁾ ولا يقع الاطلاع عليه إلا بحضور الجماعة لمعالجة ما يحدث من النوازل ويطرأ من القضايا.

وتحظى هذه الألواح من طرف القبيلة بالاحترام والقداسة مثل ما تحظى به الكتب السماوية المنزلّة،⁽⁴⁰⁾ ولها قوة إلزامية كبيرة تحفظها من كل تغيير أو تبديل أو تمرد، وكل من سولت له نفسه الخروج عن قرارات الجماعة وعدم الاعتراف بها يتعرض للعقوبة الشديدة،⁽⁴¹⁾ وهكذا نقرأ في بعض نصوص القوانين العرفية بمنطقة فجيج ما يفيد ذلك، حيث نص قانون زناكة الثاني (1318 هـ / 1900 م) على أنه إذا رفض المتهم الخضوع للحكم الصادر في حقه تضاعف عقوبته، إذ يجب القضاء على العصيان المؤدي إلى الفوضى. ومن يرفض الخضوع للقرارات الصادرة ضده طبقاً للقانون يجبر على أداء ذعيرة 50 ديناراً، وعلاوة

(37) منتهى النقول ص : 155.

(38) ألواح جزولة ص : 78.

(39) كما ينص على ذلك لوح قبيلة كسيمة — أورده عمر أفا في المرجع السابق — ص : 102.

(40) Un magasin collectif de L'Anti - Atlas R. Montagne P : 184

ويذكر مونتني في الهامش 3 من هذه الدراسة، أنه ورد في لوح أكادير «تملوكت» الذي قام بدراسته ابن داود مانصه : من اتهم الموثقين بالكذب، كمن كذب حكم الله، لأن الموثقين مقدسون كاللوح».

(41) M. Marcel - op.cit P : 297

على ذلك يلحق به عقاب رادع بتجليده بالسوط. ومن سمح لنفسه بالاستهزاء بقرار الحكم الصادر ضده، أو بانتقاد من أصدره ضده عليه 50 ديناراً»⁽⁴²⁾.

إن القضايا التي عالجتها هذه الألواح لا تنفصل مطلقاً عن البيئة التي أنتجتها، لأنها في الحقيقة ليست إلا انعكاساً للظروف التي تعيشها تلك البيئة وللمعطيات المحلية التي تؤثر فيها : اقتصادية واجتماعية وسياسية، وحسب هذه القضايا المطروحة، يمكن أن نميز بين ثلاثة أنواع من الألواح :

1. ألواح داخلية تنظم مرفقا واحدا في إحدى المجالات الآتية⁽⁴³⁾ :

— في المجال الزراعي : ألواح السواقي «تيركوين» — وألواح تقسيم نوبات المياه بالنسبة للعيون (تيرام ن وامن) — ألواح حراسة البساتين وتنظيم مواسم جني التمار — ألواح حراسة البساتين وتنظيم مواسم جني التمار — ألواح الحصون «إيكيدار» وتستعمل للدخار — ألواح المطاحن المائية (ايزركوان) — ألواح معاصر الزيت.

— في المجال الرعوي : ألواح الرعاة «تايسا» أو تاوالات التناوب.

— في المجال التجاري : ألواح الأسواق والمواسم وأمن طرقها.

— في المجال التربوي : ألواح المساجد — ألواح الزوايا — ألواح الأضرحة.

2. ألواح داخلية تنظم عدة مرافق في آن واحد، مثل لوح ماسة، ولوح إيفران، ولوح ايكونكا —

3. ألواح عامة تنظم العلاقة بين قبيلتين أو أكثر، لتكوين ما يسمى «أمقون»، وهو الحلف.

أما عدد بنود هذه الألواح وحجمها فإنها تخضع لما يحدث في القبيلة من قضايا ونوازل، وما لم يحدث فعلاً، يعتبر إدخاله في النص التشريعي غير ضروري.

(42) فجيج : مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن 19. أحمد مزيان. ص : 349.

(43) ألواح جزولة ص : 78 وما بعدها. وراجع : قراءة تاريخية في ألواح قبائل سوس والأطلس

الصغير ص : 40 — 41.

ورغم تعدد بنود هذه الألواح، فإن مضمونها التشريعي ينحصر بحسب ما تهدف إليه في مجموعتين :

1. بنود لضبط الالتزامات العامة : وتتعلق بممارسة الأعمال الجماعية، منها : مختلف الإصلاحات، وحراسة الحصون، ونوبة الرعي، والشركات... وكذلك الاستجابة للجماعة في عقد الحالف مع القبائل المجاورة، والعلاقة مع اليهود.
2. بنود للبت في الأضرار اللاحقة بالأشخاص والأموال : وتتعلق بالجنايات والجنح والمخالفات منها : القتل، والجرح والتهديد، وقطع الطريق، والسرقعة، والزنا، والأضرار الفلاحية والرعوية.

وقد حدد كل بند العقوبة الملائمة لنوع المخالفة، غير أن العقوبات المنصوص عليها في الألواح لا يعترها تنوع كبير. فالمخالفة إذا كانت مجرد تهمة عارية عن كل حجة، فلا يلزم المتهم سوى ما يسمى «الحلاف»، أي اليمين الجماعية، وذلك لتبرئة المتهم وتزكية من طرف عدد من أقربائه. وإذا ثبتت المخالفة بالحجة، فإن العقوبة في جميع الأحوال تكون مالية، وتسمى في الألواح الانصاف،⁽⁴⁴⁾ وتسمى كذلك «الخطا» أو «الخطية». وقد ترددت الكلمتان الأخيرتان في نوازل الزياتي ومطالع التمام للشماع. قال الشماع : «والقضية التي وقعت فيها المنازعة، وكثرت فيها المراجعة، حرمت المغرم المسمى بإفريقية في هذه الأعطر بالخطايا.. وهو عبارة عن أخذ المال من ذوي الجنايات». ⁽⁴⁵⁾ وقد سمي كتابه أيضا «نصح البرية في تخطئة من حلل الخطية»⁽⁴⁶⁾ وقال نظما :

ومن رام العقوبة بالخطايا فقول ظاهر البطلان بور⁽⁴⁷⁾
وجاء في نوازل الزياتي : «وسئل ابن خالنا الفقيه العلامة أبو النصر عبد القادر

(44) أجوبة في شأن القوانين العرفية ص : 1 وما بعدها — وأجوبة السكتاني 26 / أو ما بعدها — والنهل العذب للآزاريفي 249 / 2 وما بعدها — والحلل البهية ص : 256 — وفتاوي علماء جزولة ص : 239.

(45) مطالع التمام 185 / ب.

(46) نفس المصدر 186 / ب.

(47) نفس المصدر 232 / ب.

بن علي الفاسي حفظه الله عن أموال أشياخ القبائل والحواضر الذين يحكمون بالخطأ، ويغرمون الباعة في الأسواق والأبواب هل يحل ما لهم مطلقا؟» (48)، وفي موضع آخر : «وسئل الفقيه الأجل أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عرضون رحمه الله عن رجل تخاصم مع آخر بين يدي قاض، فسب القاضي وفر هاربا بنفسه، فأقام القاضي بينة بسبه له، وشكى إلى قائد البلد، فأخذ القائد والد هذا الرجل الشاب للقاضي وسجنه أياما، وأخذ له فرسا على وجه المغرم الملقب بالخطأ» (49) وقد تقدم من جواب عبد الواحد الونشريسي عن المسألة قوله : «وفتوى الامام البرزلي بتحليل المغرم الملقب بالخطأ لم يزل الشيوخ يعدونها من الخطأ، ويقبضون عن متابعتها الخطي» (50).

وقد ينص اللوح على إجراءات إضافية زيادة على الغرامة المالية، منها : ضيافة نواب الجماعة «إينفلاس»، وتخريب الدار، ومصادرة الأموال في بعض المخالفات. وفي حالة القتل، زيادة على الدية، يلزم تغريب القاتل أي ما يسمى «أزواك»، حيث يختفى عن القبيلة.

وهكذا يتضح أن العقوبات في الألواح تنحو إلى العقوبة بالمال، ولا تنص إطلاقا على الإكراه البدني أو السجن، كما هو الشأن في الشريعة أو القانون (51).

وبصفة عامة فإن الجانب العقابي في الألواح يهدف إلى حماية القرد وتوفير الاحترام للجماعة واستقرار الأمن، وضمان الملكية الفردية والجماعية، وذلك بالتنصيص على نوع الجرائم المرتكبة والعقوبات المالية التي تناسبها. وقد أسس هرسى (H.Hersé) على هذه الخاصية الموجودة في الألواح نتيجة تكشف عن خلفية فكرية استعمارية معادية، وتنم عن قصور كبير في فهم طبيعة النظام العقابي الاسلامي. فيقول : «إن منهج البحث يبين لنا منذ النظرة الأولى أن القانون الجنائي البربري أكثر إيجابية وفعالية من القانون الجنائي الاسلامي لسببين :

(48) نوازل الزياتي 2 / 292.

(49) نفس المصدر 2 / 332.

(50) نوازل العلمي 3 / 158.

(51) L'Azref des tribus et qsour berbères du Haut - guit Nehlil P : 5
Le Statut juridique des tribus de coutume berbère du Maroc - P : 24

1 — ان القانون العرفي البربري يحترم مبدأ الشرعية المعروف في قوانيننا الحديثة، والذي يقضي بأنه لا جريمة في فعل مالم يتناوله القانون بالتجريم قبل وقوعه

في حين يجرم القرآن بعض المخالفات، ويترك كثيرا منها إلى حكم القاضي.
2 — إن هذا القانون ينظم الحماية القانونية للأفراد من خلال حرصه على إيراد أنواع العقوبات المطبقة على بعض المخالفات الاجتماعية بشكل عملي دقيق، في حين ترك القرآن كثيرا من المخالفات بدون بيان عقوباتها»⁽⁵²⁾.

لم تحظ القوانين العرفية المنتشرة في القبائل العربية بالدراسة مثل ما حظيت به الأعراف في شمال إفريقيا، خاصة في الجزائر والمغرب، إذا استثنينا المحاولة التي قام بها الباحث يوسف شلهود (J.Chelhod) ونشرها في باريس سنة 1971 في 461 صفحة من الحجم الصغير تحت عنوان :

«Le droit dans la société bedouine. Recherches ethnologiques sur le orf ou droit coutumier des bedouins»

«القانون في المجتمع البدوي — دراسات إثنولوجية حول العرف أو القانون العرفي في البوادي». حاول في هذا الكتاب دراسة الأعراف السائدة في بعض قبائل الدول العربية كسوريا والعراق، والكويت، والأردن، والنكاب بفلسطين. غير أن هذه المحاولة يطغى عليها الجانب الوصفي، وتبتعد عن الغوص في أعماق المجتمع البدوي لاستنطاق الوثائق واستغلالها للكشف عن أنواع القوانين السائدة.

وقد كان اهتمام الباحثين الفرنسيين بالخصوص بالأعراف البربرية في شمال إفريقيا يخدم في الأصل الأطماع الاستعمارية، والنظرية السياسية للاحتلال الأجنبي. يقول ر. مونطني : «إن القانون العرفي يشكل إحدى البنيات المؤسسية الأصلية في كل مجتمع بدوي، وأن المعلومات التي وصلتنا لمعرفة طبيعته الحقيقية قليلة جدا. وما يلفت النظر، أننا قمنا بجهود كبيرة في إفريقيا الشمالية لاكتشاف مكونات القانون البربري، في حين لم يشكل القانون القبلي في الدول العربية موضوع دراسة واسعة وشاملة»⁽⁵³⁾.

Le statut juridique.. P : 24 - 25 (52)

La civilisation du désert - R. Montagne P : 94 (53)

ولمعرفة الجهود التي بذلها دهاقنة السسيولوجيا الاستعمارية لدراسة العادات والأعراف البربرية، نورد هنا لائحة بيليوغرافية موزعة حسب التسلسل التاريخي تبين أن حركة الاحتلال العسكري والاداري كانت تسير دائما بموازاة مع الأبحاث والدراسات التي أنجزها منظرو السياسة الاستعمارية بالمغرب. وستشمل هذه اللائحة الأعمال التي أنجزت من سنة 1915 إلى سنة 1961.

بيليوغرافيا الأبحاث السوسيولوجية حول الأعراف البربرية بالمغرب.

* 1915 : H. Simon : «Les études berbères au Maroc et leurs applications en matière politique et d'administration».

* 1915 : Biarnay : «Un cas de régression vers la coutume berbère».

* 1915 - 1916 : Nehlil : «L'Azref des tribus et Qsours berbères du Haut - Guir».

* 1915 - 1916 : H. Bruno : «Notes sur le statut coutumier des berbères Marocains (Iguerouan du Sud - Ait Ndhir - Ait Mguild)».

* 1917 : Abés : «Monographie d'une tribu berbères : Les Ait - Nadhir (Beni Mtir)».

* 1920 : H. Bruno : «Introduction à l'étude du droit coutumier des berbères du Maroc Central».

* 1920 : H. Basset : «Essaie sur la littérature des berbères».

* 1920 : Bornac : Quelques renseignements sur le droit coutumier berbère des habitants du Figuig et sur l'administration indigène des Djemaas».

* 1922 : H. Bruno : «Justice berbère au Maroc Central».

* 1924 : Ben Daoud : «Receuil du droit coutumier de Massat exemplaire des Ida ou Mout».

* 1924 : R. Montagne : «Une tribu berbère de sud Marocain «Massat».

* 1927 : R. Montagne et Ben Daoud : «Documents pour servir à l'étude du droit coutumier du sud - Marocain».

* 1927 : R. Montagne : «Organisation sociale et polityique des tribus berbères Ida poi Tanan».

* 1928 : P. Marty : «Droit coutumier berbère. L'Orf des Béni- M'tir (Orf unifié dans une assemblée générale des djemaas en Avril 1918)».

* 1928 : A. Somier : «Esquisse de droit coutumier berbère Marocain».

* 1928 : G. Surdon : «Esquisse de droit coutumier berbère Marocain».

* 1929 : F. Guay : «coutumes berbères et droit musulman comparés. Essai sur la propriété familiale en pays de coutumes berbères et en pays de Chraa».

* 1929 : R. Montagne : «Un magasin collectif de l'Anti - Atlas tribu des Ikounka».

- * 1930 : R. Montagne : «Les berbères et le Makhzen».
- * 1930 : G. Marcy : «Le Mariage en droit coutumier Zemmour».
- * 1931 : M. Marcel : «Études de droit musulman et de droit coutumier berbère».
- * 1931 : G. Marcy : «La propriété immobilière et les moyens d'acquérir en droit coutumier Zemmour».
- * 1931 : L. Turbet : «Le droit coutumier des Béni Ouarain cheraga - Région de Taza».
- * 1931 : R. Montagne : «Vie sociale et politique des berbères»
- * 1932 : G. Marcy : «L'engagement immobilier (rehen) - contribution à l'étude du droit coutumier Zemmour».
- * 1935 : H. Hersé : «Le statut judiciaire des tribus de coutume berbère du Maroc».
- * 1935 G. Marcy : «Le serment en droit coutumier berbère du Maroc Central».
- * 1935 Ben Daoud : «Adoption des adultes par contrat mixte de mariage et de travail, en vue de l'acquisition du droit de cité de l'étranger par un chef de foyer ou de famille, suivant les coutumes berbères des Béni M Guild».
- * 1936 : G. Surdon : «Institution et coutumes berbères du Maghreb ! Maroc - Algérie - Tunisie - Sahara».
- * 1936 : J. Berque : «Contribution à l'étude des contrats nord - africaine. Les pactes pastoraux Béni - Mesquine».
- * 1937 : G. Marcy : Droit coutumier, procédure dans la montagne marocaine».
- * 1937 : C.Turbet : «L'adoption des mineurs dans le tribu des Igherzane (berbère de moyen - Atlas)».
- * 1938 : A.Sonnier : «Contribution à l'étude du régime juridique des eaux au Maroc, suivant le droit musulman et les coutumes indigènes».
- * 1939 : G. Marcy : «Le problème du droit coutumier berbères».
- * 1941 : G. Marcy : «Les Vestiges de la parenté maternelle en droit coutumier berbère et le régime des successions touarègues».
- * 1943 : CH. Bruno : «Etude de droit coutumier berbère. La rupture du lien conjugal par la volonté de la femme chez les Ait Atta du Rteb».
- * 1946 : R. Aspinion : «Contribution à l'étude du droit coutumier berbère marocain. (Etudes sur les coutumes des tribus Zayanes)».
- * 1947 : P. Piersuis : «Etude sur les communautés rerales en Béni - Ahsen».
- * 1948 : C.Ben Daoud : «Documents anciens sur la coutume immobilière des Seksawa».
- * 1948 : Paniagua y Santo. José Maria : «Notas sobre el derecho consuetudinario de la propiedad en el Rif».

- * 1949 : J. Lafond : Les sources du droit coutumier dans le sous, Le statut personnel et successoral».
- * 1949 : G.Marcy : «Le droit coutumier Zemmour».
- * 1950 : Paniagua y Sato: «La prescription y el retracto en el derecho consuetudinario del Rif».
- * 1951 : Denat : «Droit coutumier berbère Ichken. coutume de l'enfant endormi».
- * 1951 : Denat : «Droit coutumier berbère Ichken,. Contrats d'amhers».
- * 1952 : A. Plantey : «La justice coutumière marocaine».
- * 1952 : Salmon. G. et L. Bruzeaud : «contribution à l'étude du droit coutumier du nord - marocain. De L'Association agricole et de ses différentes formes».
- * 1952 : Blanc : «Effets du contrat de rehen dans les tribus berbères du Haut - Gedmiwa».
- * 1954 : J. Delhomme : «Etude sur les contrats agricoles dans la tribu des Ait Amar (Oulmès)».
- * 1954 : R. Aspinion : «Un louh du Sous, règlement coutumier du Souq el Jamaa d'ida ou guidif».
- * 1955 : C. Molinari : «Observations sur la condition juridique des juifs en tribu de droit coutumier berbère dans le territoire du Tafilalt».
- * 1956 : G.H. Bousquet : «Le droit coutumier des Ait Hadidou, des Assif Melloul et isselaten (confédération des Ait Yafelmane). Notes et réflexions».
- * 1956 : G.H. Bousquet : «Le droit coutumier des berbères» The future of coustomary law in Africa. L'avenir du droit coutumier en Afrique. Colloque Amsterdam.
- * 1960 : P. Decroux : «Les droits coutumiers musulmans dans le régime foncier marocain».
- * 1961 : Ch. Brumo : Quelques considérations sur le droit coutumier : sa nature et son étude».
- * 1961 : J. Meunier, Mm Dj : «L'Agadir berbère : archaïsme vitale. Le grenier de tribu au Maroc».

عرف قبيلة ماسة⁽⁵⁴⁾ اداو مط

يقع عرف قبيلة ماسة في عشرين صفحة، مقياسها $22,5 \times 17,5$ ، كتب بخط واضح القراءة وبلغت متواضعة لاختلاف عن مثيلتها في نصوص الأعراف القبلية الأخرى. تضم هذه الوثيقة تسعة وعشرين عرفاً، كتبت في تواريخ مختلفة، اخترنا منها أقدمها وأطولها، وهو هذا النص الذي كتب في ذي الحجة عام 1260 هـ من طرف محمد بن الحاج الماسي.

وقد ترجم ابن داود (Ben Daoud) هذا العرف إلى الفرنسية ونشره بمجلة هسبريس⁽⁵⁵⁾ وقمت بمقارنة هذه الترجمة مع نسخة الأصل التي وقفت عليها في لغتها الأصلية بخزانة المعهد الاسلامي بتارودانت، والتي تحمل رقم : 86 م، فتأكد لي ما بين الترجمة والأصل من التطابق في المعنى، وقد قام المترجم بترتيب الأعراف المضمنة في هذه الوثيقة حسب تسلسلها التاريخي، ولا أستبعد أن تكون النسخة التي اعتمدها هي نفس النسخة التي بين يدي⁽⁵⁶⁾.

وهذا نص العرف :⁽⁵⁷⁾

«الحمد لله وحده

وبعد، فاليعلم الواقف على هذا العرف وانعقده واتفق عليه آل ماسة، حرسها الله تعالى، يصلحون به بلادهم ونواحيها يمينا وشمالا وشرقا وغربا ومكان اسراحهم ومكان أحوازهم إلى انتهاء، فالله يوفقهم على الصلاح والفلاح آمين.

(54) تقع جماعة آل ماسة عند مصب نهر ماسة، جنوب مدينة أكادير من جهة البحر. وقد ذكرها البكري في : المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ص : 76 ومارمول في : إفريقيا 2 / 28 والجنس الوزان في وصف إفريقيا 1 / 90 — 91 ومحمد المختار السوسي في إلبغ قديما وحديثا 180 و 204 وخلال جزولة 2 / 191.

وانظر الدراسة الدقيقة التي قام بها مونتي حول هذه المنطقة :

— Une tribu berbère du Sud Marocain «Massat» Hesperis 1924 - Tome VI Page : 357 - 403.

(55) — M. Ben Daoud : Recueil du droit coutumier de Massat. Exempleire des Ida ou Mout. Hesperis 1924 - Tome IV 3 è trim. Pages : 405 - 439.

(56) يذكر ابن داود أن النسخة المعتمدة كانت بحوزة قائد منطقة ماسة. ص : 405.

(57) سلاحظ القاريء الكريم أنني لم أتدخل لتصحيح اللغة التي كتب بها هذا القانون، وذلك حفاظا على الطابع القبلي لاذي يميزها.

وذلك :

— ان من سرق في زاوية الشيخ سيدي وسي في ملاقاته وغير ذلك حرومه وطروقه، أو من هجم فيه امرأة أو طفلا، أو فعل ذلك في طروقاته، ان قصده، أو قتل في المواضع المذكورة، أو جرح في ذلك أحد، فعليه : 100 مثقالا للقبيلة، وعليه أيضا بيأة القبيلة.

— وكل من فعل ذلك أيضا في زاوية الصوابي⁽⁵⁸⁾ ونواحها وطروقاتها، لمن قصدها زيارة، فعليه : 100 مثقال أيضا، أو هجم فيه فيعطي : 100 مثقالا، فإن كان واحدا فعليه : 100، وإن كانوا أكثر من ذلك فعلى كل واحد منهم : 100 مثقال، إلى انتهائهم.

— ومن اتهم بسرقة أو غيرها في الموضوعين المذكورين يعطي خمسين يمينا يخلفون عليه في ثلاثة أيام.

— ومن فعل شيئا من سرقة، أو هجم في حرمت آل ماسة جموز الكدرور، والارجام، والبيرة، وشعبة الخرواع، ومساجدهم، ومرابضهم، وسوقهم، ديور فقهاءهم، فعليه : 50 مثقالا، وطروقات سوقهم يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء. — ومن فاتن في السوق أو نصر لأحد فعليه : 5 مثاقيل.

— ومن سل الهند في السوق فعليه : 10 مثاقيل، ومن ضرب بها وأثرت فعليه : 50 مثقالا وعلى من فعل ما ذكر في ما ذكر مباية القبيلة (الضيافة).

— ومن اطلع الزناد في السوق فعليه : 10 مثاقيل إنصافه.

— ومن ضرب بالمكحولة أصاب أم لا فعليه : 50 مثقالا، وعليه مباية القبيلة.

— ومن ضرب بالحجارة في السوق وسبح به فعليه : 10 مثاقيل ومباية القبيلة.

— ومن قتل في السوق أو طروقه فعليه : 100 مثقال و 10 مثاقيل، وعليه

(58) يذكر ابن داود في الترجمة إسم صاحب الزاوية كاملا وهو : سيدي أحمد الصوابي، بدل الاقتصار على النسبة كما هو وارد في النسخة المخطوطة.

مباية القبيلة، وذبحت بقرته، وعليه : 50 مثقالا دية من قتل خاصة لقبيلتنا آل ماسة.

— ومن قتل في غيره من بلادنا آل ماسة وبني سمالة، فإنصافه عليه معلوم :
110 مثاقيل إنصافا بينهما، وذبحت بقرته. إن عدم القاتل فعلى أقاربه إلى سبعة، أولهم زوجته.

— وإن من قدر الله عليه بقتل ولده أو أخيه، ذكرا أو أنثى فلا شيء عليه من الخروج في البلاد، والانصاف ثابت عليه.

— ومن قطع في طريق الخارج من ماسة وقصد المعذر أو خرج من المعذر⁽⁵⁹⁾ وقصد ماسة فعليه : 50 مثقالا، مشترك بين آل ماسة وآل المعذر.

— ومن قتل السارق في الدار وغيرها، فلا شيء عليه في الانصاف ولا في الذية، بل دمه هدر، وكذلك جرحه.

— ومن هجم أخاه أو أولاده بالزنى أو كلام السوء أو سرقة فعليه : 25 مثقالا⁽⁶⁰⁾.

— ومن سرق في السرح أو مكان الخطب فعليه : 15 مثقالا، وعليهما مباية القبيلة.

— ومن سرق شيئا في الساقية من الفواكه أو الخضر أو حبوب أو جنان الغير أو بحيرته، أو من قبض فيما ذكر فعليه : 5 مثاقيل انصافه، ومباية القبيلة.

— ومن فاتن في حرومات آل ماسة، مساجدهم وزاويتهم سور سيدي وسي وزاوية الصوابي وغيرهما من المساجد فيعطي : مثقالا واحدا من غير مباية القبيلة.

— ومن سل الهند إلى غيره فعليه : 5 مثاقيل، ومن ضرب بها فجرح فعليه : 10 مثاقيل.

— ومن شهد على أخيه من آل مط لبعض القبائل غير أخيه فعليه ما على القاتل خاصة.

(59) تقع قبيلة آل المعذر جنوب ماسة.

(60) ترجمة ابن داود : من زنى بامرأة أخيه فعليه : 25 مثقالا، وهي ترجمة كما يظهر ناقصة. (قارن ص 407 البند رقم : 12 من الترجمة مع ص : 5 من المخطوط).

— وان توافق الرجل مع المرأة على الزنى فعلى كل واحد منهما : 25 مثقالا، وعليهما عشاء القبيلة لكل منهما.

— ومن كسر الدعوة لدى القبيلة أو القاضي فعليه : 25 أوقية.

— والعدل الكاتب بين المسلمين ولم يشهد الباطل ولا كتب كتابه الزور ثم رجع في كتابته فعليه : 20 مثقالا، وعليه مباية القبيلة.

— ومن كتب كتابة الزور وظهر عليه فعليه : 20 مثقالا وعليه مباية القبيلة.

— ومن فاتن أمام القاضي حال الخصام فعليه : 5 مثاقيل لكل منهما.

— ومن جعلته القبيلة على الساقية وأكرى الماء فعليه : 100 مثقال انصافه للكارى والمكتري وعليهما مباية القبيلة.

— وماء ساقية بني مط لاتباع ولا تكتري، ومن أكرها من المواضع بني مط بعد تمام أيامه ان قسموها بين المواضع فعليه : 100 مثقال ومباية القبيلة.

— ومن جاحد أعيان الماء وفتن معهم فعليه : 10 مثاقيل.

— ومن سقى ماء القبيلة كلها باعلا ساقيتهم فعليه : 100 مثقال لأجل السرقة، سوى أن كسر الماء بغير الرضى فعليه قيمتهم.

— ومن فاتن من النساء فعلى كل منهما : مثقال.

— وجميع من طغى وتعدى وأفسد أموال الناس، يقلع أشجارا وحضورا في الأجنة وذرة وشعيرا، أو هدم البنيان، أو حرث أملاكا من غير شريعة فعليه : 25 مثقالا ومباية القبيلة.

— والطارىء الذي طرأ في البلاد واكترى عند أحد أو أكل عنده، واتهمه أحد بشيء فيحلفه صاحبه، وإن هرب يغرم صاحبه ما ثبت عليه، فإن أقامه عند القبيلة تبرأت ذمته والتأجيل تتبع النهاية : 30 و 20 مثقالا شهران، وأقلهما إلى مثقال إثنان وعشرون يوما.

— ومن تخلف عن دعوة الجماعة فعليه : مثقال.

— ومن تعدى على نفسه بهائمه مطلقا وجاوزوه بالفدادين في البور في وسط

الشعير وفسد به متاع الناس، وكذلك في الساقية يغرم ما فسدوا وعليه : 5
مثاقيل.

— ومن ضرب امرأة أو طفلا أو فقيرا ظلما متعديا من غير هجم فعليه :
5 مثاقيل إنصاف للقبيلة بلا مباية عليه.

— ومن تعدى على نفسه ونهب شيئا من إخواننا، أو تشاور على أحد، أو
أقبضهم لأحد مطلقا، كبيرا أو صغيرا، أو أقر عليه بسرقة ونهب بما ذكر يوم
الأول فعليه : 50 مثقالا، وعليه مباية القبيلة.

— وكل من أقر عليه الراعي مطلقا يوم الأول، غنما أو بهائم بأكلهم، فإن
كلامه مصدق عندنا، فإنصافه : 15 مثقالا ومباية القبيلة.

— ومن نهب مع عاره في بلادنا وقطع عليه أحد فأكله بيده فعليه : 25 مثقالا
ومباية القبيلة.

— ومن باع الحركة فعليه : 50 مثقالا إن ثبت عليه، وإلا فعليه خمسون يمينا
في ثلاثة أيام، وإن تعددوا تعددت عليهم.

— ومن شهد شهادة الزور أو رجع عن شهادة الحق فعليه : 25 مثقالا.

— ومن قاطع على أحد بغابة أمكر (أمغور) بين ماسة والمعذر من الواد والبحر
فعليه : 100 مثقال، مشترك بين بني سملالة وعال ماسة.

— ومن كان يحرق في جنان غيره بالشركة وزربها واستغلها مدة كان فيها،
وأراد رب الجنان أن ينزعه فلا زرب له، والزرب مقابل الغلة، غير من اكترى
وزرب وأكل الغلة فله الزرب أو قيمته. وجميع من قام في القبيلة يدعي فسوخ
العقدة، ان نزلوا القبيلة على أحد وقبضوا الانصاف وفصلوا نازلته بما أمكن لهم،
وقام واشتغل بالخوض وترعت، وأراد أن يرجع على من شهد عليه بأنه هو الذي
استهلكه فليس له ذلك فعليه : 10 مثاقيل للقبيلة، وعليه مبايتهم.

— ومن قتل بالبارود أو الهند أو السم أو غيرهم من الأحجار وجميع أسباب
الموت، ولم يخرج روحه في الحين، ولكن لم يقدر أن يتكلم بأي قاتل قتله لأجل
شرفه على الموت، أو كان أبكم أو أصم أو أعمى، أو كان صبيا، وحضر له والده
أو والدته أو شهودا آخر، وقال والده أو أمه : فلان هو الذي ضرب ولدنا،

فهو مصدق، فيلزمه الانصاف، ومباية القبيلة، والدية، ويزوك من البلاد فإن لم يكن عليه التحقيق فيلزمه خمسين يمينا من إخوانه.

— ومن دعى لأحد لعند القبيلة أو القاضي أو عند الجماعة وتخلف عليه، فعليه : مثقال للقبيلة، إن كانت عليه بينة لدى الدعوى، وإلا فيلزمه هو.

— وإنصاف الطفل إذا قبضه أحد : 10 مثاقيل، وإنصاف العبد إذا قبض : 50 مثقالا، والمرأة : 25 مثقالا.

— ومن اتهم بسرقة بموضع آل مساة كلها من أعلاها إلى أسفلها، حواصنها ومراعيها، مكان البهائم في الزور والغابة والساقية وغير ذلك مما أشبه ذلك، يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة في موسم سيدي وسي يعطي خمسين يمينا من إخوانه في ثلاثة أيام، ومن كسر عليه اليمين بغرم بلا تأخير، ومن بين عليه شيء فيما ذكر فعليه : 100 مثقال إنصافا ومباية القبيلة، ويغرم السرقة والبشارة وما أتلفه.

— ومن تسوق سوق آل ماسة الثلاثة ثم سرق شيئا في آل ماسة كلها وحرومها، فإن بينت عليه السرقة يغرمها والبشارة، ويعطي : 50 مثقالا إنصافا. ومن تمام ما بأعلاه زيادة على عوائد آل ماسة ان من اكترى رجلا يبطنه وقبض في سرقة، فإن المكري يغرم جميع ما استهلكه صاحبه : سرقة وإنصافا، ولا عبرة بالسارق حضر أم لا.

— ومن ترش (صفع) أحد في السوق أو أجموع، إنصافه : 5 مثاقيل، مثل السوق ملاقات الشيخ، وكذلك من نعر فيهم.

— ومن فتن الدبيزة فيهم أو الدشور أو أجموع إنصافه : 5 مثاقيل، سوى الدشور إنصافه مثقال.

— وكل من خطا على القبيلة بالعار، رجل أو امرأة، يعطي : 5 مثاقيل.

— وكذلك الرجل إذا خطا على امرأة أو امرأة على رجل فإنصافهما : 5 مثاقيل، ومباية القبيلة.

— والنعرة كلها : 5 مثاقيل.

— وكل من ذهب للحركة أو لملاقات الأشياء مطلقا، وذهب للصوص لداره، فكل من اتهمه بذلك يعطي خمسين يمينا في ثلاثة أيام. ومن قبضت السرقة

بيده وادعى ربه عليه بأن ذلك سرق له في الملاقات أو السوق، فلا بد أن يقف مسكاره لربه ان كان متهما، وإلا فعليه ما على السارق. (61)

— ومن قبضت عليه السرقة التي سرقت في ملاقات الشيخ أو السوق وارتضى عليها أحكام الشرع بارتضاءهما، فالشرع يجري مجراه في مسألتها دون العرف، فلا يتكلم فيها.

اتفقت جميع قبيلتنا آل ماسة حرسها الله تعالى، ووافقهم وأصلحهم الله تعالى على ما يحبه ويرضاه، وبنين أعيانهم من كل موضع، فبال صفحة ماسة : الفقير محمد بن علي، والفقير علي بن محمد، وإبراهيم بن الحاج بعز، وجيرانهم آل أخريان : محمد بن الحاج، ومحمد بن صالح، وبنياغل : محمد بن الحاج أحمد بن الحاج، والحاج أحمد بن محمد، وعلي بن سيدي محمد ممن، والحسين ابن داوود، وبنو أغرمز : أحمد بن مبارك، وبنو املن : محمد بن الحسين، والشيخ أحمد بن مبارك، وسعيد بن مبارك، وبنو آل السوق : محمد بن محمد، وبنو إلياس : علي بن عبد الله، وأحمد ابن الحاج عبد السلام، وبنو محكوت، الحاج أحمد فندوز؛ وإبراهيم بن علي، وأحمد بن عبد الله، وبنو ولون : علي بن محمد، وسيدي علي بن همو، وعلي بن أحمد، وبنو قنتارة : سيدي محمد بن محمد، وصالح بن سيدي علي، وبنو القصير : الحاج إبراهيم وبه، وعلي بن إبراهيم، والفقير بلقاسم، ومحمد بن عبطل، وبنو الجوابر : محمد بن بجمع، وبنو اقبس : المرباط السيد علي ابن يحيى (62)

واتفقوا هؤلاء كلهم على ما ذكر من أوله إلى انتهائه كما ذكرناه. وبه يقول من نقلها بحضورهم في انتصاف ذي الحجة عام 1260، عبيد ربه تعالى محمد بن الحاج الماسي بتسل أصلحه الله في الدارين، وعبد ربه علي بن محمد الماسي لطف الله آمين ﴿(63)﴾.

(61) الشق الثاني من هذا البند لم يرد في ترجمة ابن داود. قارن ص : 419 — 420 من الترجمة مع ص : 11 من الأصل المخطوط.

(62) لم يرد ذكر هؤلاء الأعيان في ترجمة ابن داود. قارن ص : 420 مع ص : 12 من الأصل المخطوط.

(63) قوانين ماسة ص : 4 — 12.

لائحة المصادر والمراجع

المخطوطات

- الأجوبة الفقهية : أبو مهدي عيسى السكتاني — الخزانة العامة
بالرباط — رقم 1016
- أجوبة في شأن القوانين العرفية : جماعة من فقهاء الحضرة
المراكشية — الخزانة الحسنية رقم 5813
- الجواهر المختارة فيما وقفت عليه من النوازل بجمال غمارة : أبو فارس عبد
العزیز الزياتي — مخطوط خاص
- الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية : محمد بن عبد القادر
المشرفي — الخزانة العامة رقم : 1463
- فتاوي علماء جزولة : أبو العباس أحمد التغاتيني — الخزانة العامة
الرباط — رقم : 725
- قوانين ماسة : خزانة المعهد الاسلامي بتارودانت — رقم : م 86
- مطالع التمام ونصائح الأنام : أحمد الشماخ الحفصي — خزانة
الاسكوريال — رقم : 1411
- منتهى النقول ومشتهى العقول : علي السوسي السملالي — الخزانة
العامة — رقم : د 633

المطبوعات باللغة العربية :

- ألواح جزولة والتشريع الاسلامي — رسالة دبلوم مصورة على المكروفيلم
بالخزانة العامة بالرباط — رقم : د 1340
- الحركة الوطنية والظهير البربري : الحاج الحسن بوعباد — دار الطباعة
الحديثة — الدار البيضاء 1399 هـ — 1979 م

- خلال جزولة — محمد المختار السوسي — المطبعة التونسية — 1344 هـ
- الدولة والسلطة والمجتمع : رحمة بورقية — دار الطليعة — بيروت — 1991 م
- العرف والعمل في المذهب المالكي : عمر الجيدي — مطبعة فضالة — 1404 هـ — 1984 م
- فجيج : مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي (1845 — 1903 م) — أحمد أمزيان — مطبعة فجر السعادة — 1988 م
- المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (اينولتان 1850 — 1912 م) — أحمد التوفيق — مطبعة النجاح الجديدة — الدار البيضاء — 1403 هـ — 1983 م
- مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر (سوس 1822 — 1906 م) — عمر أفا — منشورات كلية الآداب بالرباط — مطبعة النجاح الجديدة — البيضاء — 1988 م
- المعسول : محمد المختار السوسي — مطبعة النجاح الجديدة — الدار البيضاء — 1370 هـ — 1960 م
- مقاصد الشريعة ومكارمها : علال الفاسي — مطبعة النجاح الجديدة — البيضاء — 1991 م
- المنهل العذب السلسيل، شرح نظم أبي زيد الجشتي — محمد الشابي الأزارفي — مطبعة النجاح الجديدة — الدار البيضاء — 1400 هـ — 1980 م
- نوازل العلمي : أبو الحسن علي بن عيسى العلمي — تحقيق : المجلس العلمي بفاس — طبعة وزارة الأوقاف — 1403 هـ — 1983 م
- قراءة تاريخية في ألواح سوس والأطلس الصغير : عمر أفا — مجلة آفاق — يصدرها اتحاد كتاب المغرب — ملف عن الثقافة الشعبية — السلسلة الجديدة — العدد : 9 يناير 1982 م ص : 39 — 49

لائحة المصادر والمراجع

باللغة الأجنبية :

- L'Azref des tribus et Ksour berbères du Haut - Cuir. M. Nehlil. Archives berbères et bulletin de l'Institut des Hautes études marocaines - VOI I - Fase 1 - 2- 3. Paris 1915 - 1916.
- La civilisation du désert - R. Montagne - Hachette - Paris 1947
- Contribution à l'étude du droit coutumier du Nord- marocain G. Salmon - Archives Marocaines - Vol : 3 1905.
- La coutume / ses sources - son autorité en droit privé - contribution à l'étude des sources du droit positif à l'époque moderne - A. Lebrun - librairie général de droit et de jurisprudence - Paris - 1932.
- Documents pour servir à l'étude du droit coutumier du Sud - marocain R. Montagne et M. Ben Daoud - Hesperis - Tome VIIIX 4^e trim 1927.
- Le droit dans la société Bedouine - Recherches ethnologiques sur l'orf ou droit coutumier des Bédouins - J. chelhod - librairie Marcel Rivière et cie - Paris 1971.
- Essai sur la littérature des berbères H. Basset - Carbonel Alger - 1920.
- Etudes de droit musulman et de droit coutumier berbère.
- M. Marcel - Ancienne maison bestide - jourdan - imp- de l'université Alger - 1931.
- Introduction à l'étude du droit musulman L. Milliot - Sirey - Paris - 1971.
- La justice coutumière marocaine A. Plantey (R.J.P.V.F) 6^{ème} année N° 1 Janv. Mars 1952 librairie générale du droit et de jurisprudence - Paris - 1952.
- Un magasin collectif de l'Anti - Atlas - tribus des Ikounka R. Montagne - Hesperis - Tome IX 4^e trim 1929
- Organisation judiciaire et procédure marocaine J. Caillé librairie générale du droit et de jurisprudence - Paris - 1948.
- Quelques considérations sur le droit coutumier : sa nature et son étude - J.Delhome - (R.M.D) 1^{er} Mars vol VII - 1956.
- Recueil du droit coutumier de «Massat» exemplaire des Ida ou Mout M-Ben Daoud Hesperis Tome IV 3^e trim 1924

- Les sources du droit coutumier dans le Sous J. Lafond - éd imp. du sous Agadir 1949.
- Le statut juridique des tribus de coutume berbère du Maroc.. H. Hersé imp. Provinciale de l'ouest. Reims - 1935.
- Le Tafilalt : contribution à L'histoire du Maroc au XVII et XVII siècle L.Mezzine Publication de (F.L.S.H) Rabat - serie thèse : 13 imp : Najah El Jadida Casablanca 1987.
- Une tribu berbère du Sud Marocain «Massat» R. Montagne – Hesperis Vol : 4 - 3^e trim - 1924.

المخاضات ودورها في النتاج الأدبي والنقدي بالمغرب على عهد المولى إسماعيل

د. عبد الله المرابط الترغي
كلية الآداب — تطوان

أولاً — التعريف والعرض :

مفهوم المخاضات هو ما يتمثل في أساليب التنافس والتسابق والمواجهة بين المواقف في مختلف المجالات الكتابية مما يحدث عادة بين العلماء والأدباء، فيكون هدفه كشف نقائص هذا المجال أو ذاك ومحاولة تصحيح ما يكون بحاجة فيه إلى تصحيح، ويكون من جهة أخرى مدعاة للكتابة من جديد والرد على صاحبه ونقض كلامه وإبطال اعتراضه ويحدث من كل هذا مجموعة نظرات تقويمية للأعمال الأدبية والكشف عن مكوناتها، فينتج عنها حركة نقدية، وكتابة تسجل تصوراتها.

وبذلك كانت هذه المخاضات — والتي عرف العصر الاسماعيلي العديد من مظاهرها — أحد الموارد النقدية التي تمثل حركة الأدب في هذا العصر.

وقد كانت المخاضات دائماً وفي مختلف المراحل التي قطعها الأدب العربي مجالا مهياً لممارسة العمل النقدي بمستوياته النظرية والتطبيقية، وذلك بما يحدث أثناءه من معالجة النص الأدبي وتقويم مواده⁽¹⁾. يترك ذلك المواقف الشخصية أو المذهبية، أو غيرها. ولم يخل الأدب المغربي في مرحلته الاسماعيلية من هذه الحالة

(1) كانت البوادر النقدية الأولى في العربية نتيجة خاصة. راجع خبر احتكام الشاعرين حسان ابن ثابت، والخنساء إلى النابغة.

من المخاصمات، لاسيما وهي حالة طبيعية في مجال السباق الأدبي، ووجه للتنافس والتدافع الذي به قوام العملية الأدبية الصحيحة.

ولم يقتصر مجال المخاصمات في هذا العصر على الأدب فقط، وإنما تعددت المجالات لتشمل مختلف الأنشطة العلمية والفكرية والكتابات التي أنتجت فيها. فقد قامت مخاصمة في مسألة علم النبي ﷺ بين اليوسي، والتجموعتي عبد الملك، وأحمد الحلبي، أثمرت كتابات في الموضوع⁽²⁾.

وقامت مخاصمة واسعة في مسألة خلق أفعال العباد، ومسألة الكسب بين إبراهيم الكوراني، الذي جلب مؤلفاته إلى المغرب تلميذه أبو سالم العياشي، وبين بعض علماء المغرب آنذاك في مقدمتهم : المهدي الفاسي، ومحمد بن عبد القادر الفاسي⁽³⁾، وقامت مخاصمة بين ابن مبارك اللمطي في شرحه وتفسيره آية المعية،

(2) تتلخص هذه المسألة في أنه قد جرى بحضرة الأمير محمد العالم كلام في علم النبي، تكلم فيه عبد الملك التجموعتي (ت 1118). ثم بعد مدة كتب أحمد بن عبد الحي الحلبي (ت 1120) كتابة في الموضوع يخاطب فيها التجموعتي المذكور. فرد عليه التجموعتي برسالة صغيرة سماها : ملاك الطلب في جواب أستاذ حلب (يوجد نصه مخطوطا ضمن مجموع خ ع : ك 1284، ومجموع : خ ع : ح 115) فتدخل اليوسي وكتب رسالة إلى التجموعتي يناقش فيها الموضوع ويعدل من بعض مفاهيم التجموعتي (راجع نص اليوسي في : رسائل اليوسي 508/2 وما بعدها). فما كان من التجموعتي إلا أن كتب ردا عنيفا يفند فيه مزاعم اليوسي، وقد سماه : الاسطار البوسية في خلع الاطمار البوسية (يوجد نصه مخطوطا ب : خ ع : ح 115 ضمن مجموع).

راجع عن هذه المخاصمة ومواقف أصحابها في : نشر المثاني 3/ 162 — فهرس الفهارس 1/ 256 ط. لبنان — والاعلام للمراكشي 8/ 364 — ورسائل اليوسي 2/ 506.

(3) راجع نشر المثاني 3/ 7 وما بعدها — والتقاط الدرر 256 — وتوفي إبراهيم الكوراني الشهرزوري عام 1101. تنظر ترجمته في : رحلة العياشي 1/ 20، 398، 406 — نشر المثاني 3/ 5 — التقاط الدرر 255 — فهرس الفهارس 1/ 166 ط لبنان — ومن مؤلفاته التي أثارت هذه المخاصمة كتاب (اللمعة السنية...) وهي في مسألة الغرائق. يوجد نصها مخطوطا بالخزانة الحمزاوية في مجموع. ومعها رسالة في نقضها من تأليف محمد بن عبد القادر الفاسي. ومعها أيضا في نفس المجموع مراجعة الكوراني وررده على من انتقده في رسالة سماها نبراس الاناس بأجوبة أهل قاس. الرسائل الثلاثة في مجموع الخزانة الحمزاوية رقم 169. ومن مؤلفات الكوراني أيضا : مسلك السداد إلى مسألة خلق أفعال العباد، وجلاء الفهوم في تحقيق الثبوت. وكلاهما مخطوط بالمجموع المذكور أعلاه رقم 169.

وبين الشيخ الكبير السرخيني، لإبطال موقفه في آية المعية والرد عليه⁽⁴⁾.

بل إن من هذه المخاصمات ما امتد صداها بعد العصر الاسماعيلي كتلك التي تعلقت بنسبة كتاب «الروض العاطر الأنفاس في أخبار الصالحين من أهل فاس» لابن عيشرون الشراط⁽⁵⁾، وما أثر حول موقف الشيخ محمد بن زكري وكتابه «السيف الصارم»⁽⁶⁾.

= ومن الردود عليه أيضا كتاب المهدي الفاسي المسمى «اللمعة الخطيرة والنبذة اليسيرة في مسألة خلق أفعال العباد الشهيرة». وهي في نقض كتاب مسلك السداد للكوراني / مخ خ ع : ك 1234 ضمن مجموع ومن رد عليه أيضا عبد الرحمان الفاسي بكتاب سماه : الاستعداد لسلوك مسلك السداد الوارد وقد جاوبه الكوراني برد سماه : امداد ذوي الاستعداد لسلوك مسلك السداد / الكتابان ضمن م خ خ ابن يوسف 382 ومن شنع علي الكوراني أيضا الشيخ أبو علي اليوسي في بعض كتاباته. راجع رسائل اليوسي 2/ 613 وما بعدها — والنشر 3/ 9 ومن انتقد الكوراني أيضا الشيخ محمد المسناوي في كتابه : جهد المقل القاصر... (راجع التقاط الدرر : 257).

(4) راجع نشر الثاني 4/ 41 — والتقاط الدرر 420 — توفي الشيخ محمد الكبير السرخيني 1164 تنظر ترجمته في : نشر الثاني 4/ 84 — التقاط الدرر 419 — سلوة الأنفاس 2/ 340 — وما يزال تفسير ابن مبارك للآية : وهو معكم أينما كنتم موجودا مخطوطا بالخزانة الملكية رقم 1052 ضمن مجموع. بينما لا أعرف شيئا عن تفسير الكبير السرخيني الذي رد فيه على ابن مبارك.

(5) توفي ابن عيشون الشراط عام 1109. تنظر ترجمته في : نشر الثاني 3/ 84 — دليل بنسودة 1/ 41، 51 — ومن كتاب الروض عدة نسخ مخطوطة، منها مخ خ ع : ك 2401. وقد حقق أخيرا كرسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب بالرباط. راجع عن نسبة كتاب الروض المذكور إلى ابن عيشون في : نشر الثاني 3/ 69 — السلوة 2/ 345 — دليل بنسودة 1/ 51 — المصادر للمنونى 1/ 163.

(6) شنع فيه عليه تفضيل المعجم على العرب — راجع نشر الثاني 3/ 339 — السلوة 1/ 158 — دليل بنسودة 1/ 118، المصادر للمنونى 1/ 180. وقد انتصر له أحمد بن عبد السلام بناني (ت 1234) في كتاب سماه النور اللامع بنصرة الشيخ ابن زكري العلامة الجامع (السفير الأول مخ. خ ع : ك 650، والسفر الثاني مخ خ الحسنية 345، وكلاهما بخط المؤلف. راجع المصادر للمنونى 2/ 37) وتوجد من الصيف الصارم عدة نسخ مخطوطة. منها من خ ع : ك 939 ضمن مجموع. وراجع حول الموضوع أيضا : الحياة الأدبية للأخضر 219 — والتقاط الدرر 357 هوامش المحقق.

وما يزال كتاب السيف الصارم مخطوطاً في الخزان العامة والخاصة بالمغرب.

ورغم قلة ما يمكن أن يمثله جانب المخاصمات الأدبية إذا ما قورن بما عرفته هذه الفترة من مجالات المواجهة، وما تصعد فيها من مخاصمات أثمرت كثيرا من الكتابات المتعددة فإن ما بين أيدينا من نصوص هذه المخاصمات الأدبية، والإشارات إليها، يكفي أن يرسم لنا جانبا من الممارسة الأدبية ممثلة في مجال النقد الأدبي.

ويمكن أن نحدد مواضيع هذه المخاصمات عامة في النقاط التالية :

• ما يتعلق بمفهوم الشعر وتعاطي الأدب، وهو الموضوع الذي شغل بال الشاعر علي مصباح كثيرا فجابه به خصومه والمنتقدين له، كما ورد في كتابيه : «سنا المهتدي» وأنس السمير⁽⁷⁾.

• ما يتعلق بالجودة الأدبية وصراع التسابق إلى الظهور، وهو موضوع مثله علي مصباح في إطار التنافس بينه وبين معاصره الشاعر ابن الطيب العلمي⁽⁸⁾.

• ما يتعلق بالاستعمال اللغوي.

• ما يتعلق بتناسق مواضيع النص الأدبي وبناء القصيدة النبوية.

• ما يتعلق بعناصر الصناعة الأدبية.

وسأقتصر فيما يلي على عرض نماذج بعض هذه المخاصمات مما يتعلق ببناء القصيدة النبوية، وعنصر الصناعة الأدبية.

(7) ما يزال الكتابان مخطوطين في عدة نسخ / من سنن المهتدي مخ خ ح ر 11095. وهي النسخة المعتمدة في هذا العرض.

ومن أنس السمير مخ خ ع : ك 300 / توفي الشاعر علي مصباح سنة 1130 / تنظر ترجمته في : كتابه : سنا المهتدي : 222 ب : مخ خ ح : ر 11095 وقد جعل خاتمة الكتاب في التعريف بنفسه، ومقدمة التحقيق لديوانه : 55 والمراجع المذكورة.

(8) توفي سنة 1134 / تنظر ترجمته في : كتابه الأنيس المطرب : في غير موضع — نشر المثاني : 3 / 263 — النقاط الدرر : 326 — دليل بنسودة 1 / 246 — المصادر للمنوني 1 / 166 — ذكريات مشاهير رجال المغرب لكونون، حلقة 14 — معجم المطبوعات المغربية : 243 — الحياة الأدبية للأخضر : 177 — فهارس علماء المغرب 3 / 745 والمراجع المذكورة — مجموع شعر ابن الطيب : مقدمة التحقيق.

ثانياً — مقدمة القصيدة النبوية :

من هذه المخاصمات ماقام حول مقدمة قصيدة المدح النبوي، وهل يحق للشاعر أن يتغزل فيها أو يتحدث عن مجالس اللهو والأنس وشراب الراح ووصف الساقى وغير ذلك، قبل أن يخلص إلى غرض المدح، كما جرت به العادة في القصيدة العربية القديمة.

1) ومبدأ هذه الخصومة أن الشاعر ابن الطيب العلمي كان قد أنشأ قصيدة نبوية،⁽⁹⁾ بدأها بالتشبيب، وذكر المحبوب، وما يعانيه من شدة صده وبعد وصله، وغير ذلك مما أثاره من حنين الصب إلى محبوبه، وخلاله وردت أوصاف فيه تتعلق بالراح والتشبيب بالخمير، كما في قوله :

وَأُرْخِي عِنَانَ الطَّرْفِ فِي رَوْضِ حُسْنِهِ فَأَعْجَبُ مِنْ صَاحٍ وَأَعْيُنُهُ سَكْرَى
تُذَكِّرُنِي رَاحاً بِفِيهِ مُدَامَةً فَتَنْعَطِفُ الْأَغْطَافُ مِنْهُ بِهَا سَكْرَا

.....

أَتَانَا وَخَمَرُ الرِّيقِ حَلَّ شَرَابُهَا وَلَكِنَّهُ فِي شَرْعِهِ حَرَّمَ الْخَمْرَا
فأنكر بعض الشعراء عليه من معاصريه هذا الصنيع، مدعياً تنافر معانيها بما يقتضي المخالفة لصناعة المدح. وحجته أنه يشترط في حق المادح أن يغدو وروح، متغزلاً بما يناسب أوصاف الممدوح،⁽¹¹⁾ إلا أن ابن الطيب العلمي لم يجد لديه ما يرد به هذا الإنكار، ولذلك أحال الأمر على شيخه محمد بن أحمد المسناوي⁽¹²⁾ (ت 1136) فكتب في الموضوع جواباً.

(9) راجع نصها الكامل في : الأنيس المطرب 302 وما بعدها، ومجموع شعره ومطلعهما :

أدرت جفوني من مدامعها درا فنظمتة عقداً وقلدته النحرا

(10) الأنيس المطرب : 303 — مجموع شعر ابن الطيب العلمي.

(11) الأنيس المطرب : 303 — دون تسمية المعترض أو التعريف به.

(12) ترجمته في : إجازته لابن مبارك اللمطي فح خ ح 5812 — الأنيس المطرب 305 — فهرسة

إدريس المنجرة : 74 — فهرسة ابن عبد السلام بناني : 51 — فهرسة ابن مبارك : 10

فهرسة عبد المجيد الزبادي 284 — نشر الثاني 3/ 265 — التقاط الدرر 327 — السلوة

3/ 44 — فهارس علماء المغرب 3/ 746 والمراجع المذكورة — الحياة الأدبية للأخضر

196 والمراجع المذكورة بالهامش.

2) جواب المسناوي: (13)

ويقوم عرض المسناوي في الموضوع على نقطتين اثنتين :
الأولى : إثارة عنصر المناسبة في افتتاح قصائد المدح، والخلوص فيه إلى صحة موقف ابن الطيب العلمي في قصيده. ويعني بالمناسبة ما تعلق الشعراء ومذاهبهم في معالجة المدح وبناء قصائده.

فإذا كان من الضرورة في صناعة المدح تقديم ما يكون مدخلا إلى المدح، فإن مواقف الشعراء في ذلك تتفاوت، «فمنهم من لا يأتي بالغزل الذي أمام مديحه إلا بما يناسب أوصاف ممدوحه». (14) ومثل هذا العمل لا يحتاج معه الشاعر إلى حسن التخلص وإقامة ما يجري عنصر التناسب بين الافتتاح والغرض في قصيدة المدح.

ومنهم «من يطلق عنان لسانه، ويمضي مع هواه لشأنه، ويأتي بما وافق هواه وناسبه، ولا يقف مع المجانسة والمناسبة. فإذا رام الانتقال إلى الثناء انحرف عن الغزل واثنى، لكن بأرق عبارة وأدق إشارة، مع مناسبة المعاني، واتساق التراكيب والمباني، حتى لا يشعر الناظر، بذلك التخلص الصادر...» (15).

غير أن هذا صناعة الفحول، وهو وارد عند أكثر الشعراء، إذ يجولون في موضوع التقديم بما يخرج في بعض الأحيان عن «المجانسة والمناسبة» (16) فيشبهون ويتغزلون، ثم يتخذون رابطا يتخلصون به إلى الموضوع الرئيسي، فيكون «مابعد من المدح هو المقصود لذاته، وما قبله كالباعث على الاصغاء للمديح... وبهذا يعلم أن ما بعد التخلص هو الذي يراد، وأن ما قبله مقدمة أمام المراد، فصح الجواب وبطل المراد» (16).

ومعنى هذا أن اعتراض ذلك المعترض مردود، وأن ما أجراه ابن الطيب العلمي في قصيدة النبوي إنما يسير فيه على صناعة الفحول من الشعراء.

(13) يرد نصه الكامل في الأنيس المطرب : 305 — وفي أجوبة المسناوي المطبوعة على الحجر.

(14) الأنيس المطرب : 306.

(15) الأنيس المطرب : 306.

(16) الأنيس المطرب : 306.

ولكي يتأكد هذا الموقف، كان لابد من حجة ثقيلة تدعمه، ولذلك عمد السنائي إلى إثارة قصيدة حسان بن ثابت التي مطلعها: (17).

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ إِلَى عَذْرَاءٍ مَنَزَلُهَا خَلَاءٌ
وقد شبب «فيها بالخمر، وقدمه أمام غرضه» (18).

والميزة الأكثر إثارة في هذه القصيدة أنه أنشدها بين يدي رسول الله ﷺ «فلم ينكر عليه شيئا من ذلك، ولو كانت مراعاة المناسبة واجبة، لما أقره عليه» (18).

الثانية : عرض مواقف النقاد في افتتاح قصائد المدح بالنسيب، وعلة ذلك. وخلالها يعرض موقفين :

موقف ابن رشيقي : (19) وفيه ينقل السنائي نص ما أورده في كتاب العمدة. وملخصه ما تقدم سابقا من أن للشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب. لما فيه من عطف القلوب واستدعاء الطلب بحسب ما في الطباع من حب الغزل، والميل إلى اللهو، وذلك استدراج لما بعده، (20) على أن منهم من هجم على الموضوع دونما تقديم، وذلك عندهم هو الوثب والقطع، والكسع، والاقتراب. كل ذلك يقال. والقصيدة إذا كانت على تلك الحال فهي بتراء كالخطبة البتراء والقطعاء» (21).

وقد اختلفت في تقدم النسيب طرائق أهل البادية وأهل الحاضرة. لما يجري في طبع كل فريق منهم من أمور، تتعلق بنمط حياتهم، وطريقة معاشهم، ومواقفهم، وتصوراتهم، التي تعرض لهم في ذلك (22).

(17) الأنيس المطرب : 306 / والنص الكامل للقصيدة في ديوان حسان بن ثابت : 71.

(18) الأنيس المطرب : 306.

(19) راجع العمدة 1 / 225.

(20) الأنيس المطرب : 306 — والعمدة 1 / 225.

(21) الأنيس المطرب : 307 — والعمدة 1 / 231.

(22) راجع النص الكامل لامتياز كل فئة على أخرى في : الأنيس المطرب : 307 نقلا عن العمدة 1 / 225.

موقف أبي عبد الله الأليّري⁽²³⁾ : وقد نقل نصه المساوي من شرح البردة للأليّري المذكور. ويقوم ملخصه على أن العادة في افتتاح قصائد المدح بالنسب. وهو عام، «لاتكاد توجد قصيدة في المدح إلا وهي مفتتحة بالنسب»⁽²⁴⁾ ويعلل سبب ذلك بأن النسب في افتتاح القصائد يهيئ النفوس لتنفعل، والقلوب لترقّ. وتنشط، فلا يخلص الشاعر إلى المدح، إلا «والنفوس قد اجتمعت، والقلوب قد رقت وانفعلت، والجوارح قد سكنت. ولذلك يقع المدح منها موقعا، ويجد في قلبها محلا مكيئا وموضعا»⁽²⁴⁾.

وبعُرض هذين الموقفين ينهي المساوي إجابته، وقد تأكد فيها رد الاعتراض السابق لجريان النسب على عادة الشعراء في افتتاح قصائدهم المدحية، بما فيها المنصرفة إلى مدح الرسول ﷺ، وبما فيها الافتتاح الذي مال فيه النسب إلى ذكر الخمر والتشبيب. وهي عادة لها أولية عند شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت، وقد أقره عليها، فلم ينكر عليه من الأمر شيئا.

3) على أن هذه الإجابة إن كان بها من مناقشة المعارض على صنعة ابن الطيب العلمي في قصيدته النبوية، فإنها لم تكن حاسمة في تعيين الموقف الذي يُسكت صوت هذا المعارض بصفة نهائية. فقد أثار المعارض خاصة عنصر المناسبة في قصيد المدح النبوي، وذلك بعدم تلاؤم الحديث عن الخمر ووصفها، ومدح النبي ﷺ، ولم يعترض على عملية التغزل والتشبيب في ذاتها، لاسيما إذا كانت تخدم الغرض الرئيسي، وتقوم على تهيئة النفوس خاصة لتدخل بها إلى عالم المدح النبوي، وقد غشيتها تلك الرقة، وزاحمها ذلك الانفعال، فامتلك الجوارح، واحتوى العواطف.

ولذلك اعتبر النقاد كمال الشاعرية في تحقيق المناسبة، وإصابة الضرب من الافتتاح الذي يقتضيه هذا الغرض دون غيره. لأن كل صنف من القول يقتضي نوعاً من الابتداء، وضرباً من الافتتاح، لا يصلح لغيره. وإنما جعل الابتداء بالنسب سبباً إلى المدح، وسلماً إليه ليحسن الممدوح الإصغاء إلى ما في التشبيب من وصف

(23) توفي الأليّري الأندلسي 781 / وتوجد عدة نسخ مخطوط من شرحه للبردة في الخزائن المغربية الخاصة والعامّة. منها مخطوط 9845 مخطوط خ القرويين 299.

(24) الأنيس المطرب : 307 نقلا عن شرح البردة للأليّري.

النزاع والصبابة وذكر الوجد والغرام إذ كانت النفوس مجبولة على استحسان الغزل والنسيب. (25)

ولذلك كان من المواضيع عند النقاد والبلاغيين ما يجري فيه الحديث عن براعة الاستهلال، وحسن المطالع والابتداء، وحسن التخلص والخروج، وغير ذلك. (26) ويبقى مجال الاعتراض رغم كل هذا قائماً، لأنه يلامس صنفاً من قصائد المدح خاصة، هو مدح الرسول ﷺ، ويعين جانباً من عدم المناسبة في افتتاحيتها القائم خاصة أيضاً على وصف الخمر والتشبيب بها، والحديث عما يقوم معها من وصف لها، أو تصوير لأوائها، أو رسم لمجلسها وساقها، أو تحديد لآثار شربها، وغير ذلك.

4) والملاحظ أن هذا الوضع المثار في مقدمة نبوية ابن الطيب العلمي لم يكن قصة محدودة تولد وتنتهي مع قصيد ابن الطيب هذا، وإنما كان للقضية أوجه تمتد بها، إما على مستوى الابداع الشعري على عهد ابن الطيب العلمي، وإما على مستوى المحاسبة والمناقشة لها في فترات مختلفة من تاريخ النقد العربي.

أ) أما على مستوى الابداع الشعري فقد أكثر الشعراء على عهد ابن الطيب العلمي من قصائد المدح النبوي، وفي كثير من هذه القصائد يجري أصحابها عن العادة في افتتاح قصائدهم بالغزل ووصف المحبوب، وذكر معاناتهم في هجره. وقد اشتهرت بينها مجموعة افتتاحيات كان لأصحابها فيها حديث عن الخمر ووصفها، وذكر ما يتعلق بها من لون ومجلس وأثر. منها :

* قصيدة الشاعر عبد القادر بن شقرون المكناسي⁽²⁷⁾ في المدح النبوي، وقد استهلها صاحبها بالحدث عن الخمر ومجلسه، ووصف الساق وكأسه، وغير ذلك مما يتضاءل بجانبه ما هو قائم في مطلع قصيدة ابن الطيب العلمي المتقدمة الذكر.

(25) قوانين البلاغة : 119.

(26) راجع : باب في المقاطع والمطالع في العمدة 1/ 215 وخزانة ابن حجة 1/ 19، 329.
(27) توفي عام 1143. تنظر ترجمته في : الأنيس المطرب 193 — فهرسة العميري 96 ب — منحة الجبار 290 — مختصر اليتيمة : 77 — مجموع العياشي التستاوني 75 مخ خ م 1928 — مجموع وزان الشعري رقم 371 — مجموع مخ خ ع بالرباط : د 158 الانخاف 5/ 320 — المنزع اللطيف 310 مخ خ ع بالرباط : ج 595 — الحياة الأدبية للأخضر 207 والمراجع المذكورة معلمة بنعبد الله 20/2 والمراجع.

فقد أورد منها في ترجمة صاحبها في الأنيس المطرب منتخبات تقارب خمسين بيتاً، وقدم لها بقوله : ﴿فمن ذلك قوله يتغزل بالرضاب المعسول، ويتخلص إلى مدح الرسول ﷺ وعلى آله وصحبه﴾ وأولها (28).

أَسْقِيَانِي كُؤُوسَ بِنْتِ الدَّوَالِي إِنْ عَرَانِي السَّقَامُ فَهَي الدَّوَالِي
بُنْتُ كَرَمِ رَبِّ عَنَّا قَدْهَا السُّو دَ بِمَهْدِ الْغُصُونِ تَحْتَ الظَّلَالِ

* وقصيدتا أبي العباس التستائوي (29) الأولى وهي اللامية المطولة التي عارض بها دالية اليوسي (30) في مدح الشيخ ابن ناصر، إلا أن التستائوي خصصها لمدح الرسول ﷺ. وقد افتتحها بالوقوف على الربوع، ومساءلة الرسوم. واستدكار العهود، حيث الزمان في عقله من أمره، وخلال له يتحدث عن الساقى وكأس العقار ولثمنها (31).

يَسْقِي عُقْرَاءَ مَالَهُ غَوْلٌ وَلَا يُدْنِي الْمُعَلَّلَ فِي صُدَاعٍ تَحْبُلُ
مِنْ كُلِّ صَهْبَا لَوْ تَنَسَّمَ رِيحَهَا مَيِّتٌ يَعُودُ إِلَى الْمَقَامِ الْأَوَّلِ
فَكَأَنَّهَا فِي كَأْسِهَا دُرٌّ صَفَا وَكَأَنَّ سَاقِيَهَا صَفَاءُ الْمُنْصِلِ
فَإِذَا لَكُمْتُ كُؤُوسَهَا أَصْبَحْتُ فِي عِزٍّ مَنِيْعٍ بِأَسْبَقِ مُتَكَمِّلِ
مُتَمَائِلًا نَشْوَانَ تَزْهُو مُطْرِبًا تَعْلُو عَلَى الْأَقْرَانِ أَمْنَعُ مَثْمِلِ

أما الثانية فهي رائيته النبوية التي نظمها سنة 1090. إذ يرد قوله فيها بعد التشبيب بسلمى بما نصه (32)

مَالِدَةُ الْأَيَّامِ غَيْرَ هَوَى بِكَوَاعِبِ كَالْأَنْجُمِ الزُّهْرِ
وَالْكَأْسُ يَرْمُلُ فِي الطَّوَافِ كَمَا حَدَّ الْمُؤَانِسِ أَوْ سَنَا الْبَدْرِ

(28) الأنيس المطرب : 193، وعنه نقل في الاتحاف 5/ 325 والنص الكامل في مخ خ ع : د 158 وفيه أكثر من 100 بيت.

(29) توفي 1128. تنظر ترجمته المفصلة في الدراسة الجامعية : التستائوي من خلال نزهة الناظر، لأحمد الطريقي/ كلية الآداب بالرباط / موسم 1985.

(30) هي قصيدة التهاني. راجع ديوان اليوسي : ملزمة 3/3 وقد شرحها اليوسي في نيل الأمانى / وقد طبع عدة مرات بمصر.

(31) راجع نزهة الناظر 1/ 62. وطلعة المشتري 1/ 211 وفي تقديم القصيدة تصريح بمعارضة دالية اليوسي.

(32) نزهة الناظر 1/ 59.

ولا شك أن ما جرى في كلام أبي العباس التستائوي من الخمر والتشبيب بسلامي، إنما يحمل على الرمز والاشارة الصوفية.

* وقصيدة الشاعر محمد الطيب بن مسعود المريني،⁽³³⁾ وهي ضمن شعره النبوي⁽³⁴⁾ وقد افتتحها بالحديث عن المدام، والساق، والدعوة إلى مجلس الشراب، يقول فيها: ⁽³⁴⁾

أَدْرِهَا مُتَرَعًا بَيْنَ النَّدَامَى مُدَامًا، دُمْتُ، وَاعْتَنِمِ الْمُدَامَا
وَبَاكِرَ حَضْرَةَ السَّاقِيِ اصْطِبَاحًا وَوَجْهَ الدَّهْرِ يَفْتَرُ اِتِّسَامَا
وَطَبِّ وَاشْرَبْ، وَهَمَّ وَاطْرَبْ سُرُورًا وَلَا تَسْمَعْ مِنَ الْوَاشِيِ كَلَامَا
وَحَلِّ الْعَاذِلِينَ وَعَدَّ عَنْهُمْ وَدَعَّاهُمْ فِي غَبَاوَتِهِمْ نِيَامَا
وَكُنْ يَاصَاحَ مِقْدَامًا جَسُورًا فَمَنْ رَاعَى الْوَرَى حَرَمَ الْمَرَامَا

.....

نَعَمْ فِي الرَّاحِ رَاحَةٌ كُلُّ قَلْبٍ مَشُوقٍ فِي بَحَارِ الْحُبِّ هَامَا
* وقصيدة الأديب القاضي عبد الواحد بن محمد البوعناني⁽³⁵⁾ في المدح النبوي وقد افتتحها بما يعاينه من ألم هجران محبوبه. وخلال ذلك يعرج وبشكل سريع على الخمر والحديث عليها. وأول قصيدته: ⁽³⁶⁾

دَمْعُ عَيْنِي فَوْقَ حَدِّي ائْتَرُ وَجُفُونِي قَدْ أَبَتْ إِلَّا السَّهْرَ
وَفُؤَادِي فِي اكْتِثَابٍ وَأَسَى وَضُلُوعِي فِي ضِرَامٍ وَضَرَّرَ

(33) توفي 1145. تنظر ترجمته في: الأنيس المطرب 39 — المسلك السهل: 53 — كناشة بنسودة 39 المقصد الأحمد 374/2 — نشر الثاني 357/3 — النقاط الدرر 358 — الاكليل والناج 46 — السلوة 123/3 — دليل بنسودة 226/1 و 408/2، 412 وقد سمى ديوانه: المقصد المحمود والمنهل المورود.

(34) ترد أشعاره النبوية ضمن مجموع بمكتبة عبد الله الشريف بوزان رقم 371 راجع مجموع وزان: 30.

(35) توفي 1106 تنظر ترجمته في: فهرسة إدريس المنجرة: 23 — نشر الثاني 66/3 النقاط الدرر 266 — الاستقصا 74/7 — سلوة الأنفاس 200/1 — وتود أعماله شعرا ونثرا في: مجموع: مخ خ ع: د 158 — وكناشة بنسودة مخ خ ع: د 163 — ومجموع وزان رقم 371 وغيرها.

(36) مجموع وزان: 66.

كَيْفَ لَا أُمَزُجُ دَمْعِي بِدَمٍ وَالَّذِي مَلَكَتُهُ قَلْبِي هَجَرَ
بَعْدَ وَصْلٍ وَتَعَاطِي أَكُوسٍ مِنْ مُدَامٍ فِي نَهَارٍ وَسَحَرٍ

ب) أما على مستوى المحاسبة النقدية، فإن الموقف في افتتاحية قصيدة المدح النبوي لم يكن ليترك دون تقنين تتحدد به أوجه المناسبة، وظروفها، ومستوياتها في هذه الافتتاحية.

فقد تقدم لابن حجة وهو يتحدث على براعة الاستهلال في شرح بديعته⁽³⁷⁾ أن وقف وقفة متأنية، يوجه فيها ظروف المناسبة في النبويات بقوله : «وهو ان الغزل الذي يصدر به المدح النبوي يتعين على الناظم أن يحتشم فيه، ويتأدب، ويتضائل، ويتشبه مطربا بذكر سلع. ورأمة، وسفح العقيق. وي طرح ذكرى محاسن المرد، والتغزل في ثقل الردف، ودقة الخصر، وبياض الساق، وحمرة الخد، وخضرة العذار، وما أشبه ذلك»⁽³⁸⁾، إلا أنه يختم هذا التقنين بالإشارة إلى قلة من سلك هذا الطريق من أهل الأدب.

وإذا كان ابن حجة وهو يقيم نظرية الافتتاحية النبوية، فيرسم حدود العمل فيها، وما جريات الصنعة الشعرية حولها، فإنه يورد من النماذج التي استحسناها من شعره، وشعر غيره، مما كان كمال الصنعة فيها يسير على ضوء التقنين المقدم ذكره، ويذكر من بين هذه النماذج بعض البديعيات، وضمنها بديعته التي تعتبر قصيداً مدحياً قبل أن تكون متناً علمياً لقواعد البديع وصناعة الأدب.

وهكذا يحاسب وبشدة صنعة السري الرفاء⁽³⁹⁾ في افتتاحية قصيدته التي مدح بها الخلفاء القاطمين والرسول ﷺ، وتعرض فيها لمقتل الحسين،⁽⁴⁰⁾ فخرج «القلوب بندبه الحسين عليه السلام»⁽⁴¹⁾، إلا أنه قدمها بما لا يليق بها من

(37) راجع خزانة الأدب 30/1 وما بعدها.

(38) خزانة الأدب 36/1.

(39) توفي 362 — تنظر ترجمته في : مقدمة التحقيق لكتابه الحب والمحجوب 36/1 والمراجع المذكورة.

(40) ديوان السري الرفاء : 2 / 716 رقم القصيدة : 402.

(41) خزانة الأدب لابن حجة : 39/1.

الأغزال، ومالا يصلح أن يكون غزلا لمديح قصيد نبوي، فجعل من مطلعها الدعوة الصريحة إلى تجاوز الزمان وفعله، والتطلع إلى التعلّة بشرب الخمر المشعّشة بماء المزن. وأولها :

نَطُوي اللَّيالي عِلْماً أَنْ سَتَطُونَا فَشَعْشَعِيهَا بِمَاءِ الْمُزْنِ وَاسْقِينَا
«وما كفاه حتى قال بعد ذلك

وَتَوَجِّي بِكُؤُوسِ الرَّاحِ رَاحَتَنَا فَأَنَّمَا خُلِقَتْ لِلرَّاحِ أَيْدِينَا
قَامَتْ تَهْزُرُ قَوَاماً نَاعِماً سَرَقَتْ شَمَائِلُ الْبَانِ مِنْ أَعْطَافِهِ اللَّيْنَا
تُدِيرُ خَمِراً...

فَلَسْتُ أَذْرِي أَتَسْقِينَا وَقَدْ تَفَعَّحَتْ رَوَائِحُ الْمِسْكِ مِنْهَا أَمْ تُحَيِّنَا⁽⁴²⁾.

وإذا كان عدم تقبل هذا الموقف لعدم مناسبته للمدح النبوي قد برّر هذه المواجهة الحاسمة لقصيدة السرى الرفاء، وانتقاد صنعة صاحبها فيها، فإن ما يقارب هذا الانتقاد نجده في أعمال سابقة في المديح النبوي، وإن لم يكن بشكل صريح، مما يكشف عن موقف التخرج الذي رافق الشعراء على اختلاف مستوياتهم وأعصارهم في افتتاحية قصائدهم النبوية.

فمن المعروف أن أولى القصائد في المديح النبوي هي همزية حسان، وبانت سعاد لكعب بن زهير، وفيهما معاً جرى ذكر الخمر ووصفها والتشبيب بها. ففي همزية حسان في قوله⁽⁴³⁾.

كَأَنَّ حَبِيبَةً مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ يَكُونُ مِرَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ

...

نَوَلَّيْهَا الْمَلَامَةَ إِنَّ الْمَنَّا إِذَا مَا كَانَ مَعْتُ أَوْ لَحَاءُ
وَنَشْرِبُهَا فَتَتَرَكْنَا مَلُوكاً وَأُسْداً مَا يُنْهِنُهَا اللَّقَاءُ

أما في «بانت سعاد» ففي قوله، وقد استطرد من التسيب إلى الحمرة⁽⁴⁴⁾

(42) خزانة الأدب لابن حجة : 1 / 39. ونقل الموقف بنصه : الشمس النواجي في مقدمة صناعة النظم والنثر : 70.

(43) راجع نص الهمزية كاملاً في : ديوان حسان 71 وما بعدها.

(44) ديوان كعب بن زهير : 7.

تَجْلُو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَأَنَّهُ مِنْهُلٌّ بِالرَّاحِ مَعْلُولٌ
شَجَّتْ بِذِي شِمٍ مِنْ مَاءٍ مَحْنِيَةٍ صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولٌ

وفي نظر زكي مبارك أن «هذا الاستطراد من النسيب إلى الخمریات كان معروفا في الجاهلية... و... ان هذين الشاعرين لم يغيرا شيئا من المذاهب الشعرية حينما خاطب النبي ﷺ، ولم يتورعا عن ذكر الخمر والنساء والتحسر على ملاعب الشباب وليس هذا بغريب، فإن المذاهب الأدبية لا تتغير في عام أو عامين، ومن الاسراف أن ننتظر ذلك» (45).

وقد اعتبر زكي مبارك أن هذا سيصبح من المؤلف في القصيدة النبوية عند المتأخرين من الشعراء، إلا أنه إن «كان عند هذين الشاعرين من الحقائق» (45) فإنه «سيصير عند المتأخرين من الرمزيات» (46).

ورغم جريان هذين الشاعرين على ما أسماه زكي مبارك بمذاهب الشعر (47) المعروفة في الجاهلية فإن التحرج الذي رافق هذا الموقف في القصيدة النبوية لم يسلم منه حتى حسان بن ثابت. فقد وجه حسان بفتيه يشربون الخمر، وقد احتجوا عليه ببيته الشعري.

وَنَشْرَبُهَا فَتَرَكْنَا مُلُوكًا وَأُسْدًا مَا يُنْهِنُهَا اللَّقَاءُ
فقال : «هذا شيء قلته في الجاهلية، والله ما شربتها منذ أسلمت» (48).

بل ان راوية ديوانه عند عرض هذه القصيدة يعقب على البيت «ونشربها فتركنا...» بما نصه : «وقال العدوى : قال حسان القصيدة إلى هذا الموضع في

(45) المدائح النبوية : 35.

(46) المدائح النبوية : 36.

(47) ينفي الدكتور عطوان أن تكون هناك قصيدة جاهلية في المدح اقتضت بمقدمة خمرية، باستثناء معلقة عمرو بن كلثوم، وفيها كلام كثير. وهذا يدعو إلى المناظرة بين ما يذكره زكي مبارك من المذاهب الشعرية، لحصول التعارض بين الموقفين، إلا أن يكون قصد زكي مبارك فقط ما ينجر إليه الاستطراد في الافتتاحيات الغزلية والطليلية إلى ذكر الخمر — وهو كثير في قصائد الجاهليين — فحينئذ يرتفع التعارض — راجع مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي : 173.

(48) الاستيعاب لابن عبد البر : 1 / 341.

الجاهلية، ثم وصلها بعد بهذا القول في الاسلام» (49).

أما قصيدة كعب بن زهير — بانت سعاد — فإن أكثر المعارضين لها قد فاجأهم موقف التحرج عند معارضة البيت (50).

....
كأنه مَنهَلٌ بالِّراحِ مَعْلُولُ

وربما كان أقربهم إلى كعب هو قول الأبيوردي (51)

كأنما ريقها وَالْفَجْرُ مُبْتَسِمٌ فيما أَظُنُّ بِصَفْوِ الرَّاحِ مَعْلُولُ
صَدَّتْ وَوَقَّرَ فِي شَيْبِي فَمَا أَرَبِي صَهْبَاءُ صِرْفٌ وَلَا عَيْدَاءُ عَطْبُولُ
إلا أنه عبر عن انصرافه عنها وتمنعه عليها لوقاره وشبيهه،

وانطلاقاً من هذا التحرج فإننا لانجد عند أشهر شعراء المدح النبوي مثل
الصرصري والبوصيري ما يمكن أن يمثل ولو إحالة واحدة على الخمر في افتتاحية
الاشعار النبوية عندهما (52).

ثالثاً — قضية التجنيس والصناعة الأدبية :

من هذه المخاصمات أيضاً قضية التجنيس وصناعة الأدب، وتتلخص القضية
فيما أورده علي مصباح في كتابه سنا المهتدي وهو يشرح أحد أبيات قصيدته
التي مدح بها الوزير اليعمدي في قوله (53).

صُنِعَ أَمْرِي لَيْسَ فِي التَّجْنِيسِ هِمَّتُهُ إِلَّا إِذَا دُونَ قَصْدٍ لَهُ جَانَا
فيثير في الحديث عن البيت وشرحه مواقف ثلاثة :

(49) ديوان حسان : 73.

(50) راجع معارضات هذا البيت ضمن بقية المعارضات في المجموعة النهائية : 31/3 للابوردي /
و 38/3 لأبي الفضل التنوخي (ت 643) — و 84/3 للجمال ابن نباتة (ت 768) و
90/3 لابن جابر الأندلسي و 116/3 لعز الدين الموصلي (ت 790) و 143/3 للشهاب
القلقشندي (ت 821) و 149/3 للشمس التواجي (ت 859).

(51) المجموعة النهائية 31/3 — وراجع ديوان الابوردي : 1/99.

(52) راجع في هذا كتاب المدايح النبوية بين الصرصري والبوصيري للدكتور مخيمر صالح / الدار
العربية عمان / ودار ومكتبة الهلال. بيروت / الطبعة الأولى 1406 — 1986.

(53) سنا المهتدي 105 ب / ونص القصيدة بالكامل في : سنا المهتدي 86 ب والاتحاف
4/ 112 وديوان علي مصباح : 41 — وقد تقدمت الاحالة على مظان ترجمة علي مصباح.

الموقف الأول :

ما تعلق به وبشعره في استعمال الجنس، ويأتي ذلك من خلال انتقاد بعضهم له بأنه لا يُجنس في شعره، كما يفعل بعض معاصريه من الشعراء⁽⁵⁴⁾، إلا أن علي مصباح حين يجيب المنتقد، يركز على نقطتين :

الأولى : استكراهه لعملية التجنيس وترفعه عنها على اعتبار أنها ابتذال للنفس بالوقوع في سفساف القول وركيك الشعر. وفي نظره فإن عملية التجنيس قد استهجنها علماء الشعر، ولاسيما إذا كانت بصفة الكثرة لما فيها من التكلف ومنافاة طبع الشاعرية⁽⁵⁴⁾.

الثانية : اقتداره على صنع التجنيس في شعره بمستوياته المختلفة وصناعاته المتعددة، وإيراد نموذج في شعره وقد صنع فيه من نماذج التجنيس المستعصية ما ينزل به إلى كلام هذا المنتقد لأجل إفحامه.

وهكذا صنع قصيدة من أحد عشر بيتاً، أولها⁽⁵⁵⁾

لِلَّهِ نَارُ الْحُبِّ قَدْ غَيَّرَتْ أَحْوَالَنَا مُذْ لَاحَ أَحْوَى لَنَا
وقد التزم في كب بيت منها أن يقيم جناساً مركباً من الصنف المرفو،⁽⁵⁶⁾
وهو أصعب أصناف الجنس صناعة. ويقوم على أساس أن إحدى المتجانستين فيه تتركب من كلمة أو أكثر وقد يصبح الركنان المتجانسان مركبين، وهو كما أسماه ابن حجة بالملفق، ووصفه بصعوبة المسلك، «وهو عزيز الوقوع ولكن له رونق وموقع في الذوق لطاوة تركيبه وغرابة أسلوبه»⁽⁵⁷⁾، فيحصل فيه من التوهم للقارئ والسماع ما يتبادر معه ان المقصود منه نفس الكلمة المجانسة الأولى

(54) سنا المهتدى : 106أ.

(55) الأبيات في سنا المهتدى : 106 — وديوان علي مصباح : 11.

(56) راجع خزانة الأدب لابن حجة 1/ 60 وفيه أن يكون أحد الركنين (المتجانسين) جزءاً مستقلاً والآخر جزاً من كلمة أخرى. وعرض له أيضاً في الملفق 1/ 69 وانتقد اصطلاحه — وراجع حسن التوسل 190 — ويسميه في العمدة بالمنفصل 1/ 228. وهذا الصنف أعجب به المحدثون وأكثروا منه كما في العمدة 1/ 228.

(57) خزانة الأدب 1/ 68. وهو موقف يخالف تماماً ما عند ابن رشيق في العمدة 1/ 229.

لاتحاد الصيغة الصرفية والنطق الصوتي فيها قبل أن يتم التفطن إلى مغايرة المجانستين تركيباً ودلالة. وبذلك ينطبق عليه من التوهم ما ينطبق على صنف المذيل من التجنيس أيضاً.⁽⁵⁸⁾ وهذا هو مبعث الجمال وعنصر الاثارة فيه. وهكذا جانس علي مصباح في هذه الأبيات ما يظهر في الجدول التالي⁽⁵⁹⁾.

البيت الشعري	الركن الأول من المجانسة	الصيغة والميزة	الركن الثاني من المجانسة	الصيغة والميزة
1	أحوالنا	كلمة واحدة مستقلة	أحوى لنا	مركبة
2	أوحى — لنا	مركبة	أوحا لنا	كلمة واحدة
3	أقوالنا	كلمة واحدة مستقلة	أقوى — لنا	مركبة
4	أو — راقنا	مركبة	أوراقنا	كلمة واحدة مستقلة
5	أو — مالنا	مركبة	أو ما — لنا	مركبة (مخفف أو مأ)
6	أوصى — لنا	مركبة	أوصالنا	كلمة واحدة مستقلة
7	حاشنا	كلمة واحدة مستقلة	إحاشنا	كلمة واحدة مستقلة
8	أو — زارنا	مركبة	أوزارنا	كلمة واحدة مستقلة
9	لا منا	كلمة واحدة مستقلة	آلامنا	كلمة واحدة مستقلة
10	منها — جنى	مركبة	من — هاجنا	مركبة

(58) أنوار التجلي 1/ 87 رسالة جامعية مرقونة — وعن المذيل راجع: أنوار التجلي 1/ 86 — وخزانة ابن حجة 1/ 70، وفيه «أنه ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرفاً من آخره فصار له كالذيل». وهو غير المطرف الذي تكون زيادة الحرف فيه من الأول — والعمدة 1/ 325 وسماء التجنيس بالمضارعة — وقانون البلاغة 88 وسماء بالناقص — وحسن التوسل: 187.

والتداخل بين كتب البديع في مصطلحات التجنيس ظاهر إلى حد كبير.

(59) راجع النص كاملاً في سنا المهتدى: 106 أ.

ويكشف هذا الجدول مدى قدرة علي مصباح في تحصيل عملية التجنيس في كل بيت من أبياته، وبنائه ذلك على ما يقوم به جانب التركيب في إحدى المتجانستين وهو عمل صناعي مارسه علي مصباح لمجرد التحدى وإثبات القدرة في الصناعة الشعرية عنده.

الموقف الثاني :

ما انتقده على أدباء عصره ومن أدركهم من الجيل السابق عنهم، اتخاذهم التجنيس وسيلة للصناعة الأدبية، وتبعهم لما يمكن أن يقوم به في أعمالهم من مظاهر، وصرف وجهتهم إليه لتحقيق عناصره وآثاره، وذلك على اعتبار أنه — في نظرهم — يمثل مظهر الشاعرية وعنوان بروزها، وبه يقاس شعر الشاعر فيظنون «أن لم يجنس في شعره — فهو — عاجز عنه. ولو قدر عليه لارتكبه»⁽⁶⁰⁾.

وعلى أساس هذا الموقف يشدد نقده لهذه الفئة من الأدباء فيقطعن في شاعريتهم، ويقدم في اختيارهم، ويستخف ذوق من يتقبل منهم شعرهم القائم على صناعة التجنيس.

والملاحظ أن علي مصباح وهو يوجه نقده لأيعين شاعراً باسمه، ولا طائفة محددة، وإنما يترك الأمر عاماً يشمل جيلاً بأكمله، فيقول : «وسمعنا لقوم أدركناهم يزعمون الشعر ويدعون الأدب والاقتدار على البلاغة، وهم أدعياء في الأدباء ودخلاء في الشعراء، لم يشموا للمعاني رائحة، صم بكم عمي فهم لا يعقلون، فتراهم يتعبون أنفسهم ويشقونها في تتبع التجنيس ويصرفون وجهتهم إليه حتى لا يكاد يفلت لهم، ذاهلين عن تتبع المعاني اللطيفة، والاشارات الدقيقة، ونظم الحكيم، وضرب الأمثال، فيأتون بأشعار يستحسنها لهم من كان جاهلاً مثلهم، غيباً، ضعيفاً، قصير الباع في الصنعة، مجزي البضاعة»⁽⁶¹⁾.

ومعنى هذا أن علي مصباح بانتقاده هذا إنما يحاكم ذوق عصر في مجال الأدب، فيحاسب مذهباً أدبياً رائجاً في صناعة هذا الأدب واختيار قيمه الجمالية، لا سيما في بيئة كبيئة المغرب في القرن الحادي عشر وما بعده إذ أصبح الأدب فيها ثقافة

(60) سنا المهتدى 106أ.

(61) سنا المهتدى : 106أ.

تكتسب وتستفاد، ومهارات ترتبها حقائق وقواعد اللغة والأدب وعلوم الآلة، وصناعة تهيأ من الدرس أولاً، والالحاق في الممارسة ثانياً، فلا يكون للمملكة فيها مجال كبير، ولا للطباع أثر يذكر أيضاً.

وحينما ينتقد علي مصباح صناعة التجنيس في الأدب ويزري بمذاهب أصحابها إنما ينطلق في ذلك من مبدأ هو اعتبار مذهب الفحول من الأدباء وأرباب الصناعة من البلاغيين والنقاد بأن الجنس عمل يقوم على الزخرف يلفظه الطبع ويرفضه الذوق ويمحه السمع، وقل ما يسلم من العقادة والتكلف، فلا يتأق إلا بصناعة تؤدي «إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة في مضمار المعاني المبتكرة»⁽⁶²⁾ «ولأن أصحابه يذهلون به عن «المعاني اللطيفة والاشارات الدقيقة ونظم الحكم وضرب الأمثال»⁽⁶³⁾، فيغرقون في الفراغ وقلة الفائدة، وكثرة التكلف»⁽⁶⁴⁾ ولذلك لم يباشر القدماء من الشعراء التجنيس إلا في حدود، حينما يسمح به الطبع، ويجري إليه الذوق السليم. وقد ذكر ابن حجة أنه تصفح ديوان المتنبي، فلم يجد لوافد هذا النوع نزولاً إلا ما قل في أبياته، وهو نادر جداً، ولا العرب من قبلها خيمت بأبياتها عليه⁽⁶⁵⁾ : «لهذا لم يكن الجنس من مذهبه، ومذهب من سار على منوالهم من الأدباء.

وقد سبقه في ذلك ابن رشيق حين رأى أن أكثر التجنيس يكون «مقصوداً إليه مأخوذاً منه ما سمحت فيه القرينة وأعان عليه الطبع»⁽⁶⁶⁾.

وهذا ما حاول أن يركز عليه علي مصباح في تصويره للجناس بقبة «مشيدة مزوقة... فإذا رآها الراي من خارج، ملأت عينه واهتز لها عطفه، حتى إذا اختبرها، وعلم باطنها، قذفها طبعه، ومجّها سمعه وبصره»⁽⁶⁷⁾.

(62) خزانة الأدب لابن حجة 1/ 54.

(63) سنا المهتدى : 106.

(64) وهو موقف ابن رشيق أيضاً. راجع العمدة : 1/ 329.

(65) خزانة الأدب لابن حجة 1/ 54.

(66) العمدة 1/ 330.

(67) سنا المهتدى : 106.

وبهذا كان التجنيس هو الصنف البديعي الذي تثار معه نماذجه المعيبة، حين يترجم به النقدة في كتب النقد والبديع. فابن المعتز يعقبُ على ذكر التجنيس الجميل بما هو معيب به في قول المحدثين⁽⁶⁸⁾.

ويفعل نفس الفعل صاحب الصناعتين، فيضيف إليه من المعيب في شعر المتقدمين أيضاً⁽⁶⁹⁾.

الموقف الثالث : تحديد مفهوم التجنيس :

ينطلق فيه أول مرة من تعريف التجنيس والتذكير به فقد جعل حده «بأنه اتفاق اللفظين أو الألفاظ في جميع الحروف أو أكثرها مع اختلاف المعنى»⁽⁷⁰⁾ وهذا التعريف يكاد يجمع أصناف التجنيس المختلفة، إذ يتركب من لفظين أو أكثر في المركب فتتفق فيه جميع الحروف كما في المماثل أو المستوفي التام، أو المركب المرفو، أو في جلها، كما في المذيل والمطرف الناقص، وغيرها من أصناف التجنيس⁽⁷¹⁾. والشرط الأساسي في هذا التعريف هو أن تختلف المعنى بين الألفاظ المتجانسة فيخرج منها ما يقوم بالاشتقاق الذي اتحدت معاني مشتقاته، «وليس المأمور والأمر والمطيع والمطاع من التجنيس، لأن الاختلاف بين هذه الكلمات لأجل أن بعضها فاعل وبعضها مفعول به، وأصلها إنما هو الأمر والطاعة، وكتاب الأجناس الذي جعلوه لهذا الباب مثلاً لم يصنف على هذا السبيل، ويكون المطيع مع المستطيع، والأمر مع الأمير تجنيساً»⁽⁷²⁾.

(68) بديع ابن المعتز : 34.

(69) الصناعتين : 343.

(70) سنا المهتدى : 105 ب / وتختلف تعابير التجنيس عند النقاد والبلاغيين بصورة يتفاوت بها مفهوم التجنيس في بعض أصنافه / راجع العمدة 1 / 321 — بديع ابن المعتز 25 — نقد الشعر لقدماء 163 — قوانين البلاغة 86 — الصناعتين 330 حسن التوسل : 183 — خزانة الأدب لابن حجة 1 / 54 — أنوار التجلي 1 / 56.

(71) أتى على ذكر هذه الأصناف في : العمدة 1 / 321 وما بعدها، وقد انفرد باصطلاحاته — وحسن التوسل 183 — وخزانة الأدب لابن حجة 1 / 67 — وبديعية الحلي وشروحها : شرح الحلي : 4 غ خاصة بمكثتي — أنوار التجلي 1 / 82 وما بعدها — الصنيع البديع لابن زاكور 175 مع الخزانة الحمزاوية رقم 167.

(72) الصناعتين : 330 وكتاب الأجناس المذكور هو للأصمعي. ويعتبر اليوم في حكم المفقود.

وقد اعتمد على هذا الشرط أكثر من تحدّث عن التجنيس، غير أن هناك من اعتبر الاشتقاق من نفس اللفظ تجنيساً⁽⁷³⁾.

وقد أضاف مصباح لهذا التعريف شرطاً ثانياً في قوله : «وشرط كونه تجنيساً عدم بُعْد ما بين اللفظين، يكونان في جملة أو جملتين متصلتين، أو في بيت أو بيتين متصلين»⁽⁷⁴⁾.

وهو شرط لا بد منه لتكتمل عملية التجنيس، إذ لا بد فيه من كلمتين أو أكثر، ولكي يحصل بينهما جناس لا بد من تقارب وضعيتهما داخل السياق، بحيث تذكر إحداها بالأخرى، وتثير الانتباه بتوحد موادها كلياً أو جزئياً، حروف ملفوظة، وصياغة صرفية متماثلة، وإذا كان التجنيس في النثر قد يحدث بين كلمات جملة واحدة، أو بين كلمات جملتين متقاربتين غير بعيدة عن بعضها، فإنه في الشعر يحدث في نطاق البيت الواحد، وقد يحدث في نطاق بيتين، فبنى عليه قافية البيتين كما في التجانس المنفصل أو المفروق والمرفوء.⁽⁷⁵⁾ وهو الصنف الذي افتنن به المتأخرون وجرى في إشعارهم كثيراً، واعتبروه صناعة فائقة ومهارة زائدة، وفي نظر ابن حجة ان «هذا النوع لا يخلو من تعسف ونقادة في التركيب»⁽⁷⁶⁾.

ولم يخف ابن رشيّق رفضه لهذا الصنف التجنيسي إذ جعله صنعه «من أبواب الفراغ وقلة الفائدة وهو مما لا يشك في تكلفه، وقد أكثر منه هؤلاء الساقاة المتعقبون في نثرهم ونظمهم حتى بردوا وركّوا»⁽⁷⁷⁾.

(73) قوانين البلاغة 87 ويسمى هذا بالمطابق.

(74) سنا المهدي 105 ب.

(75) هي تسميات مختلفة لشيء واحد. ففي العمدة 1/ 329 يسميه المنفصل/ وفي حسن التوسل 189 يسميه المفروق / ويسميه أيضاً 191 : المرفوء.

(76) خزانة الأدب لابن حجة 1/ 60.

(77) العمدة 1/ 329.

لائحة المصادر والمراجع

- (1) الأتحاف لابن زيدان / ط الرباط 1352 — 1933.
- (2) الاكليل والتاج لمحمد بن الطيب القادري / فخر خ ح رقم 897.
- (3) التقاط الدرر لمحمد بن الطيب القادري / تحقيق : د. هاشم العلوي / دار الآفاق / بيروت 1403 — 1983.
- (4) أنوار التجلي لعبيد الله بن أبي القاسم الثعالبي الفاسي / تحقيق أحمد بن حريبط / رسالة جامعية مرقونة / كلية الآداب / فاس.
- (5) الأنيس المطرب لابن الطيب العلمي / طبعة فاس على الحجر.
- (6) الإعلام للمراكشي / المطبعة الملكية / الرباط 1974.
- (7) الاستقصا لأحمد بن خالد الناصري / تعليق ولدي المؤلف / الدار البيضاء / 1955.
- (8) البديع لابن المعتز / نشرة اغناطيوس كراتشوفسكي / دار الحكمة / دمشق.
- (9) التستاوتي من خلال نزهة الناظر / أحمد الطريق / رسالة جامعية مرقونة / كلية الآداب / الرباط.
- (10) حسن التوسل إلى صناعة الترسل للشهاب محمود الحلبي / تحقيق أكرم عثمان يوسف / دار الرشيد للنشر / العراق / 1980.
- (11) الحياة الأدبية للدكتور محمد الأخضر / البيضاء / 1977.
- (12) خزانة الأدب لابن حجة الحموي / شرح عصام شعيتو / دار الهلال / بيروت 1987.
- (13) دليل مؤرخ المغرب لعبد السلام ابن سودة / دار الكتاب / الدار البيضاء / 1960.

- 14) ديوان الأبيوردي / تحقيق د.عمر الأسعد / مؤسسة الرسالة / بيروت 1407 — 1987.
- 15) ديوان حسان بن ثابت / تحقيق د.سيد حنفي حسنين / دار المعارف / مصر / 1983.
- 16) ديوان كعب بن زهير رواية السكري / تحقيق جماعة / الدار القومية للطباعة / مصر 1950.
- 17) ديوان علي مصباح / تحقيق محمد الحسني / رسالة جامعية مرقونة / كلية الآداب فاس.
- 18) ديوان السري الرفاء / تحقيق حبيب حسين الحسيني / دار الرشيد / العراق 1981.
- 19) ديوان اليوسي / طبعة فاس علي الحجر.
- 20) ذكريات مشاهير رجال المغرب / عبد الله كنون الحسيني / دار الكتاب اللبناني / بيروت.
- 21) رحلة أبي سالم العياشي أو ماء الموائد / طبعة فاس علي الحجر.
- 22) رسائل اليوسي / جمع وتحقيق / فاطمة خليل القبلي / دار الثقافة / الدار البيضاء / 1401 — 1981.
- 23) طلعة المشتري لأحمد بن خالد الناصري / طبعة فاس علي الحجر.
- 24) كناشة بنسودة / مخ خ ع : د 163.
- 25) مجموعة العياشي التستاوتي / مخ خ ح 1928.
- 26) مجموع وزان الشعري / مخ خ وزان رقم 371.
- 27) مجموع أدبي / مخ خ ع : د 158.
- 28) مجموع شعر ابن الطيب العلمي / جمع وتحقيق : عبد الرحيم الراجي / رسالة جامعية مرقونة / كلية الآداب الرباط.
- 29) المجموعة النبهانية في المدائح النبوية / جمع يوسف النبهاني / دار الفكر / بيروت / لبنان.

- (30) المحب والمحبوب للسري الرفاء / تحقيق مباح غلاونجي / مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق / سوريا / 1406 — 1986.
- (31) مختصر اليتيمة للمكي بن المعطي الشريقي / مصورة خاصة.
- (32) المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري للدكتور مخيمر صالح الدار العربية عمان / ودار مكتبة الهلال / بيروت / الطبعة الأولى 1406 — 1986.
- (33) المدائح النبوية للدكتور زكي مبارك / مطبوعات دار الشعب / القاهرة 1391 — 1971.
- (34) المنزعة اللطيف لابن زيدان / مخ خ ع : ج 595.
- (35) منحة الجبار للبصري المكناسي / مصورة خاصة.
- (36) المصادر للأستاذ المتوني / منشورات كلية الآداب الرباط 1404 — 1983.
- (37) معجم المطبوعات المغربية لادريس بلماحي الادريسي القيطوني / مطابع سلا 1988.
- (38) معلمة عبد العزيز بن عبد الله (الموسوعة المغربية للأعلام البشرية) مطبوعات وزارة الأوقاف 1975.
- (39) مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي للدكتور عطوان / دار المعارف / مصر 1970.
- (40) المقصد لأحمد لعبد السلام القادري / طبعة فاس علي الحجر.
- (41) مقدمة في صناعة النظم والنثر / للشمس محمد بن حسن النواحي / تحقيق : د. محمد بن عبد الكريم / دار مكتبة الحياة / بيروت / لبنان.
- (42) المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل / للصغير الافراني / طبعة فاس علي الحجر.
- (43) نزهة الناظر لأبي العباس التستائوي / مخ خ ع بتطوان رقم 10 — 11.
- (44) نقد الشعر لقدامة / تحقيق د. كمال مصطفى مكتبة الخانجي / مصر / 1963.

45) نشر المثاني لمحمد بن الطيب القادري / تحقيق د. حجي والتوفيق / ط. الرباط.

46) الصناعتين لأبي هلال العسكري / تحقيق علي البجاوي وأبي الفضل إبراهيم / نشر عيسى البابي الحلبي / مصر 1971.

47) الصنيع البديع لابن زاكور الفاسي / مخ خ الحمزاوية رقم 167.

48) العمدة لابن رشيقي / تحقيق محي الدين عبد الحميد / دار الجيل / بيروت / ط 4 / 1972.

49) فهارس علماء المغرب للدكتور عبد الله المرابط الترغي / رسالة جامعية مرقونة.

50) فهرسة أبي القاسم العميري / مصورة مخ خ ح 905.

51) فهرسة ابن مبارك اللمطي / مخ خ ع : ح 101 ضمن مجموع.

52) فهرسة إدريس المنجرة / مصورة خاصة.

53) فهرسة عبد المجيد الزبادي.

54) فهرسة محمد بن عبد السلام بناني / مصورة خاصة.

55) فهرس الفهارس والاثبات للشيخ عبد الحي الكتاني / طبعة دار الغرب / لبنان.

56) قوانين البلاغة لأبي الطاهر بن حيدر البغدادي / تحقيق محسن عياض عجيل / مؤسسة الرسالة / بيروت 1981.

57) سلوة الأنفاس للشيخ محمد بن جعفر الكتاني ط. فاس علي الحجر.

58) سنا المهتدي إلى مفاخر الوزير اليعمدي / لعلي مصباح الزرويلي / مخ خ ح : ز 11095.

59) شرح الحلي لبديعته / مخ خاصة / مع الاعتماد على النص المحقق / مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

تقييم مصادر التاريخ الاجتماعي للأندلس خلال عصري الطوائف والمرابطين مع تحليل نماذج منها^(٥)

د. محمد بن عبود وذ. مصطفى بنسباع

كلية الآداب — تطوان

سوف نتطرق لموضوع المصادر الاجتماعية للأندلس خلال عصري الطوائف والمرابطين في إطار إشكالية المصدر التاريخي للأندلس خلال العصر الوسيط، عموماً ذلك أن المصدر الاجتماعي هو مصدر تاريخي بالدرجة الأولى.

وبما أن هناك مشاكل متعددة ذات ارتباط بالمصدر التاريخي تواجه المؤرخ المتخصص في التاريخ الأندلسي شأنه في ذلك شأن أي مؤرخ متخصص في تاريخ الغرب الإسلامي خلال «العصر الوسيط» عموماً، رأينا أن نخصص القسم الأول من هذه المساهمة لإشكالية التوثيق في التاريخ الأندلسي عموماً، مع التركيز على القرن الخامس الهجري على وجه الخصوص.

تنقسم هذه المساهمة إلى قسمين أولهما حول مسألة التوثيق للأندلس خلال القرن الخامس الهجري، وثانيهما حول تحليل نصوص مختارة من نوازل ابن الحاج في موضوع نفقة المرأة المطلقة. ويتجلى الغرض من هذا التقسيم في معالجة الإشكالية النظرية العامة قبل الشروع في معالجة الجانب التطبيقي منها.

(٥) قدم هذا العرض في الملتقى المغربي الإسباني الثالث للدراسات الأندلسية الذي نظّمته وزارة الشؤون الثقافية بمراكش يومي 23 و 24 نونبر 1992.

إن الفراغ الذي يعرفه التاريخ الاجتماعي للأندلس خلال عصري الطوائف والمرابطين، لا يعود إلى قلة المصادر؛ كما زعم البعض، بل إلى قلة المؤرخين المتخصصين المؤهلين لاستغلال هذه المصادر. ماهي وضعية دراسة العصرين المذكورين ؟ وكيف يمكن تقييمهما ؟

سوف يؤدي جوابنا على هذا السؤال إلى توضيح المجال التوثيقي الواسع الذي يمكن استغلاله لاغناء معرفتنا بجوانب متعددة من التاريخ الاجتماعي الأندلسي، خلال عصري الطوائف والمرابطين.

أولاً : تجدر الإشارة إلى تعدد مصادر دراسة المجتمع الأندلسي خلال العصرين. إن وضعية المصادر التاريخية الأندلسية تختلف عن التصور العام الشائع بشأن مصادر دراسة تاريخ الأندلس والمغرب في «العصر الوسيط». وتفسير غزارة المصادر هذه بسيط، ذلك أن عصري الطوائف والمرابطين كانا من بين العصور التاريخية الأكثر إنتاجاً من الناحية الفكرية والعلمية والثقافية. هناك عدد كبير من المصادر الأندلسية والمغربية والمشرقية والإيبيرية المسيحية التي تطرقت لجوانب من تاريخ الأندلس الاجتماعي خلال العصرين.

ثانياً : تتميز هذه المصادر بتنوعها لكونها تضم كتب حوليات تاريخية مثل «المتين» لابن حيان أو «البيان المغرب» لابن عذارى ومذكرات مثل «التبيان» لعبد الله بن بلقين حاكم غرناطة ومؤلفات جغرافية مثل «المسالك والممالك» لأبي عبيد البكري ورسائل في القضاء والحسبة مثل رسالة ابن عبدون وكتب التراجم مثل «الصلة» لابن بشكوال والمجاميع الأدبية مثل «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام والدواوين الشعرية مثل «ديوان المعتمد بن عباد» ومؤلفات في النوازل الفقهية مثل «نوازل ابن سهل» أو «نوازل ابن الحاج».

ثالثاً : ينفرد عدد من المصادر التي تطرقت لعصري الطوائف والمرابطين بمعاصرتها لجزء من هذه الحقبة التاريخية.

رابعاً : تتميز المصادر المعاصرة والقريبة من العصرين والتي تطرقت للتاريخ الاجتماعي للأندلس، خلال عصري الطوائف والمرابطين، بالقيمة العلمية الكبرى لمحتواها. يمكن أن نبدي الملاحظات التالية عند تقييمنا مادة هذه المصادر :

أ) نلاحظ وجود منهجية متطورة في جل المؤلفات الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري. ويعود ذلك أساسا إلى المستوى العلمي والثقافي الرفيع الذي طبع الثقافة الأندلسية خلال هذه الحقبة. فهناك وعي عند عدد من الكتاب الأندلسيين مثل ابن حيان وابن حزم وابن بسام وعبد الله بن بلقين بالتحديد الدقيق لمواضيعهم من حيث الزمان والمكان والمضمون والمنهج.

ب) تتميز كتابات هذا العصر بنوع من التخصص في مجالات معرفية محددة، فابن حيان كان متخصصا في التاريخ والبكري في الجغرافية...

ج) تميزت هذه المؤلفات بالأصالة والإبداع، إذ يمكن أن نتحدث عن الإبداع الأدبي والتاريخي والفقهية وغيرها.

د) تميزت بكثرة المعلومات الواردة فيها سواء تعلق الأمر بالمعلومات السياسية أو الاجتماعية والاقتصادية أو الفكرية، كما انفردت تلك المعلومات بمصادقية نظرا لدقتها وصحتها. وهذا ما يفتح المجال للمؤرخ المعاصر لمعالجة التاريخ الأندلسي في أبعاده المختلفة والمتعددة.

هـ) لابد أن نبرز تطور منهج المؤرخين الأندلسيين، خلال القرن الخامس الهجري، في تعاملهم مع مادتهم التاريخية، سواء على مستوى سرد الأحداث أو تحليلها وتفسيرها أو الوصول إلى استنتاجات بشأنها، وذلك في مجالات وتخصصات مختلفة كالعلوم الدينية التي تضلع فيها أندلسيو عصري الطوائف والمرابطين، والتي لم تدرس دراسة عميقة من لدن المؤرخين العرب والمسلمين والغربيين من جهة، وفي العلوم الاجتماعية مثل التاريخ السياسي وعلم الاجتماع التي نالت اهتمام الباحثين العصريين بالدرجة الأولى من جهة أخرى.

خامسا : لابد من الإشارة إلى بعض مشاكل كتابة تاريخ الأندلس الاجتماعي، خلال القرن الخامس الهجري، في إطار تقييمنا مصادر هذا التاريخ. فيمكن تصنيف هذه المشاكل كما يلي :

أ) لقد ركزت المصادر على بعض المناطق الأندلسية وأهملت أخرى، مثل تركيزها على قرطبة أكثر من غيرها لأسباب لا تحتاج إلى المناقشة المطولة؛ مثل انفراد هذه المدينة بالتطور العلمي في الأندلس بشكل لامثيل له. إن هذا لا يعني احتكار

قرطبة للعلم في الأندلس ولكنها كانت متفوقة في جل العلوم المعروفة في الأندلس. وهذا يعني أن المؤرخ المهتم بتاريخ مناطق أخرى ليس محظوظا من حيث وفرة المصادر، كما هو الشأن بالنسبة للمهتم بتاريخ قرطبة الثقافي.

(ب) ركزت المصادر على بعض العلوم أكثر من غيرها، وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى الميول العلمية عند الأندلسيين خلال عصري الطوائف والمرابطين.

(ج) لقد ضاعت مصادر متعددة اهتمت بعلوم محددة، فمثلا لم تصلنا مؤلفات مؤرخين مثل ابن الصيرفي، ولكننا نتوفر على نقول من هذه المؤلفات مثل كتاب «الإكتفاء» لابن الكردبوس.

(د) ضاعت بعض الوثائق والرسائل المعاصرة للقرن الخامس الهجري مع توفرنا على نصوصها منقولة في مصادر أندلسية متأخرة مثل كتاب «الحلل الموشية» لمؤلف مجهول وفي مصادر مشرقية مثل كتاب «حسن التوصل إلى صناعة الترسل» للحلي.

سادسا : يواجه المؤرخ مشكلة تحديد تاريخ تأليف عدد من المصادر ومؤلفيها. لقد أنجز الدكتور عبد الواحد ذنون طه دراسة طريفة في تحديد مصادر كتاب «البيان المغرب» لابن عذاري المراكشي، كما أنجز الدكتور أمين توفيق الطيبي دراسة في تقييم كتاب «التيان» لعبد الله بن بلقين؛ ودراسة أخرى في تقييم كتاب «الذخيرة» لابن بسام نشرهما ضمن كتابه «دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس».

سابعا : تعتبر مسألة تحديد قيمة المصادر المتأخرة لدراسة التاريخ الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري؛ قضية شائكة؛ يواجهها المؤرخ المتخصص في هذه الحقبة. لقد تطرق كل من الدكتور محمد بن عبود والدكتور أمين توفيق الطيبي لهذا المشكل من خلال تقييمهما لكتاب «إعمال الإعلام» لابن الخطيب، وذلك في مقاله لأولهما بعنوان ابن الخطيب مؤرخا للأندلس في عصر الطوائف وفي مقالة لثانيهما بعنوان «لسان الدين بن الخطيب مؤرخ ثبت لفترة ملوك الطوائف» نشرتا في العدد الثاني من مجلة كلية الآداب بتطوان سنة 1987.

ثامنا : يمكن القول إن مواجهة المؤرخين لهذه المشاكل المتعلقة بالمصادر

الأندلسية للقرن الخامس الهجري، والتي سميناها إشكالية المصادر الأندلسية، قد ساهمت في ظاهرة التجديد المنهجي في الدراسات الأندلسية الحديثة حول عصري الطوائف والمرابطين، يتجلى هذا التجديد مثلاً في دراسة أورفوا دومينيك عن العلماء الأندلسيين.

تاسعا : يمكن تحديد خصوصية إشكالية التوثيق لعصري الطوائف والمرابطين ثم مقارنتها بالبعد التوثيقي بالنسبة لعصور أخرى في التاريخ الأندلسي والمغربي قصد تحديد أوجه التشابه والاختلاف، كما يمكن توظيف هذه المقارنة أيضاً لتحديد تطور هذا الجانب في إطار التأريخ للغرب الإسلامي خلال ماسمي بالعصر الوسيط. نثير هذه المسألة لما نشاهده من خلط بين المشاكل التوثيقية للتاريخ الأندلسي خلال العصر الوسيط. نذكر في هذا الصدد معالجة الأستاذة الكندية مايا شاتسميلر لهذه المشاكل دون وعيها بخصوصية تلك المشاكل بالنسبة للقرن الخامس الهجري الموافق للحادي عشر الميلادي. لايسمح المجال هنا لتلخيص ماورد في دراسة شاتسميلر، ولكن نشير فقط إلى رد نقدي على دراستها بقلم الدكتور محمد بن عبود والأستاذ أحمد الطاهري، نشر بالإنجليزية في مجلة «القنطرة» الإسبانية بالعدد 11 سنة 1980.

في الختام إن مجال التوثيق مهم جداً بالنسبة لتأريخ الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، كما أن أهمية مصادر هذه الحقبة التاريخية تفتح مجال البحث والتخصص الدقيق للباحثين. إن المؤرخ يعتمد المصادر للكتابة التاريخية في مرحلة أولى ثم يعتمد الكتابة التاريخية لفهم هذه المصادر فهما أعمق ودراستها دراسة أعمق في مرحلة ثانية. إننا بحاجة إلى دراسة تاريخ عصري الطوائف والمرابطين بقدر ما نحن بحاجة إلى دراسة مصادر هذين العصرين.

بعد هذا التقييم المستفيض الذي قدمناه لمصادر تاريخ الأندلس خلال عصري الطوائف والمرابطين بصفة عامة، نود أن نقوم في عجلة بتقويم مصدر بعينه نحسب أن له أهمية كبرى في الكشف عن جوانب من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لأندلس هذين العصرين.

إنه كتاب «نوازل» ابن الحاج،⁽¹⁾ الذي كان إلى عهد قريب في عداد التراث الأندلسي المفقود، فقد قال عنه الدكتور عز الدين أحمد موسى في المقدمة التي تناول فيها بالدرس المصادر التي اعتمدها في كتابه «النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري»⁽²⁾ مايلي : «وإلى جانب هذا فقد ضاع عدد من الكتب الجغرافية والفقهية وكتب البرامج مثل... نوازل ابن الحاج القرطبي»⁽³⁾ لكن الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش، في إطار بحثه عن المصادر أثناء إنجاز أطروحته لدكتوراه الدولة حول «الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين»⁽⁴⁾ اكتشف نسخة منه في الخزانة العامة بالرباط⁽⁵⁾ وكتب عنه مقالا بعنوان : «مخطوط نوازل ابن الحاج وأهمية مادته التاريخية» نشره بمجلة دار النيابة⁽⁶⁾.

والحقيقة أنه في هذه العجالة لا يمكننا تقييم كل الكتاب، الذي لازال في حاجة إلى مزيد من الدراسة رغم مقال إبراهيم بوتشيش،⁽⁷⁾ بل سنكتفي فقط باختيار ثلاثة أجوبة عن نازلة؛ تتعلق بقضية واحدة؛ هي نفقة المرأة المطلقة، ويعود جوابان منها إلى عصر الطوائف والثالث إلى العصر المرابطي.

(1) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي، يعرف بابن الحاج، ولد سنة 458 وتوفي 529 هـ، أنظر عنه القاضي عياض، الغنية، ط 1، بيروت 1982 ص 47، والضبي، بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، القاهرة 1967 ص 51، والنباهي، تاريخ قضاة الأندلس، بيروت (د ت) ص 102، والمقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، الرباط 1978، ج 3، ص 61، وابن بشكوال، الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، بيروت / القاهرة 1966، ج 3، ص 844، وابن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، بيروت 1349 هـ ص 132، والزركلي، الأعلام، بيروت 1980، ج 5، ص 317.

(2) هو في الأصل أطروحة دكتوراه الدولة، نشرت طبعته الأولى دار الشروق، بيروت 1983.

(3) النشاط الاقتصادي... ص 14.

(4) نوقشت بكلية الآداب جامعة مولاي إسماعيل بمكناس، يوم 19 يوليوز 1991.

(5) توجد بقسم المخطوطات تحت رقم ج 55.

(6) عدد 21 سنة 1989 ص 23 — 28.

(7) يقوم الأستاذ أحمد اليوسفي بتحقيقه، أطروحة لدكتوراه الدولة، تحت إشراف الدكتور محمد بن عبود.

ونجدنا مضطرين للتعريف بمضمون الأجوبة الثلاثة، ولو بشكل مقتضب، لكي نخرج على إبراز أهميتها في الكشف عن جوانب من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للأندلس خلال العصرين المذكورين.

الجوابان الأول والثاني، جد مقتضيين، لكنهما متكاملين، والأول للفقهاء أبي الحسن علي بن حمدين،⁽⁸⁾ ويتعلق فقط بشق التغذية من نفقة المرأة المطلقة المرضع. فقد أفتى لها ب :

1 — ربعين من دقيق

2 — ثمنين من زيت

3 — ثماني عبادي صرف

الثاني للفقهاء أبي عمر أحمد بن القطان،⁽⁹⁾ رواه عنه الفقهاء أبو عبد الله بن فرج،⁽¹⁰⁾ لتلميذه ابن الحاج،⁽¹¹⁾ ويتعلق بشق اللباس من نفقة المرأة المطلقة المرضع. وقد أفتى لها ب :

1 — الفروة والمحشية إلى آخر ماي

2 — القميص والمقعع إلى آخر أكتوبر

(8) هو شيخ محمد ابن الحاج يقول عنه : «وكان شيخنا الفقيه أبو الحسن علي بن حمدين يفتي للمرضع المطلقة..» مخطوط نوازل ابن الحاج ص 91، ولد سنة 413 هـ وتوفي 482، أنظر عنه : ابن بشكوال، الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط 1، بيروت / القاهرة 1989 ج 2، ص 610، 611.

(9) هو أحمد بن محمد بن عيسى بن هلال، أبو عمر بن القطان، قرطبي، كان من المفتين المشاورين أيام القاضي ابن بشير، توفي سنة 460 هـ. راجع ترجمته عند ابن فرحون، الديباج المذهب في أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، دار التراث، القاهرة 1972، ج 1، ص 181، وابن بشكوال، الصلة طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1966، ج 2، ص 62.

(10) هو محمد بن فرج، ولد بقرطبة سنة 404 هـ وتوفي سنة 497 أو 98، تولى الشورى بعد وفاة ابن القطان، لكن بعد دخول المرابطين قرطبة أسقط عن الفتيا، لأنه كان متعصباً عليهم. راجع ترجمته في الديباج، ج 2، ص 242 وشجرة النور ص 123 وابن قنفذ، الوفيات، تحقيق عادل نويض، ط 1، المكتب التجاري، بيروت 1971 ص 264.

(11) يقول ابن الحاج : «وقال لنا الفقيه أبو عبد الله بن فرج شيخنا رحمه الله حضرت أبا عمر أحمد بن القطان مرارا يفتي...».

واضح من ترجمتي الفقهاء صاحب الجوابين الأول والثاني، والعملية العبادية التي أفتى بها الأول كصرف للمطلقة، أن الجوابين / النصين، ينتميان إلى عصر ملوك الطوائف.

أما الجواب الثالث فقد قدمه الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرج السابق ذكره، وهو طويل نسبيا، بحيث يمتد على صفحة ونصف من المخطوط، وهو يعطي ثلاثة تقديرات لنفقة المرأة المطلقة الحامل أو المرضع، حسب وضعية الزوج المطلق الاجتماعية غنيا كان أو وسط الحال (متوسط الدخل) أو مقلا (فقيرا).

فصل في نفقة الرجل الأول لمطلقاته (1) وهي في بداية حملها؛ وذلك فيما يتعلق بتغذيتها وسكنها ولباسها ولباس نومها، أو إذا طلقت ومضى من الحمل نصفه أو أكثر، أو إذا كانت مخدومة في صداقها؛ وفصل في نفقة خادمها؛ فيما يتعلق بالتغذية واللباس ولباس النوم والسكن. (2) أو إن طلقها وهي ترضع فلها نفقة التغذية والسكن ولخادماتها أيضا نفقة التغذية والسكن؛ وللصبي الذي يرضع نفقة اللباس. (3) أو إن طلقها وابنها قد فطم؛ فللصبي نفقة التغذية والسكن وكسوة اللباس وكسوة الرقاد؛ وللخادمة نفقة التغذية. والرجل الثاني تحدث النص / الجواب عن نفقته لمطلقاته وهي حامل أو مرضع، وذلك فيما يتعلق بالتغذية والسكن وكسوة اللباس والرقاد لمدة شهر واحد. وكذلك بالنسبة للرجل الثالث، بينا نفقة الطفل واحدة بالنسبة للغني والوسط الحال والمقل.

وفيما يلي نقدم أصناف هذه النفقات مفصلة بعد أن أدخلنا عليها تغييرات في ترتيبها عما جاء في النص الأصلي؛ حتى تصبح مرتبة ترتيبا منطقيا؛ على الشكل التالي :

أولا : الرجل الغني :

1. المرأة المطلقة الحامل :

أ - نفقة التغذية : ربعا دقيقا وثمنا زيت وحمل واحد من الحطب و 15 درهما عن الصرف، كل هذا لمدة شهر واحد.

ب - نفقة السكن : يكري لها مسكنا مثل الذي كانت تسكنه معه.

2. المطلقة في بداية الحمل :

أ — نفقة اللباس : قميصا وسراويل ومقنعا وخفا وشادكة من صوف وملحفة وموفقة بنصف ربع صوف.

3. المطلقة ومضى من الحمل نصفه أو أكثر :

أ — اللباس : 10 دراهم يوسفية عن ثياب لباسها ورقادها.

1 و 2 و 3. إن كانت مخدومة في صداقها، فنفقة خادمها :

أ — التغذية :

ربع دقيق وثمان واحد من الزيت ونصف حمل من الحطب و 7 دراهم من الصرف كل هذا لشهر.

ب — اللباس : قميص وسراويل ومقنع وقرق.

ج — لباس النوم : شادكة بربع صوف ومخدة بربع الربع من الصوف وملحفة.

د — السكن : تسكن مع مولاتها.

4. إن طلقها وهي ترضع :

4. 1. أ — التغذية : ربعان من دقيق وربع الربع من الزيت ونصف حمل من الحطب و 6 دراهم عن الصرف.

4. 1. ب — السكن : ثلث خرج الدار التي كانت تسكنها معه.

ولخادمتها :

4. 2. أ — التغذية : ربع واحد من الدقيق وثمان واح من الزيت وحزمة حطب و 4 دراهم عن الصرف.

4. 2. ب — السكن : تسكن مع مولاتها.

وللصبي الذي يرضع :

4. 3. أ — اللباس : مهد وشويكة ومخدة بربع صوف بينهما وأربع

لفايف : إئنتان من صوف وائنتان من كتان وحزام وبنيقيتان ومحشو وقرق وقميص وجويريات.

5. إن طلقها وابنها قد فطم :

5. 1. أ — تغذية الصبي : ربع واحد من الدقيق وثمان واحد من الزيت ونصف حمل من الحطب و 8 دراهم عن الصرف.

5. 1. ب — سكن الصبي : ثلث خرج الدار التي كانت لسكنى والده.

5. 1. ج — كسوة لباس الصبي : محشو وفرو في شتوة عامين، وغفيرة أو طويق وزوجا أقراق وزوج واحد جرموق وجويريات، عن كل عام.

5. 1. د — كسوة رقاد الصبي : نصف ملحفة ونصف كساء وشويذكة برقع صوف ومرفقة برقع الربع صوف.

نفقة الخادمة :

5. 2. أ — التغذية : ربع واحد من الدقيق وثمان واحد من الزيت و 6 دراهم صرف.

ثانيا : الرجل الوسط الحال :

إذا طلق زوجته وهي حامل أو ترضع، ينفق عليها في الشهر الواحد :

أ — التغذية : ربع دقيق وثمان ونصف ثمن زيت ونصف حمل حطب و 6 دراهم صرف.

ب — السكن : خرج مسكن على قدرها.

ج — كسوة اللباس والرقاد : إذا طلقت وهي حامل، درهم واحد.

ثالثا : الرجل المقل :

ينفق عليها في الشهر الواحد :

أ — ربع ونصف دقيق وثمان زيت وحمل حطب و 4 دراهم صرف.

ب — السكن : بيت تشكته.

ج — كسوة اللباس والرقاد : نصف درهم.

من حيث توطین النص الثالث في الزمان، اتضح أيضا من ترجمة الفقيه أبي محمد بن فرج الذي أملى الجواب، أنه عاش بداية الوجود المرابطي بالأندلس، ومؤكد أنه أفتى بنفقة المطلقة هذه في عصر المرابطين، بدليل أنه فرض للمطلقة التي مضى نصف حملها أو أكثر نفقة لباس تقدر بـ «عشرة دراهم يوسفية» أي من ضرب يوسف بن تاشفين، وهذا ما يثبت نسبة هذا النص للعصر المرابطي. بعد تعرفنا على محتوى النصوص الثلاثة، وتوطینها في الزمان الأول والثاني خلال عصر ملوك الطوائف والثالث خلال العصر المرابطي، ومن حيث المكان المكان بمدينة قرطبة، ماهي أهمية هذه النصوص فيما يتعلق بالتاريخ الإقتصادي والاجتماعي للأندلس خلال العصرين المذكورين ؟

أولا : نستنتج أن مستوى معيشة السكان خلال العصر الطائفي كان منخفضا، يتضح ذلك من تواضع النفقة التي أفتى بها كل من ابن حمدين وابن القطان، فهي تقتصر على الضروريات في التغذية واللباس بسد رمق المطلقة وستر جلدها، مما يدل على أن الهدف من تلك النفقة هو الحفاظ على حياتها وليس الترفيه عليها.

وقد لا يصعب على المطلع على تاريخ الأندلس تحليل ظاهرة انخفاض مستوى المعيشة لأنها كانت ذات علاقة بظواهر ذلك التاريخ السياسية والعسكرية، وهي :
أ — التجزئة السياسية التي عرفتها الأندلس خلال عصر الطوائف.

ب — الصراع السياسي والعسكري بين الممالك الطائفية

ج — تأثير علاقات دول الطوائف مع الممالك المسيحية في الشمال، على مستوى معيشة السكان في الأندلس الإسلامية، خاصة تلك المبالغ الباهضة من الجزيات والإتاوات التي كانت تفرضها بعض الممالك المسيحية على ملوك الطوائف، الذين كانوا يجبرونها من رعاياهم، وهذا ما جعل جزءا هاما من الثروة الاقتصادية الأندلسية تنتقل إلى الممالك المسيحية، وهو ما انعكس على مستوى معيشة السكان.

ثانيا : بالمقابل يمكن أن نستنتج أن مستوى معيشة السكان خلال العصر المرابطي قد ارتفع مقارنة مع سابقه، يعكس ذلك النص الثالث؛ فيما يتعلق بارتفاع مستوى الإنفاق الشهري فيما يخص التغذية بالنسبة للمرأة المطلقة، بالإضافة إلى بعض مظاهر هذا الإرتفاع في مستوى المعيشة، تعبر عن «رفاهية» كتمييز النص الثالث بين كسوة اللباس وكسوة الرقاد؛ في حين أن النص الثاني الذي يعود إلى عصر الطوائف؛ ذكر قطعتين فقط من اللباس لمدة ستة أشهر وأخرتين للستة الباقية من السنة.

وهذا ناتج عن تغير الأوضاع السياسية في الأندلس؛ بعد وصول المرابطين إليها؛ بحيث انتفت الظاهرتان السابقتان؛ أي التجزئة السياسية التي حلت محلها الوحدة ومركزية السلطة، والضعف العسكري أمام الممالك المسيحية التي حل محلها المد المرابطي؛ الذي نقل الصراع العسكري إلى الأراضي المسيحية؛ على الأقل خلال الطور الأول من الوجود المرابطي بالأندلس ما بين حوالي 484 هـ و 509 هـ.

ثالثا : يكتسي النص الثالث أهمية قصوى؛ فيما يتعلق بالكشف عن التراتبية الاجتماعية التي عرفتها الأندلس خلال العصر المرابطي. فهو يحسم في النقاش النظري الذي يدور بين الباحثين المحدثين حول البنية الاجتماعية للأندلس، والذين ينطلق كثير منهم من نظريات جاهزة لتحديد تلك البنية عوض العودة إلى النصوص في المصادر الأصلية للكشف عن بنية المجتمع الأندلسي. ذلك أن الفقيه المفتي الذي عاش في العصر المرابطي بقرطبة، قبل أن يقرر نفقة المرأة المطلقة، لاشك أنه قام بتحليل مباشر لواقع مجتمعه الذي كان يعيش فيه. وتوصل إلى أن هناك ثلاثة مستويات معيشية؛ في المجتمع القرطبي؛ عبر عنها بالرجل الغني والمتوسط الحال والمقل. ويمكننا أن نعممها على كل المجتمع المدني أو الحضري الأندلسي خلال العصر المرابطي، فنقول أنه كان يتكون من أربع شرائح اجتماعية :

- 1 — الشريحة العليا أو ذوي الدخل المرتفع ويمثلها «الرجل الغني»
- 2 — الشريحة الوسطى أو ذوي الدخل المتوسط ويمثلها «الرجل الوسط الحال»
- 3 — شريحة الفقراء أو ذوي الدخل الضعيف ويمثلها «الرجل المقل»
- 4 — ونستنتج من النص الشريحة الرابعة التي تتكون من العبيد أو الخدم أو الموالى وتمثلها «الخادمة»

رابعا : يمكن أن نقوم بإعادة بناء مستويات إنفاق المواطن الأندلسي؛ خلال العصر المرابطي؛ حسب شريحته الاجتماعية؛ إذا ما تعرفنا على قيمة الدرهم العبادي والدرهم اليوسفي؛ وعلى أئمة تلك المواد الأولية والغذائية التي ذكرتها النصوص الثلاثة، سواء فيما يتعلق بالإنفاق على التغذية أو اللباس أو السكن. ومع اعترافنا بصعوبة إنجاز هذا العمل، إلا أنه يمكننا القول أنه ليس مستحيلا، خاصة إذا استغل الباحثون نوازل أخرى وردت فيها أئمة بعض المواد الاستهلاكية، وكذا المعلومات التي ترد شاردة في مصادر أخرى مثل كتب التراجم والطبقات وكذا كتب النقود وغيرها.

خامسا : يمكن أن نتعرف على بعض مظاهر النشاط الزراعي والصناعي، الذي كانت تعرفه الأندلس؛ خلال العصرين المذكورين؛ كأنواع المحاصيل الفلاحية التي ذكرتها النصوص (حبوب، زيتون، كتان، تربية مواشي...) التي تتحول إلى مواد غذائية أو ألبسة، أو طبيعة النسيج العمراني بمدن الأندلس (الزوج الغني الذي يسكن دارا مستقلة، والزوجة المطلقة التي تسكن التي يمكن أن تكتري مع سكان آخرين في بيت واحد) أو مظاهر اللباس الأندلسي وتغيره حسب فصول السنة، وكذلك اختلاف أزياء الأندلسيين حسب شرائحهم الاجتماعية (مثلا الخف للمرأة الحرة والقرق للخادمة).

سادسا : يمكن أن نتعرف على بعض المظاهر الحضارية، كغلبة الطابع المدني على المجتمع الأندلسي مما يفسر تطوره، مع استمرار تأثير المجتمع الزراعي عليه إذا اعتبرنا التقويم بشهري «ماي» و «أكتوبر» في النص الثاني تقويما فلاحيا، أما إذا اعتبرناه تقويما مسيحيا فذلك يعني أن المجتمع الأندلسي رغم تفوقه الحضاري آنذاك فقد تأثر في بعض جوانب تنظيمه بالمجتمعات المجاورة له.

العلاقات الفرنسية العثمانية خلال القرن السادس عشر وانعكاساتها المستقبلية قراءة في معاهدة 1535

ذ. مصطفى الغاشي

كلية الآداب — تطوان

مقدمة :

إن من بين الأغراض التي من أجلها نكتب هذا المقال، معرفة القيمة التاريخية لهذه المعاهدة، وفهم مجمل الأدوار التي لعبتها على مستوى العلاقات الإسلامية الأوربية وانعكاساتها المرحلية والمستقبلية على كل من الدولة العثمانية والدول الأوربية خاصة فرنسا. إن هذه المعاهدة التي هي عبارة عن وثيقة تكتسي أهمية خاصة، لكونها تشكل الأساس لكل المعاهدات التي وقعتها الدولة العثمانية حتى حدود سقوط هذه الأخيرة، وإلغاء ما عرف في التاريخ «بنظام الإمتيازات» *Systeme des capitulations*، بلوزان (سويسرا) 24 يوليوز 1933.

ونص هذه المعاهدة منشور ضمن الوثائق التي قام بطبعها الفرنسي :

E. Charriere. *Négociations de la France dans le Levant*, Collection des Documents inédits sur l'histoire de France,⁽¹⁾ TI P 285, Imprimerie Nationale, Paris, 1848, 4 Vol. N 4 (P.P 285 - 294).

وحتى نضع هذه المعاهدة في السياق التاريخي للعلاقات الفرنسية العثمانية، فإن الأمر يتطلب بدءا. أولا : عرض مجمل المراحل التي قطعتها هذه العلاقات حتى حدود توقيع المعاهدة وثانيا الأسباب المباشرة وغير المباشرة المؤدية للتوقيع.

(1) موجود بالمكتبة الوطنية بباريس — فرنسا —.

1. العلاقات الفرنسية العثمانية حتى حدود توقيع معاهدة 1535

1.1. المراحل : 1.1.1. مرحلة العلاقات الغير المنظمة، أو الظرف

السياسي الطارىء

حسب المؤرخ الفرنسي⁽²⁾ (De la Jonquiere)، فإن البدايات الأولى للعلاقات الرسمية ما بين الباب العالي والدولة العثمانية ترجع إلى عهد بايزيد الثاني، حيث قام هذا الأخير ببعث حسين باي عام 1483، إلى لويس الحادي عشر بغرض الحصول على الموافقة بالتزام فرسان جزيرة روديس بسجن الأمير جيم (دجيم) المعروف لدى الأوربيين بيزيم،⁽³⁾ وقد تزامن وصول هذا الرسول إلى شومبري (Chambery) بفرنسا مع وفاة لويس XI، وهي الفرصة التي ستدفع فرسان روديس لرفض الاستجابة لطلب هذا السفير، وبذلك يعود هذا الأخير دون إنجاز المهمة التي أوكله إياها بايزيد II. وخلال عام 1486 عاد نفس السفير إلى فرنسا بهدف إقناع الملك شارل VIII : مقابل تسليم الأمير جيم (Djem). يمنح السلطان أولا كل الذخائر الدينية أو بقايا أجسام القديسين Les reliques التي تم العثور عليها في الإمبراطورية منذ محمد الفاتح، وثانيا الوعد بعدم غزو القدس والتي كان السلطان ينوي فتحها. إلا أن شارل VIII رفض استقباله، ومع ذلك لم ييأس السلطان بايزيد من كل هذه المحاولات. إلا أن شارل VIII رفض استقباله، ومع ذلك لم ييأس السلطان بايزيد من كل هذه المحاولات. وخلال صيف 1488 وصل إلى البلاط الفرنسي سفير للسلطان يدعي Antoine Benicho يحمل رسالة إلى شارل تحتوي مادتها على طلب المصادقة على «مختلف الأشياء» التي يعرضها على السفير.⁽⁴⁾ بعد ذلك، وبالضبط خلال شهري فبراير وأبريل 1500 وصلت رسالتان من السلطان بايزيد II إلى الملك لويس XII، يطلب فيهما وساطة فرنسا بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية الإيطالية.

(2) أستاذ التاريخ سابقا بالمدرسة العسكرية كومبارهاين (Coumbar - Hane) بالقسطنطينية، خلال القرن التاسع عشر.

(3) عاش ما بين 1459 - 1495 أخ السلطان بايزيد 2 ومنافسه في الحكم، كان قد سقط بين فرسان روديس كاسير ثم تم تحويله إلى فرنسا ثم روما حيث مات.

(4) De la Jon - Quière, Histoire de l'Empire Ottman, Paris 1881, p. 223.

ومع تولي François 1^{er} الحكم في فرنسا سوف تشهد العلاقات الفرنسية العثمانية منعطفًا جديدًا يمكن اعتباره الإرهاصات الأولى «للعلاقات المنظمة» والمبنية على معاهدة سوف تكون الأولى من نوعها بين الدولة العثمانية وأوروبا. فمُنذ بداية حكمه أثار هذا الملك ضجة كبرى ضد الدولة العثمانية خلال مؤتمر Cambrai عام 1517، حيث اقترح إمبراطور ألمانيا مشروع اقتسام الإمبراطورية العثمانية، إلا أن البابا ليون X نقض هذه المؤامرة. وبعدها بقليل أي خلال أبريل وماي من نفس السنة صادق السلطان سليم على كل الامتيازات التي كانت فرنسا قد حصلت عليها من طرف قانصوغوري عام 1507.

«Que les cathelans et Françoys et autres nations qui sont sous leur consultat ou Alexandria, et qui arriveront aux ports et plages, ou en Alexandria ou ailleurs. Qu'ils soient seurs en toutes noz contrées en terre et en mer, de tous nos ministres, comme il est bien convenable en temps de paix avec semblable sorte de gens et autres nations en nos terre, et voulons qu'ils aient et viennent et demeurent surement de bon gré, tant qu'il leur plaira, sans qu'aucun leur donne ennuy ou en pêchement».

وعلى إثر الدمار الذي لحق بالجيش الفرنسي خلال معركة Pavia⁽⁶⁾، وأسر الملك François 1^{er}، بعثت الملكة لويس دو سافو Louise de Savoie عام 1525 برسول إلى السلطان سليمان يحمل رسالة تقترح فيها الملكة الحلف مع الباب العالي ضد إسبانيا على عهد Charles Quint، إلا أن هذا المبعوث الذي يجهل المؤرخون اسمه اغتيل في البوسنة هو ومن يصاحبه في البعثة. والحقيقة كما يذكر كثير من المؤرخين الفرنسيين⁽⁷⁾ أن هذه المحاولة كانت تعترضها الكثير من العراقيل نذكر منها على وجه الخصوص خوف فرنسا من فقدانها «الاعتبار الروحي»، ولقب «حامي الإيمان المسيحي»، أو حامي المسيحية «في حالة تواطؤها وتحالفها مع المسلمين الذين هم في نظر المسيحيين كفار. إلا أن هذا الخوف الفرنسي سرعان

(5) نص هذه الرسالة يوجد ضمن الوثائق التي نشرها E. Chamière، مصدر سابق ص 123 - 129 وهي تحت عنوان :

(Confirmation par Soliman II du traité fait Antérieurement sous la domination des sultants Mamlouks d'Egypte avec les consulats de France à Alexandria).

(6) مدينة إيطالية.

J. Urçu, Politique Orientale de François 1^{er} (1547), Paris 1908. pp. 27-28.

(7)

ما سيتبدد خاصة وأن أعداءها على المستوى الأوربي كانوا يمارسون نفس الشيء مع الطرف الآخر ونقصد هنا إيران⁽⁸⁾.
فعمليا وخلال شهر دجنبر من عام 1525، وصل إلى القسطنطينية سفير من أصل هنغاري يعمل لحساب البلاط الفرنسي، يحمل الموافقة الفرنسية على تحالف سياسي عسكري ضد ملك إسبانيا وحلفاءه.

«Que le grand pudidrâh attaque le roi de Hongrie et lui fasse essayer un échec ; nous nous attaquerons le roi d'Espagne et prendrons contre lui notre revanche nous prions et souhaitons que le grand empereur du monde nous fasse en grâce de repousser cet orgueilleux et nous seront dounavent le servitaur obligé du grand empereur maître du monde»⁽³⁾.

وقد حاول Charles Quint القيام بنفس المحاولة بالتقرب إلى السلطان سليمان، إلا أن طبيعة العداء التي كانت تجمع بينهما كانت تحول دون أي تقارب، والظاهرة لم تكن تخل من أسباب فشارل المطرقة يعتبر من بين أهم ملوك إسبانيا الذين كانوا يكونون عداء خاصا للمسلمين، وهو العداء الذي ترجم على أرض الواقع بحملات الطرد المنظمة التي تعرض لها المسلمون المورسكيون بإسبانيا. هذا فضلا عن الممارسات اللاإنسانية التي مورست عليهم. وقد كانت هذه المسألة من بين الأسباب التي دفعت بالسلطان العثماني لرفض التقرب الإسباني.
لقد كان جواب السلطان سليمان سريعا وإيجابيا ذا طابع حمائي وجريء وأسلوب فني رائع :

«A toi, françois, qui es roi du pays de france.

La lettre que vous avez adressé à ma porte, asile des souverains, par Franquipur homme digne de votre confiance: Certaines communications verbales que vous lui avez recommandés, m'ont appris que l'ennemi s'est empare de votre royaume, que vous êtes présentement en prison et que vous demandez ici secours et protection pour votre délivrance. Tout ce que vous avez dit a été exposé au pied de mon trône, refuge du monde. Ma science impériale l'a

(8) نفسه. بما أن حكام إيران كانوا يشكلون المنافس الحقيقي للأتراك العثمانيين، فقد حاول بعض ملوك أوروبا مثل (Charles Quint) استغلال هذا الصراع ضد الباب العالي.

(9) نص رسالة François 1^{er} إلى السلطان سليمان توجد هي أيضا ضمن مجموعة الوثائق التي سبقت الإشارة إليها آنفا E. Chatière ص 113 — 114 — 115.

embrassé en détail, et j'ai pris une connaissance complète...»⁽¹⁰⁾.

إن من النتائج الأولى لهذه العلاقات، إطلاق سراح François 1^{er} من طرف إسبانيا بعد تدخل السلطان سليمان، أما على المستوى العسكري فقد قام السلطان سليمان بحملة ضد هنغاريا خلال معركة Mohacz حيث قتل الملك الهنغاري لوي II، وبذلك أصبحت هنغاريا خاضعة للباب العالي، وتموقع الأتراك على مسافة قريبة من فيينا، مما سوف يخلف كما يقول E.Charrière «وضعية سياسية سوف تتحول منذ تلك اللحظة إلى أساس كل العلاقات الفرنسية العثمانية ومحرك حركتها الخارجية خلال كل المراحل التاريخية المستقبلية للدولتين.⁽¹¹⁾ وفي هذا الخضم المعقد والخطير سوف يستغل كل من إسبانيا والتمسا هذا التقارب الفرنسي التركي، قصد تحميل فرنسا المسؤولية أمام المسيحية في ضياع هنغاريا التي يملق عليها «Le vrai Boulevard - de la Chritieneté - G.Urçu»⁽¹²⁾.

يمكن اعتبار هذا العمل المشترك أرضية جديدة على منها سوف تكتسح العلاقات الفرنسية العثمانية مجالات جديدة وهما بذلك لايعملان إلا على إضفاء صبغة الشرعية عليها سواء باتجاه المسيحية أو باتجاه الرأي العام الفرنسي. وهكذا توالى المفاوضات التي سوف يعمل خلالها François 1^{er} على أولا حماية المسيحيين الشرقيين وثانيا احتكار فرنسا للتجارة مع الشرق.

لقد شكلت مسألة المسيحيين الشرقيين محورا خاصا في العلاقات الفرنسية العثمانية، وبما أن فرنسا صارت بحكم تحالفها مع الأتراك حامية للمسيحيين الشرقيين، فإن مشاكل هؤلاء كانت تشكل في كثير من الأحيان أساس المفاوضات بين الطرفين كتلك التي شهدتها العامة القسطنطينية عام 1528، ذلك أن السفير الفرنسي Antoine de Rinçon طالب السلطان بإعادة كنيسة في القدس كان المسلمون قد حولوها إلى مسجد، إلا أن السلطان سوف يرفض هذا الطلب من

(10) نص الرسالة التي بعث بها السلطان سليمان إلى الملك الفرنسي François 1^{er}، مأخوذة من نفس المصدر الأنف الذكر ص 116 — 118. ونظرا لصعوبة اللغة التي كتبت بها (لغة القرن 16)، فإننا ننشرها هنا بلغة القرن العشرين.

(11) E. Charrière ص 114 — 115.

(12) J. Urçu، مرجع سابق، ص 39.

منطلق ديني صرف. إلا أنه مقابل ذلك سوف يطمئن الفرنسيين على الإبقاء والحفاظ على كل الكنائس والممتلكات المسيحية، وكذا الحرية الدينية الكاملة للمسيحيين الشرقيين⁽¹³⁾.

لقد كانت هذه المناسبة فرصة جديدة للفرنسيين للحصول على مزيد من الامتيازات Capitulations، سوف يمنحها إياهم السلطان سليمان يوم 20 شتنبر 1528.

ويلخص المؤرخ الفرنسي De le Jon Quière في الآتي :

أولا : حرية التنقل والتجارة بمصر

ثانيا : تقديم الغوث والتجدة للسفن الفرنسية التي تلقي بها العواصف إلى الشواطئ العثمانية، مع منع تعرضها للنهب والسرقة.

ثالثا : محاكمة الفرنسيين أمام قنصلهم، إلا في حالة إراقة الدم ففي هذه الحالة يحاكمون أمام قضاة أتراك.

رابعا : حق الفرنسيين في الحصول على ممتلكاتهم عن طريق الوصية أو تسليم إلى القنصل.

خامسا : حق تسيير العناية بالكنائس الموجودة بالإسكندرية.

سادسا : حماية الباب العالي للقناصل والتجار الفرنسيين⁽¹⁴⁾.

إن التقدم الذي استطاعت فرنسا أن تحققه داخل الإمبراطورية لم يكن بأمور مجهول من طرف أعدائها على المستوى الأوربي ونقصد إسبانيا والتمسا، بل العكس، فقد قامت عدة محاولات من أجل وضع عراقيل أمام تقدم العلاقات الفرنسية العثمانية، والامتيازات التي تمنحها هذه الأخيرة للأولى.

وعلى إثر الأحداث العسكرية التي شهدتها هنغاريا وتدخل النمسا فيها لدعم المعارضة الوطنية ضد الملك المتحالف مع العثمانيين، تحرك السلطان سليمان عام 1532 بهدف اقتحام أسوار هنغاريا. وفي هذا الإطار تأتي المهمة الثانية للسفير

De la Jon Quière; Histoire de l'Empire Ottman, Op. Cit. p. 227.

(13)

Ibid. pp. 227-228.

(14)

الفرنسي Rinçon بهدف إقناع السلطان بالتخلي عن غزو هنغاريا، وبالفعل سوف يتحقق هذا الهدف لفرنسا إلا أنه لن يدوم طويلا⁽¹⁵⁾.

بهذه الأحداث تنتهي هذه المرحلة من العلاقات الفرنسية العثمانية، وهي كما رأينا علاقات يغلب عليها طابع الظرف السياسي الطارئ والمتعلق بالصراعات السياسية والعسكرية الأوربية : طموحات العثمانيين بالتوسع على حساب أوروبا الشرقية، ورغبة فرنسا للوقوف في وجه الزحف الإسباني التماسوي (المطبوع بالصراعات والتحالفات).

2.1.1. مرحلة العلاقات المنظمة : معاهدة 1535 :

أصبحت فرنسا في حرج كبير بعد هذا التقارب مع الباب العالي، ولذلك سوف يعمل أعداؤها الإspanيون والتمساويون على محاصرتها أوربيا وطردها من حوض البحر الأبيض المتوسط، وعلى هذا الأساس أصبح التوازن الأوربي في وضع جد هش، قابل للانفجار في أي لحظة خاصة إذا لم توجد هناك قوة قادرة على الوقوف في وجه الطموحات الإسبانية - التماسوية وإعادة الاعتبار لفرنسا بإعادة بناء قوتها بحوض البحر الأبيض المتوسط، وتدعيم نفوذها داخل الإمبراطورية العثمانية. إن الإمكانية الوحيدة المتاحة لفرنسا تبقى هي القوة العثمانية : فحدودها كما يقول المؤرخ De la Jonquière «تلامس الأجزاء الثلاثة من العالم (أوروبا آسيا وإفريقيا)، وجيوشها تهدد قلب الدولة التماسوية وسفنها تسيطر على شرق البحر الأبيض المتوسط. وبين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا لا توجد عداوة : فمصالحهما مشتركة، ولهما نفس الأعداء، ولهما نفس الحاجة، ونفس الكراهية، وفي الأخير يكن كل واحد منهما للآخر الاحترام المتبادل نظرا لقيمتيهما العسكرية»⁽¹⁶⁾.

فتاريخيا، وبعد أن شكلت فرنسا الروح ويد الصليبية، صارت بحكم الظروف الأولى والأكثر تقارب مع المسلمين بل وحليفهم. إن الهدف من هذه السياسة «الثابتة» التي انتهجها François 1^{er}، هو تقزيم قوة الإمبراطورية التماسوية، وهي

(15) حسب المؤرخ الفرنسي J. Urçu فإن مهمة السفير Rinçon كانت ذات جوانب علنية وأخرى سرية، مرجع سابق، ص 65.

De La Jon Quière, Histoire de l'Empire Ottoman. Op. p. 222-223.

(16)

نفس السياسة التي سينتهجها خلفاءه من بعده، والتي لفعل سوف تنقد أوروبا من الاستبدادية الإسبانية التمساوية.

فتاريخيا، وبعد أن شكلت فرنسا الروح ويد الصليبية، صارت بحكم الظروف الأكثر تقاربا مع المسلمين بل وحليفهم. إن الهدف من هذه السياسة «الثابتة» التي انتهجها François 1^{er}، هو تقزيم قوة الإمبراطورية التمساوية، وهي نفس السياسة التي سينتهجها خلفاؤه من بعده، والتي بالفعل سوف تنقد أوروبا من الاستبدادية الإسبانية - التمساوية.

في هذا الخضم وهذا المعترك الذي لم تشهد له المسيحية مثيلا في تاريخها، حيث تصطدم سياسة Charles Quinst بمنافسه حليف المسلمين François 1^{er} سوف يعمل هذا الأخير على الاعتراف علانية بتحالفه مع العثمانيين وذلك حتى يتمكن من الاستفادة أكثر من التحالف.

وهكذا، وخلال ربيع 1534، وصل إلى القسطنطينية سفير فرنسي يدعى Jean de la Forêt، محملا بمهمتين : توقيع معاهدة صداقة والتجارة والتي تشتمل كل الإمارات المسيحية باستثناء إسبانيا، وإقناع السلطان بشن حرب ضد ألمانيا في حالة رفض هذه الأخيرة إعادة إمارة ميلانو، وجينوة... الفلوندر،... إلخ، وترك الملك جون حاكما لهنغاريا.

لقد شكلت هذه الأمور الأحداث الحقيقية لسفارة Jean de la Forêt، ففي حين أن معاهدة الصداقة والتجارة لم تكن تشكل إلا ذريعة، وهكذا وحتى يتمكن السفير من تحقيق أهدافه فإنه استعان بالصدر الأعظم إبراهيم، والأمير خير الدين الذي وعده François 1^{er} بمساعدته لكي يحافظ على مدينة الجزائر وتونس اللتان كانتا تعانيان من هجومات الإسبان⁽¹⁷⁾.

وقد تم التوقيع على معاهدة السلم والصداقة والتجارة عام 1535⁽¹⁸⁾ بين

(17) الرسالتين اللتان استلمهما السفير الفرنسي من الملك توجدان ضمن الوثائق التي جمعها E. Charrière. *Négociation Instruction de François 1^{er} de la Forêt*» (pp. 255-258) والثانية

«Instruction de la Forêt pour son ambassade à la Porte» (pp. 258-259)

(18) حسب المجهود القيم الذي قام به المؤرخ :

فرنسا والدولة العثمانية تحتوي على 12 بندا : تم توقيع هذه المعاهدة بين السلطان سليمان والملك فرانسوا الأول، صلاحيتها مدى حياة الإمبراطرين، والتي حسب J. Urçu، «شكّلت أسس الحماية الاقتصادية والسياسية والدينية لفرنسا داخل الباب العالي»⁽¹⁹⁾.

أولا : الحرية المطلقة لرعايا الإمبراطورية للإبحار بسفن مسلحة وغير مسلحة، واستعمال الموانئ والمدن، والبلدان (الخاضعان لهما)، من أجل التجارة.

ثانيا : حرية التبادل التجاري برا وبحرا.

ثالثا : الحرية القانونية للقناصل في معالجة مشاكل الفرنسيين، مع تقديم يد المساعدة من طرف السلطات العثمانية لتطبيق الأحكام الصادرة عن القنصل.

رابعا : على المستوى الجنائي، بين الأتراك والفرنسيين لا يمكن متابعة الطرف الأخير إلا بتقديم دليل خطي من الأتراك وبدونه لا يمكن محاكمة الفرنسيين أمام القضاء العثماني بدون حضور الترجمان.

خامسا : على مستوى الجريمة، لا يجوز تقديم الفرنسيين أمام المحاكم العادية. بل أمام الباب العالي أو حيث يوجد الحاكم المحلي للسلطان، أو حيث يوجد شاهد عيان.

سادسا : على المستوى الديني، الحرية الدينية المطلقة للفرنسيين.

سابعا : عدم متابعة القنصل أو أي فرنسي آخر في حالة هروب فرنسي بدين تركي، وفي هذه الحالة يمكن للتركي المطالبة بحقه عند تواجده بالأراضي الفرنسية.

ثامنا : يمنع استعمال سفن أو سلاح، أو أمتعة الفرنسيين بالقوة.

تاسعا : في حالة وفاة فرنسي يلزم احترام وصيته وتنفيذها، مع إعادة ممتلكاته لأصحابها الشرعيين أو إلى القنصل في حالة عدم وجود وريث.

J.V. Hommer sur les Premières relations de la France et de la Porte in. journal Asiatique, 1827 (x) 1819 - 45.

J. Urçu, politique Orientale de François 1^{er}. Op. Cit. p. 97.

(19)

عاشرا : إطلاق صراح الرهائن والأسري بين الطرفين بمجرد التوقيع على المعاهدة.

حادي عشر : في حالة التقاء سفن الطرفين يلزم عليهما إبداء التحية بطلقة مدفع، وإنزال الأشرعة... مع المنع التام للزيارة.

ثاني عشر : المنع المطلق بتملك بقايا حطام السفن التي تلقي بها العواصف إلى الشواطئ العثمانية⁽²⁰⁾.

ويذكر المؤرخ De la Jon Quière، أن Ohsson (وهو مؤرخ آخر) يقدم قراءة أخرى مختلفة تتضمن تباينات مهمة،⁽²¹⁾ وحسب هذا المؤرخ فإن المعاهدة كانت مشروطة : وهي تتضمن سبعة بنود :

أولا : إقامة سفير فرنسي بالقسطنطينية، وقنصل بالإسكندرية.

ثانيا : أداء التجار الفرنسيين لضريبة لا تتجاوز 5%.

ثالثا : خلال مدة العشر سنوات من إقامة الفرنسيين داخل أراضي الدولة العثمانية فإنهم لن يؤديوا عن ذلك ضرائب، إلا بعد هذه المدة، فإنهم مجبرون لأداء ضريبة الرؤوس أو الجزية، والضرائب العادية.

رابعا : على الدول من مثل : الإنجليز، والقبارصة، والجنويون... إلخ الذين لم تكن لهم علاقات صداقة تطورها معاهدة مع الباب العالي الإبحار تحت إشراف وحماية فرنسية، في كل مناطق النفوذ العثماني.

خامسا : الحرية المطلقة في ممارسة الطقوس الدينية، وحراسة المناطق المقدسة في فلسطين، من طرف مسيحيين كاثوليك.

سادسا : يمنع نهائيا على أي فرنسي، كل الأديرة، وكل الكنائس، امتلاك عقار داخل البلاد الإسلامية.

(20) نص بنود المعاهدة

E. Charrière, Négociations de la France dans le Levant. Op. Cit. pp. 285-294.

De la Jon Quière, Histoire de l'Empire Ottman, Op. Cit. p. 237.

(21)

سابعاً : كل الأطفال الذين يولدون من أب فرنسي، وأم من مناطق نفوذ عثمانية، يصيرون من رعايا للسلطان.

إنه من أجل فهم قيمة هذه المعاهدة، يجب التذكير أن عقبة ظلت حتى حدود هذه المعاهدة صعبة التجاوز حكمت العلاقة بين المسلمين والمسيحيين، بحيث أن الطرفان يتناظران كأعداد، تفرض عليهما الحساسية الدينية الحرب بدل أي نوع آخر من العلاقات.

وقد تموقيع خلال هذه المعاهدة كما يذكر المؤرخ De la Jon Quière على معاهدة دفاع وهجوم بين العثمانيين والفرنسيين، يقوم خلالها السلطان بغزو هنغاريا ومملكة نابولي في حين يقوم الملك François 1^{er} بهجوم على La lombardie⁽²²⁾.

2. المعاهدة وانعكاساتها المستقبلية على الدولة العثمانية :

إنه إذا كانت الدولة العثمانية قد تمكنت من تحقيق مكاسب مرحلية من معاهدة 1535، وذلك باختراق الصف المسيحي، وكسب فرنسا إلى جانبها ضد إمبراطوريتي النمسا وإسبانيا، والاستعانة بذلك للانتشار على حساب أوروبا الشرقية وبالضبط هنغاريا والوصول حتى أسوار فيينا... إلخ، فإنها على المدى المتوسط والبعيد سوف تجني نتائج وخيمة ليس فقط من حيث كون المعاهدة تعطي امتيازات خيالية لفرنسا. داخل أراضي الدولة العثمانية، ولكن أيضاً من خلال نتائج هذه المعاهدة وانعكاساتها المستقبلية على الباب العالي.

فمن خلال ماتنص عليه المعاهدة يمكن أن نستخلص مايلي :

أولاً : على المستوى السياسي : لقد جاء توقيع المعاهدة متزامناً مع الظروف السياسية السلبية التي كانت تعيشها أوروبا، وإذا كانت الدولة العثمانية قد استطاعت أن تستغل هذه الظروف لصالحها والتوسع على حساب مناطق النفوذ الأوروبية (إسبانيا والنمسا)، فإنها لم تستطع على المدى المتوسط والبعيد التحكم في مسار هذه المعاهدة التي سوف تتحول مع الزمن إلى تقليد متبع من طرف الباب

De la jonquière, histoire de l'Empire Ottoman, Op. Cit, p. 238.

(22)

العالي ليعطي لفرنسا وبعض الدول الأوروبية الأخرى امتيازات⁽²³⁾ لم تكن تحلم بها منذ أمد قريب. لقد وقعت الدولة العثمانية في خلط خطير ما بين الهدف والوسيلة، ذلك أن هدف الدولة العثمانية كما سبق وأن أشرنا هو المزيد من الفتوحات باتجاه أوربا، وقد أحسنت ذلك باستغلالها علاقات الصداقة مع فرنسا، في حين أن الوسيلة كانت العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا بما في ذلك معاهدة 1535 التي كانت الجانب السري فيها يحدد برنامج الأولويات داخل هذه المعاهدة : (محاربة إسبانيا والتمسا، وغزو هنغاريا). وهكذا ومبجرد ما تحقق الجانب السري للمعاهدة لم تغير أو تعدل الدولة العثمانية من سياستها تجاه فرنسا بما يخدم مصالحها بل تابعت نفس السياسة وذلك بإعطاء فرنسا المزيد من الامتيازات السياسية والاقتصادية والدينية... إلخ بل والأكثر من ذلك أنها سوف تكرر تقليدا خطيرا سوف يشكل تاريخيا أحد أهم الأسباب التي سوف تؤدي إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية Les capitulations.

لقد فتحت الدولة العثمانية بابا لم ولن تستطيع أبدا إغلاقه، سوف يستغله الأوروبيون للانسلال إلى داخل الإمبراطورية والعمل على خدمة مصالحهم. وسوف تزداد هذه الامتيازات الممنوحة من طرف الباب العالي خلال القرن السابع عشر، والذي سوف يعرف بسياسة الامتيازات Politique des capitulations أو قرن للامتيازات.

وسوف تتفاقم هذه السياسة خلال القرن الثامن عشر لكي تتحول من طرف الأوروبيين إلى وسيلة ضغط La pression européenne⁽²⁴⁾، أو المسألة الشرقية، La question d'orient، لدرجة أن القرن سوف يعرف «بقرن الضغوط الأوروبية».

ثانيا : على المستوى الاقتصادي : لقد نص كل من البندين الأول والثاني على

(23) لقد أطلق عليها الأوروبيون ومنهم البروفسور Christian Desplat في مقالة :

Colloque, Henri IV et les Ottmanes le Système des capitulations

La tradition des capitulations

أو

(24) إن عدد المعاهدات التي وقعتها الدولة العثمانية لصالح فرنسا كثيرة جدا : 1535 - 1553 - 1604 - 1673 إلخ. هذا فضلا عن ما وقعته الدولة العثمانية لإنجلترا.

حرية التنقل والتجارة برا وبحرا لرعايا الإمبراطوريتين، ومن أجل أن نفهم أكثر انعكاسات هذين البندين على مستقبل الدولة العثمانية، فإنه من الضروري وضعهما في سياق الظروف الاقتصادية وتطورها بالنسبة للدول وعلى رأسها فرنسا والدولة العثمانية. فلقد عرفت الدول الأوروبية ومنذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر تطورا مهما على مستوى البنية الاقتصادية كنتيجة بالدرجة الأولى لعمليات الكشوف الجغرافية (جلب الذهب والفضة ومواد أخرى + عقود تجارية مع دول وإمارات الشرق (الهند) + أمريكا اللاتينية). وكشف الطريق البحرية المؤدية إلى الشرق وذلك بالإبحار على طول الشواطئ الإفريقية الغربية ثم الشرقية والوصول إلى المناطق التي طالما تحكمتم الوساطات الإسلامية في علاقة أوروبا بها. لقد كانت النتائج الأولى لهذه العملية الضربة القاضية لمركزية البحر الأبيض المتوسط على المستوى التجاري، وإذا كان البحر الأبيض المتوسط هو المجال الاقتصادي الإسلامي، فإن أكبر متضرر من التطور الاقتصادي الأوروبي هو الاقتصاد الإسلامي، وسوف تشكل هذه المرحلة الأصول الأولى للتباين على مستوى النمو والتطورين الاقتصاديين الأوروبي والإسلامي.

وإذا عدنا إلى الاقتصاد الإسلامي خلال هذه الفترة فإننا نجد اقتصادا يقوم بالدرجة الأولى على الإنتاج والاستهلاك المحلي... في حين أن الاقتصاد الأوروبي اقتصاد قائم على البحث المتزايد على المواد الأساسية لتنمية اقتصاده (استيراد مواد وإعادة تصديرها + البحث عن أسواق + البحث عن امتيازات.... إلخ).

وعلى هذا الأساس، وبما أن معاهدة 1535 تفتح المجال بشكل واسع للاقتصاد الأوروبي وبالخصوص الفرنسي، فإن أراضي الإمبراطورية العثمانية سوف تتحول تدريجيا إلى سوق كبيرة ستشكل فيما بعد خاصية القرنين السابع والثامن عشر دعامة أساسية للاقتصاد الفرنسي⁽²⁵⁾ ولقد تزايدت الامتيازات Capitulations الممنوحة من طرف الدولة العثمانية لفرنسا إلى حد تحويلها إلى وسيلة ضغط لن تتمكن الدولة العثمانية من مقاومتها أو الحد منها. ومما ساعد فرنسا في النجاح في

(25) يمكن العودة في هذا المجال إلى كتابين للفرنسي :

Paul Mosson ; Histoire du commerce Français dans le Levant au XVII^{ème} siècle, Paris 1896 / Histoire du Commerce Français dans le Levant au XVIII^{ème} siècle, Paris 1911.

هذا المشروع توفرها على سفراء وقناصل وبحار في مراكز حساسة تجارية، بالإضافة إلى أسطول بحري متطور عددا وعدة. ولقد أشار كل الرحالة الذين زاروا الإمبراطورية العثمانية خلال القرنين السابع والثامن عشر إلى العدد الضخم للفرنسيين بجبل مناطق الدولة العثمانية، وتوفرهم على البنية التي تساعدهم على الاستقرار والعمل على تطوير الاقتصاد الفرنسي.

ولذلك فإن أكبر مستفيد من معاهدة 1535 هم الفرنسيون الذين غزوا الأسواق والمدن العثمانية، وقد ساعدهم على ذلك قانون الحماية التي كانت الدولة العثمانية توفره لهم أو (ما عرف بقانون أهل الذمة). وعلى العكس من ذلك فإن المسلمين لم يستفيدوا بشكل كبير من هذه المعاهدة خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار قلة - إن لم نقل عدم - تنقل المسلمين إلى الأراضي الفرنسية قصد التجارة لاعتبارات دينية وسياسية.⁽²⁶⁾ وفي الأخير كان لابد لهذا التباين بين الاقتصاديين الفرنسي والعثماني أن تكون له انعكاسات خطيرة على المستوى الاجتماعي، إذ أن المجتمع العثماني سوف يتحول إلى مجتمع للاستهلاك بعدما غزت أسواقه المنتوجات الفرنسية والأوربية، وهو الأمر الذي سوف يؤدي إلى خلخلة البنية الاقتصادية والاجتماعية للدولة. كما أن منتوجاته حتى تلك التي كان يوجه قسط منها للتصدير سوف تعرف منافسة حادة من طرف المنتوجات الأوربية المجلوبة من المناطق المكتشفة. (الحبوب، البن... إلخ).

إن الواقعية التاريخية تقتضي أن قيام أو سقوط الدول لا يكون عن طريق الصدفة أو الفجائية، ولكن لعملية تراكم مجموعة من العوامل والظروف، والوظيفة التي تؤديها، وهذا ما ينطبق على سقوط الدولة العثمانية الذي جاء نتيجة لتراكم مجموعة من العوامل التي تفاعلت بتناقضاتها، فأدت إلى السقوط، وعمليا فإن العامل الاقتصادي هو أحد أهم هذه العوامل.

ثالثا : على المستوى القضائي : لقد نص كل من البند الثالث والرابع والخامس والسابع على تمتع الفرنسيين بحرية قانونية وقضائية خاصة، وهذا يعني نوعا من

(26) لقد أشار Bernard Lewis إلى هذه المسألة في كتابه :

Comment l'Islam à decouvert L'Europe ? Paris 1986.

الإستقلالية على مستوى المعاملات القانونية والقضائية. وعلى هذا الأساس صار داخل الدولة العثمانية نوعين من المعاملات القضائية، الأول خاص برعايا الدولة والثاني خاص بالجمالية الفرنسية أو من يعملون باسمها، من هنا، وتاريخيا سوف يشكل هذا الإمتياز الأصول الأولى للحماية القانونية والقضائية الفرنسية بالشرق، بمعنى آخر أن الحماية الفرنسية القانونية والقضائية بالشرق خلال القرن التاسع عشر. إنما هي تطور وامتداد لذلك الإمتياز الذي منحتة الدولة العثمانية خلال معاهدة 1535 مع فرنسا.

إن من نتائج منح هذا الإمتياز على المدى المتوسط تكاثر وانتشار الفرنسيين داخل كل المناطق الحيوية للدولة العثمانية (مصر، سوريا، إسطنبول... إلخ) الشيء الذي يعني التطور الأتوماتيكي للقناصل والممثلين الفرنسيين داخل هذه المناطق، فضلا عن عدم توفر الأجهزة الكافية لمراقبة وضبط هذا التسلسل الأجنبي (مع كل ما يمكن أن يحمله ذلك من تأثيرات، اجتماعية، ثقافية، أخلاقية... إلخ). فإن جزءا مهما من المتواجدين على الأراضي العثمانية سوف يتخلصون من متابعات القضاء العثماني، مما يعني تعطيل جزء مهم وخطير من القضاء الإسلامي. ولذلك فعند التعاطي لعوامل سقوط الدولة العثمانية لا يمكن إغفال الإنعكاسات السلبية، ان على المدى المتوسط أو الطويل لهذا العامل ودوره في اضمحلال ثم سقوط الدولة العثمانية. إن الأمر هنا لا يقتصر على الجمالية الفرنسية فقط بل كل الجاليات الأوروبية التي سوف تتكاثر داخل أراضي الدولة العثمانية خاصة خلال القرنين السابع والثامن عشر. والتي سوف تشكل ما يعرف في اصطلاحات العلوم السياسية «القواعد الخلفية»، لدولها وعملها على تمزيق الدولة العثمانية. Demembrement de L'empire من الداخل.

رابعا : المستوى الديني : لقد انتهجت الدولة العثمانية سياسة التسامح Tolérance تجاه ليس فقط المسيحيين الشرقيين، بل أيضا اتجاه الجاليات الأوروبية وبالخصوص الفرنسية، ولذلك فقد جاء البند السادس من المعاهدة كي يؤكد على هذه المسألة، بل إن الدولة العثمانية وبالتحديد خلال القرن السابع عشر سوف تذهب أبعد من ذلك في سياستها مع فرنسا : منح فرنسا حق حماية المناطق المقدسة المسيحية بالشرق والمسيحيين الشرقيين. وقد تم تأكيد ذلك من خلال معاهدة

1604 التي وقعتها الدولة العثمانية مع فرنسا. ولقد تطورت هذه الوضعية بشكل سريع خاصة خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، عندما بعث الملك الفرنسي لويس الثالث عشر أحد سفراءه والمعروف بـ لوي دي هاي دو كور نومان Louis Des hayes de cournemin إلى الباب العالي لنفس الغرض، لكن أيضا لإنشاء قنصلية جديدة بالقدس هدفها حماية الأماكن المقدسة والمسيحيين الشرقيين الذين يعملون لصالح فرنسا.

وقد قام هذا السفير بنشر نصوص التوجيهات الملكية والأوامر السلطانية ضمن رحلته التي نشرت خلال نفس الفترة يقول النص :

«Le Roi, ayant eu avis que les Chretiens et les Arméniens faisaient diverses entre prises sur Bethem et plusieurs autres lieux - saint de Jerusalem et que par le moyen de quelques officiers, qu'ils avaient corrompus, ils s'efforçaient d'en déposséder les religieux corde liens qui les servent, il dépêche le sieur Deshayer vers le Grand-seigneur, pour faire châtier l'insolence de ces usurpateur et apporter à ces pauvres religieux le soulagement qu'ils espéraient de son autorité. Et afin qu'a l'avenir ils puissent être plus promptement secourus au besoin, et que les pèlerins qui vont visiter ces saints - lieux y puissent recevoir de l'assistance, il lui commanda d'établir un consul à jérusal pour les protéger sous son nom et tenir la main à l'exécution des commandement que son ambassadeur obtiendrait à la porte en leur faveur»⁽²⁷⁾.

أما النص السلطاني فقد جاء فيه :

«Je commande qu'a l'arrivée de ce mieu haut et chaoux de ma souveraine Porte, de l'honorable parmi ses semblables. Insouph (Le bonheur duquel croisse) vous fassiez, selon le contenu en celui que les Eglises et lieux de dévotion de la ville de Jerusalem et des environs, qui de toute ancienneté souloient être tenus et possédés par les religieux francs, leur soient restitués et rendus, et les un fassiez jour en la même sorte et manière qu'ils ont fait par le passe, et empêchiez qu'ils ne soient molistés, fâchés, ni troublés par les Anceins, et par les autres nations Chrétiens....».

وعلى هذا الأساس، فقد شكلت حماية الأماكن المقدسة والمسيحيين الشرقيين

«Instruction données par Louis XIII à Louis Deshayes pour son voyage à jérusalem (15 Avril 1621)» Voyage de Levant fait par le commandement du Roy, en l'année 1621, par Use D.C, PI.

«Commandement du Grand Seigneur en faveur des religieux Francs» (a Mai 1621) Ibid, (28) p. 381.

قضية حساسة في العلاقات الفرنسية العثمانية طوال ثلاثة قرون، وإذا كانت فرنسا قد تمكنت من كسب الرهان في هذا المجال أمام الدول الأوروبية، فإنها بذلك تكون قد تمكنت من بناء إحدى الخلايا التي ستوطد الوجود الفرنسي بالشرق مما سيكون له انعكاسات خطيرة على مستقبل الدولة العثمانية ذلك أن فرنسا سوف تستغل المسيحيين الشرقيين خلال فترات لاحقة خاصة القرن التاسع عشر لكي تحقق أهدافها الاستعمارية داخل أراضي الباب العالي.

إن الدولة العثمانية قبل أن تكون ضحية السياسات الفرنسية القائمة على القضاء على العثمانيين بشكل تدريجي، فإنها كانت وقبل كل شيء ضحية سياساتها الخارجية والإفراط في تسامحها الديني مع الجميع خاصة الدول الأوروبية.

ولذلك فإن الثمن الذي ستدفعه كان ثمنا غاليا ربما يساوي وجودها الكلي، ولقد تأكد ذلك بالفعل خلال القرنين التاسع عشر والعشرين بالقضاء على هذه الدولة بشكل نهائي.

وختاماً، فإن الحديث عن أسباب سقوط الإمبراطورية العثمانية لا يمكن بأي شكل من الأشكال حصره في القرن التاسع عشر والعشرين، ولكن، وبشكل أساسي بالرجوع إلى القرون السابقة (القرن السادس والسابع، والثامن عشر)، حيث الجذور الأولى لأسباب ضعف وانحلال هذه الإمبراطورية كما بينا ذلك من خلال معاهدة 1535 وانعكاساتها المستقبلية.

جنوة وبلاد المغرب في العصر الوسيط^(*)

جورج جهال

(أستاذ بجامعة بيكاردي فرنسا)

ترجمة

محمد الشريف

كلية الآداب — تطوان

باستثناء بعض الدراسات ذات الأهمية الكبرى، ولكنها قديمة جداً،⁽¹⁾ فإن

Georges Jehel, Gênes et le Maghreb au Moyen - Age, *Studi Magrebin* (Napoli), vol. XXII, (°) 1990, pp 59 - 86

أشكر الأستاذ مصطفى نشاط من كلية الآداب بوجدة والأستاذ نجيب واسمين بكلية تطوان على تفضلهما بتدقيق ترجمة بعض المصطلحات.

L. de Mas Latrie, *Chartes relatives aux Etat de Bougie et de Bône*, Bibliothèque de l'Ecole des Chartes, 1 ère série, T. II, 1840 - 1841, pp. 388 - 397 (1)

Documents sur l'histoire de l'Algérie et de l'Afrique Septentrionale au Moyen-Age documents relatifs au commerce des Génois sur côte d'Afrique au Moyen-Age la 2 ème série T.V, 1848 - 1849, PP 134 - 154 D B.E.C., T.III, 1857, pp 439 - 425. *Traité de paix et de commerce concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Age*, 2 vol., Paris, 1866 - 1872, reprint New - York, 1964.

- M. Amari : *Diplomi arabi di Real Archivio Fiorentino*, Florence, 1863 - 1887;

Nuovi ricordi arabici sulla storia di Genova, Atti della Società Ligure di Storia Patria, cité infra

A.S.L.S.P., IV, 1876, pp.561 - 635; biblioteca Arabo - sicula, 2 vol., Turin - Rome, I G. Caro : *Genova and die mächte am Mittelmeer*, 1257 - 1311, 2 vol., Halle, 1895 - 1899, trad. I talienne de O. Soardi : *Genova e la supremazia sul Mediterraneo*, 1257 - 1311, 2 vol., Gênes, 1 975

- E. Marengo : *Genova e tunisi (1388 - 1515)*, A.S.L.S.P., XXXII, Gênes, 1901 E. Byrne : *Commercial contacts of the Geneose in the trade of the XIIIth century*, dans, *The artertly Journal of Economics*, XXXI, 1916, pp 128 - 170; *Genoese shipping int the twelth and th irteenth centuries*, Cambridge Mass., 1930

= A.E. Sayous : *Le commerce des Européens à Tunis depuis le XII ème jusqu'a la fin du*

تاريخ العلاقات بين جنوة وبلاد المغرب لم يسترعى اهتمام الباحثين — على الأقل بالنسبة للفترات المبكرة⁽²⁾. وعلى الرغم من كون هذا الإهمال نسبي فقط — لأن الخطوط العامة للاتصالات بين الدول المسيحية والإسلامية بالغرب المتوسطي حيث لعبت جنوة، — مثلها مثل بيزة ومرسيليا ومونبولي وبرشلونة — دوراً هاماً، معروفة جيداً — فإنه يثير الدهشة، ليس فقط باعتبار مدى التوسع الجنوبي بغرب البحر الأبيض المتوسط، وشكلياته الاقتصادية والاستراتيجية، وإنما كذلك باعتبار الوفرة الضخمة كما وكيفاً للوثائق التي تسمح بتناوله⁽³⁾، إن ذلك الإهمال

XVI^{ème} siècle de notre ère environ, dans *Annales d'histoire économique et sociale*, T.III, 1931, N 12, PP 577 – 580

– H.C. Krueger : Genoese Trade With Northe - West Africa dans *Speculum*, T.VII, 1933, pp 377 - 3 95; The Wares of Exchanges in the Genoese - African Traffic of the XIIIth century, dans, *Speculum*, T.XII, pp 57 - 71; Genoese merchants, their partnerships and investments, 1155 to 1164 , dans *Studi in onori di A. Saporì*, t, I, Milan, 1957, pp. 257 – 275 R.di Tucci : Documenti inediti sulla spedizione e sulla mahona dei Genovesi a Ceuta (1234 – 1237), A.S.L.S.P., XLIV, Gênes, 1935.

R.S. Lopez : Studi sull'economia genovese del medioevo, I *Genovesti in Affrica occidentale, le origini dell 'Arte della lana*, Turin, 1936

- R.Brunschvig : *La Berbérie orientale sous les Hafssides des origines au XV^{ème} siècle*, 2 vol., Paris, 1940 - 1947;

(2) لنشر مع ذلك إلى

E. Bach, *La cité de Gênes au XII^{ème} siècle*, Copenhagen, 1955; Ch. E. Dufourcq, *Aperçu sur le commerce entre Gênes et le Maghreb au XII^{ème} siècle*, *Mélanges offerts à E. Perroy*, Paris, 1973, pp. 721 - 736; J.L. Yarrisson, *Force as an instrument of policy. European military incursion and trade in the Magrib, 1000 - 1355*, Princeton U., 1982; H; C Krueger, *Navi e proprietà navale a Genova, seconda metà del secolo XII*, Gênes, 1985; *Etat et conlisation au Moyen Age*, sous la direction de M.Balard, Lyon, 1989, pp 16 - 128

بالنسبة للقرن الخامس عشر، نجيل على

J.Heers, *Gênes au XV^{ème} siècle, Activités et problèmes sociaux*, Paris, 1962

(3) بالنسبة لأهم المصادر السردية يجب أن نطالع على الخصوص

C. Imperiale di Sant' Angelo et L.T. Belgrano, *Annali di caffaro e continuatori*, 5 vol., Rome 1890 - 1929, trad. italienne C. Roccataglia Ceccardi et G. Monleone, 11 vol., Gênes, 1923 - 19 72, cité infra A.G; G. Monleone, *jacobo da Varagine et la sua cronaca di Genova dalle origini al MCCXCVLL*, studio introduttivo e testo critico commentato, 3 vol.; Rome, 1941

إن أهم المصادر الإدارية المتعلقة بالعلاقات الرسمية بين جنوة ومختلف القوى المتوسطية، توجد مجموعة في

- Liber Jurium Reipublicae, 2 vol., Turin, 1954 - 1857, C. Imperiale di Sant'Angelo, *Codice dip lomatico della Repubblica di Genova*, 3 vol., Rome, 1936 - 1942.

يمكن كذلك مراجعة جرد للاتفاقيات التي أبرمتها جنوة مع الدول الأورو متوسطية =

يُفسَّر مع ذلك بالجاذبية التي ما يزال يمارسها الشرق والحرب الصليبية ومخلفاتها من كل نوع على البحث المتوسطي الوسيط. يمكن أن يظهر اللاتوازن الناتج عن ذلك مبرراً إذا ما اعتبرنا الشرق المتوسطي كمكان مفضل لتفصل فضاءات الحضارات الآسيوية والإسلامية والمسيحية سواء على المستوى الثقافي أو على مستوى الاقتصاد ومستوى الحياة المادية. ولو أن الدراسات الإيبيرية المخصصة للعلاقات مع بلاد المغرب⁽⁴⁾ قد عدلت قليلاً من ذلك اللاتوازن فإنه يظل مُفرطاً لسببين على الأقل :

أولاً إن دراسة العلاقات الشمالية الجنوبية في المجال الغربي لحوض البحر الأبيض المتوسط تستحق أن يتم إبرازها ليس فقط في أبعادها الإيبيرية والصقلية - فهذه الأخيرة قد أوضحها جيداً الوثائق الجنوبية -⁽⁵⁾ وإنما في شكلها الإيطالية - البروفنسالية حيث كان الجنوبيون معينين بالأمر مباشرة بطبيعة الحال. فهنا توجد سيرورة إقتصادية - سياسية بدأت معاملها تُنسج منذ نهاية القرن العاشر واستمرت حتى نهاية العصر الوسيط. وتكفي هذه الاستمرارية في سياسة الجنوبيين تجاه بلاد المغرب لقياس نفاذ وصفاء الرؤية التي فهم بها هؤلاء الموقع المحوري لهذه المنطقة كتمفصل لسياسة إفريقية ذات أهمية كبرى. ذلك ما تميل إلى تأكيده على كل حال الدراسات الحديثة حول التداخل بين التطورات الإفريقية والأورو - متوسطية عن طريق الوساطة المغاربية⁽⁶⁾ في هذا الصدد ليس هناك

P. Lisciandrelli, Trattati e negoziazioni politiche delle Repubblica di Genova, 958 - 1797, Gênes, 1960

بالنسبة للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي يجب الرجوع إلى سجلات الموثقين المحفوظة بأرشف الدولة المذكور سابقاً A.S.G. وتوفر على جرد نسبي لهذه السجلات في

Cartolari notarili genovesi (1 - 149), inventario, pubblicazione degli di Stato, T.XLI, 2 - vol., Rome, 1956 - 1961.

(4) أهم كتاب هنا هو

Ch.E. Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghreb au XIII e siècle, de la bataille de las Navas de Tolosa. 1212 à l'évènement du Sultan merinide Abou l'Hssan*, 1331, Paris 1966

A.M.Boldorini, *Da Tunisi a Trapani con i Genovesi alla seconda Crociata di luigi IX (1270 -1271)*, Gênes, 1967

J. Devisse, Routes de commerce et échanges en Afrique occidentale en relation avec la Méditerranée. Un essai sur le commerce africain médiéval, dans *Revue d'histoire économique et sociale*, 1972, T. 50, pp 42 - 73 et 357 - 397; La question d'Audagust dans Tegdaoust, = 1, Recherche sur Aoudaghost, Paris, 1970, pp 109 156.

من أرشيفات أكثر أهمية من الأرشيفات الجنوية لقياس كثافة العلاقات الاقتصادية وطابعها المبكر مع العالم الإسلامي الغربي والتي ابتدأت بطريقة يمكن التثبت منها منذ منتصف القرن الثاني عشر.

الأساس الثاني لدراسة النشاط الجنوبي بالغرب المتوسطي الوسيط، له بُعد عام ويمكن أن يُبرز الإمكانيات الرائدة للعالم المغربي؛ يتعلق الأمر بالتقنيات التجارية وترامك الرساميل التي شكلت وسيلة أساسية للتوسع الاقتصادي والثقافي لأوروبا. فإذا كان من المؤكد أن الحمّية الاقتصادية التي أيقظتها الحرب الصليبية خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر قد لعبت دوراً أساسياً في بنات المبادلات إنطلاقاً من الجمهوريات الإيطالية نحو سوريا وفلسطين ومصر،⁽⁷⁾ فإنه من اللازم الأخذ بعين الاعتبار مرحلة زرع البنات السوسيو - اقتصادية التي تبلورت على أساس الاتصالات الجنوية مع المغرب وإفريقية بين 1150 و 1260. تدخل هذه الفترة في الواقع في سيرورة تطوّر الارتباطات المختلفة التي نسجتها جنوة مع العالم الشرقي الذي عرف نوعاً من الأوج حوالي 1350⁽⁸⁾ في هذا الصدد تسجل سنة 1261 مرحلة مهمة. فهي توافق اتفاقية «Nymphée» التي فتح البيزنطيون

Dramani Issifou, *l'Afrique dans les relations internationales au XVI^{ème} siècle, Analyse d'une crise entre le Maroc et le Songhai*, Paris, 1981 =

يمكننا الرجوع إلى حصيلة الإستوغرافية الإفريقية التي قدمها J. Devisse في

XX Congrès de la Société des Historiens Médiévistes de l'Enseignement Supérieur Public

المنعقد بباريس، جلسة 3 يونيو 1989، باريس 1991

(7) حول هذه الجوانب انظر أعمال E. Byrne و E. Bach المذكورة في الهامش 1 وعلى مستوى أكثر عمومية ما يزال اللجوء ضرورياً لـ

2 vol., Leipzig, 1885 - 1886, réim *Histoire du commerce du Levant au Moyen - Age* 7) W. Heyd, pr. 1923, réed. Amsterdam, 1967.

إنها الترجمة التي قام بها Furcy - Raynaud للطبعة الألمانية *Die Mittelalterlicher Handel Kolonien der Italianer in North Africa von tripoli bis Marocco*, Tubingen, 1864

وتوجد ترجمة إيطالية لهذا الكتاب *Storia delle colonie commerciali degli Italiani in Oriente* قام بها Muller البندقية، 1866.

A. Schaub, *Handelsgeschichte der Romanischen Völker des Mittelmeergebietes bis zum Ende der Kreuzzüge* - *Storia del commercio dei popoli latini nel Mediterraneo sino alla fine dell Crociate*, Turin, 1915

(8) خصص Michel Balard لهذا الموضوع أغلبية أعماله. انظر بالخصوص *La romanie génoise*

(XI^{ème} Siècle - début du XV^{ème} siècle) Rome Gênes 1978.

بمقتضاها البحر الأسود وضواحيه أمام الجنوبيين على حساب البندقيين. وحتى ذلك التاريخ كانت الهيمنة البندقية على الشرق المتوسطي تكبل دائماً الطموحات الجنوبية في هذه المنطقة. بالمقابل، كان الجنوبيون يتوفرون بالغرب، (بمبورقة وبالأندلس وبلاد المغرب)، على مجالات خاصة لإنضاج تجربتهم الدبلوماسية، وفي نفس الوقت تعميق معرفتهم بالعالم الإسلامي؛ رغم المنافسة البيزرية الضارية والخصومات الصاعدة مع مرسيليا أو مع منبوليي. وهكذا يمكننا اعتبار أن الغرب الإسلامي، وبلاد المغرب بصفة خاصة، كان يشكل، بفضل إمكانية الاتصال التي يفتحها مع السودان عن طريق سلا وسجلماسة، نوعاً من المختبر حيث يتعرف التجار الجنوبيون على إمكانياتهم الغربية والأطلسية مع إتقان تقنيات سوف يستعملونها بعد تكييفها في المشرق بعد سنة 1261. ولكن كان على الغرب وعلى بلاد المغرب بصفة خاصة أن تقدم لهم الموارد المادية لهذا الاستعمال. وتبين لنا عناصر كثيرة أن الأمر كان كذلك منذ الاتصالات الأولى للجنوبيين بالمغرب الأوسط وبالمغرب الأقصى⁽⁹⁾، أولاً إن الاتفاقيات التي تسطر ذلك كانت تضم دائماً بنوداً تجارية متعلقة بالترخيصات الممنوحة للتجار للمتاجرة بالبلاد الإسلامية مع الاستفادة من تخفيض الرسوم الجمركية. ثم إن تقوية هذه الروابط المتبادلة ستتجسد بسرعة في استقرار الجاليات الجنوبية على الساحل المغربي مع أشكال إدارية ومؤسسية ملاحظة في الأماكن التجارية المهمة في كل من سبتة وبجاية وتونس⁽¹⁰⁾. ولكن يجب تناول هذا النشاط الذي اصطدم الجنوبيون فيه دائماً بمنافسة مراكز التوسع

(9) إن اتفاقية سنة 1137 المبرمة بين الجنوبيين والمرابطين Liber Jurium, T.I, col 55 et A.G.I. p 28 هي إحدى النصوص الأولى المعروفة من هذا النوع. إنها تدشن سلسلة طويلة من الاتفاقيات المجددة بانتظام بين جنوة ودول إفريقيا الشمالية من القرن 12 إلى القرن 15. أغلب هذه الوثائق نشرها L.de Mas latrie السابق الذكر أو تم إحصاؤها من طرف P.Lisciandrelli, Trattati.. op.cit

يمكن إضافتها إلى هذا الملف قطعة من اتفاقية بين جنوة وتونس كانت تستخدم كغلاف لضيرة من وثائق القرن 16 بأرشفيف الدولة بجنوة Busta P التي سمحت بمصادفات البحث بالعثور عليها. تحمل في الواقع إسم Yeche Ebraye filius Ebelaabes حيث يمكن أن نرى أبو إسحاق إبراهيم الذي حكم تونس من سنة 1279 إلى سنة 1283

لنذكر باتفاقيات 1169, 1208, ibid p 108. 1208, A.G.T.II p 41. 1191, A.G.I.p 28; 1170. ibid p 237;

(10) انظر أسفله الجوانب السوسيو ثقافية.

الاقتصادي الأخرى المهمة بدورها بإمكانيات السوق المغاربية⁽¹¹⁾ - بتداخل المعطيات من النوع السياسي، والاقتصادي والسوسيو - ثقافي⁽¹²⁾.

(11) بالنسبة للعلاقات بين بيزة وبلاد المغرب، انظر M. Amari, *Diplomi arabi op.cit* M. Bensaci, *Pise et le Maghreb*, Université de Paris X, 1978. et familles et individualités pisanas au Maghreb dans *les Cahiers de Tunisie*, 1980, pp 57 75

بالنسبة لمرسيليا يجب دائما الرجوع إلى

R. Pernoud, *Essai sur le port de Marseille des origines à la fin du XII^{ème} siècle*, Marseille 1935 وإلى مقال J. Callé, *Le rôle des commerçants marseillais à Ceuta au XII^{ème} siècle*, dans *Mélanges d'Histoire de d'Archéologie de l'occident Musulman*. Hommage à Georges Marçais, Alger, 1957, T. II. Pp 20 - 31

الأغلبية المطلقة لأبحاث Ch. E. Dufourcq مخصصة لعلاقات برشلونة وبلاد المغرب، ولكن بصفة خاصة كتاب *L'Espagne* السابق الذكر. انظر بهذا الصدد كذلك

J. Jehel, *Catalans et Majoriquins à Tunis en 1289*, dans *Cuadernos de Historia economica de Catalunya*, XX, 1979 pp 125 - 130.

بالنسبة لنهاية العصر الوسيط انظر

Cl. Carrière, *Barcelone centre économique des difficultés, 1380 - 1462*, 2 vol., Paris 1967. J. Guiral, *Les relations commerciales du royaume de Valence avec la Berbérie au XV^{ème} siècle*, dans *Mélanges de la Casa Velasquez*, T.X, 1974, pp. 99 - 131

هناك شهادات على الحضور البندقي ببلاد المغرب منذ القرن 13. تشير إلى ذلك وثيقة ذات أهمية كبيرة نظراً لندرة مثيلاتها. يتعلق الأمر بقطعة من سجل موثق جنوبي أقام بتونس في نهاية القرن 13. إنها أقدم شهادة من نوعها متعلقة ببلاد المغرب. قارن

G. Jehel, *Catalogue analytique et chronologique des actes du notaire Petrus Batifolius rédigés à Tunis du 20 décembre 1288 au 24 juin 1289*, dans *les Cahiers de Tunisie* XXV, N° 99 - 100, 1977, pp 69 137

وكذلك G. Pistarino, *Notai genovesi in Oltremare, Atti rogati a Tunisi da Pietro Battifoglio* (1288 - 1289), Gênes 1986

لكن ذلك الحضور سيتقوى كثيراً في القرن 15 عندما اضطر البندقيون تحت الضغط التركي العثماني، إلى تقليص نشاطهم بالشرق وخاصة بالبحر الأسود. يمكننا أن نراجع بهذا الخصوص مقال

B. Doumerc, *La crise structurelle de la marine vénitienne au XV^{ème} siècle, le problème du retard des Mude*, dans *Annales, Economies, Sociétés, Civilisations*, n° 3, 1985,

pp 605 - 236 هذا الباحث يقوم بدراسة حول موثق بندقي بتونس ستلقي أضواء جديدة على حضور الجماعات المسيحية ببلاد المغرب في القرن 15. يمكن كذلك الرجوع إلى

B. Doumerc, *Venise et l'espace maritime occidental au XV^{ème} siècle : une tentative de reconversion commerciale thèse microfichée*, lille, 1989

(12) CF. G. Jehel, *Les Génois en Méditerranée Occidentale (fin XI^{ème} - début XIV^{ème} siècle)* (ébauche d'une statégie pour un empire, Centre d'histoire des Sociétés, U. de Picardie, Paris - Amiens 1993

1) المظاهر السياسية للعلاقات الجنوبية المغاربية من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر

يمكن أن تُحلّل هذه المظاهر ابتداء من تمفصل كرونولوجي بسيط يأخذ بعين الاعتبار التطورات السياسية لكل من الدول المسيحية والدول المغاربية في نفس الوقت. ويمكننا أن نتموّع ذلك التمفصل حوالي سنة 1100 - 1150.

كانت العلاقات الجنوبية المغاربية تتركز من منتصف القرن 10 إلى منتصف القرن 12 على نمط صراعي كلاسيكي يوافق استعمال القوة التي لجأت إليها بالتناوب كل من الدول الإسلامية المنبثقة عن فتوحات القرن الثامن، والدول المسيحية التي تم تأسيسها بسرعة على أنقاض الإمبراطورية الكارولنجية.

من الجانب المغاربي كان قطب المبادرة الرئيسي يقع بإفريقية. ففي الاندفاع للاستيلاء على صقلية وعلى إيطاليا الجنوبية، تضاعفت الغارات على سواحل إيطاليا الشمالية ومنطقة بروفانس عند نهاية القرن الثامن وخلال القرن التاسع. وكان الساحل الجنوبي قد عرف في الفترة السابقة، (غداة غزوات القرن الخامس)، المخاطر التي تمثلها إفريقيا التي كانت آنذاك بيد الوندال. وتعود أولى ردود الفعل الجنوبية المعروفة بهذا الصدد إلى سنة 406⁽¹³⁾. وهناك حلقتان مشهورتان تميزان الحروب بين جنوة وإفريقية خلال هذه الفترة. حدثت الأولى بين سنتي 931 و 936 خلاهما هاجم الأسطول الفاطمي مدينة جنوة وخرّبها ولم تحرك ساكناً

(13) Cf. U. Formentini, *Genova nel Basso Impro e nell'alto medio evo*, dans *Storia di Genova* dalle origini al tempoo nostro, vol. VII, Milan. 1941, pp 72 - 75

دراسة الهجمات التي قام بها المسلمون ضد السواحل الأوروبية تطرق إليها L. Musset في

Les invasions, le second assaut contre L'Europe. VII ème S.; Paris, 1971, p 150

فيما يتعلق بجنوة تؤرخ أولى الهجمات الإسلامية بسنة 798 حسب حولية Jacobo da

Varagine السابق الذكر، ج 2، ص 263. ويورد المؤرخ الجنوبي

في Giustiniani *Annali della Repubblica di Genova*, éd G.B. Spotorno, Gênes, 1884, vol

I, pp 122 - 123

أن Ademar، كونت جنوة قد قتله المسلمون في معركة بحرية في مياه كورسيكا. يمكن

كذلك مطالعة كتاب B. Luppi, I Saraceni in Provenza, in *Liguria e nelle Alpi occidentali*, Bordighera, 1952

إلا بصعوبة سنة 936⁽¹⁴⁾.

في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر، بدأت تظهر معالم ردّ فعل جنوي - بيزي مطبوع بهجمات على الساحل الأندلسي سنة 962 وعلى الساحل الميورقي سنة 1013⁽¹⁵⁾. وتترجم هذه العمليات بالتأكيد بداية انقلاب التوجه لصالح المسيحيين بالبحر المتوسط الغربي، والذي يفسّر ليس فقط بتنظيم سياسي أكثر صرامة للجمهوريات الإيطالية، وإنما بصفة خاصة باستبدال الفاطميين بالزيريين والاختلالات التي رافقت ذلك وخاصة الهجرة الهلالية سنة 1055⁽¹⁶⁾. فلم يتردد المسيحيون في استغلال فرصة ضعف إفريقية. فقد كانت التكتلات تتضاعف ضد القوى الخاسفة لبلاد المغرب : ضد بونة سنة 1034⁽¹⁷⁾ وضد سوسة سنة 1053⁽¹⁸⁾، وأخيراً (وهنا الحلقة الثانية المعروفة جيداً التي توضح هذه الفترة التصادمية للعلاقات الجنوبية الإفريقية) حدث أول تركيز كبير للقوى المسيحية بإيعاز من البيزيين والذي غالباً ما أُوّل كحملة صليبية قبل أوانها : إنها الحملة ضد المهديّة سنة 1087 - 1088⁽¹⁹⁾ هذه السياسة

(14) حول تأويل وتعيين تاريخ هذه الأحداث الذي توردّه حولة جنوة حول العالم الأسطوري والذي يورده الكتاب العرب بطريقة أكثر تاريخية، انظر 16 - 12 J. Jehel, les Génois..., op. cit pp 12 - 16

(15) نفسه، 75

(16) حول تفسير الغزوة الهلالية انظر، J. Jehel, Les Génois..., op.cit p 31

J. Poncet, *Le mythe de la catastrophe* بين عناصر السجل Hilaliène dans *Annales Economis Sociétés Civilisations*, XXII, 1967 pp 1099 - 1120 et H.R. Idris, L'invasions hilalienne te ses conséquences, dans *Cahiers de Civilisation Méievale* 1985, pp 390 - 398.

(17) L. Gentile, *Gli Annali Pisani di Bernardo Maragone*, *Rerum Italiae Scroptores*, IV 2ème Partie Bologne, 1931, p 6

(18) M. Amari, *Biblioteca Arabo- sicala*, Op. cit pp 44 - 47

(19) أغلبية المصادر العربية حول هذه الحادثة جمعها

a.. op.cit. pp 62 - 65 M. Amari *Biblioteca Arabo - sical*

وتطرق إليها ابن خلدون في تاريخ البربر ترجمة de Slane, rééd P. Casanova, Paris, 1968 - 1969, T,II,p 24

L.T. Belgrano, Prima edizione del «Carmen in victoriam إلى يُرجع إلى *Pisanorum A.G.*, vol. I,p 13 *Genuensium aliorunque Italiensium*», Gènes, 1855, pp CCX Vi et suivantes

المهجومية للمسيحيين سيتابعها في القرن الثاني عشر نرمان صقلية الذين استطاعوا تحت حكم «روجير الثاني» أن يستولوا على المهديّة وبقوا بها من سنة 1148 إلى سنة 1159⁽²⁰⁾.

تطبع سنة 1159 فترة حاسمة في تاريخ بلاد المغرب لأنها توافقت أكبر عملية توسعية للموحدين الذين استرجعوا المهديّة في هذه السنة. وكان لهذا التطور أثر مباشر على الاستراتيجية الجنوية باتجاه بلاد المغرب. والواقع أنه بعد الضربات الموجعة التي تلقاها المسيحيون بالمرية بالأندلس سنة 1137⁽²¹⁾ وخاصة في سنة 1146 - 1148⁽²²⁾ سيتوجه الجنويون (الذين لاحظوا إعادة السيطرة القوية على بلاد المغرب) نحو سياسة التسوية التي استمرت بانتظام من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر. هذا المسار العام كان يعرف تموجات تعكسها تقلبات السياسة المغاربية.

جنوة وإفريقية

كانت السياسة الجنوية بإفريقية أكثر انتظاماً. إذ بعد اضطرابات القرن الثاني عشر ستستقرّ السلالة الحفصية القويّة بتونس ولمدة ثلاثة قرون ابتداء من سنة 1236. كان الحفصيون يمسكون بحقيقة السلطة هناك قبل هذا التاريخ، الأمر الذي كان يشكل بالنسبة لجنوة، وكذلك بالنسبة لبيزة، قاعدة صلبة للتفاوض. ومع ذلك كانت نقطة بداية هذه المفاوضات عاصفيّة⁽²³⁾ لكن المصالح المتبادلة،

(20) قارن ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مذكور في ابن خلدون تاريخ البربر، م س ج 2، الملحق الخامس، ص 578، 583

(21) قارن AG., vol. I p 29

(22) انظر حول المساهمة الجنوية في العمليات العسكرية التي قام بها القطلانيون بين سنة 1146 وسنة 1150، وكذلك حول علاقات جنوة بيلنسية ودانية وميوقفة التي كانت تحت حكم

المرابطين من بني غانية في هذه الفترة 39 - 34 pp. cit. op. cit. G. Jehel, Les Génois..

(23) أشير هنا إلى ما سمّيته في أطروحتي مسألة 1123 حيث نرى كيف حاول الجنويون الاستفادة من الأزمة السياسية بتونس التي اندلعت منذ سنة 1220 بتدخلاتهم في الشؤون الداخلية وبحصولهم على مهمات دبلوماسية لحساب السلطات الخاضعة. وهنا لأبي العلا، قائد تونس من سلالة عبد المؤمن. ولكن بسبب تدخل مرسيليا ستقلب الوضعية ضد الجنويين وستعطي بذلك لتونس مكانة الحكم بين جنوة ومرسيليا. انظر، G. Jehel, les Génois.. op. cit.

64 - 63 pp

والاقتصادية منها أساساً كانت من القوة بحيث ستستقر الوضعية بسرعة كبيرة على أساس اتفاقيات ثنائية تتجدد باستمرار. في سنة 1235، حلت سفارة جنوية بمدينة تونس. وعلى الرغم من توقّف السفر بسبب أحوال الجو السيئة، فإنه سيتم إعادة ربط الاتصال. لأنه في سنة 1236 ستوقّع أول اتفاقية مهمة بين جنوة وتونس⁽²⁴⁾ وستتجدد صلاحية بنودها سنة 1250 و 1272؛ كما ستتجدد صلاحيتها في بعض المعاهدات التي وصلتنا نصوص بعض منها فقط.⁽²⁵⁾ ونلاحظ أن الاهتزازات الخطيرة الذي أحدثتها الحملة الصليبية لسنة 1270 في العلاقات الجيدة بين جنوة وتونس لم يكن لها انعكاسات دائمة.⁽²⁶⁾ وحدث نفس الشيء في القرن الرابع عشر والخامس عشر حيث حافظت العلاقات الجنوبية التونسية على جوّ يطبعه التفاهم باسم المصالح الاقتصادية المتبادلة⁽²⁷⁾ على الرغم من بعض الصعوبات، مثل الحملة على جربة سنة 1388 والمهجوم على المهديّة سنة 1389.

جنوة والمغرب

تندرج العلاقات بين جنوة وغرب بلاد المغرب في إشكالية أكثر كثافة لا يمكن تناولها في هذا المقام.⁽²⁸⁾ إنها تلتقي في الواقع أولاً بالمسألة الكبيرة المتعلقة بتزوّد أوروبا المتوسطية بالذهب عن طريق الوساطة المغربية. وهذه المسألة تُفحم دوافع وتأويل تموجات السياسة الجنوبية ببلاد المغرب.⁽²⁹⁾ لقد تبلورت الشكليات

(24) A.S.G., Materie Politiche, Busta 4, Doc 45 يمكن مطالعة كذلك G. Jehel, Les génois.op.cit, 65

(25) مثلاً اتفاقية 1287، (A.S.G. Mat. Pol. B., 6., Doc 49) حول هذه المظاهر انظر G. Jehel,

Les Génois.. op. cit 67

(26) حول مساهمة الجنوبيين في الحروب الصليبية لـ «سان لويس» وخاصة حملة سنة 1270، وحول

تفسير مخلفاتها، انظر 81 - 85 G. Jehel, Les Génois.. op. cit,

(27) إن حملة 1389 تمت تطبيقاً لاتفاقية لصالح التونسيين سنة 1391. ويحتفظ بهذه الوثيقة

في أرشيف الدولة بجنوة، مجموعة. 2729 Materie Politiche, Busta كان ماس لاطري قد

نشره في 239 - 242 pp. cit, pp. 239 - 242 Traités de paix.. op.

حول مختلف الأحداث ومخلفاتها في القرن 15، بالإضافة إلى ماس لاطري يمكن مراجعة E.

E. Marengo, Genova e Tunisi... op. cit, p 28

(28) نجد المعطيات عند R.S. Lopez, Studi sull'economia.. op.cit., وكذلك عند G. Jehel, les

génois..op.cit. pp 67 - 71

(29) قارن 353 - 356 pp. cit, pp. 353 - 356 G. Jehel, Les Génois.. op.cit.

السياسية والاقتصادية لتدخل الجنويين في المجال المغربي وفي الصراعات بين بني عبد المؤمن وإمارة مورسية بوضوح في ما يسمى «مُعونة سبتة»⁽³⁰⁾ لكن هذه الاشكالية تتمحور كذلك حول الجاذبية التي مارستها إفريقيا والمحيط الأطلسي على الجنويين. ويمكن أن يكون لهذه الإشكالية دافع مضاعف. أولاً دافع استكشافي كما تبرزه لنا بوضوح محاولات الطواف البحري التي من أبرزها والمعروفة : حملة إخوان «فيفالدي» سنة 1292⁽³¹⁾ والتي لا يمكن إلا ربطها بالتجاذب (affinités) الإيبيري للسياسة الجنوبية. هذه الأخيرة أعادت في القرن الثالث عشر ببلنسية ودانية ومورسية⁽³²⁾ وإشبيلية وغرناطة وقاديس ومالقة،⁽³³⁾ وتقوّت في القرن الرابع عشر مع قشتالة⁽³⁴⁾ لتفضي إلى مآثر كريستوف كولون. ليس هناك من شك في أن المغرب ومدينة سبتة خاصة قد لعبا دوراً أساسياً في نضج المشروع الجنوي للتوسع نحو الأطلسي ونحو إنجلترا⁽³⁵⁾ وإلى أبعد من ذلك عن طريق جزر البليار وجبل طارق الذين يُعتبرون من بين المعالم العديدة على الطريق الغربية التي لم تكن أقل أهمية لدى الجنويين من طريق الصين⁽³⁶⁾.

ويمكن أن نربط التوسع الجنوي نحو المغرب بدافع آخر ذو طابع روحي وديني. تشهد على ذلك كثير من المؤشرات. ينطبق هذا البعد الروحي للنشاط الجنوي

(30) قارن Di Tucci, Documenti..., op.cit., note 1 وكذلك هامش 28 من

G. Jehel, Les Génois.. op.cit.,

(31) قارن G.Moore, la spedizione dei fratelli Vivaldi e nuovi documenti d'archivio dans Atti della Società Ligure di Storia Patria, n.s., vol. XII 2, Gênes, 1972 pp 387 - 402

(32) G.Jehel, Les Génois.. op.cit., pp 38 - 39

(33) نفسه، ص 395

(34) نفسه، ص 413

(35) R.S. Lopez, I primi della colonia genovese in Inghilterra dans Bolletino ligure per la storia et la cultura regionale, II. 1950 pp 66 - 70 Majorcans and Genoese on the North Sea route in the thirteenth century dans Revue Belge de Philosophie et d'Histoire, XXIX, 1951, pp 1163 - 1179

- M.G. Canale, Tentativo dei navigatori e scopritori genovesi per rumerre alle Indie lunghesso le costa occidentali dell'Africa sino degli ultimi del secolo XII, Gênes, 1881

(36) R.S. Lopez, Nouveaux documents sur les marchands italiens en Chine à l'époque mongole, dans l'Académie des Inscriptions et Belles lettres, Comptes - rendus des Séances de l'année 1977, Oct 1977, pp 445 - 458

بالمغرب كذلك على تونس من دون شك. لكنه كان محسوساً بالمغرب بوجه خاص. وهناك سلسلة من الرسائل البابوية لـ (إنوسان الثالث) سنة 1198 ولـ (هونوريوس الثالث) سنة 1226 ولـ (غرايغوا التاسع) سنة 1233 و 1237 ولـ (إنوسان الرابع) سنة 1246 و 1251⁽³⁷⁾ كان من بين أهدافها كلها ضمان استمرار المسيحية، ومساعدة الأسرى المسيحيين وحتى التحريض على تنصير المسلمين اعتماداً على عمل المبشرين الفرانسيسكيين الذين كانوا — على غرار مؤسسي تنظيمهم — يجوبون البلدان الإسلامية محفوفين بالمخاطر في بعض الأحيان، كما يوضح ذلك مقتل سبعة مبشرين إيطاليين بسببته في 10 أكتوبر 1227⁽³⁸⁾. لقد شارك الجنوبيون في هذا النشاط من دون شك. فـ (إنوسان الرابع) كان جنوبياً من عائلة (Fieschi) الكبيرة. إن تداخل المصالح الاقتصادية والدوافع الدينية كان حساساً بجنوة، بل إنه يتقاطع مع كل ما له صلة بالملاحاة وبالقرصنة⁽³⁹⁾. وليس من اللامبالاة في شيء أن نذكر أن حملة الإخوان (Vivaldi) التي انطلقت من جنوة سنة 1292 للوصول إلى خليج غينيا عبر طريق جبل طارق كانت تضم فرانسيسكيان من بين أعضائها⁽⁴⁰⁾.

إن الشبكة المشدودة لهذه العلاقات بين جنوة وبلاد المغرب تتموقع في أفق دبلوماسي تشكل قاعدته الاقتصادية وتظهراته السوسيو — ثقافية مراكز اهتمام أخرى.

2) الجوانب الاقتصادية للعلاقات الجنوبية المغاربية

يتكون الأساس المصدري لهذه الدراسة من سجلات الموثقين الجنوبيين المحفوظة

(37)

(38) C.F. Th. Carrière. Les martyrs de Ceuta, dans *le Maroc catholique*, 1927.

حول عمل الفرانسيسكيين بالمغرب الأقصى انظر :

P. Henri Koehler, *L'Eglise chrétienne du Maroc et la mission franciscaine 1221 - 1790*, Paris, 1934

(39) Cf. R.P. Lopez *Le facteur économique dans la politique africaine des Papes*, dans *Revue Historique*, CXCVIII, 1947, pp 178 - 188 et G.Jehel, *Les génois.. op. cit* pp 77 - 78

(40) Cf. A.G., vol V, p. 123 et G

في أرشيف الدولة (Archivio di Stato) بجنوة⁽⁴¹⁾.

تمكننا المعطيات التي تقدمها هذه الوثائق أولاً من تناول جانب إحصائي حصراً للمبادلات التجارية. ويمكن أن يُتناول نفس الجانب على المستوى المالي، وبصفة أوسع على المستوى الاقتصادي كذلك؛ أي بإبراز بنية المبادلات.

يسمح الجانب المالي لهذه العلاقات — التي يدخل في سيرورة معقدة للظواهر النقدية المرتبطة بالسلفات المضاربة وبسعر الصّرف حيث كانت العملات المغاربية وخاصة الإفريقية منها معنية⁽⁴²⁾ — بتحديد مكانة بلاد المغرب داخل الاستراتيجية الاقتصادية الجنوبية بالنسبة لمجموع عالم البحر الأبيض المتوسط⁽⁴³⁾. ويمكن تقديم حصيلة أولى فيما يخص الحوض الغربي في شكل هذا الجدول.

العدد	النسبة %	المجموع (ليرة)	النسبة %	المعدل
2054	52.7	105970	44.6	51.6
1845	47,3	131562	55.4	71.3
3899		237532	60.9	

بلاد المغرب

البلدان المسيحية^(٥)

المجموع

(٥) بما في ذلك بلاد الأندلس (بلنسية، المرية، اشيلية، غرناطة) وجزر البليار قبل سنة 1230.

(41) إن الدراسة التقنية لذلك الكمّ الهائل من العقود المغاربية قد أعطت أعمال كثيرة لا يمكن

حصّرها في هذا المقام يمكن الرجوع إلى M. Balard, *Gênes et l'outre-mer*, I, Les acte de

Caffa du notaire Lambero di Smbuceto- 1289 - 1290, Paris - La Haye, 1973, pp 17 - 61

G.Jehel, *Les génois.. op.cit*, pp. 111 - 148 La Romaine..., *op.cit*. وكذلك

إن استغلال هذه الوثائق يشكل أساس أغلبية الأعمال المخصصة لتاريخ جنوة. إنها مفيدة بصفة

خاصة بالنسبة للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي ليس لجنوة فحسب وإنما كذلك لتاريخ مجموع

العالم المتوسطي وخاصة بالنسبة للعلاقات التجارية بين جنوة والدول المسيحية للغرب من

جهة، والمغرب من جهة أخرى. كل الأعمال المذكورة أسفله في الهامش 1 استقت منها

أغلب مادتها. شخصياً لقد استعملت بالنسبة لحصيلاتي مئات السجلات التي تغطي سنوات

1150 — إلى 1300

(42) قارن G.Jehel, *Les génois.. op.cit.*, pp Besants et dinars à Gênes au XII ème siècle, dans

Etat et Colonisation.. op.cit, supra, note 2, pp 55 - 69

(43) من بين الأعمال القديمة التي توخت مقارنة إحصائية في هذا الميدان، نذكر بالخصوص أعمال

E.Bach و أعمال Krueger المذكورة أسفله. ولكننا نجد في أعمال E.Byrne عناصر مهمة

للمقارنة خاصة بالنسبة لسوريا ومصر.

يظهر من هذا الجدول أن بلاد المغرب كانت تمثل مصدراً مهماً للربح بالنسبة للسوق الجنوئية على الرغم من سيعته الضيقة على مستوى المدة الزمنية الطويلة (القرن)، مقارنة بمجموع شركاء جنوة الآخرين في هذه المنطقة : لانكودوك، إسبانيا، بروفانس وخاصة صقلية وإيطاليا الجنوبية. وتظهر الخصوصية البنيوية للسوق المغاربي بالخصوص في متوسط الاستثمارات. ونلاحظ أن التجار والمضاربين المهتمين بالأسواق المغاربية هم أكثر عدداً من أولئك الذين يرومون المناطق الأخرى. لكن متوسط الاستثمارات أقل ارتفاعاً وهو مؤشر على تشتت الإمكانيات. وإذا أخذنا بعين الاعتبار التطور النسبي لهذه الاستثمارات، فإن المظهر العام يبدو أكثر وضوحاً ويترجم التطورات السياسية التي تطبع مختلف المناطق المعنية. هذا ما يوضحه الجدول التالي (انظر الصفحة)

في النصف الثاني من القرن الثاني عشر تظهر مكانة السوق المغاربي أقل أهمية بالنسبة للجنوبيين من مكانة سوق الدول المسيحية. إننا في مرحلة اكتشاف بلاد المغرب من طرف الجنوبيين وبالتالي في مرحلة إقامة بنيات المبادلات وتقدير إمكانياتها. وفي النصف الأول من القرن الثالث عشر، أصبح النسق مروّضاً على ما يظهر، فقد تعرف الجنوبيون على الإمكانيات المغاربية، وكان التوجه العام للاستثمارات يميل كثيراً لصالحها خصوصاً والسوق المسيحية، ومن ضمنها صقلية، كانت تمر بمرحلة خفوت نسبية⁽⁴⁴⁾.

ويسجل النصف الثاني من القرن الثالث عشر عودة محسوسة للميزان لصالح السوق الأوروبية. فمن جهة يجب أخذ بعين الاعتبار الجاذبية التي تمارسها على المستثمرين الجنوبيين منطقة ما وراء البحر المشرقي وخاصة البحر الأحمر،⁽⁴⁵⁾ ومن جهة أخرى نلاحظ أنه في الوقت الذي كانت فيه الوضعية السياسية للغرب

(44) يجدر التذكير أن هذه التفسيرات تستند على تعدادات للعقود التجارية العدولية التي وصلتنا والتي لا تمثل سوى جزءاً مصغراً من مجموع تلك التي تم تحريرها. وأن هناك تباينات قوية في ما يخص الحظ الذي أبقي على الوثائق. يبقى مع ذلك أنه يمكن الاعتماد على التوجه العام المعبر عنه، اعتباراً للعينة المأخوذة.

M. Balard, *La Romanie.. op. cit.* (45)

المسيحي تتجه نحو استقرار نسبي، نجد نوع من عدم الاستقرار يصيب بلاد المغرب وخاصة المغرب الذي كانت تطلق عليه الوثائق الجنوية تسمية «الغرب».

إن تحليلاً أكثر تفصيلاً لتوزيع الاستثمارات يطرح أولاً مشكلة جغرافية. فلا تميز الأغلبية المطلقة من العقود التجارية المحررة بجنوة باتجاه بلاد المغرب سوى ثلاثة اتجاهات على طول الفترة : سبتة، بجاية وتونس. يمكن أن نفسر ذلك بطريقتين. إما أن هذه المدن الثلاثة، التي كانت بدون جدال أهم المناطق التجارية والبحرية لبلاد المغرب في العصر الوسيط، هي المدن التي بواسطتها كان يمكن أن تتم العلاقات التجارية مع الدول المسيحية لأسباب مرتبطة بعوامل عدّة⁽⁴⁶⁾ وهو أمر وارد لكنه غير مطلق. والواقع أننا نلقى بعض العقود التي تشير إلى اتجاهات غير مضبوطة مثل «Africa» أو «Barbaria» أو نلقى، وهذا نادراً، أسماء أماكن يمكن أن تحدّد بدقة تحت أشكال متعددة مثل وهران التي تُكتب «Oarant» أو «Auraganum» أو تلمسان التي يُشار إليها باسم «Timicenun» أو بونة. وإما أن الجنوبيين كانوا يقتصرون، عن جهل أو بدافع إرادة كُتومة، - فممارسة السر المهني غالباً ما أُشير إليها كتصرف جنوي نموذجي - على أسماء أماكن ثلاثة كانت في كل الأحوال رؤوس ثلاثة للتجارة المغاربية مع العالم المسيحي : سبتة وبجاية وتونس.

إن نتائج الجرد التي تظهر في الجدول الآتي تبين أن نقط الوصول الثلاثة المذكورة تتساوى تقريباً على طول الفترة، مع هيمنة أكيدة لصالح سبتة. سترداد حدة هذه الهيمنة في القرن الثالث عشر. ويرتبط ذلك من دون شك بالأسبقية الزمنية للعلاقات بين جنوة والمغرب، حيث كانت المنافسة البيزية أقل ضراوة هناك عنها بإفريقية. ويجب أن نلاحظ الدور الهام لمدينة بجاية التي كانت إحدى محاور

(46) أغلبية المعاهدات والاتفاقيات التي أبرمها الجنوبيون مع الحفصيين تتضمن بنوداً ترمي إلى تضييق مواقع نزول السفن وشروط التنقل على الأراضي الخاضعة لتونس. إن التدابير كانت ذات طبيعة جبائية أساساً وترمي إلى ضمان مرابة على الرسوم المجبأة عند دخول وخروج مواد التجارة. الوثيقة المشار إليها أسفله في الهامش 9 P. Busta تشير حتى إلى رخصة معطاة للجنوبيين للذهاب إلى ظهر سفنهم من القناة وفي الساعات الاعتيادية

horis quibus consuetum iri

الأمر الذي يوحي بوجود رقابة مشددة.

التجارة المتوسطية لبلاد المغرب على الرغم من وضعيتها المضطربة في بعض الأحيان⁽⁴⁷⁾ (انظر الجدول 2).

إن التحليل الهيكلي للمبادلات هو أكثر صعوبة من تحليل الاستثمارات الخامة. ويرجع ذلك بالأساس إلى إحدى ثوابت الوثائق التي تقتصر على ذكر المقادير (المالية) الموافقة للعمليات التجارية التي تهّم الحبوب عوض تعداد الحبوب ذاتها. ومع ذلك تسمح بعض الإشارات الدقيقة بتمثيل بنية هذه المبادلات في شكل توجّهات على الأقل. يجب مع ذلك اعتبار أن المواد المتبادلة بين جنوة وبلاد المغرب كانت متنوعة جداً طبقاً لكل ما نلاحظه في الإطار المتوسطي⁽⁴⁸⁾ : المواد الغذائية ومن بينها الفواكه والقسطل والتين والعسل، ولكن بصفة خاصة الحبوب والخمر والمواد النسيجية والأقمشة والحرير والصوف والملح والتوابل التي كانت تنتقل من الشرق إلى الغرب المغربي⁽⁴⁹⁾ عن طريق جنوة، والمعدنيات والرصاص والنحاس والحديد والشبّ⁽⁵⁰⁾. وتُعَدُّ معظم المعاهدات المبرمة بين جنوة وتونس

(47) أشار الإدريسي إلى هذه النقطة في

Le Maghrib du VI ème siècle de l'Hégire, éd. Hadj Sadok, Paris, 1983, pp 107 - 108

(48) إن مراجع هذا الموضوع قديمة لكن لم تتجاوز بعد

W.Heyd, *Die Mittelalterlicher Handel..* op. cit, supra note 7

A. Schaubé, *Handelgeschichte...*, op.cit., supra note 7

ولكن من المؤكد أن الأعمال التي تمت خلال الثلاثين سنة الأخيرة أتت بعناصر جديدة في جميع الميادين المرتبطة بالمبادلات المتوسطية. من بين الإحصاءات البيبليوغرافية المفيدة يمكن أن نضيف إلى الكتب المذكورة أعلاه هامش 1

Ph. Wolf, *Guide international d'histoire urbaine*, 1, Europe, Paris, 1977, et Dix ans de recherche universitaire française sur le monde arabe et islamique, publication de l'Association française des arabisants, Paris, 1982

نجد كذلك عناصر كثيرة في المؤلفات المخصصة للعلاقات الإسبانية المغربية المذكورة في الهامش 11. لنشر أخيراً إلى كتاب

H. Bresc, *Un monde méditerranéen, économie et société en Sicile, 1300 - 1450*, Rome, 1986

(49) 23% من صادرات جنوة من التوابل بين سنة 1164 وسنة 1280 كانت باتجاه المغرب، وخاصة الفلفل، ولكن كذلك كبش القرنفل والصعتر البري والسكر ونبلة قبرص والمسك والثوم القيصبي. (انظر PP 432 - 343 op. cit G. Jehel Les Génois...)

(50) كان المغرب يصدر النحاس منذ القرن 12 على الأقل. انظر

B. Rosenberger, *Les vieilles exploitations minières et les anciens centres métallurgiques du Maroc*, dans *Revue de Géographie du Maroc*, 1970, pp 71 - 102.

الرسوم المفروضة على المواد المشتراة من طرف الجنويين وتجبرنا بالتالي عن الصادرات التونسية⁽⁵¹⁾.

كانت جنوة إحدى المراكز المهمة في الصناعة التقليدية، وبصفة خاصة في صناعة الأنسجة الغالية والحلي والمصوغات. وهناك إشارات إلى تصدير المجوهرات أو الخواتم أو *d'opera argenti* نعث عليها في عقود السجلات الجنوبية باتجاه بجاية وسبته وتونس. ولكننا نجد بجنوة مواداً مغاربية من نفس النوع كذلك. فقد وُجد في جَرْدٍ لِمَتَاعٍ بعض المتوفين سنة 1239⁽⁵²⁾ صناديق من التوابل قادمة من سبته، ومِمْرَقَة من تونس. ويجب أن نضيف إلى هذه المظاهر الأخيرة للتجارة الجنوبية المغاربية، كل ما يتعلق بالذهب والفضة تحت أشكال مختلفة: سبائك، أو مسحوق أو مسكوك والتي ترد باستمرار في الوثائق؛ ولكن يصعب استخلاص إحصائية منها⁽⁵³⁾.

تلتح اتفاقية 1287⁽⁵⁴⁾ على الصادرات التونسية التي كان الجنويون يطالبون بتخفيض الضرائب المفروضة عليها. كانوا يؤدون 0.5% من الضريبة على الزيت 3 دراهم فضية للقنطار بالنسبة للصوف وجلود الحمل، 7 دراهم للقنطار بالنسبة لجلود البقر وشمع العسل، 21 درهماً بالنسبة لجلود التيس. ولنا هنا أهم المنتجات

= لكن تونس كانت تستورده من جنوة في بعض الأحيان. ومن غير المستبعد أن يكون نحاساً مغريباً إلا أن يكون نحاساً تركياً. كان الحديد ينتقل من بجاية إلى جنوة، ولكن الأدوات الحديدية كانت تبتع من جنوة نحو سبته وبجاية. وكان الشب الحجري المستورد من طرف جنوة يأتي في غالبية من الشرق، ولكن كان يصلها الشب *de piuma* من بجاية بتلمسان ومن سجلماسة. ولدينا حتى شهادة عن تصدير الشب من جنوة إلى سبته. انظر

G. Jehel, Les Génois.. op. cit., pp 351 - 352

(51) اتفاقية سنة 1236 1236 A.S.G. Mat. Pol., B.4 - 45,

اتفاقية سنة 1250 A.S.G. Mat., Pol., B.5 - 59

اتفاقية سنة 1272 A.S.G. Mat. Pol., B.5 - 2

(52) انظر Les Génois.. op.cit., pp 130 - 131

(53) انظر Les Génois... op.cit., pp 353 - 356

تلتحق مشكلة المعادن الثمينة كذلك مشكلة ضرب النقود وسريان العملات بين جنوة والمغرب.

(54) يحتفظ بها في المكتبة الجامعية لجنوة، 20 - 19 f 18 Section Manoscritti B VI,

التي كان الجنويون يبحثون عنها ببلاد المغرب. وبصفة عامة لم تكن تونس مصدرة للحبوب. ومع ذلك، فجميع الاتفاقيات المبرمة بين جنوة وتونس كانت تنص أنه في الحالات الاستثنائية، أي في حالات فراغ مهول للمخزون *carestia*، يمكن للجنويين استيراد كمية من القمح من إفريقية بثمن أدنى. ويظهر أن اتفاقية 1279 - 1283 كانت أكثر سخاءً بخصوص الامتيازات لصالح الجنويين⁽⁵⁵⁾.

إن دراسة دقيقة لمختلف العقود التجارية باتجاه صقلية وتونس إنطلاقاً من جنوة تدفعها إلى الاعتقاد أن هناك نوع من المعقولية في النسق التجاري بين هذه الأقطاب الثلاثة. ويمكننا الكلام حتى عن تجارة ثلاثية. لقد كانت جنوة مركزاً كبيراً لصناعة الأقمشة. واحتياجاتها للصوف كانت هائلة. وكانت بلاد المغرب عامة وإفريقية خاصة تتوفر على كميات ضخمة من الصوف⁽⁵⁶⁾. إن دراسة 145 وثيقة بين سنة 1237 و 1292 تُظهر بلاد المغرب وكأنها أكبر مركز لتموين السوق الجنوبية بالصوف بما يقرب من 89% من الواردات التي كانت تتوزع بين بجاية (54.1%) وتونس (23.4%) وبونة (12.7%) نرى إذاً كيف أن الجنويين كانوا يصدرون أقمشتهم لصقلية ويشترون منها القمح الذي يُعيدون بيعه بتونس من حيث يستوردون الصوف⁽⁵⁷⁾. وإذا كانت الصوف تحتل أهم مركز في الصادرات الجنوبية المغاربية إلى جانب الجلود، فيجب أن يضاف إليها بنسب أقل، القطن والقنب، والكتان الذي يظهر في الصادرات كما يظهر في الواردات⁽⁵⁸⁾.

3 - الجوانب السوسيو - ثقافية للعلاقات الجنوبية المغاربية

تسمح الوثائق العدولية بمقاربة العلاقات الجنوبية المغاربية على المستوى المؤسسي والإداري والسوسيو - ثقافي. إن نشاط الجنويين التجاري ببلاد المغرب

(55) انظر اتفاقية سنة 1250 المذكورة أسفله في الهامش 51، المادة 17 واتفاقية 1279 - 1283 المذكورة أسفله الهامش 9.

(56) فيما يخص الإنتاج النسيجي الجنوبي وعلاقاته بالصوف المغاربية، يمكننا الرجوع إلى R.S. Lopez, *le origini della lana dans Studi sull'economia*, op.cit, supra, pp. 65 - 204 وكذلك L'origine della pecora merina dans Su e iu- per la storia di Genova, Gènes, 1975 pp 265 - 275.

(57) انظر G.Jehel, *Les Génois..* op.cit p 347

(58) نفسه 347 - 348.

أو غيرها من المناطق قد دفع بهم سريعاً إلى إقامة جماعات التجار منظمين حسب بنّيات قنصلية على غرار تلك التي أُقيمت في بداية القرن الثاني عشر بسوريا وفلسطين.⁽⁵⁹⁾ تخبرنا الاتفاقيات والمعاهدات المبرمة بين جنوة وتونس ومع المغرب بدقة عن التنظيم وعن الإشكاليات العامة المتعلقة بالاستقرار ببلاد المغرب، وعن إنشاء الفنادق، وعن طبيعة وأشكال التجارة وعن المساعدة العسكرية والبحرية التي على الجنوبيين تقديمها، خاصة للتونسيين في مقابل الامتيازات الممنوحة لهم⁽⁶⁰⁾.

على المستوى الدولي، يمكننا إرجاع ترسيمة استقرار الجماعات الجنوبية ببلاد المغرب إلى عنصرين : القنصلية وهي مؤسسة إدارية وسياسية، والفندق وهو دائرة ترابية. وإذا كانت هذه البنىات المعروفة جيداً لاتطرح مبدئياً أية مشكلة تفسيرية خاصة، فإن الواقع غير ذلك.

يصعب تحديد القنصليات الجنوبية ببلاد المغرب تحديداً كرونولوجياً دقيقاً اعتباراً للثغرات في الوثائق. لنا شهادة عن القنصلية الجنوبية بتونس سنة 1250 ويتمّ ذكرها في سنة 1288 و 1289. ولكن يوجد ببلاد المغرب مؤسسة يمكن تأويلها كمؤسسة موازية للقنصلية أو تابعة لها : إنها مؤسسة Scribania⁽⁶¹⁾. تذكر هذه المؤسسة بتونس سنة 1210. ويمكننا افتراض، في حدود أن هتين المؤسستين هما مختلفتين، أن قنصلية تونس قد أُقيمت في فترة سابقة. ولكن يجب أن نستغرب في هذه الحالة كونها لم يتم الإشارة إليها سنة 1236. إن غموض حالة ببجاية وسبته هو من نفس النمط. ف Scribania الجنوبيين تمت الإشارة إليها سنة 1164. إنها أقدم إشارة لمؤسسة جنوبية ببلاد المغرب ونجدها في نصوص سنة 1195، 1252، 1214، 1267، ولكن لانتوفر على أية إشارة عن قنصلية جنوة ببجاية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. إنه لمن المحتمل قليلاً أن تكون

(59) نجد حصيلة وضعية البحث الحديثة حول هذه المسألة في *Etat et Colonisation.. op.cit*

(60) تمت دراسة هذه الجوانب بدقة من طرف Mas Latrie في *Traité de paix.. op.cit* ونجل

تكلمة في المعلومات في 371 — 387 Les Génois.. op.cit., pp

(61) هي عبارة عن إدارة في بناية كانت مكلفة بتسيير فندق الجنوبيين ومرافقه ببلاد المغرب [المترجم].

قد وجدت، الأمر الذي يؤكد تفوق تونس على بجاية. كان للجنوبيين Scribania بسببته تمت الإشارة إليها سنة 1214، وفندق تمت الإشارة إليه سنة 1228. لكنهما كانا يوجدان في عين المكان منذ زمن طويل ولاشك، إذا ما أحلنا على علاقاتهم مع المغرب التي ترجع إلى القرن الثاني عشر وإلى الحضور المرسيلي بسببته. تكمن أهمية دراسة هذه المؤسسات في السماح لنا بفهم أحسن للشكليات القانونية للعلاقات الدولية في البحر الأبيض المتوسط في العصر الوسيط. ولكنها تلقي كذلك الأضواء بطريقة غير مباشرة حول الأهمية النسبية لكبرى الأقطاب الاقتصادية للمجال المتوسطي. نعرف مثلاً أن مهام المسؤولية في Scribania كانت - كغيرها من المهام الإدارية - تُباع وتُشتري، وتُقتنى عن طريق المزاة العلني. والذي يحصل على Scribania في المناقصة يسترجع ما صرفه بواسطة الرسوم التي يجيبها خلال ممارسته لمهامه. وبذلك يمكننا إعادة تمثيل القيمة النسبية لـ Scribania الجنوبية وتقييم الأهمية الاقتصادية للمدن التي كانت توجد بها. من جهة أخرى لقد تعودنا على اعتبار أن النشاط الاقتصادي والتجاري للشرق المتوسطي كان يتفوق كثيراً على نشاط الغرب المتوسطي. بينما نجد أن حساباً للمبادلات التجارية التي تمت بجنوة يوضح أن Scribania سبته كانت قد قُيِّمت بـ 400 ليرة جنوبية سنة 1243، وبـ 161 سنة 1245 وبـ 298 سنة 1247. أما Scribania بجاية فقد تم الحصول عليها مقابل 330 ليرة سنة 1267. ونعرف من جهة أخرى أن Scribania مدينة Péra بالقسطنطينية قد تم شراؤها بـ 250 ليرة سنة 1302. يمكننا استخلاص أن بلاد المغرب كانت تحتل مكانة محترمة على المستوى التجاري العالمي، على الأقل من وجهة نظر الجنوبيين الذين هم خبراء في هذا الميدان.

يقدم التواجد الجنوبي ببلاد المغرب على مستوى الاستقرار التراخي خصائص مطابقة للنموذج العام للفندق الذي تطبعه، مع ذلك، بعض الاختلافات في محيط

(62) لدينا شهادة تعود إلى سنة 1255 عن فندق وقنصل المرسيليين بسببته، انظر

J. Caillé, *Les Marseillais à Ceuta au XII^{ème} siècle*, opus cité supra, note 11

(63) انظر G. Jehel, *Les Génois...* op.cit., p 380

(64) نفسه، 381 وما يتبعها

البحر الأبيض المتوسط. وهنا توجد خصوصية مغربية كذلك. فبينما أقام الجنويون أشكالا للاستغلال الفلاحي والمضاربة المعمقة بالشرق، في البحر الأسود وشيو وقبرص حيث كانوا قد استقروا منذ فترات طويلة⁽⁶⁵⁾، فإننا لانجد أثراً لاستقرار قروي للجماعات الجنوية ببلاد المغرب. وكل الفنادق المذكورة هي حضرية. ففندق بجاية يظهر في مصادر سنة 1200، وفندق سبتة سنة 1228، وفندق تونس سنة 1236. ولكن من المحتمل جداً أنها وجدت قبل هذه التواريخ. على أي حال ليست هناك أية إشارة في أية فترة حول استقرار ما خارج الإطار الحضري. إن موقعة هذه الفنادق، وتنظيمها لا يمكن الإمساك بها دائماً ولو أنها لا تقدم خطوطاً خاصة. والفندق المعروف أكثر هو فندق تونس. نعرف أنه كان بتونس فندقين جنويين الجديد والقديم (Fundicus vetus و Fundicus novus)، ولكن وجد كذلك فندق للصقليين، وفندق للقطلايين، وفندق للمرسيليين. ومن الراجح جداً أن البندقية كان لها فندقها لأنه تمت الإشارة لقنصل للبنادقة بتونس. ويظهر أن الجنويين كانوا يقتسمون مع القطلايين مراقبة مصلى القديسة مارية. ويبدو أن الصقليين كانت لهم كنيسة داخل فندقهم. وهؤلاء كانوا متجاورين ولاشك. ولكننا لانعرف إن كانوا منفصلين مادياً بواسطة سور كما كان يطالب البيزيون بذلك سنة 1230، أو إن كان أفراد جاليتهم مجبرين على الإقامة بها أو يستطيعون الإقامة خارج الفندق extra fundicum كما كان الحال بسبتة. بالإضافة إلى مختلف الأنشطة التجارية والصناعية التي كانوا يزاولونها بسبتة وبجاية أو بتونس يجب الإلحاح على السوق العقارية. لدينا شواهد كثيرة عن الجنويين المقيمين بالعاصمة والمالكين للمنازل وللحوانيت في تونس والتي يكرونها لمواطنيهم. ينتمي أحد هؤلاء إلى إحدى الأسر النبيلة الكبرى بجنوة، وهو (Giovanni Gattiluxio) التي يظهر أنه كان يقيم بجنوة وبتونس حيث توفي سنة 1278. لقد كان يمتلك بها ثلاثة منازل قريبة من منزلين آخرين جنويين، أحدهما لـ (Andriolo)

(65) انظر M. Balard, *La Romanie*.. op. cité

(66) انظر G. Jehel, *Catalogue*.. op. cité supra note 11

(67) انظر A. Ferretto, *Codice diplomatico delle relazioni fra la Liguria, la Toscana et la Lunigiana ai tempi di Dante, 1275 - 1281, Gènes, 1901 - 1903, T,II, p 246*

و (Pasquale Boccacio) والآخر ل (Ugeto Actimatore) كانت كل هذه المنازل تقع في الشارع الرئيسي للفندق في السوق بجوار المنازل التونسية *retre domus Sarracenorum (videlicet in Zucho)* كانت إذًا على اتصال مباشر تقريباً بالسكان الأصليين. ونجد أمثلة مشابهة في سبته وفي بجاية، ولكن نادراً ما هي موطن بوضوح مماثل. ويبقى أن هذه المضاربة العقارية للجنوبيين ببلاد المغرب هي معبرة فيما يتعلق باندماجهم وبمصالحتهم بهذه البلدان.

تخبرنا الوثائق العذلية، وخاصة سجل (Pietro Battifolio) بكثافة عن تركيبة الساكنة المسيحية المهاجرة إما بصفة دائمة أو بصفة مؤقتة. فهناك البييمونطيون والطسكانيون والبندقيون والصقليون. ولكن هناك كذلك القطلانيون والميورقيون الذين يظهرون بمناسبة مختلف العمليات التجارية، وفي الوصايا أو في الوثائق المدنية التي أبرمت أمام موثق⁽⁶⁹⁾ بصفة عامة تظهر العلاقات حميمية بين المسيحيين بتونس إذا ما استثنينا بعض التوترات. مثل تلك التي ظهرت فجأة على إثر المنافسة بين الجنوبيين والقطلانيين من أجل الحصول على القبالة الكبرى للخمر بتونس والتي كانت ترجع للسلطة الحفصية، أو مثل بعض الخلافات بين الجنوبيين والبيزيين كتلك التي حدثت بخصوص شحنة كبيرة من جرات الزيت تقدر بـ 20393 ديناراً فضياً (*besants*) والتي لانعرف مصدرها (من المحتمل جداً أن يكون من تونس أو اشبيلية) ولا اتجاهها.

ولكن لدينا كذلك بعض اللمحات الصارمة عن العلاقات بين الأوربيين والتونسيين وسلطاتهم. والتي تظهر في أغلب الحالات متباعدة ومحدودة نسبياً. فعلى مجموع العقود 133 التي يضمها سجل الموثق الجنوبي، تخص إثنا عشر منها فقط العلاقات بين الجنوبيين والتونسيين،⁽⁷⁰⁾ وهي في أساسها ذات طابع رسمي

(68) انظر حول هؤلاء الأخيرين G. Jehel, Catalogue analytique... op.cit., pp 69 - 137 و Catalans et Majorquins... op.cit.

(69) نحصى في سجل Pietro Battifolio وحده 327 فرداً من الدول المسيحية من بينهم 248 جنوباً، 58 إيطالياً و 19 قطلانياً وميورقياً. انظر G. Jehel, Les Génois... op.cit., p 398

et suiv.

(70) انظر G. Jehel, Catalogue... op.cit. actes n° 1,25, 40, 42, 46, 67, 78, 89, 80, 124, 132

وإداري. يمكن تشبيه إثنين منها بعقود خاصة. ومع أنها تقابل مسؤولاً جنوياً وممثلاً عن السلطات الإدارية. في إحداها نجد قنصل جنوة بتونس Balianno Embrono يسلم للفقير ابن مروان مقدار ثلاثة آلاف دبلّة وصرّة من المجوهرات،⁽⁷¹⁾ وفي الآخر، نجد (Leonardo de Sigemblado) المسؤول عن Scribania يسلم لممثل ناظر ديوانة تونس صرّة من الجلد كانت له رهينة لشحنة من الجلد والصوف مقدرة بـ 8107 ديناراً فضياً⁽⁷²⁾ ليس هناك إذاً أية علامة عن العلاقات على مستوى السكان. تتعلق بعض العقود بطلبات التعويض لبعض الجنويين الدائنين للبلاد التونسية لمقدار 20393 ديناراً فضياً⁽⁷³⁾ ويتعلق نص بجنوي تمّ حبسه بديوانة تونس بسبب ضريبة قيمتها 13 بيزات و 7 دراهم فضية لم تؤدّى عن قلال من الزيت⁽⁷⁴⁾ نجد كذلك وصلاً من 18 ديناراً فضياً مؤدّى من طرف جنوي هو (Bertramino Ferrario) باعتباره مكترياً لقبالة الخمر بتونس. وهذا المقدار كان مخصصاً جزئياً لتأدية رواتب الحامية المسيحية للملك تونس⁽⁷⁵⁾ وتخص الوثائق الأخرى العلاقات الرسمية بين قنصل جنوة والسلطات التونسية. وتشهد كلها على نوع من التوتّر مرتبط بخلافات مختلفة الأشكال. أولاً نرى قنصل جنوة يرفض أداء واجب كراء القبالة لأن المستخدمين الجريبيين⁽⁷⁶⁾ لا يستطيعون القيام بمهامهم بها. وستسلم مفاتيح المقرّ الذي يحتضن القبالة لشخصية ستلعب دوراً مهماً في الوساطة بين الجاليات بتونس، إلى حين تسوية الوضعية⁽⁷⁷⁾ إنه الراهب (Tealdo)، قسّ كنيسة فندق الجنويين. وتؤكد العقود اللاحقة الجفاء القلق بين الجنويين والتونسيين. فهي تتعلق بحرية تنقل مواد التجارة التي تؤدي واجبات الديوانة في أجل ستة أشهر بعد البيع والتي كان يطالب بها الجنويون طبقاً

(71) نفسه، عقد رقم 124

(72) نفسه، عقد رقم 40

(73) نفسه، عقد رقم 25.42.67

(74) نفسه، عقد رقم 40

(75) نفسه، عقد رقم 46

(76) يعطي النص اللاتيني إسم Zerbin الذي لا يمكن تأويله إلا كذلك. حول العلاقات بين

تونس وجرجية، انظر Ch.E. Dufourcq, L'Espagne.. op. cit., pp. 264 - 265

(77) نفسه، عقد رقم 1

للاتفاقيات السابقة⁽⁷⁸⁾؛ وبالتذكير بحقوق قنصل الجنويين أن يُسمع مرتين في الأسبوع من طرف رئيس الدولة الذي تسميه النصوص ملك تونس (Rex Tunexis)⁽⁷⁹⁾ أو بصراع خطير على بيع الزيت من طرف الجنويين بتونس. بهذا الصدد، نجد قنصل الجنويين يستند على رسالة ضابط عدل مدينة جنوة يطالب — من صاحب المدينة (Secha Moadinorum)⁽⁸⁰⁾ ومن الفقهاء وقاضي تونس وناظر الديوانة — بمنتوج الضرائب على الزيت الذي باعه التجار الجنويون طبقاً للاتفاق المبرم بين جنوة وتونس. ولذلك قد يكون الجنويين حصلوا على امتياز تحصيل حقوق الديوانة على مبيعات الزيت التي يرفض مسؤولو الميناء تسديدها لهم⁽⁸¹⁾، وأخذت هذه المسألة منحاً غامضاً وعنيفاً في نفس الوقت، لأن الموثق يخبرنا في العقد التالي كيف أن جماعة من التونسيين على رأسها الفقيه (Botaerius) الملقب بالرقادي تقدمت أمام الفندق الجديد للاستحواذ، تحت تهديد الحجارة والعصي، على الزيت المعني بالأمر والذي قد تكون واجبات بيعه لم تسددها السلطات التونسية. بقية هذه القضية ونهايتها ليست معروفة لدينا⁽⁸²⁾.

كانت تونس تعرف من دون شك تمركزاً قوياً للجنويين وللمسيحيين. ويمكننا تتبع استمرارية ذلك التمرکز من خلال عدّة عائلات تنتمي في غالبية الأحيان إلى الأرستوقراطية الجنوبية القديمة، مثل عائلة (Cibo) التي لنا شهادات عن أفرادها من ثلاثة أجيال سنة 1289. وظلت هذه الاستمرارية قائمة حتى القرن الخامس عشر⁽⁸³⁾ كانوا الجنويون كثيرين كذلك ببجاية⁽⁸⁴⁾ وخاصة بسبّطة⁽⁸⁵⁾.

(78) نفسه، عقد رقم 68

(79) نفسه، عقد رقم 78

(80) ربما شيخ المدينة حسب R. Brunscvig, dans *la Berbérie...* opus cité T.II, pp 112 - 113 et 148 - 149

(81) نفسه، عقد رقم 79

(82) نفسه، عقد رقم 80

(83) R. Brunscvig, dans *la Berbérie..* op..cit.

(84) G. Jehel, *les Génois...* op. cit., p 396

(85) كما يظهر ذلك من خلال الوثائق المجمعة بخصوص «معونة» سبّطة، انظر

Di Tucci, Documenti.. op. G.Jehel, *Les Génois...* op.cit., p 395 cit.,

لكن الاتصالات الجنوبية المغاربية تلاحظ بجنوة ذاتها. إن إحدى الخصائص النموذجية للمجتمع الجنوي هو طابعه الكوسموبوليتي الذي مافتيء يتسع باتساع شبكة التجارة الجنوبية في البحر الأبيض المتوسط. فالحوليات وعقود الموثقين الجنوبيين⁽⁸⁶⁾ تشير بكثرة إلى التجار والمسافرين والديبلوماسيين الشرقيين والمسلمين. ويتم الإشارة إلى السفارات الجنوبية إلى بلاد المغرب أكثر مما تتم الإشارة إلى سفارات الدول المسلمة إلى جنوة. لكن هذا النشاط الديبلوماسي كان متبادلاً ولاشك. ففي سنة 1238 تتم الإشارة إلى وجود موفدٍ من عند ملك تونس (Burnanus, mesaticus regis Tunexix) مصحوباً بترجم وذلك بهدف التفاوض لشراء سفينة جنوبية بمقدار إثني عشر ألف ديناراً فضياً⁽⁸⁷⁾ وفي سنة 1259 نجد ثلاثة تونسيين بجنوة هم (رشيد بن بشير وبن مميظ وبن لاريدات)، لكراء سفينة من عشرة مجدفين مع سبعة رجال سيصحبونهم في رحلة العودة⁽⁸⁸⁾. وفي سنة 1271، سيتوفى تاجر مسلم مغربي بالتأكيد يدعى عزيز، بجنوة حيث كان يعيش من دون شك منذ فترة طويلة. وفي الجرد الذي قام به الموثق،⁽⁸⁹⁾ نجد موازين ومكاييل. وقد يكون عاش بفاس في نهاية القرن الخامس عشر مسلم من أصل جنوي⁽⁹⁰⁾.

إن أغلبية الساكنة المغاربية التي نكتشفها بجنوة في القرن الثاني عشر والثالث عشر كانت في وضعية عبودية أو مُعتقة. كانت جنوة مركزاً كبيراً لاستعمال

(86) حول وجود الشرقيين بجنوة انظر M. Balard, *La Romanie...*, op.cit.

(87) انظر G. Jehel, *Les Génois...*, op.cit., p 214

(88) انظر G. Jehel, *Les Génois...*, op.cit., p 280

في سنة 1346 حلت بجنوة سفارة مغربية يقودها محمد الأهازري مصحوباً بترجم هو أبو العباس وبأربعة أشخاص هم العليج أضمري ومرصو بن عمار وعبد الله سليم محمد بن عامر. ورجعت إلى المغرب مع توقف في ميورقة. انظر

Ch. E. Dufourcq, *Aperçu sur le commerce entre Gênes et le Maghreb*, op. cit

(89) نفسه، ص 729

(90) Nouveaux textes historiques relatifs à l'Afrique du nord ترجمها

Fagnan dans *Centenario della nascita di Michele Amari*, vol. II, Palermo, 1910, 2 ème partie, 3 ème notice, p 89

وتوزيع العبيد الذين يأتون من الأندلس ومن بلاد المغرب، ومن الشرق ابتداء من القرن الرابع عشر.⁽⁹¹⁾ كان العبيد المغاربة قليلين نسبياً. فمن 36 عبداً محصياً بين سنة 1239 وسنة 1288، عشرة منهم مغاربة ومن ضمنهم أربعة تونسيين (رجل وثلاثة نساء) وامرأة من بجاية وأخرى من سبتة. والآخرين كلهم أندلسيون أو ميورقيون⁽⁹²⁾ ولكن يجب القول أن تحديد هؤلاء العبيد صعب. فهؤلاء غالباً ما كان يتم تعميدهم وتمسيح أسمائهم. إنها الحالة مثلاً مع (Johana) الذي يُشار إليه ماله كـ *ancillam meam natione de Tunesi factam christianam*⁽⁹³⁾ ويحدث أحياناً أن يكون التحديد أكثر صراحة. وهكذا نجد أن محمداً (Maomet) أصله من مستغانم من جهة الأب (Bombachi Benaied de Mestaganino وقبائلي⁽⁹⁴⁾) من جانب أمه (Gimella de Arabis de Cabilla Beniei⁽⁹⁵⁾) من جانب آخر نجد أن الشخص المحدد كـ (Sarracenus) مثل هذا (quidam Sarracenus qui habitat in domo heredum quondam Corradi de Castrop) الذي ذكر كشاهد بمناسبة عتق عبدة مسلمة، يظهر كأنه مندمج في حياة المدنية، ولكن يمكن أن يكون سورياً أو مصرياً وأكثر تأكيداً أندلسياً أكثر من كونه مغربياً⁽⁹⁶⁾.

إن الأثر الاقتصادي والاجتماعي الشرقي والإسلامي الملاحظ في المجتمع الجنوبي الميترولوجي أو في مجتمع ماوراء البحر، لابد وأن يكون له تأثير على السلوكات وأنماط الحياة والتطلعات الثقافية، النفعية أو غير المبالية للجنوبيين. فالنزعة الشرقية على مستوى اللباس والغذاء للحضارة الجنوبية حيث تختلط التأثيرات البيزنطية

(91) انظر حل هذه الجوانب،

C. Verlinden, *L'esclavage dans l'Europe méditerranéenne*, 2 vol., Bruges, 1955, Gand, 1977.
M. Balard, *La Romanie.. op.cité*, T.II, pp 785 - 832; J. Heers., *Esclaves et domestiques au Moyen Age dans le monde méditerranéen*, Paris, 1981

(92) انظر 216 G. Jehel, *Les Génois...op. cit.*, p

(93) نفسه، 215

(94) يبدو أن الأمر لا يتعلق بمنطقة القبائل، وإنما بقبيلة بني زيان [المترجم].

(95) نفسه، 215

(96) نفسه، 215

والعربية الإسلامية هي بديهة يجب تعميق البحث فيها⁽⁹⁷⁾.

لكن هذه الألفة التدريجية مع العالم المسلم قد تجلّت في جميع ميادين الثقافة والعلوم. وميدان علم الخرائط هو الذي سيميز فيه الجنوبيون بسرعة عن طريق وساطة صقلية العربية — النرماندية⁽⁹⁸⁾.

سيوجه الجنوبيون سريعاً مجهودهم نحو معرفة وممارسة اللغة العربية بصفة خاصة. كانت قضية الترجمة قضية أساسية سواء في العلاقات السياسية على أعلى مستوى أو في العلاقات التجارية. وكانت مطروحة بالحاح في تونس. ففي الاتفاقيات التي يُحتفظ بنسختها اللاتينية ونسختها العربية، كان الموثّق في الغالب هو المترجم. في تونس كان مترجم الديوانة تونسياً، ولكن لم يكن هناك مترجم مرتبط بالقتضالية. يتم في بعض المناسبات اللجوء إلى أحد الخواص، الذي غالباً ما يكون من التجار. في جنوة كان مسلم، مغاربي من دون شك، يسمى عصمت (Asmet) هو الذي يشغل وظائف سكرتير مترجم للجمهورية (sriba communis Commune Janue de letteris Sarracenis) لكن في سنة 1247 يشار إلى موسى (scriba litterarum Sarracinescharum) ولنا دليل على أن تعليماً للعربية كان يُعطى

(97) إن المادة حول الموضوع ضخمة لكن الدراسات قليلة. المرجع الوحيد حول الموضوع يبقى

دائماً هو L.T. Belgrano, Della vita privata dei Genovesi, Gênes, 1875 et réimp. anastatique

M. Montanari, Alimentazione e cultura nel medioevo, في Rome, 1970 ونجد إشارات مهمة في

Rome, 1988, pp 153 - 155

(98) إلى جانب الدراسات القديمة كـ M.G. Canale, e Storia del commercio, dei viaggi delle scoperte e del carte nautechi degli Italiani, Gênes, 1866

نذكر U.Rizzitano, II libro di Ruggero, Palermo, 1967, L. Secchi, Navigazione e carte nautechi nei secoli XII - XVI, Gênes, 1978 et Yoco K. Fa., l'Afrique à la naissance de la cartographie moderne, les cartes majorquines, XIV^e XV^e ème siècles, Paris., 1982

بصفة أكثر عمومية، وحول الثقافة والعلم الجنوبي في علاقاته مع الشرق والعالم الإسلامي، انظر

L'Occident e l'Islam nell'Alto Medioevo, Settimane di Studio del Centro di Studi sull'Alto Medioevo, 28 Avril, 1864., 2 vol., Spolète, 1966; B.Z. Kedar, Merchants in crisis, Genoese and Venetian men of affairs and the fourteenth century Depression, New Haven - Londres, 1976, ppp12 - 13, G.Jehel, Le marchand génois, un homme de culture, dans le marchand au Moyen - Age, XIX^e ème Congrès de la Société des Historiens Médiévistes de l'Enseignement Supérieur Public, Reims, Juin, 1988, st-Herbalin, 1992

بجنوة في العصر الوسيط. فثمة إشارة إلى (magister de letteris saracenis) سنة 1267⁽⁹⁹⁾.

لقد ساهم حضور مسلمين ويعرفون التكلم باللغة المسيحية بجنوة تسهيل بث اللغة العربية التي انتشرت في القاموس الجنوي السائد ولكن كذلك في أسماء الأشخاص⁽¹⁰⁰⁾.

وتحتفظ الأرشيفات الجنوية بعدد كبير من المؤشرات المباشرة لمعرفة اللغة العربية على الأقل على مستوى النخبة المثقفة الوسيطة⁽¹⁰¹⁾ فمن خلالها نلاحظ إلى أية

(99) حول مختلف هذه النقط انظر G.Jehel, Les Génois.. op.cit. pp 189 - 194 et II, P 214

(100) يذكر في نص رسمي Abramus Sechelus qui novit linguam christionorum et sarracenorum. G. Jehel, Les Génois... pp. cit., p 438

حول العلاقات بين اللغة العربية واللغات اللاتينية انظر

G.B. Pellegrini, Contributo allo studio dell'influsso linguistico arabo in Liguria dans Mascellanea Storia Ligure, II, Milan, 1961, pp 17 - 95 et l'elemento arabo nelle lingue neo- latine con particolare riguardo all'Italia dans l'Occidente e l'Islam, op.cit., note 96, pp 696 - 844

حول أثر العربية على الأنتروبونيمية الجنوية انظر G.Pistarino, Antroponimi arabi in Liguria, Tabacco, dans Studi in onori di Angelo Monteverdi, II, modène, 1959, pp 613 - 622

(101) تحتفظ خزائن أرشيفات المكتبات بكثير من العقود العربية — المغاربية على شكل مخطوطات باللغة العربية التي غالباً ما تصاحبها ترجمة لاتينية. ونجد في أحد أقدم السجلات الجنوية المحررة من طرف الموثق Giovanni Scriba حيث يوجد محشواً جزء من شهادة بالعربية وباللاتينية. وقد نشر هذا النص وترجمه M.Amari, dans, Nuevi Ricordi.. op.cit. pl. II, et p 85

ويحتفظ بكثير من المعاهدات بين جنوة والدول المسلمية باللغتين، مثل اتفاقية سنة 1188 بين جنوة وميورقة، A.S.G., Archivio Segreto, Materie Politiche, B. 18 D ويحتفظ قسم المخطوطات بالمكتبة الجامعية بجنوة بعدد من الكتابات باللغة العربية من القرن 15 و 16 لـ

Rabbi Samuel, Epistola translata de arabico in latinum per fratrem ordinis, A. III - 35

ولكتاب في الفقه لـ (حفصان علي المغربي) 2 - IV. A. ومختصراً في التغذية بالعربية لـ (حفصان المختار) 10 - VII. F. وسيرة ذاتية بالعربية لأبي حفصان علي 10 - VI. F. ومقالة في الطب بالعربية لأبي بكر محمد بن زكريا، 10 - VII. F. وتوجد في قسم المخطوطات من جامعة Berio في جنوة سجل عنوانه Trattati Antichi della Repubblica di Genova con i stati d'Armenia, Antiocha, Tripoli, Bayrout, Tunis, Cipro.

18 - VII. B. Constatinopoli, يتعلق الأمر بنسخ من القرن 18

درجة توضح الحضارة الجنوية، وكذلك حضارة غيرها من كبريات المدن المتوسطية بالغرب وبالشرق، تلك الفرضية المميّزة لعالم حوض البحر الأبيض المتوسط انطلاقاً من الإسهامات الإغريقية - الرومانية والمسيحية والإسلامية.

إن بحثاً منهجياً، ولكن على شكل تحريات يستحق أن يتم توسيعه، على الرغم من طابعه المضجر والمتكرر، ليشمل السجلات الجنوية للقرن الرابع عشر والخامس عشر. إنه سيسمح بمراقبة التوجهات الملاحظة بالنسبة للقرن الثاني عشر والثالث عشر وحتى بتوضيحها. إن غرارة المادة المصدرية تبرر ذلك البحث بامتياز.

في الوضعية الحالية يمكننا مع ذلك إبراز بعض الخطوط في الخاتمة. إن دراسة العلاقات الجنوية المغاربية في العصر الوسيط تقدم لنا توضيحات مهمة على مستويات ثلاث :

— أولاً إنها تشهد على استئناف واستمرارية المبادلات التجارية في فترة مبكرة ابتداء من القرن الثاني عشر بين العالمين اللذين يظهر أن التباينات الثقافية كان يجب أن تفرقهما على اعتبار أن الاتصالات بين المسلمين والمسيحيين قد تدهورت وانحلت بسرعة بلانغودوك وبروفانس وإيطاليا الشمالية — خلافا لما حدث في العالم الإيبيري.

— ثم إن هذه الدراسة تقدم لنا دليلاً من شأنه أن يدعم الفكرة القائلة بأن هناك نوعاً من الاستقلالية في الأنشطة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط بالمقارنة مع الحوض الشرقي في إطار مماثل إجمالياً.

— وأخيراً نعتز هنا على ما يمكن أن يوضح تاريخ المؤسسات والعلاقات المقيدة بالروابط بين دولة وأخرى بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي. إنه توجه يرتسم في الإستوغرافية ويجب أن يُعمّق.

التوزيع الجغرافي للاستثمارات الجنوية ببلاد المغرب

الجنوع العام				1290 — 1250				1249 — 1200				1199 — 1155									
المتوسط (ليرة)	%	العدد	%	المتوسط (ليرة)	%	العدد	%	المتوسط (ليرة)	%	العدد	%	المتوسط (ليرة)	%	العدد	%						
مدينة																قراض شركات ممتلكات مجموع					
55,2	77,2	34700	81,5	628	47	95,5	6261	92,5	133	48,3	84,5	16768	86,5	347	78,8		148				
112	16,7	7503	6,7	67				124,7	8,8	1746	3,5	14			108,6		53				
36,3	6,1	2763	9,8	76	27	4,5	298	7,7	11	33,3	6,7	1333	10	40	45,3		25				
58,3	42,3	44966	37,5	771	45,5	26,7	6559	27,1	144	49,9	41,5	19847	36,4	401	82,1	226					
مخاية																قراض شركات ممتلكات مجموع					
41,8	78,2	23579	87,4	564	31,5	94,5	5886	97,4	187	42,4	86,7	13902	90,6	328	77,4		49				
104,9	14,3	4301	6,3	41				81,8	4	655	2,2	8			110,5		33				
55,4	7,5	2274	6,3	41	68	5,5	340	2,6	5	57,4	9,3	1494	7,2	26	44		10				
46,7	28,3	30150	31,4	646	32,4	25,3	6226	36,1	192	44,3	33,6	16051	32,8	362	85,6	92					
نواحي																قراض شركات ممتلكات مجموع					
45,4	84,9	24599	90	541	60,7	93	10874	93,7	179	32,1	86,4	10211	95,2	318	81,6		44				
67,7	5,8	1692	4,1	25						67,7	31	1692	32,9	25	67,7		25				
76,4	9,3	2674	5,9	35	68,1	3,3	818	6,3	12	100,7	13,6	1612	4,8	16	34,8		7				
48,2	27,2	28965	29,2	601	61,2	47,6	11692	36	191	35,4	24,7	11823	30,3	334	71,7	76					
التوجهات																قراض شركات ممتلكات مجموع					
45,8	41,3	778	47,2	17			96	4		52,4	39,8	682	48,2	13	52,4		13				
92,9	44,3	836	25	9						92,9	48,9	836	33,3	9	92,9		9				
27,1	14,4	271	27,8	10						38,6	11,3	193	18,5	5	38,6		5				
52,4		1885		36						15,6		78		5		27					
الجنوع العام																43,4	47799	1102	79,7	33887	425

التحولات الاجتماعية والاقتصادية والمجالية بالمراكز الحضرية (مرتيل والمضيق والفندق) بالساحل التطواني الشمالي والمجالات المحاذية لها.

ذ. نور الدين الشخفي وذ. محمد العبدلاوي

كلية الآداب — تطوان

مقدمة :

تشمل التنمية جميع مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ذلك أن مفهوم التنمية يعني استثمار وتطوير الموارد، وإقامة التنظيمات اللازمة والكافية، وبلورة الأفكار والمفاهيم التي تؤدي مجتمعة إلى حياة أفضل في جوانبها المعنوية والمادية.

ويلاحظ على مستوى الساحل التطواني الشمالي، أنه لم يتم إلى حد الآن نهج سياسة تنموية شاملة تأخذ بعين الاعتبار كل مكونات المجال، في إطار تفاعلاتها المتعددة والمتشابكة، حيث إن تدخل المصالح المختصة على الرغم من اتخاذه أشكال عديدة، لم يستطع معالجة المشاكل المطروحة إلا بشكل جزئي للغاية.

لذا يهدف المقال إلى إبراز الاختلاف الكبير الذي يطبع تنظيم مجال الساحل التطواني الشمالي على مستوى المراكز الحضرية : مرتيل والمضيق والفندق والمجالات المحاذية لها، إضافة إلى رصد جملة من تدخلات المصالح المختصة التي كثيرا ما كانت لها بدورها عواقب وخيمة على مستوى الواسطين الطبيعي والبشري.

1 — مجال طبيعي عطوب وغير مستقر :

1 — 1 — بنية جيولوجية وتضاريسية معقدة :

تتصف بنية الساحل التطواني الشمالي بالتعقد المرتبط بالتطور البنائي الذي عرفه هذا المجال طيلة العصور الجيولوجية، هذا المجال يطبعه التنوع والتباين الصخاري، الذي لعب دورا أساسيا في تحديد المظاهر المورفولوجية الحالية والتي تتجسد في ثلاث وحدات رئيسية (خريطة رقم 1) :

• **الوحدة الكلسية :** يتعلق الأمر أساسا بالقسم الشمالي من الذروة الكلسية La Dorsale calcaire، والمسمى بجبل الحوز، ويتكون من صخور كلسية دولوميتية لياسية، ويتجاوز الارتفاع به أحيانا 800 م فوق مستوى سطح البحر.

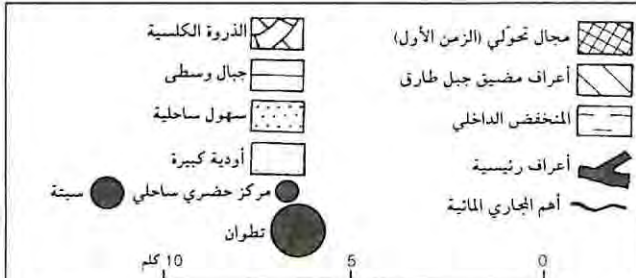
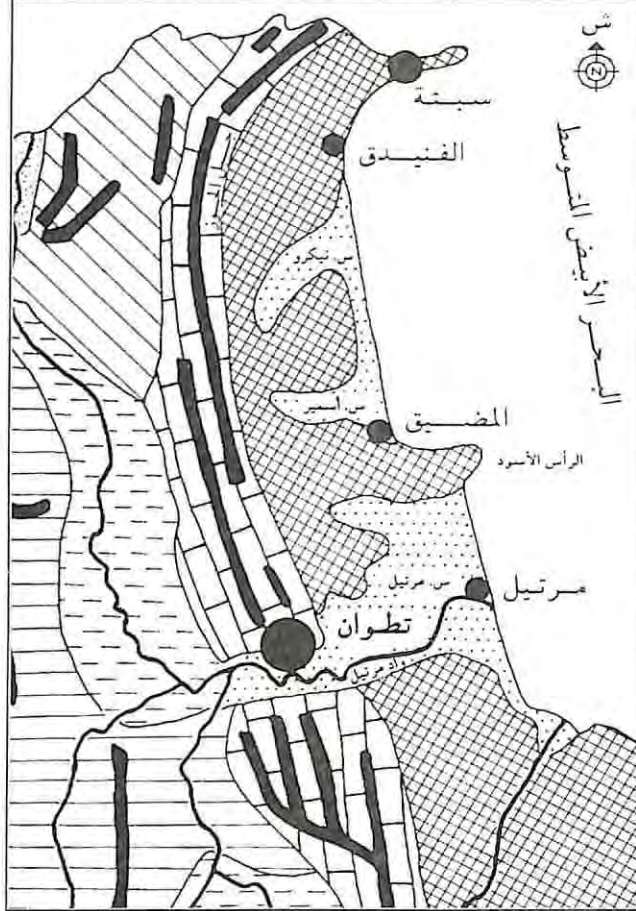
وتتميز الذروة الكلسية بكونها خزانا للمياه الباطنية، التي تتفجر على شكل ينابيع وعيون عند خط التماس مع صخور الزمن الأول غير النافذة، الأمر الذي يجعل نقط الماء هاته مجالا لتركز عدد هام من الدواوير (صورة 1)، وكذلك منابع أهم روافد المجاري المائية الرئيسية في المنطقة المدروسة.

• **الوحدة التلية :** تتناسب في معظمها مع تكوينات الزمن الأول التي تتمثل في صخور متباينة من حيث الخصائص الفيزيائية والكيميائية (طفل، ونضيد، وغنس، مع بروزات حثية — مروتية...)، والتي أضفت على المظهر التضاريسي العام طابعا خاصا يتميز بسيادة تلال ومتون ذات قمم مقببة أو خطية، وسفوح غير منتظمة ومتباينة من حيث الانحدار، وأحيانا تنتهي هذه الوحدة إلى البحر بواسطة رؤوس (الرأس الأسود Cabo negro ورأس مونتي هاشو Monte Hachu...).

والملاحظ أنه نظرا لوجود صخور هشة، فإن جهات عديدة من هذه الوحدة تتعرض لمختلف أنواع التعرية، لاسيما المائية منها.

• **الوحدة السهلية الشاطئية :** تتميز بانبساطها الطبغرافي الناجم عن التهدل المستمر الذي يطبع هذه المناطق السهلية من جهة، وطبيعة المواد المتراكمة فيها من جهة ثانية (إرسابات نهر بحرية في مجملها)، وهذه السهول هي : مرتيل وأسمير وريستنكة (أو النيكرو)، وتتصف بكونها قريبة جدا من مستوى سطح البحر، مما لايسهل عملية التصريف، حيث تتجمع المياه على الخصوص خلال الفترات

خريطة 1 : أهم الوحدات الجغرافية الطبيعية شمال شرق شبه الجزيرة الطنجية.



المصدر (بتصرف) = ANDRE (A) & EL GHARBAOUI (A.), 1973-ASPECTS DE LA MORPHOLOGIE UTOPIALE DE LA PENINSULE DE TANGER - R.G.M. N° 23-24 P 127

رسم : محمد العبدلوي ونور الدين الشخعي



صورة 1

دوار الكوف في أعالي حوض أسميم. وهو نموذج للدواوير المستقرة في منطقة الاتصال بين الذروة الكلسية (النافذة) وتكوينات الزمن الأول (غير النافذة)، حيث تنبثق مجموعة من الينابيع والعيون.
(الصورة بعدسة الأستاذين الباحثين : 09 / 01 / 1995).

المطيرة، (صورة 2) مشكلة بذلك مستنقعات تعوق استغلال الأراضي. كما أن الانبساط الذي يتصف به سهل مرتيل يطرح عدة مشاكل خصوصا على مستوى تصريف المياه المستعملة.

ويلاحظ أن هذه السهول تنتهي عند البحر بشواطئ وكثبان رملية مختلفة الاتساع. فإذا كان الشريط الرمي يصل إلى اتساعه الأقصى (150 إلى 200 م) في الشاطئ الواقع جنوب الرأس الأسود برمال جد دقيقة، فإن عرض الشاطئ الرمي يتراوح بين صفر و 100 م في المناطق الصخرية كما هو الحال في الرأس الأسود نفسه⁽¹⁾. وقد كانت الكثبان الرملية تلعب دورا هاما في الحفاظ على التوازن البيئي للشريط الساحلي، قبل أن تتعرض للاختفاء التدريجي بفعل عمل الإنسان كما سنوضح فيما بعد.

(1) Min. des T.P. (Dir. des Ports) - 1990 - «Le littoral de Tétouan. Expertise sédimentologique», p. 10.



صورة 2

سهل مرتيل. وتبدو في الصورة تجزئة أم كلثوم الواقعة عند مدخل مركز مرتيل من جهة الغرب، حيث تحيط بها البرك المائية الناجمة عن تساقط الأمطار وصعوبة التصريف، نظرا لانبساط السهل وكونه قريبا جدا من مستوى سطح البحر، فضلا عن صعود مستوى الفرشة المائية الباطنية خلال الفصل المطير. (الصورة بعدسة الأستاذين الباحثين : 02 / 01 / 1996).

ونشير إلى أن سهل أسмир يتوفر، عند مصب واد أسмир، على هور Lagune متميز بقيمته الإيكولوجية، حيث يعد محطة هامة للطيور المهاجرة (أكثر من 20 نوعا، و 20 000 طيرا خلال السنة)⁽²⁾، لكن هذا الهور أخذ يعرف تدهورا بيئيا خطيرا في السنوات الأخيرة، ناجما عن عمليات بشرية إعدادية كما سنرى لاحقا.

1 - 2 - تساقطات عيفة ومتركة زمنيا :

يتصف الساحل التطواني الشمالي بمناخ شبه رطب ذي شتاء معتدل، ويتلقى كمية من التساقطات تتعدى عادة 700 ملم / السنة، لكن التساقطات تنصف

(2) LOUAH (A.) et autres - 1993 - «Recherches Hydrobiologiques et écologiques sur le complexe des marais de Restinga - Smir : une contribution à la connaissance faunistique et écologique» in : «Aménagement littoral et évolution des côtes. L'environnement des côtes marocaines en péril». Pub. du Comité National de Géographie du Maroc. Rabat, p. 36.

بعدم انتظامها من سنة إلى أخرى. ففي سبته مثلا، بلغت كمية التساقطات 1170,5 مم سنة 1989، لكن الكمية كانت 404 مم فقط سنة 1984⁽³⁾. وفي محطة تطوان (ارتفاع 5 م)، إذا كان المعدل السنوي يبلغ 777,4 ملم، فإن المحطة لم تسجل سوى 324,7 ملم سنة 1985، في مقابل 877,8 ملم سنة 1991⁽⁴⁾.

كما تعرف التساقطات تركزا على المستوى الزمني، فعدد أيام التساقط في سبته كان 58 يوما فقط سنة 1984، لكنه وصل إلى 121 يوما سنة 1989، كما أن شهر فبراير من سنة 1989 عرف تساقط 105,5 ملم في مقابل جفاف مطلق في شهر غشت من نفس السنة⁽⁵⁾. وفي محطة تطوان يبلغ معدل أيام التساقط 82 يوما⁽⁶⁾.

كما تتميز التساقطات بعنفها، الشيء الذي يساهم - إلى جانب عوامل أخرى - في احتدام مظاهر التعرية، وحدوث فيضانات فجائية كثيرا ما تكون خطيرة على السكان والمنشآت. ومن البديهي أن عدم انتظام التساقطات ينعكس على نظام جريان المياه.

1 - 3 - مجاري مائية غير منتظمة الجريان :

تتميز المجاري المائية في المنطقة : مرتيل وعليلا (أو المالح) وأسمير والنيكرو وكنديسة... (خريطة 2) بعدم انتظام صبيبها من فصل لآخر (يتراوح متوسط صبيب واد مرتيل بين 0,29 م³ / الثانية في شهر شتنبر، و 7، 45 م³ في شهر يناير)⁽⁷⁾ (الصورتان 3 و 4)، ومن سنة لأخرى (تتراوح الكميات المائية الجارية بواد مرتيل بين 100 مليون م³ كحد أدنى و 640 مليون م³ كحد أقصى⁽⁸⁾).

(3) Ilustre Ayuntamiento de Ceuta. «Anuario Estadístico de Ceuta - 1992 - p. 23.

(4) Dir. de la Statistique (Rabat) - «Annuaire statistiques du Maroc».

(5) Ilustre Ayuntamiento de Ceuta. Op. cit. p. 23.

(6) Dir. de la Statistique (Rabat). Op. cit.

(7) Min. de L'Intérieur - Prov. de Tétouan - s.d. - «Assainissement du littoral tétouanais. Prov. de Tétouan».

(8) EL GHACHTOUL (Y.) et BAKHRI (A.) - 1990 - «Qualité de l'eau du bassin côtier méditerranéen entre Tétouan et F'nideq» - Eau et Développement (Revue) - Rabat. N° 10 - p. 74.

خريطة 2: شبكة المجاري المائية بالساحل التطواني الشمالي

- مدينة / مركز حضري
- النقطة الملوثة الأساسية

- 1 - الذراع الميت لواد مرتيل،
- 2 - المنطقة الصناعية،
- 3 - معمل كويلما،
- 4 - معمل السكر،
- 5 - معمل التبيخ،
- 6 - معمل الورق،
- 7 - معمل الوقيد،
- 8 - الجزر البلدي،
- 9 - محطة توليد الكهرباء.

- ▲ موانئ جاهزة
- △ موانئ في طور الإنجاز
- +++ حدود دولية

- == هور أسمير
- ~~~~ مجرى دائم
- - - - - مجرى موسمي

0 3 6 9 كلم

Carte topographique de Tétouan (1/100.000)
+ معاينة ميدانية

المصدر (بتصرف) =

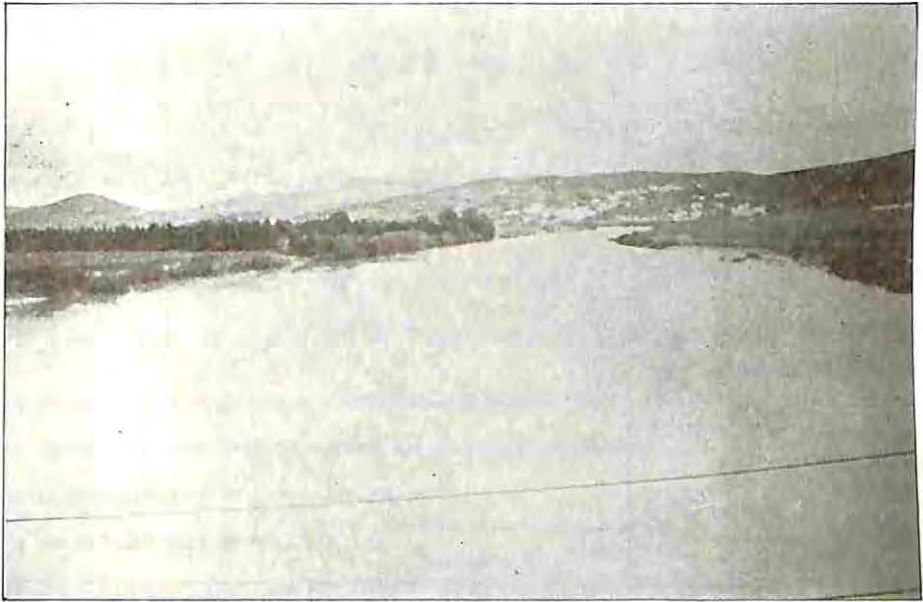
رسم: محمد العيدلاوي ونور الدين الشبيخي



صورة 3

واد مرتيل عند قنطرة السويار (طريق شفشاون) في اتجاه الغرب. ويبدو المجرى جافا تماما خلال هذا الفصل (الخريف)، لاسيما وأن الأمر يتعلق بسنة جافة سابقة (1994 - 1995).

(الصورة بعدسة الأستاذين الباحثين : 28 / 09 / 1995).



صورة 4

واد مرتيل عند قنطرة السويار (طريق شفشاون) في اتجاه الغرب (نفس المكان السابق)، ويبدو المجرى قد طفحت على ضفافه المياه خلال هذا الفصل (الشتاء)، لاسيما وأن الأمر يتعلق بسنة رطبة (1995 - 1996).

(الصورة بعدسة الأستاذين الباحثين : 10 / 01 / 1996).

كما تعرف أحواضها تعرية كبيرة، والملاحظ أن الكميات المائية الجارية سنويا تختلف كذلك من مجرى لآخر (مرتيل 300 مليون م³، وأسمير 20 مليون م³، والنيكرو 12 مليون م³)⁽⁹⁾. وتساهم هذه المجاري في حدوث فيضانات خطيرة في بعض السنوات، كما أنها تعتبر مصدرا من مصادر التلوث لكونها تتلقى المياه المستعملة المنزلية والصناعية وغيرها، دون أن تخضع مسبقا لأدنى معالجة.

1 - 4 - رياح متعددة الاتجاهات، كثيرا ماتكون قوية :

تتصف الرياح السائدة في المنطقة المدروسة بعنفها الكبير في كثير من الحالات. وهي تكون على الخصوص شرقية من ماي إلى أكتوبر، وغربية من أكتوبر إلى فبراير. أما خلال شهري مارس وأبريل، فهي تكون إما شرقية — شمالية شرقية أو غربية — جنوبية غربية. ويتجسد دورها السلبي أساسا في تحريك التكوينات الرملية الشاطئية (الرياح الشرقية والشمالية — الشرقية والتي يصل أقصى سرعتها بين 17 و 21 م في الثانية)⁽¹⁰⁾ في اتجاه خلفية الشاطئ، الشيء الذي يؤثر سلبا على الأراضي الزراعية. وهذه الظاهرة تلاحظ في سهل مرتيل على الخصوص.

1 - 5 - غطاء نباتي متنوع ومتدهور :

يتنوع الغطاء النباتي في الساحل التطواني الشمالي تبعا لاختلاف الظروف المحلية سواء على مستوى الطبغرافية أم التربة...

فعلى الكثبان الرملية الشاطئية، نجد نباتات متأقلمة مع الوسط المحلي، والتي كانت تلعب — قبل زحف المنشآت السياحية وغيرها — دورا أساسيا في تثبيتها وحمايتها من الرياح الشرقية من جهة، ووقاية الأراضي الفلاحية والمنشآت العمرانية من زحف الرمال والأمواج، وأهم الأصناف النباتية هي : الطرفاء والسنط والضررو والأوكاليتوس... وفي مصبات الأنهار وفي الأهوار، نجد أصنافا متأقلمة مع ارتفاع الملوحة والتربة المبية كما هو الحال بالنسبة للطرفاء والسمار. وبخصوص كدية الطيفور، حيث يسود البلق المنضد micaschiste، نجد الصنوبر الحلي والصنوبر الظلي والأوكاليتوس والضررو واللاذن والزيتون البري... وبجبل

(9) Idem. p. 74

(10) Min. des T.P. (Dir. des Ports) - 1990 - Op. cit. p. 13.

زمزم، حيث يسود الحث، نجد البلوط الفليني والزيتون البري والصنوبر الظلي والصنوبر الحلبي والصنوبر البحري... وفي الوحدة التالية، نجد الأيك matorral متشكلا من أصناف متعددة ومختلطة : الضرو والملاذن والبلوط الفليني والزيتون البري والخلنج... وفي الذروة الكلسية، نجد بعض الأصناف التالية : العفصية والضرو والخروب والزيتون البري والسنديان القرمزي. والملاحظ أن الغطاء النباتي يشهد تدهورا خطيرا نتيجة الحرائق وعمليات الاجتثاث.

وهكذا، فإن هذه العناصر الطبيعية تتفاعل مجتمعة لتنشيط مظاهر التعرية بمختلف أنواعها، لاسيما وأن تدخل الإنسان في هذا الوسط ساهم بشكل فعال وحاسم في كثير من الأحيان في احتدام تلك المظاهر وتفاقم المشاكل الناجمة عنها كما سنرى لاحقا.

2 - آليات مختلفة وراء نمو المراكز الحضرية واختلال السير الوظيفي لمكونات المجالات المحاذية لها :

تتصف المراكز الحضرية بالساحل التطواني الشمالي بنمو ديمغرافي هام بفعل تزايد طبيعي كبير وتوافد سكاني ضخم (الجداول 1 و 2 و 3). هذا النمو يفوق في وتيرته مثيله الخاص بالقطب الحضري المهيمن (تطوان) لكن مع وجود تباينات على مستوى بعض الجوانب المرتبطة بخصوصيات كل مركز من هذه المراكز.

جدول 1 : تطور عدد سكان مدينة تطوان والمراكز الحضرية بالساحل التطواني الشمالي (1940 - 1950)

مرتبة	1940	1950	1940 - 1950 (%) ^(*)
مرتبة 1	3037	3793	2,25 +
المضيق	1318	1944	3,96 +
الفتيـدق	1051	4826	16,47 +
تطوان	70078	80732	1,43 +
سبتة	58713	56909	0,31 -

المصدر : Division des statistiques (Rabat) 1972 «Résultats du Recensement de 1960» Vol. 3.

- Ilustre Ayuntamiento de Ceuta (Ceuta) - «Anuario Estadístico de Ceuta - 1992.

* معدل التزايد أو التراجع السنوي.

جدول 2 : تطور عدد سكان مدينة تطوان والمراكز الحضرية بالساحل
التطواني الشمالي خلال فترة الاستقلال (1960 - 1994).

1994	1982	1971	1960	
23143	9893	5817	4302	مرتيل
21093	8822	4082	2412	المضيق
34486 ^(*)	16721	8563	4368	الفنيدق
277516	205246	141620	102793	تطوان
69138	65241	62120	64728	سبتة

المصدر :

- Division des statistiques (Rabat)- 1972 - «Résultats du Recensement de 1960», Vol. 3.
- Direction des statistiques (Rabat) - 1971 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H. 1971».
- Direction de la statistique (Rabat)- 1983 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H 1982.
- Direction de la statistique (Rabat) - 1995 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H. 1994».
- Ilustre Ayuntamiento de Ceuta (Ceuta) - «Anuario Estadístico de Ceuta - 1992» (con rectificaciones personales).

(*) يلاحظ أن تصميم التهيئة لمركز الفنيدق، قد ارتقب كعدد لسكان المركز سنة 1996 : 20540 نسمة، وذلك على أساس نسبة تزايد سنوي تبلغ 3,0 %، وهي إسقاطات لانتستند على أي أساس سليم، انظر :

Province de Tétouan - Déc. 1991 - «Plan d'aménagement du centre délimité de F'nideq -Rapport justificatif (variantes d'aménagement)». P. 12.

جدول 3 : تطور معدل تزايد أو تراجع السكان السنوي بمدينة تطوان والمراكز الحضرية بالساحل التطواني الشمالي خلال فترة الاستقلال (1960 - 1994) (%)

1994 - 1982	1982 - 1971	1971 - 1960	
7,35 +	4,90 +	2,76 +	مرتيل
7,54 +	7,18 +	4,86 +	المضيق
6,22 +	6,20 +	6,26 +	الفنيدق
2,55 +	3,39 +	2,93 +	تطوان
0,48 +	0,45 +	0,37 -	سبتة

المصدر :

إعداد شخصي من طرف الأستاذين الباحثين على ضوء المراجع المذكورة بخصوص الجدول 2.
 • تم الأخذ بعين الاعتبار، انطلاقا من سنة 1960، مجموع المجال البلدي الحالي بخصوص كل مركز من المراكز المعنية، لذلك تم تعديل النتائج المنشورة بالنسبة لكل سنة من سنوات الإحصاء السابقة عن إحصاء 1994 (1960 و 1971 و 1982).

• بخصوص معدل التزايد السنوي، تم تطبيق الصيغة الإحصائية التالية :

$$n \sqrt{\frac{P_n}{P_0}} - 1 \times 100$$

P_n = عدد سكان المركز في التاريخ n.

P_0 = عدد سكان المركز في التاريخ 0.

n = المدة الزمنية الفاصلة بين 0 و n.

وقد استعمل (ماعدا سبتة) الجذر 11.088 بالنسبة لفترة 1960 - 1971، لكون المدة الفاصلة بين إحصاء 1960 (18 يونيو) وإحصاء 1971 (20 يوليو)، هي 11 سنة و 32 يوما.

أما بخصوص فترة 1971 - 1982، فقد استعمل الجذر 11.12 لكون المدة الفاصلة بين إحصاء 1971 (20 يوليو) وإحصاء 1982 (3 شتنبر) هي 11 سنة و 45 يوما. وفيما يتعلق بفترة 1982 - 1994، فقد استعمل الجذر 11,99 لكون المدة الفاصلة بين إحصاء 1982 (3 شتنبر) وإحصاء 1994 (2 شتنبر) هي 11 سنة و 364 يوما.

2 — 1 — آليات مختلفة وراء نمو المراكز الحضرية :

2 — 1 — 1 — مركز مرتيل منامة لمدينة تطوان :

كان مركز مرتيل (الواقع على بعد حوالي عشرة كيلومترات من مدينة تطوان) : يعد في القرون السابقة قاعدة هامة للجهاد البحري، وميناء تجاريا نشيطا لمدينة تطوان. وخلال فترة الحماية الإسبانية، تم استصلاح ميناء مرتيل كما عرف المركز (الذي كان يدعى Río Martín) توافد عدد من الإسبان والمغاربة. ففي أواخر العشرينات كان عدد سكانه يبلغ حوالي 1300 نسمة، يمثل الإسبان 50,2% منهم⁽¹¹⁾، ثم ارتفع عدد السكان إلى 3037 نسمة سنة 1940 يمثل الإسبان 45,8% منهم⁽¹²⁾، أما سنة 1950، فقد وصل العدد إلى 3793 نسمة، منهم 47,6% أجانب⁽¹³⁾. فقد كان الميناء نشيطا على المستوى التجاري والصيد البحري لاسيما سمك الحوت الذي كان يوجد معمل له بمرتيل⁽¹⁴⁾. كما عرفت الأنشطة الفلاحية انتعاشا كبيرا بنواحي المركز، وكانت تعتمد على السقي انطلاقا من الآبار. ونشير إلى أن مجموعة من أسر تطوان اضطرت إلى الاستقرار بمرتيل لتعذر الحصول على مسكن داخل تطوان⁽¹⁵⁾.

وقد تم إلحاق مرتيل في بداية الأربعينات بلجنة المصالح البلدية بتطوان Junta de Servicios Municipales de Tetuán (ظهر 15 ماي 1941) ثم ليصبح مرتيل

RUIZ ALBENIZ (V) - 1930 - «Monografía sobre colonización rural en Marruecos español» (11) - Madrid - p. 111.

Presidencia del Gobierno - Instituto Nacional de Estadístico - 1946 - «Zona de Protectorado y de los territorios de soberanía de España en el norte de Africa - Anuario estadístico 1945». Madrid, p. 23.

Premier Ministre - Dél. au Plan et au Développement Régional - Div. des statistiques (Rabat) (13) - 1972 - «Résultats du Recensement de 1960 - Vol. 3», p. 665.

RUIZ ALBENIZ (V.) - 1930 - op. cit. p. 111. (14)

GUTIERREZ TRUJILLO (E.) 1943 - «Evolución y desarrollo de la población de Tetuán - (15) Tetuán - p. 14.

من جديد مستقلا عن تطوان بمقتضى ظهير يونيو 1945⁽¹⁶⁾.

بعد حصول البلاد على استقلالها، هاجر العديد من سكان مرتيل الأجانب، وهو ما جعل معدل النمو السنوي للمركز ينزل من 2,25% (1940 - 1950) إلى 1,27% (1950 - 1960). وبعد أن كان الأجانب يمثلون 47,64%

من السكان سنة 1950⁽¹⁷⁾، نزلت النسبة إلى 19,04% سنة 1960⁽¹⁸⁾، ثم 1,32% سنة 1971⁽¹⁹⁾، و 0,65% سنة 1982⁽²⁰⁾، ثم أخيرا 0,51% سنة 1994⁽²¹⁾ (جدول 4).

GARCIA FIGUERAS (T.) - 1953 - «Los municipios en nuestra zona del protectorado Marroquí» in : «Miscelánea de estudios varios sobre Marruecos» - Tetuán. p. 198.

Premier Ministre - Dél. au Plan et au Développement Régional. Div. des statistiques - 1972 (17) - «Résultats du Recensement de 1960» Vol. 3 - p. 665.

Idem. p. 665 (18)

Premier Ministre - Secrétariat d'Etat au Plan et au Développement Régional et à la Formation des Cadres - Dir. des statistiques - 1971 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H. de 1971», p. 87.

Min. de Plan, de la Formation des Cadres et de la Formation Professionnelle - Dir. de la Statistique - 1983 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H. 1982».

Premier Ministre - Ministère chargé de la population. Direction de la Statistique (Rabat) (21) - 1995 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H. de 1994».

جدول 4 : تطور عدد سكان مرتيل حسب جنسيتهم
(1940 - 1994).

1994	1982	1971	1960	1950	1940	
23026	9829	5740	3446	1982	1630	مغاربة مسلمون
			37	4	5	مغاربة يهود
117	64	77	819	1807	1402	أجانب
23143	9893	5817	4302	3793	3037	المجموع

المصدر :

- Division des statistiques (Rabat)- 1972 - «Résultats du Recensement de 1960» Vol. 3.
- Direction des statistiques (Rabat) - 1971 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H 1971.
- Direction de la statistique (Rabat)- 1983 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H 1982.
- Direction de la statistique (Rabat) - 1995 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H. 1994».

ورغم إغلاق ميناء مرتيل، فإنه أصبح يستقبل أعدادا هامة من الوافدين، ويستقطب تيارات السياحة الوطنية على نطاق واسع، فضلا عن كونه مصطافا لسكان تطوان، ففي أوائل الثمانينات كان 50% من مجموع المساكن عبارة عن إقامات ثانوية⁽²²⁾. وقد استفاد مرتيل كذلك من إقامة منطقة صناعية داخل تراب جماعته الحضرية في أواخر السبعينات، وكذلك فتح أبواب كلية الآداب والعلوم الإنسانية سنة 1982، والمدرسة العليا للأساتذة سنة 1986، الشيء الذي خلق دينامية في المركز طيلة فصول السنة.

وهكذا ارتفع عدد السكان من 4302 نسمة سنة 1960 إلى 5817 نسمة سنة 1971، بمعدل نمو سنوي وصل إلى 2,76%، ثم انتقل عدد السكان إلى 9893 نسمة سنة 1982 بمعدل نمو سنوي بلغ 4,90% أي أعلى من معدل

M.H.A.T. - Dir de l'Urb. et de l'Archit. (Rabat). «S.D.A.U de Tétouan. Rapport final». (22)
Vol. I. p. 9.

نمو مدينة تطوان في نفس الفترة (3,39%)، لاسيما وأنه يلعب إلى حد ما دور منامة Dortoir لمدينة تطوان، ففي بداية الثمانينات كان 35% من سكانه النشيطين يشتغلون بهذه المدينة⁽²³⁾.

وأخيرا بلغ عدد السكان سنة 1994، 23143 نسمة بمعدل نمو سنوي وصل 7,35%.

والملاحظ أن الهجرة لعبت دورا هاما في النمو الديمغرافي لمركز مرتيل انطلاقا من السبعينات (51,4%)⁽²⁴⁾، بعد أن كانت حصيلة الهجرة سلبية⁽²⁵⁾ في الستينات بفعل نزوح الأجانب. ومن جهة أخرى، نجد أن نسبة السكان المزدادين خارج المركز قد بلغت 52,7% حسب نتائج إحصاء 1971⁽²⁶⁾، (جدول 5)، لتنزل فقط إلى 50,3% سنة 1982⁽²⁷⁾، علما بأن النسبتين تبلغان على التوالي 83,7% و 82,0% بخصوص أرباب الأسر⁽²⁸⁾، كما أن نسبة المزدادين في وسط حضري آخر قد ارتفعت من 20,3% سنة 1971 إلى 34% سنة 1982⁽²⁹⁾ (26,8% و 27,9% بخصوص أرباب الأسر⁽³⁰⁾). أما نسبة أرباب الأسر المزدادين بمدينة تطوان فقد مثلت على التوالي 65,3% و 52,4%

Idem. p. 9. (23)

C.E.R.E.D. - 1988 - «Situation démographique régionale au Maroc. Analyses comparatives» (24)
Dir. de la Statistique - Rabat - p. 542.

Idem. p. 542. (25)

Premier Ministre - Secrétariat d'Etat au Plan et au Développement Régional - Dir. de la Statistique - Rabat - 1977 - «Résultats du R.G.P.H. de 1971 - Données communales - Région du Nord - Ouest». p. 95. (26)

(27) نتائج غير منشورة خاصة بالإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 1982 (مديرية الإحصاء - الرباط).

(28) جرد شخصي لاستمارات الأسرة والمسكن المتعلقة بإحصائي 1971 و 1982.

(29) نتائج غير منشورة خاصة بإحصاء 1982.

(30) جرد شخصي لاستمارات الأسرة والمسكن الخاصة بإحصائي 1971 و 1982.

جدول 5 : توزيع عدد سكان تطوان والمراكز الحضرية بالساحل التطواني الشمالي حسب أماكن ازديادهم (حسب نتائج إحصائي (1971 - 1982) (%).

أماكن الازدياد		مرتيل		المضيق		الفنيدق		تطوان	
		1982	1971	1982	1971	1982	1971	1982	1971
نفس المكان		49,7	47,3	50,0	49,7	31,6	43,9	56,7	61,0
وسط ريفي		15,3	30,3	39,4	14,6	48,4	25,3	32,0	11,8
وسط حضري		34,0	20,3	7,7	34,4	10,3	27,3	6,0	26,0
خارج الوطن وغير المصرحين		1,0	2,1	2,9	1,3	9,7	3,5	5,3	1,2
المجموع		100	100	100	100	100	100	100	100

المصدر (بتصرف) :

- Premier Ministre - Secrétariat d'Etat au Plan et au Développement Régional - Direction de la Statistique (Rabat) 1971 - «Résultat du R.G.P.H. de 1971 - Données communales - Région du Nord - Ouest» P. 5.

ونائج غير منشورة متعلقة بالإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 1982 (مديرية الإحصاء - الرباط).

من مجموع المزدادين بوسط حضري⁽³¹⁾. وبالإضافة إلى ذلك، فإن 51,6% من مجموع أرباب الأسر المهاجرين عبر موصل، قد كانت مدينة تطوان موصلاً لهم قبل استقرارهم بمرتيل⁽³²⁾.

وبخصوص الأنشطة المزاولة من طرف السكان (جدول 6) فقد عرفت تحولات

(31) نفس المصدر السابق.

(32) نفس المصدر السابق.

جدول 6 : توزيع النشيطين المشتغلين حسب مهنتهم في مرتيل والمضيق والفندق سنة 1991 (%)

مرتيل	المضيق	الفندق	
27,6	8,7	7,1	موظفون
15,7	18,5	36,1	تجار
15,0	24,4	10,3	عمال
			حرفيون
15,1	19,2	11,7	(الإنتاج + الخدمات)
9,4	20,4	4,3	صيادون
17,2	8,8	30,5	آخرون
100,00	100,00	100,00	المجموع

المصدر :

- Min. de l'Intérieur - Province de Tétouan - Déc. 1991.
«Plan d'aménagement du centre autonome de Martil - Rapport justificatif (variantes d'aménagement)», p. 4.
- Min. de l'Intérieur - Province de Tétouan - Déc. 1991.
«Plan d'aménagement du centre délimité de M'diq - Rapport justificatif (variantes d'aménagement)», p. 5.
- Min. de l'Intérieur - Province de Tétouan - Déc. 1991.
«Plan d'aménagement du centre délimité de F'nideq - Rapport justificatif (variantes d'aménagement)», p. 5.

ارتبطت بالتغيرات التي عرفتها وظائف المركز ككل، فمن المعلوم أن النشاط الفلاحي قد تقلص بفعل الزحف العمراني واحتدام المضاربة العقارية، لذا نجد نسبة المشتغلين بالقطاع الفلاحي لم تكن تتعدى 13,08% من مجموع النشيطين المشتغلين سنة 1982، وفي المقابل نجد أن 14,20% هم موظفون سنة 1982⁽³³⁾، لترتفع النسبة إلى 27,6% سنة 1991 بينما تبلغ هذه النسبة

(33) نفس المصدر السابق.

7،8% فقط بخصوص المضيق و 1،7% بالنسبة للفندق⁽³⁴⁾، الشيء الذي يجعل مرتيل في وضعية متميزة بالمقارنة مع المركزين المذكورين، باعتباره يمثل ضاحية — منامة لسكان تطوان.

إلا أنه يلاحظ أن هناك نسبة لا يستهان بها من العاطلين، فإذا كانت نسبتهم قد شملت 3،9% من مجموع السكان و 6،14% من مجموع النشيطين سنة 1971، فإن النسبتين بلغتا على التوالي 4،1% و 3،13% سنة 1982⁽³⁵⁾، ثم 11% و 32% سنة 1991⁽³⁶⁾.

والجدير بالإشارة أن مرتيل أصبح منذ سنة 1992 بلدية (بعد أن كان مركزا مستقلا منذ سنة 1957) حيث توسع مجال نفوذ جماعته الحضرية جنوبا ليشمل الديزة على الخصوص، وأساسا نحو الشمال ليمتد حتى أعالي كدية الطيفور ليشمل كابو نكرو، إلا أنه في ذات الوقت اقتطعت منه المنطقة الصناعية التي أصبحت تابعة لمجال نفوذ بلدية تطوان — سيدي المنظري.

2 — 1 — 2 — مركز المضيق : ميناء صيد نشيط ومحطة للسياحة الوطنية والدولية :

لم يظهر المضيق (الذي يبعد عن تطوان بـ 14 كلم) كمركز حضري إلا خلال فترة الحماية الإسبانية حيث كان عبارة عن قاعدة عسكرية لسلطات الحماية، لاسيما وأنه كان يقع على الطريق البرية والسكة الحديدية الرابطتين بين مدينتي تطوان وسبتة، وقد كان يدعى آنذاك بـ Rincón del medick أي زاوية المضيق. وقد كان عدد السكان المدنيين في أواخر العشرينات يبلغ ألف نسمة معظمهم إسبان ويشغلون كصيادين⁽³⁷⁾. وفي سنة 1940، بلغ عدد السكان

(34) Min. de l'Intérieur. Prov. de Tétouan - Déc. 1991 - «Plan d'aménagement du centre autonome de Martil et des centres délimités de M'diq et F'nideq - Rapports justificatifs (variantes d'aménagement).

(35) جرد شخصي لاستمارات الأسرة والمسكن الخاصة بإحصائي 1971 و 1982.

(36) Min. de l'Intérieur - Prov. de Tétouan - Déc. 1991 - «Plan d'aménagement du centre autonome de Martil - Rapport justificatif (variantes d'aménagement)», p. 4.

(37) RUIZ ALBENIZ (Victor) - 1930 - op. cit. p. 112.

1318 نسمة، يمثل الإسبان منهم 61,7%⁽³⁸⁾، ثم ارتفع العدد إلى 1944 نسمة سنة 1950، يمثل الأجانب 34,8% منهم. أما سنة 1960 فقد بلغ العدد 2412 نسمة لم يمثل أولئك منهم سوى 12,61%⁽³⁹⁾ بفعل نزوح الإسبان إلى بلادهم ثم انخفضت نسبة الأجانب إلى 1,2% سنة 1971⁽⁴⁰⁾، ف 0,16% سنة 1982⁽⁴¹⁾ ثم 0,46% سنة 1994⁽⁴²⁾. وفي مقابل نزوحهم، حدث توافد كبير على مركز المضيق حيث ارتفع عدد السكان إلى 4082 نسمة سنة 1971، أي بمعدل نمو سنوي بلغ 4,86% ثم قفز العدد إلى 8822 نسمة سنة 1982، أي بمعدل نمو سنوي بلغ 7,18%. ثم وصل أخيرا إلى 21093 نسمة سنة 1994 بمعدل نمو سنوي بلغ 7,54% (جدول 7).

والملاحظ أنه بخلاف مرتيل، كانت الحصة المجرية إيجابية بخصوص المضيق خلال الستينات، بل إن الهجرة مثلت 51,1%⁽⁴³⁾ من النمو الديمغرافي للمركز، مقابل 18,8%⁽⁴⁴⁾ بالنسبة لمدينة تطوان، خصوصا وأن المضيق أصبح يتوفر على ميناء حديث على مستوى الصيد وذلك منذ سنة 1966، فضلا عن وظيفته الإدارية وأنشطته السياحية على المستوى الوطني والدولي، إلا أن ارتباطاته بالقطب الحضري تطوان هي أقل بالمقارنة مع مرتيل، فعلى سبيل المثال، في بداية الثمانينات، نجد أقل من 1% من سكانه النشيطين المشتغلين يزاولون عملهم بتطوان⁽⁴⁵⁾. ومن جهة أخرى، نجد أن نسبة السكان المزدادين خارج المركز، قد بلغت 50% حسب نتائج إحصاء 1971⁽⁴⁶⁾ (جدول 4)، لترتفع النسبة فقط إلى

(38) Instituto Nacional de Estadístico (Madrid) - 1946 - op. cit. p. 23.

(39) Dir. des statistiques (Rabat) - 1972 - op. cit. p. 665.

(40) Dir. des statistiques (Rabat) - 1971 - op. cit. p. 87.

(41) Dir. de la Statistique (Rabat) - 1983 - op. cit.

(42) Dir. de la Statistique (Rabat) - 1995 - op. cit.

(43) C.E.R.E.D. (Rabat) 1988 - op. cit. p. 244.

(44) Idem. p. 238.

(45) M.H.A.T. - 1984 - op. cit. p. 9.

(46) Dir. de la Statistique (Rabat) - 1977 - op. cit. p. 95.

جدول 7 : تطور عدد سكان المضيق حسب جنسيتهم (1940 - 1994).

1994	1982	1971	1960	1950	1940	
20997	8808	4033	2142	966	504	مغاربة مسلمون
			—	1	—	مغاربة يهود
96	14	49	270	977	814	أجانب
21093	8822	4082	2412	1944	1318	المجموع

المصدر :

- Division des statistiques (Rabat)- 1972 - «Résultats du Recensement de 1960». Vol. 3.
- Direction des statistiques (Rabat) - 1971 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H 1971».
- Direction de la statistique (Rabat)- 1983 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H 1982».
- Direction de la statistique (Rabat) - 1995 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H. 1994».

3,50% سنة 1982⁽⁴⁷⁾، علما بأن النسبتين تبلغان على التوالي 85,8% و 87,6% بخصوص أرباب الأسر⁽⁴⁸⁾. وقد ارتفعت نسبة المزدادين في وسط حضري آخر من 7,7% سنة 1971⁽⁴⁹⁾ إلى 34,4% سنة 1982،⁽⁵⁰⁾ يمثل المزدادون بتطوان 66,9%، يليهم المزدادون بالفنيدق (5,77%) ثم بمرتيل (4,6%)⁽⁵¹⁾، الشيء الذي يعكس حركية ملموسة للسكان بين المراكز الحضرية المذكورة. كما أن نسبة أرباب الأسر المزدادين بمدينة تطوان قد مثلت 66,7% حسب إحصاء 1971 و 53,19% حسب إحصاء 1982⁽⁵²⁾

(47) نتائج غير منشورة خاصة بالإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 1982. مديرية الإحصاء.

(48) جرد شخصي لاستمارات الأسرة والمساكن المتعلقة بإحصائي 1971 و 1982.

(49) Dir. de la Statistique (Rabat), 1977, op.cit. p. 95.

(50) نتائج غير منشورة خاصة بإحصاء 1982.

(51) جرد شخصي لوثائق إحصاء 1982.

(52) نفس المصدر السابق.

وذلك من مجموع المزدادين بوسط حضري. وبالإضافة إلى ذلك، فإن 36,11% من مجموع أرباب الأسر المهاجرين عبر موصل، قد كانت مدينة تطوان موصلا لهم قبل استقرارهم بالمضيق⁽⁵³⁾، أي أن الدور الذي لعبته تطوان في هذا الصدد هو أهم بخصوص مرتيل بالمقارنة مع المضيق.

وبخصوص الأنشطة المزاولة من طرف السكان (جدول 6)، فإن المضيق يتميز عن باقي المراكز المدروسة بأهمية نسبة المشتغلين في قطاع الصيد : 20,4% سنة 1991 في مقابل 9,4% بخصوص مرتيل و 4,3% بالنسبة للفنيدق⁽⁵⁴⁾.

ويلاحظ أن هناك نسبة مهمة من العاطلين في المضيق، حيث بلغت نسبتهم سنة 1971، 3,8% من مجموع السكان و 17,1% من مجموع النشيطين، ثم نجد النسبتين على التوالي 4,1% و 14,8% سنة 1982⁽⁵⁵⁾، أما سنة 1991، فنجد 11% و 26%⁽⁵⁶⁾.

وعلى المستوى الإداري، لم يكن المضيق، إلى سنة 1992، سوى مركز محدد Centre délimité (وذلك منذ 1964) تابع للجماعة القروية الماللين على مستوى التسيير الجماعي، ليصبح بلدية طبقا للتقسيم الجماعي الأخير، حيث يمتد مجال نفوذ البلدية حاليا من أعالي كدية الطيفور جنوبا إلى واد النيكرو شمالا، أما غربا فهو يشمل جبل زمزم وقسما هاما من سهل أسمر (بوزغلال).

2 - 1 - 3 - مركز الفنيدق : محطة وطنية للتهريب :

يتميز مركز الفنيدق (الذي يبعد عن مدينة تطوان بحوالي 33 كلم) بموقع خاص، حيث لا يبعد عن مدينة سبتة المحتلة ذات الميناء الحر، سوى ببضعة كيلومترات. وقد كان يدعى خلال فترة الحماية الإسبانية بـ Castillejos (أي

(53) نفس المصدر السابق.

(54) Min. de l'Intérieur - Prov. de Tétouan - Déc. 1991 - op. cit.

(55) جرد شخصي لوثائق إحصائي 1971 و 1982.

(56) Min. de l'Intérieur - Prov. de Tétouan - Déc. 1991 - «Plan d'aménagement du centre de M'diq. Rapport justificatif (Variantes d'aménagement)». p. 5.

القلعة الصغيرة). وفي أواخر العشرينات، كان يقطنه حوالي مائة وعشرون إسبانيا، يعملون على الخصوص في معمل للبلاط والآجر ومستودع كبير للتبغ في عين المكان. كما كان يوجد به آنذاك عدد مماثل من السكان المغاربة⁽⁵⁷⁾. وقد ارتفع عدد سكان هذا المركز الحدودي (حدود منطقة الحماية آنذاك) إلى 1051 نسمة سنة 1940، كان الإسبان يمثلون 88% منهم، ثم قفز العدد إلى 4826 نسمة سنة 1950 (88,2% منهم أجانب)⁽⁵⁸⁾، أي بمعدل نمو سنوي بلغ 16,47%، لكن عدد السكان سينزل إلى 4368 نسمة سنة 1960 بفعل نزوح الإسبان، حيث لم يمثل الأجانب سوى 33,24% من مجموع عدد السكان في تلك السنة⁽⁵⁹⁾، لتنزل نسبتهم إلى 0,4% سنة 1971⁽⁶⁰⁾، ثم 0,04% سنة 1982⁽⁶¹⁾ وأخيرا بلغت النسبة 0,07% سنة 1994⁽⁶²⁾ وفي مقابل نزوح الأجانب إلى بلدانهم الأصلية حدث توافد كبير على مركز الفينيدق، حيث ارتفع عدد السكان إلى 8563 نسمة سنة 1971، أي بمعدل نمو سنوي بلغ 6,26%، ثم قفز عدد السكان إلى 16721 سنة 1982 بمعدل نمو سنوي بلغ 6,20%، وذلك نظرا لتفشي التهريب والأنشطة المرتبطة به. ثم أخيرا بلغ عدد السكان 34486 نسمة سنة 1994 بمعدل نمو سنوي وصل 6,22% (جدول 8).

وهكذا لعبت الهجرة دورا أساسيا في النمو الديمغرافي للفينيدق سواء في الستينات أم السبعينات (جدول 4)، حيث ساهمت بالنسبتين على التوالي 64,3% و 64,0%⁽⁶³⁾، كما أن نسبة السكان المزدادين خارج المركز قد بلغت 68,4%

(57) RUIZ ALBENIZ (Victor). 1930 - op. cit. - pp. 112 - 113.

(58) Instituto Nacional de Estadístico (Madrid)- 1946 - op. cit. p. 23.

(59) Div. des statistiques (Rabat) - 1972 - op. cit. p. 665.

(60) Dir. des statistiques (Rabat) -1971 - op. cit. p. 87.

(61) Dir. de la Statistique (Rabat) - 1983 - op. cit.

(62) Dir. de la Statistique (Rabat) - 1995 - op. cit.

(63) C.E.R.E.D. (Rabat) 1988 - op. cit. p. 242.

جدول 8 : تطور عدد سكان الفينديق حسب جنسيتهم (1940 - 1994).

1994	1982	1971	1960	1950	1940	
34462	16715	8529	2914	569	119	مغاربة مسلمون
			2	1	7	مغاربة يهود
24	6	34	1452	4256	925	أجانب
34486	16721	8563	4368	4826	1051	المجموع

المصدر :

- Division des statistiques (Rabat)- 1972 - «Résultats du Recensement de 1960» Vol. 3.
- Direction des statistiques (Rabat) - 1971 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H 1971».
- Direction de la statistique (Rabat)- 1983 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H 1982».
- Direction de la statistique (Rabat) - 1995 - «Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H. 1994».

حسب نتائج إحصاء 1971⁽⁶⁴⁾، و 56,1% حسب إحصاء 1982⁽⁶⁵⁾، علما بأن نسبة أرباب الأسر المهاجرين بلغت 95,8% سنة 1982⁽⁶⁶⁾. أما نسبة السكان المهاجرين المزدادين في وسط حضري آخر، فهي لم تتعد 10,3% سنة 1971⁽⁶⁷⁾ لترتفع إلى 27,3% سنة 1982⁽⁶⁸⁾، وقد مثل المزدادون منهم في مدينة تطوان 31,7% سنة 1982. أما إذا أخذنا بعين الاعتبار أرباب الأسر، فنجد أن 80,24% منهم (حسب إحصاء 1982) قد ازدادوا بوسط ريفي مقابل

(64) Dir. de La Statistique (Rabat), 1977 - op. cit. p. 95.

(65) نتائج غير منشورة خاصة بإحصاء 1982.

(66) جرد شخصي لوثائق إحصاء 1982.

(67) Dir. de la Statistique (Rabat), 1977 - op.cit. p 95

(68) نتائج غير منشورة (مديرية الإحصاء).

12% بخصوص الوسط الحضري⁽⁶⁹⁾، الشيء الذي يعكس أهمية التوافد على الفندق، إضافة إلى الاستقطاب الكبير الذي يمارسه هذا المركز على الأرياف المجاورة، حيث نجد على سبيل المثال أن المزدادين بقبيلتي أنجرة والحوز تصل نسبتهم إلى 51,9% من مجموع المهاجرين الريفيين.⁽⁷⁰⁾

وقد أدى الموقع الحدودي لمركز الفندق إلى ارتباط عدد كبير من النشيطين المشتغلين بالتهريب من وإلى سبتة والأنشطة المرتبطة بكل ذلك. ولهذا نجد نسبة العاملين في قطاع التجارة قد وصلت إلى 36,1% سنة 1991، مقابل 18,5% فقط بخصوص المضيق و 15,7% بالنسبة لمرتيل⁽⁷¹⁾. ومع ذلك فإن نسبة العاطلين قد بلغت سنة 1971، 3,8% من مجموع السكان و 15,9% من مجموع النشيطين⁽⁷²⁾، ثم ارتفعت النسبتان سنة 1982 على التوالي إلى 4,7% و 15,1%، وقفزتا بعد ذلك إلى 12,6% و 43% سنة 1991⁽⁷³⁾، علما بأن الأنشطة غير المهيكلة وغير المشروعة ما فتئت تتفشى بدرجة خطيرة في مركز الفندق.

وعلى المستوى الإداري، نجد أن الفندق لم يكن سوى مركز محدد (منذ سنة 1973) إلى غاية سنة 1992، تابع لجال نفوذ الجماعة القروية تغرمت، إلا أنه أصبح بلدية منذ تلك السنة، يمتد نفوذها شمالا إلى حدود سبتة المحتلة وجنوبا إلى واد النيكرو.

2 - 2 - اختلال السير الوظيفي لمكونات المجال الريفي :

يتصف سكان المجالات الريفية المحاذية للمراكز الحضرية بالساحل التطواني

(69) جرد شخصي لوثائق إحصاء 1982.

(70) نفس المصدر السابق.

(71) Min. de l'Intérieur - Prov. de Tétouan - Déc. 1991 - op. cit.

(72) Dir. de La Statistique (Rabat) - 1977 - op. cit. p. 85.

(73) Min. de l'Intérieur - Prov. de Tétouan - Déc. 1991 - Plan d'aménagement du centre délimité de F'nideq. Rapport justificatif (Variantes d'aménagement)». p. 4.

الشمالي بنمو ديمغرافي متباين من جماعة قروية إلى أخرى (الجدول 9 و 10 و 11) ومن دوار إلى آخر (خريطة 3).

فإذا كانت بعض الدواوير قد عرفت في العقود الأخيرة تراجعاً ملحوظاً في عدد سكانها بفعل نزوح السكان منها بشكل هام، فإن دواوير أخرى عرفت نمواً يفوق نمو المراكز الحضرية المدروسة، خصوصاً الدواوير القريية من المراكز الحضرية، والتي يمكن اعتبارها إلى حد ما مجرد منامات لسكان تطوان والمراكز الأخرى. والملاحظ أن العديد منها أصبح يقع داخل المدارات البلدية بعد إعادة النظر في التقسيم الجماعي (1992)، كما هو الحال بالنسبة لدوار المحنش — كويلما (مايدعى ببوجداد على المستوى الإداري) الواقع جنوب مدينة تطوان، والذي عرف معدل نمو سنوي وصل إلى 16,3% بين سنتي 1971 و 1982. وفي المقابل فإن عدداً من الدواوير الواقعة على الخصوص في الداخل بعيداً عن المراكز الحضرية والمخاور الطرقية عرفت تراجعاً في عدد سكانها (بوجميل وواد الزرجون والبين والعنصر والمعادل وبلوازن والحمة...) ويرجع هذا بطبيعة الحال إلى اختلال السير الوظيفي لمكونات المجال الريفي بالمنطقة كاحتدام مظاهر التعرية، وتفكك الملكية وسوء الأوضاع العقارية، وتقلص مجال الرعي الطبيعي، وقلة المجالات المسقية (جدول 12)، وندرة التجهيزات العمومية (جدول 13)، وتغلغل العنصر الحضري في المجال الريفي على مستوى تملك الأراضي.. إلخ. وهذه المشاكل لم تلق اهتماماً جدياً من طرف المصالح المختصة، على مستوى إيجاد حلول ناجعة كقيلة بإيقاف هذا النزيف الديمغرافي، خصوصاً وأن هذا النزوح يطرح مشاكل جمّة للمراكز الحضرية التي ينزح إليها هؤلاء السكان لأن هياكلها الاقتصادية والاجتماعية الحالية غير قادرة على استيعابهم في ظروف ملائمة.

3 - اختلال في التنظيم المجالي ونقص كبير في الأنشطة والتجهيزات :

3 - 1 - توسع عمراني غير مخطط :

يتصف المشهد العمراني في المراكز الحضرية الثلاثة والمناطق المحاذية لها، بتنافر شديد، نظراً لتنوع مواد البناء، وتباين الأشكال الخارجية للمباني، واختلاف مساحات القطع الأرضية المشيد عليها، وتعدد مستويات المباني، إضافة إلى تفكك

جدول 9 : تطور عدد سكان الجماعات القروية بالساحل التطواني الشمالي
(1960 - 1994).

1994	1982	1971	1960	
10094	7330	5387	4114	أزلا
6420	4175	3652	2707	الزيتون
7610	5532	4608	3881	الملاليين
5654	4550	4297	3850	العليين
11484	10327	9169	7801	تغرمت
6610	3681	2442	2475	قصر المجاز
47872	35595	29555	24828	المجموع

المصدر :

إعداد شخصي من طرف الأستاذين الباحثين بناء على نتائج الإحصاءات العامة للسكان والسكنى على مستوى الدواوير، نظرا لكون الأمر يتعلق بالتقسيم الجماعي الحالي (المعمول به منذ 1992).
يلاحظ أن الأرقام الواردة في الجدول المتعلقة بسنة 1982 مخالفة تماما لما هو موجود في وثائق رسمية، والتي يبدو أنها استندت على مجرد تقديرات مرتجلة، انظر :

- Préfecture de Tétouan - Juin 1994 - «Monographie», p. 10.
- Division de l'Urbanisme (Préfecture de Tétouan) - Division communale (carte).

النسيج العمراني باستمرار وجود الأراضي الزراعية أو الأعراش والغابات وانتشار الأراضي الشاغرة...

والملاحظ أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية المتأزمة وكذا النمو الديمغرافي الهام (المرتبط بتزايد طبيعي كبير وتوافد سكاني ضخم) وسياسة الدولة الجزئية على مستوى الإسكان... إلخ، إلى جانب عوامل أخرى ؛ أدت إلى استفحال أزمة السكن في المراكز الحضرية من المجالات المدروسة، والتي لم تستطع المصالح المختصة

جدول 10 : تطور معدل تزايد سكان الجماعات القروية بالساحل التطواني الشمالي خلال فترة (1960 - 1994) %.

1994 - 1982	1982 - 1971	1971 - 1960	
2,70 +	2,81 +	2,47 +	أزلا
3,65 +	1,21 +	2,75 +	الزيتون
2,70 +	1,66 +	1,75 +	الملايين
1,83 +	0,51 +	1,00 +	العليين
0,89 +	1,08 +	1,47 +	تغرمست
5,00 +	3,76 +	0,12 -	قصر المجاز
2,50 +	1,68 +	1,59 +	المجموع

المصدر :

إعداد شخصي من طرف الأستاذين الباحثين بناء على نتائج الإحصاءات العامة للسكان والسكنى على مستوى الدواوير، نظرا لكون الأمر يتعلق بالتقسيم الجماعي الحالي (المعمول به منذ 1992).

أن تجد لها حلا ناجعا، الأمر الذي أطلق العنان لمضاربة عقارية محتدمة زادت من حدة المشكل، وبالتالي تعزيز البناء المدعو اصطلاحا بـ«السري» الذي أصبح محركا أساسيا للتوسع الحضري في هذه المراكز (الجدول 14 و 15 و 16).

ففي مرتيل يسود هذا النمط من البناء في الأحياء الشمالية (كطلان والشبار وأحريق وساقية الدفل) والجنوبية (الديزة). وحسب تقديرات المخطط التوجيهي لمدينة تطوان، كان هذا النمط من التعمير يمثل 30% من مجموع المساكن سنة 1981⁽⁷⁴⁾ لترتفع النسبة إلى 39,4% بالنسبة لمجموع المساكن و 53,1% من

جدول 11 : تطور الكثافة السكانية في الجماعات القروية بالساحل
التطواني الشمالي (1960 - 1994) : نسمة/كلم².

1994	1982	1971	1960	المساحة كلم²	
117,6	85,4	62,8	47,9	85,80	أزلا
124,2	80,8	70,6	52,4	51,70	الزيتون
121,7	88,4	73,7	62,0	62,55	الملاليين
51,4	41,4	39,1	35,0	109,99	العليين
56,1	50,5	44,8	38,1	204,67	تغرمت
110,2	61,4	40,7	41,3	60,00	قصر المجاز
83,3	61,9	51,4	43,2	574,71	المجموع

المصدر :

إعداد شخصي من طرف الأستاذين الباحثين بناء على نتائج الإحصاءات العامة للسكان والسكنى على مستوى الدواوير، نظرا لكون الأمر يتعلق بالتقسيم الجماعي الحالي (المعمول به منذ 1992)، أما مساحات الجماعات القروية فقد تم استقاؤها من :

— Préfecture de Tétouan - Juin 1994 - «Monographie». p. 6.

مجموع القطع الأرضية سنة 1991⁽⁷⁵⁾.

وفي المضيق، يشمل البناء «السري» الأحياء الغربية (الدرادب والسكة السفلى والسكة العليا...) وكذلك الجنوبية (الزاوية والاستقلال...)، وقد كان هذا النوع من السكن يمثل 57,0% من مجموع المساكن و67,2% من مجموع القطع الأرضية سنة 1991⁽⁷⁶⁾.

Prov. de Tétouan - Déc. 1991 - op. cit. p. 5. (75)

Prov. de Tétouan - Déc. 1991 - op. cit. p. 5. (76)

أما بخصوص الفندق، فإن البناء «السري» يسود في الجهات الشمالية (الزاوية والمرجة والحي الجديد) والغربية (رأس الوطاء) والجنوبية (أعطاس وكنديسة والبرارك...) (صورة 5)، حيث كان هذا النمط من التعمير سنة 1991 بهم 70,7% من مجموع المساكن و 74,5% من مجموع القطع الأرضية⁽⁷⁷⁾.

جدول 12 : توزيع المساحات المسقية والمجهزة حسب الجماعات القروية بالساحل التطواني الشمالي (1994) بالهكتار.

الجماعات القروية	المساحة الإجمالية	المساحة المسقية		المساحة المسقية المجهزة	
		هـ	% من مساحة الجماعة	هـ	% من المساحة المسقية بالجماعة
أزلا	8580	140	1,63	50	35,71
الزيتون	5170	475	9,19	350	73,68
الملالين	6255	245	3,92	50	20,41
العليين	10999	490	4,45	95	19,39
تغرمت	20467	450	2,20	230	51,11
قصر المجاز	6000	*	*	*	*

* معطيات غير متوفرة.

المصدر (بتصرف) :

المديرية الإقليمية لوزارة الفلاحة والامستثمار الفلاحي بتطوان.

جدول 13 : توزيع أهم المرافق العمومية بالجماعات القروية
بالساحل التطواني الشمالي — 1994 .

أنواع المرافق	أزلا	الزيتون	الملاليين	العليين	تغرمت	قصر المجاز
مستوصف قروي أولي	0	0	0	0	1	0
مستوصف قروي	1	0	0	0	0	0
مدرسة ابتدائية فرعية	6	4	4	4	8	4
مدرسة ابتدائية رئيسية	1	1	2	1	1	1
مركز التربية والتشغيل	0	0	2	1	1	1
وكالة بريدية، درجة أولى	1	0	0	0	1	0
سوق أسبوعي	0	0	0	0	1	0

المصدر :

المتدوبيات الإقليمية للوزارات المعنية، بالإضافة إلى المعاينة الميدانية — 1994 .

جدول 14 : أنواع السكن في مركز مرتيل سنة 1991 .

	الاقتصادي العشوائي	الاقتصادي المجهز	عمارات	فيلات	سكن هزيل	سكن ريفي	المجموع
القطع الأرضية	53,1	28,9	6,6	4,3	4,7	2,4	100,0
المساكن	39,4	28,2	24,3	3,6	3,0	1,5	100,0
معدل المساكن في القطعة	1,2	1,4	5,8	1,3	1,0	1,0	1,6

المصدر :

Province de Tétouan. Déc. 1991 - «PLan d'aménagement du centre autonome de Martil - Rapport justificatif (variantes d'aménagement)». p. 5.

جدول 15 : أنواع السكن في مركز المضيق سنة 1991.

المجموع	سكن ريفي	سكن هزيل	فيلات	عمارات	الاقتصادي المجهز	الاقتصادي العشوائي	
100,0	1,5	2,0	1,0	1,5	26,9	67,2	القطع الأرضية
100,0	1,1	1,4	0,7	13,4	26,4	57,0	المساكن
1,4	1,0	1,0	1,00	12,3	1,4	1,2	معدل المساكن في القطعة

المصدر :

Province de Tétouan. Déc. 1991 - «PLan d'aménagement du centre délimité de M'diq - Rapport justificatif (variantes d'aménagement)». p. 5.

جدول 16 : أنواع السكن في مركز الفينديق سنة 1991.

المجموع	سكن ريفي	سكن هزيل	فيلات	عمارات	الاقتصادي المجهز	الاقتصادي العشوائي	
100,0	2,0	2,7	—	1,6	19,2	74,5	القطع الأرضية
100,0	1,3	1,6	—	5,8	20,7	70,7	المساكن
1,8	1,2	1,0	—	6,5	1,9	1,7	معدل المساكن في القطعة

المصدر :

Province de Tétouan. Déc. 1991 - «PLan d'aménagement du centre délimité de F'nideq - Rapport justificatif (variantes d'aménagement)». p. 6.



صورة 5

حي كنديسة بمركز الفيدق. وهو أكبر أحياء السكن المدعو بالسري. ويبدو جليا للعيان تناثر المشهد العمراني والنقص الذريع على مستوى التجهيزات العمومية. (الصورة بعدسة الأستاذين الباحثين : 14 / 04 / 1995).

ومعلوم أن هذا النمط من التعمير يهيم مدينة تطوان كذلك على نطاق واسع. ففي سنة 1956، كان هذا النوع من السكن يمثل 16% فقط من مجموع المباني السكنية، وارتفعت النسبة إلى 48% سنة 1971⁽⁷⁸⁾.

وبالإضافة إلى الكيانات الحضرية المشار إليها، ينتشر هذا النمط من التعمير في المجالات المحاذية، كما هو الحال على طول الطريق المتجهة من تطوان إلى أزلا (المعاصم واقنيقرة...) وكذا على طول الطريق المتجهة من تطوان إلى المضيق لاسيما في القلايين..

3 - 2 - هشاشة في الأنشطة ونقص في التجهيزات والمرافق العمومية :

ترافق النمو العشوائي مع نقص كبير على مستوى المرافق والتجهيزات الجماعية (الجداول 17 و 18 و 19)، كما أن الأنشطة الموجودة (الجداول 20 و 21 و 22) في هذه المراكز تتصف ببساطتها وحتى عدم استقرارها على المستوى الزمني،

(78) A.N.H.I. 1985 - «Projet de développement urbain de la ville de Tétouan (Dersa - Samsa). Rapport préliminaire», p. 1.

لاسيما تلك التي ترتبط بالتهريب، ذلك أن حيوية هذه الأنشطة هي وثيقة الصلة بالظروف الجمركية المتذبذبة ما بين «التساهل والليونة» في معظم الحالات، والصرامة والمراقبة «الدقيقة» في بعض الحالات. ويهم هذا على الخصوص الفندق الذي يقوم بدور الموزع للسلع المهربة من مدينة سبتة المحتلة ذات الميناء الحر، على باقي مدن المغرب، كما يقوم في نفس الوقت بتهريب مجموعة من البضائع إلى مدينة سبتة أو مباشرة إلى إسبانيا (الخدرات، والخضر، والأسماك، والملابس الجلدية، ومنتجات الحرف التقليدية...). وبالإضافة إلى هذا، فإن هناك أنشطة في هذه المراكز مرتبطة بموسم الاصطياف، حيث نجد على سبيل المثال أن الرخص التجارية الموسمية قد مثلت 31,2% من مجموع رخص المحلات المهنية الممنوحة بمرتيل سنة 1993، بل إن النسبة بلغت 43,7% سنة 1988⁽⁷⁹⁾، هذا بغض النظر عن المحلات التي تمارس أنشطتها دون الحصول مسبقا على رخصة.

وعلى مستوى التجهيزات الداخلية للمساكن، فبالنسبة لمرتيل نجد أنه في سنة 1991، لم يكن يرتبط بشبكة الماء الشروب سوى 44% في مقابل 62% بالنسبة للمضيق و 75% بخصوص الفندق⁽⁸⁰⁾. ومعلوم أن الأسر المحرومة تلجأ إلى التزود بالمياه عن طريق الآبار التي تكون مياهها عرضة للتلوث، خصوصا مع عدم وجود شبكة كافية وملائمة لتصريف المياه المستعملة في هذه المراكز، حيث نجد أن 5% فقط من مجموع أسر مرتيل كانت ترتبط سنة 1991 بشبكة التصريف، مقابل 45% بخصوص المضيق، و 11,6% بالنسبة للفندق⁽⁸¹⁾، ولهذا فإن بقية الأسر إما تستعمل الحفر المظمورة للتخلص من المياه المستعملة أو شبكة تصريف جماعية تبعد هذه المياه عن المساكن لتصب في الخنادق المكشوفة (73% من أسر الفندق سنة 1991)⁽⁸²⁾.

وفيما يتعلق بالكهرباء، يبدو أن الأمر أقل سوء، حيث نجد أن 80% من

(79) إحصائيات قسم الشؤون الاجتماعية والاقتصادية، بلدية مرتيل.

(80) Min. de l'Intérieur - Prov. de Tétouan - Déc. 1991 - op. cit.

(81) Min. de l'Intérieur - Prov. de Tétouan - Déc. 1991 - op.cit.

Idem. (82)

جدول 17 : أنواع استعمال الأرض في مركزي مرتيل والمضيق
(بداية الثمانينات) — بالهكتار —.

المضيق	مرتيل	
28,7	71,2	(1) السكن (المجموع)
1,2	12,0	فيلات
23,5	58,0	الاقتصادي العشوائي
4,0	11,2	الاقتصادي المجهز
1,5	29,0	(2) التعليم (المجموع)
1,5	3,0	الابتدائي
0,0	4,0	الثانوي
0,0	22,0 ^(٥)	العالي
0,2	0,2	(3) الصحة
8,7	8,0	(4) مجالات خضراء (المجموع)
1,7	7,0	الترفيه والرياضة
7,0	1,0	مقابر
0,7	0,7	(5) التجارة (المجموع)
0,6	0,6	التقسيط
0,1	0,1	الأسواق
0,2		(6) الصناعة
0,01	0,01	(7) الحرف
34,6	3,0	(8) فنادق/ تخميم
0,05	0,1	(9) إدارة
0,01	0,01	(10) مرافق دينية
24,00 ^(٥٥)	0,06	(11) تجهيزات مختلفة
2,9	5,7	(12) طرق رئيسية
17,5	20,8	(13) طرق ثانوية
119,07	138,78	مجموع المساحة المتمدة

(٥٥) ميناء المضيق

(٥) كلية الآداب

المصدر : : 4 Doc. - S.D.A.U. de Tétouan. Etudes générales et sectorielles - 1984 - M.H.A.T. - Etude spatiale», p. 38.

أسر مرتيل كانت ترتبط سنة 1991 بشبكة توزيع الكهرباء مقابل 70% بخصوص المضيق و 90% بالنسبة للفندق⁽⁸³⁾.

وعلى مستوى التجهيزات والمرافق الجماعية، نجد نقصا كبيرا مما يجعل هذه المراكز الثلاثة تابعة للقطب الحضري المهيمن (تطوان) على شتى المستويات فعلي المستوى القضائي مثلا، لانجد إلا مركز الفندق يتوفر على مركز القاضي المقيم التابع للمحكمة الابتدائية بتطوان. ولا يوجد على المستوى الصحي سوى مراكز صحية بالمراكز الثلاثة، بل إن المضيق يفتقر حتى إلى ثانوية... إلخ.

أما على مستوى الأنشطة النادرة والممتازة (جدول 23) يظل الارتباط وثيقا أيضا بتطوان أو سبتة على مستوى سد حاجيات سكان المراكز الحضرية الثلاثة.

3 - 3 - استثمارات سياحية أصبحت ذات طابع مضاربي :

عرف الساحل التطواني الشمالي استقرار مجموعة من المؤسسات السياحية منذ الستينات (الخريطتان 4 و 5)، وذلك طبقا لتوجيهات المخطط الثلاثي 1965 - 1967، حيث منحت الاستثمارات السياحية امتيازات وتسهيلات هامة للغاية. وهكذا ظهرت أولى المحطات آنذاك في كابو نكرو (نادي البحر الأبيض المتوسط والمجموعة السكنية التابعة لشركة الإعداداد السياحي S.A.T) وفي المضيق (قرية سياحية في المركز ذاته، وعلى مقربة منه نادي هوليدي ومركب المغرب السياحي) وريستينكة (مركب المغرب السياحي ونادي البحر الأبيض المتوسط). إلا أن الوكالات السياحية الدولية اتجهت نحو الجنوب (أكادير) خلال عقد السبعينات، خاصة وأن الموسم السياحي بالساحل التطواني جد قصير لارتباطه بفصل الصيف وباستغلال الرمال والبحر لاغير. وبعد ركود استمر إلى منتصف الثمانينات، عرف هذا الساحل انطلاقة جديدة برؤوس أموال متنوعة (مغربية وأجنبية) مع استثمارات تركز على العقار وليس على التنمية السياحية (فيلات، وشقق... إلخ) (صورة 6)، كما أن المغاربة أخذوا يشكلون الزبون الرئيسي. وقد بدى في تشييد موانئ ترفيهية، حيث أنجز بالفعل اثنان منها : مارينا - أسمر عند ريستينكة وقبيلة عند

Idem. (83)

مصب واد أسنير، وكلاهما شرع في استغلالهما في أوائل التسعينات، لكن الثاني تابع للخواص.

والملاحظ أن هذه الاستثمارات السياحية والعقارية تتم أساسا على المجال الضيق المحصور بين الطريق والبحر، وذلك بكيفية منعزلة على العموم عن التجمعات السكنية، بل إنها تتم على الشاطئ الرملي ذاته. وزيادة على ذلك كله، فإن انعكاسات هذه الاستثمارات على مستوى اقتصاد المنطقة تظل ضعيفة، في مقابل عواقب مدمرة للوسط الطبيعي. ومن جهة أخرى، أصبح المجال الشاطئي محرما في العديد من جهاته على غير المقيمين في المؤسسات أو الإقامة الثانوية المعنية، بحيث هناك سير حثيث نحو خوصصة جل الساحل التطواني.

جدول 18 : أنواع استعمال الأرض في مراكز مرتيل والمضيق والفنيدق سنة 1991 (%)

أنواع الاستعمالات	مرتيل	المضيق	الفنيدق
السكن	11,5	18,5	24,7
تجهيزات سوسيوجماعية	5,7	6,4	13,2
تجهيزات سياحية	—	8,5	—
طرق	15,3	16,0	23,6
مشاريع في طور الإنجاز	44,1	18,6	27,9
استعمالات أخرى	23,4	32,0	10,6
المجموع	100,0	100,0	100,0

المصدر :

- Province de Tétouan - Déc. 1991 - «Plan d'aménagement du centre autonome de Martil - Rapport justificatif (variantes d'aménagement)», p. 12.
- Province de Tétouan - Déc. 1991 - «Plan d'aménagement du centre délimité de M'diq - Rapport justificatif (variantes d'aménagement)», p. 11.
- Province de Tétouan - Déc. 1991 - «Plan d'aménagement du centre délimité de F'nideq - Rapport justificatif (variantes d'aménagement)», p. 11.

3 — 4 — نشاط الصيد البحري محدود ويعرف مشاكل شتى :

يعرف الصيد البحري تهميشا يقابله اهتمام جديد بتشبيد الموانئ الترفيهية الموجهة لفئات ميسورة جدا. هذا مع العلم أن الساحل التطواني ككل لا يحظى سوى بميناء صيد واحد، وهو ميناء المضيق، الذي بدأ نشاطه سنة 1966. ورغم أنشطة الميناء المتعددة (الصيد، والترفيه والرياضات البحرية، ونقل المسافرين والبضائع...) فإنه لا يوفر فرص عمل كافية ومنظمة على المستوى الزمني، كما تعرف كمية وقيمة الأسماك المصطادة والمفرغة بهذا الميناء تذبذبات كبيرة من سنة إلى أخرى (جدول 24)، بالإضافة إلى جملة من المشاكل الأخرى التي يتخبط فيها، وعلى رأسها :

— ضيق وقلة عمق حوضه، فضلا عن ظاهرة الإرمال (ensablement) المتواصلة.

— النقص في التجهيزات خاصة على مستوى محطات التبريد ومحطات الوقود، وعدم وجود متاجر لبيع قطع الغيار وأدوات الصيد.

جدول 19 : أنواع وعدد أهم المرافق العمومية الموجودة في المراكز الحضرية بالساحل التطواني الشمالي (يناير 1996).

أنواع المرافق	مرتيل	المضيق	الفتيدق
مدرسة ابتدائية	3	3	6
إعدادية	0	1	2
ثانوية	1	0	1
مدرسة عليا للإساتذة	1	0	0
كلية	1	0	0
مركز التربة والتشغيل	1	1	2
مركز التكوين المهني	0	0	2
دار الشباب	0	0	1
نادي نسوي	1	1	1
روض أطفال تابع للتعاون الوطني	1	0	2
روض أطفال تابع لوزارة الشبيبة والرياضة	1	1	1
بلدية	1	1	1
باشوية	1	1	1
مركز الشرطة	1	1	1
مركز الدرك	0	0	1
مركز الجمارك	1	1	1
مركز القاضي المقيم	0	0	1
إدارة المياه والغابات	1	1	1
مصلحة تربية المواشي	0	1	1
وكالة للقرض الفلاحي	0	1	1
فرع الوكالة الجماعية المستقلة لتوزيع الماء والكهرباء	1	1	1
فرع المكتب الوطني للماء الصالح للشرب	0	1	1
مستوصف حضري	0	0	1
مركز صحي حضري	1	1	1
مصحة تابعة للهلل الأحمر	1	0	0
مركز علاج تابع للهلل الأحمر	0	1	1
مكتب بريدي (درجة خامسة)	1	1	1
سوق أسبوعي	0	0	1
مجزرة عمومية	1	1	1
ميناء	1(0)	2(00)	0
مسجد	10	8	15
كنيسة	0	1	0
مؤسسة خيرية تابعة للتعاون الوطني	0	0	1

(0) في طور التشييد

(00) يوجد ميناء ثالث (قبيلة)، لكنه تابع للخواص.

المصدر : معاينة ميدانية من طرف الأستاذين الباحثين (يناير 1996).

جدول 20 : تطور المخلات المهنية حسب نوعية نشاطها الاقتصادي
مركز مرتيل بين سنتي 1982 و 1994.

نوع النشاط	% 1982	% 1994
تجارة التغذية	42,60	32,38
تجارة الألبسة	2,69	2,22
تجارة التجهيز	1,34	8,26
تجارة أخرى	8,97	7,62
مجموع التجارة	55,60	50,48
المطعمية والفندقة	15,70	19,37
حرف الإصلاح والصيانة	4,48	7,30
خدمات خاصة	11,21	15,23
مجموع الخدمات	31,39	41,90
حرف الإنتاج	6,28	6,67
صناعة حديثة(*)	6,73	0,59
المجموع العام	100,00	100,00

(*) يفسر تراجع عدد وحدات الصناعة الحديثة بين سنتي 1982 و 1994، بكون المنطقة الصناعية التي كانت تقع داخل تراب المركز المستقل مرتيل، أصبحت منذ 1992 قسما من تراب بلدية تطوان - سيدي المنظري.

المصدر :

- جرد شخصي شامل لدفاتر الجولة الخاصة بالإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 1982،
- تحقيق ميداني تم تحت إشراف الأستاذين الباحثين (1994).

جدول 21 : تطور المحلات المهنية حسب نوعية نشاطها الاقتصادي
بمركز المضيق بين سنتي 1982 و 1994.

نوع النشاط	% 1982	% 1994
تجارة التغذية	48,83	30,71
تجارة الألبسة	7,04	6,22
تجارة التجهيز	6,10	4,56
تجارة أخرى	2,35	5,81
مجموع التجارة	64,32	47,30
المطعمية والفندقة	15,02	22,41
حرف الإصلاح والصيانة	2,82	4,15
خدمات خاصة	8,45	19,50
مجموع الخدمات	26,29	46,06
حرف الإنتاج	8,45	4,56
صناعة حديثة	0,94	2,00
المجموع العام	100,00	100,00

المصدر :

- جرد شخصي شامل لدفاتر الجولة الخاصة بالإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 1982،
- تحقيق ميداني تم تحت إشراف الأستاذين الباحثين (1994).

جدول 22 : تطور المخلات المهنية حسب نوعية نشاطها الاقتصادي
بمركز الفينديك بين سنتي 1982 و 1994.

نوع النشاط	% 1982	% 1994
تجارة التغذية	31,23	30,19
تجارة الألبسة والتجهيز	39,93	37,65
تجارة أخرى	5,36	18,53
مجموع التجارة	76,52	86,37
المطعمية والفندقة	4,65	3,18
حرف الإصلاح والصيانة	3,93	2,95
خدمات خاصة	6,08	4,47
مجموع الخدمات	14,66	10,60
حرف الإنتاج	8,82	3,03
المجموع العام	100,00	100,00

المصدر :

- جرد شخصي شامل لدفاتر الجولة الخاصة بالإحصاء العام للسكان والسكنى لسنة 1982،
- تحقيق ميداني تم تحت إشراف الأستاذين الباحثين (1994).

جدول 23 : أنواع وعدد محلات الأنشطة النادرة والممتازة بالمراكز الحضرية بالساحل التطواني الشمالي (يناير 1996).

أنواع الأنشطة	مرتيل	المضيق	الفندق
وكالة بنكية	1	2	4
وكالة شركة تأمينات	0	0	1
صيدلية	5	2	5
عيادة طبية	2	2	3
عيادة طبية للأسنان	1	1	4
عيادة بيطرية	1	0	0
مكتب حمامة	0	0	1
وكالة عقارية	5	1	4
مخادع هاتفية	11	3	6
محطة بنزين	3	1	1
كتاب قرآني	2	3	6
روض أطفال	11	13	7
وكالة لتعليم السياقة	2	2	4
فندق مرتب	4	8	2
فندق غير مرتب	2	2	2
حمام عصري	5	3	4
حمام تقليدي	3	2	4
مقهى	36	29	49
مطعم	10	15	14
سينما	1	0 ^(*)	1
بيع النظارات الطبية	0	0	2

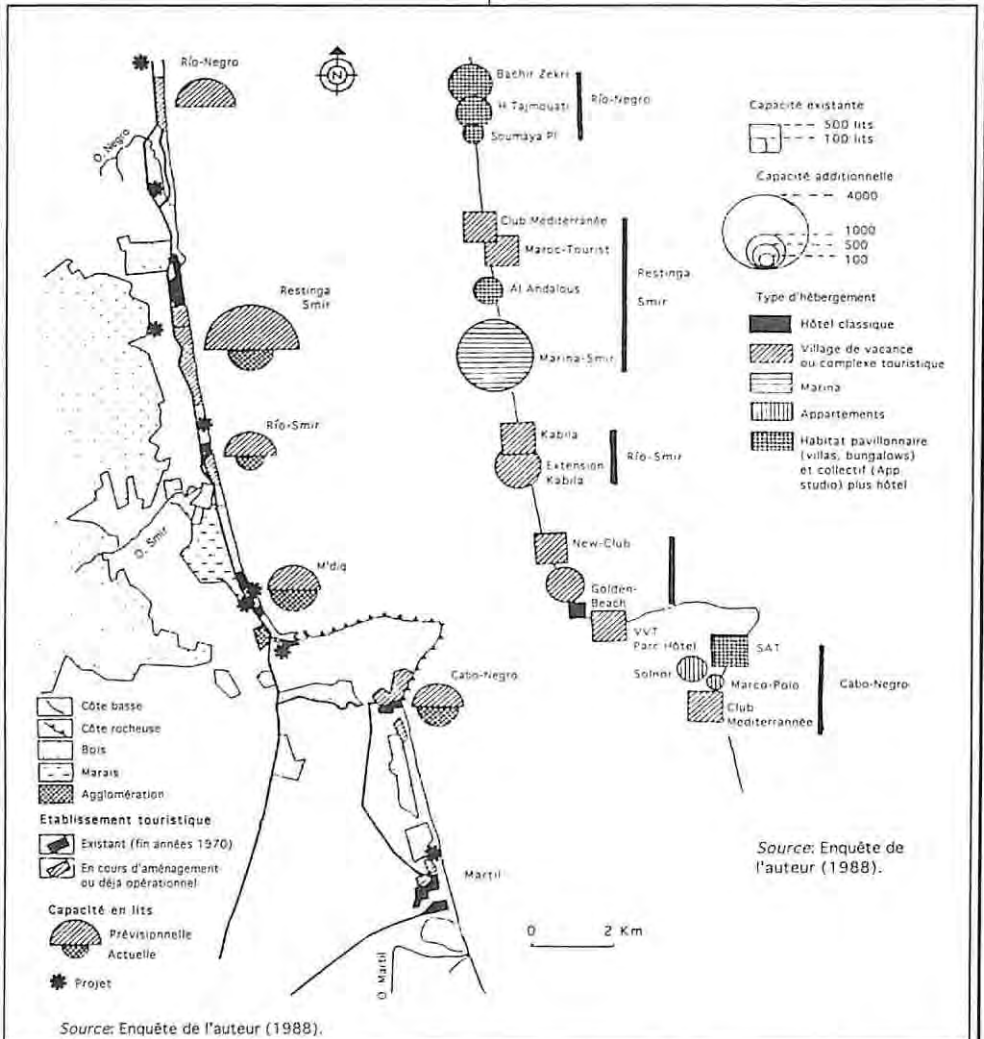
(*) أغلقت القاعة الوحيدة أبوابها منذ عدة سنوات.

المصدر :

معاينة ميدانية من طرف الأستاذين الباحثين (يناير 1996).

خريطة 5: التوزيع المحلي للمؤسسات
السياحية الموجودة والمرتبقة بالساحل التطواني.

خريطة 4: أنواع مؤسسات الإيواء الموجودة
والمرتبقة بالساحل التطواني.



المصدر:

BERRIANE (M)-1992- "TOURISME NATIONAL ET MIGRATIONS DE LOISIRS AU MAROC"
 PUB. DE LA FAC. DES LET. ET DES SC. HUM- RABAT- P.371

جدول 24 : كمية وقيمة الأسماك المصطادة بميناء المضيق
(1977 - 1994).

السنوات	كمية الأسماك المصطادة (بالطن)	قيمة الأسماك المصطادة (بالدرهم)
1977	4750,488	4491288
1978	6432,267	6184814
1979	6130,650	7324926
1980	3902,397	6706487
1981	4288,250	8616247
1982	3142,940	7527668
1983	3220,400	7893354
1984	4696,840	11748910
1985	4079,561	16280763
1986	4851,570	20704869
1987	5561,318	23683029
1988	3971,719	11182374
1989	4652,937	20374104
1990	5550,387	20546738
1991	5923,399	25335125
1992	8162,918	24527257
1993	5985,234	18272257
1994	3981,759	15933488

المصدر :

(بالإضافة إلى معطيات المندوبية الجهوية للشؤون البحرية بالمضيق) :

Office d'Exploitation des Ports - 1994. «Port M'diq».



صورة 6

مركب مارينا أسمىر السياحي، وهو يعكس أهمية الاستثمارات العقارية في هذا المجال الشاطئي، والتي ليست لها سوى انعكاسات إيجابية جد ضئيلة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، إذا ما قورنت بآثارها السلبية الوخيمة، لاسيما على الصعيد البيئي. (الصورة بعدسة الأستاذين الباحثين. 01 / 01 / 1995).

— عدم تحقيقه للاكتفاء الذاتي على المستوى المحلي من الأسماك، لاسيما وأن المراكب الإسبانية تراحم بشدة المراكب المغربية، بالإضافة إلى أنها تستعمل تقنيات متطورة ومنها ماهو محظور قانونا.

ونشير إلى أن هناك مشروعا لتوسيع ميناء المضيق، كما تم الشروع في تشييد ميناء متعدد الوظائف في مركز مرتيل وذلك سنة 1995 لكن الأشغال توقفت به مؤخرا.

4 — تدخلات متعددة للمصالح المختصة لكنها تبقى جزئية :

4 — 1 — غياب أو عدم تطبيق تصاميم التهيئة :

تفتقر المراكز الحضرية حاليا إلى تصاميم تهيئة مصادق عليها. إلا أن هناك في الوقت الراهن دراسة في طور الإنجاز تهدف إلى وضع «مخطط توجيهي للتهيئة

والتعمير للساحل السياحي التطواني»، وفي إطاره يتم تحضير تصاميم تهيئة منفردة لهذه المراكز الحضرية. فإذا أخذنا مركز المضيق كمثال، نجد أنه وضع له تصميم للتهيئة سنة 1963 وصادق عليه بمرسوم ملكي رقم 66 - 425 بتاريخ 16 شتنبر 1966 (خريطة رقم 6)، بمعنى أن مقتضياته - وفقا للقانون - تظل سارية المفعول لمدة عشرين سنة. إلا أن التنطبق المنصوص عليه في التصميم المذكور لم يحترم. فعلى سبيل المثال، فإن المناطق الواقعة جنوبا وغربا حرم فيها البناء. لكن المناطق الغربية شهدت تعميرا متقدما في إطار ما ينعت بالبناء السري على امتداد ما يدعى بالسكة (مسار السكة الحديدية خلال فترة الحماية) ومن الجانبين، كما أن الطريق الرئيسية رقم 28، التي خصص لها، كمسار جديد، «السكة القديمة» لم تشهد إنجازا إلا سنة 1995! ...

4 - 2 - عدم إلزامية المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية السابق جعلته وثيقة قليلة الجدوى :

يغطي المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة تطوان (1981 - 2001) مساحة 220 كلم² تضم زيادة على المدينة نفسها، مركزي مرتيل والمضيق، إضافة إلى مجموعة من دواوير الجماعات القروية المحاذية للمدينة (خرائط 7 و 8 و 9) ومن أهم أهدافه ماييلي :

«تلبية حاجيات نصف مليون من السكان الموزعين بين تطوان والمراكز المجاورة لها، وما يتطلبه من تشغيل وسكن وتجهيزات مختلفة وأراضي صالحة للتعمير.

— حماية المناطق الفلاحية الكبرى والغابات وأماكن التنزه المتعلقة بالسياحة والمحافظة على التوازن بين توسعها وتوسع المناطق الحضرية.

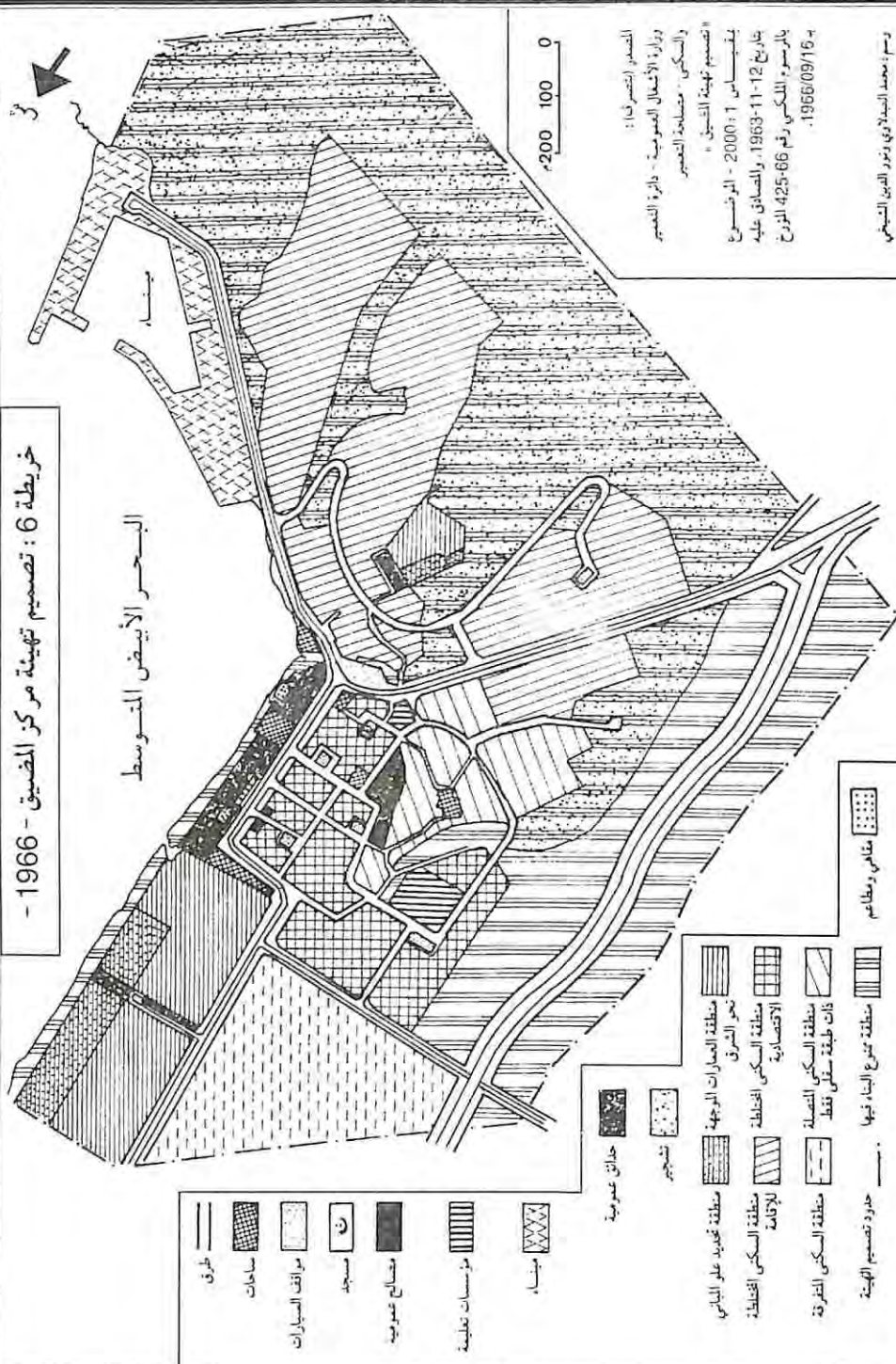
— البحث عن أحسن شكل من أشكال تحديد المناطق، وتوزيع مناطق النشاط التي تولد الشغل، مع ارتباطها بمناطق السكنى المجاورة...

— تحقيق توزيع عادل للتجهيزات عبر مناطق السكنى، وتقديرها على أساس عدد السكان»⁽⁸⁴⁾.

(84) وزارة السكنى وإعداد التراب الوطني — مديرية التعمير والهندسة المعمارية — قسم التخطيط =

خريطة 6 : تصميم تهيئة مركز المضيق - 1966 -

البحر الأبيض المتوسط



المصدر (تصرف):
وزارة الأشغال العمومية - دائرة المعمار
والسكنى - مصلحة المعمار
« تصميم تهيئة الميناء »
تقريباً 1 - 2000 - الموضوح
تاريخ 12-11-1963، والصادق عليه
بالمرسوم الملكي رقم 425-66 المؤرخ
بـ 1965/09/16.

رسم - محمد السلاوي ومور الدين الشبيخي

طرق

ساحات

مواقف السيارات

مسجد

مضائق عمومية

مؤسسات تعليمية

مباني

حدائق عمومية

تشجير

منطقة العمارات الواجهة

منطقة تحديد علو المباني

منطقة السكنى المختلطة

منطقة السكنى الاقتصادية

منطقة السكنى المتصلة

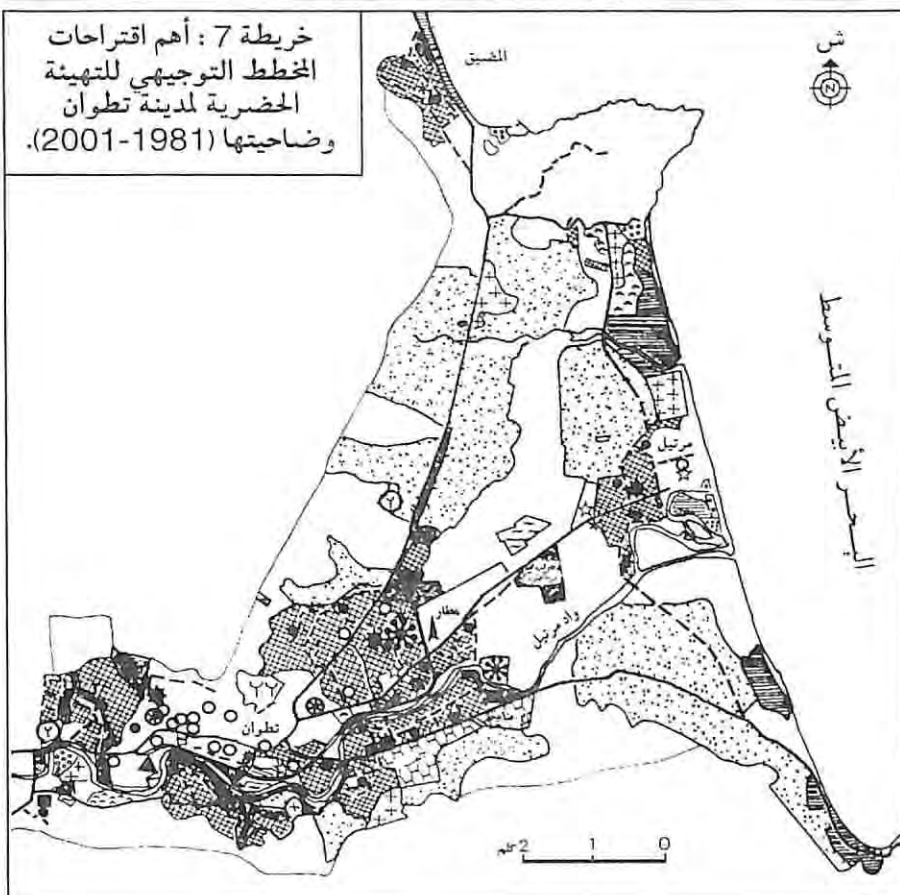
منطقة سكنى فقط

منطقة تفرع البناء فيها

حدود تصميم التهيئة

مقاييم ومطاعم

خريطة 7 : أهم اقتراحات
المخطط التوجيهي للتهيئة
الحضرية لمدينة تطوان
وضاحتها (1981-2001).



أنواع الاستعمالات المقترحة		أنواع الاستعمالات الموجودة	
مجالات صناعية	مركز إداري	مجالات فلاحية	مجالات خضراء / ترفيهية
مستشفى	مركز للأنشطة	مجالات صناعية	مجالات خضراء / ترفيهية
مؤسسة للتعليم	معمل لمعالجة المياه	مجالات صناعية	مجالات خضراء / ترفيهية
الثانوي / التقني	معمل لتنقية المياه	مجالات صناعية	مجالات خضراء / ترفيهية
سجن	المستشفى	مجالات صناعية	مجالات خضراء / ترفيهية
معايير طرقية	سوق	مجالات صناعية	مجالات خضراء / ترفيهية
طريق دائري	سوق الجمعة	مجالات صناعية	مجالات خضراء / ترفيهية
	بيع قطع السيارات	مجالات صناعية	مجالات خضراء / ترفيهية
	المستشفى	مجالات صناعية	مجالات خضراء / ترفيهية

M.H.A.T. - 1984 S.D.A.U. DE TETOUAN (1981-2001)

المصدر (بتصرف) =

رسم : محمد العبدلوي ونور الدين الشخفي

لكن تجدر الإشارة إلى كون المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لم يكن ملزما قانونا⁽⁸⁵⁾، الشيء الذي جعل توجيهاته لا تحترم في كثير من الأحيان.

فبالنسبة لمركز مرتيل على سبيل المثال، خصص المجال المدعو بالديزة للتخميم والتنمية السياحية، في حين مايزال يشهد في الواقع تعميرا «سريا» على نطاق واسع، ويفتقر إلى أدنى التجهيزات الضرورية، ويظل التخميم فيه يشكو من غياب مقومات التخميم الملائمة. كما يلح المخطط التوجيهي على الاحتفاظ بالغابة الواقعة شمالا بمحاذاة الشاطئ، لكنها أخذت تشهد في السنين الأخيرة اجتثاثا واسعا مع استغلال الرمال بشكل مكثف، رغم دورها البيئي الهام، لصالح تشييد مجموعة من الإقامات السياحية : مجموعة الشمس للمؤسسة الجهوية للتجهيز والبناء ERAC ومجموعة Cités jardins (صورة 7).

4 - 3 - المخطط التوجيهي الجديد يركز على السياحة كقاطرة للتنمية :

شرع في تحضير المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير للساحل السياحي التطواني (S.D.A.U.L.T) منذ أزيد من خمس سنوات، ويهم المجال الممتد من أزلا جنوبا إلى الفنيدق شمالا، بعرض يصل في حده الأدنى إلى خمس كيلومترات، ويغطي الفترة الزمنية الممتدة إلى سنة 2020 (جدول 25)، وقد حصر أهدافه الرئيسية فيما يلي :

- الحفاظ على المواضع الطبيعية،
- وضع التجهيزات المهيكلية للمجال،
- جعل تناسق بين مختلف المنجزات،
- خلق الظروف الملائمة لتحقيق تنمية مستدامة للمنطقة⁽⁸⁵⁾.

= الحضري — غشت 1983 — «التصميم التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة تطوان، مرتيل والمضيق — ملخص التقرير الشمولي». ص 13.
« أصبح المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية (أو العمرانية) ملزما قانونيا على مستوى المغرب بمقتضى الظهير الشريف الصادر في 17 يونيو 1992 المتعلق بالتعمير.

(85) Min. de l'Intérieur et de l'Information - Dir. Général de l'Urbanisme, d'Aménagement du Territoire et de L'Environnement - Prov. de Tétouan - Juillet - 1993.
«Schéma Directeur d'Aménagement et d'Urbanisme du Littoral Touristique Tétouanais - Rapport préliminaire - Doc. N °2».

جدول 25 :
الوضعية الحالية والمرتبقة لتنظيم المجال
في الساحل التطواني الشمالي^(*).

الوضعية المرتبقة سنة 2020		المساحة الحالية	أنواع استعمالات الأرض
مجموع المساحة	المساحة المضافة		
4000	2000 +	2000	مراكز حضرية
1500	—	1500	مشاريع سياحية موجودة أو في طور الإنجاز و / أو مرخص لها
550	290 +	260	طرق أولية
480	—	480	مستنقعات
300	—	300	شواطئ
200	—	200	وديان وأهوار
8320	—	8320	غابات وسفوح وعرة
3450	—	8320	أراضي فلاحية
8800	2290 +	16510	المجموع
1200	1200 +	—	التجهيزات
264	264 +	• •	السكن (السياحي)
264	264 +	• •	الفندقة
1790	1790 +	• •	التنشيط الحضري
2126	2126 +	—	المجموع
22126	5616 +	16510	مجموع الأراضي الخاصة للتهيئة
2374	5616 —	7990	الأراضي الشاغرة
24500	0	24500	المجموع العام

(*) يتعلق الأمر بالمجال الموجود على عمق 5 كلم من الساحل المتوسطي، والممتد من أزلا إلى الفنيدق.
(• •) التجهيزات الموجودة حاليا تم إدراجها ضمن مساحة المشاريع السياحية.

المصدر :

Min. de l'Intérieur - Province de Tétouan - Juillet 1993 «Schéma Directeur d'Aménagement et d'Urbanisme du Littoral Touristique Tétouanais - Rapport préliminaire. Doc. N° 2», p. 104.



صورة 7

مجموعة Cités jardins بمركز مرنيل، وقد شيدت على حساب الغطاء الغابوي والكثبان الرملية، الأمر الذي يهدد التوازن البيئي في هذا الشاطئ، فضلا عن المخاطر المرتبطة بالتعرية والمرتقبة مستقبلا على مستوى المجموعة نفسها.
(الصورة بعدسة الأستاذين الباحثين : 16 / 12 / 1994).

ومن جملة الوسائل لتحقيق الأهداف المذكورة، هو إعداد تصاميم تهيئة للمراكز الحضرية الثلاثة والتي هي في طور التحضير حاليا، حيث يغطي مدار التهيئة بالنسبة لمرتيل مساحة 1050 هكتارا، 480 هكتارا بخصوص المضيق و 470 هكتارا فيما يتعلق بالفنيدق.⁽⁸⁶⁾

وإذا كان من السابق لأوانه الحكم على قيمة هذا المخطط الآن، لكون مازال في طور التحضير، ولم تصدر بصده سوى الدراسات الأولية، إلا أن ركيزته الأساسية تبدو غير سليمة، باعتبار أن من أهداف المخطط الرئيسية، هو اقتراح الوسائل الكفيلة باستغلال أحسن وأقصى للمؤهلات السياحية للمنطقة لاستقطاب التيارات السياحية والحفاظ عليها، وجعل السياحة قاطرة التنمية⁽⁸⁷⁾ مع العلم أن

Idem. p. 89. (86)

Idem. p. 93. (87)

القطاع السياحي في بلادنا، وفي هذه المنطقة على الخصوص، من حيث مضمونه وخصوصياته، قطاع مدمر للوسط الطبيعي وكثيرا ما يتطاول على حاجيات السكان ومواردهم، دون أن تكون له على المستوى الاقتصادي سوى انعكاسات ضئيلة.

4 - 4 - دور محدود للجماعات المحلية على مستوى التنمية المحلية :

تشكل الجماعة بمقتضى مبادئ اللامركزية، وحدة قائمة الذات، معترف لها بالشخصية المعنوية والاستقلال المالي. ولم يعد من مهامها فقط إدارة وتسيير شؤون السكان القاطنين بترابها، بل أصبح يتعين عليها أن تقوم بتهيئة مجالها الجغرافي ماديا وبشرياً في إطار السياسة الوطنية لإعداد التراب الوطني.

لكن الملاحظ أن ميزانيات الجماعات المحلية في المجال المدروس، تعكس إمكانيات محدودة لمجالس هذه الجماعات، حيث تعتمد الجماعات في موازنة ميزانياتها على إمدادات الدولة وأموال المساهمة والاقتراضات، والتي تمثل أحيانا نسبة هامة من مجموع المداخل المقبوضة المخصصة للتجهيز، حيث مثلت سنة 1993، على سبيل المثال، 100% بالنسبة للجماعة القروية لتغرم.

وتعكس هذه النسب المرتفعة ضالة الإمكانيات المادية للجماعات المحلية مما يحول دون قيامها بتنفيذ مشاريع تجهيزية هامة، لاسيما وأن مصاريف التسيير تستحوذ على النصيب الأوفر من مداخل الجماعات خصوصا نفقات المستخدمين. ففي سنة 1993، مثلت النفقات المتعلقة بالمستخدمين بالنسبة لبلدية الفندق 43،97% من مجموع مصاريف التسيير، و55،25% بخصوص بلدية مرتيل، و68،41% فيما يتعلق بالجماعة القروية للملايين، بل 71،46% بالنسبة للجماعة القروية لتغرم.

كما تتميز مصاريف التجهيز بالنسبة للجماعات المحلية بالمجال المدروس بعجزها عن تمويل مشاريع التنمية المحلية. وبالتالي تبقى هذه الجماعات عاجزة عن تمويل مشاريع التنمية المحلية وعاجزة عن المساهمة بكيفية ناجعة في إعداد التراب المحلي، والمساهمة في توجه تمدن متوازن. فمصاريف التجهيز مثلاً بالنسبة لجماعة الملايين بلغت فقط 40162 درهما سنة 1993 !.

ولهذا فإن الجماعات المحلية تشكو بشكل كبير من محدودية مواردها الذاتية، مما يجعل دورها محدودا على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، بل إن الضرائب والرسوم كثيرا ما يتأخر استخلاصها مع العلم أن مبالغها تكون قد برمجت في إطار ميزانية السنة.

ومن جهة أخرى، فإن مشكلة العجز المالي مثلا، لا تسمح بالقيام بسياسة الاحتياطي العقاري، هذه السياسة التي تسعى إلى تلبية الحاجيات من الأراضي لإنجاز مشاريع التنمية ومحاربة المضاربة العقارية وتسهيل إنجاز برامج الإعداد الترابي. وزيادة على ما ذكر، لوحظ أن إعادة النظر في التقسيم الجماعي سنة 1992 قد أدى إلى خلق جملة من المشاكل.

4 - 5 - إعادة النظر في التقسيم الجماعي أدى إلى مشاكل متعددة :

نظرا للتحويلات الحاصلة على مستوى المعطيات الديمغرافية والاقتصادية والاجتماعية، كان من الضروري التفكير في إعادة النظر في التقسيم الجماعي بغية تقريب الإدارة أكثر من المواطنين وتعميق أسس الديمقراطية الحقة، وتمكين الجماعات المحلية من القيام بدور أهم على مستوى التنمية المحلية. وفي هذا الإطار صدرت - على المستوى الوطني - دورية لوزير الداخلية منذ 16 يونيو 1987، إلا أنه لم يعمل بالتقسيم الجديد إلا بمناسبة الانتخابات الجماعية الأخيرة : مرسوم 30 يونيو 1992 بشأن تحديد قائمة الدوائر والقيادات والجماعات (الحضرية والقروية بالمملكة).

وهكذا أصبح المجال البلدي الآن يشمل الساحل التطواني بكيفية متصلة انطلاقا من مصب واد مرتيل جنوبا إلى حدود سبتة المحتلة شمالا بعرض يزيد أحيانا عن 5 كلم. وهذا المجال أصبحت تتقاسمه حاليا بلديات مرتيل والمضيق والفنيدق علما بأن مرتيل كان سابقا مركزا مستقلا (منذ سنة 1957، بعد أن كان بلدية في فترة الحماية) والمضيق والفنيدق مجرد مركزين محددتين (منذ 1964 بالنسبة للأول و1973 بخصوص الثاني). وفي نفس الوقت تم تقسيم الجماعات القروية السابقة (الملايين إلى بلدية المضيق وجماعتي الملايين والعليين، تغرمت إلى بلدية الفنيدق وجماعتي تغرمت وقصر المجاز، ودار بني قريش البحري إلى جماعتي أزالا

والزيتون)، كما انتقلت مساحة مرتيل من 2240 هكتارا إلى 3350 هكتارا، وأصبحت مساحة المضيق 4000 هكتار، والفندق 2850 هكتارا.

وقد أدى التقسيم الجديد (خريطة 10) إلى جملة من المشاكل والاحتجاجات. فبالنسبة لجماعتي العليين والملايين مثلا، حرمتا مثلا من منفذ على البحر،^(٥) كما أن حصص الأسد من الموارد كانت لصالح بلدية المضيق الجديدة بالدرجة الأولى، وجماعة الملايين بالدرجة الثانية. وبالإضافة إلى هذا، فإن المدارات البلدية الجديدة تحتضن مساحات واسعة من الأراضي الزراعية وغيرها، الأمر الذي يشكل خطرا عليها في المستقبل (فتحها في وجه التعمير).

4 - 6 - برامج سكنية متعددة لكنها لا تنفي بالحاجيات^(٥٥)

عرفت المراكز الحضرية الثلاثة تدخلات متعددة للمصالح المختصة على مستوى البرامج السكنية، إلا أنها كانت تندرج أساسا في إطار توزيع بقع مخصصة للسكن الاقتصادي أو الفيلات، وتهم على الخصوص «الشرائح المتوسطة» التي بوسعها التعامل مع الهيآت البنكية. الشيء الذي لم يشكل مساهمة فعلية على مستوى حل أزمة السكن، خصوصا إذا علمنا أن البرامج المذكورة لم تلب سوى حاجيات قسم محدود من الشرائح المذكورة آنفا، كما أن توزيع القطع لم يتم دائما بكيفية نزيهة، وعرفت نفسها مضاربة عقارية متأججة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن عددا هاما من المستفيدين لا ينتمي من حيث الإقامة إلى المراكز الحضرية المعنية. كما أن ثمن بيع المتر المربع من طرف الجهات المختصة أصبح حاليا أضعاف ما كان عليه في بداية الثمانينات)، وبطبيعة الحال فإن هذا لن يساهم على الإطلاق في حل مشكل السكن حتى بالنسبة للشرائح المدعوة بالمتوسطة.

وسوف نشير إلى أهم البرامج السكنية المنجزة والمبرمجة في كل مركز من المراكز المدروسة.

(٥) يبدو أن هناك مشروعا لإعادة النظر في هذا الموضوع بخصوص جماعة العليين وذلك بمنحها منفذا ضيقا على البحر.

(٥٥) المعلومات الواردة في هذه الفقرة تم استقاؤها من مندوبية وزارة الإسكان، وتحقيقات ومعاينات ميدانية من طرف الأستاذين الباحثين.

ش



4 - 6 - 1 - حالة مركز مرتيل :

تم إنجاز تجزئة كريمة في بداية الثمانينات (1980 - 1984) من طرف مندوبية وزارة الإسكان، وذلك على مساحة 9,4155 هكتارا، في الجهة الشمالية الشرقية، وقد تراوحت مساحة القطع الأرضية (257 قطعة) بين 140 و 387 م²، على أساس أن يقوم المستفيدون ببناء مساكن لاتتعدى ثلاثة مستويات (سكن اقتصادي وفيلات). إلا أن التجزئة عرفت انزلاقا اجتماعيا كبيرا، حيث عرفت القطع الأرضية مضاربة عقارية محتدمة، مع تباين واختلاف في مورفولوجية المباني حيث نجد أن العمارات مثلا أصبحت تشكل حوالي 70% من مجموع المباني ! وإذا كانت الدولة قد باعت القطع الأرضية للمستفيدين بثمان 200 درهم / م² فإن قيمة هذا الأخير قد ارتفعت بفعل المضاربة (17% من القطع الأرضية ما تزال شاغرة) إلى بضعة آلاف من الدراهم.

وهناك مشروع آخر في طور الإنجاز من طرف المؤسسة الجهوية للتجهيز والبناء للشمال الغربي (ERAC / Nord - Ouest) على كورنيش مرتيل (الشمس)، يهم مساحة 5,2644 هكتارا، وذلك في إطار سكن من نوع العمارات (1148 شقة) وقد استفاد من المشروع من هم لايعانون من مشكل السكن وقسم كبير منهم يقطنون بأقاليم مغربية أخرى.

وعلى مستوى المشاريع المبرجة، هناك مشروع تجزئة المنطلق على مساحة 4,69 هكتارا (185 قطعة) ومشروع لإعادة هيكلة الديزة (43 هكتارا، منها 18 هكتارا تم تعميرها بكيفية غير قانونية)، وذلك من طرف الوكالة الوطنية لمكافحة السكن غير اللائق A.N.H.I، إلا أنه يبدو أنه تم التخلي عن المشروع الأخير. كما أن هناك تفكيرا من طرف نفس الوكالة في مشروع لإعادة هيكلة حيي الشبار وكطلان على مساحة 70 هكتارا.

4 - 6 - 2 - حالة مركز المضيق :

شهد المضيق بدوره إنجاز تجزئة من طرف مندوبية وزارة الإسكان (1984 - 1990) في الجهة الشمالية من المركز، على مساحة 11,5506 هكتار موزعة على 439 قطعة تتراوح مساحتها بين 90 و 300 م²

وقد عرفت هذه التجزئة نفس مصير تجزئة كريمة بمرتيل، كما تنعدم فيها هي الأخرى المرافق الاجتماعية والثقافية... لاسيما وأن التصميم الأولي للتجزئة تم تعدله عدة مرات !

وهناك في الوقت الراهن تجزئة في طور الإنجاز، وهي تجزئة الجبل جنب المركز، على مساحة 8,3419 هكتارا، موزعة على 120 قطعة مخصصة للفيلات وبعض المرافق والتجهيزات الجماعية.

كما أن هناك مشروعا آخر أهم على مستوى المساحة، وذلك شمال المركز، وهو في طور الإنجاز. ويتعلق الأمر بتجزئة اليمين على مساحة 41,7922 هكتار موزعة على 1040 قطعة.

ويتم التفكير كذلك من طرف الوكالة الوطنية لمكافحة السكن غير اللائق في مشروع ضخم آخر، وهو مدينة الزهراء، على مساحة 174,2450 هكتارا، موزعة على 2200 قطعة.

4 - 6 - 3 - حالة مركز الفينديق :

عرف الفينديق إنجاز تجزئة مولاي رشيد من طرف المؤسسة الجهوية للتجهيز والبناء في النصف الثاني من الثمانينات (1987 - 1990) على مساحة 10,58 هكتارا موزعة على 342 قطعة، تتراوح مساحتها بين 90 و 450 م²، وما تزال معظم القطع شاغرة أو في طور البناء في الوقت الراهن، كما تعرف مضاربة عقارية متأججة !

كما أن هناك مشروع تجزئة الأميرة في طور الإنجاز، وذلك على الضفة اليمنى لواد كنديسة (الوكالة الوطنية لمكافحة السكن غير اللائق)، على مساحة 15 هكتارا (461 قطعة)، وهناك مشروع آخر، لنفس الوكالة، قيد الدراسة وهو مشروع تجزئة الأندلسية على مساحة 49,1961 هكتارا موزعة على 1200 قطعة، وذلك شمال المركز.

وبالإضافة إلى كل هذا، هناك تفكير في مشروع إعادة هيكلة حي كنديسة (أكبر أحياء البناء غير القانوني بالفينديق) وذلك من طرف نفس الوكالة المشار إليها، إلا أن نجاح المشروع يفترض مساهمة كلا من بلدية الفينديق والسكان في

تغطية تكاليف إعادة الهيكلة، غير أنه من المرتقب أن يعرف المشروع إحجاما وعدم تحمس من طرف السكان على مستوى المساهمة المادية، بحكم أن 70% من مجموع الأسر بالحي ترتبط بشبكة التصريف الجماعية Communautaire، و 75% بشبكة الماء الشروب، و 92% بشبكة الكهرباء⁽⁸⁸⁾. وهي نسب عالية بالمقارنة مع أحياء وجهات أخرى يسود فيها هذا النمط من التعمير.

4 - 7 - سد أسمير : إنجاز هام على مستوى تدبير الموارد المائية، لكنه تم على حساب مصالح السكان الريفيين :

يعتبر سد أسمير (الواقع على واد أسمير، على بعد 13 كلم من مدينة تطوان) أهم إنجاز على مستوى تدبير الموارد المائية بالمنطقة في السنوات الأخيرة. وقد انتهت الأشغال بالسد سنة 1991، ويبلغ حجم المستوى الأقصى للحقينة 43,5 مليون م³، بحاجز تراي يبلغ 45 مترا، وبطاقة ضخ إجمالية تصل إلى 700 لتر في الثانية كحد أقصى.

وقد كان من المزمع سابقا، قبل الشروع في تشييده بسنوات، أن يستخدم لتزويد المراكز الحضرية والمركبات السياحية بالماء الشروب، وكذلك كان من المقرر تخصيص قسط من مياه حقينته لسقي 600 هكتار في سهل أسمير و 900 هكتار في سهل النيكرو و 4500 هكتار في سهل مرتيل، لكن السقي ألغي من أهداف مشروع السد قبل الشروع في الإنجاز، وتم الاقتصار على التزويد بالماء الشروب. ولهذا الغرض بنيت محطة لتصفية المياه في سهل أسمير ذاته، وتم الشروع في استغلال مياه السد سنة 1992. كما تم بناء خزانين للماء بكدية الطيفور بطاقة استيعابية تصل إلى 4000 م³ لكل واحد منها. كما أن هناك خزاناً آخر في المرحلة النهائية من الإنجاز (الملايين).

ويسد سد أسمير حالياً حاجيات المراكز المدروسة والمركبات والإقامات السياحية، إلى جانب حاجيات مدينة تطوان لاسيما وأنه تم في سنة 1995 إنجاز مشروع ربط محطة التصفية الموجودة بسهل بوزغلال (أسمير) مع تلك الموجودة

(88) A.N.H.I - 1991 - «Possibilités de restructuration du quartier Candessa à F'nideq».

بطوريطا، جنوب مدينة تطوان، إلا أنه من المرتقب أن يصبح السد عاجزا عن تغطية الحاجيات بعد سنة 2005.

والملاحظ أن تشييد سد أسمير، تم على حساب أراضي خصبة، كانت في ملكية أو حيازة سكان مجموعة من الدواوير (واد الليل وبلوازن والبين والكوف السفلي...) تم انتزاعها منهم في إطار المصلحة العامة، دون أن يتلقوا إلى حد الآن أي تعويضات عن الأراضي غير المغروسة بالأشجار. وإذا أضفنا إلى ذلك تمديد المسافة التي أصبح يقطعها السكان للوصول إلى دواويرهم بفعل هذا الحاجز المائي الجديد، زيادة على نزول مستوى الفرشة المائية في سافلة السد (بوزغلال)؛ يحق لنا أن نتساءل: أي فائدة جناها سكان الوسط الريفي في هذه المنطقة، من تشييد السد داخل محاطاتهم؟!

4 - 8 - تفويت قطاع التصريف إلى وكالة توزيع الماء والكهرباء لم يؤد إلى إنجازات هامة شاملة :

تجب الإشارة إلى أن قطاع التصريف قد تم تفويته من طرف المجالس الجماعية للمراكز الحضرية الثلاثة إلى الوكالة المستقلة الجماعية لتوزيع الماء والكهرباء، وذلك بخلاف حالتي بلديتي تطوان - سيدي المنظري وتطوان - الأزهر.

إلا أن هذه الوكالة لم تحقق إلى حد الآن إنجازات هامة. ويمكن اعتبار مشروع التطهير السائل بمرتل من أهم مشاريع الوكالة وإن كان لم يكتمل إنجازاه بعد. كانت شبكة التطهير في مرتيل تقتصر على قسم فقط من النواة القديمة، وتفرغ حمولتها في الذراع الميت لواد مرتيل، الشيء الذي يسبب مشاكل خطيرة على المستوى الصحي والبيئي. وفي سنة 1988، عُهد إلى الوكالة المذكورة بإنجاز دراسة تقنية شاملة همت 245 هكتارا، والتي اقترحت إحداث محطة لمعالجة المياه المستعملة تكفي لساكنة يبلغ عددها 30 000 نسمة، مع إنجاز محطتين لضخ المياه المستعملة ومياه الأمطار إلى محطة المعالجة، وكذلك بطبيعة الحال مد شبكة أحادية للتصريف. كما شملت الدراسة أيضا مشروع كناش التحملات، يحدد شروط استغلال الوكالة لمصلحة التطهير بمرتل، ثم تقرر بالإجماع المصادقة على تفويت مصلحة التطهير إلى الوكالة من طرف المجلس الجماعي في دورة فبراير سنة 1989.

والملاحظ أن مبالغ المساهمة في تغطية مصاريف أشغال إنجاز المشروع — الذي قطع حاليا أشواطاً كبيرة — والمفروضة على السكان قد قوبلت باستياء كبير نظراً لارتفاع قيمتها، زيادة على كون طبيعة الشبكة التي أنجز شطر كبير منها، لا يبدو أنها ملائمة على المستوى التقني وعلى مستوى قطر القنوات. كما أن أشغال مد القنوات أدت إلى تصدع وانهيار العديد من المباني (صورة 8) بالإضافة إلى أنه تقرر في دراسة أخيرة⁽⁸⁹⁾ جر المياه إلى محطة المعالجة الخاصة بتطوان والمزمع إنجازها في المستقبل في الذراع الميت لواد مرتيل المجاور للمطار.

4 - 9 - تدخل جزئي للغاية على مستوى شبكة الطرق :

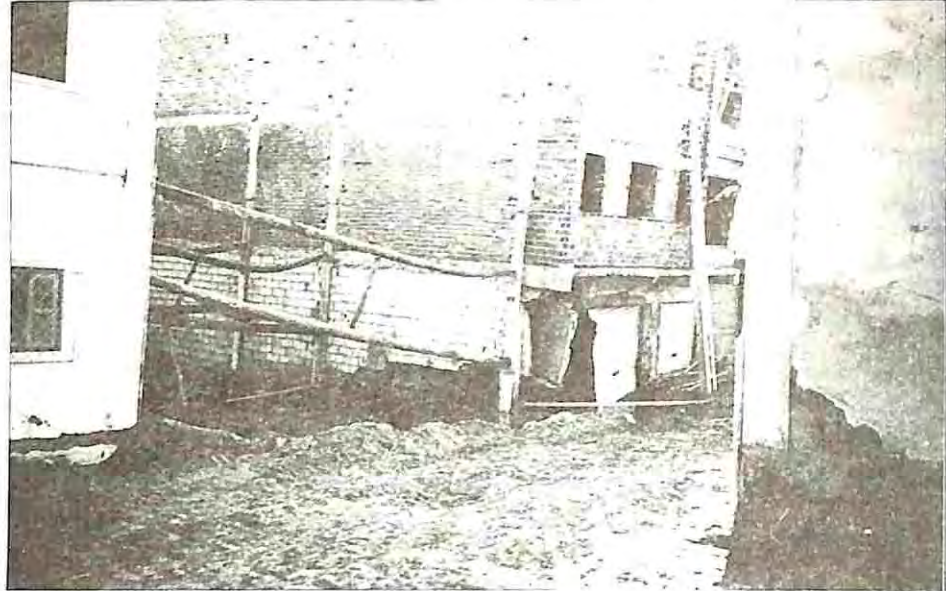
إن الملاحظة العامة التي تصدق على المراكز الحضرية الثلاثة هي رداءة الطرق وقلة الطرق المعبدة وسوء أوضاع هاته الأخيرة وذلك على المستوى الداخلي للمراكز الحضرية، وحتى على مستوى المنطقة ككل (صورة 9)، فالطرق الموجودة غير كافية ورديئة في عدة أقسام منها، لاسيما تلك الرابطة بين الفندق والقصر الصغير. ولم تعرف السنوات الأخيرة إنجازات هامة، اللهم الطريق المعبد الذي يربط بين طريق تطوان - سبتة وسد أسمير، وكذلك الطريق الدائري بالنسبة للمضيق والذي امتد على خط السكة الحديدية القديمة، والذي كانت الغاية منه إتاحة التوسع من الجنوب نحو الشمال وكذلك استعماله كخط انحراف لحركة السير خلال فصل الصيف على الخصوص بعيداً عن الطريق الرئيسي 28.

وأهم المشاريع المبرمجة على مستوى الأمد القريب هي مايلي :

— شق طريق جديد بين تطوان ومرتيل، عبر طريق تطوان، سبتة، وذلك بتكاليف أشغال تصل إلى 35 مليون درهم⁽⁹⁰⁾، ويبلغ طول الطريق 6,8 كلم بعرض يصل إلى 14 متر (2 × 7)، وذلك قصد خلق ربط مباشر بين تطوان وكورنيش مرتيل، وفتح آفاق واسعة على مستوى الإعداد السياحي للمنطقة المعنية.

(89) BEI - Mai 1994 - «Etude comparative de la solution retenue pour la station d'épuration de Martil».

(90) Min. des Travaux Publics de la Formation Professionnelle et de la Formation des Cadres - Dir. Provinciale de Tétouan - «Réalizations durant les années 1984 à 1993 et perspectives d'avenir - Secteur Routier». p. 19.



صورة 8

حي الواد بمركز مرتيل. وتبدو في الصورة الآثار السلبية الناجمة عن أشغال مد قنوات التصريف (تشقق وتصدع المباني).
(الصورة بعدسة الأستاذين الباحثين : 01/17/1992).



صورة 9

طريق غير معبد بحوض النيكرو. وتظهر جليا الآثار الناجمة عن التعرية المائية، كما تعكس الصورة الإهمال الكبير الذي تعرفه المناطق الخلفية للساحل التطواني الشمالي على مستوى أعمال الإعداد والتجهيز.
(الصورة بعدسة الأستاذين الباحثين : 07/11/1991).

— إنجاز طريق سيار (مبدئيا انطلاقا من 1995 !)، يربط بين تطوان وسبتة بطول يصل إلى 31 كلم، وذلك بمضاغفة الطريق الحالي الذي يعرف اختناقا خلال فصل الصيف على الخصوص، وتقدر التكاليف بـ 250 مليون درهم⁽⁹¹⁾.

5 — تدهور بيئي خطير :

ينجم هذا التدهور البيئي عن هشاشة الوسط الطبيعي وتدخل الإنسان غير الحكيم. وسوف نشير إلى أهم مظاهر هذا التدهور :

5 — 1 — استفحال التلوث :

5 — 1 — 1 — تلوث المحاور الهيدروغرافية :

يتجسد هذا التلوث على الخصوص في واد مرتيل وواد كنديسة. فبالنسبة لواد كنديسة فهو يتلقى جزءا هاما من المياه المستعملة لمركز الفنيدق التي تصب في البحر وسط المركز دون أدنى معالجة. أما واد مرتيل فهو يتلقى المياه المستعملة لمدينة تطوان بكاملها دون معالجة مسبقة. كما أن الذراع الميت لنفس الواد تنتهي إليه مجاري قسم من مباني مرتيل. وإضافة إلى كل ذلك، فإن مختلف الوحدات الصناعية، سواء المستقرة بتطوان أو ضواحيها بما في ذلك المنطقة الصناعية — تتخلص من فضلاتها السائلة إما مباشرة في واد مرتيل أو عن طريق شبكة التصريف التي تنتهي إلى واد مرتيل. وزيادة على ذلك، فإن عددا من المعامل تلقي بفضلاتها الصلبة مباشرة في واد مرتيل. وقد بينت التقديرات المبنية على نتائج التحليلات التي تم القيام بها عند مخارج النفايات السائلة *Points de rejets* لمعظم المؤسسات الصناعية، أن أكثر من 1000 طن / السنة من المواد القابلة للتأكسد *Oxydables* يلقي بها مباشرة في واد مرتيل. كما أن هذه المؤسسات الصناعية تقوم بإلقاء كميات من الفلزات السامة (الزئبق، والكروم، والزنك، والرصاص، والنحاس...) ⁽⁹²⁾.

وقد أكد المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة تطوان (1981 - 2001) على هذا المشكل الخطير على مستوى المدينة ونواحيها : «أما بالنسبة لشبكة الواد

Idem. p. 27. (91)

EL GHACHTOUL (Y.) et BAKHRI (A.) 1990. op. cit. p. 76. (92)

الحار، فإن الأمر خطير، ذلك أنه توجد شبكة أحادية تجمع في نفس الوقت مياه الواد الحار بمياه الأمطار في بعض نواحي المدينة، في حين أن عملية الإفراغ انطلاقا من هذه الشبكة تتم بشكل مكشوف في الخنادق، متجهة نحو واد مرتيل بدون معالجة. وينتج عن ذلك تلوث خطير للنهر خلال أشهر الصيف أو في بدايتها، وتصيب مياه الواد الحار أخيرا في البحر فتلوث جزء من الشاطئ غير بعيد عن مرتيل»⁽⁹³⁾.

ونشير إلى أنه تم مؤخرا إعداد مخطط توجيهي للتطهير السائل بالنسبة لمدينة تطوان، اهتم بإنجاز عدد من الدراسات حول ميادين مختلفة (فحص للشبكات الموجودة، ودراسة التلوث، ودراسة إمكانية معالجة المياه المستعملة...) وذلك قصد تحديد الأهداف المراد بلوغها والتوجهات العامة في هذا القطاع إلى حدود سنة 2010. إلا أن التجهيزات المقترحة إحداثها (محطة معالجة وقناة تجميع رئيسية...) تتطلب تكاليف باهضة، الشيء الذي يفوق الإمكانيات المادية المتاحة.

5 - 1 - 2 - تلوث المياه البحرية (الجدولان 26 و 27) :

يرجع ذلك إلى كون هذه المياه تتلقى النفايات السائلة للتجمعات الحضرية والمؤسسات الصناعية والمركبات السياحية دون أن تخضع لمعالجة مسبقة، الأمر الذي يهدد البيئة البحرية برمتها، لاسيما وأن بعض المخاطر الصحية أخذت تستفحل سنة بعد سنة.

وإذا كان مركز المضيق يتوفر على محطة معالجة للمياه المستعملة، فإنها كثيرا ما تتعرض للتوقف، كما أنها لا تعالج كل مياه المركز. وحتى إذا كانت بعض المركبات السياحية تتوفر على شبكة تصريف مستقلة ترتبط بمحطات معالجة خاصة بكل واحد منها، كما هو الحال بالنسبة للنادي الجديد New Club و قبيلة، وقصر الرمال، ومارينا أسمير، والمغرب السياحي، فإن هذه المحطات لا تستغل جيدا، وكثيرا ما تتعرض للتوقف⁽⁹⁴⁾.

(93) التصميم التوجيهي للهيئة الحضرية لمدينة تطوان، مرتيل، المضيق. ملخص التقرير الشمولي. غشت 1983، ص. 9.

(94) Comission of the European Communities. United Nations Development Program., World Bank and European Investment Bank - Mars 1995 - «Etude relative à l'aménagement de la zone côtière de Martil. Rapport de synthèse définitif». p. 50.

جدول 26 : كمية فضلات تطوان ومرتيل المفرغة يوميا بالوسط البحري (تقديرات).

الصناعية	المنزلية	
7200 م ³	51630 م ³	الماء
3000 كلغ	20200 كلغ	DBO ₅ (Demande Biochimique en Oxygène en 5 jours)
7400 كلغ	26600 كلغ	مواد على شكل مزيج معلق Matière en suspension (MES)
80 كلغ	4200 كلغ	الأزوت الإجمالي
48 كلغ	1100 كلغ	الفوسفور الإجمالي
$10^{12} \times 300$	$10^{12} \times 28000$	الكوليفورمات الإجمالية Coliformes totaux
$10^{12} \times 6$	$10^{12} \times 560$	الكوليفورمات البرازية Coliformes fécaux
$10^{12} \times 1.4$	$10^{12} \times 130$	المكورات العقدية البرازية Streptocoques fécaux
30 كلغ / السنة	—	الكاديوم Cadmium
4300 كلغ / السنة	—	الكروم
3600 كلغ / السنة	—	النحاس
220 كلغ / السنة	—	الزئبق

المصدر :

Comission of the European Communities... etc. - Mars 1995 - Op. cit. «Annexe. Programme de contrôle et base de données». p. 7.

جدول 27 : كميات الفضلات المفرغة يوميا بالفنيدق والمضيق
(تقديرات).

المضيق	الفنيدق	
1200 م ³	1800 م ³	الماء
720 كلغ	1080 كلغ	DBO ₅ (Demande Biochimique en Oxygène en 5 jours)
810 كلغ	1200 كلغ	مواد على شكل مزيج معلق Matière en Suspension (M.E.S)
160 كلغ	270 كلغ	الأزوت الإجمالي
48 كلغ	72 كلغ	الفوسفور الإجمالي
$10^{12} \times 300$	$10^{12} \times 1800$	الكوليفورمات الإجمالية Coliformes totaux
$10^{12} \times 6$	$10^{12} \times 36$	الكوليفورمات البرازية Coliformes fécaux
$10^{12} \times 1.4$	$10^{12} \times 8$	المكورات العقدية البرازية Streptocoques fécaux

المصدر :

Comission of the European Communities... etc. - Mars 1995 - Op. cit. «annexe. Programme de contrôle et base de données». p. 7.

وفي إطار تلوث المياه البحرية، نشير إلى قرار لوزير الصيد البحري والملاحة التجارية بتاريخ 31 دجنبر 1992، يمنع لمدة ستة أشهر عمليات صيد وجمع مختلف الصدفيات بساحل البحر الأبيض المتوسط الواقع بين رأس ترغة والرأس الأسود (كابو نكرو)، وذلك «نظرا لما تتعرض له حياة الإنسان من أخطار في حالة استهلاك صدفيات مجلوبة من مناطق بحرية ثبت أن مياهها غير صحية...»⁽⁹⁵⁾ كما صدرت قرارات متوالية تمدد العمل بتدابير منع صيد الصدفيات في المنطقة المشار إليها. وقد بينت إحدى الدراسات الأخيرة أن المياه الساحلية لم تعد مأمونة على المستوى الصحي بالنسبة للسباحة، لاسيما عند مصب واد مرتيل، وكذلك في المنطقة الواقعة بين كابو نكرو والفنيدق⁽⁹⁶⁾. بل بدأت تظهر في منطقة مرتيل العلامات الأولى لحالة التخاصب eutrophisation. وفي هذه المنطقة، حول مصب واد مرتيل حتى ثلاثة كيلومترات سواء جنوبا أو شمالا، نجد تلوثا واضحا كذلك بالمواد الثقيلة : الكروم والكاديوم cadmium والزئبق⁽⁹⁷⁾.

5 - 1 - 3 - تلوث الفرشة المائية الباطنية :

بينت الدراسات في هذا الصدد، أن الفرشة المائية الباطنية في سهل مرتيل تعرف تلوثا ملحوظا، وهو ناجم عن تسرب المياه المستعملة لمدينة تطوان ومركز مرتيل، بالإضافة إلى تأثير أنشطة صناعية مختلفة. فهذه المياه ذات حمولة واضحة من النترات وتركيزات قوية للكوليفورمات البرازية coliformes fécaux⁽⁹⁸⁾. وبخصوص فرشة أسمىر الباطنية، فإن الجهات الشرقية منها، من الممكن أن تعرف تلوثا بسبب المياه المستعملة التي تصب في هور أسمىر والآية من المضيق، حيث إنه من المعروف أن الهور يتصل بالفرشة المائية الباطنية⁽⁹⁹⁾.

(95) الجريدة الرسمية، عدد 4186، 20 يناير 1993، ص. 107.

(96) C.E.C.... etc. - Mars 1995 - op. cit. p. 11.

(97) C.E.C.... etc - Mars 1995 - op. cit. p. 19.

(98) C.E.C. ... etc. - Mars 1995 - op. cit. p. 94.

(99) El GHACHTOUL (Y.) et BAKHRI (A.) - 1990 - op. cit. p. 19.

والملاحظ أن مياه الآبار — التي كثيرا ما تستعمل للشرب والاستعمالات المنزلية الأخرى في المراكز الحضرية ونواحيها — كثيرا ماتكون ملوثة، نظرا لكون تصريف المياه المستعملة غير ملائم بسبب وجود شبكة تصريف مهترئة، كما أن التصريف كثيرا ما يتم عن طريق السلان Talwegs المكشوفة، زيادة على الحفر المطمورة التي يستعملها كثير من السكان لتصريف فضلاتهم السائلة، ويكون الوضع أكثر خطورة عندما يتعلق الأمر ببئر مهجور يستعمل كحفرة لتلك الغاية، حيث إمكانيات تلوث المياه الباطنية أكثر احتمالا.

5 — 1 — 4 — سوء التخلص من الفضلات الصلبة :

نجد أن هذه الفضلات كثيرا ما لا يتم جمعها من طرف المصالح المختصة، حيث يتخلص منها السكان إما بحرقها أو دفنها، أو رميها بكل بساطة في البقع الشاغرة والطرق مع مايسبب ذلك من انبعاث الروائح الكريهة واستقطاب الحشرات الضارة والحيوانات الشريدة (صورة 10)، بل إن الأزبال التي تجمع من طرف المصالح البلدية لمرتيل، كثيرا مايستعملها المزارعون لتخصيب الأراضي، دون أدنى معالجة مسبقة، الشيء الذي يهدد بتلوث كبير، روائح كريهة، وتلوث المياه الباطنية والهواء والمزروعات.

ومن جهة أخرى، نشير إلى أن المركبات السياحية المستقرة على الساحل، تتخلص من فضلاتها السائلة، في كثير من الأحيان، مباشرة في البحر، وفضلاتها الصلبة برميها في المناطق الخلفية المحاذية. وهذا مايلاحظ بجلاء في السفوح السفلى لجبل زمزم.

5 — 2 — تلوث وتجهيف هور أسمير :

أشرنا فيما سبق إلى الدور البيئي الهام الذي كان يلعبه هور أسمير، إلا أنه أصبح معرضا لتدهور خطير، حيث يتلقى كميات هامة من المياه المستعملة في مركز المضيق. كما أن تشييد المركبات السياحية على طول الشاطئ في كثير من الأحيان على حساب الكثبان الرملية الشاطئية قد أدى إلى توحد Envasement القسم الشمالي من الهور⁽¹⁰⁰⁾.

(100) LOUAH (A.) et autres - 1993 - op.cit p. 36.



صورة 10

حي أحرق بمركز مرتيل. وتبدو في الصورة الآثار الوخيمة الناجمة عن التوسع العمراني غير المخطط، من تجميد للأراضي الفلاحية، ونقص في التجهيزات والمرافق العمومية وانتشار للأزبال في كل مكان.
(الصورة بعدسة الأستاذين الباحثين : 17 / 01 / 1992).

وبالإضافة إلى ما ذكر، فإن تشييد سد أسمير في عالية واد أسمير، أدى إلى الإخلال بالدورة الهيدرولوجية للهو، مما يسبب تخفيف قسم هام منه، الشيء الذي يقلص المجال الحيوي للطيور المهاجرة. كما أن تشييد ميناء ترفيهي عند مصب واد أسمير الذي هو في ذات الوقت مدخل الهو، كان له تأثير واضح على توازنه الطبيعي، لاسيما وأنه قد مس الدورة البيولوجية للعديد من الأنواع النباتية، إضافة إلى ارتفاع مخاطر التلوث. وقد أدى تشييد عرمة digue عند مدخل الهو إلى الحيلولة دون مرور مياه البحر إلى الهو، وبالتالي دعموصات Larves الأسماك والقشريات. ومن المعلوم أن الأسماك الصغيرة تتغذى من دعموصات الحشرات، مما يجعل غياب الأولى يؤدي إلى تفشي الحشرات التي أصبحت تحارب باستعمال مكثف للمبيدات الشيء الذي يساهم في تلوث المياه⁽¹⁰¹⁾.

(101) Agence Américaine pour le Développement International - «Impact de l'urbanisation sur les ressources naturelles. Tétouan, Maroc», Washington. p. 3 - 10.

5 — 3 — تدهور وتقلص مساحة الغطاء الغابوي :

يعرف الغطاء الغابوي بالمجال المدروس تدهورا خطيرا، حيث بينت إحدى الدراسات⁽¹⁰²⁾ أنه على مستوى الساحل الممتد من مرتيل إلى الفنيدق، تراجعت المساحات الغابوية الناجمة عن عمليات التشجير من 575 هكتارا سنة 1966 إلى 550 هكتارا سنة 1990. وفي نفس الفترة، انخفضت مساحة الأيك matorral من 1112 هكتارا إلى 706 هكتارات. وفي المقابل ارتفعت مساحة الأراضي المبنية من 231 هكتارا إلى 550 هكتارا، أي بنسبة 138%. أما الأراضي الزراعية، فلم تزد سوى بنسبة 7,3% (من 1525 هكتارا إلى 1637 هكتارا).

ويعود تقلص مساحة الغطاء الغابوي إلى عمليات الاجتثاث على الخصوص، وذلك لعدة أغراض، كتوسيع رقعة الأراضي الزراعية، وإقامة المفاحم التقليدية، وتزويد مشاغل الآجر والجير بالطاقة الخشبية، والحصول على حطب الوقود المنزلي.. إلخ (صورة 11).

وتجدر الإشارة إلى أن تقلص مجال الرعي الطبيعي بالنسبة لسكان دواوير المنطقة المدروسة، لا يعود فقط إلى تراجع الغطاء النباتي وإنما كذلك نتيجة الحظر الذي تمارسه إدارة المياه والغابات وكذلك شركة الصيد السياحي SOCHATOUR التي استحوذت على امتياز الصيد بالمنطقة على حساب السكان الذين أخذوا يشتكون من تزايد أعداد الرت (الخنزير البري) الذي يعيش فسادا في حقولهم ومغارسهم. ونشير في هذا الصدد إلى أن الدولة تساهم بشكل أو آخر في هذا التدهور كالسماح بتحويل مجالات غابوية إلى مجالات عمرانية (مجموعة الشمس ومجموعة cités jardins وكذلك الرأس الأسود، والنيكرو... إلخ).

فعلى سبيل المثال، صدر مرسوم بتاريخ 2 شتنبر 1993، يأذن في إجراء مقايضة عقارية بدون معدل لقطعة أرضية تابعة للملك الغابوي المدعو «محيط تثبيت الكنبان

BOUKIL (A.) - 1990 - «Le littoral de Tétouan : contribution à l'étude de la dégradation, (102) de la problématique de la pollution et des possibilités d'aménagement» - Centre Régional des Etudes et des Aménagements - Eaux et Forêts - Tétouan p. 8. (Inédit).



صورة 11

جزء من محاط دوار واد الزرجون بأعالي حوض أسير. وتبدو في الصورة الحقول البورية المزروعة بالحبوب والمكتسبة على حساب الغطاء النباتي الطبيعي.
(الصورة بعدسة الأستاذين الباحثين : 09 / 01 / 1995).

الرملية لواد النيكرو»، مساحتها ستة هكتارات وستة وسبعون آرا وأربعة عشر سنتيارا، مقابل قطعة أرضية في ملك أحد الخواص، مساحتها مائة وخمسة عشر هكتارا وأربعون آرا، كائنة بالجماعة القروية أم عزة، بعمالة الصخيرات - تمارة⁽¹⁰³⁾.

كما صدر مرسوم بتاريخ 25 مارس 1994، يأذن في إجراء مقايضة عقارية لقطعة أرضية تابعة للملك الغابوي مساحتها مائة وثمانية وثمانون هكتارا وسبعة وستون آرا وستينيات، واقعة بكدية الطيفور، وذلك مقابل قطعة أرضية في ملكية الشركة الإفريقية للسياحة S.A.T، البالغة مساحتها مائة وخمسون هكتارا، والواقعة بالجماعة القروية لمولاي بوعزة، دائرة وإقليم خنيفرة، على أساس أن تدفع الشركة المعنية إلى صندوق إعادة توظيف أموال الدولة مدركا نقديا مبلغه أربعة

(103) الجريدة الرسمية، عدد 4221، 32 شتنبر 1993، ص. 1816.

عشر مليوناً وثلاثمائة وخمسة وخمسون ألفاً وثلاثمائة وثمانية عشر درهماً، يخصص لاقتناء أراضي للتشجير⁽¹⁰⁴⁾.

وهناك كذلك مرسوم آخر صدر بتاريخ 24 أكتوبر 1994، يأذن بإجراء مقايضة عقارية لقطعة أرضية تابعة للأملاك الخزنية، واقعة بكدية الطيفور، مساحتها تسعة هكتارات وستة وثلاثون آرا، وذلك مقابل قطعة أرضية في ملكية أحد الخواص، مساحتها أربعة وأربعون هكتارا وثلاثة وثلاثون آرا وثمانية وسبعون سنتيارا، كائنة بجماعة وقيادة مولاي بوعزة بإقليم خنيفرة، على أساس أن يدفع المعني بالأمر إلى صندوق إعادة توظيف أموال الدولة مدركا نقديا مبلغه مائة وستون ألفاً وثمانية وثمانون درهماً وخمسون سنتيماً، يخصص لاقتناء أراضي للتشجير⁽¹⁰⁵⁾.

5 - 4 - تحول وتراجع خط الساحل :

يظهر هذا جلياً في بعض الأماكن من الساحل التطواني الشمالي (أزلا وسيدي عبدالسلام لبحر والفنيدق...) (صورة 12)، وهذا التراجع أصبح يهدد بحدة بعض المنشآت. ويعود هذا التراجع إلى عوامل عديدة، نذكر منها خاصة بعض المميزات الطبغرافية لهذه الأماكن، والمتمثلة في ارتفاعها النسبي عن مستوى سطح البحر، بالإضافة إلى طبيعة الأساس الصخري المتكون من صخور هشة على الخصوص. هذا علاوة على الدينامية البحرية المتجسدة في حركتي المد والجزر وعنق العواصف البحرية التي تترافق مع شريط ساحلي متعامد مع اتجاهها، الشيء الذي يزيد من شدة تأثيرها. ففي مارس 1990، أدت عاصفة بحرية إلى تراجع عرض شاطئ قبيلة من 40 — 50 متراً إلى حوالي 10 - 15 م، وفي بعض الجهات جنوباً وقع ترسيب هام (من 1 إلى 2 م من التراكم الرمي)⁽¹⁰⁶⁾. ثم لا يجب أن نغفل دور العامل البشري والمتمثل في استخراج الرمال الشاطئية من أجل أغراض عمرانية. ففي أواخر الثمانينات، كان يتم استخراج 250 000 م³ من الرمال

(104) الجريدة الرسمية، عدد 4250، 13 أبريل 1994، ص. 541.

(105) الجريدة الرسمية، عدد 4279، 02 نونبر 1994، ص. 1788.

(106) Min. des T.P. (Dir. des Ports) - 1990. p. 34.



صورة 12

مركز الفنيدق. وتبدو في الصورة الحواجز التي أقيمت
من طرف المصالح المختصة على الشاطئ ذاته
لحماية الطريق من التآكل بفعل التعرية البحرية.
(الصورة بعدسة الأستاذين الباحثين : 24 - 04 - 1995).

سنويا من جنوب مركز مرتيل مباشرة⁽¹⁰⁷⁾. كما يبدو أن تراجع خط الساحل هو
مسألة ذات طابع كوني.

ومن جهة أخرى، نجد أن تشييد الموانئ بالساحل المذكور يؤدي إلى تحولات
ملموسة على مستوى خط الساحل، حيث لوحظ أن تشييد ميناء المضيق قد أدى
إلى تراجع خط الشاطئ نحو الداخل في الجهة الجنوبية من الشاطئ الواقع شمال
الميناء نتيجة عملية التعرية وتقدم الشاطئ على حساب البحر في الجهة الشمالية
نتيجة عملية الإرساب. أما بخصوص الميناء الترفيهي ريستنكة — أسمر على بعد
سبعة كيلومترات شمال المضيق، فقد أدى تشييد الميناء (الذي شرع فيه سنة

Min. des T.P. (Dir. des Ports) - 1990. p. 40. (107)

1986، وتم فتحه للاستغلال رسميا يوم 30 غشت 1991⁽¹⁰⁸⁾، إلى تقدم الشاطئ جنوب الميناء وتراجعته شمالا الشيء الذي يهدد، على الأمد المتوسط، مدخل الميناء بمخاطر الإرمال Ensablement⁽¹⁰⁹⁾، لاسيما أن كميات الرمل المتراكمة جنوب الميناء كانت تصل في أواخر الثمانينات إلى 35000 م³ سنويا⁽¹¹⁰⁾.

الخلاصة

يتضح من خلال ماورد ذكره، أن مشاكل مرتيل والمضيق والفنيدق والمجالات المحاذية لها، هي جد متنوعة ومتشابكة للغاية، كما أن مسبباتها من الكثرة والتعقيد، بحيث يصعب الإلمام بها كلها، وحصر دور كل واحد منها بدقة كاملة. ونؤكد على كون المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير الذي هو في طور الإعداد حاليا، ركز على ما سماه بالسياحة كقاطرة للتنمية، التي هي في الواقع لن تستفيد منها سوى نخبة محظوظة، كما ستعمل على إهدار المزيد من الموارد على حساب السكان المحليين. لذا يجب التأكيد على أنه يجب الاهتمام بجميع مكونات المجال في إطار تفاعلاتها المتبادلة والمختلفة، حتى يتسنى ضبط تدخلات مختلف العناصر المؤثرة في المجال، مع الأخذ بعين الاعتبار دائما حاجيات السكان المحليين، وخصوصيات الوسط الطبيعي في آن واحد.

يناير 1996

(108) قرار لوزير الأشغال العمومية والتكوين المهني وتكوين الأطر، المنشور بالجريدة الرسمية، عدد 4123، 6 نونبر 1991.

(109) JAAIDI (E.B) et autres - 1993 - «Le littoral méditerranéen entre Tétouan et Ceuta et atlantique entre Tanger et Asilah. Impact des aménagements portuaires sur la dynamique côtière : cas des ports de M'diq, Restinga - Smir, Tanger et Asilah» in «Aménagement littoral et évolution des côtes. L'environnement des côtes marocaines en péril» - Pub. du Comité National de Géographie du Maroc - Rabat - p. 26.

(110) Min. des T.P. (Dir. des Ports) - 1990. p. 28.

أهم المصادر والمراجع المعتمدة

- - AGENCE AMERICAINE POUR LE DEVELOPPEMENT (USAID) - Mars 1992 «Impact de l'urbanisation sur les ressources naturelles. Tétouan, Maroc» - Washington.
- ANDRE (A.) et EL GHARBAOUI (A.) - 1973 - «Aspects de la morphologie littorale de la Péninsule de Tanger. Revue de Géographie du Maroc (Rabat) N° 23 - 24 pp. 125 - 149.
- A.N.H.I - 1991 - «Possibilités de restructuration du quartier Candessa à F'nideq».
- BERRIANE (Mohamed) - 1992 «Tourisme national et migrations de loisirs au Maroc (Etude géographique) - Pub. de la Fac. des let et des Sc. Hum. - Rabat.
- BOUKIL (Ahmed - 1990) «Le littoral de Tétouan : contribution à l'étude de la dégradation de la problématique de la pollution et des possibilités d'aménagement». Centre Régional des Etudes et d'aménagements - Eaux et Forêts - Tetouan (Inédit).
- C.E.R.E.D. 1988 «Situation démographique régionale au Maroc. Analyses comparatives». Dir. de la Statistique - Rabat.
- Comission of the European Communities, United Nations Development Program, World Bank and European Investment Bank - Mars 1995 «Etude relative à l'aménagement de la zone côtière de Martil. Rapport de synthèse définitif» (Rapport élaboré par Hidrotécnica portuguesa, Del Hydraulics, Ambio et Hidrotécnica Maroc).
- EL GHACHTOUL (Y) et BAKHRI (A.) 1990 «Qualité de l'eau du bassin côtier méditerranéen entre Tétouan et Fnideq». Eau et Développement (Revue) Rabat. N° 10. pp. 72 - 83.
- GARCIA FIGUERAS (Tomas) 1953 «los municipios en nuestra zona del Protectorado marroquí» in : «Miscelánea de estudios varios sobre Marruecos» Tetuán - pp 183 - 201.
- GUTIRREZ TRUJILLO (Emilio) 1943 - «Evolución y desarrollo futuro de la población de Tetuán».
- Ilustre Ayuntamiento de Ceuta «Anuario Estadístico de Ceuta 1992».
- JAAIDI (E.B) et autres - 1993 «Le littoral méditerranéen entre Tétouan et Ceuta et atlantique entre Tanger et Asilah. Impact des aménagements portuaires sur la dynamique côtière : cas des ports de M'diq, Restinga -

- Smir, Tanger et Asilah**» in «Aménagement littoral et évolution des côtes. L'environnement des côtes marocaines en péril» Pub. du Comité National de Géographie du Maroc - Rabat - pp. 21 - 33.
- LOUAH (Annas) et autres 1993 **«Recherches hydrobiologiques et écologiques sur le complexe des marais de Restinga - Smir : une contribution à la connaissance faunistique et écologique»** in «Aménagement littoral et évolution des côtes, l'environnement des côtes marocaines et péril» Pub. du Comité National de Géographie du Maroc - Rabat. pp. 35 - 40.
 - M.H.A.T. Dir. de L'Urbanisme et de l'Architecture (Rabat) 1984 **«Schéma Directeur d'Aménagement Urbain de Tétouan»**.
 - Min. de l'Economie Nationale. Div de la coordination économique du Plan. Service Général des statistiques (Rabat) 1962. **«Population rurale du Maroc. Recensement Démographique (Juin 1960).**
 - Min. du Plan, de la Formation des Cadres et de la Formation Professionnelle. Dir. de la Statistique (Rabat). 1983 **«Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H. de 1982»**.
 - Min. du Plan. Dir de la Statistique (Rabat) 1984 **«Population rurale d'après Le R.G.P.H. de 1982 - Région du Nord- Ouest»**.
 - Min. de l'Intérieur - Province de Tétouan - Déc. 1991 - **«Plan d'Aménagement du centre autonome de Martil. Rapport justificatif (Variantes d'aménagement)»**.
 - Min. de l'Intérieur - Province de Tétouan - Déc. 1991 **«Plan d'aménagement du centre délimité de M'diq. Rapport justificatif (Variantes d'aménagement)»**.
 - Min. de l'Intérieur - Province de Tétouan - Déc. 1991 - **«Plan d'aménagement du centre délimité de F'nideq. Rapport justificatif (Variantes d'aménagement)»**.
 - Min. de l'Intérieur - Province de Tétouan - Juillet 1993 - **«Schéma Directeur d'Aménagement et d'Urbanisme du Littoral Touristique Tétouanais. Rapport préliminaire - Doc. N° 2»**.
 - Min. de l'Intérieur - Province de Tétouan (s.d.) **«Assainissement du littoral méditerranéen. Province de Tétouan»**.
 - Min. d'Etat à l'Intérieur et à l'Information. Wilaya de Tétouan. Juin 1994. **«Monographie»**.
 - Min. des Travaux Publics (Direction des Ports) 1990 - **«Le littoral de Tétouan. Expertise sédimentologique. (Rapport élaboré par L.P.E.E. Casablanca)**
 - Min. des Travaux Publics, de la Formation Professionnelle et de la Formation des Cadres - Dir. Provinciale de Tétouan - Août 1994 - **«Réalisation durant les années 1984 à 1993 et perspectives d'avenir»**

- Office d'Exploitation des Ports - 1994 - «**Port M'diq**».
- Premier Ministre - Dél. au Plan et au Développement Régional - Div. des statistiques (Rabat) 1972 - «**Résultats du Recensement de 1960. Vol. N° 3**».
- Premier Ministre - Secrétariat d'Etat au Plan et au Développement Régional. Dir. des statistiques (Rabat) 1971 - «**Population légale du Maroc d'après le R.G.P.H. de 1971**».
- Premier Ministre - Secrétariat d'Etat au Plan et au Développement Régional. Dir. de la Statistique (Rabat). 1973 - «**Population rurale d'après Le R.G.P.H de 1971**».
- Premier Ministre - Secrétariat d'Etat au Plan et au Développement Régional - Direction de la Statistique (Rabat). 1977. «**Résultats du R.G.P.H. de 1971 - Données Communales. Région du Nord - Ouest**».
- Premiet Ministre - Ministère des Affaires Economiques et Sociales - Direction de la Statistique (Rabat) 1993 «**Données communales de 1992. Fiches des localités urbaines. Région Economique du Nord - Ouest**».
- Premier Ministre - Ministère chargé de la population Direction de la Statistique (Rabat) 1995. «**Population légale du Maroc d'après Le R.G.P.H. de 1994**».
- Presidencia del Gobierno - Instituto Nacional de Estadístico (Madrid) 1946 «**Zona del Protectorado y de los territorios de soberanía de España en el norte de Africa : Anuario estadístico. 1945**»
- RUIZ ALBENIZ (Victor) - 1930 - «**Monografía sobre colonización rural en Marruecos español**». Madrid.

— مجموعة البحث الجغرافي حول جبال الريف — 1995 — «الساحل التطواني». منشورات جامعة عبد المالك السعدي. تطوان.

— وزارة السكنى وإعداد التراب الوطني — مديرية التعمير والهندسة المعمارية — قسم التخطيط الحضري — غشت 1983 — «التصميم التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة تطوان، مرتيل، والمضيق، ملخص التقرير الشمولي للمرحلة الأولى من التصميم».

ملخص

يهدف المقال إلى إبراز التباين الواضح والخلل الكبير اللذان يطبعان تنظيم مجال الساحل التطواني الشمالي على مستوى المراكز الحضرية : مرتيل والمضيق والفنيدق والمجالات المحاذية لها. ذلك أن الوسط الطبيعي عطوب وغير مستقر، والتوسع العمراني الحضري يتصف ببعده عن التخطيط وتنافره الشديد ونقصه الذريع على مستوى الأنشطة الاقتصادية والتجهيزات الجماعية، كما أن المجالات «الريفية» تتخبط في دوامة من المشاكل الناجمة عن اختلال السير الوظيفي لمكوناتها الطبيعية والبشرية. وعلاوة على ذلك، فإن رغبة المسؤولين في جعل السياحة قاطرة للتنمية في المنطقة، لم تؤد إلى نتائج مرضية، بل ساهمت في استفحال مظاهر التدهور البيئي الذي مس المجالات الخلفية والشاطئية، بل حتى الوسط البحري.

لذا، فإن المقال يعتمد كذلك إلى رصد جملة من تدخلات المصالح المختصة التي كثيرا ما كانت لها بدورها عواقب وخيمة على صعيد الوسطين الطبيعي والبشري، حيث لم يتم إلى حد الآن، نهج سياسة تنموية شاملة تأخذ بعين الاعتبار كل مكونات المجال، في إطار تفاعلاتها المتعددة والمتشابكة، إذ أن تدخل هاته المصالح، على الرغم من اتخاذ أشكال عديدة، لم يستطع معالجة المشاكل المطروحة إلا بشكل جزئي للغاية.

TRANSFORMACIONES SOCIALES, ECONOMICAS Y ESPACIALES EN LOS CENTROS URBANOS (MARTIL, M'DIQ Y F'NIDEQ) DEL LITORAL TETUANÍ Y LOS ESPACIOS COLINDANTES

Nour eddine CHIKHI Y Mohamed EL ABDELLAOUI

Facultad des Letras — Tetuán

RESUMEN :

El objeto que pretende el presente artículo es poner de relieve la enorme disparidad y el gran desequilibrio que caracterizan la organización espacial del litoral norte de Tetuán a nivel de los centros urbanos : Martil, M'diq et F'nideq y sus respectivos espacios colindantes.

En efecto, el medio natural es conocido por su fragilidad e inestabilidad y la extensión urbana se caracteriza por la ausencia de planificación, por la heterogeneidad, así como por la insuficiencia notable de actividades económicas y equipamientos colectivos.

En cuanto a los espacios «rurales» periféricos, la situación es muy delicada, ya que conocen serios problemas y en particular debido a las repercusiones de la perturbación que ha afectado el funcionamiento de sus componentes naturales y humanas.

Además, la voluntad de los responsables de hacer del Turismo una actividad locomotora del desarrollo de la región, no ha llevado a buenos resultados. Al contrario, esa actividad ha acentuado la degradación del medio ambiente, no solo en trastierra y en la costa, sino también, en el entorno marítimo.

Esta contribución intenta también dar fe de numerosas intervenciones llevadas a cabo por instancias responsables ; sobre todo por los efectos perversos que éstas tenían a nivel medio-ambiental, tanto en el plano social como natural.

Es de notar que ninguna política de desarrollo global, que tomara en consideración todas las interacciones de las diferentes componentes del espacio, ha sido llevada a cabo hasta ahora. En más las intervenciones — aunque bajo formas diversas — no han logrado más que soluciones, parciales, a los problemas planteados.

TRANSFORMATIONS SOCIALES, ECONOMIQUES ET SPATIALES DANS LES CENTRES URBAINS (MARTIL, M'DIQ ET F'NIDEQ) DU LITTORAL TETOUANAIS ET LES ESPACES AVOISINANTS

Nour eddine CHIKHI et Mohamed EL ABDELLAOUI

Faculté des Lettres — Tétouan

RESUME :

Le but de cet article est de mettre en évidence l'énorme disparité et le grand déséquilibre qui marquent l'organisation de l'espace du littoral Nord de Tétouan à l'échelle des centres urbains : Martil, M'diq et F'nideq et leurs espaces avoisinants. En effet, le milieu naturel est marqué par sa fragilité et son instabilité, l'extension urbaine se caractérise par l'absence de planification, par l'hétérogénéité, par l'insuffisance remarquable en activités économiques et en équipements collectifs. Quant aux espaces «ruraux» des alentours, leur situation est très délicate. Ils connaissent des problèmes énormes ; surtout les répercussions de la perturbation qui a affecté le fonctionnement des composantes naturelles et humaines des espaces en question.

En outre, la volonté des responsables de faire de l'activité du tourisme la locomotive pour le développement de la région, n'a pas abouti à des résultats souhaités. Mais, par contre, elle a accentué la dégradation de l'environnement non seulement dans l'arrière-pays et dans la côte mais aussi dans le milieu maritime.

Cette contribution tente, aussi, à faire le constat de nombreuses interventions menées par des instances concernées, surtout qu'elles avaient, généralement, des effets pervers, aussi bien au niveau de l'environnement social que naturel. Il est à noter qu'aucune politique de développement global – qui prend en considération toutes les interactions des différentes composantes de l'espace – n'y a été menée jusqu'à présent. Toutes les interventions, même si elles prennent des formes diverses, n'ont pu trouver que des solutions très partielles aux problèmes posés.

خطة القضاء بالأندلس على عهد المرابطين من خلال «نوازل الأحكام في مذاهب الحكام»

ذ. محمد الصمدي

كلية أصول الدين بتطوان
أستاذ سابق بكلية الآداب بمراكش

كانت لشخصية القاضي في المجتمع الأندلسي حضور فعلي في معالجة الوقائع الاجتماعية التي عرفت بها الأندلس خلال الحقبة المرابطية، وقد احتفظت لنا المصادر بمجموعة من الصفات والمؤهلات التي تميز بها قضاة الأندلس، فما هي هذه الصفات والمؤهلات، وكيف كان القاضي يمارس مهامه ؟ وماهي اختصاصاته ؟.

1 - شخصية القاضي :

كانت للقاضي شخصية قوية باعتباره المرجع الأساسي الذي يرجع إليه في تحديد الأحكام والإفتاء في النوازل، والفصل في المنازعات، وكانت لشخصيته القوية هذه مساهمة فعالة في كافة المجالات الاجتماعية، ونظراً لمكانته العلمية العالية، فقد اعتبر مصدر إفتاء عنه تصدر الفتاوى في مختلف القضايا. وقد أجمعت المصادر على مشاركة القضاة في المجال السياسي؛ حيث مهدوا بجزء المرابطين إلى الأندلس، وحث ملوك الطوائف على الاستعانة بإخوانهم في العدو من أجل دفع الخطر المسيحي، وكان من بين هؤلاء القضاة الذين وفدوا على المغرب أبو جعفر القليعي⁽¹⁾ قاضي غرناطة في عهد أميرها عبد الله بن بلقين، وأبو بكر عبد الله

(1) المراكشي، البيان المغرب، ج 4، ص 132.

بن أدهم قاضي الجماعة بقرطبة. وكان للقاضي دوره في معركة الزلاقة، وذلك بإثارة حماس الجند وحثهم على القتال والصبر والثبات في المعركة.

2 - خصاله :

حددها الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي في كتابه «المراقبة العليا» في عشرة شروط، وهي الإسلام، والعقل، والذكورية، والحرية، والبلوغ، والعدالة، وسلامة الحواس. وبعد ذلك قال : «وإن فقد شرط من هذه الشروط الخمسة الأولى يبطل الحكم». ثم ذكر أن هناك شروطاً كإلية، كأن يكون غير محدود ولا مطعون عليه في نسبه بولادة اللعان أو الزنا، ولا فقير، ولا أُمي، ولا مستضعف وأن يكون فطنا مهيباً، نزيهاً، حليماً، مستشيراً لأهل العلم والرأي⁽²⁾.

3 - صفاته :

ينبغي للقاضي أن يتميز بأخلاق عالية فيكون صالحاً عطوفاً صاحب حياة بسيطة وأن لا ينسبط لحد ما مع الفقهاء والأعوان⁽³⁾ كما يحسن أن يعالج نفسه ويجتهد في إصلاحها، ويحملها على آداب الشرع ما أمكن مع إظهار المروءة وعلو الهمة والاجتهاد في جلال الهيئة وحسن النطق والصمت، وليكن ضحكة تبسماً فقط، كما ينبغي له أن لا يقبل الهدية، ولا يخرج مع أحد حاشيته حتى لا تسقط هيئته، وأن يتثبت في جميع أموره ولا يعجل بقول ولا فعل إلا بعد روية، ولا يكون كثير البطالة ولا مائلاً إلى الراحة⁽⁴⁾ مع الميل الكثير إلى مجالسة الفقهاء كل يوم للتشاور على أن لا يتعدى المجلس أربعة اثنين من مجلس القضاء واثنين من مجلس الجامع مع كل يوم⁽⁵⁾، وعليه أن يجلس في المجلس متربعا مستقبلاً القبلة وأن لا يجلس على حالة تشوش البال من جوع أو ظمأ أو نعاس... وأن يكون مسكنه وسط البلد حيث لا يشق على الناس القصد إليه — وهو ما يقصد به في عصرنا

(2) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص 4 و5.

(3) عياض، ترتيب المدارك. ج 4، ص 667.

(4) الونشريسي، كتاب الولايات في الخطط الشرعية ص 18.

(5) ع. خلاف، قضاة قرطبة. ص 322.

هذا تقريب الإدارة من المتقاضين — وعليه أن يجعل للنساء مجلسا وللرجال مجلسا وأن يتخذ لأهل الذمة يوما أو وقتا ويجلس لهم في غير المسجد⁽⁶⁾. هذه بعض الصفات التي يجب أن يتصف بها القاضي. أما أعوانه فقد حدد عددهم «ابن عبدون» في إشبيلية بعشرة؛ أربعة سودان برابر لحقوق المرابطين، وغيرهم من المثلثين والباقي أندلسيون⁽⁷⁾.

4 — اختصاصات القاضي وأنواع الشكايات :

قال ابن سهل : «وعلى القاضي مدار الأحكام وإليه النظر في جميع وجوه القضاء»⁽⁸⁾ وقال النباهي «وحدود القضاة في القديم والحديث معروفة لا يعارضون فيها ولا تكون إلى غيرهم من الحكام وقد عددها علي بن يحيى، وفسرها في كتابه فقال : «ويشمل نظر القاضي عشرة أحكام أولا، قطع التشاجر والخصام بين المتنازعين إما بصلح عن تراض، وإما بإجبار الحكم. ثانيا : استيفاء الحق لمن طلبه. ثالثا : إلزام الولاية للسفهاء والمجانين والتحجير على المفلس، رابعا : النظر في الأحباس، خامسا : تنفيذ الوصايا، سادسا : تزويج الأيامي، سابعا : إقامة الحدود،

(6) الونشريسي، المصدر السابق ص 21.

(7) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص 9.

(8) ابن سهل، نوازل الأحكام في مذاهب الحكام، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 1728 د، وهناك نسخ أخرى تحمل أرقاما مختلفة بينها اختلاف في الشكل والخط وعدد الصفحات، وتاريخ النسخ، صاحبها هو القاضي أبو الأصبع عيسى ابن سهل الأسدي أصله من جيان من البراجلة سكن قرطبة وتفقه على عدد كبير من الفقهاء من أمثال أبي محمد بن أبي طالب وأبي عبد الله محمد بن عتاب المتوفى سنة 462 هـ وابن القطان م سنة 460 هـ وأبي مروان بن مالك المتوفى سنة 436 هـ وأبي القاسم بن محمد وأبي زكريا القليعي وغيرهم. وكان مرجلة الفقهاء وكبار العلماء حافظا للقرآن الكريم ذكرا للمسائل قصد ما في معرفتها ولي القضاء مبالغة ثم استقضى بغرناطة وتوفي مصروفا عن القضاء سنة 486 انظر ترجمته في المرقبة العليا للنباهي ص 96 — 97 والصلة رقم 942 والديباج 181 — 182. وعني بدراسة نوازل ابن سهل ونشر بعض نصوصها كل من محمد عبد الوهاب خلاف ضمن سلسلة وثائق نشرها تباعا، ط القاهرة 1980، 81 — 82 — 84. وكذا التهامي الزموري في مقال له بمجلة Hesperis - Tamuda عدد XIV 1973، ثم عيد الرحمان الفاسي في كتابه : خطة الحسبة بين النظر والتطبيق. ط دار الثقافة، البيضاء 1914.

ثامنا : النظر في المصالح العامة، تاسعا : تصفح الشهود وتفقد الأمانة واختيار من يرتضيه لذلك. عاشرا : التسوية في الحكم بين القوي والضعيف وتوخي العدل بين الشريف والمشروف»⁽⁹⁾

من خلال هذه الوظائف التي يلتزم القاضي بأدائها، ومن خلال الرجوع إلى كتاب «الأحكام الكبرى» لابن سهل وكتاب «المعيار» للونشريسي يتضح لنا أن هناك تطبيقا عمليا لهذه الاختصاصات تتمثل في القضايا والمنازعات الواقعية التي تتعرض لها المصادر، والتي كان المجتمع الأندلسي يعيشها. من هذه القضايا اخترت هذه الأمثلة التي تبين اختصاص القضاة وأنواع الشكايات وطرق الحكم فيها : فمثلا في الباب الأول من كتاب الأحكام الكبرى لابن سهل وهو «باب القضاء في مسائل الغائب» نجد أن القاضي يحكم في مسائل مختلفة ومتنوعة وأحكامه مستندة إلى آراء الفقهاء، لأنه يشاورهم ويأخذ بآرائهم، ولا يمكنه أن يتخذ أي قرار حاسم إلا بعد التشاور معهم. فمن القضايا التي أوردها ابن سهل : «قضية محمد بن أحمد الشرقي الذي غاب إلى العدو عن قرطبة، وخلف بها مملوكة فقامت عند الوزير صاحب الأحكام وذكرت أن سيدها غاب وتركها دون شيء تنفقه. فكلفها إثبات ما يجب إثباته إذ أنها شكت الجوع ودعت إلى بيعها ممن يمونها وينفق عليها... فأثبتت عنه ملك سيدها إياها وغيبته، وأنه لم يخلف لها شيئا تنفقه، ولا أرسل شيئا إليها. وأنها لا مال لها ولا أحد لها يعولها ويهتم بنفقتها وشاور صاحب الأحكام في ذلك الفقهاء. فأمرُوا ببيعها وبقبض ثمنها، للغائب. ويوقف هذا المبلغ عنده أو عند من يتق فيه»⁽¹⁰⁾ ومن ذلك أيضا : قضية توقيف ميراث غائب من ميت حاضر ثم ثبت موت الغائب قبل الحاضر. قال ابن سهل : «غاب علي بن أحمد بن سعيد المعروف بابن الجرار عن قرطبة أعواما وتوفي بعد مغيب ابن عمه محمد بن علي بن سعيد وورثته، وزوجه وأخته شقيقته وابنا عمه عبد الله بن أحمد بن سعيد والغائب علي، وثبت وفاة محمد وورثته عند القاضي ووقف حظ الغائب فقام عبد الله عند صاحب الأحكام يطلب الحظ الموقوف لعلي وقال : إن عليا توفي قبل محمد وأظهر إليه عقد تاريخه... ثم أتى بثلاثة عوام وذكر أنهم يعرفون

(9) النباهي، المصدر السابق، ص 5.

(10) ابن سهل، المصدر السابق، ص 2.

أحمد بن سعيد بعينه واسمه وأنه غاب منذ عشرة أعوام عن قرطبة... وأنهم سمعوا أنه توفي هناك... فشاور صاحب الأحكام في ذلك الفقهاء،⁽¹¹⁾ وقضية قسمة دار الوزير بن عامر بين ابنه الحاضر والغائب قال بن سهل : «أخبرني أبو عبد الله بن عتاب أن محمد بن أحمد بن بقي شاورهم في قسمة دار بن عامر المفصلة بداخل مدينة قرطبة، وقال أن ابنه الوحيد الحاضر قام عنده وأثبت ملكها إياهما وأنها مشتركة بينه وبين أخيه فلان الغائب في اشبيلية وإنها تحمل القسمة»⁽¹²⁾.

وفي مسائل القتل، قضية الظني الذي أصبح مقتولا في داره بقرطبة، وقام صاحب المدينة بالتحقيق في تلك القضية. ومسألة قتل بن فطيس زوجته رحيمة بنت عبد الرحمان بن عبد الله بن خالد بن سعيد وقد تولى التحقيق صاحب المدينة أيضا وأخذ برأي الفقهاء. وفي هذه القضية بين ابن سهل أن دوافع القتل هي الميراث⁽¹³⁾.

ومن القضايا التي تعرض لها بن سهل في باب القتل : قضية رجلين قتلا أختهما وشهد بذلك عليهما الشهود وكشف القاضي عن أمرهما فلم يختلف في أنهما قتلاها بتهمة اتهمها بها. ومن القضايا التي ذكرها ابن سهل أيضا وحكم فيها القاضي محمد بن أحمد : «أن نصرانية زعمت أن النبي عيسى عليه السلام هو الله وقالت كذب محمد فيما ادعاه من نبوة، وقضية الشهادة علي بن حمدون في عصره الخمر وبيعها وشهد الشهود بأنه يعصرها وبيعها ويشتريها ويدخرها ويجتمع إليه أهل الشر فسأل القاضي في ذلك الفقهاء»⁽¹⁴⁾.

هذا وقد استعرض ابن سهل في «أحكامه» في باب الطلاق قضايا كثيرة وبين دور القاضي في الوفاق بين الزوجين كما تعرض لدور القاضي واختصاصاته، وطرق أحكامه في باب مسائل الغائب وفي باب الأقضية وباب الشهادات وباب الاقرار وباب الشفعة وباب القسمة وباب الحبس وباب الاحتساب وباب الايمان والنذور

(11) ابن سهل، نفس المصدر السابق، ورقة 2.

(12) ابن سهل، نفس المصدر، ورقة 3.

(13) ابن سهل، نفس المصدر، السابق ص 243.

(14) ابن سهل، نفس المصدر السابق، ص 245.

وباب الوصايا باليتامى والأموال وباب مسائل العتق وفي باب النكاح وباب الحضانة وباب الطلاق وباب الحلف وباب البيوع وباب العيوب وغيرها.

من خلال سرد هذه القضايا يتضح لنا دور القاضي وكيف كان ينظر في القضية وشكل القضايا التي كانت ترد عليه وبقي أن نشير إلى إثبات طرق الحكم وأخذ أقوال المتهمين والشهود وطرق التأديب

5 - طرق إثبات الحكم :

كان المتهم يمثل أمام القاضي منفرداً ملتزماً للصمت، وكان القاضي ينظر في عدة قضايا يوميا ومن يتأخر يؤجل ويأخذ عن ذلك رقعة. ويذكر بن سهل على أن ضرب الآجال من القاضي اجتهد وليس حد محدود وإنما بحسب ما يقتضيه الحال.

واختلف الفقهاء في ضرب الآجال. وقال ابن سهل : «سمعت من يخبر عن القاضي أبي المطرف عبد الرحمان بن محمد بن بشر قاضي الجماعة بقرطبة أنه كان يضرب الآجال عشرة أيام ثم عشرة أيام ثم عشرة أيام»⁽¹⁵⁾ وكانت طريقة ضرب الآجال أن يكتب القاضي بيده قوله : «أجلنا فلان بن فلان في المدفع الذي ادعاه في الشاهدين الذين شهدا عليه بما ذكر في العقد الذي في أعلى هذا الكتاب بعد أن علمناه أو أعلمته بهما وبقبولي وبشوت ذلك عندي بشهادتهما»⁽¹⁶⁾.

وإن كتب عنه كاتب كتب : «أجل القاضي فلان بن فلان قاضي حاضرة كذا فلان بن فلان فيما ذهب إليه من أجل ماثبت عنده فلان بن فلان في العقد الواقع في بعض كذا الكتاب بعد معرفته بما فيه وبما ثبت الآجال»⁽¹⁷⁾.

فكان إذا وقف الشخص سألته بخذر وفهم قوله وأقوال الشهود الذين شهدوا له أو عليه. فيتعرف على كلا ملابسات القضية ثم يقارن بين هذه الملابسات في

(15) ابن سهل، المصدر السابق ص 20.

(16) ابن سهل، نفس المصدر السابق، ص 20.

(17) نفسه، ص 20.

حيطة وحذر وبعد ذلك يصدر الحكم. وكمثال في كيفية إثبات الحكم نسوق هذه القضية : «سئل ابن رشد عن رجل شهدت عليه البينة أنه قال أن النبي ﷺ خرج من المخرج الذي يخرج منه البول وثبت ذلك من قوله عند الحاكم. وهو ينكر ذلك ويكذب الشهود ويقول حاشا لله أن أقول هذا وشهد عليه أنه قال. اقرأ سورة يوسف بالعجمية وشهد آخر أنه قال : لعن الله العربية والذي أخرجها. وقال كل من شهد عليه بهذا ان الرجل لا يترك الصلوات وكثيراً ما يفعل الخير إلا ما سمعوا منه مما شهدوا به عليه :

فأجاب ابن رشد : «الواجب فيما شهد به على هذا الرجل الضعيف الدين... أنه قال ذلك... أن يسأل الشهود الذين شهدوا عليه بذلك عن الكلام الذي جر قوله وكان سبباً له وخرج عليه جواباً له. فإن تبين بذلك تبايناً لاشك فيه انه قصد بذلك إلى الاحتقار والتنقيض من شخص النبي ﷺ ولم يكن عنده مدفع في البينة التي شهدت عليه بذلك، وجب عليه القتل وان تبين أنه أراد بذلك سوى إثبات كونه من البشر ليس بملاك وجب عليه الأدب الموجه»⁽¹⁸⁾

فهذه القضية تبين على أن ابن رشد اعتمد على أقوال الشهود وعلى الأسباب التي جعلته يقول ذلك في الوصول إلى الحكم. وكان في متناول القاضي أن يجتهد في الحكم بالحبس وضرب الآجال وغير ذلك، قال القاضي عيسى أبو الأصبغ بن سهل : «وقد جمعنا أن القاضي له أن ينظر باجتهاد نظره بمثل هذا أو شبهه فزاد الله القاضي رشداً وتوفيقاً في النظر»

ومن القضايا التي أوردها ابن سهل في مسألة اجتهاد القاضي : أن امرأة ادعت على رجل أنه غرّب ولدها عليها وطلبت المرأة بحبسه حتى يعود الصبي»⁽¹⁹⁾ قال بن سهل : «وقد شهدنا نظره، القاضي — في ذلك ورأينا من لفظ الترجي وسلطته ما كان يجب في أدبه فضلاً عن حبسه»⁽²⁰⁾.

(18) الونشريسي، المعيار، ج 3 ص 352.

(19) ابن سهل، المصدر السابق، ص 36.

(20) ابن سهل، نفسه 36.

6 — طرق التأديب :

ورد في «الأحكام الكبرى» أن من قام بشكاية بغير حق ينبغي أن يؤدب وأقل ذلك الحبس ليندفع بذلك أهل الباطل⁽²¹⁾، وقال الونشريسي : «لا يجوز من التعزيزات إلا ما آمنت عاقبته غالبا وإلا لم يجز، وينبغي أن يقتصر على القدر الذي يظن ونزحاء جانبه ولا يزيد عليه».

وفي «العتبية» فمن قال لرجل ياسارق، يضرب خمسة عشر سوطا أو نحوه قال ابن رشد : «والتحديد في هذا ليس له أصل في الكتاب ولا في السنة وإنما فيه الاجتهاد بحسب القائل والمقول له. ولو قال رجل يامرائي عوقب بقدر ما يرى الامام علي قدر حال القائل والمقول له»⁽²²⁾.

7 — الشهادة :

قال ابن سهل : «ينبغي للقاضي أن يكتب شهادات الشهود بين يديه ولا يلحق الشاهد ويتركه على ماعنده من تعلم ولا بأس من أن يسأله عن تاريخ شيء إن احتاج إليه ولا يسأله ان يزيد في شهادته أو ينقص منها، وينبغي له أن يكتب شهادته واسم قبيلته ونعته ومسكنه ومسجده الذي يصلي فيه والشهر الذي شهد فيه والسنة ثم يوقع ذلك في حك عنده ثم يجعله في ديوانه لئلا تسقط للمشهود له شهادة فيزيد فيها أو ينقص» وأضاف ابن سهل أنه لا يجوز الشهادة على الخطوط⁽²³⁾ من خلال هذه القضايا التي استعرضناها تتضح لنا مظاهر الحياة الاجتماعية في كل من المغرب والأندلس على عهد المرابطين. وتبرز أهمية مخطوط ابن سهل «نوازل الأحكام في مذاهب الحكماء» في أن صاحبه عاش وشاهد تلك القضايا التي دونها، كما يصور لنا المخطوط مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية بأسلوب جيد تمتاز بالدقة والأمانة العلمية، يظهر ذلك من خلال مناقشته للقضايا والتعليق عليها. فهو يورد القضية بكل ملاساتها دون إغفال

(21) الونشريسي، المصدر السابق ج 2، ص 418.

(22) نفسه 2 / 418.

(23) ابن سهل، المصدر السابق ص 13.

أي جانب من جوانبها حيث يذكر أسماء المتخاصمين، وصفاتهم، وأسماء الشهود والقضاة والفقهاء الذين أفتوا في القضية وآراقهم وزمان ومكان القضية... وابن سهل لا يقف عند هذا الحد فحسب، بل يناقش فيرجح أو يرفض ويبدى برأيه في كل شيء. وبصفة عامة فالخطوط يمثل قيمة حضارية أندلسية لدى الباحثين المتخصصين.

حول فلسفة محمد بن مسرة القرطبي

ذ. عبد الواحد العسري
كلية الآداب — تطوان

(1) ولد محمد ابن عبد الله بن مسرة بن نجيح القرطبي بالأندلس،⁽¹⁾ ونشأ

(1) أ) وذلك في السابع من شعبان من سنة 269 هـ ولقد توفي بالأندلس في الرابع من شوال من سنة 310 هـ ولقد ذكره ابن عربي بنسبته إلى الجبل «روينا عن ابن مسرة الجيلي من أكبر أهل الطريق علما وحالا»، الفتوحات المكية، دار صادر بيروت، د.ت. ج 1 ص 148. ويمكن أن نقف على ترجمات متعددة له ب :

— بغية المتتمس في تاريخ رجال الأندلس للضبي، نشرة فرنسيسكو كوديرا وخوليان ريبيرا، مدريد، 1884، تر 163.

— جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، نشره زاهد الكوثري، القاهرة، 1951، تر 830. — المقتبس من أخبار أهل الأندلس لابن حيان، تح، بدرو شالميتا وفديريكو كورينتتي ومحمود صبح، مدريد 1979، ص 20 25.

— تاريخ علماء الأندلس، لابن الفرضي، نشره ف. كودير، مدريد، 1819. تر 20 12. ب) ولقد عرض إلى بعض آراءه، ابن حزم ضمن شنع المعتزلة في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل، بيروت، 1975، ص 198 - 200. كما أحال عليها ابن عربي بفتوحاته، س.ذ.ج، 1 ص 148 - 150. ويبلب الحروف كذلك.

ج) وفي ما يرجع إلى بعض الجوانب التاريخية المتعلقة بآراء ابن مسرة وبحياته وبمدرسته يراجع : — جعفر محمد كمال، من التراث الفلسفي لابن مسرة، القاهرة، 1982، ص 170 - 23. — الوزاد محمد، نشرة الفكر الفلسفي في الأندلس، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، آداب الرباط، مرقونة 52616 / 49 - 198.

— Asin Palacios, Miguel, Abenmassarra y su escuela. Origenes de la filosofia hispano musulmana, Madrid, 1914. reimpresso, in : tres estudios sobre pensamiento y misticos hispano - musulmanes, Madrid, 1992.

— Arnaldez, roger, E.I., II.p 892 - 896.

بها، وأخذ عن أبيه الذي عرفه باعتزاله⁽²⁾، وعن شيوخ ذوي مشارب دينية وفكرية متعددة ومختلفة⁽³⁾، ولقد غادر الأندلس - إلى حين - نحو القيروان والمشرق⁽⁴⁾، حيث ارتقى بين حلقات الدرس المختلفة بهما⁽⁵⁾. ولقد اشتهر بزهده وورعه⁽⁶⁾ وبعزلته عن الناس بأحد جبال المرية⁽⁷⁾ كما اشتهر بتعليمه لجماعة من المريدين للريضة الروحية، إلى جانب تمكينهم من تعليم عقدي وفلسفي⁽⁸⁾، تختلط

= Fierro bello, Maria, Isabel, La hectorodoxia en el Al - Andalus durant et periodo Omayya, I.H.A.C. madrid, 1987, p 113 - 118, 132 - 140, 166 - 186.

— Tornero, Emilio, Poveda, «nota el pensamiento de Abenmassarra», Alquantara, 6, 1985, p 166 - 168.

— Noticia sobre la publicacion de obras ineditas de Ibn Massarra» Alquantara, n, 14, 1993 p 47- 64.

Urvoy Dominique, «Sur les debuts de la pensée speculative en Andalus», Melanges de l'Université Saint - Joseph, L, pp. 707 - 15.

(2) ذهب أسين بلاثيوس إلى أن «عدوى عقلانية الاعتزال»، كانت قد أصابت ابن مسرة خلال مقامه بالمشرق، ومن جراء «صحبه تحليل الغفلة بالأندلس، فأفسدت سنية عقيدته».

Aben Massarra y su escuela, Tres estudios, op,cit, p 140.

(3) لاتذكر منهم المصادر الأندلسية، سوى الفقهاء السنيين المالكيين : محمد ابن وضاح، ومحمد ابن الحارث الخثني م.س.ص 41.

(4) يرى أسين بلاثيوس بأن محمد ابن مسرة، قد قام بهذه الرحلة لأداء مناسك الحج، وللإبتعاد عن متابعة السلطة الدينية الأندلسية له ولأتباعه، ضمن محاصرتها للانتفاضات الوطنية الإسبانية، م.س.ص 42 - 44 إلا أنه لم يثبت أبداً أن دخل ابن مسرة في مواجهة هذه السلطة، ناهيك عن أن الصراع الإجتماعي والسياسي بالأندلس في تلك الفترة، لم يكن يستجيب في نظرنا، إلى ماذهب إليه أسين بلاثيوس.

(5) من حلقات الدرس الديني الفقهي المالكي بالقيروان، إلى حلقات التعليم الصوفي والباطني بالمشرق، حيث اتصل - من ضمن من اتصل بهم - يأى سعيد بن العربي أحد أتباع «الجنيد»، الذي وضع كتابا دحض فيه آراء ابن مسرة، في التصوف العقلي ووحدة الوجود من موقع التصوف السني .Asin Palacios,op,cit.p 46..

ولانستبعد في هذا الإطار اتصال ابن مسرة «بعبد الله التستري»، الذي وضع بدوره، ردا عليه. جعفر كمال، س.ذ.ص 19 - 20.

(6) تجمع جميع المصادر والمراجع التي سبق ذكرها على ذلك.

(7) ولعل ذلك هو الذي أدى إلى تلقيه، بالجليل. انظر، 105.

(8) ذكر أسين بلاثيوس وجل دارسي ابن مسرة، بأن هذا الأخير قد تمتع بحس نقدي ملحوظ، مما أدى إلى الإقبال عليه، وعلى تعليمه بالجليل. ولقد كان يعني كذلك بالتدقيق في كتبه، حيث كان يقضي سنة كاملة في مراجعة أي كتاب منها. كما أنه لم يكن يسمح باستنساخها.

Asin Palacios, op,cit, p 48 - 49.

فيه آراء وأفكار متعددة ومختلفة أرجعها مؤرخين له ولمدرسته إلى أصول يونانية، ومسيحية - إسبانية، وشيعية - باطنية، ومعتزلية، مما أدى إلى تفجير النسق الفكري الخاص بابن مسرة⁽⁹⁾. فلم ينظر إليه إلا بوصفه تجميعا وتلفيقا لمختلف عناصر تلك الأصول المفترضة، ومما أدى كذلك إلى تغييب ابن مسرة عن دائرة القول الفلسفي في الأندلس، وإلى تقليص دوره الريادي في ذلك.⁽¹⁰⁾ ولا يخفى بأن الاختصار عند التأريخ للفكر، عن تتبع مؤثراته وتأثيراته، يؤدي بالضرورة إلى طمس خصوصية هذا الفكر، وإتلاف أصالته.

ولقد ارتبطت باسم ابن مسرة فرقة بالأندلس ما لبثت أن اختلفت فيه وفي تعليمه⁽¹¹⁾. فنسبت إليه أفكار وآراء متعددة ومتناقضة. يصعب جمعها في بوتقة واحدة وفي مشرب فكري محدد؛ مما يفسر في نظرنا، ذلك الغموض الذي اكتنف هذه الشخصية وأحاط بتراتها، ولاغرو في ذلك، فالأبحاث التي اهتمت بابن مسرة وبتراته الفكري، لم تشتغل على نصوصه الأصلية - لافتقارها إليها - وإنما اشتغلت فقط على شذرات متفرقة من فكر الرجل أو مما نسب إليه⁽¹²⁾. غير أن ما يؤاخذ على مختلفها، هو عدم وقوفها عند اختلاف المسيرين في ابن مسرة وتعليمه، بالإضافة إلى عدم تحويلها لأية أهمية لهذا الاختلاف عند بلورتها لأحكامها في الرجل، وفي تراثه الفكري.

فمما لاشك فيه، أن ابن مسرة قد خلف تراثا فكريا، عبر عنه بواسطة جهد كتابي وجهد مسلكي. غير أننا مافتتنا نفتقر إلى أجزاء من الجهد الأول⁽¹³⁾، إلى جانب افتقارنا إلى مختلف الاستخدامات، والردود التي استصدرها هذا

(9) نفترض من جهتنا، وجود هذا النسق، الذي سنعنى بالنظر في جزء منه بهذه الورقة.

(10) ذهب إلى ذلك، سالم يافوت في كتابه. ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس، الدار البيضاء 1986، ص 288 - 289.

(11) انظر، هامش، 26.

(12) نقف على جزء من هذا الاختلاف، وعلى أمثلة متعددة ودالة عليه بكتاب، الفصل لابن حزم، س ذ 188 - 200.

(13) من المعروف بأن ابن مسرة كان قد وضع كتابا بعنوان «توحيد الموقنين»، لم يقف عليه - في حدود علمنا - أحد لحد الآن.

الجهاد⁽¹⁴⁾. كما أننا مازلنا نتوق إلى شهادات مفصلة وكافية عن تراثه المسلكي في الزهد والتصوف اللذين اشتهر بهما، وعرف بهما تلامذته وأتباعه.

غير أن ذلك التراث بمختلف مكوناته، وإلى ما يخضع بعد إلى مراجعات نقدية متعددة وكافية، فلقد كان موضوع دراسات محدودة عددا وعدة، تتضارب قيمتها وتختلف أهدافها واستراتيجيتها.⁽¹⁵⁾ لذلك سنعنى في هذه السطور بمراجعة بعض التصورات والأحكام التي نسجتها هذه الدراسات حول ابن مسرة وفلسفته، كما سنعنى بالنظر في جزء من هذه الفلسفة، بالقدر الذي سيعيننا على مراجعة تلك التصورات.

2) لقد بلور المستشرق الألماني الكبير «ميغل أسين بلاثيوس» دراسة وافية، مستفيضة حول ابن مسرة ومدرسته الفكرية بالأندلس. ولقد تم ذلك ضمن همومه القومية - الإسبانية، وضمن انشغالاته الدينية المسيحية بالفكر الإسلامي الأندلسي، من حيث كونه بالنسبة إليه جزءا من الفكر اليوناني، والفكر المسيحي الإسباني، ليس لبوسا إسلاميا وعربيا. ولقد عمل مستشرقنا - نظر لعلم توفره

(14) أ - لقد أفاد كثير من مفكري وصوفية الإسلام من أجزاء من التراث المسيحي. ذكر منهم «هنري كوربان»: «أبو العباس ابن العريف»، و«أبو بكر الميوري»، و«ابن برجان».

Henri Corbin, Histoire de la philosophie, Paris, 1964, p 311.

ب - ولقد ذهب أسين بلاثيوس، إلى أن مدرسة ابن مسرة «لم تختف بموته». «واستمرت أكثر من مائة سنة». أما أفكار ابن مسرة، فلقد كان لها تأثير بالغ في أوساط متصوفة الأندلس.

Asin Palacios, op.cit p 114 - 139. 140 - 169.

وبصفحات متعددة من الفتوحات المكية، نقف على آثار متعددة لابن مسرة «روينا عن ابن مسرة الجبلي (...) العرش المحمول هو الملك وهو محصور (...) ما يقاربه قول ابن مسرة فقيـل الواحد على صورة الانسان...» س.ذ.ص 148 - 149.

ج - ولقد أثارت كتب ابن مسرة سواء بالأندلس أو بالشرق الإسلامي، حفيظة وأقلام كثير من فقهاء ومتصوفة الإسلام، نذكر منهم، المتصوف «سهل ابن عبد الله التستري»، والفقيه «أحمد بن خالد» المعروف بالحباب، واللغوي «الزبيدي»، و«أبو عمرو الطلمنكي» الذي عنون دحه لفكر ابن مسرة، بالرد على الباطنية. كمال جعفر، س.ذ.ص 19.

Asin Palacios, op.cit. p 34 - 46.

Fierro Bello, op.cit, p 113.

(15) سبق أن ذكرنا بعضا منها في ج. من هامش، 1.

على النصوص الفكرية لابن مسرة - على تأسيس فلسفة الرجل ومدرسته، بالرجوع إلى عدة مجالات فكرية وتاريخية متعددة. فمن جهة رجع إلى الفكر اليوناني القديم، وبالضبط إلى التراث الإنباز وقل المتحل منه. ومن جهة ثانية، رجع إلى ما استطاع أن يضع يده عليه، من ذكر لشذرات من فكر ابن مسرة، في فصل ابن حزم وفي فتوحات ابن عربي⁽¹⁶⁾، ومن جهة ثالثة، رجع إلى حياة ابن مسرة المسلكية والروحية بالأندلس التي ربطها بالتراث الفكري والمسلكي الإيبيري القديم. ولقد أنجز ذلك بواسطة منهجية استشرافية وضمن فلسفة أوروبية للتاريخ ولتاريخ الأفكار⁽¹⁷⁾.

بذلك دشّن أسين بلاثيوس مختلف الأبحاث والدراسات التي اهتمت بمفكرنا وبتراثه الفلسفي. ولقد كان لهذا التدشين - وما فتىء - أثر بالغ في مجموعها. فلم يكن بوسعها ألا تنطلق من تلك الدراسة، ولا أن ترق إلى مستوى مراجعة التصورات التي بلورها أسين بلاثيوس حول ابن مسرة وتراثه الفكري. ولو أن بعضها قد عاب منتقدا على مستشرقنا بعض أحكامه التي استجابت إلى رغباته العرقية والدينية.

في هذا الإطار تندرج أغلب المحاولات الإستشرافية التي اهتمت بابن مسرة وبتراثه⁽¹⁸⁾ ويمكن أن ندرج بصفة نسبية وجزئية جل الأبحاث العربية التي

(16) إحالات أسين بلاثيوس في هذا الصدد على الفتوات المكية، وعلى فصول الحكم أكثر من أن تحصى، وخاصة في الفصل الذي عنوانه «بعقيدة ابن مسرة الكلامية».

(17) ولقد سبق أن راجعنا تلك المنهجية وتلك الفلسفة عند أسين بلاثيوس وعند غيره من المستشرقين الإسبانين، ببحث آخر لنا في ابن مسرة بعنوان، «محمد ابن مسرة القرطبي في الاستشراق الإسباني الحديث».

(18) نستنتي من ضمن هذه المحاولات، مقالة «دومنيك إيرفوا» عن بدايات التأمل الفكري بالأندلس. ففيها أوضح أن الأكسيومات التي انطلق منها أسين بلاثيوس ليشيد قراءته لابن مسرة ولل فكر الإسلامي، (عدم كفاية الإسلام في حد ذاته، ومن دون المؤثرات الهلينية والمسيحية لإنتاج أي خطاب فلسفي أو صوفي)، هي أكسيومات فاسدة ومتجاوزة. لذلك حاول إرفوا أن يستدل على أن العكس هو الصحيح. ولقد تم ذلك بالدفاع على الأطروحة المركزية لتلك المقالة (تجدر التراث المسري في الحياة الدينية الإسلامية الأندلسية). وتجدر الإشارة إلى أنه لم يعتبر ابن مسرة، ممثلا حقيقيا لتلك البدايات، التي لن تتحقق - في نظره - إلا مع ابن جبريول.

تناولت نفس المفكر ونفس التراث. غير أن ذلك لا يطعن فيها ولا يعيبها أبداً، من حيث كونها محاولات تأطرت باستراتيجيتها وبظروف تكوينها.

3) لقد تناول «الوزاد محمد» في رسالته عن نشأة الفكر الفلسفي بالأندلس، بداية تشكل القول الفلسفي بتلك البلاد على يد ابن مسرة. فضمن هذا الهدف عمل على تتبع مختلف شذرات الفكر المسري التي احتفظت بها بعض المصادر ومختلف الشهادات التي تضمنتها عن هذا الفكر وعن صاحبه،⁽¹⁹⁾ ليخلص إلى أن الحديث عن وجود فكر مسري، حديث يتمتع بكفايته وبمشروقيته النظرية والتاريخية.

فلقد شكل هذا الفكر، نسقا فلسفيا أندلسيا متميزا وخصوصا. وذلك بتضمنه لعناصر فكرية مختلفة⁽²⁰⁾ وبتمتعه بخصوصية في التركيب الداخلي لمختلف هذه العناصر.

ولقد عمل الوزاد على استخلاص مختلف المفاهيم الأساسية التي انتظمت هذا التركيب، وهي : الله والانسان والعالم⁽²¹⁾. وعلى الوقوف عندها ومعالجتها. كما عمل من جهة أخرى على وصل هذا النسق بإطاره التاريخي المتميز، ليخلص كذلك إلى أن وجود هذا النسق في حد ذاته يعبر بالفعل عن بداية تكون الفكر الفلسفي بالأندلس. ولقد تجلت هذه البداية في اعتماد ابن مسرة للمنهج الميتافيزيقي الذي تجاوز به المنهج التسليمي الفقهي والمنهج الكلامي الباهت والمحدود. ليشكل بذلك - في نظر الوزاد - قطيعة نظرية مع الفكر الديني بالأندلس⁽²²⁾، ثم إن

(19) من هذه المتن، «الفصل» لابن حزم و«الفتوحات» لابن عربي و«تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي. ونظرا لأن الوزاد اعتبر الإنباذ وقلية المنتحلة أصلا من أصول الفكر المسري، فلقد رجع كذلك إلى : طبقات صاعد الأندلسي وإلى ملل الشهرستاني وإلى روضة الأفراح للشهرزوري.

(20) إنباذ وقلية منتحلة واعتزالية وصوفية.

(21) الله : متوتر بين الذات والصفات... العالم : هو المقابل الرئيسي للوجود الالهي تحكمه معاني متعارضة، الروح المادة. الوجود العلوي الوجود السفلي... الإنسان : مفهوم وجودي يضم معاني العالم المتعارضة، النفس الجسم... «الوزاد س.ذ.ص 140.

(22) الوزاد س.ذ.ص 143 وما يدل على وقوع هذه القطيعة في نظر الوزاد، هو قول ابن مسرة بأزلية العالم وخلود الروح. وهذا القول لا تؤكد رسالة الاعتبار ولا رسالة الحروف لابن =

ذلك النسق يعبر في حد ذاته كذلك عن بداية تشكل إيديولوجية المعارضة الأندلسية على الصعيد النظري. وهي ذات المعارضة التي بلورت من جهة، مطامح الفئات الصاعدة اقتصاديا والتي لم تكن قد حظيت بأية مكانة سياسية داخل النظام الأموي الأرستقراطي والإستبدادي. كما عبرت من جهة ثانية على رغبات الفئات الدنيا التي كانت قد أخفقت ثوراتها المتعددة خلال القرن الثالث الهجري⁽²³⁾.

ولقد انتهت دراسة الوزاد لابن مسرة وفلسفته إلى تحقيق فرضياتها الأساسية، وإلى انتزاع موضوعها من قبضة أسين بلاثيوس⁽²⁴⁾، ورده إلى فضائه العربي والإسلامي الأندلسي. ولقد كان يمكن لهذه الدراسة أن تضمن لهذا الرد ولتختلف أطروحاتها، الاستدلال الكافي والضروري، لو كتب لها أن تتناول بحس نقدي أجزاء من التراث الفكري المسري الذي لم يعرف النور إلا بعد ظهورها بزمن غير قصير⁽²⁵⁾. ولو عملت كذلك على تجنب بعض الإستنتاجات السريعة التي أملاها عليها في نظرنا افتقارها إلى ذات الأجزاء، واستجابتها إلى تفسير مادي للتاريخ ولتاريخ الأفكار. ولا يعب هذا الأمر - أبدا هذه الدراسة، فما فتئت تحتفظ براهنيتها في تاريخ الفكر الإسلامي الأندلسي. وما زالت تقدم لأي باحث في ابن مسرة وفي تراثه الفكري، إمكانية الانخراط في استراتيجيتها الجريئة وتطويرها.

4) تطرق سالم يافوت إلى الفكر المسري، عند معالجته لإشكال ظهور الفكر الفلسفي وتطوره بالغرب الإسلامي. ولقد اتخذ من هذا الفكر، نموذجا لمجموع الأفكار والرغبات التي عمل الغرب الإسلامي على محاصرتها تاريخيا، ورفضها معرفيا، لكي يتفرغ إلى إنتاج درسه الفلسفي الخاص به والتميز عن نظيره المشرقي،

= مسرة. ثم إن مفهوم القطيعة، من المفاهيم التي كانت تتداول - خلال إعداد الوزاد لرسالته - في أوساط الدرس الفلسفي بأداب الرباط بشكل موسع ورحب ومتسامح، ليعبر بذلك عن بداية انفتاح هذا الدرس على مكتسبات الإستمولوجيا المعاصرة واستفادته منها.

(23) هذا هو مايفسر في نظر الوزاد، جمع الإيديولوجية المسرية بين الدعوة لحرية الفعل الإنساني والممارسة الصوفية الفردية. ص 145.

(24) بمحاولة إعادة تأسيس النسق الفكري المسري على ضوء خصوصية تركيبه الداخلي، إلى جانب رفضها للأحكام العرقية والدينية لهذا المشرق.

(25) ونقصد بذلك : رسالة الاعتبار وكتاب الحروف، تحقيق وتحليل ونقد، جعفر محمد كمال، القاهرة، 1982.

فيما يخص الأساس المعرفي الذي انتظمه؛ دعم العقل للنقل ورفض الغنوص. غير أن يافوت لم يكن ليستطيع الإطلاع على أي جزء من أجزاء الفكر المسري في مضانته الأصلية، مما سوغ له اعتماد مختلف الشهادات التي وردت متفرقة عن ابن مسرة، عند «صاعد الأندلسي» وعند «ابن حزم» و«القفطي» و«ابن عربي» و«ابن الفريسي» وأسبن بلاثيوس وغيرهم. ولقد خلاص يافوت، بتفكيك هذه الشهادات وإعادة بنائها، إلى أنه قد أصبح من قبيل المؤكد أن أفكار هذا الأخير (ابن مسرة) ذات طابع شيعي مشوب بالإعتزال والغنوص⁽²⁶⁾، تحتل فيها «الانباذو قليلة المنحولة».. عنصرا وركيزة تستند إليها⁽²⁷⁾، كما أن تحليل أفكاره (!؟) يوقف الباحث على أصول باطنية يستند إليها مذهبه⁽²⁸⁾، في هذا الصدد ربط يافوت ابن مسرة بالهرمسية التي كانت قد رسخت تصورا يعتبر أن معرفة الذات الإلهية لا تتم إلا بتخطي مستوى العقل، لأن السبيل الوحيد لمعرفة هو التطهر الذاتي⁽²⁹⁾.

وهكذا أضحي ابن مسرة على يد سالم يافوت، ممثلا لفكر أندلسي عمل على الانفتاح بصفة إيجابية على نظيره المشرقي، نظرا لاستعداد الأندلس في مرحلة متقدمة من تاريخها السياسي والمعرفي للتعامل مع هذا النظر. إنه ذلكم الفكر الذي سينتظم

(26) سالم يافوت، ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس، الدار البيضاء 1986. وتجدر الإشارة إلى أن ابن حزم - الذي عول يافوت كثيرا على شهادته في هذا الصدد - لا يصف ابن مسرة ضمن شئع الشيعة، وإنما ضمن شئع المعتزلة. الفصل. سذ.ج.4، ص 198. ثم إن شهادة هذا الأخير في فصله لاتنصرف في الواقع إلى ابن مسرة، بقدر ماتنسحب على عناصر من أتباعه، أو بالأحرى ممن نسبوا إليه. ثم إن ابن حزم، صاغ تلك الشهادات بشكل متحفظ ودقيق. «وكان ينسب هذا القول إلى محمد بن عبد الله بن مسرة ويحتج بألفاظ في كتبه ليس فيها لعمرى دليل»... «وقد رأينا منهم (المسرية) من ينسب هذا القول (اكتساب النبوة). إلى ابن مسرة ويستدل على ذلك بألفاظ كثيرة في كتبه وهي لعمرى لتشير إلى ذلك. ورأينا سائرهم ينكر هذا. فإله أعلم». م.س. 199.

(27) سالم يافوت. س.ذ.288.

(28) م.س. 254.

(29) م.س. 284.

داخل دائرة النظام المعرفي العرفاني⁽³⁰⁾ ليعبر بذلك عن مرحلة سابقة لمرحلة ظهور الفكر الفلسفي الحقيقي بتلك البلاد، الذي سينتظم بدوره داخل دائرة النظام المعرفي البرهاني.

(5) إن أهم دراسة عربية لتراث ابن مسرة الفكري، هي تلك التي خصه بها، محمد كمال جعفر. فلقد عمل على تحقيق ونقد وتحليل رسالتين لابن مسرة. رسالة الاعتبار ورسالة الحروف. غير أن هذا التحليل لم يتجاوز عتبة استخراج الأفكار الأساسية للرسالتين، وتفسيرها وتقديمها إلى القارئ وتقرئها إليه. بينما انصب ذلك النقد على مقارنة هاتين الرسالتين بكتب أخرى، وذلك بقصد البحث عن أصولها وعلى تأثيراتها بدورها في نظيراتها، لتضمن بذلك استمرارية تعاقب التأثير والتأثر وديمومتها.

لقد عمل كمال جعفر على تجزئ ما حققه، وأخرجه من نصوص لابن مسرة إلى أجزاء متعددة، وإلى عناصر مختلفة، ليسر لنفسه ذلك الغرض الذي توخاه بمجموع عمله. هكذا وجد أن تلك الأجزاء ترجع في مجملها إلى كتاب الحروف لسهل بن عبد الله التستري وإلى الإنباز وقلية المنتحلة⁽³²⁾ كما أن نفس العناصر توجد بشكل ضمني وصرح في جانب من التراث الفكري والصوفي لصاحب الفتوحات المكية. وبذلك تختزل رسالتي ابن مسرة في نصوص لعبت دور الوساطة بين الأصول والفروع. أي بين سهل التستري وابن عربي، ضامنة بذلك استمرارية تلك الأصول في هذه الفروع. واستمرارية الفكر الإسلامي بالمشرق في نظيره بالأندلس.

إن تفجير كمال جعفر لرسالتي ابن مسرة إلى أجزاء تعود في مجملها إلى سهل التستري، قد أدى به في نظرنا إلى تضييع إمكانية النظر إليهما من حيث كونهما تراثا فلسفيا خاصا بابن مسرة، اندرج داخل هموم وإشكالات فكرية ودينية

(30) نحن إذا أمام فلسفة فيضية هرمسية حرانية إسماعيلية انتشرت بالأندلس والقيروان ونحت بالفكر الفلسفي فيها منحى غنوصيا، عرف صيغته النهائية في فلسفة ابن مسرة «م» س 288.

(31) جعفر، س ذ ص 24 — 57.

(32) لقد عالج جعفر، إشكالات تضمن التراث المسري لبعض عناصر الفكر الإنباز وقلية المنتحل، وحققه على ضوء مضامنه الأصلية، متميزا بذلك عن جميع دارسي ابن مسرة.

للأندلس خلال مرحلة من مراحل تكون تاريخها الاجتماعي والمعرفي.⁽³³⁾ فالنزعة الفيلولوجية التي انتظمت دراسته لمفكرنا - على أهميتها - لا يمكن أن تكون هدفا ونهاية في حد ذاتها لأي بحث أو دراسة. فما هي - في نظرنا - إلا مرحلة من مراحل البحث، تقتضيها بعض المواضع الخاصة ببعض الأبحاث، من مثل تحقيق نصوص ابن مسرة. فما كان ينبغي أن ينحصر فيها تناول باحثنا لتراث مفكرنا وأن لا يتم إلا داخلها.

لقد تبلورت دراسة كمال جعفر لابن مسرة، إلى جانب نزعتها الفيلولوجية، داخل رؤية للتاريخ ولتاريخ الأفكار ينتظمها هاجس رصد الوحدة والاستمرارية: وحدة الفكر الإسلامي المشرقي واستمراريته في الفكر الإسلامي الأندلسي. فهذه النظرة التجزيئية والتعاقبية في آن واحد لتاريخ الأفكار تؤدي بالضرورة إلى طمس الخصوصية، خصوصية ابن مسرة في حالتنا، وإلى العودة بموضوع دراستها إلى تاريخ كلي وواحد وشامل؛ يسنده نظريا ومنهجيا، مفهوم التقدم الذي يعبر عليه كذلك عادة بالتطور⁽³⁴⁾.

ولا يعني كل هذا بأننا ننكر بالمرة اطلاع ابن مسرة على كتاب الحروف لسهل التستري، وإمكانية تأثره بما جاء في هذا الكتاب، خاصة وأن ابن مسرة يحيل على سهل ويذكره في رسالته خواص الحروف. بل إننا لاننكر إلا اختزاله في هذا التأثير وذلك الإطلاع. فضمن نفس النزعة الفيلولوجية، لانجد أي أثر لسهل داخل رسالة الاعتبار لمفكرنا. ثم ان اطلاع ابن مسرة على متصوف «تستر» وإحالاته

(33) عن هذه المرحلة، وعن موقع ابن مسرة ومدرسته داخلها، تراجع مختلف المصادر والدراسات التي أحلنا عليها بهامش 1 نفس الصفحات.

(34) في نقد المفهوم واستخداماته في العلوم الطبيعية والإنسانية، يراجع، كارل بوبر، بؤس الإيديولوجيا، نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي، تر، عبد الحميد صبره، دار الساقي 1992، ص 121، 126، 127...

ويراجع كذلك ميشال فوكو، حقايات المعرفة، تر، سالم يافوت، الدار البيضاء، د.ت. ص 5 - 13، 130 - 133. ولنفس المترجم، الزمان التاريخي. من التاريخ الكلي إلى التواريخ الفعلية، بيروت، 1991؛ ص 51 - 55.

ولقد سبق أن عالجتنا بدورنا هذا الإشكال وتظهراته، في تناول أسين بلانيوس لابن مسرة، في دراستنا، محمد بن مسرة القرطبي في الاستشراق الإسباني الحديث. س.ذ.

عليه لا يعني بالضرورة انه قد تأثر به، واكتفى بترديده ونقله إلى ابن عربي. بل يعني، أن ثمة استعداداً أندلسياً دفع بابن مسرة، قبل قيامه بجولته بالشرق وبالفكر المشرقي إلى الانفتاح على هذا الفكر وإلى التعامل معه. فمما لاشك فيه، أن ابن مسرة قد وظف ما يمكن أن يكون قد استعاره من سهل ضمن إشكالاته الخاصة وأدرجه فيها.

ولا يعيب كل هذا وذاك هذه الدراسة، ولا يقدح في جديتها وجدتها. فما فتئت تبوء مكانة هامة - لشموليتها - داخل مجموع الدراسات العربية لنفس الموضوع كما ذكرنا ذلك عند مستهل تناولنا لها. كما أن مختلف هذه الملاحظات التي بلورناها حولها، لا تنسحب إلا على فلسفتها ومنهجها. أما عن محتواها، فبتحقيقها لرسالة الاعتبار ولكتاب خواص الحروف وتحليلهما، تفيد إلى حد بعيد القارئ لابن مسرة، وتعين الباحث فيه على تناول أفكاره التي وفقت في استخراجها وتقديمها.

1) عندما حقق كمال جعفر رسالة الاعتبار وكتاب خواص الحروف لابن مسرة وأعدهما للقراءة، فتح الباب على مصراعيه لتناول هذا القسم من التراث المسري على ضوء مضامنه الأصلية، ولمراجعة مختلف المجهودات السابقة التي اهتمت بهذا الفكر القرطبي⁽³⁵⁾ لذلك عملنا على الوقوف على تلك المجهودات وعلى بلورة تلك الملاحظات في مضامينها وفي منهجيتها. ولقد أردنا بذلك تحقيق هدفين متكاملين. فمن جهة رمنا، تقديمها، والتعريف بها اعترافاً بفضلها وبأسبقيتها في هذا المجال. ومن جهة ثانية، توخينا التنبيه على أن ما وقع فيه مختلفها من هنات يرجع، إلى افتقارها إلى النصوص الأصلية لابن مسرة، أو إلى اعتمادها على مناهج وتصورات لتاريخ الفكر الإسلامي الوسيط وجهت قراءتها لتراث الرجل، وجهة ابتدت بها إلى حد ما عن حقيقة هذا التراث. أو إلى انسياقها وراء تلك الشهادات المتضاربة للقدماء في ابن مسرة وفكره، وارتياحها للتي قدمته منها بوصفه أحد ممثلي الباطنية الأوائل بالأندلس.

(35) غير أن ذلك لم يتحقق بعد إلا بصفة جزئية، فلم يبلغ إلى علمنا المتواضع، وجود أية دراسة

في هذا الباب، اللهم دراسة إميليو طورنيرو. Op, cit.

— Noticia sobre la publicacion».

وإذا أردنا أن نتناول بدورنا ذلك النص المسري الذي أخرجه كمال جعفر، فإننا نجد نفسنا أمام نص غني ومنفتح ومفتوح. فهو غني بما بلوره صاحبه فيه من أفكار دينية وفلسفية كثيفة، ومنفتح بالنظر إلى امتياحه من مضان متعددة ومختلفة، تمثل الثقافة الدينية والفلسفية لعصره، ومفتوح نظرا لأنه يسمح بتعدد القراءات وباختلاف التأويلات. وبالتالي، فإن الناظر فيه لا ينفك يجد نفسه أمام إشكالات عديدة يلح هذا النص السردى على طرحها، ويضيق صدر هذا البحث بطبيعته على تناول معظمها. لذلك سنقتصر على تناول أحد هذه الإشكالات⁽³⁶⁾ وهو إشكال النظر في النظام المعرفي الذي تبلور داخله النص المسري، وأنتج وفق شروطه ومقتضياته. وإذا نختار تناول ذلك، فلأننا نرى بأن خلل التصورات التي أفرزتها الدراسات السابقة لابن مسرة يرجع - بالإضافة إلى ماسبق ذكره - إلى عدم اهتمامها بهذا الأمر. ناهيك عن أن أهم الأحكام التي انتهت إليها، تدرج النص المسري في نظام معرفي واحد وهو النظام العرفاني - لانرى من جهتنا أنه قد استقطب مجموع التراث الفكري المسري الذي عرف النور إلى حد الآن.

(2) فرسالة الاعتبار، هي ذلك الكتاب الذي اشتهر عند القدماء والمحدثين بكتاب «التبصرة». ويرى كمال جعفر بأن عنوانه الحقيقي والأصلي هو «الاعتبار». ولقد أتى بدفوعات عديدة وكافية ومقنعة لتسويق ذلك⁽³⁷⁾. ويرى نفس الدكتور، أن الناسخ حين نسب هذه الرسالة، إلى «الفقيه أبي عبد الله الجبلي رضي الله عنه فإنه قصد التعمية حولها حتى لا تقع في يد من يحرقها»⁽³⁸⁾، فالعقل الأندلسي بقدر ما استحب الفقه استكره التفلسف⁽³⁹⁾ بيد أننا نرى من جهتنا أن هذه النسبة ترجع كذلك إلى أن ابن مسرة لم يكن فيلسوفا فقط، بل فقيها

(36) أما بقيتها فإنها تفتح - في نظرنا - برنامج عمل يمكن أن يخطر فيه المهتمون بتاريخ الفكر الإسلامي الأندلسي.

(37) من أهمها أن العنوان : «الاعتبار،» مسجل صراحة في أول الرسالة كما أثبتته الناسخ بنفس الخط الذي كتبت به «جعفر، 10، 11 - 15.

(38) جعفر، 7.

(39) نفسه.

كذلك؛ إذ «يسرد مسائل مدونة المالكية عمدة السنن سرد القرآن».⁽⁴⁰⁾ ولم يكن ما يمنع من الجمع بين الفقه والفلسفة، فمن المعروف أن أغلب مفكري الغرب الإسلامي الوسيط، جمعوا بين المعرفتين إلى جانب المعارف الدينية والدنيوية الأخرى.

أما موضوع هذه الرسالة، فهو بالفعل موضوع فكري وفلسفي بحث. عمل فيه ابن مسرة على تحقيق أطروحة في الوجود والوجود الأول، والدفاع عنها. مفادها، أن حقيقة هذين الوجودين، الوجود الإلهي والوجود الطبيعي هي حقيقة واحدة. أخبر عنها الشرع بالنبأ، ويتوصل إليها الفيلسوف بالعقل. ولقد استهل ابن مسرة هذا الدفاع، وذلك التحقيق، بمبحث نظري بين فيه دور العقل في ذلك، ومشروعيته ووجوبه. ولم يال جهدا — في هذا الصدد — في البحث عن المشروعية الدينية لاستخدام العقل في هذا المجال، وإضافتها عليه⁽⁴¹⁾. كما لم يدخر جهدا في الاستدلال على ضرورة هذا الاستعمال ووجوبه، بوصفه الطريق الموازي لطريق الشرع لقيام المعرفة بصفة يقينية بالوجودين المذكورين أعلاه⁽⁴²⁾. فهذه المعرفة لا يمكن أن تقوم إلا بتضافر الطريقتين أو المنهجين معا. منهج الشرع ومنهج العقل. وهذا هو مرامه ابن مسرة بما سماه : الاعتبار⁽⁴³⁾ وبذلك ينبه ابن مسرة بدوره على ضرورة دعم العقل للنقل، ودعم النقل للعقل، وعدم كفاية أحدهما من دون الآخر لتحقيق العلم المبني على اليقين⁽⁴⁴⁾ فالاعتبار عنده منهج عقلي

(40) ابن حيان، المقتبس، 21. «وكان كثير العلم بالأخبار واسع الرواية بالآثار... فيلسوفا عليما وطبيبا ومنجما فلكيا وأديبا بارعا وشاعرا مقلعا» نفسه، 31.

(41) «أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض...» الاعراف 185 ﴿...﴾ وتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾ آل عمران 191.

(42) اعلم — وفقنا الله وإياك — أن أول ذلك أن الله عز وجل إنما جعل لعباده العقول التي هي نور من نوره، ليبصروا بها أمره، ويعرفوا بها قدره فشهدوا الله بما شهد به لنفسه، ابن مسرة، رسالة الاعتبار، تح، جعفر، ص 61.

(43) «فوجدوا الاعتبار يشهد للنبأ فيصدق، ووجدوا النبأ موافق للاعتبار لا يخالفه، فتعاضد البرهان وتجلي اليقين...» «ولا يصل بشر إلى معرفة علم الكتاب حتى يقرن الخير بالاعتبار ويحقق السماع بالاستبصار...» نفسه، 64.

(44) وذلك وجه من وجوه ماعرف بالفكر الإسلامي، بجدل العقل والنقل، وعن هذا الجدل، =

مشروع وضروري. وتفاديا لأي شكل من أشكال اللبس، أو الخلط الذي قد يؤدي إليه استخدام هذا المصطلح في هذا المجال، فلقد استخدمه ابن مسرة مرادفاً «للتفكير والتذكر والتبصر»⁽⁴⁵⁾ ممارساً بذلك قيماً بيانياً على مدلول هذا اللفظ — كما ورد في التداوليات العربية — وعلى قيمته الإجرائية داخل رسالته. ففي لسان العرب، العابر هو الناظر في الشيء، والمعتبر هو المستدل بالشيء على الشيء.⁽⁴⁶⁾ ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد. أن بعض أهل الباطن حول لهذا اللفظ مدلولاً مخالفاً لهذا المدلول. فهذا ابن عربي يستشهد به كما ورد في سورة الحشر، لتأسيس المعرفة العرفانية وتبريرها. وبذلك يخرق مدلول اللفظ اللبني ليضمنه معنى سبق وأن صادر عليه⁽⁴⁷⁾.

انطلاقاً من هذا المعنى الذي حصر فيه ابن مسرة لفظ الاعتبار وموضوعه، وانطلاقاً من تخويله للعقل — إلى جانب النقل — دوراً أساسياً في الدفاع عن الأطروحة المركزية لرسالته، يمكن أن نتساءل عن طبيعة النظام المعرفي — من أنظمة المعرفة العربية الإسلامية — الذي يمكن أن ندرج ضمنه هذا الجهد المسري.

ترجع بنية العقل العربي عند محمد عابد الجابري إلى ثلاث نظم معرفية ومختلفة: النظام المعرفي البياني والنظام المعرفي العرفاني والنظام المعرفي البرهاني⁽⁴⁸⁾

= وماهيته، ونشأته، وتطوره. يراجع الكتاني محمد، جدل العقل والنقل في مناهج الفكر الإسلامي، الدار البيضاء 1992. «فالجدل ليس مجرد حوار بين نقيضين أو مختلفين أو صراعا بين متقابلين، بل هو من حيث الغاية أو الهدف منشأ توازن وتجدد باستمرار» ص 443 ص 437 — 462.

(45) ابن مسرة، ص 62. وجميع هذه العمليات ترجع عنده في رسالة الاعتبار، إلى العقل، وإليه فقط.

(46) مادة ع ب ر إعداد يوسف الخياط، م 4، بيروت 1988

(47) «فاعتبروا يأولي الأبصار»، أي جوزوا مما رأيتموه من الصور بأبصاركم إلى ما تعطيه تلك الصور من المعاني والأرواح في بواطنكم، الفتوحات، س، ذ، ج 1 ص 551.

(48) نقد العقل العربي، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، الدار البيضاء 1986.

وضمن منظور مخالف تماماً لهذا المنظور، أرجع طه عبد الرحمان العقل الإسلامي إلى، عقل محرد، وعقل مسدد، وعقل مؤيد. العمل الديني وتجديد العقل، الرباط، 1989.

وأى نظام من هذه الأنظمة يتحدد عنده «بالفعل المعرفي الذي يؤسس عملية المعرفة داخله»⁽⁴⁹⁾ ويتميز عن غيره بتقريره، رؤية معينة للعالم و«بمنهج في التفكير»⁽⁵⁰⁾ فالبيان ينطلق - من ضمن ما ينطلق منه - من النص ويهدف إلى تكوين رؤية للعالم معطاة سلفا داخل العقيدة الدينية والعرفان يتخذ من الولاية، وبكيفية عامة من الكشف الطريق الوحيد للمعرفة ويهدف إلى الدخول في نوع ما من الوحدة مع الله⁽⁵¹⁾ والبرهان يعتمد قوى الإنسان المعرفية الطبيعية، من حس وتجربة ومحاكمة عقلية، وحدها دون غيرها»، ويشيد تبعا لذلك «رؤية للعالم يكون فيها من التماسك والإنسجام ما يلبي طموح العقل إلى إضفاء الوحدة والنظام على شتات الظواهر ويلبي نزوعه الملح والدائم إلى طلب اليقين»^(51 مكرر).

وإذا علمنا بأن أطروحة ابن مسرة في رسالة الاعتبار، قد استندت إلى النص الشرعي لتشيد رؤية للعالم، أي للوجودين، الوجود الإلهي والوجود الطبيعي، مفادها : خلق الله من دون سواه للعالم وتدبيره إياه. وإذا علمنا أن ذات الأطروحة قد توسلت بالعقل لتشييد نفس الرؤية للعالم، متمسكة ومتجانسة ومبنية على اليقين العقلي، أمكننا أن ندرج جهد ابن مسرة في رسالة الاعتبار ضمن النظام المعرفي العربي الإسلامي البرهاني. غير أن ذلك لم يمنعه من استعارة ببعض عناصر رؤية العالم الخاصة بالنظام المعرفي البياني، بل أدى به إلى ذلك. ولقد رام بذلك إضفاء المشروعية الشرعية على البهان داخل الثقافة العربية الإسلامية من جهة، وخدمة البيان الكلامي والعقدي من جهة ثانية. ولسوف يزداد هذا الأمر وضوحا إذا ما تناولنا الجزء الثاني من رسالته..

في هذا الجزء عمل ابن مسرة على بلورة أمثلة متعددة للدفاع على أن «المستدل بالاعتبار من أسفل العالم إلى الأعلى» لا يجد ولا يتوصل بتأمله وتدبره لهذا العالم، إلا إلى «مثل ما دلت عليه الأنبياء من الأعلى إلى الأسفل»، أي إلى ما أخبر به النبأ عن حقيقة الوجود الأول، (الله) والوجود الطبيعي، (العالم والانسان) : فقد

(49) الجابري س.ذ.ص 574.

(50) نفسه، 395.

(51) نفسه، 359 - 96.

(51 مكرر) نفسه، 396.

خلق الأول الثاني، ويرجع الثاني بهذه الضرورة إلى الأول. فالتأمل للنبات يجد أن الماء الذي هو غذائه، «يصعد فيه» ضدا عن طبيعته التي هي النزول «فوجب وجود من حول طبيعة الماء». والناظر في الماء والنار والهواء والتراب «يجدهم أصدادا، لا تأتلف من قبل نفسها، فوجب وجود مؤلف يردها عن الاختلاف إلى الائتلاف. والتأمل في السموات والأفلاك يجدها» ذات أشكال وجهات مختلفة [...] وحركة مزمومة [...] قد لزمها من التأليف والضرورات والتسخير ما لزم ماتحتها سواء. فوجب الشهادة بالفطرة أن المدبر لها، فوقها ومحيطا بها». وهكذا يصعد المعتبر باعتباره من الأسفل إلى الأعلى، ليجد «فلك النفس حيث مكان الكرسي ومكان الروح [...] فوق السماء السابعة. غير أن هذه النفس الكبرى إنما ذاتها الحركة والإنقياد للعقل» الذي يملكها ويصرفها. ثم يجد المعتبر فلك العقل حيث «مكان العرش وموضع المقادير العليا». إلا أن هذا الفلك مع شرفه وفضله، موقوف على نهاية يعجز عما ورائها». لذا، «وجب ضرورة لازمة أن فوقه مالكا له ولجميع ماتحته». من هو هذا المالك الضروري لجميع هذه الموجودات الذي يصل إليه بهذه الضرورة كل معتبر؟ إنه «الواحد الخالق المحيط المقيم على جميع ما خلق، الذي يمسك السماء والأرض أن تزولا. الفعال لما يشاء وتعالى علوا كبيرا» الله جل جلاله «الذي قام الوجود به اضطرارا في حس العقل مع عدم المثال والجنس». وهكذا يتوصل في النهاية المعتبر من الأسفل إلى الأعلى، إلى إثبات وجود الواحد الضروري لوجود جميع الموجودات. وهذا هو مادلت عليه الأنبياء من الأعلى إلى الأسفل. فالوحي يعلم بأن «ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم واحد» «خلق العرش والماء» و«استوى فعلا فوق العرش» و«باين كل ماخلق بالذات والحال»، «متعالي لامثال له ولانهاية له ولابدء له...» وهكذا يوافق خبر النبوة النازل إلى الأرض ما يتوصل إليه «الاعتبار الصاعد من جهة الأرض إلى العرش سواء بسواء لافرق»⁽⁵²⁾ بذلك يوافق الحق الديني الحق العقلي. فلا يضاد هذا الحق ذاك، بالرغم من اختلاف النهج الذي يعتمده أحدهما من دون الآخر. فأولهما يعتمد بصفة أساسية التصديق ويستند إليه، في حين يعتمد ثانيهما الاستدلال ويستند إليه. هذا هو ماقد يسمح لنا بأن نصنف هذا الجهد المسري

(52) جميع هذه النصوص الأخير، مقتطفة من رسالة الاعتبار ص 64 - 72.

ضمن بواكر القول الفلسفي الأندلسي، الذي اهتم بالفصل بين الفلسفة والشريعة بالنسبة إلى اختلاف منهجيهما. كما اهتم بالوصل بينهما، بالنظر إلى تساوق وتطابق الحقيقة التي تتوصلان إليها، مع العمل على الدفاع على ضرورتهما معا وعلى احتياج إحدهما إلى الأخرى⁽⁵³⁾.

وغني عن البيان أن ابن مسرة قد استخدم في معالجته للوجودين السابقين الذكر، ما عرف لدى مفكري وفلاسفة الإسلام، بدليل الخلق وما يترتب عليه من الأدلة الأخرى، من مثل دليل نفي الشريك ودليل نفي الشبه ودليل نفي التقييد. كما تجدر الإشارة كذلك إلى أنه عند معالجته للوجود الطبيعي، تعامل مع آراء الطبيعيين الأوائل من اليونانيين وامتاح منها. غير أن ذلك تم ضمن المعتقد الإسلامي وعلى ضوءه. فبينما كانت الطبيعة تتمتع بكفايتها في حد ذاتها، وبتضمنها داخلها لمبدء حركتها وسكونها السرمدين، مما يؤدي إلى القول بأزلية الحركة وقدم العالم. أصبحت نفس الطبيعة في رسالة ابن مسرة، بواسطة استدلال عقلي متماسك، محصورة ومقيدة ومزومة. «لها من غيرها حاصر» و«عليها من نفسها دليل الفقر والمملكة».

وبعد، لقد اشتغل ابن مسرة في رسالة الاعتبار، على الوجود الأول والوجود الطبيعي، مستثمرا في ذلك ثقافة عصره الدينية والفكرية، ليستجيب إلى إشكالات تلك الثقافة وهموم ذلك العصر. ولقد اتبع في ذلك منهجا استدلاليا صارما ومتجانسا ومتماسكا، خول به للعقل ما يرجع إليه في هذا المجال، كما أعطى به للشرع ما يجب له في هذا المضمار أيضا. وبذلك دشّن بواكر القول الفلسفي بالأندلس وانخرط فيها، مبلورا هذا القول ضمن ما سيسمى بالنظام المعرفي البرهاني.

(3) أما الرسالة الثانية التي حققها كمال جعفر وأكد أنها لابن مسرة، فهي كتاب «خواص الحروف وحقائقها وأصولها»⁽⁵⁴⁾. في هذا الكتاب بلور ابن مسرة من

(53) وذلك — كما هو معروف — هو ما سيؤسسه بالفعل ابن رشد في كتابه، فصل المقال وتقرير مابين الشريعة والحكمة من الاتصال، قدم له وعلق عليه، البير نصري نادر، ط، 6 بيروت 1991 ص 26 - 3 - 57 - 58.

(54) ولقد نسبها ناسخها عن حق، وكما سيتضح لاحقا، إلى الشيخ العارف المحقق، أبي عبد الله الجبلي.

حروف المعجم العربية إشكالا خاصا. فجعل من أربعة عشر منها، حروفا ظاهرة لاتهم في شيء. في حين جعل من المتبقية منها، حروفا باطنة استثارت اهتمامه. وهي عنده، تلك التي : «ذكرها الله في القرآن في أوائل السور»⁽⁵⁵⁾ ومن المعروف أن هذه الحروف قد أثارت معضلات عديدة بالنسبة لعموم مفسري القرآن الكريم، ولجميع المهتمين بعلومه، ولبعض متصوفة وفلاسفة الإسلام ولغيرهم⁽⁵⁶⁾ ولقد تناولها ابن مسرة من وجهة نظر باطنية وضمن جهده تأويلي خاص. فلم تهمة هذه الحروف في حد ذاتها، بقدر مارام إستثمارها لكي ينخرط مرة أخرى في مبحث فلسفي صرف في الوجود والوجود الأول، وترتيب العلاقات بينهما. وبذلك تناول مفكرنا نفس الموضوع الذي سبق أن تناوله في رسالة الاعتبار. غير أنه عبر عن هذا الهاجس، بمنهج مختلف عن المنهج الذي اتبعه في هذه الرسالة، وبواسطة مفاهيم وآليات جديدة، مما أثر بالضرورة على رؤيته للعالم. ورغم أنه أكد في مستهل كتاب خواص الحروف، على أن الاستدلال على وجود الله ووحدانيته يتم بالنظر إلى مخلوقاته. فإننا نرى بأنه قد عكس الآية، بحيث

(55) رسالة الحروف، ص 82.

(56) فجاب الله الزمخشري، ذهب إلى أن هذه الحروف، هي من حروف التهجي المعروفة، أي أنها هجاء موضوع الكشف عن التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التأويل، القاهرة، ط 1، ج 1 ص 16 وابن حزم، حرم بصفة قطعية، «على كل مسلم أن يطلب معاني من الحروف المقطعة التي في أوائل السور»، الإحكام في أصول الأحكام، تقديم إحسان عباس. 198، ج 4، ص 123 — 134. وذهب غيرهما، إلى أن هذه الحروف هي ﴿مما استأثر الله بعلمه، فردوا علمها إلى الله ولم يفسروها﴾. وذهب آخرون، إلى أنها من أسماء الله تعالى وروي عن ابن عباس أنه قال : «الم. أنا الله أعلم». وذهب أبو جعفر الرازي إلى أن «الألف مفتاح إسم الله واللام مفتاح إسم لطيف والميم مفتاح إسمه» ابن كثير، عماد الدين أبي الفدا، تفسير ابن كثير، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 3، 1981، ج 1 ص 61 — 67. وتجدر الإشارة إلى أن هنالك من عالج هذه الحروف «ليستخرج منها أوقات الحوادث». نفسه 86. ويذكر ابن عربي في الفتوحات بأن «أبو الحكم عبد السلام بن برجان... لم يذكره (الحرف) في كتابه من هذا الباب الذي نذكره، وإنما... من جهة علم الفلك وجعله سترا على كشفه حين قطع بفتح بيت المقدس»، الفتوحات المكية، ج 1. ص 60. ومن بعض متصوفة الإسلام من أراد من تناوله للحروف، التوصل إلى قوى خارقة لاستدعاء النعم واستكشاف النقم. ولقد نصح ابن عربي كما ذهب إلى ذلك «الشاذلي» في المفاخر العلية، بالابتعاد عن هذا الأمر وتجنبه، جعفر س.ذ.ص 34.

أنه استدل بالوجود الأول على الوجود الطبيعي. منطلقاً بذلك من الأعلى إلى الأسفل، نازلاً من الماورائيات إلى الطبيعيات. ولقد استقطبت مضامين هذا الكتاب، أطروحة مركزية تمحور حولها. مفادها، أن مظاهر الوجود الطبيعي وتجلياته المختلفة، تتطابق مع أوضاع الحروف الإملائية والصوتية، بحيث تأخذ مهام التأثير على هذا الوجود، إلى جانب مهام تدبيره الإلهي. بل إن نفس الحروف تعبر كذلك على الوجود الأول وتنبيه عليه.

ففي معرض «القول على الحروف جملة واحدة»⁽⁵⁷⁾ جعل منها «أصلاً لجميع الأشياء» على مذهب أهل الباطن فهي «الهباء»، و«هي أصل الأشياء في أول خلقها. ومنها تألب الأمر وظهر الملك». ويدل لفظ الهباء في التداولات العربية على التفاهة والحقارة⁽⁵⁸⁾، ولقد اكتست هذه الكلمة عند بعض متصوفة الإسلام «خصائص روحية فاستعملت لتدل على الطاقة الكلية الإلهية». فالهباء عند «القاشاني»، هي «المادة التي فتح الله فيها صور العالم»⁽⁵⁹⁾. ضمن هذا المعنى الأخير، اندرج قول ابن مسرة في الحروف جملة واحدة. فبالحروف خرج عنده الوجود من الإمكان، وبها يزيد وينقص وينحط، كما يعود بها كذلك إلى سيرته الأولى⁽⁶⁰⁾، ولعل ابن مسرة ينبه بذلك على أن العالم تحول بالحروف صوتاً، ثم كتابة من مرحلة المشيئة إلى مرحلة الإرادة والتنفيذ : كن فيكون» فجميع «الأشياء المخلوقات إنما حدثت من الكاف والنون»⁽⁶¹⁾.

وعند تناول ابن مسرة لمبدأ كل حرف من هذه الحروف على حدة،⁽⁶²⁾ جعل من الألف «أس الأشياء وأولها وآخرها وعلتها وسببها»، وأنها «إرادة الله المطلقة

(57) الحروف، ص 82 — 84.

(58) وفي التنزيل الكريم. وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً. الفرقان 23. تفسير ابن كثير، ج 5، ص 144 — 145. الكشف، س.ذ.ج، 3، ص 225.

(59) القشاني كمال الدين عبد الرزاق، إصطلاحات الصوفية، تح، محمد كمال إبراهيم جعفر، مصر، 1918، ص 45.

(60) الحروف، ص 83 — 84.

(61) نفسه، 102. جعفر، من التراث س.ذ.ص 31 — 32.

(62) الحروف، ص 83 — 90.

في خلقه، وأنها «أول أدلة التوحيد»، و«أن مخرجها من الغيب مما يلي الذات» كما جعل منها النفس الناطقة.⁽⁶³⁾ ولقد أرجع تعليله لكل ذلك إلى الشكل الكتابي للألف، وإلى موقعها بين حروف المعجم.

تناول ابن مسرة «المص» وغيرها من فواتح السور الكريمة، عند معالجته للحروف وتأليفها⁽⁶⁴⁾ فباتت عنده الألف : أنا، واللام : الله والميم : الملك، والصاد : الصانع. وتلك صفات الله، فبالصاد «تسمى صانعا.. وبها صنع الكل» «وبالميم» ملكهم وأحاط بهم» وباللام «أحاط بالصفتين المتقدمتين وبجميع المخلوقات» «وبالألف : انفرد عن خلقه، وسبق الأشياء كلها وبان عنها». وهذه الصفات، حسب ابن مسرة، هي التي عبر عنها الفلاسفة بغير هذا اللفظ عند معالجتهم للوجود والوجود الأول. فهم يميزون في الموجودات بين أربع مراتب، ذات الله... وهو المبين للأشياء، ثم العقل الكلي... ثم النفس الكبرى». ودونهم جميعا في المرتبة، الطبيعة. وبذلك يذهل ابن مسرة - مرة أخرى - إلى أن الفلسفة تتوصل إلى نفس الحقائق الشرعية. والفلسفة التي نعنيها في هذا الصدد، هي الأفلوطينية المطعمة برؤية هرمس. فلقد ترددت أصداؤهما عندما تناول ابن مسرة كيفية إيجاد الموجودات من طرف «الباري تعالى»⁽⁶⁵⁾.

فما الذي خول لابن مسرة بأن يتصور بأن مذهب إليه في خواص الحروف هو حقيقة هذه الحروف، وإن لم يذهب أبدا إلى أنها حقيقتها الوحيدة ؟ فعلى خلاف ما وقفنا عليه برسائله الاعتبار، لانجده يهتم بالبرهنة على ماينطلق منه ولا على ماينتهي إليه بشكل برهاني أو بياني⁽⁶⁶⁾. فلم يتقيد بالبحث عن أي دليل

(63) لأنها قائمة مثل صاحب هذه النفس، الإنسان. كما جعل من الواو، النفس الحيوانية لأنها منحنية مثل الحيوان، والباء عنده هي النفس النباتية، لأنها ساجدة مثل النبات. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن ابن عربي، قد صنف ضمن نفس المنطق، هذه الحروف تصنيفا آخر. الفتوحات، ج 1، ص 66.

(64) الحروف، ص 90 — 107.

(65) عن رؤية هرمس، بوصفها النص الأساس للأدبيات الهرمسية، يراجع،

Corpus Hermeticum, Trad, Festujiere. R.D, Paris, 1945.

ولقد ترجم الجابري هذه الرؤية في كتابه، بنية العقل، س.د، 268 — 274

(66) غير أن ذلك لم يمنعه من يؤسس خطابه في الحروف بشكل متجانس ومتسق.

يسمح له بالانتقال من تلك الأوضاع الصوتية والإملائية للحروف، إلى تلك الخصائص التي خولها لها، ولا إلى تلك المهام الوجودية التي جعلها تقوم بها، أو تنبه عليها، أو تشير إليها. وهذا هو ما يدفعنا إلى أن نستعيد السؤال الذي طرحناه قبل قليل، وأن نتساءل كذلك عن الأداة المعرفية التي اعتمدها في هذا المجال، وعن الآلية المعرفية التي استخدمها في بلورته لخطابه في الحروف.

فابن عربي في فتوحاته ذهب إلى أن حروف المعجم سميت كذلك لأنها «عجمت على الناظر فيها». وذلك لأنها لاتقع ضمن «علم العقل» وإنما ضمن علوم الأسرار، وهو «علم نفث الروح القدس في الروح»⁽⁶⁷⁾. أما ابن مسرة فإنه لم يبسط القول في أدواته المعرفية بمثل هذا الوضوح، ولم يعمل على الاستدلال على حجيتها، بل اكتفى بالإشارة إلى ذلك عندما ذكر بأن «علم الأسماء والصفات ليس علما مخفيا، وإنما هو علم خصوصي بين قلب الإنسان وربه»⁽⁶⁸⁾. وهذا هو ما يؤكده مجموع كتابه خواص الحروف. فلقد انبنى هذا الكتاب على مقدمات غير مبرهن عليها عقليا، انقدحت في ذهن صاحبه كشفا أو إلهاما فأنزل الحروف عليها وأنزل التنزيل الكريم عليها كذلك. لذلك لم يجد أية غضاضة في نفسه لكي يضمن تلك الحروف، وذلك التنزيل، آراءه الفلسفية وأفكاره العقدية⁽⁶⁹⁾ وبذلك اعتمد في الاعتبار، إنها آلية الإنزياح من المماثلة إلى المطابقة. فعندما أقحم ابن مسرة الزوج، الباطن الظاهر، عند تناوله للحروف، فلقد رام بذلك أن يشتغل عليها بواسطة هذه الآلية. فالعلم يظاهر هذه الحروف يتحصل عنده بالمماثلة بين بنية الحروف وبنية الوجود الوجود الأول، بالبحث عن علاقات شبه غامضة — وقابلة للدحض من جهة نظر بيانية أو برهانية — بين البنيتين : بنية الحروف

(67) ابن عربي، الفتوحات. س. د. ج 1، ص 31.

(68) الحروف، ص 180.

(69) في ما يتعلق بعقيدته، فإنها مبثوثة بكتابه. ويمكن إجمالها في الإيمان بالربوبية وبالنبوة — التي لا يمكن أن تكتسب — وبالجنة أو المعاد. وبخصوص مشكلات الصفات والرؤية، فإنه أقرب إلى أهل السنة منه إلى المعتزلة. أما القدر، فلقد فصله إلى قدرين، قدر سابق قديم لا ينفع فيه الدعاء، وقد مفصل من الأول ينفع فيه الدعاء. أما القول بقديم العالم، أو القول بوجود العرش، أو وسائط بين الله والعالم، مستقلة عن الله وغير راجعة إليه، فإننا لانرى بأن الرسائل يمكن أن تسمح بهما.

بأوضاعها الكتابية والصوتية، وبنية الوجودين بمراتبهما ودرجاتهما وتجلياتهما. أما العلم بباطن نفس الحروف فإنه يتحصل بتضمين ألفاظها، ماهيات وخصائص نفس الوجودين، بالمطابقة بينهما. وبذلك يندرج هذا الجهد المسري الأخير ضمن النظام المعرفي العرفاني. فهذا النظام هو الذي يسمح باعتماد تلك الأداة المعرفية التي اعتمدها مفكرنا، كما يسمح من جهة أخرى، بالإشتغال بتلك الآلية المعرفية التي اشتغل بها في هذا المجال.

هل ضحى ابن مسرة بالبرهان لمصلحة العرفان ؟ أم هل انتصر للعقل المجرد على حساب العقل المؤيد ؟ إذا رجعنا من جديد - وعلى ضوء ما انتهينا إليه أعلاه - إلى رسالة الاعتبار وإلى كتاب خواص الحروف لابن مسرة، فإننا سنجد أنه يندرج تارة ضمن النظام المعرفي البرهاني، كما يندرج تارة أخرى ضمن النظام المعرفي العرفاني، محترما في كل مرة ضوابط وآليات ورؤى النظامين. وهذا هو ما قد يفقد سؤالنا مشروعيته إلى حد ما. فمفكرنا لم يتخل عن نظام لحساب نظام آخر، مثلما أنه لم يعمل أبدا على الجمع بينهما داخل مبحث واحد، حفاظا على وحدة المبح ووحدة النظام. ويدفعنا هذا الأمر إلى طرح سؤال آخر، هل يمكن أن نصنف جهد ابن مسرة ضمن استراتيجية المصالحة بين النظامين ؟

لقد تناول «القشيري» هذه المصالحة في كتابه «لطائف الإشارات»،⁽⁷⁰⁾ فذهب إلى أن العرفان والبيان والبرهان، مناهج متكاملة، وغير متعارضة. غير أن المعرفة المثلى والإيمان الأفضل يتدرجان صعودا من «البرهان إلى البيان إلى العرفان»⁽⁷¹⁾ و«ابن طفيل» في مقدمة كتابه : حي بن يقظان، طلب من متلقيه، ألا يسأله «عما يراه أصحاب المشاهدة والأذواق»، لأن ذلك «مما لا يمكن إثباته على حقيقة أمره في كتاب». «وبذلك لا يطعن في العرفان من حيث كونه كذلك. بل إنه يذكر بصفة صريحة أنه لم ير نفسه أهلا لوضع كلام يؤثر» عنه إلا لما استقام له «الحق» أولا بطريق البحث والنظر، ثم وجدنا منه الآن هذا الذوق اليسير بالمشاهدة⁽⁷²⁾ لذلك تحصل حي بن يقظان لابن طفيل بالبرهان المطعم بالعرفان. ويميز «ابن عربي»

(70) المجابري س.ذ. 291.

(71) ابن طفيل، حي بن يقظان، قدم له وحققه فاروق سعيد، بيروت، 1978، ط 2، ص 110.

(72) نفسه، 115.

في الفتوحات المكية، بين علم العقل وعلم الأحوال وعلم الأسرار، مدرجا هذا الكتاب، ضمن هذا العلم الأخير لشرفه عنده وإحاطته بجميع المعلومات⁽⁷³⁾ وهذا «ابن الخطيب» في روضة التعريف بالحب الشريف،⁽⁷⁴⁾ يوسع المجال للأنظمة المعرفية الثلاثة. غير أنه عند صياغته لمباحثه النظرية والعقدية، انتهى إلى «تضييق الخناق على العقل... ليصفي حسابه معه لصالح الوجدان»⁽⁷⁵⁾ وفي مقابل هؤلاء، وكما هو معروف، نجد من مفكري الإسلام وفلاسفته من اشتغل بواسطة البيان أو البرهان أو هما معا واقتصر على ذلك ولم يتعداه. بل، إن منهم من ذهب إلى أن الإشتغال بالعرفان، ماهو إلا تشغيب على العقل والدين والأمة. ويمكن أن نمثل على ذلك «بابن حزم» وابن باجة» وابن تومرت» و«ابن رشد»⁽⁷⁶⁾.

وإذا اضطررنا إلى هذا الإستطراد، فلنكي نخلص عن قصد، إلى أن الزوج الظاهر - الباطن الذي يتحصل بمختلف الأنظمة المعرفية العربية الإسلامية، فرض نفسه على جميع مفكري الإسلام. فمنهم من رفض الإشتغال بقطب من هذا الزوج لمصلحة القطب الثاني، ومنهم من قبلهما معا مفضلا أحدهما عن الآخر. وبالتالي، فضمن أي اتجاه من هذين الإتجاهين يمكن أن ندرج جهد ابن مسرة؟ يبدو بأننا سنضطر إلى إدراجه ضمن اتجاه ثالث مخالف للإتجاهين معا. فلقد رأينا كيف اشتغل بالبرهان والعرفان في كل مرة على حدة، وكيف عمل على احترام النظامين معا، فلم يعمل على المفاضلة بينهما، ولا على التوفيق بينهما في مبحث واحد. وبذلك فإن اندرج ضمن استراتيجية المصالحة بين النظام المعرفي البرهاني ونظيره

(73) الفتوحات، ج 1، ص 31.

(74) عارضه بأصوله، وعلق حواشيه وقدم له، الكتاني محمد، الدار البيضاء.

(75) العسري عبد الواحد، «الخطاب العقدي بين ابن تومرت وابن الخطيب»، مج، كلية الآداب بتطوان، ع 2، ص 436.

(76) بخصوص ابن حزم وابن باجة وابن رشد، يراجع على سبيل المثال لا الحصر، الجابري س.ذ.ص 227 — 266. أطروحة سالم يافوت في ابن حزم س.ذ. العسري عبد الواحد، «مدخل لدراسة كتاب أعز ما يطلب لابن تومرت»، مج، كلية الآداب بتطوان، ع 1، ص 96 — 95.

العرفاني، فلقد حول للنظامين حق تحصيل المعرفة وإنتاجها.⁽⁷⁷⁾ ولا غرو في ذلك، فالظاهر والباطن، ازدواجية كونية لامفر منها.⁽⁷⁸⁾ ناهيك عن أن ذات الزوج، معطى من معطيات كينونة الإنسان ووعيه ومقوما من مقومات العقل نفسه.

(77) هذا التصنيف نعتمده بصفة مؤقتة وقابلة للمراجعة، ذلك لأننا لم نقف إلا على قليل من كثير، من تراث ابن مسرة، كما نبهنا على ذلك سابقا.

(78) الكتاني محمد، جدل العقل والنقل، س.ذ.ص 769.

حماسية السموأل : «تعدد الأنظار وقضية النسبة»

ذ. محمد الحافظ الروسي
كلية الآداب — تطوان

تنسب الحماسية التي مطلعها :
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
لرجلين، لعل كليهما من الأزد. أما أحدهما فجاهلي وهو : السموأل. وأما
ثانيهما فأسلامي أو عباسي وهو : عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي. وإن كان
هذا لا ينفي أنها تنسب أحياناً كلها أو بعضها لغيرهما من الشعراء؛ كدكين
الراجز⁽¹⁾ وشریح بن السموأل⁽²⁾.

والذي يلفت النظر أن هذه القصيدة على شهرتها وإعجاب القدماء بها⁽³⁾
وكثرة ذكرها في كتب الأدب والأخبار والمعاني والأمثال والنحو واللغة والبلاغة
والمعاجم وغيرها، تنسب إلى شخصيتين غامضتين :

فأما السموأل فلا نكاد نعرف عنه شيئاً غير تلك القصة المشهورة عن وفائه،
ثم يأتي بعد ذلك خلاف عريض في ضبط اسمه ونسبه وأخباره وشعره وكل ما
يتعلق به.

(1) عيون الأخبار 3/ 172. والشعر والشعراء 2/ 612 والأغاني 9/ 252 — 253. ودكين
هذا هو دكين بن سعيد وهو غير دكين بن رجاء، واشتبها على ابن قتيبة في طبقات الشعراء
فجعلهما واحداً. وعنه نقل محقق شرح الحماسة للأعلم الشنتمري. 1/ 261.

(2) الأغاني 6/ 311. وشرح أبيات مغني اللبيب 4/ 207.

(3) من ذلك أنهم حلوا أبياتها (الفلك الدائر 4/ 167 — 168). وصدرت أعجازها (عروس
الأفراح. 1/ 12 — 14) وأكثروا الاستشهاد بها، كما سيأتي.

ف نجد اسمه مضبوطاً بفتح السين وبكسرهما أيضاً⁽⁴⁾ وبهمز وبغير همز⁽⁵⁾ ونجده يذكر بعدة أسماء. وذلك على النحو التالي :

1 — السموأل بن غريض بن عادياء.⁽⁶⁾

2 — السموأل بن عادياء⁽⁷⁾

3 — السموأل بن حَيَّان.⁽⁸⁾

4 — السموأل بن أوفى بن عادياء⁽⁹⁾

5 — غريض وهو السموأل نفسه⁽¹⁰⁾

6 — السموأل بن العُريض⁽¹¹⁾

وإن كنا نلاحظ مع ذلك أن أغلب كتب الأمثال والحاسن والمساوىء تذكر أن اسمه هو : السموأل بن عادياء. وذلك لأن صيغة المثل في أغلب هذه الكتب هي : أوفى من السموأل بن عادياء⁽¹²⁾. فحددت هذه الصيغة نسبة على نحو ما ذكرناه.

والذي لاحظناه في نسبة نلاحظه في شعره أيضاً. فكثير منه ينسب إليه وإلى غيره من أهل بيته.⁽¹³⁾ وكذلك أخباره وما يتعلق بها، فيها اضطراب كبير. ولعل أقرب مثال على ذلك اختلافهم في تحديد شخص شريح في قصته مع الأعشى؛ فمع أن السياق يوحي بأن شريحا المذكور هو شريح بن السموأل، نجدهم يختلفون

(4) تاج العروس. مادة شمل 7 / 382.

(5) المستقصى 1 / 435.

(6) معاهد التنصيص 1 / 388.

(7) المصدر نفسه.

(8) مجمع الأمثال 2 / 374.

(9) تاج العروس. مادة سمل 7 / 382.

(10) الأغاني 3 / 109

(11) الأصمعيات 82.

(12) انظر مثلاً : جمهرة الأمثال 2 / 345 والحاسن والمساوىء 134 والحاسن والأضداد. 52.

والمستقصى. 1 / 435.

(13) الأغاني 3 / 108 — 109. وانظر، على سبيل المثال، جمهرة الأمثال 1 / 521. حيث ورد

فيها بيت للسموأل قد ورد في الأصمعيات. 84. منسوباً إلى سعية أخيه.

فيه، فمنهم من جعله ابن السموأل⁽¹⁴⁾، ومنهم من ذكر أنه شريح بن عمرو الكلبى⁽¹⁵⁾.

وأما الحارثي فقليلة أخباره، وهو كالسموأل في اضطراب النسب واختلافه، فمنهم من جعل اسمه : عبد الله بن عبد الرحمن⁽¹⁶⁾، ومنهم من جعله : عبد الله بن عبد الرحيم الأزدي⁽¹⁷⁾، ومنهم من ذكر أن اسمه : عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي⁽¹⁸⁾، ومنهم من جعل اللجلج الحارثي وعبد الملك شخصاً واحداً ومنهم من جعلهما شخصين مختلفين⁽¹⁹⁾، ومنهم من جعل اسمه الجلاح لا اللجلج⁽²⁰⁾.

وقد كانت هذه القصيدة المنسوبة إلى كليهما معروفة مشهورة في القرن الثاني الهجري بدليل أن حكم الوادي غنى فيها أبياتاً⁽²¹⁾ ومع ذلك لانبج ابن سلام يذكرها ضمن ما اختاره من شعر السموأل⁽²²⁾، ولا ابن المعتز يذكرها ضمن ما أورده من شعر الحارثي على إعجابه الشديد به⁽²³⁾.

ويمكننا القول بأن الاهتمام بالشاعرين إلى حدود أواخر القرن الثالث الهجري كان أقوى من الاهتمام بنص هذه القصيدة، ثم أصبح الاهتمام بالنص أقوى بعد ذلك. ويرجع سبب ذلك إلى حاجتهم إلى الشاهد. فقد كان هذا النص، على الرغم

(14) انظر على سبيل المثال. اختيار من كتاب الممتع. 480.

(15) الشعر والشعراء. 1 / 261.

(16) السمت. 1 / 595.

(17) المصدر نفسه.

(18) شرح أبيات المغني 4 / 207.

(19) وقد حاول الأستاذ زكي ذاکر العاني جمع شعر الحارثي ودراسته، وإن كان هذا الشعر الذي

جمعه في كتابه عن الحارثي لا يمثل كل شعره. فمن ذلك، مثلاً، أننا لانبج في هذا الكتاب

بيتي الحارثي اللذين وردا في المستقصى للزخشرى 1 / 306، منسوبين إليه. وهما :

ولم أك دونه بكليل ناب ولا رعى البنان ولا الجبان

ولا متضائل إن ناب خطب جليل والتقت حلق البطان

(20) شروح التلخيص (عروس الأفراح. 3 / 254).

(21) الأغاني 6 / 302.

(22) طبقات فحول الشعراء 1 / 279 — 281.

(23) طبقات الشعراء 275 — 279.

من عدم كثرة أبياته، مشتملاً على مجموعة من الشواهد النحوية والبلاغية والأدبية، فكان أن استعملت أبياته في الاستشهاد طوائف مختلفة من العلماء. اعتماداً على أن الشعر حجة والشاعر صاحب حجة⁽²⁴⁾. ويمكننا عرض مواطن الاستشهاد في هذه القصيدة عند كل طائفة من العلماء على النحو التالي :

I — النحاة :

استشهد النحاة من هذه القصيدة بثلاثة أبيات، الأول قوله :
سلي — إن جهلت — الناس عنا وعنهم فليس سواءً عالمٌ وجهولٌ
وهذا هو شاهد جواز تقديم خبر ليس على آسمها،⁽²⁵⁾ وهو دليل من قال بالجواز في الرد على من لم يقبله، كآبن درستويه (ت 347 هـ)⁽²⁶⁾ والمبرد (ت 285 هـ) وابن السراج (ت 549 هـ) والكوفيين⁽²⁷⁾.

والثاني قوله :

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة إذا ما رأته عامراً وسلولٌ
وهذا هو شاهد الصلة عندما تعرى من ضمير الموصول. وقد «كان وجه الكلام أن يقول : ما يرون القتل سبة، حتى يرجع الضمير من صفة القوم إليه ولا تعرى منه... قال أبو عثمان المازني : لولا صحة مورده وتكرره لرددته»⁽²⁸⁾.

والثالث قوله :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميلٌ
وهذا من شواهد «المغني» على «أن لفظ «كل» حكمه الأفراد والتذكير، وأن

(24) الإمتاع والمؤانسة. 2 / 136.

(25) شرح أبيات المغني 4 / 207. وشرح ابن عقيل 1 / 273. وشرح ابن الناظم 133 وشواهد القطر. 12.

(26) شواهد القطر 12.

(27) شرح ابن الناظم 135.

(28) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي 1 / 114 — 115.

معناها بحسب ما تضاف إليه. فإن كانت مضافة إلى مُنكرٍ وجب مراعاة معناها..» (29) فلذلك جاء الضمير في هذا البيت مفرداً مذكراً.

ويمكن أن نضيف هنا أنه ترتب عن اختيار هذه الشواهد من لدن النحاة، وشواهد أخرى من نفس القصيدة من لدن البلاغيين، اهتمام أكبر بهذه القصيدة من لدن سائر العلماء، إذ كانوا سبباً في اهتمام مؤلفي كتب شرح الشواهد بهذا النص؛ وهي التآليف التي يمكن اعتبارها نقطة التقاء يجتمع عندها النحاة واللغويون والأدباء والبلاغيون، بل وأهل التاريخ أحياناً.

II — البلاغيون :

استشهد البلاغيون من هذه الحماسية بأربعة أبيات في خمسة مواطن، وذلك على النحو التالي :

1 — البيت الأول : وهو شاهد الاستطراد، قوله :

وإنا لقوم مانرى القتل سبة إذا مارأته عامرٌ وسلولٌ
ويمكن أن نقدم الجدول التالي مثلاً على ترده في كتب البلاغة والأدب، وعلى ما أثاره هذا البيت من ملاحظات ومناقشات وتعقيبات، مع ترتيب كل ذلك ترتيباً زمنياً حسب وفيات المؤلفين.

(2) البيت الثاني وهو قوله :

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول
ويستعمل شاهداً على شيئين :

أ — السلب والإيجاب : وجدوله، وفق الأسلوب الذي اتبعناه، على النحو

التالي :

(29) مغني اللبيب. 258.

الملاحظات	المؤلف	الكتاب
يعالج ابن المعتز مبحث الاستطراد تحت عنوان : حسن الخروج من معنى إلى معنى، وهو عنده من محاسن الكلام. وهو لا يجزم بأن البيت للسموأل إذ يقول : «وقال آخر، ويقال إنه السموأل بن عاديا اليهودي».	ابن المعتز (ت 296 هـ)	1 — كتاب البديع ⁽³⁰⁾
يجعل الحاتمي السموأل أول من ذكر الاستطراد في شعره، ثم تعاور الشعراء بعده هذا المعنى.	الحاتمي (ت 388 هـ)	2 — حلية المحاضرة ⁽³¹⁾
هو عنده من فصول الباب التاسع الذي جعله في شرح البديع، وهو كالحاتمي يجعل هذا البيت للسموأل.	العسكري (ت : بعد 395 هـ)	3 — كتاب الصناعتين ⁽³²⁾
ينسب الباقلاني بدوره هذا البيت للسموأل.	الباقلاني (ت : 403 هـ)	4 — إعجاز القرآن ⁽³³⁾

(30) البديع. 60 — 61.

(31) الحلية. 1/164.

(32) الصناعتين 448 — 449.

(33) إعجاز القرآن 103 — 104.

الملاحظات	المؤلف	الكتاب
يكرر الحصري نفس كلام الحاتمي تقريباً فيقول : «قال أبو إسحاق : وأول من ابتكره السموأل بن عادياء اليهودي، وكل أحد تابع له.	الحصري القيرواني (ت 453 هـ)	5- زهر الآداب ⁽³⁴⁾
قال ابن رشيقي : «وأوضح الاستطراد قول السموأل، وهو أول من نطق به...». ويتميز ابن رشيقي بتمييزه بين الاستطراد وبين الخروج. وأكثر الناس يسمون الجميع استطراداً.	ابن رشيقي القيرواني (ت 456 هـ).	6- العمدة ⁽³⁵⁾
قال ابن بسام : «وأصح الاستطراد قول السموأل...».	ابن بسام (ت 542 هـ)	7- الذخيرة ⁽³⁶⁾
نص أسامة على أربعة أشياء هي : أولاً : إن أول من نبه على الاستطراد أبو تمام والبحري ثانياً : إن الاستطراد عنده خاص بالمدح والذم. ثالثاً : إن الاستطراد في أشعار المتأخرين بالقصد وفي أشعار المتقدمين بالطبع.	أسامة بن منقذ (ت 584 هـ)	8- البديع في نقد الشعر ⁽³⁷⁾

(34) زهر الآداب. 1086/4.

(35) العمدة 1/628.

(36) الذخيرة 2/901.

(37) البديع 75-76.

الملاحظات	المؤلف	الكتاب
ولعل هذه العبارة الأخيرة هي التي أوحى إلى القزويني بفكرة الاستطراد وإيهام الاستطراد. رابعاً : رغم أن صاحب الحماسة أنشد هذا البيت للسموأل بن عاديا.		
إذا كان أهل البلاغة قد زعموا أن سموأل أسبق الناس إلى الاستطراد، فقد جعل ابن أبي الإصبع هذا السبق مقتصراً على ميدان الهجاء، ثم جعل امرأ القيس مشاركاً سموأل الفضل في كونه أول من استطرد بالنسب في قوله : عوجاً على الطلل الخيل لعلنا نبكي الديار كما يبكي ابن حمام	ابن أبي الإصبع المصري (ت. 654 هـ).	9 — تحرير التحرير (38)
لم ينسب ابن البناء هذا البيت — على عادته — لأحد، (40) مستعملاً عبارة (كقوله). فقد كان اتهامه منصرفاً إلى الشاهد لا إلى صاحبه	ابن البناء المراكشي (ت 721 هـ)	10 — الروض المريع (39)
حاول القزويني أن يميز بين الاستطراد، (وهو الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به لم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني)، وشاهده هذا البيت.	القزويني (ت 739 هـ)	11 — الإيضاح (41)

(38) تحرير التحرير. 132.

(39) الروض المريع. 96.

(40) قال في مقدمة التحقيق : «ولا ينسب المؤلف شواهد الشعر وأمثله إلى أصحابها ولم يتخلف عن هذا المنهج سوى في مواضع نادرة جداً». ص 45.

(41) شروح التلخيص. 315/4.

الملاحظات	المؤلف	الكتاب
وبين إيهام الاستطراد وهو أن (يكون الثاني هو المقصود فيذكر الأول قبله ليتوصل إليه). وشاهده آيات أوردها لأبي إسحاق الصائبي.		
يتميز حديث الحلي عن الاستطراد بأربعة أشياء : أولاً : لم يعين قائل هذا البيت واكتفى — كما فعل معاصره القزويني — بنسبته إلى الحماسة. ثانياً : لم يقصر الاستطراد على المدح والذم، كما فعل أسامة بن منقذ، بل جعله مستعملاً في كل غرض من أغراض الشعر. ثالثاً : جعل الاستطراد من غرض لآخر محتاجاً إلى نوع من أنواع البديع. رابعاً : تابع ابن رشتيق في التمييز بين الاستطراد وبين الخروج.	صفي الدين الحلي (ت 750 هـ)	12 — شرح الكافية البديعية (42).
يختلف تعريف ابن القيم للاستطراد عن تعريف سابقه إذ جعله خاصاً بالذم، ولذلك رأى أنه في القرآن كثير، وهو الرأي الذي	ابن القيم (ت 751 هـ)	13 — الفوائد المشوق إلى علوم القرآن (43)

(42) شرح الكافية البديعية. 73.
(43) الفوائد 200.

الملاحظات	المؤلف	الكتاب
خالفه فيه بدر الدين بن مالك ⁽⁴⁴⁾ الذي كان يرى أنه قليل في القرآن الكريم. وعلى الرغم من ذلك ظل هذا البيت صالحاً للاستشهاد، وهو ينسبه للسموأل بن عاديا.		
يتابع السبكي القزويني في الاكتفاء بنسبة البيت إلى الحماسة.	بهاء الدين السبكي (ت 772 هـ).	14 — عروس الأفراح ⁽⁴⁵⁾
ينسب الرعيني هذا البيت للسموأل؛ ويرى أن الاستطاد في القصيدة واقع في بيتين، أحدهما هو هذا البيت الذي نحن في صدد ذكره. والثاني هو البيت الذي يليه وهو قوله : يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكره آجالهم فتطوّل.	الرعيني (ت 779 هـ)	15 — طراز الحلة ⁽⁴⁶⁾
ينسب العباسي هذا البيت للسموأل بن عاديا اليهودي	عبد الرحيم العباسي (ن 693 هـ)	16 — معاهد التنصيص ⁽⁴⁷⁾

(44) شروح التلخيص (عروس الأفراح) 315/4.

(45) المصدر نفسه.

(46) طراز الحلة. 422 — 423.

(47) معاهد التنصيص 384/1.

الملاحظات	المؤلف	الكتاب
ينسب العسكري هذا البيت للسموأل، كما فعل عند ذكره لشاهد الاستطراد.	العسكري (ت، بعد 395 هـ)	1 — الصناعتين (48)
ينسب ابن سنان بدوره هذا البيت للسموأل، والسلب والإيجاب عنده من باب تناسب الألفاظ من طريق المعنى (50).	ابن سنان الخفاجي (ت. 466 هـ)	2 — سر الفصاحة (49)
لا ينسب التبريزي هذا البيت لشاعر معين، ويكتفي بعبارة (كقوله)	الخطيب التبريزي (ت 502 هـ).	3 — الوافي في العروض (51) والتوافي.
يذكر ابن حيدر نفس عبارة (الوافي) في تعريف السلب والإيجاب لا يخرم منها حرفاً، إلا أنه يضع في مكان (كقوله)، (كقول الشاعر)، ولعلهما جميعاً نقلاً من مصدر واحد.	ابن حيدر البغدادي (ت. 517 هـ).	4 — قانون البلاغة (52)

(48) الصناعتين 456 — 457.

(49) سر الفصاحة. 205.

(50) المصدر نفسه. 199.

(51) الوافي. 277.

(52) قانون البلاغة. 108.

الملاحظات	المؤلف	الكتاب
يجعل حازم هذا البيت للسؤال، والإيجاب والسلب عنده نوع من أنواع المطابقة.	حازم القرطاجني (ت، 684 هـ).	5 — منهاج البلغاء (53)
يقسم القزويني الطباق إلى طباق إيجاب وطباق سلب. وهذا البيت عنده شاهد على النوع الثاني. وقد فعل هنا ما فعله عند ذكره لشاهد الاستطراد بعدم تعيينه للشاعر، إذ اكتفى بعبارة (وقول الشاعر) ثم ذكر البيت.	القزويني (ت 739 هـ)	6 — الإيضاح (54)
يفعل السبكي هنا ما فعله عند وقوفه عند شاهد الاستطراد، باتباعه القزويني في عدم تعيينه للشاعر.	هباء الدين السبكي (ت 772 هـ).	7 — عروس الأفراح (55)
يعتبر السجلماسي (السلب والإيجاب) من أقسام جنس المبالغة، (57) وهو كذلك لا يذكر صاحب البيت، ويكتفي بقوله : (ومن صور هذا النوع... قول الشاعر...).	السجلماسي (ق : 8 هـ)	8 — المنزع البديع (56)
لم يعين الشاعر، وعبارته هي : «... وفي الشعر نحو قوله». وذكر البيت.	أبو البقاء الكفوي (ت 1094 هـ)	9 — الكليات (58)

(56) المنزع البديع. 334 — 335.

(57) هو النوع الخامس من قسمة النوع الثاني من جنس المبالغة.

(58) الكليات. 512.

(53) منهاج البلغاء. 50.

(54) شروح التلخيص 290/4 — 291.

(55) المصدر نفسه.

ب — الإيجاز والإطناب : وهذا هو جدولته على النهج الذي تتبعه :

جدول رقم 3

الملاحظات	المؤلف	الكتاب
يصف هذا البيت بالإطناب بالنظر إلى قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ وإن كانت عبارته في التلخيص التي وقف عندها الشراح هي : ويقرب منه قوله تعالى .. ذلك أن الكلام إنما يوصف بالإيجاز والإطناب (باعتبار كثرة حروفه وقلتها بالنسبة إلى كلام آخر مُسَاوٍ له في أصل المعنى)؛ والكلامان هنا لا يتساويان في أصل المعنى بل كلام الله سبحانه وتعالى أجل وأعلى، كما قال السعد في مختصره. ⁽⁶¹⁾	الخطيب القزويني (ت 739 هـ)	1 - التلخيص في علوم البلاغة ⁽⁵⁹⁾ و 2 - الإيضاح ⁽⁶⁰⁾

والقزويني على عادة لا ينسب هذا البيت إلى شاعر معين. وعبارته في التلخيص كمثل عبارته في الإيضاح. وهي : (.. وقول الحماسي..)

- (59) التلخيص 234 - 235.
(60) شروح التلخيص 252/3 - 255.
(61) المصدر نفسه 254/3 - 255.

الملاحظات	المؤلف	الكتاب
ناقش السبكي مسألة نسبة هذا البيت، فذكر أن صاحبه هو الجلاح عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، ثم قال : «وقد عزى هذا البيت للسموأل بن عاديا، قيل : ولا يصح، لأنه ورد في هذه القصيدة : وما مات منا سيد حتف أنفه، وقد أجمعوا على أن الرسول ﷺ لم يسبق إلى قوله : حتف أنفه. والسموأل جاهلي».	بهاء الدين السبكي (ت 772 هـ)	3 — عروس الأفراح (62)
يكتفي التفتازاني باتباع نهج صاحب التلخيص بنسبة البيت إلى الحماسة دون ذكر اسم الشاعر.	سعد الدين الهروي (ت 792 هـ)	4 — مختصر سعد الدين التفتازاني (63)
يروى العباسي هذه القصيدة التي منها هذا البيت للسموأل بن عاديا اليهودي، لذلك فهو يروي الشطر الذي سبق أن وقف عنده السبكي، هكذا : «ومامات منا سيد في فوائده».	عبد الرحيم العباسي (ت. 693 هـ).	5 — معاهد التنصيص (64)

(62) المصدر نفسه.

(63) المصدر نفسه.

(64) معاهد التنصيص 1/ 382 — 384.

الملاحظات	المؤلف	الكتاب
على الرغم من أن موضوع هذا الكتاب هو شرح شواهد كتاب نحو، فقد عرَّج البغدادي على ذكر هذا البيت، مُنبِّهاً على أنه من شواهد الإطّباب عند علماء البلاغة، ثم ذكر قولهم في عبارة مختصرة.	عبد القادر البغدادي (ت 1081 هـ)	6 — شرح أبيات مغني الليث ⁽⁶⁵⁾
يلاحظ أن شرح ابن يعقوب لقول صاحب التلخيص : (وقول الحماسي)، شرحٌ غير دقيق، بل يمكن اعتباره شرحاً خاطئاً، إذ قال : «(وقول الحماسي) أي الشخص المنسوب إلى الحماسة وهي الشجاعة» وواضح أن القزويني لم يكن يقصد المعنى اللغوي للكلمة، وإنما كان يقصد (ديوان الحماسة) لأبي تمام.	ابن يعقوب المغربي (ت 1128 هـ)	7 — مواهب الفناح ⁽⁶⁶⁾
يتميز كلام الدسوقي حول هذا البيت بثلاثة أمور، هي : أولاً : شرحه لمعنى (الحماسي) بنفس شرح ابن يعقوب المغربي. ثانياً : نسبته البيت للسموأل بن عاديا اليهودي، لذلك روى الشطر الذي سبق أن وقف عنده السبكي بنفس رواية المعاهد وهي : وما مات منا سيد في فرائشه. ثالثاً : اعتقاده أن في ختم المصنف فن المعاني بهذا البيت تورية (بأن سلك فيه مسلكاً لا سبيل للاعتراض عليه فيه) ⁽⁶⁸⁾ .	محمد بن أحمد بن عرفة المصري (ت 1230 هـ).	8 — حاشية الدسوقي ⁽⁶⁷⁾ على شرح السعد

- (65) شرح أبيات المغني 206/4.
(66) شروح التلخيص 254/3 — 255.
(67) المصدر نفسه 254/3.
(68) المصدر نفسه. 255/3.

3 - البيت الثالث وهو قوله :

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
وهو شاهد التكميل أو الإكمال عندهم. ويبدو أن الذين اهتموا أكثر بالتكميل
في هذه القصيدة هم بلاغيو القرنين السابع والثامن الهجريين. وهكذا فقد ذكر
هذا البيت بآثاره من مليح التكميل ابن أبي الإصبع المصري (ت 654 هـ) (69)
ونسبه إلى السموأل ورواه (وما مات منا سيد في فراشه). وكذلك رواه الطيبي
(ت 743 هـ) صاحب التبيان (70) واكتفى بنسبة البيت إلى الحماسة (71) ونسبه
إلى السموأل ورواه بنفس ألفاظ التحرير صاحب الطراز (ت 749 هـ) (72)
وكذلك نسبه إلى نفس الشاعر صفى الدين الحلي (ت 750 هـ)، في شرح الكافية
البديعية (73) إلا أنه خالفهم جميعاً بأن اختار رواية الحماسة وهي : (وما مات
منا سيد حتف أنفه)، وكأنه يرى أن هذه العبارة غير مناقضة لنسبة القصيدة
إلى السموأل اليهودي، بآثارها لم تسمع من مخلوق قبل النبي ﷺ، والسموأل
جاهلي.

4 - البيت الرابع، وهو قوله :

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل
وهو شاهد المطابقة عند الباقلاني (74) وقد جاء في كتابه (إعجاز القرآن)
منسوباً إلى السموأل.

ويمكن أن نضيف إلى ما ذكرناه أن القصيدة كلها تعتبر من شواهد المطابقة
بين اللفظ والمعنى وذلك من أوصاف التركيب عند الطيبي (ت 743 هـ) (75)

(69) تحرير التحرير. 358 — 359.

(70) التبيان. 357.

(71) المصدر نفسه 374.

(72) الطراز 3 / 109 — 110.

(73) شرح الكافية البديعية. 142.

(74) إعجاز القرآن 80 — 83. والمطابقة هنا بمعنى ذكر الشيء وضده.

(75) التبيان 519 — 520.

ومن شواهد الجمع بين الجزالة وبين السهولة والاستعذاب عند ابن الأثير⁽⁷⁶⁾ (ت 637 هـ)، وكلاهما يجعل هذه القصيدة للسموأل بن عاديا. مع الإشارة إلى تأثر الطيبي الجلي بآبن الأثير، في تعليقه على هذه القصيدة، تأثرا جعله يأخذ عبارات ابن الأثير بنفسها أحيانا.

إن التأمل في هذه الجداول التي أوردناها يبين لنا بوضوح أن قضية نسبة هذه الأبيات عند البلاغيين مرت بمرحلتين زمنيتين، تمتد الأولى من القرن الرابع إلى غاية القرن السابع، وتمتد الثانية من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر.

فأما في المرحلة الأولى، فيكاد البلاغيون يجمعون على أن هذه القصيدة للسموأل، وأما في المرحلة الثانية، فيكتفي أغلبهم باستعمال عبارات غير محددة لنسبة هذه الأبيات تحديداً دقيقاً، من مثل : (كقول الحماسي) و (كقوله) و (كقول الشاعر).

ويمكن أن نضيف، إلى هذه الملاحظة، ملاحظتين أخريين تكونان كالشرح والتبيين لها، هما :

أولاً : إن هذا الأمر يعرف بعض التغير من شاهد لآخر، فبينما نجد الإجماع يكاد يكون تاماً حول نسبة شاهد الاستطراد للسموأل قبل القرن الثامن، لولا عبارة ابن المعتز التي لاتوحي باقتناعه التام بنسبة هذا البيت له، نجد من البلاغيين من تحدث عن شاهد السلب والإيجاب دون أن يحرص كثيراً على نسبة البيت للسموأل وإن لم ينسبه إلى غيره. وهذا أمر تفسيره قريب إذ أن النقاد والبلاغيين قد زعموا أن سموأل أسبق الناس إلى الاستطراد، ولتأكيد ذلك فقد كان من البديهي أن يتم اتفاقهم حول نسبة هذا البيت إليه. فهذا البيت هو حجتهم على ذلك. وأما (السلب والإيجاب) فهو نوع لم يزعموا أن سموأل سبق إليه، فكان حرصهم لذلك أقل على أن يثبتوا نسبة هذا البيت له.

والذي يثير الانتباه منذ القرن الثامن وما بعده، أن العلة التي جعلت البلاغيين يحرصون على نسبة شاهد الاستطراد للسموأل ظلت قائمة عند جماعة منهم، كابن القيم والرعييني والعباسي، ففعل هؤلاء كما فعل سابقوهم بأن نسبوا هذا الشاهد

(76) المثل السائر 1/ 189 — 190.

له. وهو مالا نجده في شاهد (السلب والإيجاب) مثلاً، فكل الذين اطلعنا على مؤلفاتهم من البلاغيين يستعمل تلك العبارات غير المحددة التي ذكرناها. وليس منهم من حرص على الإشارة إلى السموأل بوجه من الوجوه.

ويمكن أن نوضح هذه الملاحظة الأولى بالجدولين التاليين المعتمدين أساساً على الجدولين رقم 1 و 2 :

جدول رقم 4

الملاحظات	السموأل	الاستطراد
عبارة ابن المعتز هي : «وقال آخر ويقال انه السموأل بن عاديا اليهودي».	×	ابن المعتز (ت 296 هـ)
	×	الحائمي (ت 388 هـ)
	×	العسكري (ت بعد 395 هـ)
	×	الباقلائي (ت 403 هـ)
	×	الحصري (ت 453 هـ)
	×	ابن رشيقي (ت 456 هـ)
	×	ابن بسام (ت 542 هـ)
	×	أسامة بن منقذ (ت 584 هـ)
	×	ابن أبي الأصبع (ت 654 هـ)
	×	ابن البناء (ت 721 هـ)
	×	القزويني (ت 739 هـ)
وقد نسب الحلي هذه القصيدة للسموأل في مكان آخر	×	صفي الدين الحلي (ت 750 هـ)
	×	ابن القيم (ت 751 هـ)
	×	السبكي (ت 772 هـ)
	×	الرغبني (ت 779 هـ)
	×	عبد الرحيم العباسي (ت 963 هـ)

جدول رقم 5

الملاحظات	الحماسي، الشاعر، كفوله	السموأل	السلب والإيجاب
		×	العسكري (ت. بعد 395 هـ)
		×	ابن سنان (ت 466 هـ)
	×		التبريزي (ت 502 هـ)
	×		ابن حيدر (ت 517 هـ)
هما عنده من أنواع المطابقة		×	حازم القرطاجني (ت 684 هـ)
يقسم هذا النوع إلى طباق إيجاب وطباق سلب، وشاهد الثاني بيت سموأل	×		الفريزي (ت 739 هـ)
	×		السبكي (ت 772 هـ)
هما عنده من أقسام جنس المبالغة.	×		السجلسماسي (ق. 8 هـ)
	×		الكفوي (ت 1094 هـ)

ثانياً : إن شاهدي (الإيجاز والإطناب) و (الإكمال) إنما تم الاعتناء بهما بعد القرن السابع الهجري. لذلك لاسبيل إلى إقامة هذه الموازنة ما بين مرحلتين زمنيتين مختلفتين هنا، كما فعلنا عند الحديث عن شاهدي (الاستطراد) و (السلب والإيجاب).

أما (الإكمال) فشاهده بيتٌ لعله كان السبب في اضطراب نسبة هذه القصيدة كما يفهم من كلام السبكي الذي سبق أن أوردناه (انظر الجدول رقم 3). وينسبه البلاغيون الذين اطلعنا على أقوالهم للسموأل، إلا أنهم يغيرون من رواية الحماسة، فيجعلون في مكان (حتف أنفه)، (في فراشه). وبذلك يخرجون من الإشكال الذي يكمن سببه في كونهم ذكروا أن الرسول، ﷺ، هو أول من استعمل هذه العبارة، لم يسبقه إليها عربي قط. لا يستثنى من ذلك — حسب اطلاعي — إلا صفي الدين الحلي، فقد روى البيت برواية الحماسة ونسبه، مع ذلك، للسموأل. والجدول الذي وضعناه يبين ذلك.

جدول رقم 6

الإكمال	السموأل	الحماسي	الملاحظات
ابن أبي الإصبع المصري (ت 654 هـ)	×		روايته هي : في فراشه.
الطبيي (ت 743 هـ)		×	روايته هي : في فراشه. ويقصد بالحماسي سموأل، كما يظهر في مكان آخر ص 520.
يحيى بن حمزة العلوي (ت 749 هـ)	×		روايته هي : في فراشه.
صفي الدين الحلي (ت 750 هـ)	×		روايته هي رواية الحماسة : حنف أنفه.

وأما (الإيجاز والإطناب). فشاهده بيت هو نفسه شاهد (السلب والإيجاب) كما رأينا، (الجدول رقم 2. ورقم 3). لذلك نلاحظ نفس ملاحظاته عند حديثنا عن (السلب والإيجاب) من كون أغلب البلاغيين بعد القرن الثامن قد حرصوا على أن لا ينسبوا هذا البيت للسموأل. وهو ما يظهر من خلال الجدول التالي :

جدول رقم 7

الإيجاز والإطناب	السموأل	الحماسي	الجلاح، عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي
القزويني (ت. 739 هـ)		×	
السبكي (ت 772 هـ)			×
سعد الدين التفتازاني (ت 792 هـ)		×	
عبد الرحيم العباسي (ت 963 هـ)	×		
ابن يعقوب المغربي (ت 1128 هـ)		×	
الدسوقي (ت 1230 هـ)	×		

إن هذه الملاحظات التي ذكرناها تدفعنا إلى وضع سؤال هو : لماذا نجد أغلب البلاغيين بعد القرن الثامن، قد قل اهتمامهم بنسبة هذه الأبيات للسموأل، بل ومنهم من أنكر أن تكون هذه القصيدة له أصلاً؟!..

إن السبب في ذلك، في نظري، أمران. هما :

أولاً : تغير طبيعة البلاغة، إذ كانت قد تحولت منذ عهد السكاكي (ت 626 هـ)، ثم القزويني بعده (ت 739 هـ)، إلى قواعد مجردة اقترنت بها شواهد مكررة. حيث لم يعد استنباط قواعد جديدة من نصوص أخرى بالأمر الذي يشغل البلاغيين. فعلت مرتبة الشاهد وتدنت أهمية صاحبه، وأصبحت الحاجة إلى معرفة صاحب النص غير ماسة، نتاجاً لغياب ذلك التفاعل القديم بين النصوص الأدبية والبلاغة. وهو الأمر الذي جعلنا نجد بلاغياً متأخراً هو ابن يعقوب المغربي (ت 1128 هـ) على حذقه في علم البلاغة يخطيء في فهم معنى قول القزويني : (وقول الحماسي)، فلا يدرك أنه يقصد بذلك شاعراً من شعراء حماسة أبي تمام (انظر الجدول رقم 3). وكذلك يفعل الدسوقي (ت 1230 هـ) في شرحه لنفس العبارة، فكأن التمكن من علم البلاغة عندهم لم يعد يقتضي الاطلاع الواسع على نصوص الأدب.

ثانياً : ازدهار حركة شرح كتاب (الشفاء) للقاضي عياض (ت 544 هـ). (77) حيث تحدث عياض في هذا الكتاب عن فصاحة الرسول ﷺ، فذكر العبارات التي لم يسبق إليها ﷺ، ومنها قوله، صلوات الله عليه، «مات حتف أنفه». فكان أن أثارت هذه الإشارة انتباه الشراح، كالشمسي

(77) يمكن أن نذكر من هذه الشروح التي ظهرت في القرن الثامن شرح أبي المحاسن عبد الباقي البجلي (ت 743 هـ) وعنوانه : (الاكتفا في شرح ألفاظ الشفاء)، وشرح ابن مرزوق التلمساني (ت 781 هـ). ومن المختصرات مختصر الشفاء للأسنوي (ت 763 هـ) ومن التعليقات تعليق سبط ابن العجمي (ت 841 هـ) إلا أنه فرغ منه سنة 797 هـ.

ولم يزل العلماء بعد هذا القرن يتعاقبون على الاهتمام بهذا الكتاب، شرحاً وتلخيصاً وتعليقاً وحواشي وتخريج أحاديث وشرحاً لبعض الألفاظ، مما جعل تأثير هذا الكتاب في المتأخرين أوضح منه في العلماء الذين عاشوا قبل القرن الثامن. وذلك على الرغم من أن هذا الكتاب قد شرح وعياض لم يزل حياً. شرحه ابن بركات الطرابلسي. (ت في حدود 540 هـ).

(ت 872 هـ) مثلاً، حيث جاء في كتابه (مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء) قوله :
 «... قيل : كيف يكون هذا من الألفاظ التي لم يسبق بها ﷺ، وقد قال السموأل
 من قصيدة لامية اختارها أبو تمام في حماسته :
 وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل
 وأجيب : بأن القصيدة المذكورة تختلف في قائلها. فقيل : السموأل. وقيل :
 عبد الملك الحارثي، وهو إسلامي». (78)

ولاشك أن كافة البلاغيين الكبار كانوا قد اطلعوا على كتاب (الشفاء)، فهو
 كما يصفه صاحب (كشف الظنون) : «كتاب عظيم النفع، كثير الفائدة، لم يؤلف
 مثله في الإسلام..» (79) ولاشك أن جماعة منهم قد اطلعت على بعض شروحه
 أيضاً فأثارهم في هذا الكتاب مآثر الشراح فيه، وهو ما جعلهم يترددون في نسبة
 هذه القصيدة للسموأل، كما رأينا.

ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الذهن، هنا، هو : لماذا إرجاع هذا الأمر إلى
 أزدهار حركة شرح الشفاء مادامت هذه العبارة التي نطق بها الرسول ﷺ قد
 وردت في أكثر من مصدر حديثي قديم قبل عياض وكتابه ؟!

أرى أن الجواب عن هذا السؤال يقتضي معرفة مواطن ورود هذا الحديث
 في كتب الشريعة، فهو يرد غالباً في ثلاثة مواطن : في كتب غريب الحديث،
 وعند ذكر أحاديث فضل الجهاد وعند الحديث عن حكم أكل السمك الطافي.
 وبأسلوب آخر فإنه يرد باستمرار في نوع واحد من أنواع كتب الحديث هي
 كتب غريبه، وفي كتب الأحناف الذين يرون منع أكل السمك الطافي، وقليلًا
 ما يرد عند ذكر أحاديث الجهاد. وهكذا فهو لا يرد في كتب الحديث كثيراً، ولا يرد
 في جميع كتب الفقه. لذلك فإنه لم يثر انتباه البلاغيين، فقد كان اهتمام أغلبهم
 منصرفاً إلى قضايا أخرى غير هذه. فلما ألف عياض كتابه ورُزق الانتشار وشرح
 أكثر من شرح وتضمن ما يجذب اهتمام البلاغيين من حديث عن فصاحة الرسول
 ﷺ وبلاغته. كان ذلك كافياً ليشد انتباههم إلى جزئية لم تنجح كتب أخرى

(78) مزيل الخفاء 80/1.

(79) كشف الظنون 1053 / 2.

قبل (الشفاف) في شد انتباههم إليها⁽⁸⁰⁾. فحدث هذا التفاعل الذي نَجده بين بعض شراح الشفاو بين بعض شراح التلخيص، ومثال ذلك أن نفس ملاحظته السبكي (ت 772 هـ) في نسبة هذه القصيدة (انظر الجدول رقم 3) لاحظته الشمني (ت 872 هـ) تقريباً في كتابه (مزيل الخفاء)، كما رأينا.

وهكذا أصبحت قضية نسبة هذه القصيدة عند المتأخرين مسألة تستحق الاهتمام، وهي القضية التي لم يكن العلماء يعيرونها قبل القرن الثامن اهتماماً كبيراً. ولناخذ المعاجم مثلاً، فقد ورد هذا الحديث في مادة (حتف) في لسان العرب⁽⁸¹⁾ دون أن يحتاج ابن منظور، الذي عاش أغلب عمره في القرن السابع (ت 711 هـ)، إلى أن يشير إلى كونها كلمة قد وردت في شعر السموأل، وأنها لذلك تحتاج إلى نظر وتأمل. لكونها مسألة لم يكن العلماء يقفون عندها. ثم ورد هذا الحديث، بعد ذلك، في (تاج العروس) للزبيدي (ت 1205 هـ)، حيث علق عليه بقوله : «... قلت : وقد جاء في بيت السموأل أيضاً. وهو يخالف ما سبق من قول راوي الحديث : إنها كلمة لم يسمعها من أحد من العرب قط قبل رسول الله ﷺ. وأجابوا : بأنه لم يسمعها أو أن الرواية ليست كذلك، كما نقله شيخنا وفيه نظر وتأمل»⁽⁸²⁾

لهذه الأسباب مجموعة كانت خلاصة الخلاصات التي انتهى إليها البلاغيون، فيما يخص هذا الموضوع، هي مانجده عند الدسوقي (ت 1230 هـ) في حاشيته، حيث أدى به بعده عن النصوص واقتصاره على ذكر القواعد المجردة بشواهد المكررة إلى أن يخطأ في شرح المقصود بمعنى (الحماسي) في كلام القزويني قال : (قوله وقول الحماسي) بكسر السين وتشديد الياء أي الشخص المنسوب إلى الحماسة وهي الشجاعة لتعلق شعره بها...»⁽⁸³⁾.

وأدت به محاولته التوفيق بين ما ذكر عن النبي ﷺ من أنه أول من نطق بعبارته

(80) من ذلك أن الأعلام الشنتمري (ت 476 هـ) سبق، في شرحه للحماسة، إلى الوقوف عند هذا الخلاف وأثره على رواية هذا البيت. 260 / 1 — 261.

(81) اللسان. مادة حتف 9 / 38.

(82) تاج العروس. مادة حتف 65/6.

(83) شروح التلخيص 3 / 254.

(حتف أنفه) وبين مازعمه البلاغيون من كون السموأل أسبق الشعراء إلى الاستطراد إلى أن نسب القصيدة للسموأل⁽⁸⁴⁾ وروى البيت، الذي هو شاهد الإكمال عندهم، بعبارة : وما مات منا سيد في فراشه.⁽⁸⁵⁾

III — الأدباء :

نحاول أن ندرج تحت هذا العنوان مجموعة من التأليف التي وضعت في النقد والشروح الأدبية والمحاضرات. ومؤلفو هذا النوع من الكتب يقفون من قضية نسبة هذه القصيدة موقفين :

— **الموقف الأول :** هو الذي نجده عندما يكون المؤلف بصدد (تأصيل المعنى)، وهو في ذلك محتاج إلى ذكر أن له أشباهاً في الشعر الجاهلي وأن العرب كانت تستعمل مثله. وقريب من هذا أن يكون السياق مستدعياً ذكر ماكانت العرب تعتقده في موضوع معين. ويترتب عن هذين الأمرين أن ينسب المؤلف أبيات هذه القصيدة للسموأل بن عاديا.

ومثال الأمر الأول، ما جاء في كتاب (نقد الشعر) لقدامة (ت 337 هـ) الذي رأى أن السموأل كان عارفاً بالفضائل التي هي فضائل بالحقيقة. فأوجبها لقومه. ولذلك كانت قصيدته نافعة في تعليم المدح والمجاء الجارين على الصواب⁽⁸⁶⁾.

ومثال الأمر الثاني، ماورد في (ديوان المعاني) للعسكري (ت : بعد 395 هـ)، عندما أشار إلى إحسان السموأل في مخالفته ماكانت تعتقده العرب في وجوب الافتخار بكثرة العدد، حيث قال : «والعرب تفتخر بكثرة العدد وتذم قلته.. وأحتج السموأل لقلة العدد فأحسن :

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها : إنَّ الكرامَ قليلٌ...»⁽⁸⁷⁾

(84) المصدر نفسه.

(85) المصدر نفسه.

(86) نقد الشعر 93 و 194 — 195.

(87) ديوان المعاني 1/ 83. وانظر أمثلة أخرى على هذا النوع في المستطرف للأبشيبي (ت 850 هـ) 1/ 203 — 204 وحاشية البغدادى (ت 1080 — 1081 هـ) على شرح بانت سعاد لابن هشام 1/ 340 — 341 والمحاضرات لليوسي (ت 1102 هـ) ص 62 — 63.

الموقف الثاني : هو الذي نجده عندما يكون المؤلف بصدد نقل اختيارات شعرية مرتبة ترتيباً معيناً، فهو حينئذ يعود إلى الحماسة فينقل تلك العبارة التي نجدها عادةً في كتب (شروح الحماسة)، والتي مفادها أن القصيدة للحارثي وتروى للسموأل⁽⁸⁸⁾ وهو ما فعله ابن حجة الحموي (ت 837 هـ) في (تأهيل الغريب)⁽⁸⁹⁾ حيث عبارته تدل على نقله من الحماسة مباشرة. قال : «فالذي وقع عليه الاختيار من حماسة أبي تمام... وقال عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي وتروى للسموأل بن عادي اليهودي :

تعرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها : إن الكرام قليل»⁽⁹⁰⁾
وقد نعد من أصحاب هذا الموقف أيضاً الراغب الأصبهاني (ت 500 هـ) إذ نسب في كتاب المحاضرات بيتين من هذه القصيدة للحارثي، وهما :
وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتل
تسيل على حد السيوف نفوسنا وليس على غير السيوف تسيل⁽⁹¹⁾
والملاحظ أنه روى البيت الأول بعبارة (حتف أنفه)، على الرغم من أن معاصره الأعلام الشنتمري (ت 476 هـ) يرى أن «من رواها للسموأل روى «وما مات منا سيد في فراشه»⁽⁹²⁾ مما يزكي ما سبق أن زعمناه من أن الوعي الكامل بهذه القضية إنما كان مصاحباً لحركة شرح كتاب (الشفاء) للقاضي عياض.

لقد بين لنا الجزء الأول من هذا البحث أنه كان هناك صراع خفي حول هذا النص وحول نسبته في كتب الأدب واللغة والنحو وشرح الشواهد والمعاجم وغيرها. مما يجعلنا نخصص هذا الجزء الثاني منه للبحث في أسباب هذا الصراع. وهو، في نظرنا، صراع له جانبان : جانب ديني وآخر معرفي.

(88) انظر مثلاً شرح حماسة أبي تمام للأعلام الشنتمري (ت 476 هـ) 1/ 260 — 261. وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي (ت 421 هـ) 1/ 110.

(89) تأهيل الغريب (على هامش محاضرات الأدباء للراغب). 2/ 317 — 318.

(90) المصدر نفسه.

(91) محاضرات الأدباء 2/ 83.

(92) شرح حماسة أبي تمام. 1/ 261.

1 — الجانب الديني

من المعروف أن السموأل يهودي الديانة، لذلك اهتمت به يهود، ولعل من مظاهر هذا الاهتمام فخرهم به وبوفائه، كالذي نجده في (تمة اليتيمة) منسوباً لأبي الفتح بن دُردان اليهودي الوزير، حيث ذكر أن أبا الحسن القزويني أنشده له :
دعوني وقومي والسموْ إلى العلى فإنَّ لهم شأنًا إذا ما سَمَوْا وَلِي
ولا تستقلوا بالوفاء فإنَّه تراث لنا دون الورى عن سَمَوَّالِي⁽⁹³⁾
ومن مظاهر ذلك أيضا تلك القصيدة التي تفخر بيهود، والتي نُحِلَّت السموأل، ومطلعها :

ألا أيها الضيف الذي عاب سادتي ألا اسمع جوابي لست عنك بغافل⁽⁹⁴⁾

وأسلوبها يدل على أن صانعها رجل متأخر الزمن جداً.

فإذا كان هذا هو حرص يهود على الفخر بالسموأل والاعتزاز به، فلا شك، وقد كان منهم وزراء وكتاب وأدباء، أنهم كانوا حريصين على أن تكون هذه الحماسية له لا لعبد الملك الحارثي أو غيره.⁽⁹⁵⁾

وأما المسلمون فقد كان كثير منهم يُسَلِّم بما قاله عبد الله بن عتيك — رضي الله عنه — عندما روى حديث : ومن مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله. حيث قال : «والله إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قط قبل رسول الله ﷺ». ⁽⁹⁶⁾ لذلك فقد كانوا أمام سؤال هو : من هو السابق إلى استعمال هذا المعنى آ الرسول ﷺ أم السموأل اليهودي ؟!..

وجواباً عن هذا السؤال وضعوا أربعة احتمالات هي :

(93) تمة اليتيمة 56/5. وهكذا هي في تمة اليتيمة (سموأل) بالهمز، وأظنه قال : سَمَوَّالِي.

(94) شعر السموأل 53 — 57.

(95) ونحن نعرف أثر يهود في التفسير فيما يدرس تحت عنوان (الإسرائيليات)، فكيف لا يكون لهم أثر في الأدب وهو أقرب منالأ.

(96) مسند الإمام أحمد 36/4. وانظر السنن الكبرى للبيهقي 166/9. وغريب الحديث لابن سلام 68 / 2 وتاج العروس 64 / 6.

أولاً : إن القصيدة ليست للسموأل بل هي لعبد الملك الحارثي⁽⁹⁷⁾

ثانياً : إن رواية الحديث ليست كذلك⁽⁹⁸⁾.

ثالثاً : إن راوي الحديث لم يسبق له أن سمع بهذه العبارة في بيت سموأل أو غيره⁽⁹⁹⁾.

رابعاً : إن رواية البيت هي : (في فراشه) وليست : (حتف أنفه)⁽¹⁰⁰⁾.

إلا أن الاحتمالين : الأول والرابع، كانا هما الأقوى، لذلك شاعا في أغلب المصادر، خاصة أن الاحتمالين الآخرين لا يجدان لهما سنداً في المصادر الحديثة.

2 - الجانب المعرفي

سبق لنا في أول هذا البحث أن أشرنا إلى أن النحاة وجدوا في هذه القصيدة شاهد جواز تقديم خبر ليس عليها، لذلك حرصوا على أن يكون صاحب هذا الشاهد قديماً يجوز الاستشهاد بشعره، فلم يختلفوا في كونه سموأل. ونضيف إليهم هنا فريق اللغويين الذين اشتهروا بحرصهم على أن يكون أجود الشعر القديم، ومن هؤلاء نذكر الأصمعي (ت 216 هـ) وقد أنشد هذه القصيدة للسموأل بن عاديا،⁽¹⁰¹⁾ وأبا بكر بن الأنباري (ت 328 هـ) الذي يذكر القالي (ت 356 هـ) أنه قرأها عليه على أنها له أيضاً.⁽¹⁰²⁾

ومن اللغويين أصحاب المعاجم، وحديث هؤلاء يوحى بشكهم في كونه صلى الله عليه أول من نطق بعبارة (حتف أنفه). لذلك نجد جماعة منهم تروي حديث عبد الله ابن عتيك عن النبي صلى الله عليه بصيغة التمريض. وذلك كما فعل الأزهري (ت 370 هـ)

(97) مزيل الخفاء 1/ 80.

(98) تاج العروس 6/ 65.

(99) المصدر نفسه.

(100) شرح حماسة أبي تمام للأعلم الشنتمري 1/ 261.

(101) اختيار من كتاب الممتع 477.

(102) الأمالي، 1/ 269.

في «تهذيب اللغة»⁽¹⁰³⁾ وابن منظور (ت 711 هـ) في «اللسان»⁽¹⁰⁴⁾ ولنا أن نوازن بين هذه الصيغة الواردة في بعض المعاجم وبين ما جاء في كتاب بلاغة هو كتاب «عروس الأفراح» للسبكي (ت 772 هـ) حيث قال : «وقد أجمعوا على أن الرسول ﷺ لم يسبق إلى قوله : حتف أنفه»⁽¹⁰⁵⁾ ليتبين لنا أثر اختلاف النظر في اختلاف النسبة، إذا علمنا أن الجزم بكونه ﷺ لم يسبق إلى هذا القول يترتب عنه الشك في نسبة هذه القصيدة للسموأل.

ومن المعجميين من جزم بكون هذه الكلمة مما تكلم به أهل الجاهلية مستشهداً بشطر بيت سموأل، وذلك كالمقري صاحب (المصباح المنير) ت 770 هـ⁽¹⁰⁶⁾ والزبيدي صاحب (تاج العروس) ت 1205 هـ⁽¹⁰⁷⁾.

ويشبه النحاة واللغويين في ميلهم إلى نسبة هذه الحماسية للسموأل نقاد الأدب، ولعلمهم تأثروا باللغويين في ذلك، للعلاقة الوطيدة القائمة بين اللغة وبين النقد الأدبي. والنقاد أحرص الناس على نسبة القصائد لحاجتهم إلى ذلك عند بحثهم في السرقات. فبالتأكد من نسبة القصيدة يُعرف السابق من المسبوق، والسارق من المسروق منه.

وهكذا بنسبتهم هذه القصيدة للسموأل أمكن الحاتمي (ت 388 هـ) أن يزعم أن قول زهير :

فإن يُقْتَلُوا فَيُشْتَفَى بدمائهم
وكانوا قبيلة من منايهم القتل

إنما ينظر إلى قول سموأل :

تسيل على حد السيوف نفوسنا
وليست على غير السيوف تسيل

وهذا، عنده، من خفي النظر ولطيفه⁽¹⁰⁸⁾

(103) تهذيب اللغة. 4/ 444 مادة — حتف — .

(104) اللسان 9/ 38 مادة — حتف.

(105) شروح التلخيص 3/ 255.

(106) المصباح المنير. مادة — حتف — 1/ 131.

(107) تاج العروس — مادة — حتف 6/ 65.

(108) حلية المحاضرة. 2/ 86 — 87. وفي ديوان زهير — صنعة الأعلام الشنتمري ص 35

وكانوا قديما في مكان : وكانوا قبيلة...

وكذلك أمكن المَرْزُوقِيّ (ت 421 هـ) أن يزعم أن سُلَيمِي بن ربيعة في قوله :
وَصَفَحْتُ عَنْ ذِي جَهْلٍهَا وَرَفَدْتُهَا نُصْحِي وَلَمْ تُصِبِ الْعَشِيرَةَ زَلَّتِي
وَكَفَيْتُ مَوْلَايَ الْأَحْمَ جَرِيرَتِي وَحَبَسْتُ سَائِمَتِي عَلَى ذِي الْخَلَّةِ
قد ألم بقول السموأل :
إذا المرء لم يحمل على النفس ضيمها⁽¹⁰⁹⁾.

فهؤلاء أهل اللغة والنقد الأدبي قد مال أكثرهم إلى جعل هذه القصيدة
للسموأل، للأسباب التي ذكرناها. بينما تأثرت طائفة من العلماء بما ورد في كتب
الحديث وغيره، من كون كلمة (حتف أنفه) من غريب الحديث، ومما لم يسبق
إليه الرسول ﷺ⁽¹¹⁰⁾.

(109) شرح ديوان الحماسة 2/ 552.

(110) انظر، على سبيل المثال، غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام المروني (ت 224 هـ)
2/ 67 — 69. ومسند الإمام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ) 4/ 36. والسنن الكبرى
للبيهقي (ت 458 هـ) 9/ 166. والفائق في غريب الحديث للزمخشري (ت 583 هـ)
1/ 258 — 259. وهدي الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر (ت 852 هـ)
ص 102. وكل هذه الكتب تذكر عبد الله بن عتيك. ووجدت في كتاب إعجاز القرآن
لرفاعي ص 315 — 316. أن علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — قال : «... وسمعت
يقول : « مات حتف أنفه » وما سمعتها من عربي قبله ». وقد أجتهدت أن أعرف من أين
أخذ هذا الحديث عن علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — فلم أوفق في ذلك.
ومثال آخر تقدمه على أثر رواية الحديث في نسبة الشعر، وذلك الحديث المروي عن عائشة
— رضي الله عنها — أنها قالت : دخل علي رسول الله ﷺ، وأنا أتمثل بهذين البيتين :
إِرْفَعْ ضَعِيفَكَ لَا يَخْرُ بِكَ ضَعْفُهُ يَوْمًا فَتَدْرِكُهُ الْعَوَاقِبُ قَدْ نَمَّا
بِجَزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مَنْ أُنْثِيَ عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ فَقَدْ جَزَى
فقال، ﷺ : « ردي علي قول اليهودي قاتله الله !... » الحديث.

والبيتان منسوبان في الأغاني 3/ 111 لغريض اليهودي؛ لذلك روي الحديث هناك بهذه
الصيغة. وهما في (العقد الفريد) لزهير بن جناب، لذلك ورد الحديث ثم مختلفا. فقد جاء
في (العقد) على النحو التالي : (5/ 275) « صدق يا عائشة لا يشكر الله من لا يشكر الناس ». وأنت ترى أنه لا يمكن الجزم بكون هذين البيتين لزهير مع الاحتفاظ برواية الحديث كما
هي في الأغاني، لأن ابن جناب غير يهودي. فأرتبطت كل رواية بنسبة مختلفة.

وذلك كالذي نجده في الشفا⁽¹¹¹⁾ وشروحه⁽¹¹²⁾ وفي بعض كتب الشروح الأدبية، فشكت في كون هذه القصيدة للسموأل، ومن هؤلاء البكري (ت 487 هـ أو 496 هـ) في السمط⁽¹¹³⁾ وعنه نقل البغدادي (ت 1080 — 1081 هـ) في شرح أبيات مغني اللبيب⁽¹¹⁴⁾ والتبريزي (ت 502 هـ) وعنه نقل السيوطي (ت 911 هـ) في شرح شواهد المغني⁽¹¹⁵⁾ والذي يلاحظ أن هؤلاء الشراح الذين ذكرناهم كلهم ممن اشتغل بالحديث، مما يفسر لنا موقفهم من هذه القضية. فقد وُصف البكري بأنه «كان محدثاً أديباً»⁽¹¹⁶⁾ وعُرف عن التبريزي اهتمامه بغريب الحديث، وله في ذلك كتاب «تهذيب غريب الحديث»⁽¹¹⁷⁾؛ وكذلك اهتم البغدادي بتخريج الأحاديث، حيث خَرَجَ الأحاديث والآثار التي في شرح الوردية لابن الوردي، والتي في شرح الكافية. خص كل شرح بتخريج مستقل⁽¹¹⁸⁾. ولا حاجة إلى ذكر مكانة السيوطي ومنزلته في علم الحديث، فذلك أشهر من أن يُدَلَّ عليه.

وهكذا نرى أنه كلما اختلف العلم الذي يشتغل به العالم اختلفت النظرة باختلاف الأسباب؛ ثم اختلفت نسبة هذه القصيدة تبعاً لذلك. إلا أن يكون منهج المؤلف في الكتاب لا يعير اهتماماً كبيراً لمسألة النسبة. وذلك كالذي نجده في «كتاب الشعر» لأبي علي الفارسي (ت 377 هـ). فقد اكتفى بقوله، وقد ذكر بيتاً من هذه الحماسية: ومثل ذلك قول الآخر⁽¹¹⁹⁾ وذكر البيت. أو أن يكون منهجه

(111) الشفا. 1/ 79 — 80.

(112) انظر على سبيل المثال، مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء للشُّمْنِي (ت 872 هـ) 1/ 80. وشرح الشفاء لعلي القاري الهروي (ت 1014 هـ) 1/ 194.

(113) سمط اللآلي. 1/ 597.

(114) شرح أبيات مغني اللبيب 4/ 205.

(115) شرح شواهد المغني 2/ 534.

(116) هدية العارفين 5/ 453.

(117) المصدر نفسه 6/ 519.

(118) مقدمة تحقيق حاشية على شرح بانت سعاد. ص 13.

(119) كتاب الشعر 2/ 524.

قائماً على تجريد كل الأبيات من نسبتها، وذلك كالذي فعله ابن فارس (ت 395 هـ) في كتاب «أبيات الاستشهاد». فكأنه قد اعتبر هذا النوع من الأبيات لذيوعتها وانتشارها وقيمتها ودلالاتها قد أصبح في ملك غير أصحابها. أي أنه أصبح في ملك الجماعة التي تعبر عنها هذه الأبيات⁽¹²⁰⁾.

لقد كان لهذا الصراع الخفي الذي وقع حول نسبة هذه القصيدة نتائج في النص نفسه، حيث حاولت كل طائفة أن تسقط من الروايات ما يخالف زعمها حول نسبة هذه الحماسية، أو أن تضيف، أحياناً، إلى الرواية ما يؤيد زعمها. فكان أن وقع بعض الاضطراب في عدد الأبيات وخلاف حول بيت الحماسية : وما مات منا سيد حتف أنفه... هل هو كذلك، أو عبارته هي : في فراشه؟! وهو الخلاف المرتبط — كما سبق أن ذكرنا — بالخلاف حول نسبة القصيدة⁽¹²¹⁾. فالذين يرون القصيدة للسموأل يرون أن الرواية «في فراشه»، وهؤلاء من مثل الأصمعي (ت 216 هـ)⁽¹²²⁾ والجاحظ (ت 255 هـ)⁽¹²³⁾ ونجم الدين بن الأثير (ت 737 هـ)⁽¹²⁴⁾ ويحيى بن حمزة العلوي (ت 749 هـ)⁽¹²⁵⁾ والإمام العيني (ت 855 هـ)⁽¹²⁶⁾ والعباسي (ت 963 هـ)⁽¹²⁷⁾ والعاملي (ت 1031 هـ)⁽¹²⁸⁾ والـدسوقي (ت 1230 هـ)⁽¹²⁹⁾. والذين يرون الرواية «حتف أنفه» يرون — غالباً — أن

(120) وقد ورد فيه بيت من هذه الحماسية مجرداً من نسبته جرياً على منهجه في هذا الكتاب. انظر نوادر المخطوطات 1/ 156.

(121) انظر على سبيل المثال، شرح حماسة أبي تمام للأعلم الشنتمري 1/ 263.

(122) اختيار من كتاب الممتع. 477.

(123) البيان والتبيين. 4/ 68.

(124) جوهر الكنز 517 — 518.

(125) الطراز 3/ 109 — 110.

(126) المقاصد النحوية. 76 — 77.

(127) معاهد التنصيص 1/ 382 — 383.

(128) الكشكول 2/ 352.

(129) شروح التلخيص 3/ 254.

صاحب القصيدة هو الحارثي. وذلك من مثل ابن طباطبا العلوي
(ت 322 هـ) (130).

ولم يكن كل العلماء يأخذون بهذا الارتباط بين الرواية والنسبة. إما لعدم
اقتناعهم به وإما لعدم تمثلهم له. وذلك كالصولي (ت 335 أو 336 هـ)، الذي
ينسب هذه القصيدة للحارثي ويروي البيت بعارة «في فراشه» (131) وقبله أنشد
عبد الله بن مالك الخزاعي أمير المؤمنين المهدي القصيدة للسموأل، وفيها : وما
مات منا سيد حتف أنفه (132) وهو ما فعله بعد ذلك بقرون صفى الدين الحلبي
(ت 750 هـ) في شرح الكافية البديعية، (133) والرعيني (ت 779 هـ) في طراز
الحلة (134).

ولعله بسبب هذا الاضطراب اكتفت مجموعة من العلماء وهم يتعرضون لهذا
البيت باستخدام عبارة : قال الحماسي، (135) أو قال الآخر (136). أو بذكر كل
الشعراء الذين تنسب إليهم القصيدة وترك أمر الحسم في ذلك للقارئ. وهو
ما فعله السيوطي في شرح شواهد المغني. (137)

(130) عيار الشعر. 68.

(131) أخيار أبي تمام. 140.

(132) العقد الفريد 1/ 249.

(133) شرح الكافية. 142.

(134) طراز الحلة. 423.

(135) انظر، على سبيل المثال، كتاب التبيان 374 — 375.

(136) انظر، مثلاً، العقد الفريد 387/5.

(137) شرح شواهد المغني 2/ 531. وقد يقع خلاف في رواية اللفظ بسبب موقف لغوي. ومثاله
بيت صاحب هذه الحماسية :

وما قل من كانت بقاياها مثلنا شباب تسامى للعلأ وكهول
يرويه الأعلام : «قروم» في مكان «شباب». وذلك لأنه بالرواية الأولى يكون حجة لمن يرى
أن «شباب» قد تجمع على «شباب» كما تجمع على «شبان». وهو رأي صاحب اللسان (مادة
شباب 1/ 480) وهو بالرواية الثانية يناسب من يرى أن فاعلاً لا يجمع على فاعل. وإن
كان هذا لم يمنع جمهور اللغويين من أن يعتبروا (شباب) في الرواية الأولى مصدراً وصف
به الجمع، لا جمعاً لشباب (انظر شرح شواهد المغني 2/ 533).

ومثل هذا الاضطراب نجده في عدد الأبيات، حيث رُوي بيتان لو صحّا لصحت القصيدة للسموأل، أولهما قوله :

هو الأبلق الفردُ الذي سار ذكره يعز على من رامى ويطوّل

ومعلوم أن الأبلق الفرد هو حصن السموأل، لذلك لا يصادفنا هذا البيت إلا عند من يرى أن القصيدة للسموأل، كنجم الدين بن الأثير (ت 737 هـ) (138)، والإمام العيني (ت 855 هـ) (139)، أو عند من غلب عليه حسُّ الجمع كالسيوطي (ت 911 هـ) (140) والبغدادى (ت 1093 هـ) (141) وقد لجأ الأعلام الشنتمري إلى حل وسط، حيث ذكر البيت إلا أنه رواه بعبارة : هو الجبل الفرد، في مكان : الأبلق الفرد. وهكذا أصبح من الممكن تفسير البيت على النحو التالي : «أراد «بالجبل» حصنه المعروف بالأبلق الفرد، ويُحتمل أن يريد به شرفه فجعله كالجبل» (142) فهو بهذا الشكل صالح في شطره الأول أن يكون تفسيراً للبيت إذا صحَّ أن قائله هو السموأل، وصالح في شطره الثاني أن يكون تفسيراً له سواء أكان للحارثي أو للسموأل. ولعل سندنا في هذا التحليل أن الأعلام قد صدّر هذه القصيدة بقوله: «وقال اللجلاج. واسمه عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، من بني الحارث بن كعب، وتروى للسموأل بن عادي اليهودي» (143) وهي عبارة توحي أن كلا الاحتمالين كانا واردتين في ذهنه وهو يشرح القصيدة.

وثاني البيتين قوله :

وقائلة مابال أسرة عاديّا تنازى وفيها قلّة وخُمُول

وواضح أن التسليم بكون هذا البيت غير موضوع، لا يدع مجالاً للشك في كون القصيدة للسموأل لقوله : «مابال أسرة عاديّا».. إلا أن العلماء لم يذكروا هذا البيت في رواياتهم للقصيدة؛ فلعلهم انتبهوا إلى أنه موضوع لهذا السبب. يدلّك

(138) جوهر الكنز. 517.

(139) المقاصد النحوية 77.

(140) شرح شواهد المغني 2 / 532.

(141) شرح أبيات مغني اللبيب 4 / 203.

(142) شرح حماسة أبي تمام. 1 / 262.

(143) المصادر نفسه. 1 / 260 — 261.

على ذلك ضعف عبارته بالقياس إلى بقية الأبيات. فلم يورده — حسب علمي — إلا السيوطي في شرح شواهد المغني، حيث جعل ترتيبه ثالثاً، بعد قوله : وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل⁽¹⁴⁴⁾ ومما هو قريب من أثر الخلاف حول النسبة في رواية القصيدة أثره في فهم النص. فلعل هذا الفهم لا يستقيم وما يعتقد الشارح من مسألة النسبة فيعمد إلى اختيار رواية أخرى فيها إضافة بيت أو تغيير لفظ. ولعل أهم المواضع التي نظن أنها أثارت اهتمام الشراح ثلاثة، هي :

أولاً : من هم بنو الديان، في قوله :

فإن بني الدِّيَّانِ قُطِبَ لقومهم تدور رحاهم حولهم وتجوّل. ؟
فالأعلم الشنتمري (ت 476 هـ) يذكر أنهم «حي من اليمن ومنهم السموأل ابن عاديّا»⁽¹⁴⁵⁾.

ويفصل الزبيدي في (تاج العروس) هذا النسب أكثر إذ يقول : «والدِّيَّان

(144) شرح شواهد المغني 2 / 531. وقد تشابه القصائد على رواية أو يقع خلل في حفظه أو يضيف بيتاً من سنده عن قصد وإرادة، فيقع اضطراب في الرواية. ومثال ذلك أن بيتاً جاء ترتيبه ثالثاً في القصيدة لانجده إلا في (العقد الفريد) 1 / 249 عن عبد الله بن مالك الخزاعي أنه أنشد للسموأل هذه الحماسية وفيها :

إذا المرء أعيته المروءة يافعاً فمطلبها كهلاً عليه ثقیل
وقد يقع الاختلاف في الرواية لحرص جماعة من الرواة على البديع، وذلك كمن رووا «يقصر حب الموت آجالنا لنا».. البيت في مكان «يقرب حب الموت».. ليكون القصر بإزاء الطول. كما أشار إلى ذلك المرزوقي في شرح الحماسة (1 / 116) وعبد القادر البغدادي في شرح أبيات المغني (4 / 205).

والغريب أنا نجد هذه الروايات المختلفة في نفس المصدر أحياناً، حيث نجده يروي البيت مرة بلفظ وأخرى بلفظ آخر. فالمرزوقي، مثلاً، يروي بيتاً من هذه القصيدة في مكان من كتابه (1 / 117) بهذا الشكل :

وما مات مِنّا سيد حتف أنفه. ثم يرويهِ في مكان آخر (2 / 824) وما مات مِنّا ميت حتف أنفه. وكذلك ابن عبد ربه مرة يرويهِ بلفظ (حتف أنفه) (1 / 101)، ومرة بلفظ (في فراشه) (5 / 387).

(145) شرح حماسة أبي تمام. 1 / 265.

كشَّاد لقب يزيد بن قطن بن زياد بن الحرث بن مالك بن ربيعة بن كعب الحارثي أبو بطن وكان شريف قومه. قال السموأل بن عاديّا : فإن بني الديان...»⁽¹⁴⁶⁾ وواضح من عبارته أنه يرى هذا النسب نسب السموأل، وهو النسب نفسه الذي استنتج منه العلامة عبد العزيز الميمني في طرة السمط⁽¹⁴⁷⁾ أن هذا البيت للحارثي، وذلك نقلاً عن الأسود. لأن هذا النسب ينتهي بكعب ابن الحارث الأكبر، فثبت — كما قال — أنه للحارثي المذكور.

ثانياً : ما المقصود بالجبل، في قوله :

لنا جبل يحتله من نجيره منيع برد الطرف وهو كليل. ؟
فالذين يرون القصيدة للسموأل يزعمون أنه يقصد به حصنه الأبلق الفرد، والذين يرون أنها للحارثي يفهمون من هذا البيت أنه يقصد به العزّ والسُّموّ. ولعل البيت الذي بعده وهو :

رسا أصله تحت الثرى وسما به إلى النجم فرغ لاينال طويل
يدلك على أن الفهم الثاني أقرب إلى هذا البيت الذي يليه. فهذا الوصف ليس مما توصف به الحصون عادةً. فالأقرب أن نقول إن المراد هو — كما قال المرزوقي — «عزنا أصله تحت الأرض السابعة، وفرعه عند النجم»⁽¹⁴⁸⁾ وهو مافهمه السيوطي من البيت أيضاً.⁽¹⁴⁹⁾ على الرغم من أنه يروي البيت الذي يرويه من يرى القصيدة للسموأل، وهو قوله :

هو الأبلق الفرد الذي سار ذكره يعز على من رامه ويطول⁽¹⁵⁰⁾
وهو بيت — على الرغم من الشك الذي يحيط به — يتكرر عند من يفسر الجبل هنا بالحصن ويزعم القصيدة لصاحب الأبلق الفرد.⁽¹⁵¹⁾

(146) تاج العروس. مادة دين 9 / 209.

(147) طرة السمط 1 / 597.

(148) شرح ديوان الحماسة 1 / 114.

(149) شرح شواهد المغني 2 / 533.

(150) المصدر نفسه 2 / 532.

(151) وممن روى هذا البيت نجم الدين بن الأثير (ت 737 هـ) في جوهر الكنز 517. والإمام =

ثالثاً : مامعنى كلمة (النصاب) في قوله :

فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهام ولا فينا يُعدُّ بخيل. ؟
فعلى الرغم من كونهم يرون أنه يقصد بها العدد، إلا أنهم يواجهون بكون
المعاجم لاتذكر هذا المعنى، وإنما تذكر نصاب الزكاة، وهو استعمال
إسلامي⁽¹⁵²⁾. ولعله لهذا السبب روى صاحب «معاهد التنصيص» هذه الكلمة
باللام (نصالن)، في روايته القصيدة للسموأل⁽¹⁵³⁾.

وقد انتقل هذا الخلاف حول نسبة هذا النص إلى نص آخر، حيث وقع خلاف
في التعليق عليه. وهو قول عامر بن الطفيل : «أُغِدَّة كُغْدَةُ البعير، وموت في بيت
سلولية ؟». فقد رأى أبو زيد الكلابي أن هذه الكلمة هي التي شأمت سلولاً،
ولأن ابن رشيق (ت 456 هـ) يعتقد أن هذه الحماسية للسموأل، فقد علق على
هذا الرأي بقوله : «قلت : أما عامر، فقد قال هذه الكلمة حين دعا عليه النبي
ﷺ؛ فما يصنع بقول سموأل بن عادياء :

ونحن أناس لانرى القتل سبة إذا ما رآته عامر وسلول
والسموأل في زمان امرئ القيس، وبين امرئ القيس ومبعث رسول الله ﷺ
مئة وأربع وخمسون سنة ؟»⁽¹⁵⁴⁾

وهذا يعني أنه إذا كانت القصيدة إسلامية فالقول قول أبي زيد الكلابي في
أن كلمة عامر هي التي شأمتهم؛ وإذا كانت هذه الحماسية للسموأل فكلمة عامر،
إذن، نتاج للؤمهم لاسبب فيه. وهو رأي ابن رشيق، كما رأينا، ورأي الأعلام
الشتتمري، أيضاً.⁽¹⁵⁵⁾

= العيني (ت 855 هـ) في المقاصد النحوية 2/ 77. والبغدادى (ت 1093 هـ) في شرح
أبيات المغني 4/ 203.

(152) انظر تعليق الأستاذ عبد السلام هارون على هذه الكلمة في هامش (البيان والتبيين)
185/ 3.

(153) معاهد التنصيص 1/ 383.

(154) العمدة 2/ 865.

(155) شرح حماسة أبي تمام 1/ 263.

وكلمة أخيرة تقال في ختام هذا البحث تكون كالجامعة لأطرافه والدالة على ما نريد قوله. وهي، إن النظرة هي التي تحدد النسبة، فنظرة النحوي غير نظرة البلاغي، وهذه غير نظرة المحدث، وهكذا. فلكل علم مناهجه وحاجاته. وقد تدفع هذه الحاجات المشتغل بعلم معين إلى اختيار نسبة دون نسبة، ورواية دون أخرى. فمن ذلك بيت امرئ القيس :

وقد طوفت في الآفاق حتى رضىت من الغنيمة بالإياب⁽¹⁵⁶⁾
يرويه من يفسر قوله تعالى : ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾⁽¹⁵⁷⁾ بمعنى طافوا وتباعدوا : وقد نقبتُ، في مكانٍ : طَوَّفْتُ.⁽¹⁵⁸⁾

ومن ذلك أيضاً بيت عنتر، الذي يرى فيه النقاد دليلاً على قدم الشعر العربي، وهو :

هل غادرَ الشعراء من متردِّمٍ أم هل عرفتَ الدار بعد توهمٍ
يدفع أكثر الرواة أن يكون له «ومن يدفعه الأصمعي وابن الأعرابي»⁽¹⁵⁹⁾
وهذا بيت كثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة السهمي، الذي يقول فيه :
إِنَّ أَهْلَ الْحِصَابِ قَدْ تَرَكَوْنِي مُوزَعاً مُوَلَعاً بِأَهْلِ الْحِصَابِ
يرويه أصحاب الأخبار، مع سائر القصيدة التي منها هذا البيت، لكثير عزة، ويجعلون «الخضاب» في مكان «الحصاب»، ويزعمون أن كثيراً قاله في خضاب خضبته عزة به.⁽¹⁶⁰⁾

والأمثلة على مثل هذا كثيرة.

وقد تتوضح هذه القضية أكثر عند العلماء المشتغلين بأكثر من علم، فهم في

(156) ديوانه 99. وإعجاز القرآن 212. والعمدة 1/ 217.

(157) سورة ق. آية 36. «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد، هل من محيص ؟».

(158) فتح الباري 8/ 594. ولسان العرب 1/ 769 مادة نقب.

(159) الأغاني 9/ 213.

(160) المصدر نفسه 9/ 169.

كل تأليف تحكمهم نظرة مختلفة، هي تلك المرتبطة بذلك العلم الذي هو موضوع التأليف. وذلك كالثعالبي، مثلاً، حيث نجد في كتاب (الاقتباس من القرآن الكريم) ينسب بيتاً من الحماسية التي ندرسها للحارثي⁽¹⁶¹⁾، ونجده في كتاب آخر له هو (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) ينسب القصيدة كلها للسموأل بن عادياء اليهودي.⁽¹⁶²⁾ فكأنه لم يكن يعبأ كثيراً بقضية النسبة، وإنما يترك للسياق تحديدها. فإذا كان السياق أميل إلى كتب الأمثال، وهي تذكر هناك للسموأل⁽¹⁶³⁾، فهي للسموأل. وإذا كان السياق يتحدث عما اقتبس الشعراء من القرآن الكريم، فليس في وسع السموأل، وقد عاش قبل البعثة، أن يكون من المقتبسين من القرآن. لذلك فهي تذكر في مثل هذا السياق للحارثي، فهو يذكرها ثم له. فالنظرة، إذن، هي التي تحدد النسبة.

— والحمد لله رب العالمين —

(161) الحارثي، حياته وشعره. 42

(162) ثمار القلوب. 132. وللإشارة فإن الثعالبي في التمثيل والمحاضرة. ص 22. يذكر أن عبارة : (مات فلان حتف أنفه). من الألفاظ التي لم يسبق إليها الرسول ﷺ. وهي العبارة التي سبق الحديث عن علاقتها بالخلاف حول نسبة هذه القصيدة في هذا البحث.

(163) لأن المثل هو : أوفى من السموأل.

المصادر والمراجع

- (1) أبيات الاستشهاد (كتاب أبيات الاستشهاد)، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي (ت 395 هـ). طبع ضمن : نواذر المخطوطات. ت : عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي — القاهرة. ط 2. 1392 هـ — 1973 م.
- (2) أخبار أبي تمام — أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت 335 — 336 هـ) ت. محمد عبده عزام، — خليل محمود عساكر — نظير الإسلام الهندي — دار الآفاق الجديدة — بيروت. ط 3. 1400 هـ — 1980 م.
- (3) اختيار من كتاب الممتع في علم الشعر وعمله — عبد الكريم النهشلي القيرواني (ت 405 هـ) ت : د. منجي الكعبي. الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس.
- (4) الأصمعيات، الأصمعي (ت 216 هـ) ت : أحمد محمد شاكر — عبد السلام محمد هارون ط 5. بيروت.
- (5) إعجاز القرآن — الباقلائي (ت 403 هـ). ت : السيد أحمد صقر. دار المعارف — مصر. ط 3.
- (6) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي (ت 1937 م) دار الكتاب العربي. بيروت. ط. 9. 1393 هـ — 1973 م.
- (7) الأغاني (كتاب الأغاني) أبو الفرج الأصفهاني (ت 356 هـ). ت : عبد الستار أحمد فراج. دار الثقافة، بيروت. ط. 5 — 1401 هـ — 1981 م.
- (8) الأمالي (كتاب الأمالي)، أبو علي القالي (ت 356 هـ). دار الآفاق الجديدة — بيروت.
- (9) الإمتاع والمؤانسة (كتاب الإمتاع والمؤانسة) — أبو حيان التوحيد (ت : حوالي 400 هـ) ت : أحمد أمين — أحمد الزين — دار مكتبة الحياة — بيروت.

(10) الإيضاح في علوم البلاغة — الخطيب القزويني (ت 739 هـ). طبع ضمن : شروح التلخيص — دار الكتب العلمية — بيروت.

(11) البديع (كتاب البديع) ابن المعتز (ت : 296 هـ) نشره. اغناطيوس كراتشكوفسكي. لندن. 1935 م.

(12) البديع في نقد الشعر — أسامة بن منقذ (ت 584 هـ). ت : أحمد أحمد بدوي — حامد عبد المجيد — مراجعة : إبراهيم مصطفى. شركة مصطفى الباني الحلبي — القاهرة 1380 هـ — 1960 م.

(13) البيان والتبيين — أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ) ت : عبد السلام محمد هارون. دار الفكر — بيروت. ط. 4.

(14) تاج العروس من جواهر القاموس — محمد مرتضى الزبيدي (ت 1205 هـ) دار مكتبة الحياة.

(15) تأهيل الغريب — تقي الدين بن حجة الحموي (ت 837 هـ). طبع على هامش كتاب المحاضرات للراغب. تصحيح. محمد السملوطي. ط 1287 هـ.

(16) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان (كتاب التبيان) الطيبي (ت 743 هـ) ت : د. هادي عطية مطر الهلالي. عالم الكتب — مكتبة النهضة العربية — بيروت. ط. 1. 1407 هـ — 1987 م.

(17) تمة يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر — عبد الملك الثعالبي (ت 429 هـ) ت. مفيد قميحة. دار الكتب العلمية — بيروت. ط. 1. 1403 هـ — 1983 م.

(18) تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن — ابن أبي الإصبع المصري (ت 654 هـ) ت : د حفني محمد شرف. لجنة إحياء التراث الإسلامي ج. ع. م.

(19) التلخيص في علوم البلاغة. الخطيب القزويني (ت 739 هـ). ضبطه وشرحه : عبد الرحمن البرقوقي. دار الكتاب العربي — بيروت.

- (20) التمثيل والمحاضرة، أبو منصور الثعالبي (ت 429 هـ). ت : عبد الفتاح محمد الحلو. الدار العربية للكتاب — 1983.
- (21) تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري (ت 370 هـ). ت : عبد الكريم العزباوي، مراجعة : محمد علي النجار. الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- (22) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبو منصور الثعالبي (ت 429 هـ) ت : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف.
- (23) جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري (ت : بعد 395 هـ). ت : محمد أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش. دار الجيل، دار الفكر، بيروت ط. 2. 1408 هـ — 1988 م.
- (24) جوهر الكنز، نجم الدين بن الأثير الحلبي (ت 737 هـ). ت : د. محمد زغلول سلام. منشأة المعارف — الاسكندرية.
- (25) الحارثي، حياته وشعره. جمع وتحقيق ودراسة — زكي ذاکر العاني، دار الرشيد للنشر، العراق. 1980 م.
- (26) حاشية الدسوقي على شرح السعد — محمد بن أحمد بن عرفة المصري المالكي (ت 1230 هـ) طبع ضمن : شروح التلخيص. دار الكتب العلمية، بيروت.
- (27) حاشية على شرح بانة سعاد لابن هشام، عبد القادر البغدادي (ت 1080 — 1081 هـ) ت : نظيف محرم خواجه. دار صادر، بيروت 1400 هـ — 1980 م.
- (28) حلية المحاضرة في صناعة الشعر، أبو علي الحاتمي (ت 388 هـ). ت : د. جعفر الكتاني. دار الرشيد، العراق. 1979 م.
- (29) ديوان امرئ القيس. ت : محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف ط. 5.
- (30) ديوان المعاني، أبو هلال العسكري (ت بعد 395 هـ) عالم الكتب.
- (31) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة — أبو الحسن علي بن بسام الشتريني (ت 542 هـ) ت : د. إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت 1399 هـ — 1979 م.

(32) الروض المريع في صناعة البديع، ابن البناء المراكشي العددي (ت 721 هـ) ت : رضوان بنشقرون. دار النشر المغربية، الدار البيضاء. 1985 م.

(33) زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق الحصري القيرواني (ت 453 هـ) ت : زكي مبارك. دار الجيل، بيروت. ط. 4. 1972 م.

(34) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ). دار الكتب العلمية — بيروت. ط. 1. 1982 م 1402 هـ.

(35) سمط اللآلي في شرح أمالي القاضي — أبو عبيد البكري الأوبّي (ت 487 هـ أو 496 هـ) ت : عبد العزيز الميمني. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1354 هـ — 1936 م.

(36) السنن الكبرى (كتاب السنن الكبرى) أبو بكر البيهقي (ت 458 هـ) مكتبة المعارف، الرياض. طبعة مصورة عن : ط. 1. حيدر آباد، الهند 1356 هـ.

(37) شرح أبيات مغني اللبيب — عبد القادر البغدادي (ت 1080 — 1081 هـ).

ت : عبد العزيز رباح — أحمد يوسف دقاق. دار المأمون للتراث — دمشق، بيروت. ط. 1. 1395 هـ — 1975 م.

(38) شرح ألفية ابن مالك، ابن الناطم. ت : د. عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد. دار الجيل، بيروت.

(39) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ابن عقيل (ت 769 هـ) دار الفكر — بيروت. ط 16.

(40) شرح حماسة أبي تمام (تجلي غرر المعاني عن مثل صور الغواني والتحلي بالقلائد من جوهر الفوائد في شرح الحماسة) الأعلام الشتيمري (ت 476 هـ) ت : د. علي المفضل حمودان. دار الفكر المعاصر، بيروت. دار الفكر. دمشق. ط. 1. 1413 هـ — 1992 م.

(41) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي (ت 421 هـ) نشر : أحمد أمين — عبد السلام هارون — دار الجليل — بيروت. ط. 1. 1411 هـ — 1991 م.

(42) شرح الشفا — علي القاري الهروي (ت 1014 هـ) طبعة سنة : 1309 هـ.

(43) شرح شواهد المغني — جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ).
تصحیح وتعليق : محمد محمود ابن التلاميذ التركي الشنقيطي. منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت.

(44) شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع، صفي الدين الحلبي (ت 750 هـ) ت : د. نسيب نشاوي. دمشق 1402 هـ — 1982 م.

(45) الشعر (كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشككة الإعراب)، أبو علي الفارسي (ت. 377 هـ) ت : د. محمود محمد الطناحي. مكتبة الخانجي، القاهرة ط. 1. 1408 هـ — 1988 م.

(46) شعر زهير بن أبي سلمى — صنعة الأعلام الشنتمري. ت : د. فخر الدين قباوة. دار الكتب العلمية، بيروت. ط. 1. 1413 هـ — 1992 م.

(47) شعر السموأل، تحقيق وشرح : عيسى سابا. مكتبة صادر، بيروت 1951.

(48) الشعر والشعراء، ابن قتيبة (ت 276 هـ). ت : أحمد محمد شاكر. دار المعارف، القاهرة.

(49) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، أبو الفضل عياض اليحصبي (ت 544 هـ) دار الفكر، بيروت. 1401 هـ — 1981 م.

(50) شواهد القطر، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الخطيب الشربيني (ت 1030 هـ) المطبعة العثمانية، 1304 هـ.

(51) الصناعتين (كتاب الصناعتين) — أبو هلال العسكري (ت : بعد 395 هـ) ت. مفيد قميحة. دار الكتب العلمية، بيروت. ط. 1. 1401 هـ — 1981 م.

- (52) طبقات الشعراء، ابن المعتز (ت 296 هـ).
 ت : عبد الستار أحمد فراج. دار المعارف — القاهرة. ط. 4.
- (53) طبقات فحول الشعراء — محمد بن سلام الجمحي (ت 231 هـ) قرأه وشرحه : محمود محمد شاكر. مطبعة المدني، القاهرة.
- (54) طراز الحلة وشفاء الغلة — أبو جعفر الرعيني الغرناطي (ت 779 هـ)
 ت : رجاء السيد الجوهري. مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية.
- (55) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (كتاب الطراز...)، يحيى بن حمزة العلوي اليمني، (ت 749 هـ). دار الكتب العلمية، بيروت. 1402 هـ — 1982 م.
- (56) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين السبكي (ت 772 هـ) طبع ضمن. شروح التلخيص. دار الكتب العلمية، بيروت.
- (57) العقد الفريد (كتاب العقد الفريد)، ابن عبد ربه الأندلسي (ت 328 هـ). ت : أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت. 1402 هـ — 1982 م.
- (58) العمدة في محاسن الشعر وآدابه — ابن رشيق القيرواني (ت 456 هـ). ت : د. محمد قرقان. دار المعرفة، بيروت. ط. 1. 1408 هـ — 1988 م.
- (59) عيار الشعر، ابن طباطبا العلوي (ت 322 هـ). دار الكتب العلمية — بيروت. ط. 1. 1402 هـ — 1982 م.
- (60) عيون الأخبار — ابن قتيبة (ت. 276 هـ) الهيئة المصرية العامة للكتاب — 1973 م.
- (61) غريب الحديث — أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت. 224 هـ). دار الكتاب العربي، بيروت. 1396 هـ — 1976 م.
- (62) الفائق في غريب الحديث. جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت 583 هـ).
- ت : علي محمد البجاوي — محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر. ط. 3. 1399 هـ — 1979 م.

(63) فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري — أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852 هـ) ت : عبد العزيز بن عبد الله بن باز. مكتبة الرياض الحديثة — الرياض.

(64) الفلك الدائر على المثل السائر — ابن أبي الحديد (ت 656 هـ). ت. أحمد الحوفي — بدوي طبانه. دار نهضة مصر، القاهرة.

(65) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان — ابن القيم إمام الجوزية (ت 751 هـ) دار الكتب العلمية، بيروت. ط. 2، 1408 هـ — 1988 م.

(66) قانون البلاغة في نقد النثر والشعر — أبو طاهر محمد بن حيدر البغدادي (ت 517 هـ) ت : د. محسن غياض عجيل. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط. 1. 1401 هـ — 1981 م.

(67) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون — حاجي خليفة. (ت 1067 هـ). دار الكتب العلمية، بيروت. 1413 هـ — 1992 م.

(68) الكشكول — بهاء الدين العاملي (ت 1031 هـ). ت : الطاهر أحمد الزاوي.

(69) الكليات — أبو البقاء الكفوي. (ت 1094 هـ) ت : د. عدنان درويش، محمد المصيري. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1. 1412 هـ — 1992 م.

(70) لسان العرب المحيط — ابن منظور المصري (ت 711 هـ). دار صادر — بيروت.

(71) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر — ضياء الدين بن الأثير (ت 637 هـ). ت : أحمد الحوفي، بدوي طبانه. دار نهضة مصر — القاهرة.

72 — مجمع الأمثال — الميداني (ت 518 هـ) ت. محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الفكر، بيروت.

73 — المحاسن والأضداد — عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ). قدم له وراجعته : عاصم عيتاني. دار إحياء العلوم — بيروت. ط 1. 1406 هـ — 1986 م.

- 74 — المحاسن والمساوىء — إبراهيم بن محمد البيهقي (كان حيا قبل : 320 هـ) قدم له وحققه، محمد سويد. دار إحياء العلوم — بيروت. ط. 1. 1408 هـ — 1988 م.
- 75 — محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء — الراغب الأصبهاني (ت 500 هـ) تصحيح. محمد السملوطي. ط. سنة 1287 هـ.
- 76 — المحاضرات في الأدب واللغة، الحسن اليوسي (ت 1102 هـ).
ت : محمد حجي، أحمد الشرقاوي إقبال. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1402 هـ — 1982 م.
- 77 — مختصر سعد الدين التفتازاني (ت 792 هـ) على تلخيص المفتاح للقزويني — طبع ضمن : شروح التلخيص. دار الكتب العلمية — بيروت.
- 78 — مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء — أحمد بن محمد بن محمد الشُّمَّيْ (ت 872 هـ) طبع على حاشية الشفا للقاضي عياض. دار الفكر، بيروت. 1401 هـ — 1981 م.
- 79 — المستطرف في كل فن مستظرف — شهاب الدين الأبشهي (ت 850 هـ) دار مكتبة الحياة — بيروت. 1411 هـ — 1990 م.
- 80 — المستقصى في أمثال العرب — الزمخشري (ت 538 هـ) دار الكتب العلمية، بيروت. ط. 2. 1397 هـ — 1977 م.
- 81 — مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت. 241 هـ) المكتب الإسلامي، بيروت ط. 2. 1398 هـ — 1978 م.
- 82 — المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي (ت 770 هـ) صححه : مصطفى السقا. دار الفكر.
- 83 — معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم العباسي (ت 963 هـ) ت : محمد محيي الدين عبد الحميد. عالم الكتب، بيروت.
- 84 — مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري (ت 761 هـ) ت : د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله — راجعه : سعيد الأفغاني. دار الفكر، بيروت ط 5. 1979 م.

85 — المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية (شرح الشواهد الكبرى)، للإمام العيني محمود (ت 855 هـ). طبع على هامش : خزانة الأدب للبغدادى. دار صادر. بيروت.

86 — المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع — أبو محمد القاسم السجلماسي (ق 8 هـ) ت : علال الغازي. مكتبة المعارف، الرباط. ط. 1. 1401 هـ — 1980 م.

87 — منهاج البلغاء وسراج الأدباء — حازم القرطاجني (ت 684 هـ). ت : محمد الحبيب ابن الخوجة. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط. 3. 1986 م.

88 — مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح — ابن يعقوب المغربي (ت 1128 هـ) طبع ضمن : شروح التلخيص. دار الكتب العلمية — بيروت. 89 — نقد الشعر — أبو الفرج قدامة بن جعفر (ت 337 هـ) ت : كمال مصطفى. مكتبة الخانجي — القاهرة. ط. 3.

90 — هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون — إسماعيل باشا البغدادى. (ت. 1339 هـ). دار الكتب العلمية — بيروت. 1413 هـ — 1992 م.

91 — هدي الساري مقدمة فتح الباري — أحمد بن علي بن حجر (ت 852 هـ) ت : عبد العزيز بن عبد الله بن باز — مكتبة الرياض الحديثة — الرياض.

92 — الوافي في العروض والقوافي — صناعة الخطيب التبريزي (ت 502 هـ).

ت : عمر يحيى، د. فخر الدين قباوة. دار الفكر، دمشق. ط. 3. 1399 هـ — 1979 م.

المصادر العربية المسيحية في إسبانيا خلال القرون الوسطى محاولة تحقيق^(٥)

شورڤ فان كونينكسفلد

أستاذ التاريخ الإسلامي والدراسات الإسلامية،
جامعة ليدن، هولندا

إن تاريخ المصادر العربية المسيحية في إسبانيا خلال القرون الوسطى لم يكتب بعد. غير أن عددا من المؤلفين قدموا في الحقيقة إسهامات لاتنكر في هذا المجال. من الأسماء التي تتبادر إلى الذهن لأول وهلة فرانسيسكو خافيير سيمونيت (Francisco Javier Simonet)، المؤلف المشهور لكتاب: «تاريخ المستعربين» (Historia de los Mozárabes) وفي كتابه الآخر: «قاموس الألفاظ الإيبيرية واللاتينية المستعملة بين المستعربين» (Glosario de voces ibéricas y latinas usadas entre los Mozárabes) يضيف سيمونيت دراسة تمهيدية يشير فيها، من بين ما يشير إليه، إلى المصادر العربية المسيحية في إسبانيا، وخاصة الترجمات العربية للنصوص اللاتينية. إن ما حدا به إلى هذا، كما يعبر نفسه عن ذلك، هو «إثبات التأثير الأيباجي لمسلمي إسبانيا بالعلوم والحضارة الأسبانية المسيحية القديمة، عبر ثلاث وسائل». في البداية «عن طريق المستعربين أو المواطنين الأسبانيين المسيحيين الواقعين تحت حكم خليفة قرطبة»^(١) وبالتالي، وكما هو الشأن بالنسبة للمسيحيين

(٥) محاضرة أُلقيت في رحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان بدعوة من شعبة الدراسات الإسلامية موسم 1992 — 1993.

(١) Simonet, Glosario, LIV - LV انظر أيضا : LIV - L.

المشاركة الذين ترجموا الكتب العلمية للمؤلفين الإغريق خدمة لحكامهم العرب في تلك الأقطار، فإن المستعربين في إسبانيا أخذوا كذلك على عاتقهم ترجمة وشرح ذخائر الكتب اللاتينية — الإسبانية إلى لغة حاكمهم»⁽²⁾.

إن الترجمة العربية لما يسمى «collectio Conciliorum» (مجموعة قوانين المجامع الكنسية المتداولة في إسبانيا قبل دخول العرب وبعده، وهي من أهم الأصول الفقهية المسيحية) كان الغرض منها حسب سيمونيت، الإستعمال المحلي بين المسيحيين. وذلك لأن المسيحيين اضطروا إلى ترجمة هذا النص المهم (خلال القرن 11) إلى اللغة العربية نتيجة لكون معرفتهم باللغة اللاتينية أصبحت ضعيفة جدا: «إن اللغة اللاتينية قد تم نسيانها، خلال القرن العاشر إلى مدى بعيد، بحيث أن العربية أصبحت اللغة المستعملة بين المستعربين، خاصة عندما ظهرت الحاجة إلى ترجمة مصنف قوانين، موضوع بالدرجة الأولى لاستعمال القساوسة والمتكلمين قبل عموم الناس والمسيحيين»⁽³⁾.

في سنة 1891 نشر سيمونيت النص العربي للمراسيم التشريعية للمجمع الثالث لمدينة طليطلة، معيدا بناءها اعتمادا على مخطوطة الاسكوريال⁽⁴⁾ في كتابه: «تاريخ المستعربين» يكرس سيمونيت الفصل 37 «للدراستات الأدبية للمستعربين»⁽⁵⁾. في هذا الفصل أعاد سيمونيت ذكر قوله أن هذه الترجمة العربية يعود تاريخها إلى القرن 11 وأن المقصود منها كان تلبية حاجة «رجال الدين المسيحي لذلك العهد، بحيث أنهم كانوا يفهمون العربية أحسن من اللاتينية»⁽⁶⁾ في مواضع أخرى من كتابه «تاريخ المستعربين» نعثر أيضا على معلومات قيّمة حول المصادر العربية المسيحية في إسبانيا⁽⁷⁾.

(2) نفس المصدر، L.

(3) نفس المصدر XIV. انظر أيضا : XXXVIII-CXL; XXXII-XXXIII.

(4) Simonet, Concilio III de Toledo, 85 -- 130.4

(5) الصفحات 711 — 731.

(6) نفس المصدر 723. قارن 720 — 729.

(7) نفس المصدر XXXIII, XXXIV, 56, 231, 321-4, 343, 348, 351-3, 458, 499, 621-4, 622-3, 637, XXXIII, XXXIV, 56, 231, 321-4, 343, 348, 351-3, 458, 499, 621-4, 622-3, 637, 639, 660.

من المؤلفات المكرسة كلها لهذا الموضوع دراسة للمستشرق الألماني هاينريخ كآوسن (Heinrich Goussen) نشرها سنة 1909⁽⁸⁾ تتضمن هذه الدراسة وصفا لبعض المخطوطات العربية مرتبة حسب المواضيع التالية : «الكتاب المقدس وتفسيره» و«الآباء والمجامع الكنسية». غير أن ملاحظات كآوسن حول المخطوط العربي للمجامع الكنسية لاتضيف إلا الشيء القليل لملاحظات سيمونيت السابقة⁽⁹⁾.

وعلاوة على ذلك، فمن الدراسات القيّمة جدا، مقالات المستعرب الإيطالي الراحل جيورجيو لفي ديلا فيدا (Giorgio Levi della Vida) المكرسة في المقام الأول لبعض النصوص التاريخية للمصادر العربية المسيحية في إسبانيا⁽¹⁰⁾ مقتفيا آثاره نشر المؤلف عبد الرحمان بدوي الترجمة العربية لـ «كتاب هروشيوش» في بيروت سنة 1982⁽¹¹⁾. واعتمادا على هذه الطبعة وضع المستعرب الألماني هانس داير (Hans Daiber) تحليلا دقيقا للمقاطع المأخوذة في هذا النص من مصادر لايتينية أخرى متأخرة، عدا تاريخ هروشيوش⁽¹²⁾.

في سنة 1976 نشرت دراسة حول القاموس اللاتيني — العربي المحفوظ في مكتبة جامعة ليدن، والذي يعود تاريخه إلى القرن 12. تتضمن هذه الدراسة من بين ما تتضمنه إعادة صياغة المصادر العربية — المسيحية التي استقى منها المؤلف المستعرب صاحب القاموس. لقد نشرنا إضافة إلى هذا مقالا حول المصادر العربية المسيحية في إسبانيا خلال القرن 12، وكذا عددا من المقالات حول المخطوطات العربية التي كانت تُداول في إسبانيا المسيحية خلال القرون الوسطى⁽¹³⁾.

إن هذه المطبوعات كلها تحتوي في الواقع على مادة أولى يمكن بواسطتها صياغة

(8) Die christlich - arabische Literatur der Mozaraber. Leipzig 1909, 31.8

(9) نفس المصدر 19 — 21.

(10) قارن G.Levi della Vida, Note (1971)

(11) اروسيسوس : تاريخ العالم (1982).

(12) H.Daiber, Orosius' Historiae adversus Paganos (1986).

(13) The latin-Arabic Glossary, Leiden 1976; La apologia de al-Kindi, Toledo, 1989, Andalusian-Arabic Manuscripts, Leiden, 1992 and Frankfurt 1991 (supplementary notes).

تاريخ المصادر العربية المسيحية في إسبانيا. إلا أنه لا أحد لحد الآن بادر إلى وضع ولو أبسط خطأ رؤوس أقلام لهذا التاريخ. هناك في الحقيقة العديد من الأسباب تجعل من الصعب جدا كتابة مثل هذا التاريخ. في مقدمتها عدم معرفتنا بأي نوع من التقليد التاريخي في أوساط مسيحي الأندلس أنفسهم. إن المعلومات التاريخية القليلة التي وصلتنا عنهم، غالبا ما نستخلصها من الملاحظات العرضية الموضوعة من طرف المؤلفين المسلمين. يضاف إلى هذا مشكل كون معلوماتنا عن المصادر العربية المسيحية في إسبانيا وصلتنا بطريقة جزئية ومتقطعة.

لقد تم في سنة 1126 نقل عدد كبير من مسيحي الأندلس إلى إفريقيا الشمالية⁽¹⁴⁾، كما لجأ البعض الآخر منهم إلى الجزء المسيحي من إسبانيا. نستطيع أن نقول أنه في هذه السنة تم وضع حد للثقافة العربية المسيحية في الأندلس. غير أن المستعربين المسيحيين حاولوا، لمدة من الزمن، الحفاظ على هويتهم الثقافية الخاصة، في إفريقيا الشمالية وكذا في إسبانيا المسيحية. إلا أنهم، بعد مدة قصيرة، وجدوا أنفسهم مضطرين للاندماج، إذ اعتنق من بقي منهم في إفريقيا الشمالية الإسلام، كما ان الذين لجأوا إلى إسبانيا المسيحية فقدوا معرفتهم باللغة العربية تدريجيا خلال القرن الثالث عشر.

ان هذا الاندثار للثقافة المستعربة في الأندلس وإسبانيا المسيحية وكذا شمال إفريقيا يدل عليه الشكل المجزأ لما بقي من هذه الثقافة في مخطوطات أو منقولات. ان المخلفات الجزئية المكتوبة لهذه الثقافة يمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام⁽¹⁴⁾ :

القسم الأول يحتوي على المخطوطات العربية التي يعود أصلها إلى الجماعات المسيحية الأندلسية أو إلى جماعات المسيحيين المستعربين الذين لجأوا إلى إسبانيا المسيحية خلال عصر المرابطين، نذكر من بينها مخطوطة الاسكوريال لمجموعة قوانين المجامع الكنسية ثم الحواشي العربية على هوامش المخطوطات اللاتينية المحفوظة غالبا بأمان في المكتبات الكنسية في إسبانيا مثل خزانتي طليطلة وليون، بحيث نعثر

Simonet, Historia, 750 ff. (14)

(14) انظر أيضا دراستنا بعنوان : المخطوطات العربية المسيحية من شبه الجزيرة الايبيرية وشمال إفريقيا. تفسير تاريخي. التي ستصدر مع نهاية 1994 في مجلة «القنطرة» بمدريد.

أحيانا في هذه الحواشي على منقولات قيمة من مؤلفات مسيحية أندلسية⁽¹⁵⁾.

القسم الثاني يتضمن بعض المخطوطات النادرة جدا يعود أصلها إلى جماعات المسيحيين المطرودين إلى شمال إفريقيا مع بداية القرن 12، نذكر منها على سبيل المثال مخطوطة الترجمة الأندلسية المحفوظة في خزانة القرويين ومخطوطة تاريخ بلدان العالم لمؤلف مستعرب مجهول ثم اكتشافه لأول مرة من طرف العالم التونسي حسن حسني عبد الوهاب في مكتبة جامع سيدي عقبة في القيروان،⁽¹⁶⁾ وهو الذي نشر حوله لفي دلا فيدا دراسته المشهورة.

أما القسم الثالث فيحتوي على بعض المخطوطات العربية المنسوخة من طرف علماء يهود أو مسلمين. ان النص العربي لكتاب «تقويم قرطبة» المشهور — الذي سنتعرض له فيما بعد يوجد محفوظا في مخطوط وحيد. في منتصف القرن الرابع عشر ثم نسخ هذا المخطوط بحروف عبرية على يد حكيم يهودي في مدينة وشقة (Huesca)⁽¹⁷⁾. أما المخطوط العربي الوحيد الذي بقي لنا من نص هروشيوش الموجود الآن في واشنطن — فإنه كان في حوزة عالم مسلم، كما يتضح ذلك من الحواشي الموضوعية على هوامش الكتاب بحيث انها تتضمن، من بين ما تتضمنه، مجادلات كلامية تستند إلى العقيدة الاسلامية ردا على الايمان المسيحي في الثالث المقدس.⁽¹⁸⁾ كلا هذان المخطوطان يعود أصلهما إلى الأقلية المسيحية المستعربة في شمال إفريقيا خلال القرن 12، بحيث اننا نصادف بعض التعاليق اللاتينية بخط قوطي غربي على الهوامش⁽¹⁹⁾. زيادة على ذلك يمكن القول ان غالبية النصوص العربية المسيحية الأندلسية وصلتنا عن طريق المقتبسات التي نجدها في كتب المؤلفين المسلمين واليهود.

(15) قارن Van Koningsveld, The latin-Arabic Glossary 45-5 : («Visigotisch manuscripts with glosses in Arabic»)

(16) توجد صور من هذا المخطوط في ليدن، Cod. Or. 12 604;

(17) قارن Fück, Zum Kalender. 336-7

(18) توجد صور من هذا المخطوط في ليدن Cod. Or. 12. 641. ان التعليق الجدلي يوجد في الورقتين. 11 أو 118 ب.

(19) Orosius : Leiden Or. 12.641, fol. 97 a; تاريخ البلدان لمستعرب مجهول. Leiden Or. 12.604

صورة رقم 34).

أما القسم الرابع والأخير فيحتوي على منقولات من المصادر الأندلسية المسيحية العربية موجودة في بعض كتب المؤلفين الأندلسيين من مسلمين ويهود. هناك مثلاً كتاب الفصل لابن حزم الذي نقل من مصادر مسيحية أندلسية مختلفة من بينها الترجمة العربية للأناجيل الأربعة التي يعود تاريخها إلى عصر الخلافة. وهناك أيضاً كتاب الإمام القرطبي المعنون بالاعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، المكتوب في الأندلس مع بداية القرن 13، (أي بعد حوالي قرن كامل من نفي المسيحيين الأندلسيين إلى شمال إفريقيا)، والذي ينقل عن مصادر مسيحية أندلسية مختلفة لانعرف بعضها إلا من خلال هذه المنقولات.

في دراستنا التالية سنحاول أن نقدم مساهمة أولى في وضع انطلاقة لكتابة تاريخ المصادر العربية المسيحية الأندلسية خلال القرون الوسطى مركزين في ذلك على بعض المؤلفين أو على بعض النصوص ذات الدلالة المركزية لكل قرن من القرون الأربعة. سنحاول أيضاً أن نجيب عن السؤال المتعلق بالعصر الذي يمكن في إطاره وضع النص العربي لمجموعة قوانين المجامع الكنسية.

عصر الامارة

إذا كانت معلوماتنا حول هذا الموضوع مما لا يتطرق إليه الشك، فإن المصادر العربية المسيحية يمكن تأريخ بدايتها خلال النصف الثاني من القرن التاسع بعد أن كانت قد آلت إلى السكون كارثة «شهداء قرطبة» التي كتب بصدها الكثير. لقد تجسد هذا الواقع في شخص حفص بن ألبر القوطي الذي أنجز سنة 889 (275 هجرية) ترجمته العربية للمزامير على بحر الرجز نزولاً عند رغبة بلنش (Valentius) اسقف قرطبة⁽²⁰⁾، أن هذه الترجمة العربية للمزامير على يد حفص بن ألبر هي المؤلف الوحيد الذي وصلنا بكامله منسوباً إلى حفص والذي يوجد الآن في مخطوط وحيد لم ينشر بعد. ومنه سنقتطف للقارئ بعض المختارات الشعرية في دراستنا هذه. إلى جانب هذا فإن المصادر العربية حفظت لنا بعض النصوص

(20) قارن D.M. Dunlop, Hafs ibn Albar - the Last of the Goths ? JRAS 1954, 137-51 نفسه : Sobre Hafs ibn Albar al-Quti al-Qurtubi. Al-Andalus, 1955, 211

ان المؤرخ الأندلسي ابن القوطية (المزداد في الربع الأخير من القرن التاسع الميلادي) يشير إلى أن قاضي النصراني حفص بن ألبَر يعتبر من سلالة رُمْلَه (Romulo)، الابن الثالث لغيطشة (Witiza) ملك القوط الغربيين. يقول ابن القوطية في هذا الصدد بالحرف : «وصار لُرُمْلَه ألف ضيعة وكان أثر سكنى طليطلة، ومن نسله : حفص بن ألبَر قاضي العجم».(22) ان المستعرب البريطاني دنلوب (Dunlop) كان أول من أشار إلى أن حفصا قد يحتمل أن يكون ابنا لألبَر القرطبي المشهور (المتوفى سنة 861) واحد زعماء حركة «شهداء المسيحيين» ضد المسلمين في القرن التاسع وكذا صاحب التآليف العديدة باللاتينية.(23) بناء على هذا فإننا نرى هذه المطابقة سليمة. ان التقدير العظيم الذي كان يكتنه العديد من المؤلفين المعاصرين لألبَر القرطبي يبدو واضحا من الرسائل اللاتينية الموجهة إليه، على سبيل المثال من طرف يوحنا الاشيلي (Johannes Hispalensis) والأب المسمى : «اعتمد على الله» (Esperaindeo). في رسالة إلى ألبَر من طرف يوحنا الاشيلي يخبره فيها بما يلي : «Inlustri eximio celsoque Albaro Joannes» بمعنى : (هذه رسالة من) يوحنا إلى الشهير المعظم العالي المقام ألبَر أما «اعتمد على الله» فكتب إليه يقول inlyto Albaro (...) inlyto Albaro (...). هذه رسالة من اعتمد على الله إلى العظيم المبجل الشهير Speraindeo بمعنى . «هذه رسالة من اعتمد على الله إلى العظيم المبجل الشهير سيدي ألبَر». وفي رسائل أخرى نقرأ : «Vale in Domini Iesu»، «Serenitas vestra»، «Christus, Serenissime frater»، «Vestra benignitas»، «Celsitudo vestra» يعني : «أهلا أخي الأعظم [في حب] سيدنا يسوع المسيح»، «المعيتكم، حضرتمكم، عظمتكم، جلالتمكم... إلخ». ان خوصي مادوز (José Madoz) محقق وناشر رسائل ألبَر، أصاب الحقيقة عندما عبّر قائلا : «ان هذا

(22) ابن القوطية : كتاب افتتاح الأندلس. طبعة إبراهيم الأبياري. القاهرة / بيروت، 1982.
ص : 31.

299

النسق من الصفات النبيلة تتوافق كثيرا مع مقتضيات السلوك المدني وكذا مع المعاملة الأدبية والديبلوماسية. ان هذا مما يعبر في جميع الحالات على نوع من المنزلة النبيلة لتكلم قرطبة. ورومانو (Romano)، قومنس النصارى هو الشخص الوحيد الذي حظي في كتاب رسائل ألبر بمثل هذه المعاملة⁽²⁴⁾. إلى جانب هذا يجب أن نضيف إلى أن ألبر نفسه يشير بوضوح في رسالة له إلى نسبه القوطي. من مقدمة الأب مادوز نقتبس مايلي أيضا : «في رسالته الأخيرة يكتب (ألبر) إلى المرتد العازر (Eleazar) متباهيا بمفتخرا بانتدائه إلى الجنس القوطي».⁽²⁵⁾ ان هذه المصادر كلها تؤكد أن ألبر يعتبر في الحقيقة من طبقة النبلاء القوطيين الغربيين، وانه هو أب حفص بن ألبر وان الاثنين ينحدران معا مباشرة من غيطشة (Witiza) عبر رُمُلِه (Romulus).

في مقدمة خاصة من أرجوزة في 143 بيتا يشرح لنا حفص الأسباب التي دفعته إلى وضع ترجمة موزونة للمزامير وكذا المنهج الذي اتبعه في ترجمته. خلال ذلك يشير إلى ترجمة منشورة سابقة وضعت بطريقة حرفية متكلفة أفسد المترجم فيها الشكل والمعنى الشعري معا للمزامير :

وهن طرّافي اللسان الأعجمي	في أصلها على عروض محكم
وزن غناء مؤنق موزون	يفهمه ذو الفهم باللحون
كأنه في العربي الرجز	إلا قليلا فيه ما يفترز
تهليل مزمار له ألحان	بها يغنى وله أوزان
فصار من ترجمه منشورا	أفسد منه النظم والتفسير
(...)	

فلم أجد أقرب للتزيين	من ردّه في الكلام الموزون
على مثال وزنه في الأعجمي	من ظاهر ومن خفي مبهم
على عروض الرجز المشطور	الواضح التبيين والتفسير
إذ كان في وزن الغناء والنغم	يقرب من بعض أعارض العجم
(...)	

(24) Epistolario de Alvaro de Cordoba, 15-20 («Familia»).

(25) نفس المصدر، 16 - 17.

وهو عروض في الغناء مؤنق يشبه بعض وزنه الرجز إذ بعضه مزدوج القوافي ونقره في العربي المحكم وحركاته على اللسان وجدت ما ترجمته يتزن عند الأعاجم يسمى يَنْقُ إلا قليلا منه فيه يُفْتَرز والبعض منه فعلى اختلاف كنقره في الأعجمي الأعجم في الوزن من كليهما سيان فيه وفي سواه ليس يمكن⁽²⁶⁾

يقرر حفص في أرجوزته أنه اتبع نهج الترجمة اللاتينية ليرونم (Hieronymus) المعروفة باسم «النص اللاتيني المتداول» (Vulgata) يقول :

ترجمت ما فسره يرونم وهو الذي في علمه يُقدّم مفسر التوراة والانجيل فهما لنصّ القول وللتأويل ترجمت عنه قوله موزونا ترجمة حسنتها تحسينا قصدا إلى المعنى بلا تبديل لظاهر النص ولا تحويل

في الواقع، من خلال مقارنة المخطوطات العربية للمزامير المتداولة في إسبانيا، توصلنا إلى نتيجة مفادها ان حفص بن ألبّر اتبع في ترجمته بدون شك النص اللاتيني المتداول لدى الجمهور، عندما يجد اختلافا مع نص الترجمة اللاتينية الأخرى المعروفة «بالترجمة اللاتينية القديمة» (Vetus Latina) ان الترجمة العربية المنشورة المتداولة في إسبانيا، تفصح عن تشابه واضح مع هذه الترجمة اللاتينية القديمة⁽³⁶⁾ غير ان هذا لايعني أن هذه الترجمات المنشورة وضعت في الأندلس، وانها بالتالي اعتمدت مباشرة على الترجمة اللاتينية القديمة.

قد تكون هذه الترجمات العربية المنشورة المتداولة في الأندلس وضعت في المشرق اعتمادا على الترجمة الاغلايقية أو السريانية للتوراة والتي تشبه إلى حد بعيد الترجمة اللاتينية القديمة. إلا أن هذه القضية تحتاج إلى بحث أكثر تفصّل. علينا أن نقول أيضا ان نصوص هذه الترجمات المنشورة في الواقع ضعيفة ومتكلفة جدا، الأمر الذي قد يعني أن انتقاد حفص موجه بالذات إلى هذه الترجمات المتداولة في الأندلس.

Dunlop, Hafs b. Albar, 139 - 141. (26)

Van Koningsveld, The Latin-Arabic Glossary, 52-54. (27)

وأخيرا يشير حفص إلى أن عمله تم بفضل الاستعانة والترخيص من طرف علماء الدين البارزين المعاصرين له، من بينهم أسقف قرطبة بلنش (Valentius) يقول حفص شعرا :

«شاورت فيه كل جبر عندنا
محصلا لما علمت عندهم
قوم هم في دينهم أخيار
قد رفضوا الدنيا فصاروا منها
فكلهم قد حضني عليه
إذ أنزلوه حبة و أجرا
بإذن خير أسقف للبيعة
أفضل من كان من الأساقفة»

وكل موثوق به في ديننا
مقابلا لما كتبت معهم
وفي العلوم والتقوى منار
كأنهم ماتوا فغابوا عنها
وزادني تسرعا إليه
وزعموه في الثواب ذخرا
بلنش ذي المناقب الرفيعة
في عصره وفي العصور السالفة»

وفي نفس الوقت كان حفص على علم بأن بعض الناس سوف يستهزؤون بعمله، تحذوهم في ذلك الغيرة والعناد لأنهم لا يقدرّون الاتيان بمثل هذا العمل مهما عاشوا. يقول :

وقد علمت ان في الجهال
ممن تركته فلم أشاوره
قوما سيسخطون ما فعلت
وهم على ذلك عالمونا
وان ما فعلته صواب
وان فيه لهم تعلما
وان ما فعلته لو فكروا
في واحد أو نظروا أفرادا
لعجزوا عنه ولما يقدرّوا

وفي ذوي العنود والمحال
ومن جهلته فلن أوازره
ويولعون عيب ما عملت
بأنهم علي معتدوننا
تقضي له العقول والألباب
وفهم ما قد كان ليس يفهما
فيه جميعا وعنوا ونظروا
واجتهدوا في ذلك اجتهدا
ان يفعلوه لو عنوا ما عُمروا⁽²⁸⁾.

وفي الختام يذكر حفص انه وضع عمله في سنة 889 طبقا لنظام حساب الجمل، كالتالي :

خطت لتاريخ المسيح السيد هدى النفوس للطريق الأرشد
وفي الطاء ثم الفاء ثم الظاء بالعون من ذي العز والبهاء
ترجمها عبد الاله حفص وكملت وصح منه النص
يرجو بها الثواب عند البار والشكر والدعاء عند القار
فمن قرأ كتابنا من بعدنا وقد مضينا قل له يدعو لنا» (29)

هذا وبالرغم من أن الترجمة العربية الموزونة للمزامير على يد حفص وصلتنا في مخطوط محفوظ في نسخة وحيدة فقط، فإنها لا بد وأن تكون قد حظيت بشهرة كبيرة في الأندلس كما يبدو من الاقتباسات التي نصادفها ليس فقط عند المؤلفين المسيحيين بل أيضا عند المؤلفين المسلمين وانيهود.

بعد مرور ثلاثة قرون على وفاة حفص نلاحظ أن ترجمته للمزامير بقيت متداولة. نجد ذلك مثلاً في القاموس اللاتيني العربي المحفوظ في مكتبة جامعة ليدن، الذي كتب في طليطلة المسيحية في منتصف القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي). يتضمن هذا القاموس مقتبسات من المزامير بترجمة حفص، كالمزمور الأخير من الزبور المشهور في أمر الدعاء لله مثلاً. ههنا نقدم هذا المزمور كنموذج مستقى من هذا النص الذي لم ينشر بعد، باعتباره أقدم نموذج لنص عربي مسيحي وصلنا من الأندلس موضوع خلال حكم الأمير عبد الله.

وفي حديثه فابتهلوا إياه في اقتداره فهللوا
وهللوه في قواه وهللوا له بحسب عظمه وبجلوا
وهللوا له بصوت القرن سبحانه من خالق ذي من
وهللوا له على المزممار وهللوا له على الكيتار
وهللوا له نعم بمزهـر وكبر وهللوا في الوتر
نعم وفي الـورغـن ذي الأصوات وهللوه بمصلصات
ذات صدى وكل ما تنفسا فليمدح الرب الذي تقدسا» (30)

(29) نفسة، ورقة 13 أ.

(30) قارن، Vans Koningsveld, Glossary وكذا الهامشين 248 و 249؛ نفس المؤلف Psalm 150

New quotations from Hafs of the Translation by Hafs ibn Albar al-Quti نفس المؤلف،

هذه al-Quti's Translation of the Psalms (1973) Neubauer, Hafs al - Qouti (1895), 65 - 9

الترجمة توجد عند القرطبي أيضا : الاعلام، 427 (المزمور 110 : 4).

ان مؤلفات حفص الأخرى كانت تحظى بشهرة واسعة أيضا. هكذا نجد عند القرطبي في كتاب له في الرد على النصارى، يعود إلى بداية القرن الثالث عشر، خمس إشارات إلى «أقوال حفص بن أثير» التي يقول فيها، من بين ما يقوله، ان حفصا تكلم في العقيدة المسيحية حول الثالوث المقدس من وجهة نظر مبنية على المنطق والفلسفة⁽³¹⁾ وفي موضع آخر يقتبس نفس المؤلف المسلم ملاحظات حفص «من أحد كتبه» حول الفكرة المسيحية بخصوص الصيام والأعياد السبعة التي يوجد موضوع الاحتفال بها في القانون المسيحي. كل فصل من هذه الفصول كتب على صيغة جواب على سؤال معين طرح على حفص بخصوص جانب معين من الديانة المسيحية. ان القرطبي دون ان ينكر فضائل حفص يقول فيه بطريقته الجدلية مايلي : «ان هذا القس الذي هو حفص هو من اكيسهم وأفصحهم على أنه ليس في القوم رجل رشيد ولا ذو عقل سديد. وإنما كان كذلك لأنه قد ضربت عليه الجزية ولزمه الصغار والدلة، إذ كان نشأ في ذمة المسلمين وتعلم من علومهم ما فاق به النصارى. ومع ذلك وإذا أخذ يتكلم في علوم النصارى وأحكامهم تلجلج لسانه وقصر بيانه لأنه ينزل على آراءهم الفاسدة وتحكماتهم الباردة. وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر»⁽³²⁾.

في موضع آخر يقتبس القرطبي أجوبة أخرى لحفص حول مسائل متعلقة بأساس ومعنى عدد من الشعائر المسيحية كالقربان والملح الذي تقدس به البيوت والتصليب على الوجه من خلال هذه المقتبسات نعتقد ان سائل حفص حول عدد من قضايا الديانة المسيحية لم يكن غير رجل مسيحي يريد معرفة وفهم العقيدة المسيحية. هذا ما يمكن استنتاجه من الأقوال التالية : «قال حفص : اعلم ان الذي أردت معرفته من خبر القربان وشرحه» وقال حفص : اما الملح الذي نقدر به الدور والبيوت وأردت فهم ذلك وقال حفص : إنما نصلب على وجوهنا لأننا وجدنا في كتب علمائنا السالفين..»

(31) وعلى منواله نسج حفص بن البر في أقواله القرطبي : الاعلام، 58.

(32) القرطبي : الاعلام، 422 — 425. «وقال حفص بن البر منهم في بعض كتبه وقد سأله سائل عن صيامهم» (ص 422) «قال حفص : فإن الذي أردت علمه من الأعياد السبعة التي أمر القانون بصيانتها فهي معروفة» (ص 424).

لعل كتاب حفص بن أئبر هذا الذي يقتبس منه القرطبي هو «كتاب المسائل السبع والخمسين». ان القرطبي يقتبس العديد من الأقوال من هذا الكتاب دون الإشارة إلى مؤلفه.⁽³⁴⁾ من بين المواضيع التي تتعلق الأمر بها في هذه المنقولات الثالث المقدس والثواب والعقاب في الآخرة. من هذه الأقوال المقتبسة يتبين أن المؤلف يتكلم بضمير «النحن» بمعنى «نحن المسيحيين»، عندما يحاول شرح عقيدة الإيمان المسيحي.⁽³⁵⁾ بالنظر إلى طريقة القرطبي هذه حيث يذكر أحيانا إسم حفص المؤلف وأحيانا أخرى يذكر عنوان كتابه، يبدو لنا أنه يستقي منقولاته بطريقة غير مباشرة، الأمر الذي يعني أن كتاب حفص لم يكن في متناوله. مهما يكن من أمر فإن مقتبسات القرطبي تقدم لنا شهادة حية بطريقة فريدة من نوعها على أقدم الكتابات العربية المسيحية المعروفة لدينا من الأندلس، حيث المؤلف المسيحي يشرح أهم مقالات الديانة المسيحية. ومن خلال أجوبته يبدو أن حفصا كان على اتصال بالمؤلفين في العلوم التوراتية وكتابات آباء الكنيسة بحيث أنه يتكلم مثلا على أفكار آريوس (Arius) وتيروتوليانوس (Tertullianus) ومؤلفين آخرين في موضوع الثالث المقدس.

من المصادر الأندلسية الأخرى التي تستقي من إحدى مؤلفات مؤلف يدعى : «القوطي، ولعله حفص القوطي، كتاب «تهذيب الأخلاق» لمؤلفه اليهودي سليمان بن جبرول من القرن الحادي عشر⁽³⁷⁾ من خلال هذه المقتبسات فإن الشيء الوحيد الذي يمكن قوله بصدد كتاب القوطي هذا هو أنه لابد ان يكون عبارة عن جمع المنقولات الأخلاقية والوعظية مع مسحة توراتية. في إحدى هذه المنقولات نقرأ ما يلي : «أفضل ما تنظر به في أمر أعدائك ان تردهم إلى مودتك إن أمكن

(33) القرطبي : الاعلام، 427، 430 — 431.

(34) نفس المصدر، 61، 80 — 81، 88، 128، 432 — 433.

(35) نفس المصدر، 61 : «هذا صاحب كتاب المسائل السبع والخمسين. يقول فيها : لانقول...» نفسه، 80 «هذا صاحب كتاب المسائل يقول : (...) فنؤمن...» نفسه 81 : «وقال صاحب كتاب المسائل : لسنا نؤمن...» نفسه 432 : «قال صاحب كتاب المسائل : لسنا ننتظر...».

(36) نفس المصدر، 81.

(37) قارن Ibn Gabirol, the Improvement (ed. Wise) النص العربي يوجد في الصفحات : 22،

28، 29، 40، 42، 44. الترجمة في الصفحات : 62، 72، 74، 92، 95، 99.

ذلك».(38) ان المقاطع الأخرى المقتبسة من طرف ابن جبرول تتضمن مقولات ذات نفس المعنى.

استنادا إلى هذا يمكن القول ان حفصا، باعتبار غزارة إنتاجه وعمق تمكنه من المصادر اللاتينية، قد كتب ليس فقط باللغة العربية وإنما أيضا باللاتينية. ولعله في هذه الحالة الأخيرة كتب تحت إسمه اللاتيني. إذ مما لاشك فيه أن حفصا كان يحمل مثل هذا الاسم طبقا للعادة المتبعة في التسمي باسمين : احدهما لاتيني والآخر عربي. وهي عادة كانت سارية في أوساط المسيحيين الأندلسيين في القرن التاسع والعاشر. غير أن هذه الظاهرة المعروفة لدينا من الأمثلة العديدة، يبدو أنها غير معروفة بالنسبة لحفص. فيما يتعلق بالمدة الزمنية لنشاطات حفص بن ألبر القوطي يمكن القول انها عاصرت مؤلفين آخرين مشهورين من قرطبة كمثل شمسون (Samson) وليوو يجيلدوس (Leovigildus) الذين كانا معروفين بكتابتهما اللاتينية(39) وكما هو الشأن بالنسبة لحفص بن ألبر، فإن هذين المؤلفين كانت لهما روابط صداقة مع بلنش (Valentius) اسقف قرطبة، بحيث كانت يؤيدانه مثلا في نزاعه ضد الاسقف الزنديق هوستيجيسيس (Hostegesis). ان شمسون (Samson) كان رئيس دير الرهبان ومعلما كما كان أيضا معروفا بمعرفته باللغة العربية الأمر الذي كان وراء بعثه مرارا إلى بلاط قرطبة قصد ترجمة الوثائق المهمة من العربية إلى اللاتينية في إطار العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس والدول الأوروبية المسيحية. نظرا لمنصبه «كقاضي العجم» فإن حفص بن ألبر كانت له علاقات متصلة مع البلاط في قرطبة أيضا. من كتب التاريخ العربية يبدو، علاوة على الأساقفة، ان العديد من المدنيين المتولين لمنصب «قاضي العجم» استُخدموا أيضا ك مترجمين من اللاتينية إلى العربية وكذا ك مترجمين شفويين في بلاط قرطبة(40) هل يمكن أن يكون حفص بن ألبر ورئيس دير الرهبان شمسون شخصا واحدا ؟ ان الدراسة المقارنة لنصوص حفص العربية في السياق الواسع للمصادر اللاتينية المعاصرة يمكن

(38) ابن جبرول، مرجع مذكور، 28، الترجمة : 72.

(39) قارن Simonet, Historia, 487 - 502

(40) انظر على سبيل المثال : Van Koningsveld, Glossary, 56 - 9; Simonet, Historia, 622-3,

Lévi-Provençal, Histoire, 3/ 218-20

أن تلقي ضوءاً أكثر حول الشخصية الساحرة لحفص بن ألبَر القوطي الذي ظلّ لمدة طويلة في غموض كبير.

ان التعيم الذي أحاط بحفص بن ألبَر القوطي يمكن رده إلى كون سيمونيت (Simonet) ولقي بروفنصال (lévi - Provençal) لم يذكر إسمه في دراساتها التاريخية إلا في إشارة مقتضبة باعتباره «قاضي النصاري» ناسبين إياه خطأ إلى القرن العاشر (الرابع الهجري). أما اعتبار حفص يجسّد شهرة المصادر العربية المسيحية في الأندلس خلال القرن التاسع فلم يكن معروفاً لديهما بعد في ذلك الوقت.

عصر الخلافة

ان حالة الأسقف ريسمند (Recemundus)، الذي عاش في القرن العاشر والذي كان اسمه العربي ربيع بن زيد، يشكل حالة مخالفة تماماً. فيما يتعلق به فإن المصادر اللاتينية وكذا العربية تتضمن معلومات مهمة بصدد، لم تغب عن أنظار المؤرخين المحدثين⁽⁴¹⁾. يقول سيمونيت : «ان ريسمند المدعو ربيع بن زيد عند العرب ازداد في قرطبة وكان يتميز بمواهب خاصة واكتسب معرفة واسعة في كل من الأدب اللاتيني والعربي»⁽⁴²⁾ أما لقي بروفنصال فيسميه : «الخادم الوحيد للكنيسة في الأندلس خلال عصر الخلافة الذي تتوفر بصدد على قدر معين من المعلومات (...) وهو الذي أرسله الخليفة عبد الرحمان الثالث كنائب إلى بلاط أوطو الأول (Otto I) في سنة 955 في الوقت الذي كان يستعد فيه، نزولاً عند رغبة الخليفة، ليشغل كرسي المجلس الأسقفي في البيرة (Elvira) الذي كان شاعراً في ذلك الوقت. ان النتيجة الإيجابية التي مُنيت بها هذه البعثة دفعت الخليفة الناصر إلى إرساله، بعد عودته، إلى كل من القسطنطينية والشام قصد تحصيل بعض المواد الفنية لتزيين قصره في مدينة الزهراء. فيما بعد استمر ربيع بن زيد في تقليد دور مهم في بلاط الحكم الثاني، الذي كان يقدر تقديراً كبيراً في علوم الفلسفة والفلك. وله صنف سنة 961 الكتاب المشهور : «تعميم

(41) انظر على الخصوص Simonet, Historia, 603-18

(42) نفس المصدر، 606.

ان نص هذا الكتاب المقسم حسب شهور وفصول السنة الشمسية، يعتبر مصدرا تاريخيا ذا قيمة كبيرة بحيث يزودنا بمعلومات كثيرة ليس فقط فيما يتعلق بالأعياد المسيحية وطقوسها الشعائرية بل أيضا فيما يتعلق بإشاراته إلى بعض المعارف المتعلقة بالبروج المساوية والفنون الزراعية والادارية وكذا النصائح الطبية من الحمية والصحة لكل شهر من الشهور.

إن كتاب «تقويم قرطبة» كتب باللغة العربية تحت عنوان : «كتاب تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان» (44)، إن إسم مؤلفه المذكور في المخطوط الوحيد الذي بقي من النص العربي هو كالتالي : أبو الحسن عريب بن سعد الكاتب. (45) في الترجمة اللاتينية التي أنجزت في وقت لاحق، نقرأ مايلي Harib filii Zeid episcopi quem composuit Mustansir imperatori : «هذا كتاب عريب بن زيد الأسقف الذي صنفه للخليفة (الحكم) المستنصر» (46) بالنظر إلى عدم التطابق هذا بين النص العربي الأصل والنسخة اللاتينية كان المستشرق الهولندي رينهارت دوزي (R. Dozy) في القرن الماضي، أول من بنى نظرية ماهرة، ملخصها ان النص كما نعرفه الآن عبارة عن مزج أو بالأحرى تداخل لنصين معا. ان أحد هذين النصين، وهو عبارة عن نوع من المرشد يحتوي خاصة على معلومات في علم الفلك، قد يعود أصله إلى المؤلف عريب بن سعد الكاتب المتوفى سنة 980 (47). أما النص الثاني فقد يكون عبارة عن تقويم للطقوس المسيحية الموضوع على يد ربيع بن زيد (48) ان المستشرق الاسباني سافدرا (Saavedra) يذهب بعيدا عندما يدافع عن قوله ان النص اللاتيني محرف. ان الأصل قد يكون كما يلي (Sad) Harib filii Zeid» liber, cum additamentis Rabi filli) Zeid : «هذا كتاب عريب ابن (سعد،

Espana musulmana, 123 (43)

Le Calendrier de Cordoue. ed. 1961, 187 (44)

نفس المصدر، 3 (قارن ص 187 : عريب).

نفس المصدر، 3.

Encyclopaedia of Islam الطبعة الثانية، مادة : عريب. (47)

Le Calendrier, VIII - X, Simonet, Historia, 613; Lévi-Provençal, Espana musulmana, 134-5. (48)

مع الحاقات ربيع ابن زيد» (49).

ان سيمونيت يضيف بالتالي دليلا كلاميا إلى هذا قائلا : «ان النص العربي لم يكتب أصلا من طرف مؤلف مسيحي، لأننا في الصفحة 4 من طبعة دوزي للكتاب نقرأ مقطعا مأخوذا من القرآن باعتباره كلام الله، المقطع الذي تم إسقاطه من النسخة اللاتينية» (50).

بخصوص هذه القضية فإننا نودّ أن نقول ان لكتاب «تقويم قرطبة» مؤلفا واحدا ألا وهو الأسقف رسيمند (Recemundus)، ألياس ربيع بن زيد. ان المؤلف الأندلسي من القرن الثالث عشر ابن سعيد يذكر كتاب «تقويم قرطبة» في ذيل كتبه للرسالة المشهورة لابن حزم في «فضائل علماء الأندلس». وهنا يذكر ابن سعيد كتاب التقويم كباب من قسم علم التنجيم. يقول بالحرف : «واما التنجيم فلا بن زيد الاسقف القرطبي فيه تصانيف، وكان مختصا بالمستنصر بن الناصر المرواني وله ألف «كتاب تفصيل الأزمان ومصالح الأبدان» وفيه من ذكر منازل القمر وما يتعلق بذلك ما يستحسن مقصده وتقريبه» (51).

ان ابن سعيد اطلع فيما يبدو على مخطوط ذكر فيه الاسقف ربيع بن زيد باعتباره المؤلف الوحيد لهذا النص. لهذا السبب يبدو لنا أن تحريفا قد مس الاسم خلال نقل النص نتيجة لتحويل مواضع الحروف : بدل ربيع قرىء عريب. في النص العربي الذي وصلنا في مخطوط وحيد حُرِفَ إسم الأب زيد إلى سعد الكاتب، كمرحلة تالية نظرا لنفاذ الشهرة الكبيرة لعريب بن سعد الكاتب الذي يعتبر صاحب الذيل الموضوع على تاريخ الطبري. علاوة على هذا، وخلافا للأسقف ربيع بن زيد، فإن هذا المؤلف لانهثر على أي ذكر له في المصادر العربية باعتباره كان نشيطا في التأليف في ميدان علوم التنجيم، كما لانعرف له مصنفا في علم

Saavedra, Estudio, 15. (49)

Simonet, Historia, 613. (50)

(51) حسب المقرئ، نفح الطيب، ص 125 بتحقيق دوزي Dozy.

Fück, Zum Kalender, 356-7 (52)

(53) ابن أبي أصيبعة، عيون، الأرقام : XII, XIV, XV, XX, XXIX؛ ابن جليل، طبقات، 93،

التقويم. ونتيجة لهذا، ففيما يتعلق باسم المؤلف يمكن الاعتماد أكثر على الترجمة اللاتينية منه على المخطوط الأصلي من القرن الرابع عشر. في الواقع، فإن النص العربي يقدم نسخة مختصرة في حين أن النص اللاتيني كما توارث نقله أقرب ما يكون إلى النص الأصلي، كما سبق أن أشار إلى ذلك المستعرب الألماني فوك (Fück).

أما الأسقف ربيع بن زيد فإنه كان متخصصاً بالخصوص في العلوم الدنيوية. ان المؤلف ابن أبي أصيبعة من القرن الثالث عشر في تاريخه المعروف في العلوم الطبية الذي يذكر فيه العديد من الأطباء المسيحيين الأندلسيين، يقول أن الطبيب ابن الكتاني الذي توفي في سرقسطة حوالي 1029 كان تلميذا للأسقف ابن الحارث الذي كان بدوره تلميذا للأسقف الفيلسوف ربيع بن زيد⁽⁵⁴⁾. ان ربيع بن زيد هذا يمكن مقارنته بعالم مسيحي آخر كيوحنا ابن ماسويه الذي كان خادما عند الخليفة المأمون في بغداد مع بداية القرن التاسع. من المؤلفات المعروفة لابن ماسويه «كتاب الأزمنة» الذي يشبه إلى حد بعيد «تقويم قرطبة». ان هذا الكتاب يتعرض أيضا في البداية للفصول الأربعة، وبالتالي يزودنا بمعلومات في علوم التنجيم والزراعة والمناخ لكل شهر ولكل وقت، متضمنا نصائح في الصحة والحمية. في «تقويم بغداد» يتعرض المؤلف أيضا لأهم الأعياد المسيحية⁽⁵⁵⁾. بناء على هذا يمكننا القول ان الأسقف ربيع لا بد وانه اطلع، اما خلال سفره إلى المشرق حيث زار القدس أو في الأندلس، على كتاب ابن ماسويه : ان بعض العبارات من «تقويم قرطبة» تتطابق حرفيا مع عبارات من نص ابن ماسويه⁽⁵⁶⁾ شأنه شأن سلفه في بغداد، فإن اسقف قرطبة حاول في كتابه من وجهة نظر علم الفلك والطقس أن ينقل للخليفة وضعية حياة المواطنين في منطقة حكمه. وقد كان هؤلاء السكان إلى حوالي منتصف القرن العاشر في أغلبيتهم من المسيحيين. لهذا فإن التعرض للأعياد المسيحية كانت له دواعي محلية، كما هو الشأن بالنسبة لابن ماسويه. ان

(54) ابن أبي اصيبعة، عيون، 34 — 35.

(55) Le livre des temps d'Ibn Massawaih, ed. Sbath, Le Caire 1933.

(56) المصدر السابق ص 243، 5 — 6، 9 - 175,8; Calendrier 157, 6; Livre, 245, 11; Calendrier 175,8 - 9, 6 — 5, 243 etc.

هذا القسم يعتبر جزءا لا يتجزأ من الكتاب وليس إضافة متأخرة : «وقد ذكرت في هذا الكتاب جميع أعياد العجم (التي لا تختلف أوقاتها ولا تتغير أزمانها وذكرت ذلك عيدا بعد عيد في كل شهر من شهورهم) ليكون ذلك زيادة في المعرفة وعونا على الدلالة» إن هذا المقطع من «تقويم قرطبة» لا يدل على أن الأمر يتعلق ببلصق، وإنما المؤلف يتحدث نفسه مفسرا مختلف مواضيع كتابه(57).

ولا غرابة أن نجد أسقف قرطبة يستشهد بآية من القرآن حيث أنه يستدل بالقرآن لشرح معنى لفظة النوء فقط. «ومعنى النوء : سقوط أحد المنازل في المغرب مع الفجر فيقال : ناء ذلك النجم للغروب، أي مال. وقال الله عز وجل : ﴿ما ان مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾ أي لتميل بها من ثقلها.(58) علينا أن نقرر ههنا أن مسيحي الأندلس، عندما يتعلق الأمر بدراساتهم العربية، كانوا لا يخرجون عن القاعدة اللغوية المتعارف عليها التي تلعب فيها لغة القرآن دورا مهما. هذا قد يوضح لنا أيضا السبب في كون المترجمات العربية للنصوص اللاتينية على يد مسيحي الأندلس خلال القرن العاشر، تكشف عن تأثرها بالعبارات الإسلامية العقديّة الخصوصية. هكذا فإن الترجمة الثرية للإنجيل التي أنجزها إسحاق بن بلشق في قرطبة سنة 946 متأثرة بمقولات ذات طابع إسلامي. ان كل إنجيل في هذه الترجمة يفتح بالعبارة الإسلامية : «بسم الله الرحمن الرحيم وبه أستعين». كما أن كل إنجيل على حدة سُمي مصحفا. هكذا فإن الترجمة العربية تتحدث عن المصحف الأول من الإنجيل ثلثا، المصحف الثاني من الإنجيل لمرقش، المصحف الثالث من الإنجيل للوقا والمصحف الرابع من الإنجيل ليحيى كما نقل الترجمة بتصرف ابن حزم في كتابه «الفصل»، أما الترجمة الأصل فإنها لم تنشر لحد الآن(59).

ان هذه المقولات الإسلامية الخاصة في ترجمة إسحاق بن بلشق للإنجيل نجدها أيضا في المصدر التاريخي المهم المسمى «كتاب هروشيوش». ان هذا الكتاب يعتبر

(57) Le calendrier, 20 / 1

(58) نفسه 6 — 7 (سورة 28 : آية 76).

(59) Van Koningsveld, Glossary, 55 انظر

ترجمة عربية مستفيضة لكتاب «تاريخ الكنيسة المسيحية في صراعها ضد الوثنية» (Historiae adversus paganos) ان النص العربي لهذا الكتاب كتب أيضا في قرطبة، من المحتمل على يد أصبغ بن نبيل، قاضي النصارى، خلال خلافة الحكم الثاني.⁽⁶⁰⁾ ان هذه الترجمة التي يتعرض فيها تاريخ هروشيوش، من بين أشياء أخرى، لتاريخ إسبانيا قبل افتتاح العرب لها، كانت ذات فائدة كبيرة بالنسبة للمؤرخين والجغرافيين العرب في غرب وشرق العالم الاسلامي، كما يتجلى ذلك من عدد كبير من الفصول المنقولة منه في كتبهم الخاصة⁽⁶¹⁾ في هذه الترجمة نعث أيضا على عبارات من القرآن. بصدد أسطورة النيام السبعة (من ايفس Ephese)، على سبيل المثال، نجد المترجم يضيف الشرح التالي : (هؤلاء هم) أهل الكهف». هذا إشارة من المؤلف إلى سورة الكهف الآية إلا أن هذا لا يدل على أن المترجم كان مسلما، بل انه كان متأثرا أعمق بالتأثر بالمقولات الاسلامية كما أنه كان يأخذ في اعتباره أيضا جمهورا من القراء المسلمين⁽⁶²⁾.

كما رأينا مع مؤلف كحفص بن البر خلال القرن التاسع بأن كتاباته تتركز كلها حول موضوع التوراة والعقيدة المسيحية، فإن موضوع المصادر العربية المسيحية في الأندلس خلال القرن العاشر اتسع نطاقه بصورة ملحوظة. اننا مع شخصية الأسقف ريسمند (Recemundus) نجدنا أمام خادم للكنيسة جعل بؤرة كتاباته العلوم الدنيوية الذي نجد من بين تلامذته عالما مسلما.⁽⁶³⁾ خلال هذه المرحلة أيضا، تمت ترجمة العديد من النصوص اللاتينية إلى العربية في قرطبة خلال حكم الخليفة الحكم. وعلاوة على النصوص التوراتية، ترجمت نصوص تاريخية وغيرها⁽⁶⁴⁾.

(60) نفس المرجع 56 — 59.

(61) اروسوس، تاريخ العالم. نشر عبد الرحمان بدوي، 47 — 49؛ انظر أيضا كحيلة، كتاب التواريخ (1985 — 1986).

(62) انظر H.Daiber, Orosius, 1986, 203, 240.

(63) ابن أبي اصيبعة، عيون، 32 — 32؛ قارن صاعد الأندلسي، طبقات، 193.

(64) قارن Van Koningsveld, Glossary, 52 - 60.

عصر ملوك الطوائف

في خلال القرن الحادي عشر ظهر هناك عنصر آخر انضاف إلى هذا التطور التاريخي، ألا وهو عنصر الشعر العربي بمعنى الكلمة. هكذا فإن المصادر تزودنا ببعض المقتطفات من قصائد لابن المرعزي الأديب المسيحي من اشبيلية. يقول في مقطع من قصيدة، كتبها للمعتمد بن عباد حاكم اشبيلية وضواحيها، يصف فيها كلبة صيد :

لم أر ملهى لذي اقتناص ومقنع الكاسب الحريص
كمثل خطلاء ذات جيد اغيد تربية القيـمـص
كالقوس في شملها ولكن تنفذ كالسهم للقنـيص
أو أرسلوها وراء برق لم يجد البرق من محيص⁽⁶⁵⁾

هناك شاعر آخر مسيحي من القرن الحادي عشر عاش في طليطلة هو المتكلم المسلم الأصل أبو القاسم بن الخياط الذي اعتنق المسيحية بعد فتح الفونسو السادس لمدينة طليطلة. نقرأ حوله في مصدر عربي مايلى : «أقام خمسين سنة على العفاف والخير ولا تعرف له زلة، فلما أخذ النصارى طليطلة حلق [وسط رأسه وشد الزنار فقال لـ] أحد أصحابه في ذلك وقال له : أين عقلك ؟ فقال : ما فعلت هذا إلا بعد ما كُمل عقلي ! وقال شعرا منه :

تلوّن كالحرباء حين تلوّن وابصر دنياه بملء جفونه
وكل إلى الرحمن يومي لوجهه ويذكره في جهره ويقينه
ولو أن دينا كان نفيا لخالقي لما كنت يوما داخلا في فنونه

ان ابن سعيد في كتابه «المغرب في حلى المغرب» الذي اقتبسنا منه هذه السطور، يضيف قائلا : «وذكر ابن اليسع له رسالة كتبها اذفونش ملك النصارى إلى المعتمد بن عباد بالارهاب»⁽⁶⁶⁾.

(65) كتاب المغرب. نشر شوقي ضيف. المجلد الأول، ص 269 المقرئ، نفح الطيب، نشر دوزي المجلد الثاني ص 350 — 351.

(66) كتاب المغرب، المجلد الثاني، 22.

عصر المرابطين

بعد نفي عدد مهم من مسيحي الأندلس إلى إفريقيا الشمالية، انتقل مركز المصادر العربية المسيحية إلى مدينة طليطلة المسيحية. خلال مرحلة حروب الاسترداد والحروب الصليبية ألفت في طليطلة العديد من النصوص العقدية التي تنزع إلى الرد على الاسلام على يد المؤلفين المسيحيين باللغة العربية.⁽⁶⁷⁾ غير أن أصول هذه النصوص معظمها قد ضاع. وما بقي منها وصلنا عن طريق كتب المتكلمين المسلمين في الرد على النصارى أو عن طريق الترجمات اللاتينية التي ذاع صيتها في أوروبا الغربية وأثرت إلى حد بعيد على آراء الأوروبيين حول الاسلام خلال القرون الوسطى. من الأمثلة الأخرى على المجادلات الكلامية المسيحية الاسلامية الموضوعة في طليطلة خلال القرن الثاني عشر هناك رسائل التهديد الموجهة من طرف الملوك المسيحيين إلى كافة الحكام المسلمين في الأندلس وشمال إفريقيا. ان عددا من هذه الرسائل يوجد محفوظا في المصادر العربية التاريخية⁽⁶⁸⁾.

في رأينا يمكن ردّ التعليقات الموضوعة على عدد من المخطوطات اللاتينية المكتوبة بخط قوطي غربي إلى هذه المرحلة. هذه التعليقات تقدم شهادة واضحة على مدى الدراسة الجدية للنصوص اللاتينية من طرف المستعربين المسيحيين. ان هذا الأمر ينطبق أيضا على القاموس اللاتيني العربي المحفوظ في مكتبة جامعة ليدن. حسب حاشية عربية تمّ نسخ هذا حجج. في هذه الحاشية أيضا إشارة إلى أن عنوان الكتاب هو : «كتاب الشروح». وهذا مما يدل على الترجمة الحرفية لعنوان الكتاب باللاتينية (Liber Glossarum)⁽⁶⁹⁾ في هذا القاموس نجد أيضا جميع أنواع النصوص اللاتينية المنقولة إلى العربية، مثل كتاب (Liber Etymologiarum) لمؤلفه ازيدور الاشيلي (Isidorus) وكتاب الاناجيل لاسحاق بن بلشق وكتاب المزامير لحفص

(67) قارن، Van Koningsveld, La apologia de al- Kindi en la Espana del siglo VII. 1989.

(68) مثلا في المخطوط المجهول المؤلف : الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية. طبعة زكار وزمامة. الدار البيضاء 1979؛ قارن : (1979) Mackay and Benaboud, Alfonso VI,

نفسهما (1984) Yet again Alfonso VI, (1979)

(69) Van Koningsveld, Glossary, 38 - 9.

بن ألبير القوطي⁽⁷⁰⁾. ان هذا المصدر القيم من وجهة نظر تاريخية ثقافية يتضمن ذيلًا عبارة عن قسم من المصادر العربية المسيحية في إسبانيا كما وصلتنا في المصادر الأخرى.

عصر كتاب «القانون المقدس»

إلى أي مرحلة من هذه المراحل الأربعة تعود الترجمة العربية لكتاب «القانون المقدس»؟ باديء ذي بدىء علينا أن نشير إلى أن النسخة العربية للكتاب وردت في ثلاثة مصادر فقط. في مقدمة ذلك نجد بعض الاشارات عند المؤلف المسلم القرطبي من بداية القرن الثالث عشر كما سبق القول. في إشارته إلى المعمودية نجده يقتبس من «رسالة للأسقف ليون إلى اساقفة صقلية». في هذا المقطع نجد حرفيا الرسم 24 من المصحف 4 من المخطوط العربي الموجود في دير الاسكوريال. نفس الشيء ينطبق على بعض المقتبسات المتعلقة باللوطة، سفاح القرى، الاتصال الجنسي بالحيوان، وقتل الناس.⁽⁷¹⁾ ان القرطبي يشير إلى «مجموعة قوانين المجامع الكنسية» مستعملا عبارة «كتبهم الفقهية». كما أنه يطلق على المفاهيم التي يقتبسها إسم: «قوانين» يقول في بعض ملاحظاته الاستهلالية: «اعلم أن هؤلاء القوم وضعوا لأنفسهم قوانين، توافقوا عليها وارتبطوا لها، من غير أن يشهد بصحة تلك القوانين شاهد من التوراة ولا شاهد من الانجيل. فمن خالفها عندهم سموه خارجيا، تارة، وكافرا أخرى، والخروج عن تلك القوانين هو الذنب عندهم، ثم تلك الذنوب منقسمة إلى مالا يغفرونه وإلى ما يغفرونه. فإذا غفر ذنب واحد منهم أدخلوه الكنيسة وقبلوا قربانه، وإذا لم يغفروا له، أبعدوه عن كنائسهم وطردهوه وهولوا عليه ولم يقبلوا برهانه، ولا بد للذنب المغفور من كفارة وتلك الكفارة بحسب ما يظهر لأقستهم ويرونه موافقا لغرضهم. فتارة يوجبون عليه خدمة الكنيسة وتارة لا يدخلها بل يقف عندها متذلا، وربما يبقى على ذلك

(70) نفسه، 61 — 65.

(71) القرطبي، الاعلام، 3 — 4 — 7 — 4؛ المكتبة الوطنية بمadrid، المخطوطات 4877 (نسخة المخطوط العربي للقوانين المقدسة بخط الغزيري Gasiri) الأوراق 197 أ وما بعده (المصحف 5، الرسم 13)؛ 194 أ مكرر وما بعده (المصحف، 5، الرسم 12)؛ 195 ب؛ 199 أ (المصحف 5، الرسم 17)؛ 198 ب مكرر (المصحف 5، الرسم 16).

أعواما عديدة وتارة يوجبون عليه مالا، أما للمكهم واما لهم ولكنائسهم. ولا بد من بيان ذلك بالأمثلة على ما وجدنا في كتبهم»⁽⁷²⁾.

إن الأمثلة التي يقدمها القرطبي كلها مستقاة من كتاب مجموعة قوانين المجامع الكنسية دون أن يذكر عنوان الكتاب. ان عنوان النسخة العربية للكتاب يمكن استخلاصه من مخطوط الاسكوريال. في الورقة 229 نقرأ : ابتداء المصحف الرابع من القانون في فرائض ترتيل الكنيسة ونظام المعمودية. وفي الورقة 307 ب نقرأ : نفذ الجزء السادس من القانون المقدس». وفي الورقة 394 أ في خاتمة نقرأ أيضا : «تمت وأكملت انا بنجشيش (Vincentius) القس الخاطيء عبد عبيد المسيح هذا الجزء الثامن من القانون المقدس». وأخيرا نقرأ في الورقة 433 ل : «تم (...) المصحف العاشر بحمد الله وهو آخر مصاحف جميع القانون المقدس». استنادا إلى هذه المعلومات، يمكننا أن نقرر أن النسخة العربية للكتاب تحمل العنوان التالي : «كتاب القانون المقدس». ولعل العنوان الآخر هو : «كتاب القوانين المقدسة». ان العالم الأندلسي ابن حزم الذي توفي سنة 1064 يشير في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» إلى النص العربي للقوانين المقدسة حيث يقول في حديثه عن الأصول المسيحية : «ثم كل كتاب لهم بعد ذلك فلا خلاف بينهم في انه من تأليف المتأخرين من أساقفتهم وبطارقتهم كمجاميع البطارقة والأساقفة الكبار ومجاميعهم الصغار وفقههم في أحكامهم الذي عمله رديك الملك وبه يعمل نصارى الأندلس»⁽⁷³⁾. استنادا إلى هذا يمكننا أن نتخلص إلى القول ان كتاب القانون المقدس كان متداولاً بين المسلمين أيضا في النصف الأول من القرن الحادي عشر. ان تداول النص العربي على نطاق واسع يمكن استخلاصه من المقاطع المحفوظة منه في مكتبة الوثائق الوطنية في لشبونة. في هذه الوثائق نجد بعض الفصول من المصحف الأول من المصاحف العشرة.⁽⁷⁴⁾

(72) الاعلام، 4 5 : «مسألة في غفران الاساقفة والقسيسين ذنوب المذنبين واختراعهم الكفارة للعاصين».

(73) ابن حزم، الفصل، المجلد 2، ص 3.

(74) المصحف الأول، الرسم 21، 22، 23، 24 و 27؛ قارن Blanco ص 114 — 115.

ان خاتمت مخطوطة الاسكوريال مؤرخة : 16 أكتوبر 1087 (أي 1049 بعد ميلاد المسيح). وكذلك 11 مارس (بدون سنة) على التوالي⁽⁷⁵⁾. أما خاتمة المصحف 8 فتشير إلى مخطوط نسخ على ورق الكاغد.⁽⁷⁶⁾ ان مخطوط الاسكوريال نسخ على ورق الرق. في هذه الخاتمة نجد ذكرا للعديد من المخطوطات الأخرى لهذا الكتاب حيث الناسخ يتمنى الحصول على نسخة إضافية قصد استدراك نواقص نسخته الخاصة⁽⁷⁷⁾ من هنا يتضح لنا أن هذا النص كان متداولاً على نطاق واسع مع سنة 1049.

ان مترجم النسخة العربية يعد مجهولاً. إلا انه بالنظر إلى طبيعة المقولات المستعملة، يمكن القول انها تشبه إلى حد بعيد اللغة التي وجدناها في ترجمة إسحاق بن بلسق للأناجيل سنة 1946، كما لو أننا أمام نفس الشيء. وكما هو الشأن بالنسبة للأناجيل، فإن الكتب العشرة يُشار إليها أيضاً باستعمال لفظة : المصحف ذات الطابع الاسلامي والمستعملة بخصوص القرآن. كذلك وكما هو الشأن في الأناجيل فإن كتب القانون المقدس تبتدىء بالبسملة، كما نصادف من حين لآخر أدعية من أصل إسلامي، مثل «حسبنا الله ونعم الوكيل» أما العبارات التقنية المسيحية مثل أسماء المناصب الكنسية فإنها تركت على حالها في اللغة اللاتينية واكتفي بتغيير صياغتها الشكلية المطابقة للعربية فقط، كما سبق أن أشار إلى ذلك سيمونيت.

ان الدلالة التاريخية الثقافية للترجمة العربية للقانون المقدس هي ان النص وضع ليكون في متناول المسلمين والمسيحيين معاً، ليس فقط من وجهة نظر لغوية صرفة وإنما أيضاً فيما يرجع للدلالة الثقافية والدينية. وكما هو الشأن بالذات بالنسبة لترجمة إسحاق للأناجيل وترجمة اصبع بن نبيل لتاريخ هروشيوش، فإن الدافع إلى إنجاز ترجمة القانون المقدس يعود إلى هذا التواجد السلمي نسبياً للديانتين المسيحية والاسلامية معاً تحت الحكم العربي. هذا الواقع يعود الفضل فيه إلى حكم الخليفة

(75) الأوراق 333 أ و 394.

(76) «واشتريت له نحو مئة وخمسين ورقة من الكاغد» (ورقة 394 ب).

(77) «حتى نقابلها بغيرها إن شاء الله. فإن وجدته ناقصاً شيئاً أكملته وبعثت به إليك» (ورقة 394 ب).

الحكم الثاني المستنصر بالله الذي كان له اهتمام واسع النطاق بالعلوم كما كان يهتم اهتماما عميقا بثقافة وتاريخ رعاياه الغير المسلمين كذلك. اما قبل ذلك وخلال حكم المنصور بن أبي عامر فإن الريخ كانت تهب من جهة أخرى⁽⁷⁸⁾ لأجل هذا فإننا نعتقد ان نقل كتاب القانون المقدس إلى العربية تم خلال حكم الحكم الثاني. ومن الممكن أن يكون لشخص كالاسقف ريسمند (Recemundo) إلياس ربيع بن زيد، يد في ذلك أيضا. ان وضعنا لهذه الترجمة في هذا الاطار التاريخي يمكن التحقق منه من خلال مقارنة تقنيات الترجمة المستعملة في كل من ترجمة الأناجيل وهروشيوش والقوانين. ان هذه التقنيات في نظرنا من طبيعة متجانسة إلى حد بعيد. لهذا فإننا نميل إلى اعتبار الكتاب المقدس أثرا تاريخيا، يشهد على التكافل بين المسيحية والاسلام، حيث يعود تاريخه إلى مرحلة خاصة من مراحل التعايش المعروف في إطار العلاقات بين الاسلام والمسيحية في تاريخ إسبانيا خلال القرون الوسطى⁽⁷⁹⁾.

(78) قارن Lévi- Provençal, Histoire المجلد 2، ص 218، 233.

(79) قارن أبو حيدر، 1، 1987، A Document.

لائحة المراجع :

– Abu - Haidar, J. : A document of cultural symbiosis : Arabic MS. 1623 of the Escorial Library. «Journal of the Royal Asiatic Society», 1987, 223 - 35.

– Alvaro de Cordoba, Epistolario de Alvaro de Corboda. Ed. crítica por el P. José Madoz. Madrid 1947.

— مؤلف مجهول : كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. نشر س. زكار وعبد القادر زمامة. أدار البيضاء 1979.

– Blanco, P. L : Noticia de las antiquas y genuinas collecciones canonicas inéditas de la iglesia espanola, que de orden del rey nuestro senor se publicaran por su real biblioteca de Madrid dedicada a S.M. y dispuesta por su bibliotecario mayor Don Pedro Luis Blanco. Madrid 1798.

– Calendrier de Cordoue, le : Publié par R. Dozy. Nouvelle édition accompagnée d'une traduction française annotée par Ch. Pellat. Leiden 1961.

– Daiber, H.: Orosius' Historiae adversus paganos in arabischer Ueberlieferung. «Tradition and reinterpretation in Jewish and early Christian literature. Essays in honor of Jürgen C.H. Lebram». Leiden 1986, 202 - 249.

– Dunlop, D. M.: Hafs b. Albar - the last of the Goths ? Journal of the Royal Asiatic Society» 1954, 137 - 51.

– : Sobre Hafs ibn Albar al - Qûti al - Qurtubi, «Al- Andalus» 1955, 211 - 3.

– Fück, J : Zum Kalender von Corboda vom Jahre 961. «Orientalische Literaturzeitung», 1965, 333- 7.

– Goussen, H. : Die christlich - arabische Literatur der Mozaraber. Leipzig 1909 («Beiträge zur christlich - arabischen Literaturgeschichte», IV Heft).

– Ibn Abi Uçaibi'a, Uyûn al-anabâ' fi tabaqât al- atibbâ. Sources d'informations sur les classes des médecins. XII è chapitre. Médecins de l'Occident musulman. Publ., trad. annotées par H. Jahier et A. Nouredine. Alger 1377 / 1958.

– Ibn Gabirol, Sulaymân : The improvment of the moral qualities. An ethical treatise of the eleventh century by solomon Ibn Gabirol. Printed from a unique Arabic munuscript, together with a translation and an essay on the place of Gabirol in the history of the development of Jewish ethics. New York 1902 (Columbia University Oriental Series, vol. 1)

— ابن جليل : طبقات الأطباء والحكماء. نشر فؤاد سيد القاهرة 1985. الطبعة الثانية. ابن حزم، علي بن أحمد : كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل. المجلد الثاني. القاهرة 1320 هـ.

— Ibn Mâsawayh, Kitab al - azmina. Le livre des temps d'Ibn Massawaih, médecin chrétien célèbre décédé en 857. Ouvrage annoté et publié pour la première fois par Paul Sbath. Le Caire 1933.

— ابن القوطية : كتاب افتتاح الأندلس. نشر إبراهيم الأبياري. القاهرة / بيروت 1982.

— ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب. حققه وعلق عليه شوقي ضيف القاهرة. مجلدان. المجلد الأول 1978 الطبعة الثانية؛ المجلد الثاني، الطبعة الثانية بدون تاريخ.

— Koningsveld, P. S. van Psalm 150 of the translation by Hafs ibn Albar al - Qûti (fl. 889 A.D.?) in the Glossarium Latino-Arabicum of the Leyden University Library. «Bibliotheca orientalis» 29 (1972), 277 - 80.

— : New quotations from Hafs al - Qûti's translation of the Psalms. «Bibliotheca orientalis» 30 (1973), 315.

— : The Latin - Arabic glossary of the Leiden University Library. A contribution to the study of Mozarabic manuscripts and Literature. Leiden 1976.

— : La apologia de Al - Kindi en la Espana del siglo XII. Huellas toledanas de un «animal disputax». Actas de II Congreso Internacional de Estudios Mozarabes. Toledo 1989 (vol. 3)

— : Andalusian- Arabic manuscripts from medieval Christian Spain. A comparative, intercultural approach. «Israel Oriental Studies», Tel Aviv - Leiden 1991.

— : Andalusian-Arabic manuscripts from medieval Christian Spain. Some supplementary notes. «Festschrift Hans-Rodolph Singer» Frankfurt 1991.

— : Christian-Arabic manuscripts from the Iberian Peninsula and North-Africa. A historical interpretation. «Al-Qantara» 1994 الطبعة.

— كحيلة، عبادة بن عبد الرحمان : كتاب التواريخ لبابولوس اروسوس وترجمتها الأندلسية. مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد، 23،

1985 — 1986، 119 — 137.

— Lévi-Provençal, E. : Histoire de l'Espagne musulmane. 3 vols. Leiden-Paris, 1950 - 1967.

- : Espana musulmana hasta la caida del califato de Corboda (711 - 1031 de J.C.). Instituciones y vida social y intelectual. Trad y advertencia preliminar por E. Garcia; Arte califal por I. Torres Balbas. Madrid 1973. («Historia de Espana», dirigida por R. Ramon Menéndez - Pidal, tomo V).
- Levi della Vida, G: Note di storia letteraria Arabo - ispanica. A cura di Maria Nallino. Roma 1971.
- Löfgren, O. and R. Traini : Catalogue of Arabic manuscripts in the Bibliotheca Ambrosiana. Vol. 1, 1975.
- Mackay, A. and M. Benaboud : The authenticity of Alfonso VI's letters to Yûsuf b. Tâshufîn. «AL-Andalus» 43 (1978), 233-7.
- : Alfonso VI of Leon and Castile, (al-imbratûr dhû 'l-Millatayn). «Bulletin of Hispanic Studies» 56 (1979), 95 - 102.
- : Yet again Alfonso VI, the Emperor, Lord of (the adherents of) the Two Faiths, the most excellent ruler : A rejoinder to Norman Roth. «Bulletin of Hispanic Studies» 61 (1984), 171-9.
- Maqqarî, Al : Analectes sur l'histoire et la littérature des Arabes d'Espagne par al-Makkari. Publ. par R. Dozy, G. Dugat et W. Wright. Leyde, 1855-1861, 2 vols.
- Neubauer, A : Hafs al-Qouti. «Revue des Etudes Juives» 30 (1895), 65 - 9.
- القرطبي : الاعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الاسلام وإثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. تقديم وتحقيق وتعليق أحمد حجازي السقا. القاهرة 1980.
- Saavedra y Moragas, E : Estudio sobre la invasion de los arabes en Espana. Madrid 1982.
- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم. تحقيق حياة بوعلوان. بيروت 1985.
- Schwenkow, L : Die Lateinisch geschriebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber. Göttingen 1894.
- Simonet, F.J : Glosario de voces ibéricas y latinas usadas entre los Mozarabes. Madrid 1888; 2 nd ed. Beirut 1975.
- : Concilio III de Teledo. Base de la nacionalidad y civilization espanola. Madrid 1891.
- : Historia de los Mozarabes de Epana de los mejores y mas auténticos tetimonios de los escritores christianos y arabes. Madrid 1903 / Amsterdam 1967.

— اروسيسوس : تاريخ العالم. الترجمة العربية القديمة (منتصف القرن الرابع الهجري). حققها وقدم لها عبد الرحمان بدوي. بيروت 1982.

Université Abdelmalek Essaâdi

Revue
**DE LA FACULTE
DES LETTRES
TETOUAN**

Numéro 8

1997

Sommaire

Le personnage de Beckett à travers Comment c'est ou l'inspiration coranique.....	7
Sidi Mohamed EL YAMLAHI	
Le Manuscrit inachevé d'Al-Yousi (11 ^e / XVII ^e siècle).....	25
Najib WASMINE	
La littérature coloniale au Maroc : Formes et caractéristiques.....	31
Mohamed BAKKALI YEDRI	
Histoire et immanence autour de la notion de «genre» (position de l'«Ecole de Paris»).....	47
Nizar TAJDITI	
Los judíos del Norte de Marruecos soñadores de Al-Andalus y fuente posible del marroquismo español.....	63
Abdelaziz CHAHBAR	
La fonética de los antiguos gramáticos árabes.....	71
Abdelhamid BEN AJIBA	
Descripción y Tipología estructural del diálogo como forma didáctica.	79
Teresa DE SANTOS	
Moroccan Islam in the eyes of a seventeenth-century english clergyman	101
M'hamed BENABOUD	
Pharyngealization in modern standar arabic : an acoustic perspective.	113
Nour TAIBI	

Western Barbary : Authentic experience or fictional account ?.....	129
Abdellatif AKBIB	
Las fuentes ibéricas para la historia de tetuán (Siglos XVI y XVII)...	135
Guillermo GOZALBES BUSTO	
Approche de l'organisation de la grammaire en grammaire fonctionnelle de Simon C. Dik (version 1978).....	149
Abdelkader RAZKY	

LE PERSONNAGE DE BECKETT, A TRAVERS COMMENT C'EST OU L'INSPIRATION CORANIQUE

Sidi Mohamed EL YAMLAHI

Faculté des Lettres — Tétouan

«L'œuvre de Samuel BECKETT est érigée dans la nuit et le désert, au confins du néant, aux rives extrêmes du langage : elle se présente comme un immense poème ressassé, toujours plus rigoureux, s'articulant tantôt en récit, et tantôt en pièce de théâtre, mais d'un bout à l'autre, identique à lui-même sous les masques de ses divers récitants.»

Ainsi se présente l'œuvre de Samuel Beckett, secrète, mystérieuse, énigmatique d'un côté, vigoureuse, bavarde, variée de l'autre. De cette variété, émerge une œuvre romanesque très peu fréquentée, il faut le préciser, qui mérite une attention tout à fait particulière. Il s'agit de **Comment c'est**⁽¹⁾, publiée en 1961 par les Editions de Minuit.

Samuel BECKETT, cela est connu, a voulu à travers ses récits, savoir ce que c'est que l'homme, lorsqu'il se trouve entre la vie et la mort, lorsqu'au cœur de l'existence, cette dernière se réduit à ses données les plus élémentaires. Tel est le thème unique de BECKETT, de la recherche beckettienne. Il est vrai que cela n'a rien de très original par rapport à la conception que l'on se fait du nouveau roman, comme étant, avant tout, une recherche.

Comment se déroule donc ce voyage au bout de la nuit ? que nous découvre-t-il ? Une voix qui parle, qui ne cesse de parler, rompant, le silence de la «nuit», soupirant, murmurant, criant ce récit de vie qui a, sans aucun doute, connu un autre début, une autre fin. C'est cette autre version que nous allons tenter d'exposer.

D'où vient cette voix ?

«Elle n'est pas la mienne, je ne peux pas l'arrêter, je ne peux l'empêcher de me déchirer, de me secouer, de m'assiéger. Elle n'est pas la mienne, je n'en ai pas, je n'ai pas de voix et je dois parler, c'est tout ce que je sais, c'est autour de cela qu'il faut tourner, c'est à propos de cela qu'il faut parler»⁽²⁾ déclare BECKETT.

(1) En notes *Comment c'est* : CC

(2) ABIRACHED (R), «La voix tragique de Sammuël BECKETT», R. Etudes, janvier 1994 p. 85.

Cette voix, nous la retrouvons dans **Comment c'est**. Crie t-elle «son refus des notions périmées»⁽³⁾, incarne t-elle le refus du personnage et de l'histoire ? Notre objectif est de démontrer que dans cette œuvre, somme toute, assez intéressante, le personnage beckettien n'est plus une fin en soi, en tant qu'humain et que le romancier, moins anthropocentrique désormais, semble élargir son champ d'étude, sa conscience est plus vaste, il met en doute l'existence même du personnage et si toutefois ce personnage existe, ce dernier est réduit à un regard, à une voix, à des gestes...

A cela s'ajoute, nous l'avons dit, le refus de l'histoire qu'expliquerait l'impossibilité de raconter la dislocation de l'intrigue.

Ces «particularités» de **Comment c'est** supposent une modification de la forme. En effet les procédés de la narration sont tout autres et la présentation du personnage a acquis une certaine spécificité.

Expérience passionnante, mais combien éprouvante, cette découverte de l'univers de **Comment c'est** car, en soi, cette recherche perturbe nos habitudes de lecture, remet en question notre conception du roman. Point de «jouissance» à la Barthes mais le lecteur est désormais impliqué et se doit de fournir un effort supplémentaire.

C'est à deux, écrivain et lecteur, que se déroule ce jeu de reconstitution du «puzzle».

Comment c'est n'est plus un tout hermétiquement clos, un monde achevé, bouclé par son auteur. Le lecteur est transporté face au presque rien (point d'histoire, point de personnage). Un texte de deux cent vingt huit pages, trois parties numérotées (1,2,3), annoncées dès la première ligne : «comment c'était je cite avant Pim avec Pim après Pim c'est trois parties je le dis comme je l'entends»⁽⁴⁾, rappelées au début de la seconde partie, «ici donc enfin deuxième partie (...) comment c'était avec Pim (...) comment c'était ma vie on parle de ma vie dans le noir la boue avec Pim deuxième partie plus que la troisième et la dernière»⁽⁵⁾ et enfin confirmée au début de la troisième partie : ici donc je cite toujours troisième partie comment c'était après Pim comment c'est troisième enfin et dernière vers laquelle plus légers que l'air un instant floc retombés»⁽⁶⁾.

Ces trois parties, très équilibrées (79,80,69 pages) peuvent être intitulées successivement : «Avant Pim, Avec Pim, Après Pim». La présentation du récit inspirée des contes traditionnels (il était une fois) se réalise sous forme d'une expression similaire qui reprend le titre du roman avec le verbe «être» à l'imparfait de l'Indicatif ; «comment c'était»⁽⁷⁾ (comment c'est). Interrogation

(3) Op. cit. p. 79.

(4) *Comment c'est*, p. 9.

(5) Op. cit. p. 79.

(6) Op. cit. p. 159.

(7) Op. cit. p. 9.

ou assertion, le récit de ce «ce» (démonstratif), événement ou individu, pris en charge par un «je» innommable, héros-narrateur décrivant un monde singulier et des «personnages» indéchiffrables.

Cette étude cherchera à élucider le mystère, à répondre à la question posée par le titre du roman et à reproduire les schémas descriptifs institués par l'affirmation «comment c'est»⁽⁸⁾.

I — LE PERSONNAGE BECKETTIEN

Le personnage beckettien existe. Il se manifeste sous des formes multiples : une main, un pied... etc. Le narrateur, ou la «voix» de **Comment c'est** n'est pas possessif. Il évoque inlassablement «la main droite qui s'ouvre»⁽⁹⁾ «la main (qui) plonge», «les genoux (qui) se relèvent», «le dos (qui) se courbe», «la tête (qui) vient se poser», ou «la bouche qui s'ouvre»... Nous ne trouverons aucune description physique ou morale de ce dernier. Nous ne parviendrons pas non plus à imaginer sa silhouette, sa démarche, ses traits, son teint... ? Nul ne nous le dira. Cette main, ce pied, représentent-ils des «êtres humains» indépendants ? Constitueraient-ils une foule indicible dont les composants s'expriment à tour de rôle par un geste, une parole, un signe ? Cela, veut-il dire que «tout le monde est résumé devant nous»⁽¹⁰⁾ comme l'a souligné ABIRACHED ?

Comment c'est ?⁽¹¹⁾ Une question qui place une œuvre littéraire dans la rubrique des jeux de devinettes mais qui plonge le chercheur dans l'embarras en interpellant chaque parcelle de son intelligence et en provoquant chaque partie de son corps, chacun de ses sens.

1. Essai de classification :

A.1. *A la lecture de **Comment c'est**, nous relevons trois types de personnages :*

- L'être
- L'objet
- Le concept

1 - L'être :

Nous avons deux types :

a - le moi :

C'est le «je», c'est le rampant, le vers, c'est le parlant de **Comment c'est**. «Dire» je «ne me permettra de poser sans risque d'erreur mon existence qu'à

(8) Sans interrogation.

(9) Op. cit. p. 43.

(10) ABIRACHED, op. cit, p. 86.

(11) Phonétiquement : «Commencer» : Cette lecture ne nous a pas permis de dégager une réflexion homogène.

partir du moment où existera quelqu'un qui me dise «tu»⁽¹²⁾. Le moi «rampe» à la recherche d'un frère, il cherche l'accouplement pour satisfaire un besoin, pour confirmer la réalité d'autres partenaires et l'existence d'autres personnages. Face au moi, nous avons le nommable.»

b - Le nommable (le nommé) :

Il est difficile de nommer le (ou les) personnage (s) de **Comment c'est**. Ni Raphaël de Valentin, ni Julien Sorel, ni héros, ni anti héros, tantôt «principal», tantôt «secondaire», c'est, sans doute, cet «innomable venu au monde sans naître, sans vivre, y demeurant, n'espérant pas mourir (...) que n'épargne pas la rage de parler, la rage de penser, de savoir ce qu'on est, ce qu'on fait (...) ? (L'innomable).

L'illustre inconnu, le parlant lavaire de **Comment c'est** a néanmoins inventé les noms de Pim, Bom, Ben, Kram, «pour meubler son temps et son espace innommables» comme dirait Ludovic JANVIER⁽¹³⁾.

Les personnages nommés (Pim, Bom, Bem, Kram, Krim) n'ont, en vérité, aucune réalité, ils n'ont guère cette vocation de représenter une catégorie psychologique, physique ou sociale. Ils désignent à la fois, le «je», le «tu», le «il», le «nous», le «vous» et le «ils».

Le lecteur cherchera malgré tout à s'identifier à l'un ou à l'autre. Vaine tentative, car Pim ou Bom cherchent également à s'identifier, à se nommer. Or, Beckett, semble vouloir nous convaincre que Bom ou Pim ou Kram, sont comme vous et moi. Ne dit-il à la fin de **Comment c'est** : «et qu'ainsi reliés directement les uns aux autres chacun d'entre nous est en même temps Bom et Pim bourreau-victime pion cancre demandeur défenseur muet et théâtre d'une parole retrouvée dans le noir la boue là rien à corriger»⁽¹⁴⁾. Ces noms, par conséquent, ne nous permettent pas de découvrir une identité. Cette dernière reste à trouver, à rechercher dans l'absence, dans le noir, la boue, dans le vide que représente l'univers isolite de **Comment c'est**. JANVIER ne pensait pas le contraire en disant que les «noms sont des» charges de sens, décharges d'humour, signes. Il ne faut pas demander aux noms ou aux prénoms des personnages plus qu'ils ne peuvent donner»⁽¹⁵⁾.

La fille ; la mère, le père, le grand-père, relèvent donc du souvenir, comme Pim, comme Bom, ils constituent des repères chronologiques, «Avant et après», un point c'est tout. Ces indices temporelles ont déterminé notre lecture et justifieront notre interprétation.

(12) DUROZOI (G) : Beckett, Présence littéraire, Bordas, p. 151.

(13) JANVIER (c), Beckett, par lui même, Ecrivains de toujours, Seuil, 1969, p. 108.

(14) CC. p. 218.

(15) JANVIER (c), op. cit, p. 127.

2 - L'objet :

L'objet dans *Comment c'est* est de deux types :

a - Le contenant :

On relève ainsi la boue, le sac, les boîtes. C'est dans ces «récipients» que se déroule l'intrigue de *Comment c'est*. Passé, présent et futur sont décrits par ces objets-signes, personnages malgré eux, qui répliquent, qui communiquent, qui participent à «l'aventure», au «voyage»⁽¹⁶⁾.

b - Les ustensiles :

Un ouvre-boîte⁽¹⁷⁾, une corde⁽¹⁸⁾, une paire de ciseaux⁽¹⁹⁾. Ces objets sont manipulés ;

«questions si je perdais l'ouvre-boîte voilà un autre objet ou quand le sac sera vide ce genre»⁽²⁰⁾.

«Je prends la corde dans le sac voilà un autre objet ferme le haut du sac me le pends au cou...»⁽²¹⁾.

3 - Le concept :

Dans *Comment c'est*, le concept, c'est le vide. Le «vide» beckettien rappelle celui d'Henri Michaux. Il s'exprime à travers le «je», à travers le «moi», à travers «Bom», «Pim»... En rapport avec l'être et l'objet semble naître une relation d'identité et de vacuité qui s'exprime ainsi :

3 - 1 - La vacuité morphologique : Le «je», «moi», «moi pim», «moi bom»..., «je ne suis plus moi»,⁽²²⁾ «toi Bom moi Bom nous Bom»⁽²³⁾ semblent affirmer que le personnage n'arrive pas à se constituer comme tel, il essaye de se métamorphoser et de s'anéantir, par le truchement des noms propres. C'est le «je», c'est le «moi indéfini», c'est le «on». La vacuité morphologique joue donc sur la forme des noms et des pronoms, elle exprime le personnage par la non- personne. Il y a, mais qu'y a-t'il ? Il y a, mais comment c'est ?

3 - 2 - La vacuité de la forme matérielle :

Les «Pim» et «Bom», semblent porter des «masques». Or ces masques ne sont pas pleins. Nous pensons que ces derniers ne sont qu'intégrés dans un

(16) «sur le ventre dans la boue le noir je me vois ce n'est qu'une nalte je voyage qu'un repos» CC, p. 13.

(17) CC, p. 13, 16.

(18) CC, p. 16-23.

(19) CC, p. 20.

(20) CC, p. 119, 20.

(21) CC, p. 13.

(22) CC, p. 24.

(23) CC, p. 119.

processus de reproduction. Que cachent-ils ? Des silhouettes qui défilent, amorphes, invisibles, innommables, des... «monstres». Le rampant de **Comment c'est** le dit-si bien :

«Je suis un monstre des solitudes»,⁽²⁴⁾ et quelques pages plus loin, il se ravise, se renie : «Je ne suis pas un monstre»⁽²⁵⁾.

Ni le rampant, ni le lecteur n'arrive à dessiner les traits du personnage. Dans cet univers insolite la quête est permanente : le personnage qu'on «lit» a un sens qui échappe au lecteur. De l'invention à l'expression, une transformation s'opère. Comment s'opère t'elle ?

3 - 3 - La vacuité conceptuelle :

Le «je» dans **Comment c'est** est lié au vide par l'intermédiaire du masque, nous l'avons déjà dit. Le «je» plus le vide nous donne un spectre. Nous lisons la boue, le sac, Pim, Bom, ou Bem... et pourtant le vide est là, sous forme de solitude éprouvée, de noir, d'incertitude. Le «je» vit, ou donne l'impression de vivre. Or, il semble vivre une étrange aventure de l'immobilité (!). Lorsque le couple s'enlace, déjà l'étreinte du «je» est une abstraction. Chronologiquement, passé, présent et futur, s'interpénètrent, se confondent, le Pim qui enlace⁽²⁶⁾, «s'enfuit», échappe à l'étreinte⁽²⁷⁾, «disparaît».

Il est nécessaire de rappeler ici que l'être de **Comment c'est** est doté de la vision, de l'ouïe et de la voix. Il est le «parleur» avant d'être le «rampant», «je le dis comme je l'entends». «Voix d'abord dehors quaquà de toutes parts puis en moi»⁽²⁸⁾.

Je me vois à plat ventre...»⁽²⁹⁾...

Les sens se confondent dans **Comment c'est**, ils perdent leur fonction utilitaire pour signifier. On relève des centaines de références à la vue, et autant concernant l'ouïe et la voix. Cependant, c'est cette dernière qui semble chargée de la mission de décrire, d'expliquer. Cette voix est aussi «la voix d'où je tiens ma vie»⁽³⁰⁾ dit le parleur de **Comment c'est** «cette voix c'est malheureux par moments il me semble l'entendre»⁽³¹⁾. Il y a dans **Comment c'est**, comme le précise Michel Raimond, «une dérision du langage. Il n'est plus qu'un bruit interrompu qui témoigne d'une impuissance à dire l'essentiel. Le héros se réduit à une conscience bavarde qui n'arrête pas de parler dans la mesure où elle n'a

(24) CC. p. 18.

(25) Idem, p. 101.

(26) Seconde partie de **Comment c'est**.

(27) Troisième partie de **Comment c'est**.

(28) CC. p. 13.

(29) CC. p. 12.

(30) CC. p. 130.

(31) Idem.

rien à dire...»⁽³²⁾.

Ainsi donc se résume, en apparence, le personnage de Beckett dans **Comment c'est** : Une voix, des objets, un mouvement infini dans la boue et le noir, au fond d'un sac, à proximité d'une corde, et un discours en bribes, inintelligible le plus souvent.

Nous allons oser à présent une lecture assez originale, car inédite, et tenter par là même, de démontrer que le personnage de **Comment c'est** n'est pas seulement synonyme de vide et de néant mais qu'il a une histoire, sa propre histoire.

II — DE LA PRODUCTION A LA REPRODUCTION :

La première Révélation coranique faite par l'Archange Gabriel au Prophète, que le salut de Dieu soit sur lui : Sourate 96 : (versets 1 à 5).

«Lis au nom de ton seigneur qui créa qui créa l'homme de quelque chose qui s'accroche».

«Lis ! ton seigneur est le très Noble celui qui enseigna par la plume qui enseigna à l'homme ce qu'il ne connaissait pas».

«Lecture» «création de l'homme», «enseignement», «connaissance» et «ignorance», constituent les mots clés d'une entreprise universelle que BECKETT décrit en ces termes dans **Comment c'est** :

«Tout perdu presque tout quelqu'un qui écoute un autre qui note ou le même ici donc première partie comment c'était avant Pim ça suit je cite l'ordre à peu près ma vie dernier état ce qu'il en reste des bribes je l'entends ma vie dans l'ordre plus au moins je l'apprends»⁽³³⁾.

En effet, nous retrouvons cette quête intellectuelle, où il s'agit de «lire» les «bribes» de mots, de retrouver les étapes de la «vie» du rampant (première partie, deuxième partie, troisième partie ou alors «Avant Pim», «avec Pim», «Après Pim»), de connaître, d'«apprendre» dans l'ordre ce qu'il ignorait jusqu'à présent à savoir les secrets de la vie, «l'ordre à peu près ma vie dernier état»⁽³⁴⁾. Produit de l'écriture, comment se déroule ce processus ?

Comment c'est serait donc une question à propos de la reproduction. Comment défier l'obscurité et l'ignorance et s'engager ainsi dans le détail, en analysant et en cherchant à comprendre des mécanismes très complexes. «L'échographie» beckettienne semble vouloir transcender les obstacles, décrire le «comment cela se produit-il», mentionner les phases de la reproduction, décrire son processus complexe. Rappelons tout d'abord des vérités

(32) RAIMOND (M), Le Roman depuis la Révolution, op. cit, p. 219.

(33) CC. p. 10.

(34) Ibid.

scientifiques : l'agent fécondant est le sperme de l'homme, ou plus exactement un spermatozoïde, car une seule cellule germinale suffit : il faut donc, pour assurer la fécondation, une quantité infime de ce liquide spermatique qui contient les spermatozoïdes en nombre considérable. Le liquide est produit par les testicules et momentanément stocké dans un système de réservoirs et de canaux qui débouchent finalement dans les voies urinaires ; des glandes annexes, dispersées le long de ces dernières, ajoutant au sperme lui-même une sécrétion supplémentaire mais sans éléments fécondants. C'est en un point précis de l'appareil génital féminin que se produit la nidation de l'oeuf ainsi fécondé : Il descend à travers les trompes dans l'utérus et s'y niche au niveau du corps même de l'utérus où il ne tarde pas à s'accrocher littéralement s'insérant dans son épaisseur, dans la muqueuse et dans le muscle, après formation du placenta et à l'aide de celui-ci. Si la fixation de l'oeuf fécondé a lieu, par exemple, dans la trompe au lieu de se produire dans l'utérus, la grossesse s'interrompt.

L'embryon, dès qu'il commence à être observable à l'oeil nu, se présente sous l'aspect d'une petite masse de chair, au sein de laquelle l'apparence d'un être humain est initialement indiscernable. Il s'y développe progressivement par stades successifs, aujourd'hui bien connus, ce qui va donner l'ossature du corps humain : le système osseux avec, autour de lui, les muscles, le système nerveux, le système circulaire, les viscères, etc.

Ce sont ces notions, ainsi résumées, qui vont nous servir de repères dans notre analyse de **Comment c'est** à partir d'une lecture inspirée des sourats du **Coran**.

1 - Première phase : l'**Insemination** :

Tout commence («Comment c'est» ! «commencer» !) par la jouissance, par l'orgasme. L'éjaculation, manifestation de cette «voix» mâle, a lieu après l'étreinte amoureuse :

«Je me vois à plat ventre ferme les yeux pas les bleux les autres derrière et me vois sur le ventre j'ouvre la bouche la langue sort va dans la boue une minute deux minutes et de soif non plus pas question de mourir pendant ce temps énorme»⁽³⁵⁾.

Un peu plus loin : *«autre image déjà une femme lève la tête et me regarde (...) je le dis comme je l'entends le murmure dans la boue les images première partie comment c'était avant Pim je les vois dans la boue ça s'allume celles vont cesser une femme je la vois dans la boue»⁽³⁶⁾.*

La rampant de **Comment c'est**, «rampe» sur le corps d'une femme. L'acte sexuel s'accomplit, il déclare ouvert le processus de la reproduction humaine. La bouche «halète», la langue sort (érection), pénètre dans le boue (dans le vagin), assoiffé d'amour, «allumé», tout va vite, tout s'arrête («elles vont

(35) CC. p. 12.

(36) CC. p. 14.

cesser)), «c'est fini ce n'est pas un rêve je ne rêvais pas ça»⁽³⁷⁾ Le sperme jaillit, la semence est réalisée : «d'un geste de donneur de cartes et qu'on peut voir aussi chez certains semeurs de grain je jette les boîtes (testicules) vides elles retombent (repos) sans bruit»⁽³⁸⁾.

2 - Deuxième phase : les trois ténèbres

La sourate 71 verset 14 nous dit :

«(Dieu) vous a formés de stades en stades»

Ce sont ces stades que BECKETT reconstitue en parties distinctes dans son récit. Ce sont «les temps énormes»⁽³⁹⁾ qu'il évoque, ce sont les trois parties «Avant Pim avec Pim Après Pim» que le Coran décrit dans la Sourate 39 verset 6 :

«(Dieu) vous forme à l'intérieur du corps de vos mères, formation après formation, dans trois ténèbres».

Ces «trois ténèbres» (les trois parties) sont représentés par le noir, par l'obscurité. De la «lumière»⁽⁴⁰⁾ du jour, la voix (spermatozoïde ?) plonge dans la «nuit» «la nuit par la fenêtre première image» «⁽⁴¹⁾je quitte – dit-il – pour l'instant la vie dans la lumière ça s'éteint»⁽⁴²⁾ «sur le ventre dans la boue le noir je me vois»⁽⁴³⁾.

a - Premier ténèbre : le spermatozoïde - narrateur :

Le «spermatozoïde-narrateur», un parmi des millions d'autres, est seul à pouvoir décrire le voyage, à le mener à son terme :

*«L'abandon pour aboutir au voyage en passant par le couple ou
en commençant par le couple pour aboutir
au couple
en passant par l'abandon
ou par le voyage
(...) je suis seul alors plus de problème...»*

L'itinéraire est ainsi tracé scientifiquement. Le Livre sacré nous l'explique :

«(Dieu) a fait provenir la descendance (de l'homme) de la quintessence d'un vil liquide.» (sourat 32 verset 8)

«Ce qui produit la fécondation de l'ovule et assurera la reproduction est une cellule de forme très allongée dont la dimension se chiffre avec une échelle de

(37) CC. p. 15.

(38) Ibid.

(39) CC. p. 189.

(40) CC. p. 184.

(41) Ibid.

(42) CC. p. 13.

(43) Ibid.

1/100000 de millimètre. Un seul élément parmi plusieurs dizaines de millions émis par l'homme parviendra à pénétrer dans l'ovule. Un nombre considérable restera en chemin, et ne parviendra pas à parcourir le trajet qui, du vagin, conduit à l'ovule à travers la carte de l'utérus et la trompe.⁽⁴⁴⁾

Dans **Comment c'est**, le spermatozoïde-narrateur est donc seul à pouvoir surmonter les obstacles de l'épreuve. Les autres ?

«Comme quoi par exemple notre parcours une courbe fermée où si nous portons les numéros allant de 1 à 1000000 le numéro 1000000 en quittant son bourreau le numéro 999999 au lieu de se lancer dans le désert»⁽⁴⁵⁾.

et encore :

«prenons vingt numéros qui se suivent mais n'importe lesquels n'importe lesquels ça n'a pas d'importance

814326 à 814345 le 814327 peut parler mot impropre les bourreaux étant muets nous l'avons vu deuxième partie du 814326 au 814326 qui peut en parler au 814329 qui peut en parler au 814330 et ainsi de suite jusqu'au 814345 qui de cette façon peut connaître le 814326 de réputation.

Similairement le 814326 peut connaître de réputation le 814345 le 814344 en ayant parlé au 814343 et celui-ci au 814342 et celui-ci au 814341 et ainsi de suite jusqu'au 814326 que de cette façon peut connaître le 814345 de réputation rumeur transmissible à l'infini dans les deux sens...»⁽⁴⁶⁾.

Ces chiffres semblent représenter les numéros d'immatriculation de l'ensemble des «campagnons de voyage»⁽⁴⁷⁾ du spermatozoïde-narrateur. Ils signifient à la fois l'importance du débit du «liquide» (le sperme)⁽⁴⁸⁾, évoqué également dans le Coran à la sourate 16 verset 4 ;

(Dieu) a formé l'homme d'une goutte (de sperme)» ou à la sourate 75, verset 37 ; **(l'Homme) n'a t'il pas été une goutte de sperme qui a été répandue ?**» ou à la Sourate 86, verset 6 :

«(l'homme) a été formé d'un liquide répandu» ou à la sourate 76, verset 2 ;

«En vérité, Nous avons formé l'homme à partir d'une goutte (de sperme) de mélanges».

Ils désignent aussi l'ampleur du processus, la lutte pour la survie de ces millions de spermatozoïdes à l'intérieur d'un monde «hostile», sombre et noir.

BECKETT évoque cette «goutte» qui se désintègre progressivement, «d'un

(44) CC. p. 181.

(45) Bucaille Maurice, *la Bible, Le Coran et la Science*, Ed. Seghers, Paris, 1976 p. 263.

(46) CC. p. 182.

(47) CC. p. 185-186.

(48) Le mot arabe est «manny».

bout à l'autre de cette immense procession que c'est toujours à la millionième fois»⁽⁴⁹⁾.

Le spermatozoïde-narrateur nous décrit donc chaque phase de cette procession en cherchant à nous renseigner sur le sort de l'un de ses plus chers compagnons de voyage, sur l'un de ses millions de «frères», c'est-à-dire Pim. Dans la boue et l'obscurité, le «je» tâtonne :

«Pour la millionième fois la main tâtonnante se pose que c'est pour la main les premières fesses la première main (...)»⁽⁵⁰⁾.

«Lorsqu'on songe au couple que nous fîmes Pim et moi»⁽⁵¹⁾.

«Pim plus vivant»⁽⁵²⁾.

Or dans cette procession tragique, la solitude n'a pas droit de cité :

«Ce que nous fûmes alors pour soi et l'un pour l'autre».

Le spermatozoïde-narrateur supporte mal cette situation :

«Souffrance cruauté» et «petit besoin d'une vie, d'une voix de qui ni l'une ni l'autre»⁽⁵³⁾.

b - Deuxième ténèbre : l'étape de la nidation de l'oeuf-narrateur

Nous arrivons maintenant à cette autre phase, où le «je»⁽⁵⁴⁾ seul, assume son propre destin.

«Nous avons placé (l'homme), goutte (de sperme), dans un (lieu) de séjour fixe ...» (Sourate 23, verset 13) nous dit Dieu dans le Coran.

En effet, le spermatozoïde-narrateur (l'oeuf), maintenant fécondé dans la trompe va se nicher à l'intérieur de la cavité utérine nommée aussi par le Coran :

«Nous faisons rester dans les utérus ce que nous voulons jusqu'à un terme fixé» (Sourate 22, verset 5).

La science nous dit que «la fixation de l'oeuf dans l'intérus est réalisée par le développement de villosités, véritables prolongements de l'oeuf, qui vont, comme des racines dans le sol, puiser dans l'épaisseur de l'organe ce qui est nécessaire à la croissance de l'oeuf. Ces formations accrochent littéralement l'oeuf à l'intérus»⁽⁵⁵⁾.

Le parleur de **Comment c'est**, fait tout d'abord allusion à «la langue (qui) se charge de boue cà arrive aussi un seul remède alors la rentrer la tourner dans la bouche la boue l'avalier ou la rejeter question si elle est nourrissante et

(49) CC. p. 188.

(50) Ibid.

(51) Ibid.

(52) CC. p. 81.

(53) CC. p. 189.

(54) Ibid.

(55) «Moi seul une seule voix la mémoire» CC. p. 150.

perspectives durer un moment avec ça je m'en remplis la bouche ça arrive aussi c'est une autre de mes ressources durer un moment»⁽⁵⁶⁾.

La voix «joue donc sa survie, elle joue pour «durer», pour exister. Le «mortel»⁽⁵⁷⁾ se nourrit dans ce sac, de cette boue, «cette boue je l'ai toujours dit elle vous maintient son homme en vie et il se **cramponne au sac** c'est là où il fallait en venir je le dis comme je l'entends lui sert-il seulement d'oreiller non plus il le serre à bout de bras tel le défenestré le rebord»⁽⁵⁸⁾.

«Se cramponne au sac» ? Le spermatozoïde-narrateur ne s'arrête pas là, écoutons-le :

«nous voyez-vous ce sac je t'ai toujours dit ce sac est pour nous autres autre chose qu'un garde-manger qu'un coussin pour la tête qu'une présence amie qu'une chose à étreindre qu'une surface à couvrir de baisers autre chose tout à fait on n'en profite plus d'aucune manière et on s'y cramponne je lui devais ce tribut»⁽⁵⁹⁾.

Ainsi donc, nourri, il se cramponne, tel ces formations qui accrochent littéralement l'oeuf à l'utérus». Cet accrochage (ce cramponnement) est mentionné à cinq reprises dans le Coran :

«Lis, au nom de ton Seigneur, celui qui créa l'homme de quelque chose qui s'accroche» (Sourate 96 verset 1 et 2).

«Nous vous avons formés de «quelque chose qui s'accroche» (Sourate 22, verset 5).

«Nous avons transformé la goutte (de sperme) en quelque chose qui s'accroche» (Sourate 23, verset 14).

«(Dieu vous forma d'une goutte (de sperme), puis de quelque chose qui s'accroche» (Sourate 40, verset 67).

«L'homme n'a-t-il pas été une goutte de sperme qui a été répandue ? Puis il a été quelque chose qui s'accroche. (Dieu) l'a formé harmonieusement et façonné... » (Sourate 75, versets 37-38).

Le «Sac» est donc cet organe où se déroule la grossesse, ou «s'accroche» le «spermatozoïde-narrateur» devenu «oeuf-narrateur». C'est l'utérus maternel où il va siéger neuf mois durant («séjour fixe» (Sourate 23, verset 13 et Sourate 77, verset 21, cités plus haut). C'est donc le processus de transformation («Nous

(56) Bucaille (M), op, p. 204.

(57) CC. p. 42.

(58) Ibid, p. 97 La boue est aussi le résultat d'un mélange, eau et terre, «intervois la terre stérile. Or quand nous faisons descendre sur elle l'eau, elle remue, se met en croissance et fait pousser tout bel élément du couple» (Sourate 22, verset 5) Vos femmes sont un champ de labour pour vous, versez à votre champ de labour comme vous voulez et oeuvrez par vous-même à l'avance»..

(59) «boue», Sourate 2, Verset 223 :

avons transformé») au sein de l'utérus, dans la muqueuse utérine (boue), c'est donc la période de gestation qui semble intéresser Samuel BECKETT.

L'oeuf narrateur se cramponne donc : Deuxième étape. L'embryon passe alors, comme le dit le Coran, par le stade de chair (comme de la chair mâchée), puis apparaît le tissu osseux qui est habillé de chair :

«Nous avons transformé ce qui s'accroche en une masse de chair (Sourate 23, Verset 14) et nous avons...

Ce stade de la transformation est traduit par BECKETT dans **Comment c'est**, par des allusions aux comportements de l'embryon dans l'utérus.

Il prend la «corde dans le sac» (cordon ombilical ?) y demeure attaché : «je me traîne et me traîne la corde» et puis prend place «aux extrémités de la plus grande corde»⁽⁶⁰⁾.

«Nous vous avons transformés (...) de quelque chose qui s'accroche (...) de masse de chair proportionnée et non proportionnée...» (Sourate 22, verset 5).

C - Troisième ténèbre : Fin de parcours : le fœtus

«Je n'aime pas me toucher»⁽⁶¹⁾ disait le narrateur de **Comment c'est** et puis ajoutait-il «s'ils me voient je suis un monstre des solitudes il voit l'homme pour la première fois»⁽⁶²⁾.

Le monstre va progressivement prendre les traits d'un être humain. Le Coran évoque cette phase dans la Sourate 32 verset 9.

«(Dieu) vous a donné l'ouïe, la vue, les viscères...».

Chez BECKETT, nous avons analysé cette évolution, les différentes étapes de cette transformation, l'apparition des sens et des viscères et nous avons constaté qu'à la parole se substituent des mouvements fréquents qui décrivent «l'ordre naturel»⁽⁶³⁾ du voyage, qui expriment cette vie dans l'utérus :

«ayant déjà vécu en tant que bourreau aux côtés de Pim deuxième partie, je n'ai donc pas à connaître d'une quatrième ou je vivrais en tant que victime aux côtés de Bom...»⁽⁶⁴⁾.

«Bourreau» pour avoir survécu, pour avoir été l'heureux élu de la vie au détriment des millions de victimes qui ont péri à leur arrivée dans le monde des ténèbres, le narrateur s'agite et se meut, se découvre, teste ses sensations, il se forme, le puzzle a enfin réussi à réunir ses éléments, ses morceaux. Le tableau récapitulatif ci-dessous qui démontre que le personnage de **Comment c'est** s'est constitué, sous la forme d'une réponse à la question essentielle :

(60) Ibid p. 103.

(61) CC. p. 104.

(62) Comme mâchée : mudrât (cf. Bucaille), op cit p. 206.

(63) Comme de la chair fraîche «lahm» (cf Bucaille, ibid).

(64) CC. p. 16.

comment c'est ? Comment Beckett décrit-il ce corps entrain de se constituer, ce monstre qui s'humanise ? Il le fait en «nommant» l'une après l'autre les parties du corps selon leur «apparition». Il y a lieu de constater que rien n'est oublié :

1 - Les éléments du puzzle

I - La tête

Eléments	Pages
Tête	14, 15, 24, 26, 29, 36, 37...
Vertex	8, 34
Crâne	85, 118
Cerveau	135, 118
Tempe	136
Cheveux	38, 135
Visage, face	150
Yeux, prunelles	12, 21, 23, 37, 43, 44, 55, 138...
Oreilles	35, 36, 92
Nez-narines	55
Joue, ride, pommette	26, 55, 34, 87
Bouche	12, 25, 26, 36, 40, 41, 42, 55, 68...
Lèvres, langues, gencives	23, 68, 87, 12, 41, 42, 43, 48, 68...
Fossettes, bas du visage	10, 27, 39, 69,...
Cou	16, 23, 66...

II - Membres supérieurs

Eléments	Pages
Bras	11, 16, 26, 28, 29, 35, 42, 45
Coude	11
Main	11, 14, 15, 16, 20, 21, 23, 24, 27, 28, 43
Doigts	25, 28, 55
Ongles	82, 108, 109, 111
Pouce	80
Index	87
Paume	55

III - Les Os

Eléments	Pages
Os	102
Humérus	87
Les côtes	54

IV - Les Muscles

Eléments	Pages
Muscles	105

V - Les Veines

Eléments	Pages
Veines	111

VI - L'Enveloppe du corps

Eléments	Pages
Chair	152
Peau	18, 117
Pores	103
Poils	85, 87, 118

VII - Les Cinq Cens

Eléments	Pages
La vue	11, 12, 13, 15, 21, 31, 43, 44, 47, 56
L'ouïe	9, 13, 14, 18, 26, 28...
L'odorat	38, 129
Le toucher	11, 21
Le goût	62, 42

VIII - Le Tronc

Eléments	Pages
Tronc	29
Epaule	14
Aisselles	98
Cœur	18, 27, 34,
Echine	104
Moelle	151
Flanc	
Ventre	12, 13, 14, 28, 29, 36, 41...
Dos	14, 37, 68
Cul	118, 122
Anus, Rectum	103
Vessie	
Urètre	
Testicules	85

IV - Les Membres

A - Membres Inférieurs

Elements	Pages
Fesse	18, 46, 57
Cuisse	139
Genou	14, 18, 23, 28, 37, 65, 68...
Jambes	16, 28, 29, 35, 39, 42, 44...
Bout de pied	28
Ongles des pieds	57
Cheville	90

Le puzzle ainsi reconstitué inlassablement, page après page, acquiert petit à petit les moyens d'exprimer l'existence de l'homme. Il nous suffira, à présent d'énumérer ses différentes manifestations dans le texte pour constater, pour mieux saisir les détails du projet beckettien :

2 - Les Manifestations du personnage :

Manifestations	Pages
Voix	9, 18, 21, 30...
Sourire	40, 45, 48...
Appétit	11...
Halétement	9, 17, 19, 21, 30, 31, 36
Songes	9
Souvenirs	9, 43
Parole	9, 23, 28
Ejaculations	63
Soif	12, 41
Pisser	13, 59
Chier	13
Murmure	9, 13, 20, 21
Travailler	14
Bouger	15
Jeter	15
Marcher	18
Faim	34
Rêver	19
Aimer	19
Tourner	20
Pleurer	27, 32
Ramper	29
Bailler	29
Sentir	30

Manifestations	Pages
Boire	41
Pousser	40
Avoir peur	11...
Avoir sommeil	20, 29...
Manger	20, 50...
Vomir	20
Se trainer	23
Pêter	59
Dormir (se coucher)	36, 54
Humer l'air	38
Espérer	35
Crier	35, 46
Muqueuses	150
Baver	150
Chanter	
Enlacer	98, 118
Griffer	102
Haleïne	34

POUR CONCLURE

«Le terme fixé» par Dieu (Sourate 22, verset 5) met fin au «séjour fixe» (Sourate 23, verset 13) dans l'utérus, il marque la fin de la grossesse et annonce l'accouchement. Le roman de Samuel BECKETT relate donc la vie dans l'utérus maternel, dans la boue (muqueuse utérine), dans le sac (Placenta), enchaîné à une corde (cordon ombilical). **Comment c'est** est une question que se pose chacun d'entre nous. Comment c'est notre vie avant la naissance ? «Comment c'est notre vie» dans l'ovaire d'Eve, mère de l'espèce humaine qui aurait, selon le grand naturaliste Buffon, contenu les germes de tous les êtres humains, emboîtés les uns dans les autres⁽⁶⁵⁾ et BECKETT de compléter : «mais en réalité nous sommes tous depuis l'impensable premier jusqu'au non moins impensable dernier collés les uns aux autres dans une imbrication des chairs sans hiatus»⁽⁶⁶⁾.

Le récit se termine lorsque la lumière se fait autour du mystère, lorsque la lumière jaillit au milieu de l'obscurité :

«et soudain lumière sur les sacs»⁽⁶⁷⁾

La lumière en «haut» (le nouveau-né quitte le plus souvent le ventre de la mère la tête la première, la tête vers le bas), le bout du tunnel, le moment de se débarrasser du sac, de la corde, et enfin de faire cesser cette lente procession,

(65) CC. p. 23.

(66) CC. p. 183.

(67) CC. p. 21.

«Et cette histoire de procession pas de réponse cette histoire de procession oui jamais eu de procession non ni de voyage non jamais eu de Pim non ni de Bom non jamais eu personne non que moi pas de réponse que moi oui ça alors c'était vrai oui moi c'était vrai oui et moi je m'appelle comment pas de réponse Moi JE M'APPELLE COMMENT hurlements bon»⁽⁶⁸⁾.

Ces «hurlements» sont les vagissements du nouveau-né. Sitôt à l'extérieur de son Premier «monde», il perd ses repères, sa mémoire, ses réflexes. «Je m'appelle comment», hurle-t-il au contact de la vie. «Les bras en croix»⁽⁶⁹⁾ il répondra en criant de «Plus en plus fort»⁽⁷⁰⁾ : «c'est ça la vie ici pas de réponse c'est ça MA VIE ICI hurlements bon»⁽⁷¹⁾ Et le roman s'achève sur une note de soulagement (ou de résignation) :

«bon bon fin de la troisième partie et dernière voilà comment c'était fin de la citation après PIM comment c'est»⁽⁷²⁾.

Quant à nous, malgré toutes les coïncidences que nous avons pu relever, malgré tous les rapprochements que nous avons établis entre **Comment c'est** de Samuel BECKETT et le **Coran**, nous ne prétendons pas avoir découvert le secret de l'œuvre de BECKETT, autrement dit, une œuvre d'inspiration coranique. Nous assumons par ailleurs notre lecture avec tous les risques que cela suppose.

Nous estimons enfin que BECKETT doit être «relu», Beckett doit être interrogé sur sa conversion à l'Islam (!).

BIBLIOGRAPHIE

ABIRACHED (R), «La voix tragique de Samuel BECKETT», Revue **Etudes**, janvier 1964.

BECKETT (S), **Comment c'est**, les éditions de Minuit, Paris, 1961.

BUCAILLE (M), **La Bible, le Coran et la Science**, éd. Seghers, Paris, 1976.

RAIMOND (M), **Le Roman depuis la Révolution**, coll. U, éd. Bordas.

DUROZOI (G), BECKETT, **Présence littéraire**, éd. Bordas, n° 804, Paris, 1972.

JANVIER (L), **BECKETT, par lui-même**, Seuil, coll. Ecrivains de toujours, Paris, 1979.

(68) CC. p. 18.

(69) CC. p. 30.

(70) CC. p. 204.

(71) CC. p. 217.

(72) CC. p. 215.

LE MANUSCRIT INACHEVE D'AL-YOUSI (11^e/XVII^e siècle)^(*)

Najib WASMINE
Faculté des Lettres — Tétouan

I – REGARD SUR LE SAVANT ET LE SAINT

Abû 'Alî al-Hasan al-Yousi naquit dans la tribu berbère de Aït Yousî (haute Moulouya, sud de Fès) en 1040 de l'Hégire (1631). Il fit plusieurs voyages, à travers le Maroc, à la recherche de la science de la bouche des maîtres et de la bénédiction dans les lieux des saints. Il dispensa son enseignement théologique à la Zâwiya dilâ'iya (confrérie en région de Tadla), à la Mosquée universitaire de Fès (al-Qarawiyyine), à Marrakech et à Tétouan. Deux voyages aux lieux saints en vue d'accomplir le rite sacré du pèlerinage, et un court séjour en Egypte. Un fait inattendu tout de même : contrairement aux traditions de l'époque, al-Yousi ne reçoit et ne délivre en Orient aucun certificat de transmission (*ijâza*). J. Berque apporte quelques explications : « réaction contre l'engouement des compatriotes, dédain de l'étranger ? »⁽¹⁾.

Il mourut, peu de temps après son retour de la Mecque, le 15 *Dî l-Hijja* 1102 (10 septembre 1691). Enterré près de Sefrou (sud de Fès), il fut transféré, une vingtaine d'années plus tard, à la Zâwiya actuelle de Sidi Lahcen al-Yousi en région de Sefrou. Son corps était trouvé intact, dit la légende populaire⁽²⁾. Sa tombe est aujourd'hui consacrée comme un lieu de sainteté ; les tribus s'y rendent annuellement afin de célébrer sa mémoire et recevoir sa faveur spirituelle. C'est ainsi qu'al-Yousi est devenu un saint rural.

II – LA CONSCIENCE DE SON TEMPS

Al-Yousi connut une période de troubles politiques et socio-culturels intérieurs : conflits entre les « principautés maraboutiques » au Sud du Maroc ;

(*) Je remercie mon collègue et ami Abdallah Mrabet Targhi à qui je dois la découverte de ce manuscrit. La traduction des citations arabes est de moi.

(1) *Muhâdarât d'al-Yousi*, Thèse, 1954, Bibliothèque de la Sorbonne, Paris, p. 27. Ouvrage publié sous le titre *Al-Yousi*, Ed. Mouton et Co, Paris, La Haye, 1958.

(2) Mohamed Kettâni, *Salwat al-anfâs*, lithographié à Fès, 1316 Hég., (1898), t. III, p. 82, l. 1.

la Cité du Nord (Fès) est disputée pendant les premiers tiers du siècle entre les aspirants au pouvoir (Saâdiens expirants et Dilâ'ites) ; la destruction de la Zâwiya ad-Dilâ', foyer religieux et intellectuel, décidée par le sultan ar-Rachîd ; les violents désarmement et imposition des tribus sous le règne de Moulay Ismâ'il ; les incontrôlables altérations causées aux livres. En ces tristes circonstances, cela s'entend, la formation scientifique était une entreprise difficile et comme une gageure, et l'indépendance intellectuelle une bien curieuse attitude.

Imbu de valeurs spirituelles de l'Islam, al-Yousi n'était cependant pas le soufi coupé du monde. Eminent érudit dans sa société et son époque, il ne se dispensait point de juger la vie de son peuple et de témoigner sur l'état des droits en son temps : «Ce temps est celui du mutisme, est menacé qui touche à la vérité», dit-il allusivement en attribuant cette réflexion aux gens du peuple⁽³⁾.

Al-Yousi n'était pas partisan de quelque confrérie religieuse, ni se réclamait d'un ordre mystique déterminé. De fait, à la Zâwiya ad-Dilâ'iyâ, il fut pendant environ vingt ans brillant élève et notable maître de sciences religieuses, sans pour autant être membre de cette confrérie⁽⁴⁾.

Il fut, par ailleurs, attaché passionnément à la mémoire des saints. Sur cette liaison, il raconte dans ses *Muhâdarât* qu'il ne se lassait pas de se rendre à leurs tombes espérant par une telle ferveur recevoir leur bienveillance spirituelle : Moulay Abû Ya'zâ (connu aujourd'hui sous le nom de Moulay Bu'Azza), Moulay Abû Salhâm et Moulay Abdeslam Ben Mchîch, entre autres. Parmi leurs charismes salutaires qu'il rapporte, l'histoire de sa fille qui ne pouvait mettre un pied devant l'autre, et qui put marcher grâce à la visite rendue au saint Abu'Alî al-Ghujâtî. Il voyait avec les yeux de la foi le bon songe et ses interprétations, s'appuyant en cela sur le propos du Prophète Muhammad : «Le bon songe du saint homme est une des quarante-six parcelles de la prophétie» (*hadîth*). Il évoque à cet égard, dans ses *Muhâdarât*, le récit de rêve de sa femme qui désirait tant être mère : «Elle raconte qu'elle a vu en rêve le saint Abu 'Alî al-Ghujâtî ; près de lui, coulait à peine un filet d'eau. Elle demanda à étancher sa soif ; l'eau est là, fouille, elle jaillira, répondit-il. Ce que je fais de suite, j'ai bu alors une eau désaltérante», dit-elle. Voici le commentaire d'al-Yousi : «elle fit, à la fin de ce récit, le vœu de rendre visite au saint ; nous le fîmes ensemble. Elle mit au monde notre fils Muhammad, que Dieu veuille sur lui».

D'un autre côté, à la suite de la destruction du foyer ad-Dilâ', al-Yousi fut muté à la Mosquée universitaire al-Qarawiyîne. En ce lieu prestigieux, il ne put manquer d'attirer l'attention et l'affluence de nombreux auditeurs. Ce succès inattendu provoqua autour de lui l'envie et le dénigrement dans l'aristocratie

(3) *Al-Muhâdarât*, éd. de Mohamed Hijji, Rabat, 1976.

(4) Evariste Lévi-Provençal écrit sans indications précises qu'al-Yousi était «membre agissant de confrérie mystique», *Les Historiens des chorfa*, Ed. Emile Larose, Paris, 1922, p. 269.

intellectuelle de Fès. «Il met peut-être dans ses cours trop d'originalité, note J. Berque. Peut-être aussi son succès est-il considéré comme de mauvais goût par les honnêtes gens»⁽⁵⁾. Considéré de ce fait comme un prétentieux, il ne cacha pas son amertume qu'il note d'ailleurs dans ses *Muhâdarât*. Ne supportant guère cette malveillance manifeste, il dut alors quitter Fès pour poursuivre à travers le pays son enseignement et ses recherches savantes, par les causeries et les dialogues ouverts.

De sensibilité mystique et d'âme poétique, il choisit, suite à une longue épreuve décevante en ville, le retraite sainte à la campagne. De caractère rustique, il répond par ce libre choix à son propre désir. Esprit indomptable de surcroît, il repousse l'invitation du sultan Moulay Ismâ'il de regagner la cité et de fréquenter les portes du palais afin de propager le savoir et d'aider le pouvoir. En effet, il adressa au monarque deux importantes épîtres (*al-kubrâ wa sughrâ*) pour faire l'apologie de lui-même et réagir contre les actes de désarmement et d'imposition auxquels les tribus furent violemment astreintes.

L'époque troublée que connut al-Yousi ne fut pas sans toucher et détériorer le domaine du script. D'une telle situation, il fait le point dans son ouvrage *al-Qânûn*, tout en appelant à la protection du métier de scribe et à l'instauration d'un censorat ayant la fonction déterminée de sauver les livres de la corruption envahissante : «[...] aujourd'hui, écrit-il, les altérations causées aux livres sont devenues invérifiables»⁽⁶⁾.

III – L'ILLUSTRE OEUVRE INCONNUE

La formation intellectuelle d'al-Yousi s'est faite pour sa grande partie en milieu rural (régions de Moulouya, Tadla, Draâ, Sijelmasa) ; loin des centres citadins traditionnels de Fès, d'Andalousie et d'Orient. Il est, malgré tout, salué comme le rénovateur du siècle (*mujaddid al-qarn*) par les historiens et biographes marocains⁽⁷⁾, et comme un grand esprit par J. Berque qui se «réjouirait à le voir franchir l'obstacle de la langue et déboucher sur l'information mondiale par le canal de la traduction»⁽⁸⁾.

Au grand étonnement de la gent aristocratique de Fès, il fut un virtuose de l'enseignement et de la plume. *Muhâdarât*, qui est un livre de fin de carrière, est un exemple de maîtrise poétique et herméneutique, une trace de grand talent d'écrivain. Son oeuvre dans les domaines des sciences religieuses et des lettres

(5) *Muhâdarât d'al-Yousi*, op. cit., p. 18.

(6) Cf. *al-Qânûn*, éd. litho., Fès, p. 4. Cité par Mohamed el-Menouni, *Târîkh al-wirâqa l-maghribiya*, Publication de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat, 1991, p. 114.

(7) Mohamed al-Ifrânî, *Safwat man intachar*, 1137 Hég., (1724) ; Mohamed al-Kettânî, *Salwat al-anfâs*, op. cit.

(8) Correspondance entre Jacques Berque et moi-même, lettre du 17 octobre 1992.

est importante⁽⁹⁾. J. Berque a relevé dans les dictionnaires biographiques marocains une trentaine d'intitulés ; Mohamed Hijji (chercheur marocain) a complété ce répertoire de quelque quatorze titres. La plupart de ses écrits sont inédits, dont une part est considérée comme perdue. A cet égard, J. Berque note que «l'oeuvre d'al-Yousi a subi [une] effrayante dilapidation»⁽¹⁰⁾. L'oubli, l'abdication, le temps menaçant de vieillissement rongeur une bonne partie de l'oeuvre d'al-Yousi. Oeuvrer à la conservation et à la recension de ses feuillets labiles est une des tâches pressantes de la recherche.

Parmi les ouvrages d'al-Yousi qui font la lumière sur sa vie et sa pensée, trois sont d'importance : *Muhâdarât* (1^{ère} édition lithographiée, Fès, 1317 Hég. (1899) ; 2^{ème} édition établie par Mohamed Hijji, Rabat, 1976) ; *ar-Rasâ'il* (Les Épîtres) (édition critique de Fatima Khalil Qably, Rabat, 1981) ; *al-Fahrâsa* (livre de sagesse et de formation) est un texte inédit. Pour l'heure, il n'existe pas de traduction de quelque texte d'al-Yousi. J. Berque a le mérite d'être le premier et seul orientaliste qui consacre une thèse maîtresse au savant et saint maghrébin. A ce titre, l'ouvrage de Berque a comblé, après *Les Historiens des chorfa* de Lévi-Provençal, une carence dans les recherches sur la culture arabe, du côté du Maghreb.

IV – LE MANUSCRIT D'AL-FAHRASA

La *fahrâsa* (du persan : *fihrîst*), tel qu'on peut le lire dans *L'encyclopédie de l'Islam*⁽¹¹⁾, est un genre bio-bibliographique, assez courant dans la littérature maghrébine classique. L'auteur y indique ses appuis scientifiques, ses oeuvres, énumère ses maîtres et les enseignements qu'il a reçus sous leur direction. Un tel ouvrage peut aussi s'enrichir de réflexions et de souvenirs autobiographiques. *Al-Fahrâsa* d'al-Yousi n'est pas la simple énumération de maîtres et de leurs références, telle qu'on la trouve bien souvent. Elle est plutôt un développement assez étendu des avantages *fawâ'id* de la science, de sentences et de grâces (*ulûm, hikam, mulah*). Les avantages énumérés et commentés sont au nombre de treize, ordonnés scrupuleusement. Cette espèce de *vade-mecum* est ainsi fait dans un esprit méthodique et didactique.

Al-Fahrâsa est aussi le récit de l'apprentissage. L'auteur y retrace son itinéraire intellectuel en évoquant ses débuts initiatiques, certains de ses maîtres ainsi que leurs enseignements ; elle comporte également des extraits de son oeuvre théologique et littéraire.

Livre de sagesse et de formation, *al-Fahrâsa* fait, par ailleurs, ressortir l'originalité intellectuelle d'al-Yousi, qui le distingue de ses contemporains : il dévoile les limites de la capacité du *hifd*, culture mnémonique défailante, mais fort prisée dans sa communauté, et il loue en revanche les pouvoirs

(9) Cf. *Muhâdarât d'al-Yousi*, op. cit., p. 26.

(10) *Ibid.*, p. 29.

(11) Cf. «*Fahrâsa*», E. I., II. (art. de Charles Pellat).

conservateurs de l'écriture⁽¹²⁾. Une autre singularité intellectuelle le distinguait dans son époque : il ne s'enfermait pas dans les références et montrait du caractère dans ses jugements. « Tout lecteur, selon Berque, du *Qânûn* ou des *Muhâdarât* note la rareté des citations d'auteurs, l'aptitude à dépasser les sources, à remonter aux principes, à dégager des raccourcis de Méthode parfaitement consciente⁽¹³⁾. Ce propos analytique et louangeur s'étendrait pertinemment à la *Fahrassa* où la nuance de l'appréciation personnelle et la délicatesse du langage sont porteuses de sagesse spirituelle autant que de souci de vérité.

Berque, à la suite de Lévi-Provençal, a attiré l'attention sur l'intérêt de cette autobiographie spirituelle, « malheureusement réduite, estime-t-il, à quelques copies dispersées et peu accessibles. L'oeuvre est d'importance⁽¹⁴⁾ ».

Le manuscrit d'*al-Fahrassa* est inachevé. De fait, les copies disponibles ne comportent pas les trois derniers des cinq chapitres annoncés en introduction. Que dire d'un tel inachèvement ? Contrairement à l'idée de l'inachèvement involontaire, conséquence de la mort de l'auteur, idée en somme répandue dans les bibliographies marocaines, les trois chapitres sont vraisemblablement perdus.

Différents facteurs plaident en faveur de l'hypothèse de la perte : al-Yousi rédigeait sa *Fahrassa* à la même période que ses *Muhâdarât*, soit une dizaine d'années avant sa mort. Nombre d'indications relatives à la vie de l'homme et à ses maîtres se trouvent dans les deux ouvrages, et sont ainsi complémentaires les unes des autres. D'autre part, selon une pratique marocaine bien vieille, aujourd'hui inconnue, les héritiers se partageaient, à l'aveuglette, la bibliothèque du défunt, au risque d'amputer les ouvrages de quelque partie. Seuls les heureux hasards de la recherche révéleront peut-être la part inconnue de l'oeuvre inédite. Le chercheur, au demeurant, ne peut que frémir devant l'observation de Berque sur l'état de la bibliothèque marocaine ; observation facilement vérifiable quand on s'engage dans la recherche documentaire bien souvent rebutante :

« Les catalogues biographiques, forts nombreux au Maroc, indiquent pour chaque auteur, d'abondantes listes d'oeuvres [...]. Mais la déception vous saisit quand vous passez de cette richesse purement nominale à la réalité des bibliothèques ou des mémoires, quand vous cherchez à retrouver les livres encore existants ou même ceux qui ont été vraiment lus [...]. Le temps, l'oubli, les vols ont infligé une réduction massive au matériel de base de la culture marocaine⁽¹⁵⁾ ».

Existe-t-il un texte définitif, *ne varietur*, d'*al-Fahrassa* ? Sur ce point, le lettré Allâl al-Fâssi déclare, dans un article sur la vie et l'oeuvre d'al-Yousi, qu'il

(12) Cf. *Muqaddîma* de la *Fahrassa*.

(13) Cf. *Muhâdarât d'al-Yousi*, op. cit. p. 10.

(14) *Al-Yousi*, op. cit. p. 28.

(15) *Muhâdarât d'al-Yousi*, op. cit., p. 29.

possède une copie faite sur le manuscrit autographe⁽¹⁶⁾. Cet exemplaire me semble peu accessible, du moins dans l'état actuel de mes recherches et mes accointances.

Un des six manuscrits que j'ai recensés, déposé à la Bibliothèque générale de Rabat sous la cote K 1418, donne une version définitive de la *Fahrassa*. D'après une note écrite au bas de la dernière page par le scribe Said Ben Muhammad Ben Masoud al-Yousi, «la présente copie a été exécutée sur l'autographe et achevée la matinée du mercredi, au milieu de *jumâdâ 1 1104*, soit deux ans après la mort de l'auteur». Le manuscrit est originaire de la bibliothèque privée (Kattâniya de Fès). Il fait partie d'un recueil (*majmû*), format moyen, dont il occupe les 94 pages (folios 21-67) de 22/23 lignes chacune. L'écriture, maghrébine simple, est d'une lisibilité moyenne. Peu de mots sont légèrement altérés, voire difficilement lisibles ; rares ceux qui sont effacés. Cette copie est supérieure aux suivantes par son caractère ancien et sa facture *ne varietur*.

Les deux autres manuscrits disponibles à la Bibliothèque générale de Rabat se trouvent dans les recueils aux cotes respectives D 1838 (folios 41-88) et K 1301 (folios 134-164) sont autant que le précédent, enserrés dans des reliures fanées et rongées. Il s'agit dans les deux cas d'une copie de copie, le copiste est anonyme et la date d'exécution absente.

La quatrième copie, déposée à la bibliothèque générale, fait partie d'un recueil sous la cote 184 (folios 1-55) ; elle est exécutée sur microfilm à partir du manuscrit trouvé à la bibliothèque personnelle du nommé Abbas Ben Ibrahim à Marrakech. Elle est identique aux deux précédentes par l'anonymat du copiste et l'absence de la date de composition.

Le cinquième manuscrit est déposé à la bibliothèque royale (hasaniya) de Rabat. Originaire de la bibliothèque zaïdâniya de Meknès, il fait partie d'un recueil sous la cote 12203 (folios 133-194). Il est identique au deuxième et au troisième manuscrits à plusieurs égards : c'est une copie faite sur une autre copie, qui comporte plusieurs mots laissés en blanc ; le nom du copiste et la date d'exécution font défaut.

Enfin, je suis redevable à un obligeant collègue de la communication du sixième exemplaire exécuté de sa propre main. Il a fait cette copie sur le fac-similé d'un manuscrit, obtenu d'une collection privée, et dont il tait courtoisement le nom du propriétaire et l'origine. Excepté le texte proprement dit, dont plusieurs mots sont laissés en blanc, aucune indication, supplémentaire n'informe sur l'histoire du manuscrit.

(16) «Abu Alî al-Yousi», *al-Manâhil*, n.s., n° 15, Maroc, juillet 1979, p. 37, n° 30. (1ère éd. : *al-Maghrib al-jadîd*, 4, 5, 6, 1935).

LA LITTÉRATURE COLONIALE AU MAROC : FORMES ET CARACTERISTIQUES

Mohammed BAKKALI-YEDRI

Faculté des Lettres — Rabat

La Littérature coloniale est une variante de la littérature française qui s'est développée dans les colonies par des auteurs venus de France ou des auteurs nés dans les colonies.

Cette littérature a connu un grand développement au Magreb, notamment en Algérie, en raison de la durée de l'occupation française de ce pays (de 1830 à 1962). La littérature coloniale en Algérie possède une particularité qu'il faut bien considérer, c'est que beaucoup de ses auteurs sont des Français nés dans le pays. Nombre parmi eux sont devenus de grandes figures, des sommités de la littérature française du XXe siècle tels : **Gabriel Audisio, Louis Bertrand, Emmanuel Roblès, Jules Roy, Jean Pélégri** et surtout **Albert Camus**.

Cette littérature a eu l'avantage d'être bien explorée, bien étudiée, et elle est normalement programmée aux Universités. Ses œuvres maîtresses continuent à être rééditées. Ses auteurs et leurs écrits n'ont pas été emportés par l'oubli après l'Indépendance de l'Algérie.

Tel n'est pas le cas de la littérature coloniale au Maroc. Comparée à celle produite en Algérie, elle paraît beaucoup moins importante et très méconnue parce que peu étudiée⁽¹⁾, rarement programmée et ses œuvres ne sont pas rééditées, sauf quelques très rares titres.

Cette littérature du Maroc colonial possède elle aussi sa propre spécificité ; ses auteurs ne sont pas des descendants de colons nés au Royaume. Ce sont surtout des Français de France qui sont venus visiter ou faire carrière au Maroc au temps du Protectorat. La colonie française du Royaume colonisé, contrairement à celle d'Algérie, n'a pas eu suffisamment de temps pour créer ses propres auteurs, capables d'exprimer sa sensibilité et ses vœux, et de formuler toute sa pensée sur le pays conquis. Cette différence par rapport à l'Algérie est d'importance. Par ailleurs, ces auteurs français qui ont trouvé leur vocation dans l'écriture sur le Maroc, n'ont pas réussi à marquer par leur art

(1) Parmi les rares travaux de qualité qui furent consacrés à cette littérature, citons la thèse de M.A. Lahjomri, *L'Image du Maroc dans la littérature française*, SNED, Alger, 1973, dont la lecture nous a été d'une grande aide pour développer la présente étude.

et leur talent, la littérature française contemporaine. Sauf quelques rares exceptions, leurs noms n'existent même pas dans les dictionnaires. Ils sont restés des auteurs de second rang et leurs oeuvres furent rapidement oubliées aussitôt après l'Indépendance.

Pourtant le développement de la littérature coloniale au Maroc a été fortement encouragé par l'administration coloniale. La France qui croyait occuper le pays pour très longtemps, a voulu en faire une colonisation scientifique pour une bonne utilisation des hommes et une meilleure exploitation de l'espace et des richesses naturelles. C'est pourquoi, elle a amené non pas seulement des militaires, mais également d'éminents et prestigieux savants pour une exploration exhaustive du pays.

Elle a par ailleurs fait appel à des peintres et à des hommes de lettres dans le but d'entreprendre une description du Maroc dans son état de décadence et de sous-développement et ce dans la perspective de justifier l'expansion coloniale et de rassurer la partie de l'opinion française qui était contre cette occupation, en lui montrant directement ou indirectement que le but de l'expansion est de civiliser un pays ensauvagé et non de l'occuper.

La description que donne cette littérature, aussi bien que cette peinture de l'état du Maroc colonisé est très appauvrissante. Elle montre avec complaisance une société statique, sans valeurs morales, sans valeurs culturelles, sans perspectives politiques et économiques. Ces carences n'ont certainement pas été inventées, mais il faut reconnaître qu'elles ont été amplement exagérées. Il faut dire aussi que dans leurs descriptions, les auteurs n'ont pas utilisé des méthodes d'observation valables qui conduisent à l'objectivité. Emportés par l'euphorie de l'occupation, ils ont été incapables de voir que le Royaume à cette époque, du fait même du bouleversement radical qu'il connaissait avec la formidable présence européenne sur son sol, était en train de vivre une pleine mutation.

Ce qui frappe le chercheur quand il tente d'établir l'histoire de la production littéraire coloniale au Maroc, c'est que malgré ses limites, celle-ci a pu bénéficier d'un nombre important de prix littéraires. En effet, ces gratifications étaient distribuées avec beaucoup de générosité au Maroc, mais aussi en Algérie et en Tunisie. Ces prix multiples étaient attribués, non pas pour récompenser des talents, mais pour encourager le développement d'une littérature si nécessaire à une idéologie expansionniste. Et c'est justement en raison du caractère douteux de ces récompenses qu'un auteur fier, comme Henri de Montherlant, a refusé le Prix de Tunis accordé à son roman **La Rose de Sable**, l'une des plus belles oeuvres consacrées au Maroc.

En tant que littérature, l'écriture coloniale a pratiquement abordé la plupart des genres connus, avec plus ou moins de succès. Elle a cependant privilégié certaines formes qui lui permettaient de répondre aux exigences et aux urgences de la politique de la Résidence, telle **la littérature de guerre**.

Ce type d'écriture qui constitue une sous-variante de l'épopée, est une forme traditionnelle dans la littérature française. On le trouve par exemple, dans **La Chartreuse de Parme** de Stendhal, ou dans les **Contes et Nouvelles** de Maupassant pour ne citer que ces deux exemples. Concernant la Littérature coloniale au Maroc, c'est l'expansionnisme militaire qui va lui fournir sa matière première. En relatant les exploits guerriers des généraux et des légionnaires, cette littérature va forger une morale épique de la colonisation. Ce genre va amplement dominer les débuts de cette littérature et va se poursuivre même au-delà de la pacification du pays. La conquête y est présentée comme une mission de civilisation, de paix et de coopération, conforme aux principes de la République et entreprise dans un pays qui en avait besoin.

Il semble que le renouvellement de cette forme sur la terre marocaine répondait en plus de ce que nous venons d'expliquer, à un besoin psychologique. La France fut de tous les temps un état guerrier, mais les armées de l'Empire et de la République n'ont pas emporté que des victoires. Les redoutables et vaillants soldats de Napoléon ont connu une mémorable défaite à Waterloo ; la France a été envahie par les Prussiens pendant la guerre de 1870, puis de nouveau occupée et Paris assiégée par les mêmes Prussiens en 1914 ; l'Alsace et la Lorraine furent annexées. Cette littérature donc semblait avoir pour objectif d'exalter le courage et l'héroïsme d'une armée gênée dans sa puissance et menacée dans son prestige par celle de l'Allemagne voisine, comme le prouvera la seconde guerre qui amènera une nouvelle et fâcheuse occupation de la France par les forces nazies. Ainsi, chanter les exploits de l'Armée d'Afrique dans la campagne du Maroc revêtait certainement dans de telles circonstances où l'Europe déchirée et désunie était encore menacée par une nouvelle guerre une grande importance psychologique. Car à cette date, le Maroc dans l'imaginaire français et européen n'avait pas encore perdu toute sa réputation de nation guerrière, celle qui avait emporté au XVI^e siècle la bataille décisive des Trois Rois ! L'impact de la peinture romantique de Delacroix inspirée et stimulée par les souvenirs de son voyage à Tanger et à Meknès en 1832, avait renforcé sérieusement cette représentation devenue en fait dès cette époque un simple mythe. La plupart des tableaux du grand maître exaltait le goût du Marocain pour le cheval et les armes. Il va de soi que l'exaltation de victoires emportées sur un tel peuple avait alors toute sa signification.

C'est la raison pour laquelle la littérature de guerre a connu un grand succès et a inspiré de nombreux auteurs : Louis Botte a écrit **Au Cœur du Maroc**, Pierre Khorat, **La Scène de la pacification**, E. Nolly, **Gens de guerre au Maroc**, Gustave Rouger, **En Marge de la gloire**, René Vandande, **Sous les ordres du Lyauté**. Ont écrit également dans ce genre Henry Bordeaux, Henry Clerisse, Alfred Droin, Hubert Jacques...

Après la forme épique, **La Littérature touristique** occupait la seconde place. C'est en vérité une continuité naturelle du genre romantique très en vogue au XIX^e siècle qui privilégiait le thème du voyage, particulièrement le voyage dans

l'Orient exotique. Les auteurs qui sont venus au Maroc et qui se sont intéressés à ce genre, ont essayé de chercher le pittoresque et l'insolite et ils ont tous évité de parler du fait colonial. Le Maroc sous leur plume est dépeint comme un paradis d'Orient à la porte de l'Occident.

Ecrite à l'intention des lecteurs de la Métropole, pour leur faire connaître le nouveau pays conquis, la littérature touristique était destinée à flatter leur imagination, mais aussi à agir sur leur volonté. Au-delà d'une invitation au voyage, cette production était une incitation, un encouragement à venir s'installer au Maroc.

Sur le plan esthétique, ses formes, ses caractéristiques et ses procédés vont connaître plus tard une évolution significative. L'écriture touristique va de plus en plus faire appel à l'image, plus précisément à la peinture, jusqu'à ce que le texte touristique devienne à la fin, seulement un commentaire de l'illustration. Jamais littérature et peinture n'ont autant collaboré ensemble, comme elles l'ont fait dans ce genre développé au Maroc. La forme la plus éloquente de cette collaboration sera celle qui sera réalisée par Bosco avec le peintre Louis Riou dans un ouvrage remarquable : **Les Pages marocaines**, paru le 25 août 1948 aux Editions de la Galerie Derche à Casablanca et dont le texte poétique paraîtra une seconde fois à part sous le titre **Des sables à la mer** (Gallimard 1950).

En plus de Bosco, les auteurs qui ont développé ce genre sont nombreux. Il y a des inconnus, tels : **Henriette Celarie, Ladriet-Lacharrière, Nancy Georges...** Mais il y a aussi des noms illustres tels **Louis Bertrand, François Bonjean**, et surtout les deux frères **Tharaud**, devenus pendant la première moitié du siècle comme les spécialistes renommés de la littérature d'aventure et d'évasion, autrement dit de la littérature touristique. Ils sont parmi les premiers à faire du reportage un genre littéraire nouveau.

Ces deux écrivains français de renommée (Jérôme 1874-1953 et Charles dit Jean 1877-1952), étaient deux normaliens. Jérôme, l'aîné, fut le condisciple de Charles Péguy à l'E.N.S.. Ils ont inauguré leur collaboration littéraire en 1898 et ont commencé dès lors à produire une oeuvre variée où allaient dominer particulièrement le reportage et le témoignage. Leur parcours littéraire fut remarquable, voire brillant, puisqu'il fut couronné par leur entrée respective à l'Académie Française (Jérôme en 1940 et Jean en 1946).

Ils arrivèrent au Maroc en 1917 sur invitation de Lyautey. Ce geste n'était pas gratuit ; les deux auteurs s'étaient déjà distingués dans l'écriture-témoignage devenue leur spécialité ; ils venaient de publier en 1912 un ouvrage sur l'Algérie : **La Fête arabe** et un second en 1917 sur le monde juif : **L'Ombre de la Croix**. L'objectif de l'invitation était très clair ; Lyautey, surnommé alors le Créateur du Nouveau Maroc, leur demandait de réaliser des reportages écrits sur le Royaume Chérifien. C'est ainsi qu'ils passèrent six mois à Rabat, deux années dans le Sud et firent de nombreux séjours à Fès, la capitale spirituelle.

Ils ont été au Maroc en tant qu'observateurs et ont publié successivement

trois titres qui sont devenus de véritables classiques de la littérature coloniale au Maroc : **Marrakech ou les Seigneurs de l'Atlas**, (Plon, 1920), **Rabat ou les heures marocaines**, (Plon, 1921), puis **Fès ou les Bourgeois de l'Islam** (Plon, 1930).

A travers cette trilogie littéraire, les deux frères ont essayé d'esquisser une fresque de ce qu'il leur semblait être la réalité marocaine. En même temps ils entreprenaient la défense de la politique de Lyautey et de son idéologie coloniale. Ecrivains de talent, leurs ouvrages sont écrits avec art, mais sans aucune sympathie pour les Marocains et notamment pour les Marocains de confession israélite ! Ce sont particulièrement les défauts du peuple conquis qui seront retenus en priorité. On soulignera avec force éloquence la sensualité quasi primitive des colonisés, leur égoïsme et individualisme, leur goût excessif pour l'argent facile, et leur tendance naturelle à la corruption, l'hypocrisie, le mensonge, la cruauté et le fanatisme. Si l'on croit à la lettre leurs écrits, le Maroc du Protectorat fut le pays de la perversion par excellence ! Pourtant, malgré cette analyse outrée et cynique de la société marocaine, la trilogie se lit avec beaucoup de délectation, tant le talent des auteurs est grand et leur art de conter et la lague qu'ils utilisent sont sûrs.

Parallèlement à cette littérature de reportage qui axait le témoignage sur les gens des villes et de la plaine, autrement dit sur les Marocains arabophones, il y a eu le développement spectaculaire et symptomatique d'une autre littérature de «témoignage» qui s'intéressa uniquement aux montagnards, c'est-à-dire aux Marocains berbérophones. Les auteurs qui se sont spécialisés dans ce genre sont nombreux. On peut en citer : **René Maur**, **Pierre Suisse**, **Jean Peyre**, **Mme Barrère-Affre**, **René Euloge**, **Justinard** et surtout **Maurice Le Glay**.

Là encore il n'y avait pas d'innocence, car ce genre avait plutôt pour objectif de décrire la population berbère dans ce qu'elle avait de particulier, de spécifique pour persuader qu'il s'agit d'un peuple à part tout à fait différent de celui de la plaine. D'une certaine façon, il fallait démontrer que le monde berbère était totalement en rupture avec la civilisation arabo-musulmane.

Mettre en évidence cette opposition culturelle, c'était encourager la division du Maroc en deux parties nationales antagonistes. C'était là l'objectif du Protectorat qui s'était illustré par trois faits historiques : sur le plan culturel et éducatif l'inauguration en 1924 du Collège d'Azrou, dit Collège Berbère ; sur le plan spirituel la création à proximité de ce même collège du Centre de Thioumliline, et sur le plan politique la promulgation en 1930 du Dahir Berbère, Dahir qui fut rejeté par l'ensemble des Marocains.

Si cette production insiste sur l'opposition arabo-berbère, et présente les différences comme des ruptures, elle ne flatte guère les «Seigneurs de la Montagne» et encore moins leur culture, car l'homme berbère y est dépeint comme un bon sauvage. On le représente comme un individu dominé par une forte tendance à l'insoumission et à la révolte, n'ayant aucun sens de la morale et de la solidarité sociale, puisqu'il est capable de trahir autant son voisin que

tout son clan. Même son Islam est de surface. Son unique qualité cependant réside dans son amour pour le *Baroud*, autrement dit dans sa prédisposition à la guerre. En somme, cette littérature n'a vu dans le Berbère qu'une bête de guerre faite pour tuer et se faire tuer. Rendons cependant un hommage fort mérité à Justinard qui fut un militaire de carrière, très épris de la culture berbère et qui malgré des insuffisances scientifiques et méthodologiques, a essayé de faire connaître cette culture par d'intéressantes traductions et par des articles qui furent notamment publiés entre les deux guerres à Rabat, dans l'élégante revue *Aguedal*, que dirigeait Henri Bosco avec une passion étonnante.

Ce sont-là les trois principaux genres qui semblent avoir dominé la littérature coloniale du moins jusqu'à la veille de la seconde guerre. Comme nous avons essayé de le montrer, ces trois genres ont largement servi l'idéologie coloniale. Mais cela ne veut pas dire pour autant que les autres genres traditionnels étaient inexistantes.

En effet, à côté de ce foisonnement d'ouvrages qui s'appuyaient sur la «réalité», sur le vécu, et qui traitaient de voyage, d'exotisme, de reportages, de témoignages, le genre romanesque qui s'appuie essentiellement sur la fiction, sur l'imagination, bénéficiait d'une excellente place, mais sans avoir d'excellents romanciers. Dans l'ensemble, le roman colonial au Maroc s'attache à raconter l'aventure de ces «hommes nouveaux», venus recréer la civilisation dans un pays qui a reculé au Moyen-Age. Dans ce genre, le Marocain en tant que personnage, reste une ombre, un stéréotype, un étranger qui vit en marge de l'action menée par des protagonistes européens. Quant au Maroc en tant que pays, il y figure comme une toile de fond. Sur ce point le roman de la littérature coloniale au Maroc était très ressemblant au roman de littérature coloniale en Algérie et dont *L'Etranger* de Camus (n'en déplaise au grand philosophe !), reste l'exemple le plus éloquent. Les romans marocains de Bonjean constituent cependant une singulière exception.

Contrairement au genre romanesque, le genre poétique est en principe fondé sur le lyrisme, l'émotion et les bons sentiments qui chantent les vertus et les déconvenues de l'humaine condition. La littérature coloniale a produit nombre de poètes qui ont été séduits par la poésie des sites et des paysages. Mais aucun recueil, ni aucun poète de qualité n'a été retenu par l'histoire littéraire, à l'exception de deux noms : Gabriel Germain et Henri Bosco. Ce sont probablement les seuls qui aient produit une poésie d'une valeur esthétique sûre qui mérite amplement d'être enseignée aujourd'hui encore aux jeunes élèves et aux étudiants.

Quant au **genre dramatique**, il constitue le parent pauvre de cette littérature, parce que le théâtre qui est avant tout un espace de liberté, ne peut en aucun cas servir une cause injuste. Le théâtre est moral par essence et dans ce sens il a été combattu par l'administration coloniale. Quelques drames de cette littérature sont encore connus de nos jours : Pierre Froundain écrit *L'Insoumise*, le Colonel Sentier écrit *Le Mur*, Marice Le Glay *Les Pasteurs* (1929), un certain

Paluel Marmont écrit **Sud** dont l'action se passe à Tanger et dans le Sud. Cette pièce semble avoir été représentée à Paris même. Mais dans ce genre, pour trouver des oeuvres intéressantes, il faut aller les chercher du côté de Gabriel Germain qui a écrit dans les débuts des années trente trois pièces qu'il faut essayer de sauver de l'oubli : **Madame et sa Fatma** pièce comique qui met en scène un couple de Français résidant au Maroc ; **Les Aigles meurent**, pièce tragique qui met en scène des montagnards en lutte pour leur liberté et qui semble être inspirée de la résistance que Moha ou Hamou Zayani a opposé à l'occupant. Ces deux pièces ont connu deux uniques représentations à Rabat, le 31 mars et le 11 décembre 1932. **Les Aigles** par ailleurs ont été publiés dans la revue **Démocratie**, (n° I et II, avril et mai 1932). La troisième pièce, **Eboguadel** (qui signifie en berbère les aveugles), n'a pas eu cette chance. Elle a été la dernière parce que les autorités coloniales, après avoir pris connaissance de ce théâtre et du succès de ses représentations, avaient décidé d'imposer au genre la censure. Cette décision arbitraire avait totalement découragé l'auteur qui était si attaché à la liberté d'expression.

Pour compléter cette « nomenclature » relative aux formes, il ne faut pas oublier le genre épistolaire, car il est d'un intérêt capital. En effet, la correspondance fut très abondante dans les deux sens, entre les Français de France et les Français résidant au Maroc. Il en reste aujourd'hui une quantité importante de lettres écrites par des militaires, des voyageurs, des fonctionnaires, des diplomates et surtout des écrivains. On en a à peine entamé le dépeullement et certaines publications ont déjà vu le jour ou sont en voie. On a édité par le passé une partie de la correspondance de Lyautey sur le Maroc ; une partie de la correspondance de Jules Roy, de Bosco et de Germain fut éditée dans les **Cahiers Henri Bosco**. (Voir notamment le n° 25). Ces lettres intimes écrites au Maroc et sur le Maroc contiennent une richesse fabuleuse. C'est là un domaine qui reste encore vierge et qui demande à être exploré.

Tel est en gros, l'état de la Littérature coloniale au Maroc. C'est une littérature qui a certes moins d'importance que celle écrite en Algérie. Mais néanmoins elle ne manque ni de variété, ni d'intérêt, ni d'originalité. Créée et encouragée par le pouvoir colonial, elle a été dans l'ensemble à son service, et de ce fait elle est aujourd'hui, boudée, abandonnée et sérieusement menacée de mort, parce que victime de préjugés.

Pourtant l'histoire de la Littérature coloniale au Maroc retient des noms illustres, tels ceux de Gabriel Germain et de François Bonjean pour ne citer que ces deux là. Ce sont incontestablement deux grandes figures de cette littérature. Leurs productions méritent amplement d'être connues du grand public, tant leurs thèmes sont attachants et leurs factures excellentes. Ces deux auteurs que nous retenons pour l'exemple, ont curieusement beaucoup de points communs :

— Ils appartiennent à une même génération, celle qui a connu les deux guerres.

— Ils ont été tous les deux désenchantés et désillusionnés par le progrès et s'ils ont choisi de vivre au Maroc, c'est justement pour y retrouver quelque peu l'état de nature.

— Ce sont en plus deux pédagogues très attachés aux valeurs mystiques et spirituelles. Ils ont en plus accordé beaucoup d'importance à l'Islam comme religion et comme civilisation.

Ces deux auteurs d'exception se sont retrouvés ensemble au Maroc entre 1930 et 1954. C'étaient deux grands amis qui se rencontraient souvent à Rabat même, notamment dans la maison du grand romancier et poète Henri Bosco, au 14 rue Marrakech, dans le quartier de la Résidence.

Pour **Gabriel Germain**, le Maroc fut une vocation. Né à Paris au début du siècle, en 1903, il était fils unique d'un peintre paysagiste et historien de l'art peu connu qui viendra plus tard vivre et s'éteindre au Maroc. Elève surdoué, Germain réussit brillamment le concours de Normale Sup., et fut le condisciple du célèbre Pierre Henri Simon.

En 1927, il est agrégé de lettres ; il rompt avec l'Europe, et vient au Maroc où il est nommé professeur au Lycée Gourault de Rabat. Comme il souhaite vivre à l'écart de la colonie française, il s'installe à Salé à Bab Hsaïne. En 1937, il quitte la vieille ville malgré lui, et sur sa demande, il est affecté au Collège Moulay Youssef. De 1941 à 1944, on le retrouve directeur du fameux Collège d'Azrou. En 1945, il dirige le Lycée Paul Valéry de Meknès, puis revient à Rabat pour enseigner dans une classe de Lettres Supérieures jusqu'à la fin de son séjour au Royaume. En 1954 il retourne définitivement en France où il est nommé professeur à la Faculté des Lettres de Rennes, puis professeur à la Sorbonne. Signalons un trait biographique pertinent : en 1939, il épouse Odette, professeur d'anglais, intellectuelle militante, d'origine juive, qui accepte de venir vivre avec lui au Maroc. Odette va jouer un rôle de premier ordre dans la suite de la vie littéraire de l'auteur. Elle restera après sa disparition le garant de sa mémoire et le meilleur défenseur de son oeuvre. Voilà en bref ce que fut la vie du pédagogue et la vie intime de ce grand philosophe et homme de lettres.

Qu'en est-il maintenant de sa carrière littéraire ? Elle n'en fut pas moins brillante. Homme solitaire, Germain a consacré sa vie au Maroc à l'enseignement et à l'écriture. Ses oeuvres sont multiples. Certes, il est connu surtout par ses études sur la littérature helléniste : **La Genèse de l'Odyssée**, (P.U.F, 1954, l'ouvrage a obtenu le Prix de Carthage et le Prix du Maroc) et **Homère et la mystique des nombres**, (P.U.F. 1954). Mais Germain fut surtout un autobiographe préoccupé par la vie spirituelle dans les grandes civilisations : le christianisme bien sûr, mais aussi le Judaïsme, l'Islam, l'Induisme et le Bouddisme. Ses écrits personnels sont consacrés à l'itinéraire qu'il a parcouru à travers ces religions pour s'ouvrir sur l'universel. Ce parcours est éloquentement développé dans son autobiographie «spirituelle», justement intitulée **Le Regard intérieur**, publié aux Editions du Seuil en 1968.

Sa création philosophique et littéraire, bien que très diversifiée et très étendue, accorde au Maroc une place de choix, car il y est fortement présent, particulièrement dans des ouvrages qui font date dans l'histoire de la littérature coloniale au Royaume. D'abord dans les trois pièces que nous avons plus haut évoquées. Puis dans le premier essai politique, **Colonisation et Civilisation**, publié en 1934 dans le n° 10 des *Cahiers de la démocratie*. Il s'agit d'un opuscule de 80 pages dans lequel l'auteur entreprend une critique méthodique de l'impérialisme, fondée sur l'histoire, l'économie et la sociologie. Dans ses développements et argumentations, il fait preuve d'une lucidité et d'un pragmatisme quasi exceptionnels à son époque. Au moment même où personne encore en Occident ne pensait à la décolonisation, il annonçait déjà et tel un prophète la fin de la domination des peuples opprimés et conseillait aux puissances impérialistes de changer le mythe colonial par le mythe de libération, s'ils ne souhaitaient pas s'enliser dans de sanglantes guerres d'indépendance. De tous les écrits de la littérature coloniale, ce fut celui-là qui eut le plus de succès auprès des Marocains lettrés et notamment auprès des jeunes nationalistes.

Deux ans plus tard, en 1936, Germain fait paraître **Chants pour l'âme de l'Afrique**, le plus beau recueil de poésie sur le Maroc qui existe dans la littérature coloniale. Voici ce qu'on lit dans la présentation de ce recueil :

«(L'auteur) porté à la méditation solitaire, guidé par les rythmes des Psaumes et du Coran, avait-il tenté d'atteindre l'âme dans son sanctuaire intérieur pour l'inciter à la vie mystique.

La terre africaine qui a nourri Tertullien, Saint Augustin, Abbou l'Abbas Sebtî, abrité Averroès, Maïmonide, Ibn arabi, Ch. de Foucauld, porte en elle une passion d'absolu qui rien de terrestre ne peut contenter, c'est ce qui peut justifier ces Chants aujourd'hui encore, car ils s'adressent à la part la plus pure et la plus ardente de l'âme africaine».

Tout Germain est-là dans cette déclaration à la fois passionnante et émouvante. Son attachement au Maroc fut excessive, et c'est à juste titre qu'Odette sa femme m'écrivait un jour, dans une correspondance datée du 4 avril 1990 :

*«Vous me parlez, me dit-elle, de Gabriel avec tant d'estime pour ce qu'il a donné de lui-même au Maroc. C'est bien vrai que ce fut la période la plus enrichissante de sa vie. Elle a duré 27 ans, et après notre retour en France, fin 1954, son attachement et sa reconnaissance sont demeurées aussi vives. Vous connaissez, sans doute son premier recueil de poèmes : **Chants pour l'âme de l'Afrique** ? J'évoque souvent celui qui dit : «Cimetières, je serai votre hôte à la venue de l'autre nuit...».*

Le vif attachement de Germain pour la terre marocaine se lisait dans son désir d'y être enseveli après sa mort, vœu qui n'a jamais été exaucé, puisque

sa dépouille depuis 1978 repose dans le cimetière de Gouvieux dans l'Oise. Son attachement apparaît aussi et d'une façon effective dans une multitude d'articles engagés écrits pour l'émancipation du Maroc, son pays d'accueil, et contre l'intérêt de l'Administration coloniale, articles publiés dans les journaux libéraux du Maroc et de France. Encore faut-il recenser et étudier l'ensemble de ces textes politiques pour pouvoir en dégager nettement la position de l'auteur. En tout cas, vu les circonstances difficiles de l'époque, il avait beaucoup de mérite et ne manquait pas de générosité et de bravoure, car il fallait compter avec les puissants adversaires de la cause marocaine.

L'engagement de Germain se lit encore dans son unique roman, **La Lampe de Sala**, (Plon, 1958). Il s'agit d'un récit autobiographique qui raconte l'expérience du séjour passé parmi la population de Salé. L'expérience que l'auteur avait du Maroc et des Marocains l'autorisait à introduire dans son roman des personnages musulmans qui avaient leurs modèles dans la réalité. Germain était en contact avec des nationalistes. Le narrateur du roman qui ne peut être que le double du romancier, souhaite, en partageant plus étroitement les habitudes de vie du petit peuple de la Médina dont il instruit les adolescents, gagner leur sympathie. On le voit dans le roman condamner la politique du Protectorat en matière d'enseignement. On le voit aussi désapprouver le Dahir berbère, mais il ose critiquer par ailleurs et avec lucidité le repli de la bourgeoisie nationaliste sur des valeurs théologiques d'un âge révolu. Philosophe et libre penseur, Germain était un homme qui avait le courage de ses idées.

Toutefois, plus tard, après son retour en France, quand il écrit en 1968, son autobiographie déjà évoquée, **Le Regard intérieur**, il réserve au Maroc un chapitre des plus sombres et des plus sévères. Voulant critiquer les imperfections de la société marocaine, il entame son discours par ces réflexions amères qui surprennent son lecteur familial :

*«Je vais toucher, aux plaies majeures les plus invétérées, les plus infectées, d'un Orient qui vient finir sur l'océan Atlantique / ...
/. Il n'aime pas, (allusion au Marocain), que l'on mette le doigt sur ces abcès ; nous comprenons tous sa sensibilité. Mais dût-on l'irriter, dût-on paraître ingrat à l'égard de son hospitalité, c'est lui rendre service que de l'obliger à les regarder» (p. 72).*

Germain s'exprime en moraliste. Mais n'empêche, on retrouve sous sa plume et très curieusement les mêmes reproches de cupidité, de libertinage, d'égoïsme... qui étaient adressées au Marocain par des écrivains autrefois au service de la Résidence Générale. Ce long chapitre qui est d'une grande qualité littéraire, et qui de surcroît est dédié à Lawrence (d'Arabie), révèle un profond malaise. Il est d'ailleurs, entièrement écrit sur le mode sadique-anal comme on l'a certainement constaté dans ce fragment cité de la déclaration d'ouverture. Cependant, il ne faut certainement pas se hâter de mésestimer un grand homme à partir de ces jugements. Il faut supposer que l'auteur vieillissant a souffert de beaucoup de désillusions ; il a été certainement très aigri. Ce chapitre prend

curieusement l'allure d'un retour de refoulé. Une analyse psychanalytique s'impose pour rendre ce texte transparent. Ce serait contre la volonté de l'auteur qui se méfiait de Freud et de sa discipline, mais il faut le faire quand même. Quoiqu'il en soit, Gabriel Germain apparaît comme une des grandes valeurs sûres de la littérature coloniale au Maroc.

Heureusement pour cette littérature qui paraît aujourd'hui rébutante, il n'est pas le seul à y occuper un rang élevé. En effet, le 12 mai 1963 mourait à Rabat même François Bonjean, «témoin de l'Islam», ami de Germain et de Bosco. C'est encore et incontestablement une autre figure sympathique et lumineuse qui a tant enrichi le patrimoine philosophique et littéraire colonial.

Né à Lyon à la fin du siècle dernier, en 1884, il participe à la première guerre et connaît les affres de la prison ennemie. Déçu par une civilisation qui s'est servie du progrès pour concevoir et réaliser des destructions de masses, il fuit l'Europe et devient un grand voyageur, notamment dans les pays de l'Islam. Professeur de lettres françaises à l'ENS du Caire de 1919 à 1924, on le retrouve plus tard à Alep, puis à Constantinople et enfin au Maroc. Il fait un premier séjour au Royaume et vit à Fès puis à Marrakech. Ensuite il s'installe en Algérie puis aux Indes. Il sera de retour à Rabat après la fin de la seconde guerre, et s'y fixera jusqu'à la fin de ses jours.

Eminent pédagogue, il fut aussi grand poète et grand écrivain. C'est en Egypte, au Caire, qu'il va faire preuve de son talent et affirmer son intérêt primordial pour la société arabo-musulmane.

Aidé par son ami Ahmed Daïf qui lui fournit informations et documents, il écrit sa célèbre trilogie, **Histoire d'un enfant du pays**, publiée en trois parties : **Mansour**, en 1924, **El Azhar**, en 1927 et **Cheikh Abdou l'Egyptien**, en 1929.

Le thème essentiel de cette trilogie qui obtient en 1930 le Prix de la Renaissance, est de décrire le déchirement que vivait alors la société intellectuelle égyptienne entre les attrait du nouveau (al jadid) et de l'ancien (al qadime), thème essentiel, voire crucial, largement traité alors par les écrivains et philosophes égyptiens tel Taha Houssein. La grande leçon que donne l'auteur se trouve dans le 3ème volet : il faut que l'Egypte et l'ensemble du monde arabo-musulman entreprennent une rénovation de la Tradition.

Cette curiosité et cet intérêt pour la société arabe se poursuit avec la même fidélité et obstination quand Bonjean arrive au Maroc. Les écrits qu'il va donner alors vont révolutionner, et le terme n'est pas fort, la tradition de la littérature coloniale. L'auteur entreprend de décrire la société marocaine de l'intérieur, et pour ce faire, il emprunte une voie tout à fait originale ; il choisit de donner la parole à la femme. Si en Egypte il a consacré sa trilogie à raconter l'**Histoire d'un enfant du pays**, au Maroc il refait pratiquement le même projet. Il écrit une nouvelle trilogie que l'on pourrait appeler cette fois et sans risque de se tromper **Histoire d'une fille du pays**.

N'ayant pas une connaissance profonde du milieu marocain, et particu-

lièrement du milieu féminin, Bonjean cherche là encore un informateur de qualité. Il le trouve heureusement dans la personne de son épouse marocaine Lalla Touria. Eclairé par ses connaissances, son expérience et sa très vaste culture traditionnelle, il réussit à pénétrer le monde féminin du Maroc, autant dans la cité que dans le bled, et ce à une époque où la société marocaine était encore prisonnière d'un conservatisme séculaire. La stratégie et les objectifs de l'auteur étaient très clairs : «essayer de comprendre une contrée, disait-il, c'est d'abord essayer d'en comprendre les femmes». Ainsi Bonjean donne trois romans qui vont essentiellement privilégier l'héroïne marocaine qui, pour la première fois dans l'histoire de la littérature française, va accéder à l'universel. Ces romans qui déjà à cette époque revendiquaient les droits de la femme marocaine, se distinguaient légitimement par des titres féminins.

Le premier, **Les Confidences d'une fille de la nuit**, (éd. du Sablier 1930), obtient le Grand Prix de l'Empire en 1940. Sous ce titre en forme de promesse, une jeune femme, Malika, se raconte et nous ouvre le «coeur de (son) cœur». L'auteur ici s'efface derrière son héroïne qui est habituée depuis sa tendre enfance à sonder les replis les plus secrets de son âme, pour la faire parler à la première personne. L'histoire que cette jeune femme profondément croyante raconte, est celle de sa résistance farouche à ses propres faiblesses, de son combat acharné contre les ruses et les malveillances des hommes, contre tous ceux qui se dressent en obstacle sur la voie de son amour et de son bonheur. Le roman se termine par la victoire de sa ferme volonté. Au-delà de cette fable, le récit nous introduit au cœur de la société marocaine traditionnelle que l'auteur essaie de comprendre et de nous faire comprendre avec beaucoup de délicatesse et de sympathie. Mais l'un des objectifs essentiels de ce roman demeure la position que l'auteur prend discrètement dans son récit en faveur de l'émancipation de la femme marocaine.

Le second roman viendra huit ans plus tard : **Reine Iza amoureuse**. «Reine» est tout simplement la traduction française de «Malika». S'agit-il d'un retour du même personnage ? Certainement. Mais l'histoire est différente. Bien qu'Iza soit, elle aussi, en butte à l'hostilité de son entourage, son véritable combat est d'une autre nature, car musulmane et profondément attachée aux valeurs de sa religion, comme sa consœur Malika dans **Les Confidences**, elle se reproche et tremble d'aimer Bracoran, un français de confession chrétienne. S'agit-il d'un roman autobiographique qui raconte l'expérience de Bonjean et de Lalla Touria ? On ne sait. Mais il est certain que le roman s'inspire du vécu. Là encore l'histoire se termine par le triomphe de l'amour : poussé par sa passion, Bracoran ira jusqu'à la conversion ; il deviendra musulman et épousera ainsi son idole dans le respect absolu de sa foi. Nous sommes là à la pointe extrême de la rencontre.

Le dernier volet de cette trilogie est resté dans son état de manuscrit. Il n'a été publié que dix ans après la mort de l'auteur, il s'agit de **Yamna**. C'est la dernière, la plus jeune et la plus fragile des trois amoureuses. Dans cette nouvelle

fable, l'héroïne incarnera la forme la plus parfaite et la plus sublime de l'amour humain transcendé par l'amour divin. En effet le chemin qu'elle parcourt avec son aimé et très ardu et rempli à la fois de joie et de lumière, de souffrance et de déchirement. Malgré leur courage, leur espoir et leur obstination, ils échouent ensemble à réaliser sur terre le projet de leur bonheur. Mais une consolation cependant, les noces mystiques de leurs âmes s'accompliront par-delà leur existence.

Tel est le schéma d'ensemble de cette trilogie marocaine insolite dans l'histoire de la création littéraire coloniale au Royaume. Ce qui est important à saisir dans ces trois romans, c'est la dimension mystique qui double et sous-tend les dimensions érotiques et sociologiques. D'une oeuvre à l'autre se révèle une conception d'un amour courtois de plus en plus raffiné, de plus en plus spirituel, de plus en plus respectueux de la femme. La passion trouve son parfait accomplissement dans l'union des âmes en Dieu.

L'écriture de Bonjean trouve, elle aussi, son parfait accomplissement dans la forme originale qu'elle crée dans le genre romanesque colonial auquel elle redonne franchement ses lettres de noblesse. Mais cette écriture relative au Maroc a pris également d'autres formes. En effet en marge de la trilogie romanesque, l'auteur a publié **Les Contes de Lalla Touria; Oiseau jaune et Oiseau vert**, (Casablanca, éd. Atlantides, 1952). C'est un ensemble de 13 contes qui viennent d'être réédités par les soins de M. Luccioni de Rabat, et qui sont pleins de poésie et de charme. Ce sont autant de variations sur l'aventure amoureuse et l'humanisme de Malika, héroïne des **Confidences**. Cette oeuvre se présente en quelque sorte comme le complément de la trilogie féminine.

De plus, en sa qualité de grand voyageur, Bonjean n'a pas négligé non plus le genre touristique. On lui doit au moins deux titres qui essaient de donner une représentation honorable du Maroc : **L'âme marocaine vue à travers les croyances et la politesse**, (publiée à Rabat par l'Office Marocain du Tourisme en 1948), puis **Au Maroc en roulotte**, (Hachette, 1950). Cet ouvrage obtient dans la même année le Prix du Royaume.

Toutefois l'on serait injuste et incomplet à l'égard de Bonjean, si l'on n'évoquait pas l'ensemble de ses articles publiés dans différentes revues, tels **Les Cahiers du Sud**, et dans lesquels l'auteur a entrepris la défense de l'Islam et prêché avec constance et conviction, la concorde, le rapprochement nécessaire entre l'Occident et l'Orient dans ce qu'ils ont de meilleur.

Indubitablement, l'oeuvre littéraire de Bonjean relative au Maroc, par son honnêteté et l'esprit de rigueur qui l'anime, se présente comme un des meilleurs documents qu'un chercheur puisse avoir de nos jours sur l'état de la société traditionnelle marocaine à l'époque du Protectorat. Et c'est justement ce qui explique que ses ouvrages qui font partie intégrante de la littérature coloniale ont échappé à l'oubli, du moins partiellement. En effet, **Les Contes** ont été republiés aux Editions Edicef, dans la collection «Fleuve et Flamme» en 1988, et **Les Confidences** aux Editions Kalila Wa Dimna (Rabat) en 1990.

L'objectif du projet d'écriture de Bonjean consistait à aider les Marocains à repérer ce qu'il y avait de meilleur dans la Tradition pour le sauvegarder. Mais ce message n'a pas été retenu ; il arrivait à un moment où les Nationalistes menaient un combat acharné contre l'archaïsme de la Tradition que l'on rendait responsable de l'obscurantisme et de la regression de la société. On donnait la priorité au renouveau et à la modernité. Quoiqu'il en soit, les opinions de l'écrivain, aussi bien que son action, montrent combien il fut très engagé dans les problématiques du Royaume. Contrairement à beaucoup de ses confrères, c'était le Maroc et son devenir qui l'intéressaient en premier, et c'est la raison pour laquelle Bonjean n'a pas fui le Maroc, ni pendant les événements provoqués par le Nationalisme, ni après l'Indépendance. Il a préféré délibérément vivre et mourir à Rabat. Signalons que Bonjean a au moins laissé un héritier en la personne de Ahmed Sefrioui. Tout son art en effet a été récupéré par notre premier et illustre écrivain d'expression française qui, dans ses remarquables et sublimes romans, a continué l'oeuvre de son maître et prédécesseur, au grand bonheur des lecteurs avides de ce genre d'écriture.

Que dire en guise de conclusion sur la littérature coloniale au Maroc ? Tout le long de cette étude, nous avons tenté de décrire au lecteur ses formes et ses caractéristiques et de lui évoquer aussi deux de ses grands représentants. L'objet premier de cette étude qui n'a aucun caractère polémique est justement de persuader notre lecteur que cette littérature, malgré certains aspects négatifs et malgré la mauvaise intention qui fut souvent à l'origine des créations de ses auteurs, reste une littérature importante et utile qui ne mérite pas d'être victime de ce qu'un de ses critiques les plus fidèles appelle un «regrettable oubli». Le chercheur ambitieux qui est à l'affût de sujets susceptibles d'intéresser le public, doit passer par-dessus les préjugés tenaces qui s'opposent à sa réhabilitation, car il trouvera dans son patrimoine un foisonnement de textes dont l'examen peut encore avoir un impact considérable, aussi bien sur les sensibilités et sur l'imagination, que sur la représentation et la compréhension d'un récent passé, certes douloureux, mais bien riche en événements et en enseignements.

Rabat, le 20 Janvier 1996

BIBLIOGRAPHIE

- A. ARNAUD, J. DEJEUX, A. MEMMI, A. ROTH, **Anthologie des Ecrivains Français du Magreb**, Présence Africaine, 1969.
- Cahiers Henri Bosco**, n° 25 (1985), n° 28 (1988), L'Amitié Henri Bosco, Diffusion Edisud.
- LAHJOMRI ABDELJLIL, **L'Image du Maroc dans la littérature française (de Loti à Montherlant)**, SNED, Alger, 1973.
- Maroc : Littérature et peinture coloniales (1912-1956)**, actes du colloque tenu à Rabat les 26-27 et 28 octobre 1994, Publications de la Faculté des Lettres de Rabat, 1996.
- MICHEL VIVIANE, **Les Confidences d'une fille de la nuit de F. Bonjean : Une nouvelle vision de la femme musulmane dans la littérature française**, mémoire de DES soutenu à la Faculté des Lettres de Rabat en 1990.
- SEBBAGH RACHID et OUENI STEPHANE, **Le Maroc dans le regard de l'autre**. Anthologie, Ed. BCM, 1994.
- SAOUD IMANE, **L'Afrique dans l'oeuvre de Bosco**, mémoire de DES soutenu à la Faculté des Lettres de Rabat, 1991.

HISTOIRE ET IMMANENCE AUTOUR DE LA NOTION DE «GENRE» (POSITION DE L'«ECOLE DE PARIS»)

Nizar TAJDITI

Faculté des Lettres — Tetouan

Dans son ouvrage *Récit et commentaires de la tentation de Jésus au désert*⁽¹⁾, L. PANIER voulant approcher le discours interprétatif, avait pris le texte de la 'Tentation au désert' dans l'*Evangile selon Saint Matthieu*, comme point de repère, c'est-à-dire comme 'récit de référence'. «Il s'agit, dit l'auteur, de retenir ce que tous les commentaires ont retenu comme récit des tentations de Jésus. Délimité clairement par les déplacements de Jésus, ce récit est situé entre le baptême de Jésus par Jean-Baptiste et la première prédication» (p. 21).

Or, si nous faisons abstraction du titre qu'il porte — et selon lequel il est classé dans un ordre synoptique dans l'*Evangile selon Saint Luc* — ce même texte peut être pris comme texte de référence non seulement au récit de la 'Tentation au désert' (de l'acquisition des modalités nécessaires à Jésus pour l'accomplissement de sa mission), mais aussi au rapport entre le désert et la prophétie par exemple.

Autrement dit, le texte en question n'est pas *a priori* le récit de la tentation de Jésus au désert. Il peut être lu comme le récit d'autres thèmes possibles, étant donné le nombre considérable des isotopies qu'il comporte potentiellement.

PANIER s'est basé sur la notion théorique de '*motif*', élaborée par les Formalistes russes au début de notre siècle, pour instaurer le susdit récit évangélique de Matthieu comme texte de référence, comme texte développant le motif de la tentation de Jésus au désert. Ceci est implicitement reconnu par l'auteur: «Que ce récit soit le topique de tous les commentaires ne lui assure pas une position d'origine dans la clef, car le récit de Matthieu ne nous intéresse que comme récit de tentation» (p. 20). C'est dire que c'est le choix du motif en question qui a dicté et orienté la sélection des commentaires, et non pas le contraire comme semble affirmer PANIER.

Ceci dit, l'étude du discours interprétatif contraignait les deux choix : le choix du motif et celui des commentaires. C'est-à-dire, on n'a pas à craindre que les critères qui ont régi le choix du 'récit de référence' soient externes. L'analyse confirme ou infirme par la suite les deux choix.

(1) Paris, Ed. Cerf, 1984 (1976).

En outre, avant même que l'analyse sémiotique soit effectuée, le choix des commentaires a été contrôlé par l'auteur grâce à un outil méthodologique d'ordre poético-historique. En fait, pour s'assurer de la représentativité des commentaires choisis, il fallait avoir recours à une méthode qui ferait l'économie d'une analyse exhaustive de tous les commentaires parus en français sur le récit matthien de la tentation, depuis que les Français commentent le Nouveau Testament dans leur langue.

Cette méthode est la *poétique* dont le travail d'ARISTOTE connu sous le même nom a jadis tracé les premiers jalons⁽²⁾.

LA POETIQUE ENTRE LE STRUCTURALISME ET LA PRAGMATIQUE :

Après avoir été éclaboussé et remplacé pendant des siècles par d'autres disciplines et d'autres termes (Rhétorique, Art, Histoire littéraire, etc.), le terme '*poétique*' a été à nouveau relancé par les Formalistes russes au début de notre siècle, puis par les poéticiens structuralistes français aux années soixante. Cependant, les uns et les autres se sont allés loin dans leur défense de l'autonomie de la *littérature*. La concevant dans une autonomie absolue au nom d'une spécificité trans-historique irréductible, ils l'ont traitée, en dehors de tout contexte environnant, avec les termes d'*opacité*, d'*holisticité*, d'*autotélisme*, de *littérarité*⁽³⁾.

Ainsi en s'attachant surtout au structuralisme, ces nouveaux poéticiens ont finalement érigé le synchronisme en un nouveau déterminisme dogmatique⁽⁴⁾, semblable dans son principe à celui des critiques marxistes orthodoxes. Or dans le cas des Formalistes russes, l'analyse minutieuse des «œuvres en elles-mêmes» — conduite pompeusement sous le signe de la spécificité littéraire et de l'autonomie textuelle — va leur démontrer que la dite spécificité ou autonomie n'est qu'un mirage dans le désert des signes, ou plutôt, qu'elle «n'a d'existence qu'historiquement et culturellement circonscrite, mais pas universelle ou éternelle ; et que du coup la définition par l'autotélisme est intenable. Paradoxalement, ce sont justement leurs présupposés romantiques qui conduiront les Formalistes à des conclusions antiromantiques»⁽⁵⁾.

(2) Son programme, ARISTOTE l'avait défini dans sa *Poétique*, 47a 8-13, en ces termes : «Nous allons traiter de l'art poétique en lui-même, de ses espèces, considérées chacune dans sa finalité propre, de la façon dont il faut composer les histoires si on veut que la poésie soit réussie, en outre du nombre et de la nature des parties qui la constituent, et également de toutes les autres questions qui relèvent de la même recherche».

(3) Ils voulaient à tout prix arracher la théorie littéraire à l'historicisme encombrant qui avait fini par ranger la littérature parmi les archives et les documents de l'historien.

(4) Cf. Catherine KERBRAT-ORECCHIONI, *Le Texte littéraire : non-référence, auto-référence, ou référence fictionnelle ?*, *Texte* (Toronto), 1, 1982, 31-32.

(5) T. TODOROV, *Critique de la critique*, Seuil, 1984, 34 ; cf. aussi p. 20 : «C'est que leurs spéculations théoriques sont étroitement liées à la pratique contemporaine des futuristes, elles en sont à la fois la conséquence et le fondement ; et la partie la plus extrême de cette pratique est le *zau*, langage transmental, pur signifiant, poésie des sons et des lettres en deçà à des mots».

Issue d'un nouvel horizon de pensée attentif aux phénomènes d'interaction sociale, la pragmatique a considérablement changé les perspectives. C'est sûrement grâce à elle que nous serons mieux écoutés aujourd'hui quand nous parlerons d'une *poétique historique*. Mais, au temps de l'expansionnisme de la littérature structuraliste et de la dictature du signifiant, à savoir au début des années soixante, la règle à suivre était qu'une œuvre devait être approchée dans la clôture de ses signes linguistiques, indépendamment de son contexte, des modalités de sa réception et de tel ou tel impact qu'elle pouvait avoir sur un lecteur éventuel. «L'intervention interprétative du destinataire était laissée dans l'ombre, quand elle n'était pas carrément éliminée, parce que considérée comme une impureté méthodologique»⁽⁶⁾.

Déjà en 1977 lors du Colloque organisé par le C.R.L.S de l'Université Lyon II sur les *Stratégies discursives*, Siegfried SCHMIDT indiquait pertinemment d'un point de vue formel que la littérature fonctionne comme toute communication culturelle dans un cadre socialement conventionnel :

«Littéraire» = ce que les partenaires de communication engagés dans des processus de communication par l'intermédiaire de textes tiennent pour littéraire sur la base des normes poétiques valides pour eux dans une telle situation de communication»⁽⁷⁾.

Quant au contenu de cette communication, il est variable selon les cultures, les époques, le transfert stratégique des textes d'un genre à un autre, ou d'un domaine à un autre, comme en témoigne dans la littérature arabe classique l'exemple probant du passage des *locutions* d'Al-Hajjâ b. Youssef al-Taqâfi du discours politique au discours littéraire.

QU'EST-CE QU'UN GENRE DE DISCOURS ?

A partir de l'héritage rhétorique d'ARISTOTE, la *poétique contemporaine* a affiné davantage le concept de *genre*. Ce dernier retient des textes leur *généricité*, leurs caractéristiques fondamentales (potentielles et actualisables, invariantes et constantes) : thématique, formelle, syntaxique, phonique, situationnelle, etc. En fait, la *généricité* «apparaît bel et bien constitutive de tout discours, de l'échange de politesse à l'insulte, en passant par la causerie politique au coin du feu»⁽⁸⁾.

Du point de vue de la production, le recours systématique dans chaque communauté culturelle à des topoï et à des formes toujours liés aux mêmes

(6) Umberto ECO, *Lector in fabula, ou la Coopération interprétative dans les textes narratifs*, Paris, Grasset, 1985 (1979), p. 8, v. également p. 10 où l'auteur dresse un tableau critique de la méthode greimassienne.

(7) La Communication littéraire, *Stratégies discursives*, Lyon, Pul, 1978, p. 23 ; cf. également D. MAINGUENEAU, *Le contexte de l'œuvre littéraire*, Paris, Seuil, 1993.

(8) Laurent JENNEY, Poétique et représentation, *Poétique*, 58 (Archéologie du Poétique), 1984, p. 173.

contextes sociaux ritualisés, fait que ceux-ci deviennent progressivement des *traits canoniques*, une *norme imposée* à tout texte⁽⁹⁾. C'est ainsi que chaque texte appartient à un genre culturel.

De même, du point de vue de la réception, les textes créent au fur et à mesure qu'ils circulent dans la communauté selon des structures et des modalités spécifiques, un *horizon d'attente* qui est «un ensemble de règles pré-existant pour orienter la compréhension du lecteur (du public) et lui permettre une réception appréciative»⁽¹⁰⁾.

Le genre 'pur' n'a par pour autant une existence réelle, il est plutôt un schéma abstrait que seule son actualisation par le texte, lors de sa production, rend tangible et visible en comparaison d'autres modèles. Le genre pur n'est certes qu'une construction méthodologique de la théorie visant à nommer (ou à appréhender) une réalité textuelle, mais celle-ci reste plus ou moins fluctuante à partir de ses propres éléments textuels.

Il faut distinguer en effet avec TODOROV le *genre théorique*, qui est l'enfant de la déduction théorique des traits génériques parsemés dans les textes, du *genre historique*, qui est le genre traditionnel identifié historiquement comme tel par un nom⁽¹¹⁾.

Chaque texte cherche, pour les besoins de sa réception, à actualiser le genre le mieux adéquat à son propos et le plus propice au contexte social auquel il est intimement lié, que ce soit d'une manière positive ou négative⁽¹²⁾.

Ainsi, en reconnaissant le genre que de nombreux textes s'efforcent à imiter, nous arriverons à savoir approximativement lesquels de ces textes sont plus représentatifs par rapport à l'ensemble.

GREIMAS et la notion de genre :

PANIER a eu recours au concept de genre ; cela n'a pas été toutefois sans hésitation : la preuve en est les guillemets avec lesquels il a encadré le terme : «Ces textes ont été volontairement choisis pour représenter la plus grande diversité de 'genres' et d'époques»⁽¹³⁾.

(9) TODOROV, *Les genres du discours*, Seuil, 1978, p. 49.

(10) Hans Robert JAUSS, *Littérature médiévale et théorie des genres*, *Poétique*, 1, 1970, pp. 81-82.

(11) Introduction à la littérature fantastique, Seuil, 1976, p. 10 ; v. aussi P. Van TEIGHEN, *La Question des genres littéraires*, *Helicon*, 1, 1938, pp. 95-101 et J. POMMIER, *L'Idée de genre*, *Publications de l'Ecole normale supérieure*, Section des Lettres, II, 1945, pp. 47-81.

(12) Positivement, lorsque le texte applique en gros les règles du genre. Négativement, quand le texte par déviation voulue s'écarte du modèle qu'impose la norme du genre (En se déviant, le texte actualise autrement le genre). Cf. Collectif, *Les genres et l'histoire : 18^e-19^e siècles*, Paris, Les Belles Lettres, 1980, 203 p.

(13) PANIER 1984 : 7. Puis, encore, cette affirmation solennelle que l'analyste ne suivra pas les voies d'une approche poétique : «Il ne s'agit pas de construire théoriquement les lois d'un genre pour en déduire ensuite les textes particuliers» (pp. 7-8).

La gêne des sémioticiens de l'*Ecole de Paris*⁽¹⁴⁾ à l'égard de la notion de genre nous est bien familière depuis les premières observations critiques de GREIMAS à ce propos. Dès son ouvrage *Sémiotique et sciences sociales*, il remettait en question la validité et la nécessité méthodologique d'une telle notion :

Je n'arrive pas à me décider entre deux attitudes qui me paraissent également sages. La première, celle de Pierre MARANDA, consiste à dire que le concept de genre n'est point pertinent pour les recherches structurales. L'affirmation me paraît vraie, mais c'est également une solution facile. La seconde attitude est résumée par Georges DUMEZIL lorsqu'il dit, sous forme de paradoxe, avoir passé toute sa vie à chercher à comprendre la différence entre le mythe et le conte et n'y être pas encore parvenu⁽¹⁵⁾.

Pour GREIMAS, le genre relève d'une théorie et d'une paratypologie ethno-culturelles de caractère non scientifique. Ce terme ne sert pas à décrire ou à cerner les propriétés formelles d'un texte, mais reflète plutôt une fonction idéologique dans la communauté où il est utilisé. Dans ce sens, «l'étude de la *théorie des genres*, caractéristique d'une culture (ou d'une aire culturelle) donnée, n'a d'intérêt que dans la mesure où elle met en évidence l'axiologie sous-jacente à la classification»⁽¹⁶⁾.

Ceci n'est que partiellement vrai, surtout en ce qui concerne la réception culturelle du genre. Car, si nous relèguons la description de cette réception à la charge d'une théorie scientifique — qui serait plus ou moins indifférente aux influences subjectives de l'axiologie du groupe social auquel appartient le genre et qui devrait en plus réviser la validité scientifique de la théorie culturelle des genres produite par ce groupe — les critiques de GREIMAS deviendraient peu soutenables.

D'ailleurs, constatant paradoxalement qu'un grand progrès scientifique peut être espéré à partir de théories des genres, GREIMAS n'exclura pas la notion de genre de sa terminologie⁽¹⁷⁾, pensant pouvoir l'exploiter au profit d'une typologie structurale (= scientifique) des discours :

Mme Elli MARANDA a, au contraire, montré tout l'intérêt qu'il y aurait à examiner attentivement des distinctions, et, éventuellement, des définitions des genres, telles qu'elles se présentent, pour ainsi dire naturellement, dans le cadre de chaque communauté culturelle étudiée, et à tenter, ensuite, d'établir une typologie

(14) Nom consacré depuis la parution de leur ouvr. collectif *Sémiotique. L'Ecole de Paris*, J. Coquet & alii. éds, Hachette, 1982.

(15) Seuil 1976a : 210 (Nous soulignons).

(16) GREIMAS 1979 : 164 (C'est l'auteur qui souligne).

(17) Ainsi à notre étonnement, nous la trouvons dans le premier tome du *Dictionnaire* 1979 : 164.

générale des genres qui ont été préalablement soumis à des filtres culturels⁽¹⁸⁾.

Il va même jusqu'à dire qu'une analyse sémiotique peut finalement contribuer à cerner les caractéristiques spécifiques des genres : une manière détournée de reconnaître, donc, et la validité des recherches effectuées dans le domaine des genres littéraires (*Poétique*) et l'opérativité du concept de genre hors de ce domaine (*la Sémiotique*, p. ex.) :

Dans la mesure où les critères distinctifs des genres émergent en même temps que les niveaux ou les champs d'analyse autonomes que nous réussissons à reconnaître, on peut dire que les progrès de l'analyse sémiotique dans son ensemble nous rapprochent en même temps de l'élaboration de la typologie des genres⁽¹⁹⁾.

En réalité, une autre raison d'ordre stratégique conduit GREIMAS à soutenir une telle hypothèse : affirmer la primauté de l'analyse structurale et sémiotique sur l'analyse poétique et historique, en avançant la possibilité de mieux définir le genre en recourant à la description minutieuse de la 'structure' du texte⁽²⁰⁾.

A vrai dire, la proposition de GREIMAS n'est pas neuve. Elle figurait déjà chez Vladimir PROPP⁽²¹⁾. La différence entre le père de l'analyse structurale des contes et GREIMAS est que le premier ne reconnaissait là qu'un principe heuristique permettant d'avancer la recherche, et ne voyait dans l'analyse formelle qu'une approche préliminaire à une étude historique plus fonctionnelle que statique des contes : «L'étude structurale de tous les aspects du conte est, nous dit PROPP, la condition nécessaire de son étude historique»⁽²²⁾. Alors que le second faisait appel à l'idée par principe doctrinale, l'*immanence*⁽²³⁾. Jean PETITOT a eu raison de qualifier ce point de vue de GREIMAS de

(18) 1976a : 214.

(19) 1976a : 215-216.

(20) GREIMAS dirait : «Procédons à l'analyse formelle de la signification des textes en faisant abstraction de leur enracinement dans une *tradition*, et laissons le soin de leur classification aux éléments purement structurels qui composent leur tissu».

(21) Cf. sa *Morphologie du conte*, Seuil, 1965-1970, p. 13 : «Les contes merveilleux possèdent une *structure* absolument particulière, que l'on sent aussitôt et qui définit cette catégorie (= genre), même si nous n'en avons pas conscience... si la division est inconsciemment fondée sur la *structure* du conte, qui n'a pas encore été étudiée et qui n'est même pas définie, la classification des contes doit être revue dans son ensemble. Il faut qu'elle traduise un système de signes formels, structuraux, comme c'est le cas dans d'autres sciences. Et pour cela, il faut étudier ces signes». V. J. HANKISS, Les Genres littéraires et leur base psychologique, *Hélicon*, 2, 1939, pp. 117-129.

(22) *Morphologie*, p. 25. Dans son art. Les Transformations des contes merveilleux, paru la même année que sa *Morphologie* (1928), PROPP écrivait aussi : «il faut considérer le conte en rapport avec son milieu, avec la situation dans laquelle il est créé et dans laquelle il vit. Ici la vie pratique et la religion, dans le sens large du mot, auront la plus grande importance» (*Ibid.*, 176).

(23) C'était l'époque de la domination du structuralisme comme école philosophique dans l'analyse des formes narratives.

structuralisme formaliste face au *structuralisme dynamique* de son prédécesseur PROPP⁽²⁴⁾,

Nous trouvons, toutefois, ce formalisme radical à l'intérieur même de la conception de la *poétique* dans les travaux de certains Formalistes russes sur le genre littéraire⁽²⁵⁾.

Si maintenant nous examinons la dernière proposition de GREIMAS, inspirée par PROPP, nous remarquerons qu'elle n'est pas au fond moins contestable que les précédentes. L'argument de poids que nous pouvons lui opposer vient de la mythologie : deux textes qui ont quasiment la même structure discursive seront pourtant différemment reçus dans une communauté culturelle donnée, car les critères et les modes d'approche que celle-ci met en oeuvre sont d'ordre *pragmatique* et *situationnel*. Ils relèvent de son savoir encyclopédique, du contexte interactionnel et de son système axiologique⁽²⁶⁾.

Partant de quelques postulats philosophiques qu'il érige ensuite en principes méthodiques, et se heurtant à la réalité complexe de la réception des textes concrets, GREIMAS se contredit souvent dans ses positions méthodologiques :

L'étude d'un texte littéraire pose inévitablement, de manière plus ou moins explicite, le problème de sa situation dans l'univers littéraire sociolectal. Si l'on entend, par 'univers littéraire' des classifications de textes correspondant aux dimensions des aires culturelles... et ayant la forme d'ethno-taxinomies qui articulent... l'ensemble des discours en classes et sous-classes et qui régissent, par la suite, les productions ultérieures des nouveaux discours; et si l'on pense que ces classifications 'naturelles' peuvent être explicitées et présentées comme des 'théories de genres', on voit qu'en essayant de décrire un texte littéraire comme celui de Maupassant, il faut commencer par se demander dans quelle mesure

(24) *Morphologie du sens*, Puf, 1985, p. 27.

(25) JAUSS a rappelé que : «La théorie formaliste s'est imposée de décrire l'histoire des genres littéraires uniquement comme un processus immanent à l'évolution et à la substitution de systèmes littéraires. Elle a fait abstraction de la fonction des genres littéraires dans l'histoire sociale et la réalité quotidienne, elle a exclu les problèmes de la réception et de l'influence sur le public contemporain et ultérieur, considérant que ce serait du sociologisme et du psychologisme» (1970 : 97).

(26) Ainsi, comme nous explique Pierre SMITH dans son article *La Nature des mythes*, *Diogenes*, 2, 1973, p.105 : «si on demandait à un ethnologue de dire la façon la plus empirique dont il peut s'y prendre pour reconnaître les mythes parmi tous les récits que la société qu'il aborde lui propose, et notamment pour les distinguer des récits historiques d'une part, et des contes d'autre part, il dirait, je pense, qu'à la différence de ces derniers qui sont présentés comme de pures inventions propres à égayer l'esprit, les mythes sont tenus pour vrais alors que, contrairement à ce qui se passe pour les récits historiques, ils ne contiennent pourtant, aux yeux de l'observateur étranger, pratiquement rien de vraisemblable».

on ne décrit pas, en même temps, un texte 'réaliste' de la prose française du XIX^e siècle⁽²⁷⁾.

En fait, d'une part, GREIMAS se rend compte qu'aucune approche du texte ne peut occulter sa dimension générique sinon son choix, dénué ainsi de toute représentativité, frôle l'arbitraire ; la possibilité de généraliser les résultats obtenus à partir de l'analyse d'un seul texte reste sans espoir d'autre part, à moins de recourir à une notion comme celle de *genre*, tant soit peu désirable.

LES MARQUES DU GENRE AUX DEUX PLANS DU TEXTE ENONCIATION/ENONCÉ.

Défini comme une *structure dynamique*, le genre, «à la fois idéal et réel»⁽²⁸⁾, défie tout principe réducteur, comme celui d'immanence, en marquant son empreinte sur les deux niveaux du texte : *Enonciation/Enoncé*.

— Au niveau de l'*énonciation*, la notion de genre est essentielle. Chaque texte renvoie à sa propre énonciation. Celle-ci peut être approchée, d'abord, au *sens étendu*, comprenant les divers paramètres inhérents à l'acte énonciatif, à savoir :

— «les protagonistes du discours (émetteur et destinataire (s)) ;

— la situation de communication :

* circonstances spatio-temporelles ;

* conditions générales de la production / réception du message : nature du canal, contexte socio-historique, contraintes de l'univers de discours, etc»⁽²⁹⁾.

Mais s'agissant d'un texte ancien dont il est improbable de saisir ou de reconstituer les éléments d'un schéma conçu pour un acte linguistique effectif et réel, il faudrait prendre l'énonciation au *sens métaphorique* et adapter les termes à une énonciation historique. Entre une conception sémiotique décidément formaliste et réductrice qui conçoit l'énonciation comme un simple 'simulacre', et une conception poétique assez vague qui situe ses pôles entre un auteur et un lecteur, il conviendrait de proposer une autre formulation pour le *texte historiographique* ou historique.

Dans une énonciation historiographique :

i - l'acte d'énonciation est lui-même investi de sens, un sens plurivoque : c'est à l'intérieur d'une institution (médiévale, p. ex.) du savoir que l'acte est réalisé ; cet acte met en scène une certaine conception du savoir où les questions de la propriété de l'oeuvre, des canaux de sa transmission, de l'autorité du savant maître sont fondamentales, bien qu'elles demeurent — il est vrai — problématiques en grande partie ;

(27) Maupassant. *La sémiotique du texte : exercices pratiques*, Seuil, 1976b, p. 10.

(28) PETITOT 1985 : 25.

(29) KERBRAT-ORECCHIONI, *L'énonciation, De la subjectivité dans le langage*, Paris, A. Colin, 1980, 30-31. Sur une typologie énonciative des textes, v. André PETITJEAN, *Les Typologies textuelles, Pratique*, 62, 1989, pp. 99-104.

ii - le temps et l'espace (un ailleurs et un autrefois) ajoutant à ce statut générique de l'acte une dimension véridictoire : ce qui nous vient d'autrefois, est une source de sens, d'information, et de 'vérité historique' ;

iii - les responsables d'un tel acte, historiens ou rapporteurs, interviennent comme témoins oculaires, non seulement d'un événement, mais aussi d'un temps, d'un lieu, et d'une grandeur.

Ensuite, l'énonciation peut être approchée au *sens restreint* du terme, c'est-à-dire à partir de «traces linguistiques de la présence du locuteur au sein de son énoncé, les lieux d'inscription et les modalités d'existence de ce qu'avec Benveniste nous appellerons 'la subjectivité dans le langage'»⁽³⁰⁾.

A ce niveau aussi, les observations déjà formulées (en haut) s'appliquent (ici). Le texte renvoie à une tradition de formes discursives impliquant un certain *pacte de lecture*⁽³¹⁾. Comme nous le montrerons ailleurs, l'instance d'énonciation globale de la *Sîra* d'Ibn Hišam, par des procédés multiples — dont la référence à des témoins oculaires proches du Prophète, le crédit accordé par Ibn Ishâq aux récits rapportés, l'appel à un univers de croyance commun et à un savoir partagé —, rappelle incessamment au lecteur qu'elle tient autant que lui à certaines valeurs ; donc, à ce que le type de pacte de lecture qu'ils ont négocié ensemble — le *pacte historiographique* — soit respecté.

— Au niveau de l'énoncé, la notion de genre n'en est pas moins indispensable. Il suffit de signaler ici un aspect significatif du texte ancien : l'*aspect philologique*. Des lexèmes comme *ḥabar* ou *ḥadîth* (= tradition), par ex., qui ne connotent pas dans la *langue arabe historique* ce qu'ils dénotent aujourd'hui dans la langue arabe contemporaine (= une simple communication), révèlent l'appartenance du propos qu'ils nomment à un genre de discours particulièrement valorisé, voire même sacralisé, dans la tradition cognitive arabo-musulmane.

La philologie nous permet alors de dépister l'histoire du mot, des familles de mots, l'usage fossilisé de quelques uns ou l'évolution d'autres, et ainsi elle nous renvoie à la mémoire d'une langue, aux traditions culturelles d'une société, à ses codes symboliques ou artistiques, à ses institutions primitives, etc.⁽³²⁾.

(30) KERBRAT-ORECCHION 1980 : 31.

(31) Perspective de recherche dont les travaux de Philippe LEJEUNE sur le genre autobiographique ont largement montré l'utilité, cf. son ouvr. *Le pacte autobiographique*, Seuil, 1975, 44-45 : «La problématique ici proposée n'est donc pas fondée sur un rapport, établi de l'extérieur, entre le hors-texte et le texte. Elle n'est pas fondée non plus sur une analyse interne du fonctionnement du texte, de la structure ou des aspects du texte publiée ; mais sur une analyse, au niveau global de la *publication*, du contrat implicite ou explicite proposé par l'auteur au lecteur, contrat qui détermine le mode de lecture du texte et engendre les effets qui, attribués au texte, nous semblent le définir comme une autobiographie. Le niveau d'analyse utilisé est donc celui du rapport *publication/publié*, qui serait parallèle, sur le plan du texte imprimé, au rapport *énonciation/énoncé*, sur le plan de la communication orale».

(32) Le médiéviste qu'est ECO reconnaît l'importance majeure de cette dimension philologique =

GENRE ET ERUDITION HISTORIQUE :

Travaillant sur des textes modernes (contes ou nouvelles pour la plupart) dont les éléments philologiques et historiques s'imposent beaucoup moins que dans une *sémiotique littéraire*, GREIMAS prenait l'option d'ignorer cet arrière-plan constitutif du texte ancien :

Tout en étant d'accord, en principe, avec Lévi-Strauss lorsqu'il dit, à propos de l'analyse de Propp, que la description de l'univers du conte populaire ne peut être complète du fait de notre ignorance du réseau axiologique culturel qui le sous-tend, nous ne pensons pas que cela constitue l'obstacle majeur pour sa description, qui, tout en restant incomplète, peut être pertinente⁽³³⁾.

Or, cette prise de position est impensable pour les textes anciens, comme le soulignait TYNIANOV : «L'étude soi-disant «immanente» de l'oeuvre en tant que système et qui ignore ses corrélations avec le système littéraire, cette étude est-elle possible ? La critique littéraire l'utilise fréquemment et avec succès pour les oeuvres contemporaines, parce que les corrélations d'une oeuvre contemporaine sont un fait préalablement établi que l'on sous-entend toujours»⁽³⁴⁾.

Même, le Groupe d'Entrevignes qui est constitué de biblistes de renom (tels un J. DELORME ou un J. CALLOUD), et qui doit être fort conscient du fait que la couche philologique et historique du texte religieux est incontournable, suivait docilement la position de GREIMAS : «Ce sont... les *conditions internes* de la signification que nous cherchons. C'est pourquoi l'analyse doit être *immanente*. Cela veut dire que la problématique définie par le travail sémiotique porte sur le fonctionnement textuel de la signification et non sur le rapport que le texte peut entretenir avec un référent externe»⁽³⁵⁾.

Pourtant à y regarder de près, deux remarques importantes nous montrent que cette adhésion bien réfléchie est chez eux stratégique plutôt que tactique :

I. Le principe d'immanence greimassien libère provisoirement ces biblistes — ouverts aux investigations des sciences du langage — d'un débat ennuyeux

= pour une lecture '*sensibilisée*' de ce qu'il appelle l'«oeuvre d'art du passé», in *La structure absente*, Paris, Mercure de France, 1972, 164-165 : «Le lecteur sensible qui veut cueillir l'oeuvre d'art du passé dans toute sa fraîcheur ne peut pas se limiter à la lire à la lumière de ses propres codes (déjà nourris et redimensionnés par l'apparition de l'oeuvre et par son assimilation par la société) mais il doit retrouver l'univers rhétorique et idéologique ainsi que les circonstances de communication d'où l'oeuvre est issue. La philologie remplit cette tâche d'information qui nous amène à retrouver l'oeuvre dans les conditions de nouveauté où elle est née, au lieu de la disséquer dans une lecture académique ; elle nous permet de recréer la situation de virginité dans laquelle se trouvait celui qui l'a approchée le premier».

(33) 1966 : 185.

(34) *Théorie de la littérature*, Seuil, 1965, p. 124.

(35) *Analyse sémiotique des textes. Introduction : Théorie-Pratique*, PUF, 1979, p. 8.

et lourd de conséquences, tant sur le plan méthodologique que sur le plan théologique. Il concerne les conditions historiques et philologiques du texte biblique (problème des sources, problème de la traduction, etc.). Ce principe leur permet de déplacer la discussion vers un lieu neuf où beaucoup de problèmes sont posés sous un nouvel éclairage, à commencer par celui de l'interprétation du texte biblique, et partant sont mieux traités. PANIER l'a expliqué récemment à propos de l'Evangile de l'enfance selon Saint Luc:

Du côté des études bibliques, l'approche sémiotique permet sans doute, sinon de résoudre, du moins de déplacer certaines questions classiques de l'exégèse de ce texte. Dans une perspective qui n'est pas celle de l'histoire de la rédaction, on pouvait reprendre autrement la question des 'parallélismes entre Jean et Jésus et le problème posé par les cantiques' ⁽³⁶⁾.

2. Bien que ceci reste un non-dit, la lecture sémiotique à laquelle se livre le bibliste fait intervenir sa compétence philologique et son savoir historique, mais sans la montrer. La Bible, qui se trouve au cœur de la réflexion des fidèles, a été travaillée depuis des siècles philologiquement, historiquement et théologiquement, de sorte qu'un lecteur d'aujourd'hui aussi déterminé que le sémioticien à ce que sa lecture soit neuve ne peut prétendre la lire sans l'intermédiaire de cet acquis philologique et historique.

Comment, en effet, peut-on dans une culture comme la culture occidentale, qui a connu depuis le XVII^e siècle un travail méticuleux de vérification historique et d'établissement critique de textes religieux ou semi-religieux (l'hagiographie chrétienne, p. ex.), entrepris collectivement, après le travail pionnier du Jésuite hollandais Jean BOLLAND, par les historiens bollandistes, faire l'économie d'un progrès intra et extratextuel aussi décisif, aussi précieux ⁽³⁷⁾ ?

Au contraire, c'est bien parce qu'un tel progrès a eu des conséquences considérables sur la façon de lire les textes classiques, qu'on a pu justement envisager, nous semble-il, la possibilité d'une lecture *immanente* de ces textes et, ainsi, de donner l'impression de pouvoir se passer d'un examen philologique et d'une recherche historique.

La preuve en est que lorsque ceux-ci font défaut, l'analyse structurale ne peut

(36) L. PANIER, *Une écriture à lire. L'Evangile de l'enfance selon Saint Luc. La cause des humains dans la naissance du fils de Dieu. Approche sémiotique et lecture biblique*, Lyon, Thèse de Doctorat en Théologie, Fac. de Théologie de Lyon, année 1989-90, 10, Introd.

(37) Cf. Michel DE CERTEAU, *Hagiographie, EU*, 1984, IX, p. 69 : «En 1643, la publication à Anvers du premier volume des *Acta sanctorum* par les jésuites Bolland et Henskens.. marque un tournant :

..Il introduit la critique dans l'hagiographie. Recherche systématique des manuscrits, classification des sources, mutation du texte en document, privilège accordé au «fait» si minuscule soit-il, passage discret de la vérité dogmatique à une vérité historique qui a en elle-même sa propre fin, chasse que définit déjà, paradoxalement, «non la découverte du vrai, mais celle du faux» (E. Cassirer)».

avoir lieu, ou paraît le cas échéant un exercice gratuit. En 1963, la revue française *Esprit* avait donné le compte rendu d'un échange resté célèbre entre le philosophe Paul RICOEUR et l'ethnologue Claude LEVI-STRAUSS sur les domaines d'application de l'analyse structurale. A la remarque du premier, qui soulignait l'absence de l'approche structurale dans les secteurs traditionnels comme la mythologie indo-européenne, grecque, sémitique et biblique, le second répliquait que dans le cas de la Bible, c'est bien parce que «l'Ancien Testament, qui met en oeuvre des matériaux mythiques, les reprend en vue d'une autre fin que celle qui fut originellement la leur. Des rédacteurs les ont, sans doute, déformés en les interprétant ; ces mythes ont donc été soumis... à une opération intellectuelle. Il faudrait commencer par un travail préliminaire visant à retrouver le résidu mythologique et archaïque sous-jacent à la littérature biblique»⁽³⁸⁾.

GENRE, ANALYSE DE DISCOURS ET INTERDISCIPLINARITE :

La position des membres de l'*Ecole de Paris* à l'égard de la notion de genre et de la dimension historique des textes anciens a changé, sinon radicalement du moins partiellement, plus par concession que par conviction ou évolution.

C'est ainsi que François RASTIER, confronté au problème délicat des critères qui doivent contrôler le choix d'une isotopie sémantique, optait pour un ensemble de solutions réalistes. Des indices plus ou moins cernables jouent un certain rôle dans la recherche préliminaire d'un cadre hypothétique, dans lequel seront mis en oeuvre les moyens nécessaires qui permettront finalement l'esquisse ou la découverte d'une isotopie. «Une bonne hypothèse tient compte : (i) de la récurrence d'un trait inhérent dans un fragment du texte, (ii) de *données sur le texte (établissement : titre, genre, date, etc.)* ; de données sur le contexte social et historique, à commencer par l'auteur»⁽³⁹⁾.

Car, il s'est rendu compte qu'en dehors de la sémiotique, les récents développements de la pragmatique ont amené la linguistique à constater que «la perspective immanente, cet horizon méthodologique vers lequel (elle) s'est efforcée de tendre asymptotiquement, apparaît aujourd'hui plus réductrice que productrice»⁽⁴⁰⁾.

GREIMAS devait souligner aussi que la sémiotique ne constitue finalement qu'une approche parmi d'autres du texte biblique :

Peut-on espérer que l'approche sémiotique sera acceptée par l'exégèse dominante, d'abord comme tolérable et, éventuellement, comme complémentaire ? Car la sémiotique, de son côté, est persuadée que ses procédures n'entrent jamais en contradiction avec

(38) R. KUNTZMANN, Le Symbole des jumeaux et le cycle du patriarche Jacob, *Sémiotique et Bible*, 19, 1980, P. 33 (Nous soulignons).

(39) *Sémantique interprétative*, Seuil, 1987, 107-108 (Nous soulignons).

(40) KERBRAT-ORECCHIONI 1980 : 8.

l'exégèse historique ou philologique, bien au contraire, qu'elle est susceptible de proposer une nouvelle lecture des textes dont elle ne fait qu'explorer l'une ou l'autre des multiples potentialités⁽⁴¹⁾.

Plus récemment, Eric LANDOWSKI devait bien reconnaître la forme «abrupte et provocatrice» des postulats structuralistes (y avait-il question seulement de la forme et de la pédagogie de la présentation ?), et marquer un retour aux notions de *contexte* et de *situation*, si longtemps vilipendées sous les noms d'oiseaux de «psychologisme» et de «sociologisme» par les représentants d'un structuralisme triomphaliste aux années soixante et soixante-dix. Or, les discours littéraires, «quelle que soit la consistance de leurs propriétés intrinsèques,... dépendent toujours, quant à la manière dont ils sont socialement (et à fortiori, historiquement) reçus, valorisés et en définitive catégorisés, d'autre chose que d'eux-mêmes»⁽⁴²⁾. Aussi, proposait-il pour le renouvellement de l'approche des genres de discours qu'à côté de l'analyse purement sémiotique des textes soit superposée celle de leur «encadrement situationnel» postulé, dès le départ, comme synonyme d'un macro-texte reconnaissable⁽⁴³⁾.

Si, la sémiotique a été parmi les premières disciplines à réouvrir le champ d'une pratique neuve, à savoir l'analyse de discours, d'autres disciplines plus anciennes ont déjà investi de près ou de loin son domaine. Nous soulevons ici un problème de fond : celui de la *légitimité* de chaque discipline et de ses propres frontières.

En fait, chaque nouvelle discipline en pleine expansion tend d'abord à la restriction, puis à l'élargissement de ses frontières en rehaussant ses mérites, ses procédures et ses moyens d'investigation⁽⁴⁴⁾.

Or, il est acquis aujourd'hui entre les chercheurs en sciences du langage que «hors de l'interdisciplinarité, point de salut». Travailler dans le cadre spécifique d'une linguistique du texte, c'est, avant tout, avoir l'audace d'aller à la recherche

(41) Préf. à Agnès GUEURET, *L'engendrement d'un récit. L'Evangile de l'enfance selon Saint Luc*, Cerf, coll. Lectio Divina, 113, 1983, 7-8. V. également *Id.*, Postface à *Signes et paraboles. Sémiotique et texte évangélique*, Groupe d'Entrevernes, Seuil, 1977, p. 228 : «Tout en ne demandant qu'à utiliser l'acquis des examens philologiques ou historiques, (l'approche sémiotique) refuse de les considérer comme l'*ultima ratio* de son activité».

(42) Pour une problématique socio-sémiotique, *La littérarité*, Québec, Presses de l'Université de Laval, 1991, p.104.

(43) 1991 : 105.

(44) Dans sont art. L'Ethos dans la rhétorique française de l'âge classique, *Stratégies discursives*, p. 281, Michel LE GUERN faisait rappeler, dans cette perspective, à ses collègues pragmaticiens que «L'histoire de l'étude des stratégies discursives, ce n'est rien d'autre que l'histoire de la rhétorique.. L'inflation verbale de ce dernier tiers du XX^e siècle ne peut pas effacer un consensus de plus de deux millénaires sur cette proposition fondamentale : toute réflexion qui ne porte pas sur le langage considéré dans sa visée de persuasion est, par nature, étrangère à la rhétorique».

d'un objet pluridisciplinaire, qui se trouve continuellement aux limites d'autres disciplines limitrophes⁽⁴⁵⁾.

Un bon exemple de ce que peut apporter de si fructueux une approche interdisciplinaire dans le domaine de l'analyse de discours — une meilleure intelligibilité des textes —, nous est fourni par la Thèse de KUNTZMANN intitulée *Le mythologème des jumeaux au Proche-Orient ancien. Naissance, fonction et évolution d'un symbole* (Strasbourg 1979). Une lecture sémiotique, accompagnée d'une attention particulière à l'histoire sociologique du Proche-Orient ancien, du *symbole des jumeaux* dans la Bible, permet en effet à l'auteur de saisir la fonction sociale que remplit l'historisation (ou le travestissement) d'un vieux symbolisme mythique⁽⁴⁶⁾.

L'histoire, mémoire du vivant, a été sans doute le rocher sur lequel se sont brisés finalement maintes postulats structuralistes d'essence métaphysique, comme par exemple le fameux principe d'immanence sémiotique⁽⁴⁷⁾.

Aujourd'hui, alors que le structuralisme n'est plus au pouvoir, qu'on assiste à la montée en flèche des sciences cognitives et au retour d'illustres absents (telle que, la psycholinguistique), peut-on espérer une bonne entente entre disciplines «diachroniques» et disciplines «synchroniques», sans hégémonie des unes ni exclusion des autres ?

Dépositaires d'un riche héritage conceptuel, des notion-clefs, comme celles de «genre» ou de «genèse», nous semblent parfaitement adéquates pour assurer la relève dans le secteur des sciences sociales et assumer ainsi la nouvelle entente dans le domaine des échanges interdisciplinaires.

NIZAR TAJDITI

(45) Jean-Michel ADAM, pour une pragmatique linguistique et textuelle, *L'interprétation des textes*, Paris, Ed. Minuit, 1989, sous la direc. de Claude REICHLER, p.184.

(46) Cf. KUNTZMANN 1980, 35 : « Sous le règne de Salomon, alors que se déploie la première littérature écrite en Israël, les deux patriarches rivaux désignent l'opposition entre les Israélites et leurs voisins qui ne l'étaient pas ou avaient cessé de l'être. C'est ici qu'intervient le couple Esau-Edom. Si la fraternité de Jacob et d'Esau illustre la coexistence transjordanienne entre le pacifique pasteur et le chasseur nomade (récit du droit d'aînesse) le couple Jacob-Edom (récit de la naissance des jumeaux) renvoie à la conquête du pays d'Edom par David et, sans doute déjà, à son émancipation sous le règne finissant de Salomon. Edom, avec son antique royauté, fait figure de frère aîné par rapport à Israël, nouveau venu. La tradition orale a vite fait de l'assimiler à Esau et de lui adapter la substance du vieux récit sur la rivalité entre Jacob et Esau. Du coup, la prétention d'Israël à l'hégémonie est fondée, et les acquisitions territoriales justifiées. On assiste ainsi à une utilisation historique de la symbolique de rivalité gémellaire à l'étape précédente ».

(47) V.J.LECERF, La Transcendance du langage de l'antiquité à nos jours en passant par le monde arabe médiéval, *Studia Islamica*, XII, 1961, pp. 5-27, Cf. aussi M. BREAL, *Essai de sémantique (Science des significations)*, Paris, Imago Mundi, 1989 [1853], p. 256.

BIBLIOGRAPHIE

- BASTIDE, R. *Sens et usage du terme «Structure» dans les sciences humaines et sociales*, La Haye, Mouton & Co, 1962.
- COQUET, J-CI. Réalité et principe d'immanence, *Langages*, n°103, 1991, pp. 23-35.
- DOSSE, F. *Histoire du structuralisme*, Paris, Seuil, t.2, 1993.
- DUFOUR, D-R. Comment digérer le structuralisme ? *Le Débat*, n° 73, 1993, pp. 3-10.
- DUPUY, J-P. L'Homme machine et les adorateurs du signifiant. Cybernétique et sciences de l'homme, *Le Débat*, n°49, 1988, pp. 164-184.
- GREEN, A. La Psychanalyse devant l'opposition de la structure et de l'histoire, *Critique*, Juillet 1963.
- LANTERI-LAURA, G. Histoire et structure dans la connaissance de l'homme, *Annales*, n° 4, Juillet-août 1967, pp. 792-828.
- LOTMAN, I. Le «Hors-Texte», *Change*, n°6, 1970, pp. 68-81.
- MAINGUENEAU, D. Nouvelles tendances en analyse du discours, Paris, Hachette, 1987.
- PANIER, L. Lecture sémiotique et projet théologique, *Recherches de science religieuse*, 78/2, 1990, pp. 199-220.
- PAVEL, Th. De l'Esprit de conquête chez les intellectuels, *Le Débat*, n°73, 1993, pp. 11-16.
- PIAGET, J. La Notion de structure, *La pensée scientifique*, Paris/La Haye, Mouton/Unesco, 1978.
- SCHAEFFER, J.-M. *Qu'est ce qu'un genre littéraire ?* Paris, Seuil, 1989.
- STEMPEL, W.D. Pour une description des genres littéraires, *Actes du XIIème Congrès international de linguistique romane*, Bucarest, 1968.
- TAJDITI, N. *De l'histoire à l'hagiographie, Approche sémiotique de la Sîra, relatée par Ibn Ishâq, Ibn Sa'd et Tabarî*, Thèse de Doctorat en Sciences du Langage, Lyon, Université Louis-LUMIERE/Lyon 2, 1992, 577 p. (Inédite).

LOS JUDIOS DEL NORTE DE MARRUECOS SOÑADORES DE AL-ANDALUS Y FUENTE POSIBLE DEL MARROQUISMO ESPAÑOL

Abdelaziz CHAHBAR
Facultad de Letras — Tetuan

El tema de este trabajo puede resumirse en lo siguiente:

1. el planteamiento del tema de Marruecos en la literatura española durante las últimas décadas del Siglo XIX y las primeras de este siglo, no ha sido directo en algunos partes, puesto que el escritor español, sea viajero, o cronista bélico, o novelista dependió en varias veces de un guía Judío intérprete descendiente de los antiguos megorašim. Además se ha hecho posible a través de este contacto una influencia aún limitada de la literatura Ládino-marroquí en dicha creación española.

2. estos judíos quedaron fieles a Al-andalus, cantaron su historia y contaron sus maravillas. El dialecto judío-español ha hecho posible un retorno a la memoria; un retorno a un «sí» aunque sea profanado por la inquisición queda un rasgo luminoso de una autenticidad eterna.

Trás su expulsión de España a finales del siglo XV, los judíos de la península se establecieron en la costa sur del mediterráneo y precisamente en Marruecos donde fueron bien acogidos por las Kehilas marroquíes.

Estos megorašim, o sea emigrantes judíos expulsados de España, llegaron a fusionarse en la sociedad marroquí y actuaron plenamente en la historia de este país. Además mantuvieron la clásica lengua castellana como lengua de creación literaria y como medio de comunicación dentro de la comunidad. La lengua hebrea no sobrepasó el peldaño de las sinagogas y se quedó sacralizada y encerrada entre las tapaderas de los sefarim religiosos.

El judío marroquí de habla judío-español vivió lo hispánico en una tierra moruna, y aun su integración en la sociedad arabófona, no ha dejado reproducir lo que llegó a salvar de la herencia intelectual y literaria de sus antepasados. A la largo de Cuatro siglos cantaron y contaron los antiguos romances judeo-españoles, y compusieron según sus modos y aires, y aunque parecen atados a esta herencia hispana, la matizaron hasta el punto de convenir las particularidades del país que les había acogido. Cuando las tropas españolas ocuparon las plazas y callejuelas de Tetuán en 1860, los judíos se encontraron

frente a un invasor anheloso de saber todo lo referente al país invadido. Fueron los mejores capaces para cumplir la misión de intérpretes y guías, puesto que dominaron el árabe y la antigua lengua castellana.

Estos judíos fueron para los españoles un otro, pero de una «otridad» incompleta. Con este contacto de españoles y judíos marroquíes, se vivificó la nostalgia a un origen común, que toma la lengua como punto de partida.

Como traumatizados, los españoles escucharon con atención los hebreos tetuaníes gritando en castellano, pero «con un acento especial enteramente distinto del de todas nuestras provincias» según D. Pedro Antonio de Alarcón⁽¹⁾. Dice también:

«Al principio creí que aquellas palabras españolas las habían aprendido ayer por lisonjearnos; pero luego recordé que el castellano es el idioma habitual de todos los judíos establecidos en Africa, Italia y Alemania y otros países. De cualquier modo la alegría que siempre causa oír la lengua patria en Suelo extranjero se eclipsaba al repasar en la vileza de las personas extrañas que así se producían... Sin duda recordábamos glorias de nuestra raza y supremacías Sobre la hebrea mayores que la toma de Tetuán»⁽²⁾.

Pero este trauma desminuirá, y el mismo Alarcón tendrá un intérprete judío llamado Jacob⁽³⁾ que le ayudará a explorar el mundo mágico del Mellah y los barrios oscuros de Tetuán. Pedro Antonio de Alarcón nos describirá la hospitalidad hebrea, y será huésped de una familia hebrea. Las descripciones que nos presentará muestran que fue convencido de que estos hebreos son de pura sepa española. Alarcón centraliza sus descripciones sobre lo hispánico en la casa de Moisés: «Toda la familia habla el lenguaje castellano», «el mobiliario es generalmente a la antigua española, pero refleja en varios accidentes los usos y costumbres de los Moros», «en el fondo del patio una larga cortina de seda negra y ropa recogida por una punta dejaba ver el arco igual en todo a las de la sinagoga de santa Maria la Blanca de Toledo», «y me senté en una silla que tenía por adorno una lámina del Ouijote pintada en el respaldo...», «la hija de Moisés vestía de saya y chal de paño negro con bordados de seda y cubría su cabeza con toca de la misma tela, por el estilo de las que usaban nuestras damas del siglo XV...» Otros judíos, yaacov Mendes, Mazaltob acuparon en Aita tettauén de Benito Pérez Galdós la misma función de Jacob y Moisés en la Obra de Alarcón.

Los residentes del Mellah orientaron las imágenes que iban a formar los invasores sobre Tetuán o sea (Marruecos) y la mayoría de las escenas se van

(1) *Diario de un testigo de la Guerra de Africa*, en obras completas de D. Pedro Antonio de Alarcón, con un comentario preliminar por Luis MARTINEZ KLEISER. Ediciones FAX MADRID. p. 999 b.

(2) *Ibid*, p. 1000 a.

(3) *Ibid*, p. 1005 a.

a estrenar en el Mellah. Un medio siglo después de la guerra de Africa, César Juarros descutirá el origen de los israelitas como hizo Alarcón. Según Juarros, estos fueron «como olvidados de España obligados a abandonar su patria por el noble empeño de no cambiar de fe religiosa»⁽⁴⁾, «... están regados por tado el imperio y todos suspiran por España, acogerlos, permitirles volver a llamarse españoles»⁽⁵⁾. Así, los judíos, marroquíes hispanófonos han lagrado un interés muy elevado en las obras marroquistas. Este diálogo mantenido entre españoles y judíos marroquíes facilitó la infiltración de la imagen judía sobre Marruecos en la imagen elaborado por los españoles sobre el mismo. las ciudades marroquíes parecen a las ciudades andaluzas medievales del siglo XV, dice Alarcón:» Visitar a Tetuán equivale a ver a cordoba en el siglo XIII»⁽⁶⁾. Los musulmanes, o sea moros según la terminología española de aquella época se muestran como saqueadores e infieles. Las quejas de judíos una vez ocupada Tetuán por los españoles contribuyeron en profundizar esta imagen del Moro. Alarcon recoge unas frases:

«Todo señor, todo no lo ha robado el morio... exclaman lastimosamente los hijos de Israel.

— Mire señor nos han dejabo en cuero!

— Nos han saqueado los baúles

— Nos han matado los padres

— Nos han maltratado las mujeres

— Nos han quemado las casas»⁽⁷⁾.

Benito Perez Galdos habla también de saqueos y desmanes de los montañeses en su Aita tettauen. Para el español el judío del norte de Marruecos tenía unos puntos comunes con el moro; Así fue presentado — Como saqueador, amante de oro y de mera inferior.

Alarcon al verlos entrando en el Mellah con bienes dijo:

«no hemos podido menos de preguntarnos; ? De donde procederán todos estos efectos que entran en la juderia? ? Poseían algo los hebreos en las afueras de su barrio? y hemos caído en la cuenta que los judíos estan robando desde anoche a los moros ausentes de Tetuan»⁽⁸⁾.

Al pronunciar los nombres «Abraham, jacob...» dijo: «qué grandes nombres para tan pequeños seres»⁽⁹⁾.

(4) *La ciudad de los ojos bellos*, MADRID 1922, p. 198.

(5) *Ibid*, p. 198.

(6) *Diario...*, p. 1006 b.

(7) *Ibid*, p. 1002 a.

(8) *Ibid*, p. 1006 b.

(9) *Ibid*, p. 1009 b.

Apesar de todo, el influjo de la literatura ladina-marroquí en la literatura española marroquista queda palpable. La recolección de esa literatura romantisista ladina vuelve a principios de este siglo. Esta herencia Ladina era inseparable de la vida cotidiana de los judíos del Norte de Marruecos, sobresale en ceremonias rituales, bodas, entierros... etc.

En «la ciudad de los bellos ojos», cesar Juarros nos da un ejemplo palpable del aprovechamiento de los escritores españoles de la literatura Ladina.

Cuando habló de las fiestas de la comunidad hebrea de Tetuán, ha basado sus descripciones sobre textos Ladinos y cuentos populares judío-marroquíes; por ejemplo, cuando habló de la fiesta de 9 de Ab día del luto y del dolor y el recuerdo punzante de la destrucción del templo citó un texto poético que le ha sido facilitado por un judío tetuani llamado saadia Lasry. El poema citado es una traducción judío-española de un texto del Malhum (zegel) judío-árabe de Marruecos que trata del tema de 9 de Ab.

Los versos del poema del judío Lasry, comparándolos con las palabras de Juarros al respecto de la fiesta de 9 de Ab proyectan el carácter melancólico que se manifiesta en la imagen que cesar Juarros quiere elaborar⁽¹⁰⁾.

Otro ejemplo sobre este influjo se muestra en el capítulo titulado «Doña sol» basado sobre un poema romane en judeo-español marroquí. Se trata de la judía tangerina Zuleja Hatchuel quien consentió convertirse al islam y murió como mártir⁽¹¹⁾. cesar Juarros aprovechó del cuento de sol al describir la hermosura de las hebreas de Tetuán. Empieza el capítulo «Doña sol» diciendo: «Una linda historia de ingenua poesía es esta que saben y copian todas las muchachas de la judería, estas vírgenes de dos ojos dulces y profundos, como cansados de seguir el vuelo de pájaros que ninguno vió posarse, los hebreos de Tetuan carecen de poetas. Nadie se preocupa de poner en verso el encanto de sus mujeres...» y después de describir la hermosura mágica de estas hebreas presenta unos versos del poema que trata del caso sol y dice: «El romance Doña sol es de todos conocido, su mérito poético es nulo, pero tiene una segunda parte de verdadero interés sentimental. Es una página de amor que las muchachas de la judería no suelen dar cuando se las pide que faciliten copia del romance».⁽¹²⁾

César Juarros ha presentado una nueva versión del poema en judeo-español que trata de sol la saddika. Sólo los últimos cuatro versos que presenta figuran en la versión presentado por Zorita Nahon en «Romances judeo-españoles de Tanger»⁽¹³⁾.

(10) La ciudad., p. 217 y p. 219.

(11) Ver, D. ISAAC LAREDO, **MEMORIAS DE UN VIEJO TANGERINO**, MADRID 1935, p. 143.

(12) La ciudad, p. 226.

(13) **Romances judeo-españoles de Tanger**, recogidos por zorita Nahon. p. 171.

*Por el mundo se extiende su historia
las doncellas que cobren valor
no fiando en ninguna mora
para que nos las hazan lo que hecieron a sol.*

Así los judíos del Norte de Marruecos han sido una fuente del marroquismo español. Estos judíos quedaron también vinculados a Al-andalus. Cuando contarón la historia de sefardí alabaron la raíz noble del Sefardita. El hecho de contar la historia de Al-andalus es un mito que orientaba la memoria del Judío expulsado y marcaba el sí de este. Blanca Bendahan una novelista Judía tetuaní al hablar del origen de los Judíos de Tetuán en su novela «MAZALTOB» dice: «Lo sefarditas se creen nobles de todos los Judíos desterrados en el mundo»,⁽¹⁴⁾ para Blanca, la nobleza de estos judíos surge de muchos puntos que podemos resumir en lo siguiente: de jaron de vivir en Palestina antes el derribo del segundo templo, no vivieron el cautiverio en Jerusalem, tienen una historia brillante, fueron miembros de gobierno en Al-andalus, fueron médicos, filósofos, ministros..., no son como los «Achkenaz» quien se refugieron en Hungría y en las tierras de Rusia, el oro judío ha contribuido en las caravellas de Colón, y es probable que este sea un sefardita...⁽¹⁵⁾. Blanca Bendahan no olvida hablar de la sangre judía transfundida en las venas ibéricas y la sangre Latina en las venas de judíos andaluces. Bendahan habla también de la lengua castellana manejada por los judíos marroquíes, dice: «Nuestra lengua, nosotros los sefarditas, es el castellano, o la lengua Ladina, haketia de los tetuanies, hablada sobre todo a lo largo del mediterráneo, de Tanger a Salónica, este ladino es de España de 1492... este ladino es la lengua de nuestras casas, es la lengua santa en que hemos traducido nuestros rezos; nuestros nombres son españoles, como Perez, Soto, Toledano, nosotros los sefarditas hemos mezclado nuestra sangre con todos los hispanos que sus nombres terminan en «EZ» que no pueden ser solo de sepa española»⁽¹⁶⁾.

Blanca Bendahan trata de destacar los puntos de autenticidad de los judíos marroquíes hispano-hablantes; son judíos de religión, sefarditas de ambiente cultural histórico, manejan la misma lengua castellana y son históricamente ibéricos o mejor dicho andaluces.

Al-andalus se cambió en un mito que marca la identidad de los judíos del norte de Marruecos, por eso la vivieron a pesar de estar desterrados en tierras africanas, contaron su historia dando una importancia grande a los nombres de lugares. Así, Sevilla, Toledo, Granada Valencia... Serán un medio que facilita el recuerdo de un pasado que signe orientado el presente, tatuado en la memoria. En las fiestas de Boda, que sean en Larache, o Tanger o Tetuán, los Judíos cantan estos versos:

(14) MAZALTOB, (Roman), Paris, Ed. Tambourin 1930, p. 112.

(15) Ibid, p. 112-113.

(16) Ibid, p. 113.

*En los tálamos de Seviya
Anda la novia en camisa
En los tálamos de Granada
Anda la novia en delgada
! Andaé quedo !*

Los nombres de lugares citados: Sevilla y Granada son muy segnificativos en la historia de Al-andalus. A veces el poeta judio-español marroquí cita los nombres de lugares vinculados a unas personas, cosa que deja a la memoria un pleno campo para actuar vinculando un presente vivido con un pasado deseado.

Las personas citadas son obien históricos como Doña Jimena, Diego León, o imagimados como el morio que destaca en muchos romances Tangerinos. Los nombres de lugares una vez citados, transmiten en la mente del oyente la «Historia» de Al-andalus deseada» como en este ejemplo:

<i>En la ciudad de Toledo</i>	<i>y en la ciudad de Granada</i>
<i>ahi se ha criado un mancebo</i>	<i>que Diego León se llama</i>
<i>El era alto de cuerpo</i>	<i>morenito de su cara</i>
<i>De una tal se namoró</i>	<i>de una muy rica yamada</i>
<i>se miran por una reja</i>	<i>también por una ventana</i>
<i>El día que mose ven</i>	<i>no los aprovacha nada</i>
<i>ni los aprovecha el dinero</i>	<i>con que León negociaba</i>
<i>un día se vieron juntos</i>	<i>dijo León a sudama</i>
<i>— Manñana te ha de pedir</i>	<i>nosé si es cosa cercana</i>
<i>Lo que la damaresponde</i>	<i>lo que a León agrada</i>
<i>...</i> ⁽¹⁷⁾	

La historia de Diego León y su dama doña Juana nos hace recordar las historias de amor andaluces, nos hace recordar el callar de la paloma y los ambientes de Al-andalus. El nombre Diego León no puede ser entendido sólo cuando lo relacionamos con Toledo o Granada, ciudádes de gran importancia en la historia de los judíos en España.

Pero esta historia no es siempre luminosa, la expulsión ha dejado unas heridas profundas en la memoria de la kehila expulsada. Cuande el poeta judio-español marroquí describe la derrota de Granada y de las otras ciudades de Al-andalus, y describe la resistencia mora nos presenta una versión popular de la historia que toma su punto de partida de unos actos reales pero, se aleja de la verdadera historia hacia una otra deseada. El poeta destaca en su narración de esta última por la técnica de la descripción: La belleza de las doncellas andaluzas, la valentia de los heroes como en el poema «Moriana y Galván»⁽¹⁸⁾. La descripción permite una ampliación de los actos y temas narrados. He de señalar también

(17) Romances, p. 101-102.

(18) Ibid, p. 46.

que en la mayoría de los poemas romances judío-españoles marroquíes que traten el tema de Al-andalus, el dialogo entre las personas asegura un movimiento de los actos que hace del pasado un presente deseado. Al-andalus es signo de dolor en la memoria de los judíos del norte de Marruecos; el recuerdo de la expulsión plenamente tratado en sus poemas, hace de estos últimos un documento real sobre unos episodios sangrientos, violentos que equivalen a la destrucción del templo. Pero este recuerdo aunque sea duro permite a resucitar el pasado autentico, y lleva a soñar una historia de Al-andalus antes de la expulsión. Y aunque sea triste narrar el dolor, el judío marroquí del norte de Marruecos no olvida las escenas de un nuevo destierro que empezó en 1492 para finalizar con una imagen desarrollado en el presente poema:

<i>Eramos tres ermanitas</i>	<i>hijas del rey don juan</i>
<i>Las dos eran ya cazadas</i>	<i>y una por cazar se afina</i>
<i>no por mengua de dinero</i>	<i>que su padre lo tenía</i>
<i>ni por mengua de pedidores</i>	<i>mundos la pidían</i>
<i>nin por mengua de ajuares</i>	<i>en su arca los tenía</i>
<i>su padre, por más valor</i>	<i>al rey de castiya quizó</i>
<i>tres meses turan las fiestas</i>	<i>tres meses turan y aún máze</i>
<i>y al cabo de los tres meses</i>	<i>irse a su tierra quería</i>
<i>y a salen a encontrarya</i>	<i>tres leyes a maravía</i>
<i>los cristianos con sus cruces</i>	<i>los moros a la moría</i>
<i>los judios consus leyes</i>	<i>atan mal la paresía</i>
<i>— Dios del sielo, Dios del sielo</i>	<i>qué era eso que vidi?</i>
<i>La basada de la bestia</i>	<i>a pedasos se cairía</i>
<i>La subida a la escalera</i>	<i>mala toze la daría</i>
<i>Eso todo se le haze</i>	<i>el que mal quiere los judios</i>

Larache verano 92

LA FONETICA DE LOS ANTIGUOS GRAMMATICOS ARABES

Abdelhamid BENAJIBA
Faculté des Lettres — Tétouan

En el marco de este trabajo, nos proponemos presentar sucintamente la concepción fonética de los árabes, en particular la de Sībawayh y de Ibn Jinnî, eminentes gramáticos que han marcado con sus fecundos y constructivos trabajos la gramática árabe clásica. Los antiguos filólogos Ibn Ishâq (* -768), Halîl (* -721), Sībawayh (750-795) y, más tarde, Ibn Durayd (837-934) e Ibn Jinnî (932-1002) han tratado en sus obras los grandes problemas de la lengua árabe : sintácticos, morfológicos y fonéticos.

Para explicar las transformaciones morfológicas del árabe, se han interesado por el estudio de los sonidos. Este interés por la fonética (por los sonidos) ha sido aprovechado sobre todo por los estudios religiosos :

«La articulación de los sonidos, la buena pronunciación de las consonantes y el conocimiento de las reglas de la pausa constituían un interés primordial para el **taywîd**, el arte de una buena recitación del Corán»⁽¹⁾.

Como no era tradición entre los gramáticos árabes consagrar obras a la fonética, la mayoría solía dedicar el último capítulo de su libro a la fonética : Zamahşarî en el **Mufaşşal**, Ibn Yacîs en su **Şarh al Musaşşal**, Zajjâlî en **Jumal** y Sībawayh en su **Kitâb**⁽²⁾. Precisamente Fleich (1958), señala que :

«En la filología europea, se empieza la gramática por la fonética para bien determinar primero los sonidos que son el soporte del lenguaje estudiado. En sus tratados gramaticales, los antiguos gramáticos árabes no han tratado la fonética en sí-misma, sino para

(*) La fecha de nacimiento es desconocida o imprecisa.

(1) Todas las traducciones de las citas del árabe o del francés al español son nuestras. El texto original es el siguiente:

«l'articulation des sons, la bonne prononciation des consonnes et la connaissance des règles de la pause étaient d'un intérêt primordial pour le **tajwîd**, l'art de bien réciter le Coran.» Metoui, M. ; **Contribution à la phonétique et phonologie arabe**; 1989, p. 28.

(2) Para más detalles véase Mehiri A., **Les théoris grammaticales d'Ibn Jinnî**, p. 1973, p. 159.

poder explicar el **idgâm**. La fonética es un preludio al **idgâm**»⁽³⁾.

Los análisis fonéticos de los antiguos filólogos eran en general impresionistas. Para valorar los fenómenos de la percepción y de la producción, recurrían a su intuición, porque no existían instrumentos precisos capaces de dar cuenta de las realizaciones articulatorias y físicas de los sonidos de la palabra. Sin embargo, los trabajos de Sîbawayh y de Ibn Jinnî son ricos en nociones de fonética árabe y muestran que los gramáticos conocían bien las características y el funcionamiento del aparato fonador.

SIBAWAYH (750-795)

Amr Ibn Utmân Ibn Qanbar al Başrî, llamado Sîbawayh, es uno de los más famosos gramáticos árabes. Discípulo de Halîl en Başra codifica en su **Kitâb fi an-naḥw** (tratado de gramática) todo lo esencial de la gramática árabe. Su libro es la síntesis más cumplida de la gramática árabe. Referencia sólida en casos polémicos de la gramática, fue llamado «Qur'ân an-naḥw» (el corán de la gramática)⁽⁴⁾.

Sîbawayh presenta en el **Kitâb** una descripción fina de los fonemas árabes y de su punto de articulación.

Aunque su sistema no sea muy preciso y moderno, es notablemente económico y rico en nociones fonéticas⁽⁵⁾. En efecto, para Sîbawayh, el sonido (**ṣawt**) se transmite mediante el soplo (**naḥas**). El **ṣawt** comienza en la garganta (**ḥalq**), atraviesa la boca y antes de pasar por los labios, está modelado por el **ḥarf**. Los **ḥurûf** del árabe conocen dieciséis zonas de realización :

«Tres de ellas se localizan en la laringe (**ḥalq**) : / de hecho / ; en su parte más profunda (? aqṣâ-hâ) se realizan el hamza, el hâ ? y el alif ; en su parte mediana, el cayn y el hâ ? en su parte más cercana a la boca, el ġayn y el hâ ?

— Una cuarta reúne la parte más rezagada de la lengua y la porción del paladar (al-ḥanak al ?aqlâ) en la parte superior : ahí se realiza el qâf.

— Una quinta reúne la parte de la lengua que se sitúa en un punto inferior al el qâf (? asfal mawḍi' l-qâf) y la porción del paladar contigua a la anterior : ahí se realiza el kâf.

— Una sexta reúne la parte media de la lengua y el paladar mediano : ahí se realizan el ġîm, el sîn y el yâ ?

(3) «En philologie européenne, on commence la grammaire par la phonétique afin de bien déterminer d'abord les sons qui sont le support du langage étudié. Dans leurs exposés grammaticaux, les anciens grammairiens arabes n'ont pas traité la phonétique pour elle-même, mais pour expliquer l'**idgâm**. la phonétique se trouve être des préliminaires à l'**idgâm**. «Fleisch, H., «La conception phonétique des Arabes d'après le **Sirr Sinâcat al-ierâb d'Ibn Jinnî**» 1958, p. 76.

(4) Véase Fleisch H. **Etudes d'Arabe dialectal**, Dar el Machreg, Beyrouth 1974, p.26.

(5) Cf. Metoui M., *OP. cit.*, p. 29.

— Una séptima reúne el comienzo del borde de la lengua (? *awwal ḥāffat al-Lisān*) y los molares (? *adṛās*) adyacentes : ahí se realiza el *dād*.

— Una octava reúne la parte más avanzada del borde de la lengua hasta su punta extrema, la porción correspondiente del paladar, la región que se sitúa justo por encima de los dos premolares (*dāhik*), de los caninos (*nāb*), de los incisivos (*rabāciy-a-ṭaniyya*) : ahí se realiza el *lām*.

— Una novena reúne la extremidad (*ṭaraf*) de la lengua y la región que se encuentra ligeramente por encima de los incisivos centrales (*ṭaniyya*) : ahí se realiza el *nūn*.

— La décima es idéntica a la del /*nūn*/, con la diferencia de que está ligeramente «entrada» (? *adḥal*) sobre el dorso de la lengua debido a la inclinación (*inḥirāf*) de ésta hacia el *lām* : ahí se realiza el *rā* ?

— La undécima reúne la extremidad de la lengua y las raíces (? *uṣūl*) de los incisivos centrales : ahí se realiza el *ṭā?*, el *dāl* y el *tā?*

— La duodécima reúne la extremidad de la lengua y la región ligeramente encima de los incisivos centrales : ahí se realiza el *zāyn*, el *sīn* y el *ṣād*.

— La décimotercera reúne la extremidad de la lengua y las extremidades de los incisivos centrales : ahí se realiza el *zā?* el *dāl*, el *tā?*

— La décimocuarta reúne la parte interior (*bāṭin*) de la lengua inferior y las extremidades de los incisivos superiores : ahí se realiza el *fā?*

— La décimoquinta reúne los dos labios : ahí se realizan el *bā?*, el *mīm*, el *wāw*.

— La déximosexta está constituida por las fosas nasales (*ḥayāšim*) : ahí se realiza el *nūn* ligero (*ḥafīfa*)»⁽⁶⁾.

IBN JINNĪ (932-1002)

Conocido por la abundancia de sus escritos y la originalidad de sus teorías gramaticales, Ibn Jinnī ha despertado la atención de numerosos investigadores árabes y orientistas : Brockelman (1908), Fleisch (1958), Mehiri (1973), etc. Según Bakalla (1983)⁽⁷⁾, Ibn Jinnī es el primer fonetista árabe musulmán. Este gramático ha tratado la fonética en los *Ḥaṣāʾiṣ* y en el *Munṣif*, pero su gran mérito reside en haber roto con todos sus discípulos, consagrando la mayor parte de su libro, a la fonética. Se puede considerar su obra como la primera obra fonética árabe :

«... *Sirr as-Sināca* is an important Work in the history of Arabic linguistic studies. It illustrates the wide knowledge of its author and his ability to deal with several problems of, 'phonetic' and 'phonological' significance...»⁽⁸⁾.

(6) Roman, A. «Le système phonologique de l'arabe classique au XIII siècle d'après le *Kitāb de Sibawayh*», T.I.P. AIX, 2 (1975) P. 203-206.

(7) Véase Bakalla, *Ibn Jinnī: an early arab muslim phonetician* ; London, 1982.

(8) Ibid, p. 35.

En su libro, Ibn Jinnî distingue los órganos fonadores siguientes : el pecho (šadr), la laringe (ḥalq), la boca (fam) y los labios (šafatân). El šadr está considerado como el generador del sonido (šawt). El šawt emana del pecho, pasa por la garganta, a la boca, donde se puede modificar por los cortes (maqṭac) que interrumpen su continuidad ; así cada maqṭac genera un ḥarf (fonema) :

«Sepa, dice Ibn Jinnî, que el sonido es un accidente que acompaña la expiración, se prolonga y continúa hasta que unos cortes en el nivel de la laringe, de la boca o de los labios vengan a detener su prolongación y su continuidad. El corte en cuestión se llama ḥarf, y esto cualquiera que sea el lugar donde interviene, la naturaleza del ḥarf difiere según estos cortes... No veas que producimos el sonido en la laringe y que podemos hacerlo hasta el corte deseado...⁽⁹⁾»

En su análisis fonético, Ibn Jinnî diferencia claramente entre el šawt (sonido) y el ḥarf (fonema). Sin embargo, no establece, como sus predecesores, la distinción entre las consonantes y las vocales (ḥarakât), y sólo habla de los ḥurûf (fonemas).

«Sepa que las vocales son del mismo género que los siguientes fonemas breves y largos: el alif, el yâ? y el wâw (...) los antiguos gramáticos llamaban «fatḥa» a la pequeña alif, «kasra» a la pequeña yâ? y «ḍ dama» a la pequeña wâw. Sus explicaciones eran correctas»⁽¹⁰⁾.

Ibn Jinnî vuelve al sistema de clasificación de Sîbawayh innovándolo en parte. Presenta los ḥurûf teniendo en cuenta su punto de articulación y sus características comunes o distintivas. Se puede clasificar su forma de la manera sinóptica siguiente:

« ? min asfal al-ḥalq wa ʔaqṣâh-majhûr — šadîd — maftûḥ — mun-ḥafîd.

b mimmâ bayna aš-šafatayn — majhûr — šadîd — maftûḥ — mun-ḥafîd — mušrab (qalqala) — ḍalâqa.

(9) «اعلم أن الصوت عَرَضٌ يخرج من النَّفْسِ مستطيلًا متصلًا، حتى يعرض له في الحلق والقم والشفتين مقاطع تليه عن امتداده واستطالته، فيُسَمَّى المَقْطَعُ أَيْنًا عرض له حرفًا، وتختلف أجراس الحروف بسبب اختلاف مقاطعها... ألا ترى أنك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك. ثم تبلغ به أي مقاطع شئت...».

Saqsá, M., Zafzaf, M., *Sirr Sinâcat al-icrâb*, Le Caire, 1953, p. 6, et Metoui, M., op. cit., p. 30.

(10) «اعلم أن الحركات أبعاض حروف المَدِّ واللَّين وهي الألف والياء والواو... وقد كان متقدمو النحويين يُسَمُّونَ الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة».

Ibn Jinnî, *Sirr Sinâcat al-icrâb*, T. 2, Le Caire 1954, p. 19-22.

- t mimma bayna taraf al-lisân wa aṭrâf aṭ-ṭanâyâ — mahmûs — riḥw — maftûḥ — munḥafiḍ.
- t mimma bayna taraf al-lisân wa aṭrâf aṭ-ṭanâyâ — mahmûs — riḥw — maftûḥ — munḥafiḍ.
- j min wasaṭ al-lisân baynahu wa bayna wasaṭ al-ḥanak al-a ʿlâ majhûr — šadîd — maftûḥ — munḥafiḍ — mušrab (qalqala).
- h min wasaṭ al-ḥalq — mahmûs — riḥw — maftûḥ — musta ʿlî
- h min al-ḥalq maʿā awwal al-fam — mahmûs — riḥw — maftûḥ — musta ʿlî.
- d mimma bayna aṭrâf al-lisân wa uṣûl aṭ-ṭanâyâ — majhûr — šadîd — maftûḥ — munḥafiḍ — mušrab (qalqala).
- d mimma bayna taraf al-lisân wa aṭrâf aṭ-ṭanâyâ — majhûr — riḥw — maftûḥ — munḥafiḍ — mušrab (nafḥ)
- r min maḥrij an-nûn ġayra annahu adḥalu fi zahr al-lisân qalilan — majhûr — riḥw-šadîd — maftûḥ — munḥafiḍ - mukarrar ḍalâqa.
- z mimma bayna aṭ-ṭanâyâ wa taraf al-lisân - majhûr — riḥw maftûḥ — munḥafiḍ — mušrab (nafḥ).
- s mimma bayna aṭ-ṭanâyâ wa taraf al-lisân - mahmûr — riḥw-maftûḥ munḥafiḍ
- š min wasaṭ al-lisân baynahu wa bayna wasaṭ al-ḥanak al-a ʿlâ mahmûs — riḥw — maftûḥ — munḥafiḍ.
- Ş mimma bayna aṭ-ṭanâyâ wa taraf al-lisân — mahmûs — riḥw-muṭbaq — musta ʿlî.
- d min awwal ḥâfat al-lisân wa mâ yalihâ min al-aḍrâs — majhûr — riḥw — muṭbaq — musta ʿlî — mušrab (nafḥ).
- t mimma bayna taraf al-lisân wa ?uṣûl aṭ-ṭanâyâ — majhûr — šadîd — muṭbaq — musta ʿlî — mušrab (qalqala).
- z mimma bayna taraf al-lisân wa aṭrâf aṭ-ṭanâyâ — majhûr — riḥw — muṭbaq — musta ʿlî — mušrab (nafḥ).
- c min wasaṭ al-ḥalq — majhûr — riḥw — šadîd — maftûḥ — ḥafiḍ.
- ğ min al-ḥalq maca awwal al-fam — majhûr — maftûḥ — musta ʿlî.
- f min bâṭin aš-šafa as-suflâ wa aṭrâf aṭ-ṭanâyâ al-ûlâ — riḥw — maftûḥ — munḥafiḍ — ḍalâqa.
- q min al-ḥalq min aqṣâ al-lisân — majhûr — šadîd — maftûḥ mustacil — mušrab (qalqala).

- k min aqşa al-lisân wa adnâ ilâ muqaddam al-fam — mahmus — šadîd — maftûḥ — munḥafîd.
- I min ḥafat al-lisân min adnâhâ ilâ muntahâ ṭaraf al lisân — majhûr — riḥw — šadîd — maftûḥ — munḥafîd — ḍalâqa.
- m mimma bayna aš-šafatayn — majhûr — šadîd — maftûḥ — munḥafîd — ḍalâqa.
- n min ṭaraf al-lisân wa bayna mâ fuwayq aṭ-ṭanâyâ — majhûr riḥw — šadîd — maftûḥ — munḥafîd — ḍalâqa.
- h min asfal al-ḥalq wa aqşâh — mahmûs — riḥw — maftûḥ — munḥafîd — mahtût.
- w mimma bayna aš-šafatayn — majhûr — riḥw — šadîd — munḥafîd.
- y min wasaṭ al-lisân baynahu wa bayna wasaṭ al-ḥanak al-aclâ majhûr — riḥw — šadîd — maftûḥ — munḥafîd»⁽¹¹⁾

Este cuadro de las consonantes, según los puntos de articulación deja constancia del gran desarrollo de las articulaciones laríngeas o de la parte posterior de la boca: velares, úvulo-velares, velarizadas. Es una de las originalidades del árabe (y de las lenguas semíticas).

El árabe clásico se caracteriza también por el predominio de las consonantes sobre las vocales; éstas se reducen a tres «... expresadas (para necesidades de enseñanza o necesidad de fijar la pronunciación de una palabra o de un texto) por signos exteriores anotados encima o debajo de las consonantes; las tres **ḥarakas**: falḥa para -a, kasra para -i, ḍamma para -u; además del **sukûn** (ausencia de **ḥaraka** después del **ḥarf**)».⁽¹²⁾

Esta pobreza en timbre vocálico contrasta- lo hemos vistos-con la abundancia de las articulaciones consonánticas. Boff (1983) ha señalado con razón que en el árabe clásico «la idea fundamental expresada por una palabra es inherente a las consonantes; las vocales sirven solamente para expresar las modificaciones de este concepto fundamental»⁽¹³⁾.

Reduciendo al mínimo la función de las vocales, los antiguos gramáticos árabes han cometido errores en la formulación de las reglas gramaticales. En efecto, los investigadores en fonética moderna: Cantineau (1960), Fischer (1967), Roman (1975), Belkaid (1984), Metioui (1989) etc., muestran que las vocales árabes tienen una función tan importante como la de las consonantes. Por otra parte, la «marginación» de las vocales en el árabe llamado clásico no reduce

(11) Recogemos el cuadro de Mehiri, A., Op. cit., p. 177-179. Para más detalles véase Ibid, pp. 157-235.

(12) Fleich, H. *Traité de philologie arabe*, Vol.1, Beyrouth, 1961.

(13) Boff, M.C. «Contribution à l'étude expérimentale des consonnes d'arrière de l'arabe classique», T.I.P.S., 15 (1983) p. 2.

por tanto el alcance de los análisis fonéticos tradicionales. La fonética de Sibawayh, de todos sus sucesores y de Ibn Jinnî, era una fonética articulatoria descriptiva. Su mayor preocupación consistía en definir las diferentes realizaciones articulatorias de los **hurûf**, dando a cada **harf** (fonema) la descripción más precisa para la realización de una correcta pronunciación. Su objetivo era garantizar una buena pronunciación del texto coránico.

En general, los estudios fonéticos antiguos constituyen una aportación importante para los investigadores. En efecto, la fonética ha servido a los gramáticos para explicar las reglas morfológicas de derivación y de composición, a los retóricos para comprender algunas figuras del discurso, en particular las figuras de elocución y de construcción, y en fin a los críticos para tratar las relaciones entre los niveles fonético, prosódico y semántico de la obra literaria.

BIBLIOGRAFIA SELECTIVA

- BAKALLA, H. **Ibn Jinnî: an early arab muslim phonetician**, London, 1982.
- BELKAID, Y. «Les voyelles de l'Arabe moderne, analyse spectrographique» T.I.P.S, 16, 1984.
- CANTINEAU, J., **Cours de phonétique arabe**, Paris, 1960.
- FISCHER, W., «Sibenstruktur und Vokalismus im Arabischen», ZDMG, 177, 1967.
- FLEICH, H., «La conception phonétique de Arabes d'après le **Sirr Sinâcat al-icrab** d'Ibn Jinnî» Z.D.M.G.1, 1958.
- IBN JINNÎ, **Sirr Sinâcat al-icrâb**, Le Caire, 1954.
- MEHIRI, A., **Les théories grammaticales d'Ibn Jinnî**, Tunis, 1973.
- METOUÏ, M., **Contribution à la phonétique et phonologie arabe**, Schulzkyrchner Verlag, 1989.
- ROMAN, A., «Le système phonologique de l'Arabe classique au XIII^e siècle d'après le Kitâb de sibawayh», T.I.P. Aix, 2, 1975.
- SAQSA, M., ZAFZAF, M., **Sirr Sinâcat al-icrâb**, Le Caire, 1953.
- SIBAWAYH., **Al Kitâb**, Le Caire, 1966.

DESCRIPCIÓN Y TIPOLOGÍA ESTRUCTURAL DEL DIÁLOGO COMO FORMA DIDÁCTICA^(*)

Teresa DE SANTOS

Facultad de Letras — Tetuán

En los últimos años, el diálogo como género o como forma literarios ha despertado gran interés entre la crítica⁽¹⁾, de cara principalmente al estudio de la ingente producción didáctica y didáctico-satírica de los siglos XVI y XVII, que se manifiesta en obras tan dispares y tan semejantes como *El diálogo de Mercurio y Carón*, *Los nombres de Cristo*, *Lazarillo de Tormes*, *Sueños y Discursos*, *El siglo pitagórico*, *El diablo Cojuelo*, *El Criticón*, etc.

Intuitivamente se piensa que muchas de las claves formales de estas obras se encuentran en formas sancionadas de la literatura didáctica, especialmente en el diálogo. El siglo XVI europeo fue copioso en creaciones de esta índole, al tiempo que reeditaba con fervor los diálogos y obras afines del mundo clásico, tanto las propiamente didácticas como las que a ello unían un matiz, una intención o unos artificios satíricos⁽²⁾.

(*) Este trabajo es extracto y reelaboración de la primera parte del apartado dedicado al GÉNERO en la Introducción a mi tesis: **Antonio Enríquez Gómez: La torre de Babilonia**, Madrid, Universidad Autónoma, 1988 [aunque leída en 1989].

- (1) Hay dos recientes tesis doctorales que toman como objeto los diálogos renacentistas españoles: Jacqueline Saboye de Ferreras, *Les dialogues espagnols du XVI^e siècle ou l'expression littéraire d'une nouvelle conscience*, Paris, Didier, 1985; Jesús Gómez Gómez, *El diálogo del renacimiento español: Análisis formal y estudio histórico del diálogo didáctico escrito en prosa*, Madrid, Universidad Autónoma, 1987 (editada incompleta con el título de *El diálogo en el Renacimiento Español*, Madrid, Cátedra, 1988). (No he podido consultar la obra de Henri Ayala *Introduction à l'étude du «dialogue» AU XVII^e siècle*, Lille, Université, s.a.) La bibliografía sobre el diálogo clásico, platónico, ciceroniano y lucianesco, así como sobre autores y obras del Renacimiento europeo es tan abundante que no es lugar éste para intentar siquiera una mínima selección; remito a la copiosa Bibliografía de la tesis de Jesús Gómez.
- (2) La sátira no es sino un matiz de la didáctica: una y otra parten de un presupuesto común, la existencia de una verdad única, de un derecho y un revés en cualquier tipo de realidad humana, sea filosófica, científica, moral, social, etc. Cf. R.C. Elliott, *The power of Satire: Magic, Ritual, Art*, Princeton, 1960; G. Highet, *The Anatomy of Satire*, Princeton, 1962; M. Hodgart, *La sátira*, Madrid, Guadarrama, 1969 (que inspiró tan directamente el artículo de C.G. Peale, «la sátira y sus principios organizadores», *Prohemio*, 1973, pp. 189-210); A. Pollard, *Satire*, Londres, 1970; K.R. Scholberg, *Algunos aspectos de la sátira en el siglo XVI*, Las Vegas, 1979, y, del mismo autor, *Sátira e invectiva en la España medieval*, Madrid, Gredos, 1971.

Sufrimos una terrible confusión terminológica a la hora de clasificar toda esta producción didáctico-satírica de nuestra Edad de Oro ; esa terminología suele remitir — nunca explícitamente, ahí lo terrible — a categorías no formales, sino ideológicas, temáticas, argumentales e incluso circunstanciales y extratextuales: diálogo renacentista, erasmista, lucianesco, filosófico, sueño, fábula moral, comedia, miscelánea, vejamen, etc. A un género literario le corresponde, como todos sabemos, una particular configuración formal, aunque ésta por sí sola no baste para definir los géneros literarios históricos ; de cualquier modo, lo inadmisibile, desde un punto de vista crítico, es el establecimiento de una categoría genérica de la que no se defina su configuración formal o en la que puedan convivir varias.

La terminología que en este trabajo se va a emplear ha de recibirse como una aproximación al establecimiento de una terminología técnica formal aplicable a la literatura de carácter didáctico-satírico (trasvase de una única verdad a través de un mecanismo literario que excluye cualquier posibilidad de convivencia en el texto de una pluralidad de perspectivas), donde la obra se concibe como una herramienta literaria de alcance para la transformación de la realidad extraliteraria, sea por la información o conocimiento, sea por la crítica o discernimiento.

Por **forma**, finalmente, entiendo básicamente la relación y jerarquía que guardan las diferentes funciones en el seno del texto ; esa relación y jerarquía de las funciones es la que establece la estructura particular de una obra o de un grupo de ellas.

Toda forma literaria didáctica nace de un diálogo real, el que se produce de la comunicación entre un Maestro y un Alumno⁽³⁾ ; el Maestro, parte activa, es quien enseña, y el Alumno, parte receptiva, es quien aprende ; lo que el Maestro da y recibe el Alumno, lo que se trasvase de Maestro a Alumno es la Verdad, que sólo aquél posee. Uno de los posibles auxiliares de que se sirve el Maestro para ejercer su función es el relato ; el Maestro relatará al Alumno su experiencia real (la que le proporcionó la Verdad que trata de comunicar), o bien expondrá sus propias convicciones sin apoyarse en experiencia alguna, tan sólo en la fuerza de su autoridad o de su razón, o bien, por último, inventará experiencias protagonizadas por él mismo o por otros que faciliten para el Alumno la asunción de esa Verdad.

De esta situación real, habrían de nacer para la Literatura de un lado las **formas** y otro los **artificios** didácticos. Por **formas** entenderé aquí tratados, epístolas y diálogos ; por **artificios**, ejemplos, fábulas, sueños, alegorías, visiones, memorias, etc.

(3) El diálogo didáctico es una imitación de «las formas de la enseñanza oral» (Ana Vian, «La ficción conversacional en el diálogo renacentista», *Edad de Oro*, 7, p. 174) y «refleja el mismo proceso de la conquista del saber» (Asunción Rallo, *La prosa didáctica del siglo XVII*, Madrid, Taurus, 1988, p. 139).

Al pasar a la escritura, al codificar literariamente esta situación real, cuando el autor, el Maestro, se olvida de sí mismo y de su Alumno y se centra tan sólo en la materia doctrinal, en la Verdad, nace la forma del tratado, situada en los márgenes de la Literatura; gramaticalmente, no hay referencia alguna al **yo** ni al **tú/vosotros**; la Verdad se comunica pues, directamente, en tercera persona.

Cuando el autor (Maestro) hace referencia a su **yo** en el texto y remite al **tú** del receptor (Alumno), que no llega a intervenir directamente, pero sigue centrándose sobre todo en la materia doctrinal (Verdad), nace la forma epistolar, autobiográfica, que se refiere a una realidad situada entre un **yo** que habla y el **tú** al que se dirige.

Cuando, siguiendo en el mismo mundo, el **tú** interviene sin arrogarse la función de Maestro (es decir, sin una Verdad), resulta el Diálogo didáctico.

La oposición Tratado — Diálogo reside, además, en su utilidad pedagógica; por lo demás, su parentesco es bien evidente⁽⁴⁾. La diferencia entre la forma epistolar y la dialogada es, sin embargo mínima. Aparecen en ellas exactamente las mismas funciones, si bien la de Alumno funciona sólo implícitamente (siempre hay un receptor para un **yo**, aunque sea otra parte de ese mismo **yo**, que pasa a ser una segunda persona respecto del primero); la situación de la Verdad respecto de ellas es exactamente la misma. La diferencia es, pues, de subrayado: la presencia del receptor, su intervención directa⁽⁵⁾.

-
- (4) La ausencia de dialéctica en el diálogo didáctico es la que explica esta proximidad; tanto en el tratado como en el diálogo didáctico ejerce su potestad una única perspectiva. Por ello en el Renacimiento, una y otra forma daban cabida a los mismos temas (cf. Jesús Gómez, *El diálogo...*, Cátedra, cit., p. 194). Los propios escritores así lo confesaban abiertamente: Ambrosio de Morales dice así al comienzo de sus *Discursos sobre diversas materias* (Biblioteca Nacional R52683, f. 31): «Ya he dicho atrás del intento que el maestro Oliva mi Señor tuuo de escreuir algunos dialogos en Castellano de cosas Morales, a imitación de Platon y de Marco Tulio. Ahora digo como tambien tuuo proposito de hazer **lo mismo** en algunos discursos que no fuessen dialogos». Esta proximidad, por fin, explica que tantas veces se haya percibido cómo bajo apariencia dialogada, en todo diálogo late en realidad un «monólogo distribuido en dos partes no se sabe si para imprimir a la exposición el ritmo más ágil de la pregunta y de la respuesta, o si para hacer confirmar y reforzar en forma directa» por boca del maestro las que en el alumno son sólo vacilaciones (palabras de G.C. Rossi, en A. Rallo, *El «Mercurio y Carón», de Alfonso de Valdés*, Roma, Bulzoni [Quaderni della Ricerca, Università di Milano, n° 9], 1989, p.30n).
- (5) Entiendo por **forma epistolar** toda forma autobiográfica didáctica, tanto la epístola propiamente dicha como las otras manifestaciones didácticas de la primera persona. Cf. Jesús Gómez, *El diálogo...*, Cátedra, cit., pp. 202-203, para la relación diálogo/epístola, y pp. 203-206 para las otras formas de la primera persona: «Aunque el diálogo, la epístola, la miscelánea, el ensayo y la oratio son formas literarias distintas, todas están caracterizadas por la fusión del proceso didáctico y de la primera persona gramatical, que es la persona gramatical característica del Humanismo y del Renacimiento», p. 2. También habla de este parentesco en las pp. 127 y 128, donde afirma que la mezcla que se da en algunos relatos picarescos de la forma autobiográfica con la dialogada produce una tensión que hace que el relato no pueda desarrollarse con agilidad, afirmación de la que disiento, como se verá en el curso de este trabajo.

El diálogo platónico nace de esa situación real en la que al menos dos personas mantienen un diálogo en el que desempeñan diferentes funciones: uno enseña y otro u otros aceptan, aprenden. Pero aparece ya una cierta complición: son la versión escrita de un supuesto diálogo acaecido en la realidad, por lo que el propio Platón (que, por otro lado, en el plano de la realidad, concibe sus propios diálogos como auxiliares de su tarea docente) se incluye a veces a sí mismo, en el plano literario, como un personaje más de entre los que intervienen en el diálogo; pero, curiosamente, no se permite asumir entonces la función de Maestro; es un Alumno más que recibe las enseñanzas del Maestro. Y es en la autoridad de ese maestro (ficticio, porque es literario, aunque lleve el nombre de un autorizado personaje real) y en el prestigio que le confiere el haber sido su alumno donde justificará Platón su labor de maestro en la realidad. Esta pequeña complicación implica el nacimiento en la literatura didáctica de su función más principal: la de máscara⁽⁶⁾, que aquí seguiremos denominando Maestro. Su función y, subsidiariamente, su caracterización están en relación directa con el concepto de autoridad, tan importante para toda producción cultural anterior al Romanticismo; buena parte de las variantes formales y argumentales de las obras didácticas se comprenderán mejor estudiándolas en relación a la clasificación retórica tradicional de los argumentos de autoridad⁽⁷⁾; y es en esta autoridad del Maestro donde está el germen del potencial abierto y misceláneo común a todos los diálogos.

Claro es que no todos los diálogos platónicos repiten invariablemente la misma estructura⁽⁸⁾. Generalmente, a la hora de clasificar sus diálogos, se suelen distinguir tres grupos: dramáticos, narrativos y mixtos⁽⁹⁾. Seguiré aquí

(6) Vid. las obras citadas en la nota 2, y O.H. Green, «A Hispanist's thoughts on Satire», *Romance Philology*, XVII (1963), pp. 123-33; A. Kernan, *The plot of satire*, New Haven, 1965, y su «Theory of Satire», en J.L. Calderwood y H.E. Toliver, eds., *Perspectives on Poetry*, Nueva York, Oxford Univ. Press., 1968, pp. 125 y ss., así como R. Paulson, *The fictions of Satire*, Baltimore, 1967.

(7) En esta línea vid. el interesante artículo de Luisa López Grigera, «En torno a la descripción en la prosa de los siglos de Oro», *Homenaje a José Manuel Blew*, Madrid, Gredos, 1983, pp. 347-57. Algo similar sería conveniente hacer en el estudio del diálogo, donde, con seguridad, la Retórica actuaría de modo aún más condicionante.

(8) Así, hablar de «diálogo platónico», como hablar de «diálogo lucianesco, ciceroniano», etc., como si estos autores hubieran seguido en todas y cada una de sus obras un único — y original — modelo, es, desde el punto de vista estrictamente literario, una falsedad. Los modelos que los diálogos posteriores imitaron están en las obras, no en los autores. Formalmente no pueden establecerse modelos de este tipo (Platónico, Lucianesco y Erasmano, para M.K. Bénouïs, *Le Dialogue philosophique dans la littérature française du seizième siècle*, Paris, Mouton, 1976; o Platónico, Ciceroniano y Lucianesco — seguidos, respectivamente, por San Agustín, Castiglione y Erasmo —, para Jesús Gómez, *op. cit.*), y sólo desde puntos de vista ideológicos o estilísticos pueden compartirse afirmaciones como que Platón, Cicerón y Luciano «representan tres formas diferentes de escribir diálogos, es decir, tres tipos de paradigmas que determinan la trayectoria posterior del diálogo y su tipología» (J. Gómez, *El diálogo...*, Univ. Autónoma, cit., p. 16).

(9) No existe una clasificación formal más detallada de los diálogos platónicos, cuyo estudio y =

otra clasificación con otra terminología. Distingo, en primer lugar, dos tipos de formas: formas nucleares y formas reduplicadas.

La forma nuclear es la más común, la más, si se quiere, platónica. Hay un solo diálogo, en el que un personaje, llamado generalmente Sócrates, desempeña la función de Maestro, es decir, de poseedor último de la Verdad. Maestro y alumnos se expresan siempre en presente; el lector tiene así la impresión de estar escuchando un diálogo que se representa ante él, en su mismo tiempo. Serían éstos los diálogos llamados generalmente «dramáticos»⁽¹⁰⁾.

Las formas reduplicadas contienen el diálogo nuclear enmarcado bien en una relación autobiográfica, bien en otro diálogo exterior. Hay, pues, dos tiempos diferentes: el del marco, en presente, y el del núcleo, en pasado o en un presente anterior. Hay dos tipos de formas reduplicadas: las recursivas y las no recursivas; en las primeras, el Maestro del diálogo exterior o el *yo* autobiográfico es el mismo personaje que era dentro, en el diálogo nuclear, tan sólo Alumno; es decir, el Maestro nuclear y el del marco no son el mismo personaje, pero éste puede desempeñar esta función sólo porque fue Alumno de aquél y asimiló sus enseñanzas. Entre las formas reduplicadas recursivas de marco autobiográfico, podemos situar el **Banquete** (en el que la recursividad aparece por triplicado, puesto que, como **Los nombres de Cristo**, de Fray Luis, se trata del relato del relato de un diálogo) y **Parménides**; entre las mismas, pero de marco dialogado, encontramos **Critias** y **Teeteto** (en éste, el diálogo que constituye el núcleo se expresa también en presente, en estilo directo, porque no es el relato de un diálogo, sino la lectura de un supuesto diálogo nuclear en el marco de otro diálogo ulterior).

Las formas reduplicadas no recursivas son aquellas que conservan la identidad y la función del Maestro del diálogo nuclear en el marco; tanto en el núcleo como en el marco, es el mismo personaje el que desempeña la función de Maestro; el marco no es pues resultado y demostración de la comunicación de la Verdad. Las hay de marco exterior autobiográfico, como **La República**, **Gérmides** y **Listis**, y de marco exterior dialogado, como **Eutidemo** y **Protágoras**.

Como ya se dijo, la forma que Platón parece preferir es la nuclear. Es también la forma preferida por los escritores de diálogos en la Antigüedad. A este respecto, Cicerón innovó bien poco respecto de la variedad estructural de los diálogos platónicos; su tarea parece haber consistido en subrayar las funciones de los personajes: «es el personaje experimentado, el sabio, el que lleva y

= clasificación se ha abordado hasta ahora desde muy otras perspectivas: filosóficas, temáticas, retóricas, dialécticas, históricas, etc., ya desde Diógenes Laercio, quien la rechaza por considerarla «más propia de la escena trágica que de la escuela filosófica» (*Vidas de los filósofos más ilustres*, Madrid, 1914, I. p. 205), hasta J. Laborde (Le Dialogue platonicien de la maturité, Paris, 1978), quien estudia los procedimientos retóricos, filosóficos y argumentativos, pero no el diálogo como forma ni sus variedades formales (reparto y ordenación de funciones).

(10) Hipias Mayor, Hipias Menor, Ion, Critón, Alcibiades, Laques, Eutifón, Gorgias, Menéxeno, Menón, Cratilo, Fedro, El sofista, El político, Timeo, Critias, Las leyes y Filebo.

conduce el hilo, mientras el ignorante (discípulo) realiza las preguntas»⁽¹¹⁾. Y esta es la diferencia que se ha venido subrayando entre el diálogo platónico y el ciceroniano: que en aquél es el Maestro quien pregunta, mientras que en éste lo suele hacer el Alumno. Pero se trata de una diferencia estructuralmente inoperante: no importa quién pregunte, sino quién posea la Verdad a comunicar; si es el Alumno quien pregunta, quien se dirige al maestro en busca de respuesta, el Alumno está reconociendo (y la retórica subrayando) que sólo hay una Verdad y que ésta la tiene tan sólo el Maestro⁽¹²⁾. La jerarquía funcional no ha cambiado.

Esta caracterización estructural y argumental del diálogo didáctico (sea filosófico o doctrinal; como suelen denominarse desde el punto de vista del contenido) responde formalmente a unas necesidades o propósitos meramente expositivos; la persuasión se le confía a la armazón lógica, a la fuerza de la razón o a la autoridad del encargado de enunciar la Verdad. A Luciano no le bastaba y la complicó, porque su objetivo era suasorio, satírico y valorativo. Luciano no utiliza la Literatura simplemente para comunicar un conocimiento o convencer de la veracidad de una idea a través de un razonamiento; Luciano, a través de ella, quiere imponer sus juicios y valoraciones, su propia evaluación sobre cualquier aspecto, credo a costumbre de la sociedad de su época. La Verdad, que es ahora un juicio, sigue siendo patrimonio del Maestro, que ahora más que nunca es **máscara** del autor⁽¹³⁾.

Así, acudirá Luciano a la fantasía con mucha frecuencia, con lo que aún el didactismo del diálogo filosófico (vehículo de enseñanza y arma de convencimiento) con la amenidad de la literatura de ficción. Es ya lugar común, decir, con Menéndez Pelayo, que «juntando dos géneros harto diferentes, el diálogo filosófico y el de la comedia, logra Luciano un singular compuesto de

(11) Son palabras de Asunción Rallo en la Introducción a su ed. de Cristóbal de Villalón, *El crótalon*, Madrid, Cátedra, 1982, p. 59.

(12) Nadie discute que haya diferencias; lo discutible es le rango que se le otorga a esas diferencias. J. Gómez, por ejemplo, en su documentado estudio, establece una clara frontera entre Platón y Cicerón, la que separaría, según su criterio, el diálogo filosófico del didáctico o doctrinal, objeto éste de su trabajo; pero en cierto lugar admite, sin embargo, que la diferencia entre ellos es básicamente de índole retórica: «Estos procedimientos retóricos configuran una imagen del diálogo didáctico sustancialmente opuesta a la del diálogo platónico. El pensamiento no progresa por el intercambio lógico de preguntas y de respuestas, sino por la acumulación de testimonios» (*El diálogo...*, Cátedra, cit., p. 51).

(13) Discrepo aquí del juicio de Jesús Gómez: «Luciano no plantea sus diálogos como una discusión filosófica ni como una conversación erudita, sino como un breve intercambio de opiniones en el que rara vez hay un maestro que ordene el desarrollo del diálogo» (*El diálogo...*, Univ. Autónoma, Cit., p. 194). Así, en su opinión, mientras en el diálogo doctrinal hay una verdad absoluta, en el diálogo luciano o «circunstancial» «la experiencia personal de los interlocutores y sus diferentes perspectivas relativizan el valor absoluto de la verdad, que no es ya sino una opinión puesta en boca de uno de los interlocutores» (*ibid.*, p. 197); Ciertamente, pero es esa opinión — esa Verdad — la que se les impone absolutamente al resto de los interlocutores.

la manera de Platón y de la Aristófanes»⁽¹⁴⁾, aunque, a mi juicio, le deba más al universal de la Visión, que tomaría, a buen seguro, de los mitos y de la literatura religiosa oriental y semítica que él tan bien conocía⁽¹⁵⁾. De esta mezcla nace la más importante reforma en la estructura del diálogo didáctico, y consiste, básicamente, en alejar la experiencia por la que se llega al conocimiento de la Verdad del alcance del Alumno ; para ello se sirve de la fantasía. Otra novedad estriba en incluir, en sus diálogos más inconfundiblemente suyos, al Platón real (el que utiliza, para su labor docente real el relato de su ficticia o previa experiencia como Alumno) en el seno de la ficción también. Habrá, pues, en la forma del diálogo lucianesco más característica, en realidad dos diálogos: el que sirve de marco y el que autoriza a quien en el marco ejerce de Maestro ; este segundo diálogo se produce siempre en el terreno de la fantasía. Los diálogos lucianescos típicos son, así, como algunos en Platón, formas reduplicadas recursivas de marco dialogado ; la diferencia está en que en su núcleo actúa un nuevo elemento: la fantasía, funcionalmente relevante, aliada siempre de la Verdad y del Maestro.

Hay diálogos de Luciano, como los de los **Dioses**, los de los **Muertos**, la **Travesía del Tirano** que carecen de esa doble estructura dialogal, que siguen la forma nuclear tradicional del diálogo didáctico, aunque con el aditamento funcional, en ellos también, de la fantasía. Y considérese que entiendo aquí «fantasía» en términos literarios⁽¹⁶⁾, no epistemológicos ; de acuerdo con esto, dentro de una obra literaria funciona un elemento fantástico cuando explícita o implícitamente se da a saber o al lector o a alguno de los personajes (en este caso, siempre a los Alumnos del marco) que hay dos realidades en pugna y

(14) Orígenes de la Novela, Madrid, NBAE, 1925, t. III, p. VII. Vid. también P. Bompáire, *Lucien écrivain, imitation et création*, Paris, 1958; Antonio Tovar, *Luciano*, Barcelona, 1949, y A. Vives Coll, *Luciano de Samosta en España*, La Laguna, 1959.

(15) «We learn from anthropologists that in primitive societies every-where poets are the same as seers or prophets. Their compositions come to them in a state of trance or ecstasy, in which they are oblivious to the outer world, and their role in society is to see what cannot be seen by ordinary men», A.C. Spearing, *Medieval Dream-Poetry* [1976], Cambridge University Press, 1980, p. 7 ; en este estudio Spearing plantea el viaje al más allá o, mejor, la «aventura espiritual» en términos de universal literario, que es el que late bajo la poesía de visiones medieval y en particular la **Comedia** de Dante. También precisa que «the tradition in question is one not specifically of dream but of spiritual adventure» (p.6) ; el motivo del sueño sirve de decoro a una experiencia de carácter fantástico sufrida por el yo del poema; se trata también de un modo de disimular el didactismo para hacerlo más interesante y convincente (p. 10).

(16) No creo que la Fantasía o lo fantástico constituya en sí mismo un género literario (como tampoco lo maravilloso), tal y como afirmaba Todorov, cuyo intento de definición se sustenta en nociones tales como «lo extraño» que nada tienen de unívocas y que no remiten a concepto alguno identificable en el campo del estudio de la literatura (Cf. *Introduction à la littérature fantastique*, Paris, Editions du Seuil, 1970, esp. pp. 98 y ss.; tampoco sirve de mucho a este respecto Claude Puzin, *Le fantastique*, Editions Fernand Nathan, 1984). «Fantástico» o «maravilloso» son nociones operantes en literatura que a veces, en determinadas obras o géneros, pueden cargarse de funcionalidad, pero que hay que definir, literariamente, fuera del concepto de Género (sea histórico, sea básico o universal). Los géneros no se definen por una única función.

que una de ellas, la que se presenta como verdadera y superior, o invalida o hace incoherente a la otra, y es inaccesible directamente al lector y a alguno de los personajes. Menipo, en los diálogos de Luciano, es consciente de ser un privilegiado, de estar contemplando una realidad que les está vedada a los demás hombres y que le ayuda a desentrañar la verdad de aquella que antes tenía por única. Situados en el reino de la fantasía (en un mundo que ha superado los límites e imperfecciones del mundo del que provenía Menipo y al que pertenecen aún tanto su interlocutor en el marco — en caso de tratarse de un diálogo reduplicado — como, fuera del texto, los lectores), los juicios a conocimientos de la máscara son inapelables siempre.

En los diálogos de Luciano, el Maestro se encarga de enseñar la Verdad para evaluar, y el objeto de esa evaluación son principalmente tipos sociales o morales dispuestos en sarta, sin ordenación interna alguna. En el diálogo filosófico ortodoxo, el orden de los razonamientos es importantísimo; en un diálogo evaluativo, el orden poco importa, no altera el producto, ni ayuda siquiera a hacerlo más comprensible. La sarta característica de los diálogos de Luciano (tanto nucleares como reduplicados) es consecuencia de una finalidad más satírica o moral que filosófica o doctrinal.

En los diálogos nucleares de los que hablamos, aparece, pues, en medio de un escenario y unos personajes fantásticos, el personaje y la función de Alumno: humano, paradigmático, que contempla la escena y escucha y asume el juicio; es este personaje el que sirve de enlace con el lector (destinatario último de la Verdad), por ser el único personaje del mundo del texto que el lector puede asimilar directamente a la realidad por él conocida. Es el Alumno, así, quien deja abierta la posibilidad de transformar esa forma nuclear en una reduplicada y recursiva.

También en este grupo de diálogos aparece la función de máscara, de Maestro, aunque, en virtud del escenario fantástico, suele aparecer pluralizada, pero sin que ello implique multiplicidad de perspectivas; todos los juicios obedecen a una única perspectiva y jamás entran en colisión, vengan de quien vengan: Rodamante, Cloto, e incluso de los propios condenados, una vez traspasada por ellos la barrera del conocimiento humano: la muerte⁽¹⁷⁾.

El tercer elemento estructural que interesa analizar de estos diálogos es la Verdad, configurada ahora como una sarta de tipos que merecen un juicio;

(17) Es curioso observar cómo, cuando el Alumno nuclear se encuentra fuera del escenario fantástico, la máscara suele aparecer encarnada en una sola persona (el gallo, en el *Gallo*, por ejemplo), mientras que aparece pluralizada cuando el Alumno se encuentra inmerso en él. Muy significativo es que este detalle se dé de nuevo en los *Sueños* de Quevedo: *El alguacil endemoniado* y *El mundo por de dentro* frente al resto de los *Sueños*; ello hace que los orígenes dialogales de la forma que Quevedo escogió aparezcan en aquellos dos de modo más evidente (vid. las pp. 185-212 de mi tesis, cit.), aunque se trate de formas reduplicadas de marco autobiográfico.

sustituye a los contenidos abstractos de los diálogos de objetivo filosófico o doctrinal.

Una estructura algo más compleja es la que ofrecen los diálogos menipeos de Luciano. Su estructura reduplicada se consigue haciendo narrar a Menipo, en un diálogo ulterior, la escena que tuvo el privilegio de contemplar y los diálogos que pudo compartir en el más allá. Es el diseño que encontramos en **Menipo o la nigromancia** y en **Icaromenipo**. En aquél, Menipo, como Maestro, le cuenta a Filónides, como Alumno, su descenso a los infiernos, movido por la insatisfacción que a su curiosidad le producían las respuestas que los filósofos de este mundo daban a sus preguntas; allá tuvo acceso a la Verdad gracias a un Maestro que supera los límites del conocimiento humano: Tiresias. En el núcleo, tanto el escenario fantástico como el carácter extrahumano del Maestro que en él actúa son funcionalmente importantísimos. La experiencia de Menipo, por ser fantástica, la privilegia sobre los demás mortales, quienes, para acceder a ella, tendrán que acudir a su relato. Y es esto lo que le autoriza frente a su amigo Filónides, el destinatario primero e interno del relato; por eso puede Menipo ser su Maestro ahora. De nuevo nos encontramos con el concepto de recursividad funcional: si Menipo puede situarse en un plano de superioridad frente a Filónides es sólo por haber estado él mismo previamente en uno de inferioridad respecto de Tiresias; en ningún caso existe verdadera oposición dialéctica entre los dos Maestros, el del marco y el del núcleo, porque, si aquél lo es, es por haber asumido antes, como Alumno, las enseñanzas de éste.

La estructura del **Icaromenipo** es cabalmente idéntica. Poco importa, como no sea desde un punto de vista argumental, que sea ahora el Olimpo y no el Hades el lugar que visita Menipo: la realidad social queda igualmente juzgada a través de la sarta de tipos, y el juicio queda de igual modo avalado por provenir de un mundo donde habitan seres carentes de las limitaciones de los que habitamos éste. También la forma exterior que arropa y enmarca el diálogo nuclear y el viaje fantástico es funcionalmente relevante en virtud de la recursividad, imprescindible para conectar, de modo dogmático e impositivo, a través de la forma literaria, el mundo de los juicios del autor con el lector⁽¹⁸⁾.

El motivo de la metempsicosis que encontramos en **El gallo** implica algunas diferencias respecto de lo que hasta aquí se ha visto. Persiste lo fundamental: la pareja dialogante Maestro/Alumno, ahora como marco de la experiencia del Maestro, que lo es fantástico. Se trata, de nuevo, de una forma nuclear, como la de los **Diálogos de los dioses**, por ejemplo, pero con una diferencia: no ha sido el Alumno el que ha sido transportado al más allá, sino que es el

(18) No creo que la forma dialogada de las obras de Luciano que narran un viaje al más allá sea, como afirma Bénouis (op. cit., p. 51) advenediza o accesorio; lo que sí es prescindible es la presencia en superficie de la segunda persona del Alumno del marco; es decir, si la forma exterior fuera autobiográfica, la recursividad seguiría garantizada.

propio más allá quien se le presenta al Alumno en su propio mundo de limitaciones. Desde el marco, el gallo Pitágoras relata a Micilo, zapatero simple, su plural experiencia: la sarta de sus diferentes vidas; así, los tipos sociales o morales aparecen de nuevo retratados en su más desnuda verdad — desde dentro — por un fantástico ser que ha llegado incluso a ser ellos, cosa que, evidentemente está fuera del alcance tanto de Micilo (el Alumno) como del lector. Y por si fuera poco, para que no quede resquicio de duda, para que la superioridad del gallo quede aún más patente ante el simple zapatero que le ha escuchado y ante el propio lector, proporcionará a su Alumno al final una experiencia también única y privilegiadora: le hace invisible para entrar en la casa del rico Simón y comprobar por propia experiencia de ese modo que cuanto el gallo le ha dicho es cierto. Estamos ante una variante de las formas nucleares del diálogo, pero este final deja la forma abierta para un posterior relato de Micilo de sus fantásticas experiencias y conversaciones con el gallo a una nueva segunda persona; es decir, lo deja listo para ser convertido en una forma reduplicada y recursiva.

Y la estructura del **Gallo** lucianesco es la misma del **Asno de Oro**, de Apuleyo. Por eso el modelo griego de este último le ha sido atribuido tantas veces a Luciano⁽¹⁹⁾. La diferencia está sólo en la forma exterior que adopta el marco: forma dialogada o autobiográfica; en las dos queda garantizada la recursividad. Pero la diferencia podría adquirir una dimensión mayor si pensamos cómo en las formas nucleares del diálogo platónico no aparecía la forma autobiográfica, que, por el contrario, sí era relativamente frecuente en las formas reduplicadas. El hecho resulta comprensible si analizamos la Verdad en Platón o en Luciano; en Platón es un razonamiento filosófico, así que si se suprime del núcleo al Alumno, el diálogo quedaría convertido en un tratado, ensayístico si la primera persona se manifiesta en superficie a través de la gramática. La Verdad en Luciano, como se ha dicho ya, es de otra índole: es una suma de juicios sin orden interno, juicios que se suelen apoyar en relatos, y no en la lógica o en conocimientos filosóficos o científicos⁽²⁰⁾; si se suprime aquí la segunda persona del Alumno, la obra queda reducida a una suma de relatos sustentadores de juicios, unificados por la experiencia del narrador autobiográfico.

Pero pensemos que, en el marco como en el núcleo, la función verdaderamente imprescindible es la de Maestro, sencillamente porque sin él no hay Verdad; que el Alumno se limita a asentir o, a lo sumo, a plantear preguntas, todo ello para hacer más patente la recursividad, el trasvase de la Verdad a través de la forma literaria. La función del Alumno es la de servir

(19) Cf. Carlos García Gual, *Los orígenes de la novela* [1972], Madrid, Istmo, 1988, pp. 347-350; Carlos Miralles, *La novela en la Antigüedad clásica*, Barcelona, Labor, 1968, p. 93; A. Tovar, *op. cit.*, p. 292, etc.

(20) «En la forma literaria de los diálogos de Luciano, este interés por el **ejemplo** se traduce en una subordinación de la doctrina al caso concreto, es decir, se traduce frecuentemente en narración», J. Gómez, *El diálogo...*, Cátedra, *cit.*, p. 113.

de puente ; si se suprime, quedará sola, en primera persona, la voz del Maestro, pero en ella quedará implicada, también, la presencia del Alumno, pues ahora, más universalmente, lo será todo lector que entre en diálogo con el Maestro a través del libro ; y al lector no se le da tampoco, nunca, la posibilidad de alterar o desmentir la Verdad desde dentro de la obra.

Tanto en el **Gallo** como en los **Asnos** la narración facilita la enseñanza y el aprendizaje. El carácter fantástico del Maestro dota al relato y a la enseñanza que de él se deriva de autoridad ; el principio común en cuanto a la organización de la materia es la sarta, porque en la experiencia de un maestro que ya lo es desde el principio caben cuantos materiales al autor se le antojen. Por eso el diálogo nuclear ha servido tantas veces de soporte estructural a misceláneas y colecciones de cuentos y novelas⁽²¹⁾.

El sueño es sólo un motivo argumental de decoro de la fantasía, y viejo ; es harto fácil encontrarlo en los textos sagrados de todas las religiones, haciendo más verosímil una experiencia fantástica que proporcionó a quien sueña un conocimiento privilegiado y privilegiador. El mismo Platón lo había usado al final de su **República**, y, de la de Cicerón, pronto se independizó el **Sueño de Escipión**.

De nuevo, la diferencia entre este tipo de relatos, frecuentemente decorados por un sueño, y diálogos como los menipeos de Luciano, está sólo en lo más superficial del marco : la aparición en superficie o la sola implicación del Alumno, la forma dialogada o la autobiográfica para el marco. A través de esa primera persona en que el sueño se relata, suena la voz del Maestro, que trata de hacer compartir a la segunda persona del receptor, el Alumno, unas determinadas valoraciones o apreciaciones sobre la realidad, que a él, a su vez, le han llegado, a través de una experiencia fantástica, de un maestro superior. Se trata, pues, de una forma reduplicada de marco autobiográfico.

La clasificación aquí pergeñada difiere en algunos puntos de la de Carmen de Fez, quien aseguraba que los diálogos lucianescos proporcionaron a la posteridad «un tipo de marco ficticio que por su gran generalidad admitía internamente una estructura muy relajada, capaz de aunar materiales de muy diversa procedencia. Se concretaba — continúa — este marco en unos cuantos artificios típicos que coincidían en presentar una visión analítica de tipos, vicios o defectos sociales»⁽²²⁾. Sintetiza y clasifica después estos «artificios estructurantes» en «tres modelos básicos»: 1) la sociedad vista desde las postrimerías, bien sea gracias a un viaje imaginario, bien a una visión ; 2) la sociedad retratada «desde dentro» a través de la metempsicosis, y 3) la

(21) Y se transforma, usando términos de Bompaire, en diálogo de encuadre: «Au sens strict le dialogue d'encadrement serait un cas particulier: la présentation d'un dialogue au deuxième degré. En fait, un dialogue d'encadrement a pour objet de présenter de façon alerte une composition quelconque» (op. cit., p. 209).

(22) Carmen de Fez, **La estructura barroca de «El siglo pitagórico»**, Madrid, Cupsa, 1978, pp. 30-31.

«contemplación del mundo desde una perspectiva privilegiada... y acompañado de un guía especial», cuya función a veces «se desdobra en las de donante y auxiliar mágico (o natural)», en terminología de Propp. Este último grupo lo subdivide a su vez en cuatro: a) desde una atalaya, b) penetrando en los interiores de las casas, c) recorrido del mundo y de la sociedad a través de la visita a un escenario alegórico, y d) «traslado geográfico (por el aire o no) a diferentes lugares geográficos o países»; los dos últimos grupos «no son propiamente lucianescos, sino acuñados por una larga tradición literaria y con especial incidencia en el barroco español», sobre todo c⁽²³⁾.

A mi entender, en esta elaborada clasificación se le otorga importancia «estructurante» a motivos que no pasan de tener sino una relativa importancia en el argumento; además, no puede pasarse por alto el hecho de que varios de estos motivos pueden aparecer en la misma obra, por lo que creo de más utilidad estudiar la estructura de las obras de Luciano y su posterior uso o influencia a través de la organización de las funciones en el seno de cada obra.

De acuerdo con ello y sintetizando lo dicho hasta aquí, encontramos que la forma de las obras lucianescas obedece a cierta unidad: están pensadas para persuadir de unos juicios determinados; para ello, fundamenta esos pre-juicios en una perspectiva que, por situarse fuera de las imperfecciones humanas, objeto de su crítica, es la única verdadera dentro de la obra. Así, se dan los siguientes grupos:

I - FORMAS NUCLEARES :

- I a). Desfile presente de tipos ante el alumno; éste escucha los juicios que sobre ellos hace el Maestro. Es la estructura de los **Diálogos de los Dioses, de los Muertos, de la Travesía del Tirano y de Carón o los contempladores**. Es también, relacionable o no históricamente con Luciano de forma directa y con alguna variante que veremos inmediatamente, la estructura medieval de las **Danzas de la Muerte**.
- I b). Desfile pasado de tipos a los que el alumno accede gracias al relato del

(23) *Ibid.*, pp. 32-40. «Mediante esta *contaminatio* literaria, Luciano crea diferentes modelos dialógicos, entre los que voy a distinguir tres, complementando la clasificación establecida por Carmen de Fez: (1) EL RELATO, que se refiere tanto a aquellos diálogos en los que se narra algún viaje imaginario (*Icaromenipo, Necromancia*), como aquellos otros en los que un protagonista, usando el esquema de la transmigración de las almas, da cuenta de sus vidas anteriores (*El sueño o el gallo*). (2) LA ESCENA. Llamo así a aquellas formas dialógicas en las que se reúne a varios personajes en el mismo espacio, mediante el expediente de la celebración de un juicio (...) o de una asamblea (...). En este esquema se inspiró Quevedo para escribir *La hora de todos y la fortuna con seso*. (3) LA CONVERSACION. Con esta denominación quiero aludir a aquellos diálogos en los que Luciano intenta reproducir la conversación de dos y de tres interlocutores, a través de breves réplicas y contrarréplicas, en las que no tienen cabida extensos discursos o explicaciones teóricas», J. Gómez, *El diálogo...*, Cátedra, cit., p. 114; para el establecimiento y definición de los dos primeros grupos, se ha tomado como criterio el espacio, en cambio, para el último, se ha tomado la retórica.

maestro (de ahí el pasado). Es la estructura del **Gallo** de Luciano y la del **Asno de Oro** de Apuleyo, y es también, por tanto la que está en la base de la Picaresca.

II - REDUPLICADAS :

Son el relato de un diálogo⁽²⁴⁾. Se ha producido en ellas un cambio funcional en virtud de la recursividad. Esta es la estructura de los diálogos menípeos y la que aparece (relacionable o no también con Luciano de un modo directo) en las Visiones, y, por ello, la que está en la base tanto de la **Comedia** dantesca, como de los **Sueños** de Quevedo y sus múltiples imitadores, los autores de Discursos barrocos⁽²⁵⁾.

Estos tres grupos pueden ser seis, según el marco exterior sea dialogado o autobiográfico: **Diálogo de los muertos / Danzas de la Muerte**⁽²⁶⁾, **Gallo / Asno de Oro e Icaromenipo / Anteojos de mejor vista**, o cualquier otro Discurso. Cuando el macor está del todo ausente y no queda vestigio alguno

(24) De nuevo, como en Platón, el diálogo que conforma el núcleo puede aparecer en un presente anterior y, por lo tanto, en forma directa, o bien, como es lo más frecuente, en pasado y relatado de forma indirecta. Distinguir formas nucleares y formas reduplicadas y advertir que, en estas últimas sobre todo, el marco puede ser dialogado o autobiográfico, pero que el núcleo siempre es dialógico, sirve para comprender mejor aquellos diálogos de los que habla Gómez, en los que — según él, «como herencia medieval» — «los límites entre la realidad de la conversación y la del libro no son precisos», como en la **Vita beata**, de Juan de Lucena, donde «el autor... aparece de manera indiscriminada como narrador omnisciente, relatando al lector los pormenores de la disputa, y como interlocutor» (*El diálogo...*, Cátedra, cit., p. 23). Ciertamente no es lo más frecuente una estructura reduplicada para englobar un diálogo en presente y en estilo directo, por tanto; lo normal es la relación (tiempo pasado, estilo indirecto) de un diálogo. El problema no está en los *verba dicendi*, que pueden aparecer tanto en estilo directo (sin partículas subordinantes, primera persona presente en los verbos introducidos), como en el estilo indirecto (partículas subordinantes, tercera y primera persona de pretérito); el problema está en si hay un *yo* explícito que los enuncie y en la relación que ese *yo* guarda con lo introducido por dichos verbos. Por lo tanto, prefiero la oposición nuclear / reduplicado a la de directo / indirecto: «Precisamente lo que determina la oposición entre diálogo directo, sin *verba dicendi*, y el diálogo indirecto, introducido por 'dije yo' o 'dijo él', es la presencia del narrador y, por eso mismo, esta oposición se puede anular si el autor aparece, de manera indiscriminada, como interlocutor y como narrador» (cit., p. 24); esta última frase me parece particularmente desacertada, no sólo por el hecho de confundir las figuras de autor y narrador, sino sobre todo, por olvidar que los *verba dicendi* también pueden ser enunciados por un «narrador» en tercera persona. No está ahí el problema.

(25) Sigo empleando el término «discurso», tal y como lo hacía en mi tesis, aun a pesar de las críticas que esta denominación para el género de los **Sueños** mereció, porque sigo sin encontrar uno que me resulte más convincente (vid. pp. 257-259).

(26) En realidad, la forma de las **Danzas** sería protonuclear: no hay Alumno, ni implícito (no hay autobiografía englobante) ni explícito: (ni interviene ni tan siquiera está presente un personaje similar al Menipo de los **Diálogos de los muertos**, cuya presencia unifique los diferentes cuadros oseudodiálogos — en el sentido que aquí venimos dando al término — entre la Muerte y los diferentes tipos de la sarta; sarta que se sitúa en el presente, y que por ello no es parangonable a la de, por ejemplo, el **Asno de oro**, que por ser pasada y necesitar de un relato, implica a la segunda persona del receptor, aparezca ésta o no explícitamente).

ni de la primera ni de la segunda persona, cuando sólo queda la Verdad, pero ésta sigue siendo de carácter suasorio y crítico, centrada en la sarta de tipos, entonces tenemos el puro costumbrismo, hacia el que evolucionaron tanto la Picaresca como el Discurso.

Luciano no fue original en la invención de formas. Usó, adaptándolas para sus fines y tiñéndolas de un personalísimo acento sarcástico, formas provenientes de la exposición filosófica o de la visión religiosa o mítica. Pero estas convenciones estructurantes (más o menos directamente relacionables con el propio Luciano, pero sí siempre con sus fuentes, por ser éstas universales de la literatura didáctica o de la visión religiosa) siguieron vigentes en la Edad Media. Algo hemos dicho ya de las **Danzas de la Muerte** y de las colecciones de ejemplos, en las que éstos aparecen englobados y estructurados generalmente en un diálogo, de modo que «cada relato se subordina al diálogo marco, que se centra en la relación consejero / aconsejado»⁽²⁷⁾. Hay que tener en cuenta que aunque el diálogo didáctico en obras como **El conde Lucanor** funcione como marco donde se ensartan una serie de narraciones, se sigue en presencia de un diálogo didáctico nuclear, que sólo respecto de esas narraciones podríamos hablar de diálogo marco; quizás para este caso lo más inequívoco fuera hablar de diálogo de encuadre⁽²⁸⁾. Don Juan Manuel, siguiendo una tradición previa, aprovecha la flexibilidad y la latente capacidad miscelánea del diálogo nuclear para hacer narrar a Patronio diferentes historias⁽²⁹⁾, siempre en función del carácter didáctico de ese diálogo, es decir, siempre como Maestro⁽³⁰⁾.

Gracias al humanismo italianizante del siglo XV, se reactivaría en España el cultivo de la literatura didáctica al modo clásico, tanto en su formato autobiográfico, como las comedias dantescas⁽³¹⁾ o las imitaciones del **Sueño de Escipión** y de la **Consolación de la Filosofía** (como lo puedan ser **Lo somni**, de Bernat Metge o la **Visión delectable**, de Alfonso de la Torre), como en su formato dialogado (como la **Vita Beata** de Juan de Lucena).

(27) M. A. Diz, «Relato, fabulación, semiosis: la producción del significado en **El conde Lucanor**», *Modern Language Notes*, 96, n.º 2, 1981, p. 403. Pero véase con detenimiento, A. Prieto, *Morfología de la novela*. Barcelona, Planeta, 1975, esp. el cap. IV, puntos 1 y 2 (pp. 377-396).

(28) *Vid. supra*, n. 21.

(29) Nunca relacionables con él mismo: no son ni sus vidas, como en el **Gallo**, ni su vida, como en el **Asno** (cf. las espléndidas páginas de A. Prieto en su *op. cit.*, 396-405, a las que, sin embargo, conviene hacer alguna matización: pp. 171-176 de mi tesis).

(30) Contrariamente a lo que opinan muchos y muy eminentes críticos (v. gr. M. Bataillon, **Erasmus y España**, Madrid/Méjico, 1979, p. 644), no me parece que el género de los debates medievales tenga mucho que ver con la tradición didáctica y satírica que comúnmente se denomina lucianesca; en ellos sí hay verdadera dialéctica: el agua y el vino quedan al mismo nivel y valen tanto el uno como el otro desde una perspectiva alegórica cristiana: el agua del Bautismo, el vino de la sangre de Cristo, que redimen y salvan; se llega a una síntesis.

(31) «poems whose main substance is a dream or vision dreamt invariably by the 'I' of the poem», donde el soñador o visionario encuentra «an authoritative figure» de quien aprende «some religious or secular doctrine»; en resumen, «it has a narrator, whose experience constitutes the subject matter of the poem» (Spearing, *op. cit.*, pp. 1-4).

Pero con el siglo XVI la sombra de Luciano en la literatura española se hace casi omnipresente, gracias a Erasmo, más por su actitud frente a Luciano — y frente a la propia realidad religiosa de su tiempo — que por su imitación puntual de las obras del samosatense; esa actitud y simpatía de Erasmo hacia Luciano contribuyó a dar actualidad a las obras de éste, con lo que después otros se dedicaron a imitar la forma de sus diálogos⁽³²⁾. Pero no fue sólo el erasmismo la causa del auge lucianesco; éste se debe también al humanismo italiano, que entonces empezaba a ser conocido entre nosotros con cierta profundidad.

Las élites intelectuales del Renacimiento valoraban sobre todas la forma dialogada por muchos motivos: el principal, quizá la autoridad de sus cultivadores clásicos; ello y la teoría de la imitación entonces vigente les llevaba a su cultivo. Pero es que además la forma dialogada era de entre todas las literarias la más natural: siempre hablamos para que se nos escuche, preguntando, respondiendo o sometiendo un pensamiento al juicio de los otros: «Porque, verdaderamente, si no hubiese profía y altercación, nunca se sabría ni descubriría bien la verdad de las cosas ni de la artes», dice Pedro Mejía en el **Coloquio del porfiado**. El diálogo lleva, pues, a la verdad (que existe y es una sola) a través de la autoridad o de la autoridad de la razón. No les pasó desapercibida tampoco a los renacentistas su utilidad pedagógica en virtud de la claridad de la exposición, como tampoco la ilusión de oralidad, en oposición a la pesadez y monotonía del tratado: como máximo ejemplo, el **Diálogo de la lengua**, de Juan de Valdés.

Se compusieron en esta época tanto diálogos ortodoxamente lucianescos, (es decir, aquellos en los que la perspectiva desde la que se formula la Verdad está autorizada, más allá de por el nombre de quien la enuncia o por el razonamiento que la sustenta, por la fantasía), como aquellos otros más próximos a la pureza del diálogo expositivo, platónico o ciceroniano, que fue el modelo que prefirió Erasmo, precisamente por sus valores expositivos y doctrinales y con la que, aun a pesar de la ironía, de los elementos costumbristas y de que sus temas tocaban más a lo moral, venía a recuperar la pureza expositiva del diálogo filosófico clásico. Un mismo autor puede cultivar las dos maneras, como Alfonso de Valdés, con sus **Diálogo de Mercurio y Carón** y **Diálogo de las cosas ocurridas en Roma**⁽³³⁾.

(32) «En los coloquios de Erasmo, como en los de Luciano, tiene mucha importancia el 'relato'... Sin embargo, y a diferencia de Luciano, los relatos de Erasmo siempre responden a una experiencia verosímil. En ningún caso se narran transmigraciones de almas o viajes fantásticos», J. Gómez, **El diálogo...**, Cátedra, cit., p. 130; es decir, no aparece la fantasía y las formas que emplea suelen ser nucleares. La relación entre ambos es, pues, desde un punto de vista formal, muy discutible; están mucho más cercanos en cuanto a su actitud satírica, aunque es cierto que, por llegarnos en buena medida a través del erasmismo, Luciano nos «llegóteñido de aspiraciones críticas y de reforma; la risa escéptica de Luciano se ha perdido en una sátira de pretensiones didácticas y constructivas» (C. de Fez, **op. cit.**, p. 30), hasta que el Barroco la vuelva a recuperar.

(33) Vid. A. Prieto, **La prosa española del siglo XVI**, I, Madrid, Cátedra, 1986, cap. V («Los =

Ciertamente, es de lamentar que haya «quedado fuera del alcance o del propósito de los historiadores de la tradición literaria occidental indicar con claridad en qué consiste el diálogo en prosa», y que, en lo tocante a los diálogos españoles, se haya descuidado también el estudio de sus «elementos artísticos... su sentido total, el origen, extensión y límites de su trayectoria»⁽³⁴⁾. Algunos críticos han notado cómo este profuso cultivo al que los renacentistas sometieron al diálogo, lo dotó «de infinitas posibilidades... que hacían de él un género tan indeterminado y flexible como el ensayo, monólogo humanista»⁽³⁵⁾, y que no logró «cristalizarse en forma determinada»⁽³⁶⁾; los imitadores españoles de Erasmo «extendieron sus obras en varias direcciones, de modo que se entremezclaron con la novela dialogada o con las obras de contenido afirmativo y misceláneo»⁽³⁷⁾, con lo que el diálogo renacentista, «más que un género es un esquema abierto a todos los géneros»⁽³⁸⁾.

= diálogos valdesianos», especialmente las pp. 140-151, dedicadas a Alfonso). Y también el completo estudio de A. Rallo, *El «Mercurio y Carón»...*, cit.

(34) Palabras de Luis Andrés Murillo, «Diálogo y dialéctica en el siglo XVI español», *Revista de la Universidad de Buenos Aires*, IV, 1959, p. 58, extracto también de su tesis inédita *The spanish dialogue of the sixteenth century*, Harvard University, 1953, de la que también procede su «Cervantes' Coloquio de los perros, a Novel-Dialogue», *Modern Philology*, LVIII (1961), pp. 174-185.

(35) Bataillon op. cit., p. 645.

(36) L.A. Murillo, «Diálogo...», cit., p. 56.

(37) *Ibid.*, id.

(38) Eugenio Asensio, «Dos obras dialogadas con influencia del *Lazarillo de Tormes*; los *Coloquios de Collazos*, y, Anónimo, *Diálogo del capón*», *Homenaje a Dámaso Alonso-Cuadernos Hispanoamericanos*, n° 280-282, 1973, p. 390. Lo mismo señala Antonio Prieto, primero en su «Nota sobre la permeabilidad del diálogo renacentista», en AA. VV., *Estudios sobre el Siglo de Oro. Homenaje a Francisco Ynduráin*, Madrid, Editora Nacional, 1984, pp. 365-381, y, más extensamente en su *Prosa del siglo XVI*, cit., donde relaciona esta característica con el hecho de que las poéticas de la época apenas se ocuparan del diálogo (mientras, curiosamente, ellas mismas adoptaban esa forma de exposición): «encerrar el diálogo entre preceptos o normas hubiese sido configurar como género algo que tenía su génesis en la libertad, como expresión del hombre y cuya desbordante práctica escapaba a limitaciones» (pp. 101-102). A. Rallo, por su parte y dentro de esta misma línea, opina que «la forma diálogo constituye un género mixto capaz de acoger a los más distintos elementos, tanto de doctrina como de fantasía» (Introducción a su ed. cit., p. 65). J. Lara Garrido, en una posición intermedia entre el diálogo como género o como esquema abierto a todos los géneros, afirma: «El diálogo que resurge en el XVI constituye un género formalmente amplio, con una teoría y poética propias, que, en atención a diferentes modelos clásicos, se puede realizar en grados variables de literaturidad: desde el tratado puro hasta el simple marco de variadas narraciones» («Los Diálogos de la montería, de Luis Barahona de Soto como realización genérica», *Analecta Malacitana*, II, I, 1979, p. 17; vid. también su «Confluencia de estructuras y sumariaización de funciones en el diálogo renacentista (Un estudio sobre los *Diálogos de la vida del soldado* de Núñez de Alba)», *Analecta Malacitana*, III, 2, 1980, pp. 185-241). Claramente en favor del diálogo como género (aunque no lo definan ni describan) se decantan C. Cuevas en la introducción a su ed. de Fray Luis de León, *De los nombres de Cristo*, Madrid, Cátedra, 1982, p. 48, donde afirma que está «meticulosamente codificado en la teoría y en la práctica», y L. Romero Tovar, «Antonio de Torquemada, el humanista vulgar de los *Colloquios satíricos*», en AA. VV., *Estudios sobre el Siglo de Oro. Homenaje a Francisco Ynduráin*, cit., pp. 393-409. Muchos =

Sin embargo, yo no creo que, aunque flexible, el diálogo viniera «libre de la Antigüedad, sin ningún precepto realmente válido para su orden o estructura»⁽³⁹⁾. De lo dicho hasta aquí se inducirán mis razones, no obstante me voy a permitir ahondar en ellas.

Hay un 'precepto' que resultará, de cara a las consecuencias literarias de la evolución de la forma del diálogo didáctico, de una importancia capital: la anulación desde la forma de toda posible contestación interna a los contenidos; la imposibilidad de la coexistencia en su seno de dos perspectivas, ambas verdaderas al tiempo que diferentes u opuestas. Sólo hay una voz y una verdad: la del Maestro; toda «cuestión comenzada» acaba viéndose «terminada y resuelta» gracias a las «resoluciones y determinaciones del maestro» (Fr. Juan de los Ángeles). Es ésta la función fundamental para definir la estructura del diálogo. Todos cuantos se han ocupado del estudio del diálogo se ocupan del papel funcional del Maestro, empleen o no este término. Y es que los propios autores tenían clara conciencia de que entre los conversadores había de haber uno con mayor autoridad que los demás, al que dan precisamente este nombre. Es el encargado, como máscara, de exponer las tesis del autor y el de disipar, a un mismo tiempo, en los discípulos, o la ignorancia completa o las dudas que les vayan surgiendo hasta dejarles convencidos de la Verdad. De lo que se deriva que tres son los elementos básicos en la estructura de los diálogos didácticos y didáctico-satíricos: la Verdad a transmitir, el Maestro encargado de enunciarla y el Alumno o discípulo, encargado de asumirla.

El Maestro es un «término privilegiado» de la relación dialogal, y se presenta «abiertamente para resolver las dudas y preguntas de los discípulos»⁽⁴⁰⁾. Al Discípulo, pues, sólo le cabe «obecer en todo lo conveniente al arte y creelle, aunque no le entienda, hasta poder por sí disputar y entender la ciencia que aprende»⁽⁴¹⁾. Es una condición necesaria para que el objetivo didáctico o didáctico-satírico (transmisión y asunción de la Verdad) se cumpla, que ni el Maestro ni el Alumno estén individualizados literariamente⁽⁴²⁾. Esto no se contradice con el hecho de que el maestro pueda ostentar un nombre propio

= más podrían citarse, pero no es éste el lugar; si considero útil recordar aquí ciertos títulos de la época centrados en el diálogo: Sperone Speroni, *Apologia dei dialoghi* (1578), T. Tasso, *Dell'arte del dialogo*, Sigonio Caroli, *De dialogo liber* (1612) S. Pallavicino, *Considerazione sopra l'arte dello stile e del dialogo* (1646); entre nosotros, cabría añadir la obra del maestro Alejo Venegas titulada *Discurso sobre el apólogo y el diálogo*, que desafortunadamente no he conseguido localizar.

(39) A. Prieto, «Nota sobre la permeabilidad...», cit., p. 368.

(40) J. Lara Garrido, «Los Diálogos de la montería...», cit., p. 60.

(41) Luis Barahona de Soto, *Diálogos de la montería*, en Lara Garrido, *ibid.*, p. 61.

(42) Cf. J. Gómez, *El diálogo...*, Cátedra, cit., pp. 26 (donde afirma que «en la mayoría de los diálogos didácticos tiende a producirse una identificación absoluta entre la naturaleza individual de los interlocutores y el papel que desempeñan en la transmisión de la doctrina. En este sentido, son significativos los diálogos cuyos interlocutores no tienen otro nombre que el de Maestro y Discípulo»), 53 y 54, entre otras.

que, extraliteraria y contextualmente, contribuya a reforzar la autoridad de la Verdad que transmite. Todo el 'carácter' del Maestro se resuelve en esto: saber autorizado, portavoz autorizado de la Verdad absoluta que el autor le ha encomendado transmitir.

El Alumno frecuentemente carece incluso de nombre propio. Porque ha de ser todos y ninguno, porque su papel es el de suplantar en el seno mismo del texto a todo posible lector, haciéndole asumir con él la verdad del Maestro; así que se limita «a regular la transmisión de la doctrina preguntándole una y otra vez»⁽⁴³⁾.

El Maestro puede tener dos tipos de ascendiente sobre sus Discípulos: bien pertenecer a otro mundo, un mundo sobrehumano, y por ello sobrepasar los muy estrechos límites de las posibilidades del conocimiento humano; es el Maestro fantástico, heredero de los Tiresias, Júpiter o Gallos lucianescos. O bien el sobrepasar, aun siendo un ser humano como los demás, en conocimientos o sentido común a todos los participantes en el coloquio, asumiendo todos ellos, presentes o ausentes, esa supremacía; es el heredero del Sócrates platónico. De entre los fantásticos, tendremos la siguiente variedad:

- a) Maestro fantástico propio: el gallo del **Crotalón**, por ejemplo.
- b) Maestro fantástico mitológico: Mercurio, en el **Diálogo de Mercurio y Carón**, de Alfonso de Valdés⁽⁴⁴⁾.
- c) Maestro fantástico alegórico: Razón, Desengaño, Verdad, Filosofía, Muerte, etc⁽⁴⁵⁾.
- d) Maestro fantástico histórico: Virgilio, M^a de Rojas (en el **Somnium** de Maldonado), porque aparecen una vez muertos y apoyan su autoridad también en esta circunstancia.

Por todo esto, hay que tener mucho cuidado cuando se habla de dialéctica en el diálogo, y particularmente en los del siglo XVI; porque la forma destruye toda posibilidad interna de verdadera dialéctica. No es, pues, «antidogmático», y sólo con mucho cuidado podremos afirmar que el diálogo represente «el género típico del humanismo, en el que se refleja su visión pluralista y abierta del mundo»⁽⁴⁶⁾. El diálogo, como apuntaba Enrique Tierno, «concluye donde

(43) Mientras que el autor «claro está, se identifica con el interlocutor principal, el maestro, que es su portavoz que es su portavoz doctrinal», *ibid.*, p. 53.

(44) Vid. las pp. 18-29 del estudio citado de Rallo sobre este diálogo.

(45) «La tendencia a identificar a cada interlocutor con el papel que desempeña en el proceso didáctico del diálogo conduce a dibujar caracteres abstractos. En este proceso gradual de abstracción, finalmente el autor de diálogos llega a los interlocutores alegóricos o personificaciones ficticias de una idea», J. Gómez, *El diálogo...*, cit., p.27.

(46) Son palabras de Cristina Barbolani, «Los diálogos de Juan de Valdés: ¿reflexión o improvisación?», *Actas del Coloquio Interdisciplinar «Doce consideraciones sobre el mundo hispano-italiano en tiempos de Alfonso y Juan de Valdés» (Bolonia, Abril de 1976)*, Roma, Instituto Español, 1979, p. 195. Una postura similar defiende Prieto en el capítulo III de su =

empieza, ya que se trata de hacer que triunfe una tesis determinada»⁽⁴⁷⁾, por lo que «no existe diálogo en tanto conversación, sino en cuanto desnivel»⁽⁴⁸⁾. Sólo puede admitirse que haya dialéctica en el diálogo entendiendo por tal término una determinada técnica retórica a base de preguntas y respuestas.

Otro de los preceptos a los que se atuvieron quienes escribieron diálogos en nuestro siglo XVI y que contribuye a dibujar su perfil estructural es la recursividad, común a todos los diálogos didácticos y didáctico-satíricos de la época. Podríamos definir esta noción como «cadena funcional»⁽⁴⁹⁾, y así la aplicamos en su momento para la clasificación de los diálogos platónicos. La recursividad es lo que hace que se culmine el proceso de trasvase y asunción de la Verdad, y lo que hace que, una vez asumida ésta por el antiguo Alumno, pueda repetirse el proceso con uno nuevo⁽⁵⁰⁾. Toda forma nuclear de diálogo

= **Prosa, cit.**; también en esta línea parece situarse J. Saboye en su estudio citado, y, claramente, expone así su pensamiento al respecto Ciriaco Morón: «En humanidades el diálogo es el último resultado a que podemos llegar... en humanidades la verdad última es el perspectivismo; y donde éste se admite, la verdad es una búsqueda comunitaria, diálogo» («Sobre el diálogo y sus funciones literarias», *Hispanic Review*, XLI (1973), p. 275). Comparto por completo las duras críticas de J. Gómez a este lugar común: «En general, la finalidad de los diálogos españoles del siglo XVI es la de exponer conclusiones y la de divulgar un conocimiento recibido de antemano. El diálogo que predomina en el Renacimiento español es un instrumento dogmático» (*El diálogo...*, Cátedra, cit., p. 216; vid. también las pp. 52, 53, 62, donde afirma que la forma aparentemente abierta del diálogo no implica necesariamente antidogmatismo, 74-76, donde discute la relación que ultimamente se ha querido establecer entre el diálogo y el concepto bajtiniano del dialogismo, 194, 196, 197, etc.); sin embargo, si parece admitir que haya perspectivismo en el diálogo filosófico (p. 196) y en el que llama «circunstancial», que, según él, es el más propio del Renacimiento, aunque admite que es también el menos cultivado (pp. 63-76, 144, 215, y p. 386 de su tesis); pero incluso en este tipo de diálogos «el valor objetivo de la doctrina todavía existe, aunque esté relativizado, porque el diálogo didáctico, sea o no sea de naturaleza circunstancial, es monológico» (p. 74 del libro). Quizás también debieran revisarse todos esos lugares comunes que presentan al Renacimiento como paraíso del antidogmatismo y la tolerancia; quizás esta herencia del Renacimiento fuera sin embargo una parte marginal en la cultura de aquellos días (cf., en relación con esto, J. Gómez, pp. 177-178 de su libro citado).

(47) Enrique Tierno Galván, *Razón mecánica y razón dialéctica*, Madrid, 1969, PP. 66.

(48) *Ibid.*, id. Véase también Lara Garrido, «Los Diálogos de la montería...» cit., p. 60.

(49) Que Rallo, en la Introducción a su ed. cit., p. 57, llama «cadena dialogística». Lara Garrido emplea el término *recursividad*, si bien parece entenderlo de otro modo: «La comunicabilidad y el trasvase de experiencias y saberes se constituyen en el marco amplio de una estructura didáctica recursiva, en el que la dirección actual... representa tan sólo una particularización» («Los Diálogos de la montería...», cit., p. 61); es decir, la estructura permitiría otra distribución de los roles: si A ejerce como maestro respecto de B y de C, también B lo podría ejercer respecto de A y C, y, del mismo modo, C podría ser en otro momento maestro de los otros. Según mi criterio, sin embargo, esta relación sólo podría establecerse entre diferentes diálogos, como ocurre, por ejemplo, entre algunos de Platón (*Timeo* y *Cratias*) y algunos de Vives (*La educación y Los preceptos de la educación*); es decir, se trata de una relación supratextual y no, como aquí se entiende, de una característica intrínseca e inherente a cada diálogo, ya sea potencial o se haga manifiesta.

(50) «La relación didáctica se establece al comunicar una experiencia que transforma a quien la acepta... hasta hacerlo partícipe, y en consecuencia defensor, de una tesis opuesta a su primaria actitud», J. Lara Garrido, «Confluencia de estructuras...», cit., p. 233.

didáctico es potencialmente recursiva, y esta recursividad se puede manifestar en su seno mismo mediante la adición: es lo que ocurre en el *Crotalón*⁽⁵¹⁾, o bien puede permanecer latente, que es lo que ocurre en la mayoría de los casos. En las formas reduplicadas la recursividad se manifiesta internamente mediante la inclusión, y no mediante la mera adición; el Maestro del diálogo externo o marco fue Alumno en el interno o núcleo. Así, en las formas reduplicadas, la recursividad (o serie de trasvases literarios que sigue la Verdad desde el extraliterario mundo del Autor hasta el extraliterario mundo del Lector) implica la existencia de dos tiempos: un pasado, donde el Maestro del marco se formó como Alumno y acabó asimilando la Verdad desde la boca de un o unos Maestros superiores en un primer contacto o diálogo, y un presente, el del diálogo marco, en el que el antiguo Alumno, transformado por la Verdad asimilada en nuevo Maestro, pretende a su vez trasvasar la misma Verdad que a él lo transformó a un nuevo Alumno, presente o implícito en el nuevo diálogo⁽⁵²⁾. Y así sucesivamente⁽⁵³⁾.

Muchas y muy insatisfactorias son, desde un punto de vista estrictamente literario, las clasificaciones al uso tanto del diálogo de nuestra edad de oro como de las obras de inspiración lucianesca⁽⁵⁴⁾. Hay que recordar, además, que no

(51) Muerto el gallo, «el zapatero se metamorfosea en filósofo: ha adquirido la experiencia, ha conocido la dignidad de su estado, y alcanzado la elocuencia retórica... Su capacidad de asombrar a Demofón... supone el prólogo de un nuevo diálogo, imbricado en el anterior por el canto vigésimo, construyéndose la cadena ininterrumpida de la transmisión de la sabiduría por la palabra. Así se cumple la aparente estructura abierta de todo diálogo, cuyo discurrir se proyecta siempre hacia un futuro al cual el lector ya no va a asistir porque no va a haber transcripción de su acto», A. Rallo, Introducción a su ed. cit., pp. 64-65. La metempsicosis es una consecuencia directa de esta potencial recursividad (*ibid.*, p. 69) de todo diálogo. El inicio y el final de la cadena se sitúan fuera de la literatura, en el Autor y en el Lector, respectivamente: «El gallo y Villalón podrían físicamente desaparecer, pero su comunicación habrá sido recogida por Micilo-lector que, a su vez, erigiéndose en gallo-Villalón, la transmitirá enriqueciéndola en su propia personalidad. De ahí la necesidad de una estructura conformada en Diálogo» (*ibid.*, p. 51).

(52) Jesús Gómez, en el apartado dedicado al «Tiempo» dentro del capítulo I: «La forma literaria» de su obra citada, no estudia estos aspectos; se limita a ir detectando si los diálogos señalan o no «de manera explícita el proceso temporal de la conversación» y cuándo ello «sirve para estructurar el desarrollo del diálogo» (pp. 37-43 del libro).

(53) Cf., por ejemplo, el diálogo *De los nombres de Cristo*, de Fray Luis. Es la recursividad también la que permite que existan picarescas dialogadas (Como Alonso, mozo de muchos amos o la Vida del escudero Marcos de Obregón; no es el caso del Coloquio de los perros, cervantino), e incluso formas reduplicadas de la picaresca (como La desordenada codicia de los bienes ajenos). Vid. A. Rey Hazas, «Género y estructura de El coloquio de los perros o cómo se hace una novela», *Lenguaje, ideología y organización textual en las «Novelas Ejemplares»*, Madrid, Universidad Complutense, 1983, pp. 119-143; Florencio Sevilla, «Sobre el desarrollo dialogístico de Alonso, mozo de muchos amos», *Edad de Oro*, III, 1984, pp. 257-274.

(54) Así, por citar sólo unos ejemplos, Murillo distingue dos formas: la erasmista y la contrarreformista, aquella con una «estructura crítica» y ésta con una «compendial» («Diálogo...», cit., p. 62). Mingote Muñiz establece siete grupos: en latín, políticos, de intención docente, eruditos de divulgación y pasatiempo, platónico-ciceronianos de influencia italiana =

todos los diálogos que se escribieron en el Renacimiento son didácticos, y no se ajustan, por lo tanto, a las leyes compositivas que aquí se ha intentado exponer; muchos de los que compusieron Erasmo o Vives son estrictamente pedagógicos: ejercicios prácticos de gramática latina, tratando de reproducir la lengua en su realidad, es decir, en el proceso mismo de comunicación, que siempre ha de producirse en un diálogo entre un emisor y un receptor; es verdad que en muchos de ellos el autor aprovecha para hacer proselitismo de unos determinados contenidos doctrinales, por lo que aparece la función de Maestro y todo lo que ella arrastra, pero esto no es lo normal en los diálogos pedagógicos. Todo cuanto aquí se ha dicho, pues, se refiere estrictamente a los didácticos o didáctico-satíricos: los encargados del trasvase de una única Verdad extratextual.

En esencia, los renacentistas innovaron bien poco en la forma del diálogo didáctico. Los más ansiosos de originalidad inventaron el diálogo epistolar, en el que nada cambia excepto que la conversación se mantiene por escrito; se trata de una innovación de índole meramente argumental: sigue apareciendo y funcionando el Maestro, como en el Libro I de los **Discursos Morales**, de Juan Cortés de Tolosa, o en los **Consejos políticos y morales**, de Enríquez de Zúñiga. O bien, como Fray Luis de León en **De los nombres de Cristo**, se triplica la estructura. Nada que afecte al reparto de funciones, nada que no estuviera en potencia en el esquema clásico. Así, no veo la necesidad de establecer una clasificación diferente para los diálogos didácticos del Renacimiento y del Barroco. Mantengo pues la distinción tradicional entre diálogo dramático y narrativo, planteada según lo dicho hasta aquí en la oposición formas (forma,

= y de preocupación filológica» (Introducción a su ed. de A. de Miranda, **Diálogo del perfecto médico**, Madrid, Editora Nacional, 1983, pp. 44-45). Ciriaco Morón, por su parte, en «Sobre el diálogo...», *cit.*, establece cinco grupos: platónico, ciceroniano, teatral, galdosiano y existencial; pero en su **Sentido y forma de «La Celestina»**, habla de estos cinco: socrático o platónico, ciceroniano, renacentista, novelístico o teatral y existencial (Madrid, Cátedra, 1984, p. 87). Bénéoui, que rechaza la clasificación tradicional porque «subordina el diálogo al género dramático» cuando él cree «en la autonomía del género dialógico» (*op. cit.*, p. 12), establece los siguientes tipos: de vulgarización científica, de polémica cultural, satírico, de tipo lucianesco, enciclopédico doxográfico, enciclopédico de cenáculo y enciclopédico racionalista. Por su parte, J. Gómez parte en primer lugar de la distinción entre diálogo filosófico y diálogo didáctico; aquél es un «diálogo silencioso del alma consigo misma, un proceso de razonamiento», mientras que en éste «el maestro enseña algo al discípulo o bien intenta persuadir de algo a alguien que defiende la opinión contraria. Ambas variedades de diálogo, catequesis y polémica, son procedimientos retóricos y no, como en el caso del diálogo filosófico, procedimientos científicos o epistemológicos» (*El diálogo...*, Cátedra, *cit.*, p. 65); y después, dentro del didáctico, establece las siguientes distinciones, conforme a las siguientes oposiciones: **directo/indirecto**, respecto a si llevan o no *verba dicendi* (*ibid.*, p. 24); **abstractos/individualizados**, según la caracterización de los personajes (pp. 29 y 42); **polémico/catequístico**, según el discípulo se oponga al maestro o acabe aceptando su enseñanza (pp. 54-56), y finalmente (aunque no queda muy claro si es ésta una subdivisión del **catequístico**), **doctrinal/circunstancial**, dependiendo de la medida en que las circunstancias individuales de los interlocutores afecten o no su asunción de la doctrina (pp. 63-76; véase la cuarta parte de su tesis, que no fue incorporada a la edición de Cátedra, pp. 267-315).

mejor que diálogo) nucleares y formas reduplicadas. Unas y otras pueden transformarse en forma de encuadre⁽⁵⁵⁾, porque la potencialidad enciclopédica y miscelánea se deriva directamente de la función de Maestro.

Y aunque de este potencial estructurante de lo misceláneo ya se usó en la Antigüedad (**Gallo, Asno de Oro**) y en la Edad Media (**Conde Lucanor**), es en el Renacimiento y, sobre todo, en el Barroco cuando se le saca mayor rendimiento. Así, formas didácticas explícitas o implícitas, usadas como marco unificador de diversísimos materiales literarios, hallamos no sólo en las misceláneas⁽⁵⁶⁾, no sólo en obras como el **Crotalón** o el **Viaje de Turquía**, no sólo en ciertas colecciones de relatos⁽⁵⁷⁾, sino en el propio **Lazarillo** y en toda autobiografía picaresca y, por supuesto, en los **Sueños** de Quevedo y todas sus imitaciones. Los lazos que unen y las diferencias que separan estos dos últimos grupos de obras tal vez se comprendieran mejor examinados desde esta perspectiva: formas nucleares frente a formas reduplicadas de origen didáctico ambas.

Pues no cabe imaginar que de tantos diálogos como se escribieron y editaron en aquellas fechas, que se leían tanto que incluso podían «transformarse en género de pasatiempo capaz de hacerle la competencia a la literatura novelesca y de preparar la renovación en más de un dirección»⁽⁵⁸⁾, no haya quedado nada en los géneros no didácticos. Y más en una época que nunca llegó a separar claramente la didáctica del esparcimiento.

(55) Vid. supra n. 21. «A la limite la forme dialoguée de l'épisode central peut disparaître au profit des récits, de larges exposés doctrinaux. Ici encore on pourra rencontre un dialogue d'encadrement» Bompaire, *op. cit.*, p. 209.

(56) Cf. A. Rallo, «Las misceláneas: conformación y desarrollo de un género renacentista», **Edad de Oro**, III, 1984, pp. 159-181. Desde la perspectiva que hemos venido exponiendo a lo largo de estas páginas, cobran especial sentido estas palabras de Rallo en el artículo que acabamos de citar, a propósito de las diferencias que separan la selva de Mejía del **jardín** (dialogado) de Torquemada, diferencia que es la misma que separa la forma del tratado de la del diálogo didáctico: «Antonio [Torquemada] realiza la misma labor que Mexía, pero no desde detrás, sino al descubierto» como Maestro del diálogo (p. 174).

(57) Cf. P. Palomo, **La novela cortesana (forma y estructura)**, Barcelona, Planeta, 1976.

(58) Palabras de Marcel Bataillon, *op. cit.*, p. 648.

MOROCCAN ISLAM IN THE EYES OF A SEVENTEENTH-CENTURY ENGLISH CLERGYMAN

D^r M'hammad BENABOUD

Faculty of Letters at Tetuan

Lancelot Addison's account of Northern Morocco during the seventeenth century is unusually interesting for reasons that give travel accounts as a unique literary genre its importance. Yet Addison's account also stands out for its own inherent characteristics which can only be clarified by analyzing and understanding its author as a sophisticated writer, as a traveler with a meticulous power of observation, as an official representative of his Majesty the king of England and finally, as a clergyman of the Anglican Church. The combination of these attributes enabled Addison to present his own version of what many modern American anthropologists would call «Moroccan Islam». Addison was of course much less sophisticated in his style and method than modern Anglo-American anthropologists, but the basic ingredients were there. More than two centuries before the term Moroccan Islam was coined, Addison actually presented his version of this conception in his **West Barbary, or, A Short Narrative of the Revolutions of the Kingdoms of Fez and Morocco. With an account of the present Customs, Sacred, Civil, and Domestick**⁽¹⁾. The important point to stress here is not whether to accept or reject the term as a true reflection of a religious phenomenon, but the fact that Addison saw Islam in Morocco very much as our modern Anglo-American ethnologists and anthropologists have approached it. Like many modern anthropologists, he claimed to be objective. Like some modern anthropologists, he was critical of some of the narrow-minded approaches to Islam in the West. His claim to rely on first information as a result of contacting natives directly, talking to them and trying to understand their points of views related to their culture and religion resembles the method adopted by some American anthropologists. However, his attempt to cross cultural barriers was only partially successful as I will illustrate in this paper. His basic problem, which is perhaps that of many modern anthropologists, is that he approached Islam and Muslims from a number of preconceived ideas about Islam. Addison has exposed his views of Islam and

(1) Lancelot Addison, 1671. **West Barbary, or, A Short Narrative of the Revolutions of the Kingdoms of Fez and Morocco. With an account of the present Customs, Sacred, Civil, and Domestick**. Oxford, The Theatre. pp.233.

the Muslims rather bluntly in his book on the biography of the Prophet Muhammad entitled. Because the main purpose of this book was to defend Christianity and to attack Islam, it was translated into French for wider circulation and published under the title.

The purpose of this paper is not to illustrate that Addison's prove whether image of eighteenth century Moroccans and their religion was true or false. Rather, I will simply examine how he portrays them to his readers. I will try to compare how he claimed he would approach them and how he actually presented them. The way he actually presented Moroccans and their religion and religious customs to the readers could be sub-divided into two parts. I will attempt to show how at one level he presented Islam in Morocco very much as Moroccan Muslims would have done, and how at another level, he presented «Moroccan Islam» in a totally distorted and fantastic manner. His distortion of Islam in his presentation of Moroccan Muslims and their customs could be explained by one of two factors, either intentional or unintentional motives. Concerning his intentional motives, it is only fair to state that he would not have accepted them as such given that he declared his intention to be objective in the introduction, but I designate them as such, because they correspond to his missionary spirit to present Islam at a level of inferiority vis-à-vis Christianity, which is perfectly normal for an eighteenth century Chaplain of his Majesty the King of England to do. At times when he thought he was being objective, he was in fact being outright slanderous, as is the case whenever he mentions the Prophet Muhammad. As for his unintentional motives to distort «Moroccan Islam», they were simply due to his ignorance, either because he was misinformed by his informants whom he trusted unduly, or because he misunderstood what they told him, perhaps because he could not speak their language fluently. The result of this misunderstanding was amusing when it was not upright comical.

I – ISLAM IN SEVENTEENTH CENTURY MOROCCO

Addison's work was meant to be a historical work and much of it is indeed sound historical writing. It is further interesting in that it presents the views of an outsider who approached the main political events and developments without having any apparent reasons for distorting them. However, the first half of the book, which deserves a special examination, is not the objective of this paper. Rather, I will concentrate only on the second part, which studies Moroccan society and Islam as perceived practiced by Moroccans in this society. Much of the information about Islamic practices in Morocco is both interesting and correct.

Describing the mosques or «Giamma's» in Morocco, the author states, «I shall begin with their Giamma's, Mosches or Churches in which this

Country abounds, and to which the Moors perform a great Reverence and liberality, never suffering them to be profan'd, nor to want a competent stock to keep them in repaires»⁽³⁾.

The author presents a curious and meticulous account of the manner in which mosques were built, and clearly reflects their function as a religious as well as a social institution,»

«The manner observed in the erection of a new Giamma is orderly and laudable, which in thus : When a considerable number of people have agreed and resolved to settle together in neighborhood, they seek out a piece of ground convenient for their purpose, which by mutual consent is divided, every family being allowed sufficient Room, whereof to rear an habitation. This done their next care is to set apart a spot of Earth for the foundation of their Giamma, with great regard that it have no considerable inequality of distance from their several habitations. After they have thus fram'd their Designe the Giamma is first built, to which Holy work all ages, sexes, and qualities of persons contribute their labours Gratis, every one valueing it for a peculiar felicity and honour to have his hands and shoulders wearied in such a sacred imployment. The fabrick or Giamma being finishe'd, they dedicate it to no Patronage but the Publique Worship, nor use any other ceremony of consecration, but only choose one that is able to read the *Al-coran*, whom they accompany to the new Giamma, where some parcel of their Law is read, and their Salla's, or offices perform'd, and from that time it is accounted a Hoy place. And the Giamma being thus raised to its full Stature, every family begins a Cotage for it selff, and when they are built, they seek for an Alfaqui, or Priest, to Officiate in their new Church, with whom they agree for a yearly Pension»⁽⁴⁾.

Addison was amused by the structure of the mosques which he visited and which he describes as follows :

«The Giamma's doe all agree in the fashion of structure ; being all long and generally narrow, not running into Iles, nors branching into Chappels and Quires. Their situation is East and West, without any windows at all, nor have their Giamma's doores but on the North-side. (*They are without the too easie accommodations of Seats, Pews, or benches:*) the floor of the Giamma is handsomely matted, and so are the walls about two foot high. If the roof be

(3) Ibid., p. 134.

(4) Ibid., pp. 134-35.

large and weighty it is supported with pillars, among which hand the lamps, which are kept burning all the night»⁽⁵⁾.

Some of the peculiar aspects which attracted the author's attention most include the minaret which he carefully describes as follows :

«Every Gimma has a turret, on whose top is placed a Crescent, or half Moon (a *Mahumedan* Cognizance) from this Turret, or Sexton, with a loud voice invites the People to prayers, which supplies the forbidden use of Bells. The Moors Keep their Giamma's in a very Reverend decency, never permitting any dilapidations»⁽⁶⁾.

Addison presents statistics concerning the distribution of mosques in different cities as well as the place of the Great Mosque which he calls the «Mother Church» :

«In greater Towns there are many Giamma's : in *Tituan* fifteen, in *Alcazar* more, in *Arzila*, five, and in *Fez* seven hundred. Among which there is a subordination, for the *Giamma Gheber*, or Great Giamma, being the *Cathedral*, or Mother-Church, commands the rest, and is the Cure of the *Alcalib*, or Chief-Priest. To the *Giamma Gheber* all the other Giamma's conforme in the houre of publique offices, and thoug all the rest are hung with Lamps, yet this has one of a peculiar shape and quantity, celled *Ettouria*, or the Master-Lamp, in the testimony of the *Churche's Prelacy*»⁽⁷⁾.

The author was also interested in the economic sources of mosques. He criticises the Christians for not supporting their Churches as benevolently as the Moroccans their mosques in the following passage :

«And now the remarke passeth to the Revenues of the Giamma, which chiefly arise from the Donatives of the dead. In some places the Incoms are very large in all comfortable ; for the Moors exercise a great benevolence to places dedicated to Religion : whereby they reproach many stiled Christians, who cast aside the least shear for the Tenth, and who are so far from enlarging the Churches Patrimony, that they are ready to devour the pitiful Remainder that she still»⁽⁸⁾.

(5) Ibid., p. 136.

(6) Ibid., p. 136.

(7) Ibid., p. 137.

(8) Ibid., pp. 142-43.

Although Addison is extremely critical of Prophet Muhammad and his teachings in general, he did praise his «Commandements». This is clear from the following passage where Addison even refers to him as «Muley Mahumed» or Master Muhammad, a term commonly employed by Moroccans to designate their Prophet : Muley Mahumed in his third Commandment, enjoynes his *Musalmin* Liberally, and Alms-Deeds, which proceeding from goods honestly gotten are according to the *Alcoran* meritorious of Paradise. He likewise prefers private Almes before the publick, and declares the Devil to be an implacable enemy against this expression of mercy. And indeed there are such pious doctrines in the *Alcoran*...⁽⁹⁾.

Addison also appreciated the practice of alms giving to the poor and to religious institutions among Moroccans as in this passage,

«And though they are zealous for all the precepts, yet for none more than that which concernes Alms-deeds ; for they have their *Ashorah* which is an Anniversary Festival, whereat they bestow a certain quantity of their Substance upon the Poore. But the greatest Bounties are towards the Giamma, to which every one at his death leaves a Portion of his estate, by which method the Giamma has considerable endowments, which are under a continual improvement, and made capable of no manner of Alienation»⁽¹⁰⁾.

The author's admiration of some of the religious institutions in eighteenth-century Northern Morocco is at one point accompanied by his criticism of religious cynicism in England. He even accepts and reproduces the following criticism of disrespect for churches in England by a Moroccan who «unluckily», in the author's words, had visided England and is therefore a direct witness :

And by these Reverences in their Carriage toward Holy places and Performances, they are taught to upbraid the Christians, whose behaviours at sacred solemnities some of the Moors are observed to be of a far different character. And this I learned from a Moor who had unluckily been in England to make the animadversion, with whom when I discours'd about this point, he told me with anger and indignation in his looks, that it was a shame o see women, Dogs, and dirty shoes, brought into a place sacred to God's worship, and that men should wald and discourse in a *Mosch*, as in a publick *Borsa* or *Exchange*, and that they should have Chaires there to sit

(9) Ibid., p. 143.

(10) Ibid., p. 144.

in with as much lascivious ease, as at home . which with other actions of the like irreverence he zealously repeated to reproach the Christian. And indeed I was not furnisht with arguments ot (nor could in conscience) excuse any considerable part of his Animadversion...»⁽¹¹⁾.

II – SEVENTEENTH-CENTURY MAROCCAN ISLAM

a) Value Judgements

Apart from the first half of the book which consists of a political history of Northern Morocco during the eighteenth century, the author examines a variety of themes ranging from social themes like «The Moresco Entertainment, fashion of Travelling, Hospitals, Diet, Reverence to Corn, forbidden Meats» in Chapter V to Chapter II which is entitled «Of the Beasts in Barbary, tame and wild».

The author is very critical of the educational system in Morocco which he considers as non existent even in Fez. He considers this to be a justification for their «Growing stupidity and Barbarism». He evaluates it as follows :

The Moors Barbarism ; for the want either of leisure, or lack of oppportunity to study Arts and Sciences, because their whole time is spent in gaining whereon to live, through a deficiency whereof the politest Nations will soon degenerate into ignorance and rusticity. As for the Colledge call'd *Amarodoch* in Fez (whose structure cost King *Aba Henen* 480 000 Crowns, and which has been so amply celebrated for the Concinnity of its building, delighfulness of scituation, carved roof, Mosaic Arches and brazen gates) it is now wholly destitute of Students ? And if the Moors were not carefull to keep up greate store of Petty Schooles, they would soon decay and fall into a total illiterature»⁽¹²⁾.

Addison approached many aspects of Moroccan Islam as an English clergyman. His preconceived ideas and value judgements reflect the position of a professional clergyman whose image of Islam was intentionally distorted, very much in line with his missionary spirit. I have selected a number of quotations which illustrate how Addison defined Islam through an examination of how he conceived of Prophet Muhammad.

His deformation of Islam is clear through an examination of his terminology. In Chapter VI, Addison examines «the *Moresc* Giamma's, or Churches».

(11) Ibid., pp. 150-51.

(12) Ibid., p. 138.

meaning the mosque⁽¹³⁾, in Chapter VII he examines «the Moresco Priests», meaning the fuqaha⁽¹⁴⁾. In Chapter VIII he examines several themes related to prayers and the mosque, including «Church-Musick». Chapter IX is entitled «Of the Moresco Church Government...»⁽¹⁵⁾. However, the terminology only reflects Addison's value judgements, and his animosity towards Islam is most clearly reflected in his image of Prophet Muhammad. His stand is clearly presented in a separate book, but there are several quotations in this book which illustrate his position.

Addison is critical of the Qur'an even when discussing themes like music which have little relation with religion. He states,

«I have been told, that in former time they had in every *Giamma* some Lay-persons, that understood the *Cadences* of the *Alcoran*, and which could sing it in its Original Metre, which must needs be very harsh Harmony, if any at all, in regard of the incapacity that is in the *Alcoran* Language to fall into Syllabical Measures and Tuneable Proportions»⁽¹⁶⁾.

This statement reflects the author's prejudice whenever he mentions the Qur'an. Only his equally ignorant readers would accept his judgement of the style and language of the Qur'an.

Addison did not have the slightest doubt that Muhammad was a false prophet who brought a false revelation and was an importor. The following statement illustrates how his view the Qur'an is full of contradictions :

How determinte the *Alchoran* is in these particulars, falls not within the compass of these remarks, but it is evident to those that attentively.

read it, that the Author thereof seems not in anything to be definitive»⁽¹⁷⁾.

Addison was of the view that Moroccan Islam developed more in line with reason and common sense, despite the confusion of the official prophet of Islam. This statement illustrates the author's view of Muhammad's teachings :

«But whatever the mind of that Impostor concerning the montioned Rites, we find his Sectaries have in all their Dominions made Provision for Solemnity in their Worship»⁽¹⁸⁾.

(13) Ibid., pp. 132-37.

(14) Ibid., pp. 138-46.

(15) Ibid., pp. 155-65.

(16) Ibid., p. 154.

(17) Ibid., p. 133.

(18) Ibid., p. 133.

The following story which the author cites to explain why the Moors chose the fifth day of the week as the «Weekly Festival of the Mahumedans» reflects his strong prejudice quite clearly :

About the Institution of this sabbaoth, variety of Opinions may be met with : for some derive its Original from the veneration *Mahumed* bore to the New Moon, which is said to have appeared on Friday, the same day he began his Imposture ; and in memory of so happy an abodement, he set apart this for Solemn Worship. There is another Conjecture which fetcheth its Institution from some Heathen Rites paid on this day to *Venus*, whose name Friday bears. But there is little ground of this Opinion, further then it may well suit with the Genius of *Mahumedism*, to have a day Sacred to the Goddss of Carnality. But that Opinion herein seems best to agree with the Chronicles of Mahumed, which makes his escape from the Conspiracy of the Nobles of Mecha, to have been the occasion of this Sabbaoth»⁽¹⁹⁾.

The author is categorical regarding his rejection of the teachings of the Qur'an, which he confuses with teachings of Prophet Muhammad when he designates them as «Mahumed's Law». When he exceptionally praises these teachings, he immediately reminds his reader of the general rule, namely that Islam is a false religion. The following passage illustrates this value judgement :

And indeed there are many pious donctrines in the Alcoran, but they are as so many good eares of corn in a good field of Tares, or as so many single grains lost in a heap of chaff : it having been the subtilty of the old Serpent in all ages, to guild over his poysonous Pills, and to blend Truth with falshood, tha the latter might be embrac'd for the sake of the former. Besides it is an ancient mistake to think, that Truth and falshood are of too great a contrariety and distance to mingle and corporate ; which makes many when they have found some truth in Doctrine, to conclude no falshood to be joyned with it. And those truths which are dispersed up and down in Mahumed's Law, being evident to its Prosessors, make them credulous of the whole system⁽²⁰⁾.

b) Ignorance :

Addison's presentation of Moroccan «Church-Musick» is amusing. In fact he wrote about the lack of any sort of music in mosques, not as an accepted

(19) Ibid., pp. 163-64.

(20) Ibid., p. 143-44.

Islamic tradition, but as a result of the ignorance of Moroccans in this art. He expresses his view as follows, «In the closure of this Chapter, I thought to have spoken something of the Moresco Musick in the Mosch, but this I found to be a delightful piece of Devotion, wherein they seem to be very ignorant»⁽²¹⁾. Besides the inability of the Qur'an to promote music among Moroccans, the author attributes the non existence of music to the natural and biological constitution of the Moors who are simply not gifted for music. This he expresses as a first-hand witness in his statement, «Besides, the Moors have very harsh and sawing Voices, as they will have cause to observe who have had their Ears grated with their Amorous Sonnets, in which all are wont to express their sweetest and best moving Accents»⁽²²⁾.

Addison defines several functions of the Almuden, including his duty to «open the doores of the Giamma, to trim the Lamps, and keep the matts in repair and cleanliness. He also informs the *Alfaqui*, who has an inherent power to punish those who can show no good reason of their absence»⁽²³⁾. However, the penalty for this absence is reasonable in the words of Addison, «But the penalty is very tolerable, because no more than five or six pounds of *Cuscussuw*, which the offenders bring to the Giamma, where it is eaten by the Priest and the Assembly»⁽²⁴⁾.

The manner in which Addison portrays one of the five pillars of Islam, namely the five daily prayers, is particularly amusing. In the passage explaining the different prayers, the author presents morning prayers as noon prayers, noon prayers as sunset prayers, and night prayers as morning prayers, confusing or misunderstanding Arabic terms which designate each of these prayers with the praying times they were meant to designate. Here is how Addison explains «the Moresco set-times of Prayer» :

The Moor's *Allahiric Luli*, which is about three a clock in the afternoon ; The third *Atelthah Aser*, at the going down of the Sun ; The fourth *Alarbee Asha*, a little within night ; The last, *Alhamsah Magnib*, which is in winter a little before day»⁽²⁵⁾.

CONCLUSION : ADDISON'S APPROACH

I thought that it would be interesting to conclude this paper with a presentation of Addison's approach as he presented it in his **Preface to the Reader**. Although some of the passages above may reflect the author as having

(21) Ibid., p. 154.

(22) Ibid., p. 154.

(23) Ibid., p. 145.

(24) Ibid., p.

(25) Ibid., p. 147.

failed as an objective scholar, his preface illustrates beyond any doubt that he intended to be very objective. His declared objective for writing his book is extremely noble and consists «...chiefly to make the Justice and Religiousness of a People esteemed Barbarous, Rude and Savage...»⁽²⁶⁾. The author also declares that his goal is

«... to reflect upon their Enormities, who would be reckon'd for the only Illumination of both. And to shew that this Unlick'd, Uncultivated People agree with the wisest Nations, in making the care of Religion and Justice to suppress Vice and encourage Virtue, as the only method to make a State Happy»⁽²⁷⁾.

The author therefore meant to project the inhabitants of Morocco as a pious people who were unfortunately misunderstood by European Christians. The truth is basically what our author was after.

In order to achieve this objective, the author claims to have relied on a method which could hardly fail namely field work. He explains it in the following statement,

As for the Truth of what is written, I have us'd an Industry as probable to ensure me thereof, as the nature of the Subject would give me leave. Having first travel'd the Country, and remark'd as much as such an occasion would afford, and then retain'd a Conversation with such Persons, both Moors and Jews as I found best able to encrease and amend my first Remarks. So that they are not barely the Occasionals of a Journey, nor scrap'd up from Casual Discourses, but the result of some Years Inspection into the People of whom I write ; and that I might not dis-ingeniously impose upon your Belief, I have not contented my self with a single Test, but have rejected several Passages which have not had a sufficient confirmation. It being not my intent to be known for Writing things strange and Romantick, but to be very civil to the World, in putting nothing upon them but what is Firm and Solid».

Apart from his «solid method», the author also selected his sources of documentation very carefully. He refers to «the assistance of some Ancient observing Moors», including «Cidi Hamet Coge (former Alcayd of Alcazar)», as well as the assistance of «an Aged, Inquisitive, noting Person, an Hebrew Sabio, one Joseph Messias, who for many Years had been Secretary of Tituan». He also relied on some published sources, Leo Afer's **Description of Africa**.

(26) Ibid., p. 1.

(27) Ibid., pp. 1-2.

It is perhaps not fair to judge a scholar three centuries after he wrote his work and to expect him to comply with our standards and (conform to) criteria. There is no doubt that Lancelot Addison tried to produce a serious history of Morocco and its social traditions during the eighteenth century. Despite my criticism, I believe that some of the information that he presents is extremely interesting and illuminates our image of seventeenth century «Moroccan Islam» as well as that of the author who portrays it.

PHARYNGEALIZATION IN MODERN STANDAR ARABIC: AN ACOUSTIC PERSPECTIVE^(*)

Taibi NOUR

Faculty of Letters — Tétouan

0. INTRODUCTION :

The articulation of the guttural sounds in Arabic is «still not fully understood» (Butcher and Kusay 1987). To some phonologists, this class of sounds includes the laryngeals /h, ʔ/, the pharyngeals /ħ, ʕ/ and the uvulars /q, X, ɣ/ (Hayward and Hayward 1989) while to others, it also includes the emphatics /T, S, D, D/ because the feature [pharyngeal] is involved in the production of these otherwise coronal phonemes (McCarthy 1989, Jakobson 1957).

In this paper, I will explore and investigate the acoustic correlates of emphasis in Modern Standard Arabic. I will try to answer the following questions:

a. What are, if any, the spectral particulars of the so called pharyngealized segments /T,S,D,/ and by extension /D/?

b. Are there any clear and critical spectral correlates of voicing, of the different articulators, and of the airflow and/or obstruction claimed to be involved in the production of these sounds?

c. How is the acoustic composition of neighboring vowels affected by the presence of a contiguous, especially a preceding, pharyngeal.

Formant frequencies, noise components of frication and their various frequencies, duration and VOT are some of the parameters that I hope will shed light on the major differences between these sounds.

1. METHODOLOGY :

With the help of the soundproof booth in the phonetics laboratory at the University of Wisconsin in Madison, I recorded nine minimal pairs and near

(*) I have received helpful comments from Pr Naciri Khalil and Pr Lynne Dahmen. I am particularly grateful for extensive and detailed comments from Dr Charles Read.

minimal pairs that contrast in the use of pharyngeal sounds and their non-pharyngeal counterparts. The minimal pairs recorded are given in (1) below.

(1)	a.	Word	Gloss
		/mada:/	«extent»
		/maDa/	«is gone»
		/mata:/	«when»
		/maTa:r/	«airport»
		/masa:lik/	«ways»
		/muSa:b/	«tragedy»
	b.	/yadu:mu/	«lasts»
		/fuDu:lun/	«interference»
		/yatu:bu/	«he repents»
		/yaTu:lu/	«lengthens»
		/yasu:mu/	«befall»
		/yaSu:lu/	«roam»
	c.	/yudi:ru/	«manage»
		/yuDi:ru/	«hurt»
		/wati:ratun/	«note»
		/taTi:ru/	«fly»
		/yasi:ru/	«walk»
		/yaSi:ru/	«become»

The sounds under examination are give in (2).

- (2) /t/ voiceless alveolar stop.
 /T/ voiceless pharyngealized alveolar stop.
 /d/ voiced alveolar stop.
 /D/ voiced pharyngealized alveolar stop.
 /s/ voiceless alveolar fricative.
 /S/ voiceless pharyngealized alveolar fricative.

The pairs of words recorded and analyzed were chosen so that the the target sounds always appear in stressed syllables. Stressed syllables tend to lengthen in Standard Arabic. Also, as I had hoped, this combination of a pharyngeal sound and a stressed vowel revealed more acoustic information not only about the formant transitions but about the steady states of the following vowels as well.

The minimal pairs were recorded at least twice for each informant⁽¹⁾, once

(1) There were two groups of informants. The two groups consisted of three males each, ages 25 to 32 and all the informants were native speakers of Arabic. Each informant read the words in isolation and then in a sentence twice. On the third time, the recording was made. It was =

in isolation and once in a sentence. As can be inferred from (1), The three pairs of sounds were studied in the following environments :

- (3) Ca:
Cu:
Ci:

Using CSpeech and Kay 5500 set at a bandwidth of 8Khz, I then proceeded to take the necessary measurements along the parameters given in (4).

(4) a. Frequencies of F1, F2, and F3 of the following vowel in both the transitional states and the steady states.

b. Duration of the target consonants, including both the closure period and the release period.

c. Any salient characteristics such as noise components along the frication, burst or release, voice onset time ; and the presence or absence of aspiration.

Then I compared the recorded values with values reported in Al-Ani (1970). In a sense, his measurements serve as an additional informant for the sake of comparison. The major characteristics and measurements are given in (5) and (6).

(5) Salient Characteristics:

- /t/ A burst in the form of a vertical spike followed by a gap which has weak noise. It is always aspirated in stressed syllables.
- /T/ A burst in the form of a vertical spike-stronger than the spike of /t/ followed by a gap with no noticeable noise components. It shows very little aspiration.
- /d/ A burst (like /t/) accompanied by a voice bar.
- /D/ A short acoustic event in the form of a burst accompanied by a voice bar.
- /s/ Random noise components in the upper frequencies of the spectrum.
- /S/ Random noise components in the upper frequencies of the spectrum.

= hoped that this approach would increase naturalness and help the informants overcome the initial nervousness and intimidation of a laboratory environment. The measurements given here are of two sample informants but the means are based on all informants.

(6) Measurements:**First Informant****a. Ca:**

	/d/	/D/
Context:	/mada:/ «extent»	/maDa:/ «is gone»
F1 (Hz):	645	680
F2 (Hz):	1719 - > 1525	1117
F3 (Hz)	2449	2621 - > 2363
Duration (msc)	68	71
Closure (msc)	62	65
Release	6	4.8

The formant frequencies of the preceding vowel /a/ are basically the same.

	/t/	/T/
Context:	/mada:/ «when»	/maTa:r/ «airport»
F1 (Hz):	602	688
F2 (Hz):	1676 - > 1590	1139
F3 (Hz)	2514	2449
Duration (msc)	130.2	140
Closure (msc)	65	109
Release	64	34

The formant frequencies of the preceding vowel /a/ stayed basically the same.

	/s/	/S/
Context:	/masa: lik/ «ways»	/muSa:b/ «tragedy»
F1 (Hz):	537	602
F2 (Hz):	1697	1160
F3 (Hz)	2707	2428
Duration (msc)	132	128

Both /s/ and /S/ are characterized by random noise above 2578 Hz.

b. Cu:

	/d/	/D/
Context:	/yadu:mu/ «last»	/fuDu:lun/ «interference»
F1 (Hz):	480	520
F2 (Hz):	1760 - > 1080	1120 - > 880
F3 (Hz)	2320	2480
Duration (msc)	93.7	71.8

The change in F2 for /d/ occurs during the first 54 msc of the vowel while it appears to be gradual for F2 of /D/. Also in the burst of /D/ the noise concentration appears to be between 1040 Hz and 3760 Hz.

	/t/	/T/
Context:	/yatu:bu/ «repent»	/yaTu:lu/ «lengthen»
F1 (Hz):	440	512
F2 (Hz):	1480 - > 1000	920 - > 800
F3 (Hz)	2240	2380
Duration (msc)	135	128
Closure (msc)	73	107
Release (aspiration)	62	18.7

The change in F2 for /d/ occurs during the first 56 msc while for /T/ it occurs during the first 47 msc of the vowel /u/.

	/s/	/S/
Context:	/yasu:mu/ «befalls»	/yaSu:lu/ «roams»
F1 (Hz):	480	520
F2 (Hz):	1480 - > 1040	1040 - > 760
F3 (Hz)		2200
Duration (msc)	139	154

Both /s/ and /S/ are characterized by random noise above 2480 Hz. Also noticeable is a lowering of F2 for /S/ even in the preceding vowel /a/.

c. Ci:

	/d/	/D/
Context:	/yudi:ru/ «manage»	/yuDi:ru/ «hurt»
F1 (Hz):	320	560
F2 (Hz):	2120 - > 2280	1360 - > 2040
F3 (Hz)	2840	2560
Duration (msc)	76	87.5
Closure (msc)		67
Release		21

The change in F2 after /d/ occurs towards the end of the vowel while the change after /D/ occurs in the first 37 msc of /i:/.

	/t/	/T/
Context:	/wati:raturun/ «note»	/taTi:ru/ «fly»
F1 (Hz):	451	387
F2 (Hz):	2105 - > 2277	1504 - > 2234
F3 (Hz)	2793	2578 - > 2879
Duration (msc)	168	108
Closure (msc)	109	90
Release (aspiration)	61	20

The change in F2 after /T/ occurs in the first 50 msc of the vowel /i:/

	/s/	/S/
Context:	/yasi:ru/ «walk»	/yaSi:ru/ «become»
F1 (Hz):	387	460
F2 (Hz):	2363	1504 - > 2148
F3 (Hz):	3008	2535 - > 2707
Duration (msc)	144	142

/s/ shows as random noise (frication) above 1891 Hz while /S/ shows as frication above 1676 with weak formants especially around F4 and F5. The change in the formant frequencies in the vowel after /S/ occurs in the first 50 msc.

Second Informant

a. Ca:

	/d/	/D/
Context:	/mada:/ «extent»	/maDa:/ «is gone»
F1 (Hz):	520	559
F2 (Hz):	1640 - > 1280	1289 - > 1117
F3 (Hz):	2840 - > 2520	1805 - > 1891
Duration (msc)	80	80.8
Closure (msc)	58.2	62.4
Release	17.6	16.3

Both /d/ and /D/ are spectrally reflected by a closure and a burst accompanied by a voice bar. The major noise component during the burst for /d/ is between 2965 Hz, close to F3, and 5156 Hz. There is also some noise between 6617 Hz and 7691 Hz. The noise component for /D/ is not as intense as for /d/. It is concentrated between 2664 Hz and 4941 Hz of the burst period.

	/t/	/T/
Context:	/mata:/ «when»	/maTa:r/ «airport»
F1 (Hz):	640	680
F2 (Hz):	1600 - > 1400	1160
F3 (Hz):	2600	2800
Duration (msc)	137	130
Closure (msc)	64	114
Release (aspiration)	73	15

F3 has a corresponding weak formant in the aspirated release of the consonant /t/. The noise concentration during the burst of /T/ is between 1203 Hz and 3588 Hz and also between 3953 Hz and 5500 Hz.

	/s/	/S/
Context:	/masa:lik/ «extent»	/muSa:b/ «tragedy»
F1 (Hz):	640	680
F2 (Hz):	1720	1280
F3 (Hz):	2880	2600
Duration (msc)	142	159

b. Cu:

	/d/	/D/
Context:	/yadu:mu/ «last»	/fuDu:lun/ «interference»
F1 (Hz):	365	385
F2 (Hz):	1590 – > 816	816
F3 (Hz):	2535	2664
Duration (msc)	103	89.8
Closure (msc)	81	81.9
Release (aspiration)	24	7.9

The noise concentration for /d/ in this pair is between 1500 Hz and 3910 Hz. The locus for /d/ seems to be much higher than for /D/.

	/t/	/T/
Context:	/yatu:bu/ «repent»	/yaTu:lu/ «lengthen»
F1 (Hz):	365	387
F2 (Hz):	1160 – > 967	859
F3 (Hz):	2428	2621
Duration (msc)	149	121
Closure (msc)	55.3	108
Release (aspiration)	93.9	13

F2 for the preceding vowel /a/ is at 1848 Hz before /t/ and changes from 2020 Hz to 1246 Hz before /T/. This shows the influence of pharyngealization on preceding vowels as well.

	/s/	/S/
Context:	/yasu:mu/ «befalls»	/yaSu:lu «roams»
F1 (Hz):	387	430
F2 (Hz):	1311 – > 838	900
F3 (Hz):	2535	2707
Duration (msc)	223	179

F2 of the preceding vowel is lower before /S/ (1461 Hz) than before /s/ (1851 Hz)

c. Ci:

	/d/	/D/
Context:	/yudi:ru/ «manage»	/yuDi:ru/ «hurt»
F1 (Hz):	387	460
F2 (Hz):	2320 - > 2492	1504 - > 2020
F3 (Hz)	2836 - > 2965	2621
Duration (msc)	93.5	92
Closure (msc)	71.3	81.9
Release	22	10

F2 of the preceding vowel /u/ changes from 1934 Hz to 988 Hz before /D/, a change that does not occur before /d/.

	/t/	/T/
Context:	/wati:ratun/ «note»	/taTi:ru/ «fly»
F1 (Hz):	440	520
F2 (Hz):	2360	2000 - > 2360
F3 (Hz)	2800	2590
Duration (msc)	175	146
Closure (msc)	60	120
Release (aspiration)	109	28

The change in F2 after /T/ occurs within the first 23 msc fo the vowel /i:/

	/s/	/S/
Context:	/ʔasi:ran/ «prisoner»	/yaSi:ru/ «become»
F1 (Hz):	360	420
F2 (Hz):	2280 - > 2360	1640 - > 2280
F3 (Hz)	2800	2600
Duration (msc)	185.9	170

The change in F2 after /S/ occurs in the first 40 msc of the vowel /i:/.

Both /s/ and /S/ in this pair are characterized by random noise (frication) above 3240 Hz.

Al-Ani's measurements

a. Ca:

	/t/	/T/
Context:	/ta:/	/Ta:/
F2 (Hz):	1300 - 1350	1050 - 1150
Duration (msc)	190 - 260	120 - 210
Closure (msc)	150 - 200	100 - 180
Release (aspiration)	40 - 60	20 - 30

	/s/	/S/
Context:	/sa:/	/Sa:/
F2 (Hz):	1500 - 1600	1050 - 1150
Duration (msc)	100 - 170	100 - 170

The frication in /s/ and /S/ is in the upper frequencies above 3000 Hz. Occasionally some resonance in the form of weak formants appears along F2 (1600 Hz) and F3 (2400 Hz).

b. Cu:

	/t/	/T/
Context:	/u:/	/Tu:/
F2 (Hz):	1400 - > 750 - 800	1000
Duration (msc)	190 - 260	120 - 210
Closure (msc)	150 - 200	100 - 180
Release (aspiration)	40 - 60	20 - 30

	/s/	/S/
Context:	/su:/	/Su:/
F2 (Hz):	1350 - 1400	800 - 1100
Duration (msc)	100 - 170	100 - 170

c. Ci:

	/t/	/T/
Context:	/ti:/	/Ti:/
F1		1000
F2 (Hz):	1900 - 2000	1100 - 1300
Duration (msc)	190 - 260	120 - 210
Closure (msc)	40 - 60	100 - 180
Release (aspiration)	150 - 260	20 - 30

	/si:/	/Si:/
Context:		300 - > 550 - 650
F1:		1150 - 1250
F2 (Hz):	2000 - 2100	100 - 170
Duration (msc)	100 - 170	

(7) Vowels in isolation (Al-ANI 1970:35)

Vowel	Duration	F1	F2	F3
/i/	300	290	2200	2700
/i:/	600	285	2200	2700
/u/	300	290	800	2150
/u:/	600	285	775	2050
/a/	300	600	1500	2100
/a:/	600	675	1200	2150

(8) Average of formant frequencies in Hz for males (Peterson and Barney 1952: 183)⁽²⁾

	/i/	/e/	/æ/	/a/	/o/	/u/
F1	270	530	660	730	750	440
F2	2290	1840	1720	1090	840	1020
F3	3010	2480	2410	2440	2410	2240

3. Discussion:

From an articulatory point of view, «a pharyngeal articulation is one in which the root of the tongue assumes the shape of a bulge and is drawn towards the vertical back wall of the pharynx to form a stricture» (Delatre 1971: 129)⁽³⁾. Delatre was not the only one to study the status of pharyngeals from an articulatory point of view (see Ali and Damiloff 1974 ; Khan 1975 ; Al-Ani 1970 ; Boff 1983 among others). The pharyngeals (or emphatics) have also received some attention in relation to their phonological behavior and patterning (see McCarthy 1989 ; Hyward and Hayward 1989 ; Hoberman 1981 and 1985 ; Kinkade 1967 among others). My interest in the emphatics, however, stems from the desire to study their physical properties from an acoustic point of view⁽⁴⁾ and pin down the spectral correlates of their influence on neighboring segments within the framework of experimental phonetics and laboratory phonology. In this respect, the present study has revealed a number of encouraging and unprecedented findings and conclusions.

As far as the consonants themselves are concerned, it was difficult to assert any specific pattern except in the case of the phonemes /t/ and /T/. Although both /t/ and /T/ are voiceless stops uttered by the informants in the context of a stressed syllable, aspiration was much more prominent with /t/ than with /T/. On average, the release of /t/ was 68msc before /a:/, 77 msc before /u:/ and 85msc before /i:/; while the release of /T/, on average, was 24msc before /a:/, 15msc before /u:/ and 24msc before /i:/. The only other distinctive spectral factor is applicable to /s/ and /S/. Being fricatives, they both show random noise characteristic of friction in higher frequencies.

The most important conclusions relate to the effect of pharyngealization on the following vowel⁽⁵⁾. Comparing the means in (9)⁽⁶⁾ to Al-Ani's (1970) and

(2) These formant values as based on a study of English vowels.

(3) see print-out A.

(4) See Ali and Daniloff 1972 & 1974 ; Butcher and Ahmad 1987 ; El-Halees 1985, and Kuriyagwa et al 1967 for other acoustic studies whose focus is different from the one presented here.

(5) The preceding vowel is also affected in the same way when it is identical to the vowel that follows the pharyngeal. When it is different, we notice a dramatic lowering of F2 and other changes in F1 and F3.

(6) The means given in (9) are computed on the basis of the actual measurements done in the phonetics laboratory. They do not include Al-Ani's measurements.

Peterson and Barney's (1952) formant values (given in (7) and (8) above) will help capture these conclusions.

(9)

a. Ca:

	/d/	/D/	/t/	/T/	/s/	/S/
F1	582	619	621	674	588	641
F2	1679 - > 1402	1203 - > 1117	1638 - 1495	1149	1708	1220
F3	2484	2213 - > 2127	2557	2624	2793	2514
Duration	74	75	133	135	137	143
Closure	60	63	64	111	N/A	N/A
Release	11	10	68	24	N/A	N/A

b. Cu:

	/d/	/D/	/t/	/T/	/s/	/S/
F1	422	442	402	449	433	464
F2	1675 - > 1948	1120 - > 848	1320 > 983	889 - > 800	1395 - > 939	970 - > 760
F3	2427	2572	2334	2500	2287	2453
Duration	98	80	142	124	181	166
Closure	81	81	64	107	N/A	N/A
Release	24	17	77	15	N/A	N/A

c. Ci:

	/d/	/D/	/t/	/T/	/s/	/S/
F1	353	510	445	485	373	450
F2	2220 - > 2386	1432 - > 2030	2232 - > 2277	752 - > 2297	2321 - > 2360	1572 - > 2214
F3	2838	2590	2796	2584	2904	2567
Duration	84	89	171	127	164	156
Closure	71	74	84	105	N/A	N/A
Release	22	15	85	24	N/A	N/A

In comparing these means with the formant values reached by Al-Ani and the ones confirmed in Peterson and Barney, we notice that the change from the plain coronals to the pharyngealized coronals in the vicinity of /a/ induces an increase in F1, a significant decrease in F2 and may induce a change in F3 as well. These changes go in tandem with the variations in formant frequencies that characterize the movement from [æ] to [a]. We can conclude with a high degree of certainty that pharyngealization has a backing effect on low vowels in Modern Standard Arabic⁽⁷⁾.

(7) I do not make a distinction between Classical Arabic and Modern Standard Arabic because whatever morphological or lexical variations are claimed to exist between these two varieties are not relevant to the analysis presented here.

Second, The pharyngeals when adjacent to /u/, systematically induce a slight increase in F1, a dramatic decrease in F2 and a slight increase in F3. These modifications of the formant frequencies have a lowering effect on the high back vowel [u] and are consistent with the move from [u] to the back rounded vowel [o].

Third, it can be safely concluded that pharyngealization has a lowering effect on high front vowels as well. Also, when pharyngeal consonants are adjacent to /i/ they uniformly induce a notable increase in F1, a major decrease in F2 and a significant decrease in F3. All three are concordant with the transition from [i] to [e].

Finally, it is important to note that pharyngealization affects not only the vowel that follows the pharyngeal segment, but also the vowel that precedes it. Although this investigation was not concerned with the detailed spectral consequences on the vowels preceding the pharyngeals, we notice that when the contiguous vowels were identical, they were affected in the same fashion. When they are different, the preceding vowels still undergo a lowering of F2 and significant changes in F1 and, at times, F3 (see spectrograms B, C and D).

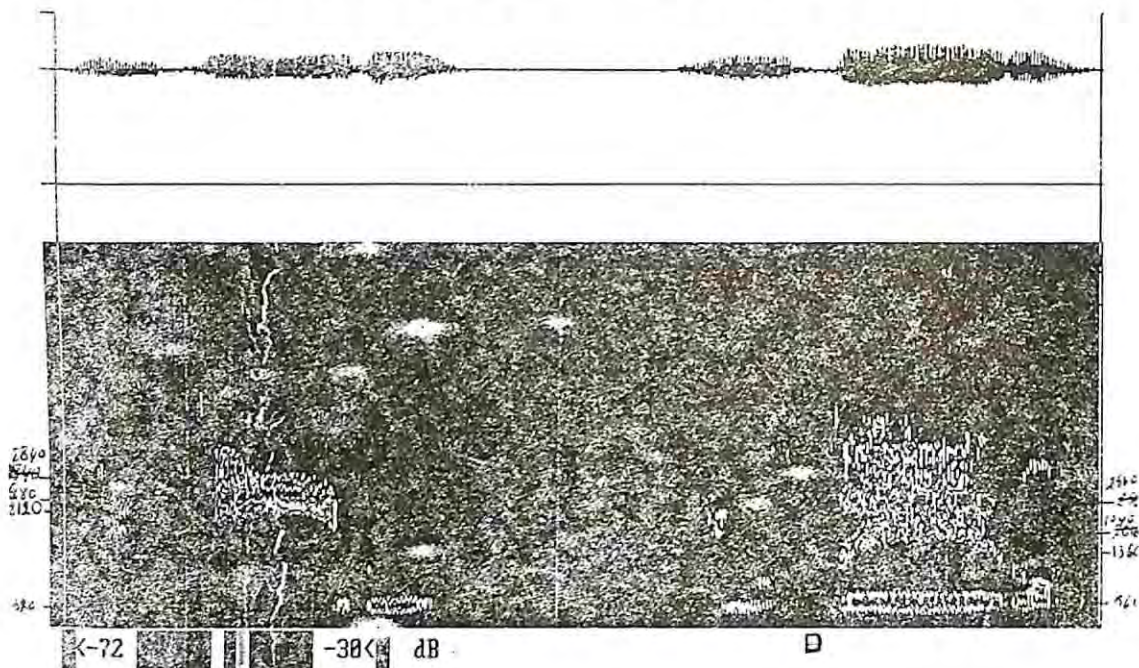
While the changes affecting F3 are, at times, not entirely clear, it is obvious that the stricture in the pharyngeal area causes an automatic rise of F1 and fall of F2. This phenomenon has beneficial implications for a theory of coarticulation that's concerned with the spread of emphasis as a secondary articulation. It seems that pharyngealization may affect more than one segment at a time and that its effect is bi-directional. However, more research with a wider pool of informants is needed to determine the scope and extent of these effects and to lay the ground for a thorough perceptual study of emphasis.

BIBLIOGRAPHY

- AL-ANI, H. 1970. **Arabic Phonology: An Acoustical and Physiological Investigation**. Mouton: the Hague.
- ALI, L & R. DANILOFF. 1972. «A Contrastive Cinefluorographic Investigation of the Articulation of Emphatic-Nonemphatic Cognate Consonants». **Studia Linguistica** 26: 81-105.
- ALI, L & R. DANILOFF. 1974. «The Perception of Coarticulated Emphatics». **Phonetica** 29: 225-231.
- BOFF, D. 1983. «Contribution à l'Etude Experimentale des Consonnes d'Arrière de l'Arabe Classique (Locuteurs Marocains)». **Travaux de l'Institut Phonétique de Strasbourg** 15: 1-363.
- BUTCHER, A. & K. Ahmad. 1987. «Some Acoustic and Aerodynamic Characteristics of Pharyngeal in Iraqi Arabic». **Phonetica** 44: 156-172.
- DELATTRE, P. 1971. «Pharyngeal Features in the Consonants of Arabic, German, Spanish, French, and American English». **Phonetica** 23: 129-155.
- EL-HALEES, Y. 1985. «the Role of F1 in the Place-of-articulation Distinction in Arabic». **Phonetica** 13: 287-298.
- HAYWARD, K. & R. HAYWARD. 1989. «Gutturals: Arguments for a New Distinctive Feature». **Transactions of the Philological Society** 87: 179-193.
- HOBERMAN, R. 1985. «The Phonology of Pharyngeals and Pharyngealization in Premodern Aramaic». **Journal of the American Oriental Society** 105: 221-231.
- HOBERMAN, R. 1981. «Parameters of Emphasis: Autosegmental Analyses of Pharyngealization in four Languages». **Journal of Afroasiatic Languages**. 2: 73-97.
- JAKOBSON, R. 1957. «Mufaxxama, the 'Emphatic' Phonemes of Arabic». in E. Pulgram (ed.) **Studies Presented to Joshua Whatmough on his 60th Birthday**. The Hague: Mouton 105-115.
- KINKADE, M.D. 1967. «Uvular-Pharyngeal resonants in Interior Salish». **International Journal of American Linguistics** 33: 228-234.
- KURIYAGWA et al. 1988. «Electromyographic study of Emphatics Consonants in Standard Jordanian Aabic». **Folia Phoniatrica** 40: 117-122.
- MCCARTHY, J. 1989. «Guttural Phonology». ms. University of Massachusetts, Amherst.
- PETERSON, G. and L. BARNEY. 1952. «Control Methods Used in the Study of he Vowels». **JACA** 24: 175-184.

Time/freq: Screen Analysis Play Main menu
Ch 1 0.008 Volts Final = 2101.045

Length = 2011.591 Freq = 0,5 Hz



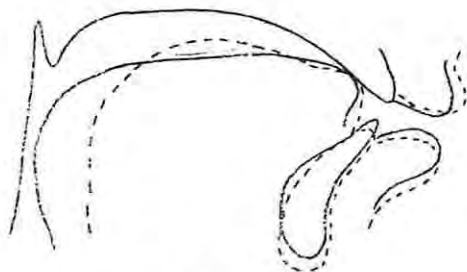
/yadi:ru/ «manage»

يدير

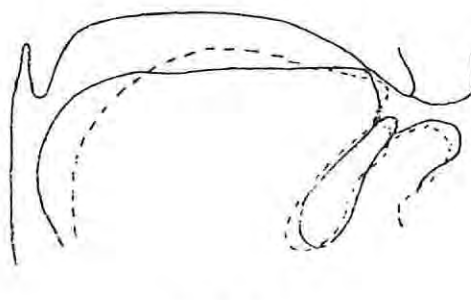
/yuDI:ru/ «hurt»

يضر

Al-Ani (1970)



/t/ in /tu/
/T/ in /Tu/



/t/ in /ti/
/T/ in /Ti/

ملخص :

ظاهرة التفخيم في اللغة العربية الفصحى^(١) دراسة «أكوستيكية»

هذه دراسة آلية لظاهرة التفخيم في اللغة العربية الفصحى هدفها ليس فقط تحديد الأوصاف «الأكوستيكية» للحروف المفخمة في اللغة العربية بل كذلك النظر في ظاهرة التفخيم ككل وتحديد المقاييس التقنية للأصوات والمصوتات المكونة لهذه الظاهرة. هذه الدراسة التي تم قسم كبير منها في مخبر جامعة وسكانسون للصوتيات التجريبية (بالولايات المتحدة الأمريكية) تسير اتجاه البحث الحديث الذي يحاول جعل اللسانيات علما مضبوطا خاضعا لمقاييس مدققة يمكن تداولها ببرامج الحاسوب في إطار اللسانيات الحاسوبية والفونولوجيا الخبرية أو الآلية.

المنهجية :

اعتمدت منهجية هذا البحث على تسجيل مجموعة مضبوطة من الكلمات التي تتوفر على أصوات مفخمة وكلمات مماثلة تتوفر على أصوات مرفقة من طرف 6 أشخاص عرب أي أن لغتهم الأم هي العربية. بعد ذلك تم تحليل ودراسة هذه التسجيلات بطريقة آلية مضبوطة خاضعة لمقاييس هندسة الصوت بمساعدة برنامج الحاسوب Cspeech وجهاز Kay 5500 للدراسات الآلية. ويتضمن البحث أرقام ونتائج هذا التحليل المدقق كما يتضمن مقارنة هذه النتائج مع نتائج دراسة كان قد قام بها الدكتور الآني سنة 1970. غير أن هذه الدراسة تعدت دراسة الآني لتنظر في ظاهرة التفخيم وليس فقط أوصاف الحروف المفخمة، وتضمنت الدراسة مقارنة مع دراسة بترسن وبارني لسنة 1952 للمصوتات (Vowels).

(١) أتقدم بشكري الجزيل إلى الدكتور محمد الكتاني، قيدوم كلية الآداب بمرتيل على تشجيعه المستمر لي شخصيا وللبحث العلمي بصفة عامة، كما أتقدم بشكري الصادق إلى الأستاذ خليل الناصري والأستاذة لين دابن علي نقدهم البناء، وأظل مدينا للدكتور شالزريد، مدير مخبر الصوتيات الآلية بجامعة وسكانسون على مساعدته المستمرة طوال مراحل هذه الدراسة، لايفوتني كذلك تقديم شكري للدكتور عبد اللطيف أقيب، رئيس شعبة الانجليزية وأعضاء اللجنة العلمية الأستاذ العلمي أحمد، الأستاذ الناصري خليل والأستاذ مارس أحمد على مساندتهم وتشجيعهم.

نتائج البحث :

توصل هذا البحث إلى نتائج غير مسبقة خاصة في ظاهرة التفخيم حيث ضبط المميزات «الأكوستكية» الملازمة لظاهرة التفخيم وهي بتلخيص شديد كما يلي :

إن التغيير من الحروف النطعية (الاسنانية) إلى الحروف المفخمة يوجب زيادة في المكون الصوتي الأول F1، انخفاض ملحوظ في المكون الصوتي الثاني F2 وتغيير في المكون الصوتي الثالث F3. وهذه التغييرات تتوافق مع التغييرات الواجبة التي تجعل المصوت المرقق [x] يختلف عن المصوت المفخم [a]، ويوضح هذا أن ظاهرة التفخيم تسبب حركة مصوثة ورائية (Backness).

بالقرب من الموصت [u] يفرض التفخيم زيادة قليلة في قيمة المكون الأول F1، تغيير بل زيادة كبيرة في المكون الثاني F2 وزيادة طفيفة في المكون الصوتي الثالث F3. وهذه التغييرات هي التي تعطي المرور من المصوت [u] إلى المصوت الأسفل [o].

ثالثا، استنتج أن ظاهرة التفخيم تفرض كذلك تغييرا إلى الأسفل بالنسبة للمصوتات الأمامية، مثلا [i]، بالفعل فإن أي حرف مفخم بالقرب من المصوت [i] يفرض زيادة ملحوظة في المكون الصوتي الأول F1، انخفاض مهمما في المكون الصوتي الثاني F2 وانخفاضا كبيرا في المكون الصوتي الثالث F3. وهذه التغييرات تتوافق مع المرور من المصوت [i] إلى المصوت الأسفل [e].

لوحظ كذلك أن هذه التغييرات لا تمس فقط المصوتات التي تأتي بعض الحروف المفخمة بل كذلك المصوتات التي تسبقها وبنفس الشكل، ويتضمن النص الانجليزي مناقشة موسعة لجميع النتائج.

نتائج هذا البحث التطبيقية تدخل في إطار المعارف المضبوطة الضرورية لكتابة وإنتاج برامج الحاسوب المتعلقة بالآلات الناطقة باللغة العربية، أو بإنتاج برامج الإعراب الالكترونية أو الترجمة الآلية أو بث وتلقي الدبذبات المكونة للمصوتات عبر خطوط الإتصال.

أملّي أن يشجع هذا البحث السادة الباحثين والأساتذة المختصين على الاتصال وتبادل المعلومات من أجل مساهمة هذا الاتجاه العلمي بشكل رائد.

WESTERN BARBARY⁽¹⁾ AUTHENTIC EXPERIENCE OR FICTIONAL ACCOUNT?

Abdellatif AKBIB
Faculty of Letters — Tétouan

Western Barbary presents an interesting case of a travel account in which the writer's execution thwarts the reader's expectations. On reading the two-page introduction, the reader of *Western Barbary* is struck by the writer's intentions to record with accuracy the events he witnessed during a short journey from and back to Tangier. It is professed in this brief prefatory note that Drummond Hay, who is «*perfectly* familiar with the Mogrebbin dialect of the Arabic» (Introduction, p. III, emphasis added), will give a faithful account of his experience by «portray[ing] the character and manners of the wild tribes which inhabit this fertile but neglected country» (III) ; further, that «the Author can vouch for his having recorded with *perfect accuracy* and truth what was narrated to him» (IV, emphasis added).

The impression the reader ultimately gets from this introduction leads him to expect an authentic account of Drummond Hay's experience in the North-western part of Morocco ; however, as he proceeds through the narrative, the reader witnesses a violation of the very premises behind that impression. The fact is that the reader cannot miss the writer's inadequate knowledge of the Moors' language, nor can he overlook the aim behind the narrative strategies used by Drummond Hay to make the reader accept as truth what actually consists of a great deal of fiction. Furthermore, several points in the narrative, if examined closely, appear to take a heavy toll on Drummond Hay's narrative reliability.

In the light of such a remarkable inconsistency between expectations and realization, we may ask a legitimate question : to what extent is *Western Barbary* a record of an authentic experience ? The answer to this question lies in a careful examination of the narrative aspects cited above.

(1) Sir John H. Drummond Hay, Esq., *Western Barbary : Its Wild Tribes and Savage Animals* (London : John Murray, 1844). Subsequent references to it will be made parenthetically within the text.

The author's inadequate knowledge of the Moors' language :

The author's inadequate knowledge of the «Mogrebbin dialect of the Arabic» is manifest at all levels of his dealing with the natives' language, and indeed, this inadequacy becomes apparent as early as the second page of the narrative. In answer to a question directed to him by a Moor concerning his direction, Drummond Hay answers *Eeftah Allah* (2), which is certainly not the appropriate answer to «where are you going ?» This is not surprising, inasmuch as the socio-linguistic irrelevance of his answer originates in his ignorance of the semantic import of this linguistic utterance : for him *Eeftah Allah* means «(God will show)» (2). As it is, Hay's answer betrays his ignorance of the socio-linguistic rudiments of the Moors' language, which occurring at the very beginning of the account, sheds doubt on his ability to communicate with the natives in such a way as to confer credibility on what he tells his readers, especially as the whole narrative is a record of his interaction with the Moors, who constitute his only interlocutors.

Other levels of Drummond Hay's handling of Arabic words and constructions within the text reveal further linguistic problems. First of all, most of Hay's translations are faulty and show a tendency to over-generalization, a characteristic feature of the early stages of language learning. Thus, Hay's translation of «Kaa Ermel» as «plain of sand» (10), «Ammar» as «the cultivated» or «colonized» (23), and «kleefa» as «Lieutenant» (45), for example, show how wide of the mark his translations are. But worse is the fact that Drummond Hay shows a tendency to translate any word in Arabic which starts with «Abou» or «Boo» as «father of» : «Abou Souf» as «father of wool» (meaning sheep) (44), «Abou Snau»⁽²⁾ as «father of tusks» (meaning boar) (46), Boomenfakh as «father of tumefaction» (65) and «Boos-affee» as «the Father of Clearness» (76) are cases in point⁽³⁾.

Besides inadequate translations, Drummond Hay's transcription of Arabic words betrays his poor perception of the Moor's pronunciation of simple, everyday words, which is not worthy of a person claiming perfect knowledge of the Moors' language, and which consequently raises serious questions about his competence in native language and even about his ability to understand natives, «Sooktsee»⁽⁴⁾ (49), «al Handoo-billah» and «Safee Allah»⁽⁵⁾ (78), and «Jooniad, the first»⁽⁶⁾ may serve as illustrative examples.

But perhaps the linguistic feature that illustrates best his ignorance of the language he claims erudition in is the English plural form he gives to Arabic

(2) This is an instance of bad transcription ; in all probability the word is Abou Snan.

(3) As such, these translations render the original names meaningless.

(4) Sakkootee would be the right transcription.

(5) This provides also another instance of bad translation ; according to Drummond Hay, this expression means «may God pardon me» (78).

(6) What is meant here is certainly Joomada-al-Ula.

nouns. We thus find, for instance, «Nazarenes» (30 and onward), «Shereefs» (85), and «Biteewys» (90). One may perhaps be inclined to overlook such errors as an oversight on the part of the author or editor, but both the consistency of the spelling and its occurrence in narrative segments claimed to be accurate reports of Moorish narrators⁽⁷⁾ militate against this inclination.

In the final analysis, Drummond Hay's linguistic inadequacy means either that he knew Arabic much less than he wished the reader to believe, or else that the framed stories he incorporated in his narrative were a creation of his own imagination. In either case, though, his reliability as a narrator of *Western Barbary* would be severely damaged. Only, and apart from the damage such inadequacy may inflict on the credibility he seeks to inspire in the reader, Drummond Hay's narrative reliability could also be challenged contentwise as well as by a close examination of the narrative devices he uses in telling about his experience - which brings us to the second point in this study.

Aspects of the challengeable content :

In terms of content, *Western Barbary* could be challenged first on the level of the framed stories inserted into the main narrative. The fact is that all these anecdotes have in common something that undermines Drummond Hay's claims at faithful report, for they all contain a stereotyped form of address which does not allow even for the native narrators' respective idiolects, although the author claims, as we have seen, that he is reporting the narrators' words verbatim. Thus such forms of address as «Well, Christian, be it known to you that...», «know, then, Nazarane hat...» or «O rebeller against God...», besides placing *Western Barbary* more in the tradition of the wondrous *Arabian Nights* than in the realm of realistic accounts, are socio-linguistically irrelevant : this is not the form of address a native would use when talking to «an infidel».

But perhaps the most severe blow dealt at Drummond Hay's reliability as a narrator in this respect is the unwitting contradiction he falls in while depicting an evening experience in the course of his journey. Describing a dinner with a Rabbi, he makes allusion to a Jewish religious rite in virtue of which the Jews do not handle fire on Sabbath-eves : «It was the Sabbath-eve,» says the writer, «and he [the Rabbi] could not touch fire nor hold a lighted candle» (66). To illustrate the Jews' strict adherence to this rite, the writer quotes an incident in which a Jewish family dared not save a burning relative because they could not touch fire, it being a Saturday. It so happens, however, that the writer's dinner with the Rabbi is interrupted by a procession of a Jewish wedding ; the writer looks out of the window and describes the procession as follows :

the procession stopped beneath our window... [the Jewish bride] was, indeed, extremely pretty, and fair as purest

(7) In introducing Alarby Sooktsee's narrative, the author promises to report the anecdote «in the very words he [Al Arby Sooktsee] used» (49).

was... *A blaze of torches surrounded her*, and she was supported by her male relations» (66, emphasis added).

This contradiction here is most certainly the result of the juxtaposition of two events that had apparently taken place at different times, but which, no doubt for conscious narrative designs, Drummond Hay chose to incorporate within the same scene, unaware that the temporal setting makes the two events mutually exclusive. I make this assertion on the strength of evidence in the text which points in the direction of a conscious arrangement of narrative data, a manoeuvre that subverts Drummond Hay's claims at authentic report of his journey. Narrative strategies are, then, what we shall turn our attention to now.

Narrative strategies :

As we have just seen, then, the writer's juxtaposition of his dinner at the Rabbi's with the procession of a Jewish wedding within the same scene is a case of conscious combination of narrative data on the part of Drummond Hay. But this instance is not the only one of its kind in the account ; it actually falls within the framework of selection and arrangement underlying the writer's strategy of presentation⁽⁸⁾.

The first remark in this respect concerns the amount of data included in the narrative. The most striking feature is the fact that *Western Barbary* includes in its account of a single journey from Tangier to Larache and back what in all probability would have taken an ordinary traveller a lifetime experience to come across. The conclusion to be drawn from this is that, painting a comprehensive picture of the Moors and their land being the aim, Drummond Hay's conception of the substance of his chronicle entailed the inclusion of as much information on «Western Barbary» as could be possible⁽⁹⁾, which justifies his numerous narrative digressions and framed stories ; only his claim that the whole content is the experience of that one journey strains the reader's credibility.

Besides the questionable amount of narrative data, we can also record the writer's manipulation of these data to achieve specific purposes, a process which shows the work of a conscious mind that is guided by a specific objective. Thus, most often, the order and combination of events aim either at creating suspense in the reader⁽¹⁰⁾, intensifying his sense of the situation⁽¹¹⁾, or increasing his

(8) The selection and combination of narrative data constitute the most important vehicle of Drummond Hay's ethnocentric discourse.

(9) There is no doubt that the homogeneity of the information related to the exoticism of the land and its people does produce a unity of impression.

(10) The author ends the first chapter at a climactic moment and pretends to have interrupted the narrator to make a remark to his Spanish friend (pp. 8-9).

(11) Chapter 7 ends with the framed story of Alee the Six-fingered as he retreats into the woods of Sahel ; the very next chapter begins with the travellers (the writer and his companions) in the same place : the woods of Sahel (cf. pp. 47-48).

wonder at the exoticism of the land on which the journey is taking place⁽¹²⁾. Whatever such intentional arrangements of narrative segments aim at, the fact remains that the artificiality of the writer's deliberate handling of them interferes with the supposedly authentic unfolding of events.

All things considered, then, a critical reader of *Western Barbary* will find unsatisfied the initial claim at an authentic report of an actual journey in the Moors' land. The writer's far-from-perfect knowledge of the Moors' language, (both as a system of sounds and as a socio-cultural institution), the questionable aspects of his imprecise contents (sometimes with serious inconsistencies), and his manipulation of narrative data (with its unmistakable artificial effect) subvert the very basis upon which Drummond Hay courts the reader's belief. We can safely say, therefore, that the aforementioned features of this travel account tip the balance of its intrinsic probability more towards fiction than reality.

(12) This is the case of all side-stories or anecdotes into which the writer digresses in a sort of stream-of-consciousness manner.

LAS FUENTES IBERICAS PARA LA HISTORIA DE TETUAN

(Siglos XVI y XVII)

Guillermo GOZALBES BUSTO

Universidad de Granada — España

La historia de Tetuán, desde su fundación definitiva, a finales del siglo XV, por los granadinos emigrados del moribundo reino nasrí de Granada, tiene sus raíces profundamente insertas en la historia de los reinos peninsulares, tanto Portugal como Castilla.

Teniendo en cuenta que surge como un baluarte defensivo-ofensivo, intentando frenar la expansión lusitana, a partir de sus fortalezas africanas de Ceuta, Alkazarseguer, Tánger y Arcila, las crónicas portuguesas relativas a estas plazas fuertes están llenas de alusiones a Tetuán y su caudillo fundador, así como el papel que juega en periodos posteriores a la vida del mismo.

En cuanto a Castilla, dejando de lado Africa, para seguir los intereses de la monarquía hispánica en otras partes del mundo, se vé, no obstante acosada en el frente Sur por una ofensiva marítima que, partiendo de las costas africanas, uno de cuyos puntos fuertes fue Tetuán, batió el litoral meridional andaluz, sobre todo con intensidad creciente durante esos siglos XVI y XVII. Aquí no hay crónica de hazañas, porque de haberla estaría en la otra orilla.

Es una guerra menuda, no declarada, con episodios breves, cortos en el tiempo y en el espacio y con las consecuencias que todo enfrentamiento bélico trae consigo.

Son dos siglos en que se hacen célebres las fustas del «rio de Tetuán, pero en los que no podemos encontrar una historia de la ciudad en el sentido lato de la palabra.

La voz Tetuán casi se diluye, en estos dos siglos, en un concepto territorial más amplio, el de Berbería. A veces se afina un poco más y se habla del reino de Fez. Pero ni una ni otro merecen para los ibéricos una atención histórica. Es, ni más ni menos, una pesadilla que se trata de contrarrestar con diversas medidas, en su mayoría ineficaces.

Hay que escudriñar múltiples y diversos documentos, cuya intencionalidad, ajena a la historia de la ciudad, ha hecho que hayan sido dejados aparte por los historiadores de la misma, por ejemplo, los manuscritos de redenciones de cautivos.

Dos son, como es presumible, las procedencias de las fuentes ibéricas para la historia de Tetuán en los siglos citados, las portuguesas y las españolas.

Podríamos afirmar que ninguna de las dos es debidamente conocida ni utilizada.

El descubrimiento de nuevas tierras y rutas comerciales, al término de la llamada reconquista, está en el fondo de esa negligencia además de la escasez de dichas fuentes, que tienen solo una proliferación en las crónicas lusitanas. Estas loan los esfuerzos realizados por las guarniciones lusas del trapecio Norte marroquí para extenderse, primero y aguantar, después, ante un medio hostil, centrado en la ciudad de Tetuán.

Los dos siglos, XVI y XVII, transcurren, por lo demás, cargados de acontecimientos para esta zona occidental mediterránea, de la que Tetuán es pieza clave.

Como antecedentes tenemos el desplome y subsiguiente sangría del Islam hispano. Por otro lado, el descubrimiento y colonización americanos. Ambos eventos van a incidir, primero en que Tetuán se superpueble, segundo en que se deje crecer, casi impunemente, a pesar de constituir una amenaza constante para las monarquías ibéricas.

La ciudad nace en el gozne entre los siglos XV y XVI, cuando tantos grandes hechos se suceden. ¿Obscurecen éstos el surgir del nuevo foco urbano?

El caso es que las fuentes portuguesas que están atentas a los hechos heroicos de sus tropas, desde que se toma Ceuta en 1.415, no dicen nada de fundación o reedificación de Tetuán.

Sin embargo, conocen a su fundador y lo sitúan muy pronto, antes de finar el siglo XV, en los campos de batalla nor africanos.

Bien es verdad que tampoco conocen o registran la fundación de Xauen, aunque su fundador, ben Rasid, es abundantemente mencionado, antes que el fundador de Tetuán.

Va a ser un marroquí granadino, León el Africano, quien va a desvelar el nacimiento de la ciudad, visitada por él personalmente, y a quien copiará un autor renacentista español, Mármol Carvajal.

Los cronistas portugueses, que tanto citan al Mandari, solo hablan de él como alcaide de la ciudad, y cuando desaparece de los campos de batalla, lo olvidan, a pesar de que pervive largos años disminuido físicamente.

Esta disminución, la ceguera, nos la informa Leon el Africano.

Su muerte vendrá a nuestro conocimiento por el extraño camino de la biografía de un venerable sacerdote español, Fernando de Contreras, que trató al caudillo granadino en sus últimos momentos.

En caso es que, si la fundación o reconstrucción de Tetuán por los emigrados nassris es ignorada por los lusitanos, no lo es, sin embargo, la existencia misma

de la ciudad, en las primeras décadas del siglo XV, antes de su destrucción y abandono.

El repaso, pues, a las crónicas portuguesas es, sin duda, indispensable para situar a Tetuán en el contexto de los acontecimientos históricos del siglo XV, como lo será también para los siguientes siglos XVI y XVII.

FUENTES PORTUGUESAS

Forzosamente y por muchas razones, cronológicas y testimoniales, debemos empezar el repaso de las fuentes ibéricas para la historia de Tetuán, en los siglos XVI y XVII, por las portuguesas y por su primer cronista africano, GOMES EANNES DE AZURARA o ZURARA.

Su vida y su obra transcurre en pleno siglo XV, sin llegar al final del mismo, puesto que muere hacia 1.473.

No se trata, por lo tanto, de que sepa la existencia del Tetuán granadino, que no pudo conocer, pero sí, de la ciudad anterior al Mandari.

En efecto, la destrucción de Tetuán, que fuentes españolas atribuyen a los marinos de Enrique III de Castilla, el año 1.400, pero que fue obra de los portugueses, según León el Africano, está narrada con toda clase de detalles, temporales y accidentales, por ZURARA en dos de sus crónicas: **La Chronica do Conde Don Pedro**, y la **Chronica de Don Duarte de Meneses**.

En ellas y en sendos capítulos se trata de la expedición llevada a cabo por D. Duarte contra Tetuán en 1.437, en la que destruyó la ciudad.

Las crónicas de ZURARA son, por consiguiente, las primeras que hablan de Tetuán en el siglo XV.

Arruinada y desierta la ciudad, durante cerca de medio siglo, dos cronistas, posteriores a ZURARA la ignoran en sus crónicas, si bien éstas son interesantes para el estudio de la región, donde se desarrollan episodios bélicos, protagonizados por las guarniciones portuguesas de las fronteras.

Los dos cronistas a que nos referimos son RUY DE PINA y GARCIA DE RESENDE, ambos a caballo entre el siglo XV y XVI. Ambos con sendas crónicas del reinado de Juan II, que muere en 1.495, pero ambos desconociendo la existencia de Tetuán y del Mandari.

Por otro lado, RESENDE es poco original, siendo ampliamente deudor de PINA en toda su crónica.

DAMIAO DE GOIS, (1.502-1.574) va a ser el primero que cite a **Alandarim alcaide de Tetuao**, en choques armados que tienen lugar en 1.495.

A lo largo de los XI volúmenes en que divide su obra, **Chronica d'el rei Don Manuel**, aparecerán, tanto el jefe granadino, como la ciudad, siendo protagonistas de excepción, como enemigos contra los que luchan los capitanes lusos.

Absolutamente nada de fundación y fundador.

Contemporáneo de GOIS, pero de estilo mas directo, puesto que vivió muchos de los hechos que narra, tenemos a BERNARDO RODRIGUES.

Desaparece en él el estilo aúlico de los anteriores cronistas citados, para dar paso a una crónica mas viva y directa.

Sus **Anais de Arzila**, nos dejan bastantes mas huellas directas de hechos y personajes que configuran la historia del trapezio Norte marroquí, en general y Tetuán, en particular.

Si conocemos algo de la familia del Mandari, no cabe duda que se lo debemos a BERNARD RODRIGUES.

No tiene el caracter de crónica, aunque merece citarse como funte, el libro de Jerónimo de Mendoza titulado *Jornada de Africa*, escrito con motivo del desastre sufrido por los portugueses en Alkazarquivir en 1.578.

Publicada en Lisboa en 1.607, la obra de Mendoza se centra en el episodio mencionado y en los cautivos que quedaron en poder de los marroquíes, pero incidentalmente se deslizan noticias sobre judíos, moriscos, elches o descripciones de ciudades como Fez y Marrakus. Muy escasas son las citas de Tetuán, por ejemplo el paso por la ciudad de los ilustres cautivos rescatados, camino de Ceuta, o la mención de las mazmorras. Sin embargo, se recoge del conjunto de su relato el ambiente que se vivió en todo el pais después de la victoria marroquí.

Cronologicamente anteriores y bastante mas interesantes para la historia de Tetuán, son los documentos que se encuentran en el Archivo Nacional de la Torre de Tombo de Lisboa. Muchos de ellos han sido publicados en **Les Sources Inedites de l'Histoire du Maroc**, S.I.H.M., cuyas series deben manejarse forzosamente para el estudio de estos dos iglos que nos interesan.

Los cinco tomos de la primera serie, Archives et Bibliothèques de Portugal, tienen fondos documentales del periodo de que se trata, porque desde el tomo I se reproducen documentos de 1.500 en adelante. No obstante ningún documento de ese primer tomo se refiere a la zona Norte marroquí. Muy escasos y no de Tetuán vienen en el tomo II. En el III menudean cartas que se refieren a Mawlay Ibrahim, el hijo del undador de Xauen, personaje influyente en todo el reino de Fez y especialmente en el Norte. Pero es en el tomo IV de esa serie portuguesa, donde se publican mas documentos relativos a Tetuán en el siglo XVI. También hay algunos en el tomo V.

Veremos, al examinar las fuentes ibéricas españolas que también en ellas poseen Les Sources interesantes documentos para la historia tetuaní en sus tomos que recogen escritos de Archivos y Bibliotecas hispanos.

En general, Les Sources, han sido poco utilizadas, aun conteniendo documentación muy valiosa.

Otros manuscritos de la Torre de Tombo han sido publicados en trabajos aislados, por ejemplo, respecto a Tetuán, la carta del Mandari al rey portugués, que dieron a conocer R. RICAHRD y E. SANCEAU, en su artículo de la revista **Hesperis**, de 1.957, «Un projet de remise de Tetouan...».

Estamos casi seguros que en la dicha Torre de Tombo aun se encuentran inéditos bastantes documentos para la historia de Tetuán en el periodo del XVI y XVII.

Sabemos que existen del XVII, p.e. Pedro de Azevedo de la Academia de Ciencias de Lisboa, publicó una serie de ellos, relativos a procesos inquisitoriales, abiertos en Ceuta y Tánger, donde aparecen hechos y personajes de Tetuán de principios del siglo XVII. El citado trabajo de Azevedo lo tituló «A Inquisicao em Ceuta e Tanger no principio do seculo XVII» y apareció en el **Boletim de Segunda Classe**. Vol. XI- 1.916-1.917. Coimbra 1.918. Págs. 398 a 471.

En as Gavetas da Torre do Tombo sabemos que existe documentación relativa a Tetuán, alguna de la cual ya ha sido dada a conocer, p.e. en los tomos I-VII y IX, pero deben existir más, aun inéditas.

Del siglo XVII son algunas crónicas locales o regionales que no carecen de noticias sobre Tetuán. Tales son la **Historia de la ciudad de Ceuta**, de Jerónimo de Mascareñas, la **Historia de Tangere**, de Fernando de Meneses, y el **Africa portuguesa**, de Manuel de Faria e Sousa.

La Historia de MASCAREÑAS la incluimos entre las fuentes lusitanas por serlo su autor, aunque éste la escribió en español y realmente permaneció fiel a Felipe IV, cuando la sublevación de 1.640.

Tuvo a su disposición archivos y escritos de la casa de Meneses, titular de la Capitanía General de Ceuta y es, por tanto, una fuente de primer orden. Copia a Marmol cuando describe Tetuán, pero lo interesante no es la cita concreta de la ciudad sino el relato de los encuentros bélicos habidos en el siglo largo que se narra y que tiene por protagonistas, sin decirlo expresamente, los guerreros tetuanes. La obra ha sido publicada, bajo la dirección de Alfonso de Dornelas, por la Academia de Ciencias de Lisboa, en 1.915.

Iguales reflexiones podemos hacernos respecto a la **Historia de Tangere**, de Fernando de MENEZES, escrita en el siglo XVII y publicada en Lisboa en 1.732. Menezes se adhirió al nuevo monarca, Juan IV, cuando la restauración de 1.640 y su obra está escrita en portugués. Como fue gobernador de Tánger sus fuentes de información son, así mismo, directísimas.

Et portugués Manuel de FARIA Y SOUSA, escribió una serie de obras sobre los viages, conquistas y colonización lusitanas, en Asia, América y Africa. El último volumen titulado, **Africa portuguesa**, solo alcanza hasta pocos años antes de la batalla del Majazen. Está publicada en español en Lisboa en 1.681 y los últimos acontecimientos se fechan en 1.574. Se cita a Tetuán, logicamente, al

hablar de sucesos bélicos de la Capitanía General de Ceuta, p.e. en tiempo de Hassen cuando el ceutí Noroña y Carvallo de Alkazarseguer fueron a quemar las naves surtas en el puerto de Bení Madan.

Seguramente de Zurara toma gran parte de sus datos, Agustín MANUEL I VASCONCELOS, autor, en español, de la **Vida de don Duarte de Meneses**, Lisboa, 1.627.

Son interesantes las descripciones de lugares y, concretamente, de Tetuán, antes de su destrucción y prolongado abandono. A este respecto señalamos los folios 33 vto y siguientes de VASCONCELOS.

En el folio 34 una frase del autor hace presumir otras distintas fuentes que Azurara. al corregirle la distancia de diez leguas de Ceuta a Tetuán, **siendo no más que siete, pero este engaño no presumo que es culpa suya, sino de los copiadore de sus escritos... que apenas dan noticia cierta de las cosas...**

Noticias de Tetuán en el siglo XVI están recogidas en la **Chronica do muito alto e muito poderoso rei d'estes reinos de Portugal D. Joao III d'este nome**, de Francisco de ANDRADE, el cual la publicó en Lisboa en 1.613.

Robert Ricard publicó en francés lo esencial de dicha crónica, bajo el título de «Les portugais et l'Afrique du Nord sous le regne de Joan III, (1.521-1.557), d'après la chronique de Francisco de Andrade», en la revista **Hesperis**, tomo XXIV, 4º trimestre 1.937, p.p. 259 à 345. En este artículo Ricard menciona otra crónica del mismo reinado de Juan III, los **Annaes de El Rei Dom Joao terceiro**, de Fr. Luiz de Sousa, que fueron publicados en Lisboa en 1.811.

Nos hemos referido anteriormente a los manuscritos de redenciones de cautivos y, en efecto, teniendo en cuenta el caracter de mercado de esclavos que tuvo Tetuán, esos manuscritos constituyen una fuente de información que detallaremos al hablar de las fuentes españolas, pero es qued los portugueses, con el mismo problema no carecen de ellos. Creemos, en este sentido, que no se han manejado totalmente los que puedan hallarse en la llamada **Mesa da Consciencia e Ordens. Cativos**, del repetidamente citado, Archivo Nacional de la Torre de Tombo en Lisboa.

Siendo el binomio Tetuán-Ceuta, o viceversa, una constante histórica, tanto las fuentes lusitanas como las españolas de los siglos XVI y XVII, que traten de Ceuta tendrán algo que ver, directa o indirectamente, con la historia de Tetuán.

FUENTES ESPAÑOLAS :

El profesor marroquí Mohammed Ibn Azzuz Hakim, publicó el año 1.973, en los **Cuadernos de la Biblioteca española de Tetuán** núm. 8, págs. 1 a 48, un trabajo titulado «Fuentes para la Historia de Tetuán». Constituyó un notable esfuerzo y una buena aportación al estudio del tema, teniendo en cuenta la documentación conocida en ese momento.

Han pasado mas de 20 años y otros horizontes han desplazado los antiguos limites de nuestros conocimientos. Concretamente sobre la misma fundación de Tetuán y su fundador, o reconstructor al Mandari, existen nuevos datos que parecen ajustar mejor el puzle que constituyen las distintas versiones que el propio Ibn Azzuz examinó en el trabajo mencionado. Baste citar, por nuestra parte y ciñendonos al ámbito temporal que encabeza este estudio, los siguientes textos:

Carta del conde de Tendilla al alcaide de Tetuán, al Mandari, el 6 de Junio de 1.610, conservada en el mss 10.230 de la B.N. de Madrid, publicada por Emilio Meneses en su **Correspondencia del Conde de Tendilla**, Madrid 1.974-II, pág. 36 y por mí en *Al Mandari*, el granadino, fundador de Tetuán, Granada 1.988, pág. 138 el texto y 139 la transcripción. Esta carta se completa con otro mss., también publicado por Meneses en la pág. 38 de su citado libro.

En la correspondencia de Tendilla existe otra carta referida a Tetuán, de fecha 6 Enero 1.513 publicada por Meneses.

El legajo 422-9, del Arch-Hist. Nac, de Madrid, contiene un mss. relativo a una redención de cautivos realizada en Tetuán el año 1.523. Aparece l Mandari con otros dirigentes de la ciudad.

Un pleito prolongado entre los años 1.544 y 1.549, contenido en el legajo 3-194-20 de la Real Chancilleria de Granada, presenta varios testimonios de peronas que conocieron al alcaide de Piñar, al Mandari y que se marchó a Tetuán.

El año 1.548 se realizó un redención de cautivos en Tetuán. Aparece el alcaide Hassen. La publica el duque de Frias bajo el título de «Una redención de cautivos en tiempo del Emperador» en la **Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos**, tomo LXIV-2, 1.958 págs 483 a 514.

Otra redención de cautivos se realiza en Tetuán en 1.579, reflejada en el mss. 6.569 de la B.N.

Por fin, del siglo XVI, otro mss., el 3.588 de la B.N. recoge otra redención en Tetuán del año 1.583.

Estos documentos no eran conocidos cuando Ibn Azzuz publicó sus fuentes.

Mas adelante veremos, del siglo XVII, otra serie de mss. practicamente inéditos, desconocidos también por Ibn Azzuz.

Continuando con las fuentes españolas, en orden cronológico debemos recodar los siguientes autores y obras.

MARMOL CARVAJAL, luis **Descripción general de Africa, Libro Quarto, Reyno de Fez**. Granada 1.573.

Seguramente de MARMOL, Tomó Gil GONZALEZ DAVILA, en su **Historia de la vida y hechos del rey D. Henrique, el tercero de Castilla**, Madrid 1.638, noticias sobre la destrucción de Tetuán por los marinos de Castilla, en el año 1.400, reinando el citado Enrique III.

Lo que no sabemos es de dónde las tomó MARMOL. Probablemente esa incursión castellana, de haber existido, se realizó contra el desembarcadero del río Martín, en el meandro que forma a la altura de Beni Madan. Recordemos que toda la región del valle del Martín se llamaba Tetuán y que era corriente que la ciudad nacida en una zona determinada, tomase el nombre de la misma.

MARMOL, copió le Leon el Africano, aunque dispuso de otras fuentes que ni cita ni se sabe, por hoy, cuales son.

La descripción y pequeña historia de la ciudad de Tetuán comienza en el folio 130 v. hasta el 132, abarcando un periodo de mas de un siglo, desde antes de la reedificación de la ciudad, hasta la obstrucción de la barra del río por Alvaro de Bazán. Pero anterior y posteriormente se habla de Almandari y de Tetuán en los fols. 118, 118 v., 119, 124 v. y 129 v. Luego en los 134 v. y 147 v. Mezcla noticias del XV con las del XVI y es evidente que conose y maneja las crónicas lusitanas.

MESA, Sebastián, escribe **Jornada de Africa por el rey D. Sebastián y unión del reino de Portugal a la Corona de Castilla**. Barcelona 1.630. Hay una cita de Tetuán en el folio 113 v. que pone de manifiesto la superpoblación de la ciudad, en la época de la batalla de los Tres Reyes, esto es, antes de la llegada masiva de los moriscos expulsados.

Diego de TORRES, publicó en Sevilla, en 1.586, su **Relación del origen y suceso de los xarifes**, En ella hay apenas un par de alusiones a Tetuán. En la pág. 207 se cuenta ser señores de Tituan y Xijuan (Tetuán y Xauen), Hassen y Mohamed ben Rasid, que se pasaron al bando del sarif. En la pág. 269 se recuerda que los merinies consentían al P. Contreras decir misa en Tetuán, en una casa que el autor vió arruinada y deshabitada desde que Contreras la dejó.

Al comenzar el siglo XVII, el carmelita Jerónimo GRACIAN DE LA MADRE DE DIOS, pasó por Tetuán, levantando su presencia ciertas expectativas erróneas sobre tratos del sultán Ahmed al Mansur y Felipe III. Podemos repasar este incidente en el tomo III de las **Obras del P. Jeronimo Gracián de la Madre de Dios**, editadas por el P. Silverio de Santa Teresa, O.C.D. 3 vols. Burgos 1.933 (fecha del III vol.) págs. 60-61-140-366 y 367.

De la primera década del XVII es la obra de Gerónimo ZURITA, **Los cinco libros postreros de la Historia del rey don Hernando** Zaragoza, 1.610.

Otra obra publicada en Lisboa a comienzos del siglo XVII, concretamente en 1.613, **Relaciones de algunos sucesos postreros de Berberia**, de Juan Luis de ROJAS, contiene una somera descripción física del primero de los Naqsis tetuanies, Ahmed.

El embajador español en Londres, en 1.622, mantuvo conversaciones con el rey inglés, a propósito del comercio anglotetuaní, conversaciones reflejadas en la colección COLOMA, Libro 3, existente en el Archivo General de Simancas.

La **Historia de Ceuta**, del presbítero ceutí Alejandro CORREA DE

FRANCA, escrita a mediados del siglo XVIII, es una inestimable fuente de datos para la historia tetuaní de los siglos XVI y XVII. Está inédita en el mss. 9.741 de la B.N. de Madrid, aunque ya hemos utilizado su texto en diversos trabajos.

Les Sources inédites de l'Histoire du Maroc dedicadas a los archivos y bibliotecas de España, dan a conocer, desde su tomo I, publicado en Madrid-Paris 1.921, valiosos documentos para la historia de Tetuán. Especialmente interesantes son reproducciones del Arch. Gral de Simancas con cartas y memoria de los tratos del P. Contreras con el alcaide Hassen, Pags. 95 y sigs, del tom. I.

El tomo II tiene noticias del alcaide Hassen en las pags. 98 y 128.

Mas abundante en datos sobre Tetuan es el tom. III, Paris 1.961. Con sucesos de la segunda mitad del siglo, destacándose el cierre de la barra del rio Martín en 1.565.

Publicada en el siglo XVII, pero haciendo referencia a hechos del XVI, conocemos la obra del P. Gabriel de ARANDA, **Vida del V.P. Fernando de Contreras...** Sevilla 1.692. El P. Contreras, muerto en Sevilla el 1.548, conoció al Mandari y fue casi testigo de su muerte. Los tratos posteriores con Hassen, que relata el P. Aranda, están confirmados por documentos aparecidos en S.I.H.M.

Del alcaide Hassen hay algún documento, aun inédito, en el archivo de la catedral de Ceuta. Gracias a la amabilidad del vicario D. Alejandro Sevilla, disponemos de las copias de dos seguros dados por dicho alcaide en 1.566, y otros documentos.

La Escuela de trabajos de Fr. Gabriel GOMEZ DE LOSADA, Madrid 1.670, trata de la vida de los cautivos y de sus rescates. No solo trae anécdotas, sino escenas de la vida tetuaní en el siglo XVII.

El variado mundo del cautiverio y de los rescates ha proporcionado un rico campo de investigación de la historia tetuaní. No en vano la ciudad fue un importante mercado de esclavos cristianos.

Disponemos desde publicaciones hasta memorias o libros de ex cautivos o mss. de escribanos que acompañaban a los religiosos redentores. En el XVII este tipo de mss. es relativamente abundante. Disponemos, por ahora, de los siguientes, manejados por nosotros en diferentes trabajos.

Cuentas de la redención del año 1.607, mss. 2.791 de la B.N.

Cuentas de la redención del año 1.609, mss. 4.390 de la B.N.

Cuentas de la redención del año 1.612, mss. 3.862 de la B.N.

Cuentas de la redención del año 1.614, mss. 124 B. del A.H.N.

Cuentas de la redención del año 1.615, mss. 3.870 de la B.N.

Cuentas de la redención del año 1.621, mss. 126 B. del A.H.N.

Cuentas de la redención del año 1.625, mss. 127 B. del A.H.N.
 Cuentas de la redención del año 1.632, mss. 128 B. del A.H.N.
 Cuentas de la redención del año 1.633, mss. 129 B. del A.H.N.
 Cuentas de la redención del año 1.635, mss. 3.628 de la B.N.
 Cuentas de la redención del año 1.636, mss. 129 B. del A.H.N.
 Cuentas de la redención del año 1.637, mss. 130 B. del A.H.N.
 Cuentas de la redención del año 1.639, mss. 131 B. del A.H.N.
 Cuentas de la redención del año 1.640, mss. 6.160 de la B.N.
 Cuentas de la redención del año 1.645, mss. 4.365 de la B.N.
 Cuentas de la redención del año 1.646, mss. 134 B. del A.H.N.
 Cuentas de la redención del año 1.648, mss. 3.631 de la B.N.
 Cuentas de la redención del año 1.654, mss. 137 B. del A.H.N.
 Cuentas de la redención del año 1.656, mss. 136 B. del A.H.N.
 Cuentas de la redención del año 1.669, mss. 142 B. del A.H.N.
 Cuentas de la redención del año 1.674, mss. 143 B. del A.H.N.
 Cuentas de la redención del año 1.677, mss. 144 B. del A.H.N.

A partir de la última fecha registrada, coincidiendo con el reindo de Mawlay Ismail y el cerco que pone a Ceuta, las redenciones en Tetuán se paralizan. De ahí que no se encuentren manuscritos de ese tipo en el último cuarto de siglo tetuaní.

El interés de las noticias que dan es variable, aportando a la historia de Tetuán fechas, nombres y circunstancias, seguramente inéditos. Así el mss. del A.H.N. Cod. Libr. 127 B. trae el salvoconducto original, firmado por los hermanos Naqsis, en Junio de 1.625, redactado por el morisco Cacimi Cardenas.

El mss. 3.870 de la B.N. nos informa de la situación de Tetuán en el contexto general del país, a finales del año 1.614 y comienzos de 1.615, con la sublevación de Ahmed an Naqsis contra el sultán.

Otra docena de folios dedica el escribano de la redención del año 1.635 para describir una verdadera revolución ciudadana, estallada en Tetuán, casi al finalizar la redención de ese año y que detiene a los religiosos, obligados a ser testigos involuntarios del acontecimiento, sin poder pasar a Ceuta. Es en el mss. 3.628 de la B.N.

Otro seguro y otras circunstancias se contemplan en el mss. Cod. Libr. 134 B. del A.H.N. Documento que firman, en Noviembre de 1.646 Mohamed Benaixa Naqsis y el morisco Ali Ramirez.

Podemos asegurar que esos manuscritos de redenciones de cautivos contienen, todos sin excepción, datos de valor histórico considerable, dignos de ser estudiados y analizados para la investigación de esos dos siglos en Tetuán.

No obstante, añadimos, que hay mas manuscritos, bien en otros lugares, bien

extraviados, sin descartar que algunos se hayan destruido. Buena prueba de ello es el estudio que el siglo pasado hizo el mercedario fr. José Antonio GARI Y SIUMELL, en su libro, **Historia de las redenciones de cautivos cristianos realizados por los hijos de la Orden de la Merced**. Barcelona. 1.873. Disponiendo de las fuentes de su religión, es hoy, para nosotros, mientras no se encuentren los originales respectivos, unos documentos inestimables para la historia de Tetuán, a pesar de la concisión de muchos de ellos.

Con algo parecido de la orden trinitaria completariamos el cuadro de lo que puede estudiarse mediante los mss. de redenciones.

Los años que GARI Y SIUMELL recuerda de expediciones mercedarias en Tetuán, en el siglo XVI, son, 1.532, 1.539, 1.543, 1.547, 1.588 y 1.595. Como teníamos solo cuatro redenciones y ninguna coincidente con las que comenta GARI, confirma el valor de la obra de dicho religioso.

La relación y su valor se aumentan en el siglo XVII : 1.601, 1.604, **1.607, 1.609, 1.612, 1.615, 1.617, 1.618, 1.621, 1.635, 1.645, 1.646, 1.648, 1.674, y 1.681.**

Los años subrayados corresponden a mss encontrados, generalmente en la B.N. Casi todos, pues, están a disposición del investigador.

Los años 1.617 y 1.618, carentes de mss. están, por fortuna, algo mas documentados en GARI Y SIUMELL.

Los recuerdos y memorias del cautiverio en Tetuán, siguen ofreciéndonos en el XVII, valiosos informes para su historia.

ALEJANDRO DE LA MADRE DE DIOS, en su **Chronica de los Descalzos de la Santísima Trinidad**, Alcalá de Henares 1.706, suple, en parte, la falta de documentación original.

PASAMONTE, Jerónimo, **Vida y trabajos de...** en la Biblioteca de Autores Españoles, tomo XC, pp. 5 a 77.

El P. jesuita José TAMAYO VELARDE, estuvo cautivo en Tetuán los años 1.644-1.645. Fruto de sus experiencias son dos obras que se conservan manuscritas en la Biblioteca de la Universidad de Salamanca. La primera, inédita, se titula, **Memorias del captiverio del P. Joseph Tamayo de la Compañía de Jesus**, La otra, **Compendiosa relación de las costumbres, ritos y gobierno de Berbería**,. fue publicada por la revista **El Mensajero del Sagrado Corazón**, en 1.897.

Las **Memorias**.. contenidas en el mss. 481 de Salamanca van desarrollándose a lo largo de 40 folios y sus vtos. con episodios de su captura, su estancia en Argel y su posterior llegada a Tetuán, a manos de un morisco, Maese Juan.

Su estancia de cuatro meses en las mazmorras carece de una verdadera descripción de las mismas. Sale de ellas gracias a la fianza de un rico comerciante ceutí, hasta que es liberado por las gestiones del propio gobernador tetuani.

Todo el escrito está salpicado de noticias que nos hace considerar el mss. como fuente inestimable para el siglo XVII tetuaní. Cita el frecuente comercio de Tetuán con Ceuta, sus tratos personales con el consul francés, Jean Marges, la peste que estalló en la ciudad y otros muchísimos detalles.

No menos valiosa nos parece la **Compendiosa relación** del mss. 1.534 de la Biblioteca salmantina que, como su título indica, describe, en sus 92 folios y vtos., los ritos, ceremonias y demás costumbres, que Tamayo observaba directamente y nos trasladan, a menudo, a la vida cotidiana del Tetuán del 1.645.

La historia de los últimos Naqsis está recogida en un texto, publicado por Ignacio BEAUER LANDAUER, en sus **Relaciones de Africa (Ceuta y Melilla)**. Madrid s/a. Reproduce, a partir de la página 21, la copia de una carta escrita por un Capitán de Ceuta a un amigo suyo de Madrid, relatando sucesos relativos a Ceuta y Tetuán., hacia Septiembre de 1.673.

Muy escasas noticias de Tetuán y apenas de interés, trea la **Mision Historial de Marruecos**, de Fr. Francisco de SAN JUAN DE EL PUERTO, publicada en Sevilla el año 1.708.

En la obra de José de ESAGUY, **Libro de los Vedores de Ceuta**, Tánger 1.939, se reproducen documentos que aluden a Tetuán o sus habitantes. Por ejemplo, en las páginas 20, 21, 29, 52, 204 y 208. Tienen especial interés para la historia tetuaní, dos decretos que reflejan los pases a Ceuta de los Naqsis, en busca de refugio, en 1.633, en una ocasión y en 1.669 en otra ; págs. 147 y 94 respectivamente.

A parte de las obras reseñadas, cabría hacer mención de aquellas aportaciones de artículos, comunicaciones y otras de dicho género, que publican documentación no aparecida en ningún otro sitio. Como tipo podríamos poner «Un ejemplo de corso berberisco-morisco: el ataque de Cuevas de Almanzora, (1.573)» de Bernard VINCENT, con la carta del Dogali a Pedro de Deza, desde Tetuán el 11 de Diciembre de 1.573. (**Pedralbes I**, 1.981 pp. 7 a 20, en francés y trad. por Alicia Rubio).

Otro ejemplo podemos ver en el trabajo que publicó José VILLA-AMIL Y CASTRO, «Berbería en tiempo de Cisneros», en el **Boletín de la Real Sociedad Geografica**, Madrid 1.879, pág. 149. Se reproduce la descripción que hizo de Tetuán el Comendador Gaitán, por encargo del Cardenal Cisneros, donde se hable de doble cava y puente levadizo entre la ciudad y la fortaleza. Se cita al Mandari y se da la población de 300 vecinos, lo que sitúa la descripción en los primeros años del gobierno del alcaide granadino.

Hemos hecho un pequeño esfuerzo para recordar las fuentes ibéricas para la historia de Tetuán en los siglos XVI y XVII, consultando nuestra propia bibliografía y la ajena, esto es, la que hemos utilizado y otras.

Creemos que puede aumentarse considerablemente la relación, aunque no afecte de modo esencial a lo que ya puede saberse, con las fuentes que

conocemos. De hecho, casi constantemente surgen nuevos datos y nuevos documentos de mayor o menor importancia.

Todos los siglos son importantes para la historia de una ciudad, pero teniendo en cuenta el origen de ésta y el desarrollo ulterior de su estructura económica, basada en el corso, el interés de su estudio, intimamente unido al de la Península Ibérica es evidente, haciendo de los siglos XVI y XVII piezas claves para la investigación.

La hª del Estrecho de Gibraltar no es bien conocida sino se estudia la de Tetuán en periodo.

Granada 2 de Abril 1995

APPROCHE DE L'ORGANISATION DE LA GRAMMAIRE EN GRAMMAIRE FONCTIONNELLE DE SIMON C. DIK

(Version 1978)

Abdelkhalek RAZKY

Faculté des Lettres — Tétouan

Les théories linguistiques contemporaines permettent d'opposer deux paradigmes : un paradigme formel et un paradigme fonctionnel.

Le premier concerne seulement la dimension linguistique de la communication. Cette dimension est considérée par la grammaire générative transformationnelle comme étant autonome à son emploi ; autrement dit, le langage naturel semble être un système abstrait dont la description peut se faire indépendamment de sa fonction de communication.

Ainsi, la G.G.T vise à décrire la dimension linguistique du sujet parlant, i.e. sa capacité ou faculté de comprendre et de produire une infinité de phrases : c'est la compétence linguistique.

Le second, par contre, prend en considération les dimensions à la fois linguistique et extra-linguistique qui représentent respectivement un savoir-faire verbal et non-verbal : le savoir verbal relève de l'analyse linguistique, alors que le savoir non verbal implique une connaissance pragmatique du code et des règles psychologiques et socio-culturelles permettant des emplois appropriés pour les expressions linguistiques dans les situations de communication. De ce fait, le langage naturel est conçu comme une structure dont les propriétés sont déterminées essentiellement par les conditions dans lesquelles il est employé : c'est la compétence communicative.

La grammaire fonctionnelle (GF dorénavant), proposée, à la fin des années soixante-dix, par Simon C. DIK et ses collaborateurs, essaye d'adopter les notions constitutives du paradigme fonctionnel. C'est une théorie de la grammaire qui tient compte de la théorie des interactions verbales et des actes de langage (ADL désormais).

La GF est fondée sur les principes méthodologiques suivants :

a) Le langage a comme fonction essentielle celle d'être un instrument de communication.

b) L'objet de la linguistique est la description de la compétence communicative du sujet parlant.

c) La CF est une théorie de la syntaxe et de la sémantique dans un cadre englobant : la Pragmatique.

d) Une description linguistique adéquate doit atteindre trois types d'adéquation :

- L'adéquation psychologique.
- L'adéquation pragmatique.
- L'adéquation typologique.

1/ Adéquation Pragmatique :

La GF ne restreint pas la notion de grammaire à l'analyse de phrases isolées, mais cherche à montrer la possibilité qu'ont ces phrases de se placer à l'intérieur d'un contexte cohérent.

2/ Adéquation Psychologique :

La GF tient compte des modèles psychologiques de la compétence et du comportement linguistiques. Ces modèles s'intéressent à la façon dont le locuteur conçoit la construction et la formalisation des expressions linguistiques — ce sont les **modèles de production** — et à la manière dont il conçoit les processus et les interprétations de ces expressions : ce sont les **modèles de comportement**.

3/ Adéquation Typologique :

La GF cherche à décrire adéquatement toutes les langues, i.e. à élaborer une grammaire au moyen de laquelle toutes les langues seraient décrites. Cela suppose une certaine abstraction marquant la distance représentée par des règles d'opération ou par des procédures relationnelles existant entre les structures d'une langue donnée. Quand la théorie est assez concrète au point de vue descriptif d'une langue donnée, elle ne peut atteindre l'adéquation typologique par rapport aux autres langues. En revanche, si la théorie est assez abstraite, elle dépassera son objectif afin de définir la plupart des généralisations significatives d'une langue et perd donc son apport empirique. Par conséquent, la théorie ne doit forcer les faits.

Exemple d'adéquation typologique : ordre des constituants.

L'ordre des mots varie d'une langue à l'autre de la façon suivante : les langues à V.S.O, S.V.O, S.O.V. etc...

Les langues se distinguent également par le degré des modèles d'arrangement des constituants : langue à modèle fort et langue à modèle faible. Cela revient à dire que la plupart des langues possèdent différents ordres de mots soumis à différentes conditions. Evidemment, une théorie ayant un simple ordre sous-jacent ne peut rendre compte de la variété des modèles représentés dans les

langues objet d'étude. Cela dit, il est impossible, pour une théorie contenant un seul ordre sous-jacent pour toutes les langues, de parvenir au niveau de l'adéquation typologique requis.

Pour être pragmatiquement adéquate, la GF propose une organisation de la Grammaire prévoyant un niveau de représentation autonome pour les **fonctions pragmatiques** (Thème, Topic, Focus, Queue) ainsi que des niveaux de *représentation* réservés aux **fonctions sémantiques** (Agent, Patient, Instrument, Bénéficiaire, etc.) et aux **fonctions syntaxiques** (Sujet, Objet).

De ce fait les fonctions appartenant aux trois niveaux fonctionnels (sémantique, syntaxique et pragmatique) sont considérées comme des notions «primitives». Autrement dit, elles ne sont pas dérivées de structures configurationnelles.

ORGANISATION DE LA GRAMMAIRE SELON LA GF

1. PREDICATION OU STRUCTURE PREDICATIVE.⁽¹⁾

En GF, la prédication est construite au moyen du Fond qui fournit le lexique et les règles de formation des prédicats et des termes. Ce lexique et ces règles forment les cadres prédictatifs qui sont de deux types :

(i) Les **cadres prédictatifs** : ils ne sont pas formés par des règles productives, mais listés dans le lexique.

(ii) Les **cadres prédictatifs dérivés** formés par des règles productives de formation des prédicats.

Il est à noter qu'en GF, les prédicats sont conçus comme des entités désignant des propriétés ou des relations entre les entités. Ils ne sont pas traités en tant qu'éléments isolés, mais en tant que structures appelées cadres prédictatifs.

Le cadre prédictatif a pour rôle de spécifier :

(i) Le prédicat.

(ii) Les catégories du prédicat (N, V, A,...)

N = Nominal

V = Verbal

A = adjectival...

e.g : (1) Jean **est sage**.

Prédicat (est sage)

Prédication (Jean est sage)

(1) En GF les dénominations que reçoivent les trois structures retenues sont : «Prédication», «Prédication fonctionnellement spécifiée» et «Forme syntaxique» respectivement les deux dernières sont appelées aussi «Prédication totalement spécifiée» et «Expression Linguistique». Moutaouakil propose des étiquettes plus suggestives de «Structure Prédicative», «Structure Fonctionnelle» et «Structure en constituants». Cette différence terminologique n'a aucune incidence sur les concepts en question.

Cadre prédictif — être V sage A (d1x1 : Jean(x1) Et
 V = Auxiliaire verbal
 A = Prédicat Adjectival
 d1 = opérateur de terme (d = défini ; l = SG. ; X1 = variable ou position argumentale.

Et = Fonction sémantique (Etant).

La structure des cadres prédictifs peut être illustrée par les exemples suivants :

- | | |
|------------|---|
| Nominal | 1 - homme N (x1) Et |
| Adjectival | 2 - triste A (x1) Et |
| Verbal | 3 - embrasser V (x1 : humain (x1)) Ag (x2) Pat |
| | 4 - donner V (x1 : animé (x1)) Ag (x2) Pat (x3) Rec |

(iii) Les positions argumentales associées aux prédicats, indiquées à l'aide de variables x1, x2, c3.

(iv) La fonction sémantique attribuée à ces positions (les fonctions sémantiques Et = Etant ; Ag = Agent ; Pat = Patient ; Rec = Récepteur etc...)

(v) Les restrictions de sélection imposées à ces positions argumentales (humain ;. animé ; etc...).

Les fonctions sémantiques assignées aux positions argumentales se rapportent aux divisions de l'Etat de choses (2) selon les paramètres + ou - dynamique et + ou - contrôle comme le montre le schéma ci-après :

	+ dynamique	- dynamique
+ contrôle	Action (Agent)	Position (Positionnant)
- contrôle	Procès («Processé»)	Etat (Etant)

- | | | |
|------------|---|-------------------|
| Action : | (2) - Jean Ag embrasse Marie . Pat | Ag = Agent |
| Procès : | (3) - La balle Fo a frappé l'enfant . Pat | Pat = Patient |
| Position : | (4) - Jean Po est assis. | Fo = Force |
| Etat : | (5) - Les roses Et sont rouges. | Po = Positionnant |
| | | Et = Etant |

1.1. Règles de formation des prédicats.

On part du cadre prédictif basique considéré comme entrée (input) et on arrive au cadre prédictif de sortie (output) :

- Input : Préd N (xi) Et
 Output : Préd N - Like (x1) Et

(2) Pour plus de détails sur la typologie des «Etats de choses» en GF et les fonctions sémantiques associées à chaque type, voir DIK (78 : chap 3).

e.g.

Input : Préd. V (x1) Ag Jean mange.

Output : Faire - Préd V (x0) Ag (x1) Pat Marie fait manger Jean.

Sens : x0 fait en sorte que l'état de choses désigné par le cadre prédicatif basique se réalise.

Les cadres prédicatifs basiques et dérivés sont appelés cadres prédicatifs nucléaires. Ces derniers peuvent être étendus par des satellites (3) et devenir ainsi cadres prédicatifs étendus.

(6) Jean rentre à la maison satellite (Locatif)

1.2. Termes et formation des termes.

Les cadres prédicatifs sont des structures ouvertes en ce sens que les positions de leurs termes sont indiquées par des variables. Pour que la prédication soit fermée, ces variables doivent être occupées par des termes.

Les termes 4 sont employés pour référer à des entités quelconques dans le monde réel ou imaginaire. Ce sont des expressions pouvant fonctionner comme termes donnés dans le lexique (e.g. : pronoms personnels, mots en Qu, noms propres). Ces termes sont appelés basiques.

Les règles de formation des termes permettent de construire la plupart des termes de la manière suivante :

(wxi) : Q1 (x1) : Q2 (xi)... Qn (xi))

(xi) est le terme variable marquant le référent intentionnel.

(w) désigne un ou plusieurs opérateurs : article défini, article indéfini, numéral, etc.

Les deux points se lisent «tel que» chaque prédicat Q(xi) indique une quelconque prédication ouverte en (xi).

e.g. : (7) La fille qui embrassait le triste homme.

d1 x1 : fille N (xi) Et : embrasser V (xi) Ag

(d1xj : homme N (xj)) Et : (triste A (xj) Et) Pat

«Une simple entité définie (xi) telle que fille de (xi) telle que embrasser (xi), une entité définie telle que homme (xj), telle que triste de (xj)».

(3) Satellites : éléments qui spécifient les circonstances de l'action : lieu, temps,...

(4) Voir, pour plus de détails, la structure des termes, DIK (78 : chap 4).

(5) La priorité accordée aux règles d'assignation des fonctions syntaxiques avant celles d'assignation des fonctions pragmatiques s'explique par l'argument ci-dessous :

L'assignation de certaines fonction pragmatiques est déterminée, partiellement, par la fonction syntaxique attribuée au terme concerné. e.g : Topic est assigné, prioritairement, au terme ayant la fonction syntaxique de Sujet.

(6) L'assignation des cas se base sur le principe selon lequel on ne peut attribuer deux cas à un même constituant.

Chaque prédication ouverte est dite *restreinte* : elle restreint des référents (mots) potentiels à partir des référents intentionnels (xi).

Il est à signaler que les différents restricteurs ont le même statut dans la structure sous-jacente du terme, mais ils peuvent être réalisés de façon différente comme tête de syntagme. Ces restricteurs peuvent contenir des termes. Donc, la formation des termes est une opération récursive.

L'ordre dans lequel sont donnés les éléments dans la structure des termes doit refléter les relations sémantiques et non l'ordre linéaire.

Quant aux opérateurs, ils sont de deux sortes : opérateurs de termes et opérateurs de prédicats.

Les opérateurs de termes sont les déterminants en général : définis et indéfinis pouvant être appuyés par un numéral. Les opérateurs de prédicats correspondent à ceux qu'on appelle auxiliaires en G.G.T.

Schéma de formation des termes :

(wxi : Q1(xi) : Q2(xi) : ... Qn(xi))

(d1xi : homme N(xi) : triste A(xi) : vieux A(xi))

W----[chaque (every)] Num

D

D----d, i

Num----[1, chaque]

1, M

Cela peut être exemplifié comme suit :

(8) Jean est dans le jardin

(t) Loc

être V[(t) Loc] (xi)

être V[(d1xi : Jardin (xi)) Loc] N

(d1xj : Jean (xj)) Po. Suj

(9) Paul (était malade)

(t) A (xi)

être V[(t) A(xi)] (xi)

Pas être V[(malade(xi)) A] (d1xi : Paul (xi)) Et. Suj Foc

Pour donner une idée plus précise des étapes au terme desquelles on arrive à la prédication, nous partirons de l'exemple ci-dessous :

(10) Pierre a donné le livre à Marie.

Cadre prédicatif nucléaire :

(10) a- donner V(x1 : animé (x1)) Ag(x2 : non-animé(x2)) Pat

(x3 : animé (x3)) Rec

Introduction de Satellites----cadre prédictif étendu :

(10) b- donner V(x1 : animé (x1) Ag(x2 : non-animé(x2))Pat
(x3 : animé(x3)) Rec(y1) Loc

Insertion des termes (avec opérateurs de termes et de prédicats----Prédication :

(10)c- Pas donner V (d1x1 : Pierre (x1)) Ag
(d1x2 : Livre (x2))Pat
(d1x3 : Marie (x3))Rec
(d1y1 : bibliothèque (y1))Loc

Ces étapes peuvent être schématisées de la sorte :

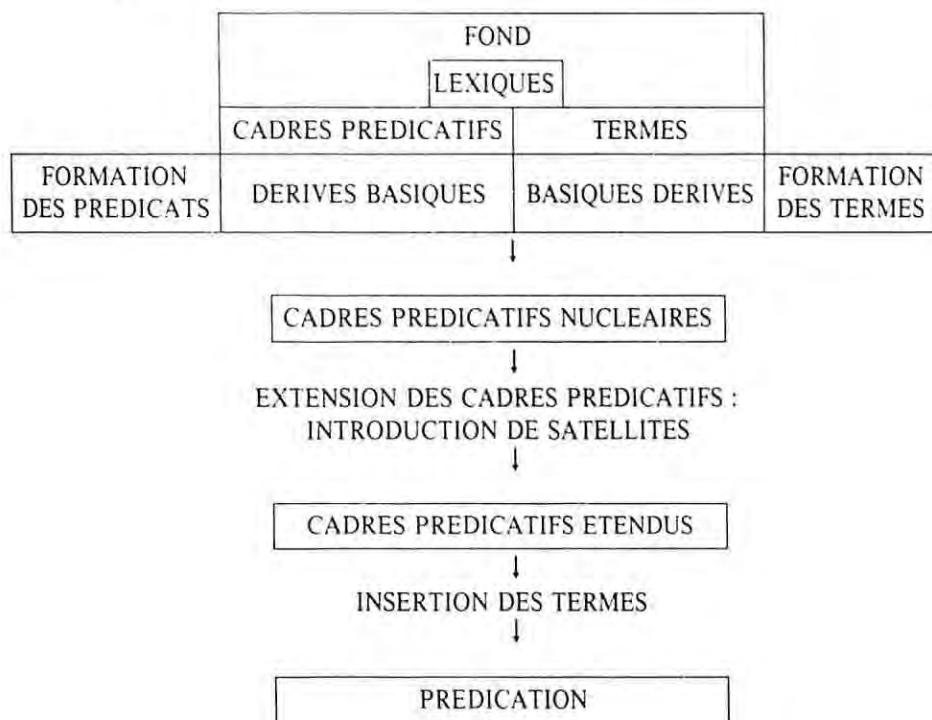


fig.1 : Prédication

Dans la prédication (10.c), les termes ont reçu la fonction sémantique (Agent, Patient, Récepteur, Locatif), mais la prédication n'est pas totalement spécifiée au moyen des fonctions syntaxiques et pragmatiques.

2. PREDICATION TOTALEMENT SPECIFIEE (Structure Fonctionnelle)

La prédication (10.c) deviendra totalement spécifiée après application de deux

règles : les règles d'assignation des fonctions syntaxiques 5 et les règles d'assignation des fonctions pragmatiques.

2.1. Les fonctions syntaxiques :

Les fonctions syntaxiques Sujet et Objet sont définies en termes de perspective.

Le sujet marque un constituant considéré comme «le point de départ» pour la représentation de l'Etat de choses dans lequel il participe. Autrement dit, le sujet est le point de vue primaire de la perspective.

Quant à l'objet, il est le point de vue secondaire de la perspective.

De ce fait, la perspective, envisagée pragmatiquement par le locuteur, est partagée en points de vue. Chacune des entités de la prédication peut occuper le point de vue primaire ou le point de vue secondaire.

Ainsi, par exemple, dans la prédication (10.c), la fonction syntaxique Sujet peut être attribuée aux constituants «Pierre» et «Livre».

(10) d- Pas donner V(d1x1 : Pierre (x1)) Ag Suj
(d1x2 : Livre (x2)) Pat Obj
(d1x3 : Marie (x3)) Rec

(10) e- Pas donner V(d1x1 : Livre (x1)) Pat Suj
(d1x2 : Marie (x2)) Rec
(d1x3 : Pierre (x3)) Ag

(10.d.e) donnent respectivement les expressions linguistiques suivantes :

(10) f- Pierre a donné le livre à Marie.

(10) g- Le livre a été donné à Marie (par Pierre).

L'assignation des fonctions syntaxiques Sujet et Objet se fait selon la Hiérarchie des Fonctions Sémantiques (H.F.S) établie, en C.F, comme suit :

	AG	Pat	Rec	Ben	Instr	Loc	Temp
Suj	+ >	a >	+ >	+ >	+ >	+ >	+ > +
Obj		+ >	+ >	+ >	+ >	+ >	+ > +

Il en découle que le terme auquel on attribue la fonction sémantique d'Agent reçoit prioritairement la fonction syntaxique Sujet alors que le terme à fonction sémantique Patient se voit attribuer la fonction syntaxique Objet. Il en découle également qu'à mesure que l'on avance dans la H.F.S, l'assignation des fonctions syntaxiques est de plus en plus difficile. Cela revient à dire que les phrases où le terme Patient reçoit la fonction syntaxique Sujet sont marquées par rapport à celles où cette fonction est assignée au terme Agent. Celles où elle est attribuée au terme Récepteur sont plus marquées que celles où elle est assignée au terme Patient et ainsi de suite. Il en va de même pour les phrases où le terme Patient est doté de la fonction syntaxique Objet.

2.2. Les fonctions pragmatiques :

La G.F retient quatre fonctions pragmatiques : les fonctions externes Thème et Queue et les fonctions internes Topic et Focus.

Le Thème et la Queue sont assignés aux constituants placés hors de la prédication et en sont séparés par des virgules. Le Topic et le Focus sont assignés aux termes de la prédication. Donnons comme illustration le schéma ci-après :

Thème, [Topic, Focus] , Queue
PREDICATION

Les fonctions Thème et Queue sont définies en G.F, selon DIK (78), de la manière suivante :

Thème : «Le Thème spécifie l'univers de discours qui considère la prédication qui le suit comme pertinente» p. 140.

e.g : (10) h- **Le livre** Th, Pierre l'a donné à Marie.

Queue : «La Queue est un constituant contenant une information qui clarifie ou modifie l'information véhiculée par la prédication» p. 19.

e.g : (10) i- Pierre lui a donné le livre, **à Marie**. Qu

Définitions des fonctions Topic et Focus :

Topic : «Le Topic désigne l'entité par rapport à laquelle la prédication prédique quelque chose dans une situation donnée» DIK (83, p. 140).

Focus (définition générale) : «Le Focus caractérise les constituants qui présentent l'information la plus saillante ou la plus importante, relativement à l'information pragmatique du locuteur et de l'allocutaire» DIK (78, p. 130).

Définition plus précise : «La fonction de Focus est assignée aux constituants présentant l'information concernant la différence d'information pragmatique entre le locuteur et l'allocutaire comme estimée par le locuteur» DIK (78 p. 149).

Les fonctions pragmatique sont assignées en vertu de conditions contextuelles touchant à l'information pragmatique du locuteur et de l'allocutaire. Cette information pragmatique est faite de trois principaux composants :

(i) **Information générale** : information concernant le monde et d'autres mondes possibles.

(ii) **Information situationnelle** : information dérivée de ce que les participants perçoivent ou bien l'expérience donnée par la situation où l'interaction se produit.

(iii) **Information contextuelle** : information dérivée des expressions linguistiques qui ont été échangées avant un moment donné.

Soit le contexte suivant :

(10) j- A qui Pierre a-t-il donné le livre ?

(10) Pierre a donné le livre à Marie.

(10) constitue la réponse à 10j) où le terme «Marie» est Focus (de nouveau) et le terme «Pierre» Topic. On aura, donc, la Prédication totalement spécifiée (10k) :

(10) k- Pas donner V (d1x1 : Pierre (x1)) Ag Suj Top

(d1x2 : Livre (x2)) Pat Obj

(d1x3 : Marie (x3)) Rec Foc. nouv

Partant de la Prédication sur laquelle opèrent les règles d'assignation des fonctions syntaxiques et des fonctions pragmatiques, on est arrivé à la Prédication totalement (fonctionnellement) spécifiée. Ainsi, on aura le schéma suivant :

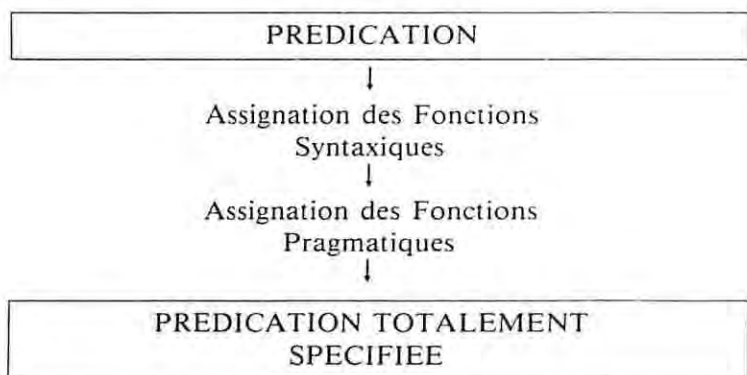


Figure 2. — Prédication totalement spécifiée ou structure fonctionnelle

3. EXPRESSION LINGUISTIQUE (Structure en constituants)

La Prédication totalement spécifiée sert d'input aux règles d'expression dont le rôle est de déterminer :

(i) La forme casuelle des constituants compte tenu de leurs propriétés fonctionnelles et structurales dans la prédication.

(ii) La forme par laquelle se réalise le prédicat (voix, auxiliaire, accord).

(iii) L'ordre des constituants.

(iv) L'accent et l'intonation.

3.1. Le marquage casuel

Les cas sont attribués aux constituants en vertu de leurs fonctions sémantiques ou pragmatiques.

Cette détermination de la forme des termes s'effectue selon Moutaouakil (84 p. 55) comme suit :

(i) Un terme qui n'a qu'une fonction sémantique, prend la forme que lui donne cette fonction.

(ii) Un terme qui a seulement une fonction pragmatique comme le Thème, par exemple, prend le cas qui lui confère la dite fonction.

(iii) Si un terme possède une fonction syntaxique, il prend le cas que lui confère la première fonction.

(iv) Pour ce qui est des fonctions pragmatiques, les fonctions externes (Thème, Queue) déterminent l'expression formelle des termes auxquels elles sont associées, alors que les termes ayant une fonction interne (Topic, Focus prennent le cas que leur confère leur fonction syntaxique.

Il en ressort que le marquage casuel se fait en fonction de la Hiérarchie de la Détermination des Cas (H.D.C) donné ci-après :

Fonctions Syntaxiques > Fonctions Sémantiques >
Fonctions Pragmatiques

Etant donné la phrase :

(11) Pierre a écrasé l'escargot.

Si le terme focalisé est «Pierre», on aura la prédication casuellement spécifiée (11a) :

(11) a- Pas écraser V (d1x1 : Pierre (X1) Ag Suj Foc nouv
Nom
(d1x2 : escargot (x2) Par Obj Top
Acc

Le Focus «Pierre» prend le cas «Nominatif» que lui donne sa fonction sujet. En ce qui concerne «escargot», il prend le cas «accusatif» qui lui est attribué par sa fonction syntaxique objet.

On doit distinguer le cas abstrait de sa réalisation morphologique de surface. Les règles d'assignation des cas attribuent un cas abstrait (Nominatif, Accusatif, ou Génétif) aux constituants. Ce cas sera réalisé, morphologiquement, dans les langues flexionnelles (dont l'arabe) par les marques casuelles correspondantes.

3.2. L'ordre des constituants :

Selon DIK (80a : 69), l'ordre des constituants est déterminé par :

- (i) Les fonctions syntaxiques.
- (ii) Les fonctions pragmatiques.
- (iii) La complexité catégorielle des constituants.

Les fonctions syntaxiques vont chacune à sa place.

Les fonctions pragmatiques internes (Topic et Focus) vont à P1, et pour les fonctions externes, le Thème se place en P2 et la Queue en P3.

Pour ce qui est de la complexité catégorielle des constituants, DIK (80 a : 73) parle de «L'ordre des Constituants Préféré dans un Language Indépendant» (LIPOC) qu'il donne comme suit :

CLITIQUE - PRO - SN - SN complexe - V - SN - SP - SUB.

Considérons la phrase :

(12) * Pierre a donné à **Marie** le livre.

C'est une phrase agrammaticale car le SP «à Marie» est placé avant le SN «Le livre» au lieu d'être placé après lui comme dans le schéma (LIPOC). Ainsi, on aboutit à l'énoncé⁽¹⁰⁾ :

(10) Pierre a donné le livre à Marie.

Cet ordre des mots déterminé par les fonctions syntaxiques, les fonctions pragmatiques et la complexité catégorielle des constituants est donné par DIK (80 a : 71) :

P2, P1 (V) S (V) O (V), P3

P2 et P3 désignent les positions occupées par les termes Thème et Queue respectivement, V indique le verbe et S et O marquent les fonctions syntaxiques et Sujet et d'Objet.

Quant à P1, il indique des constituants appelés complémentiseurs (pronoms relatifs et conjonctions de subordination). S'il n'y a pas de tels constituants dans la prédication, la position P1 peut être occupée par la fonction de Focus ou celle de Topic. En français, le sujet précède, en général, l'objet et l'ordre dominant est le suivant :

S - V - O

La formulation des règles de placement relatives aux positions «internes» est donnée par DIK (80 b : 21) comme ci-après :

(R1) P1 - constituant → P1

(R2) Topic, Focus → P1

(R3) X → P1

(R4) Subj → S, Obj → O, Verbe → V

(R1) indique le placement des complémentiseurs en P1.

(R2) montre que Topic ou Focus peuvent se placer en P1.

(R3) Si P1 est libre, un autre constituant symbolisé par X

(avec une fonction sémantique quelconque) occupe P1.

(R4) Les constituants Sujet, Objet, et Verbe vont chacun à sa position.

Il en ressort que les règles d'expression opèrent sur la *Prédication Totale*ment Spécifiée afin de déterminer la forme casuelle des constituants, la forme par laquelle se réalise le prédicat, l'ordre des constituants, l'accent de l'intonation. de ce fait, on atteint l'**Expression Linguistique (DIK) ou structure en constituants considérée comme niveau préphonologique.**

Pour résumer l'organisation de la grammaire du point de vue de la GF, on propose le schéma suivant :

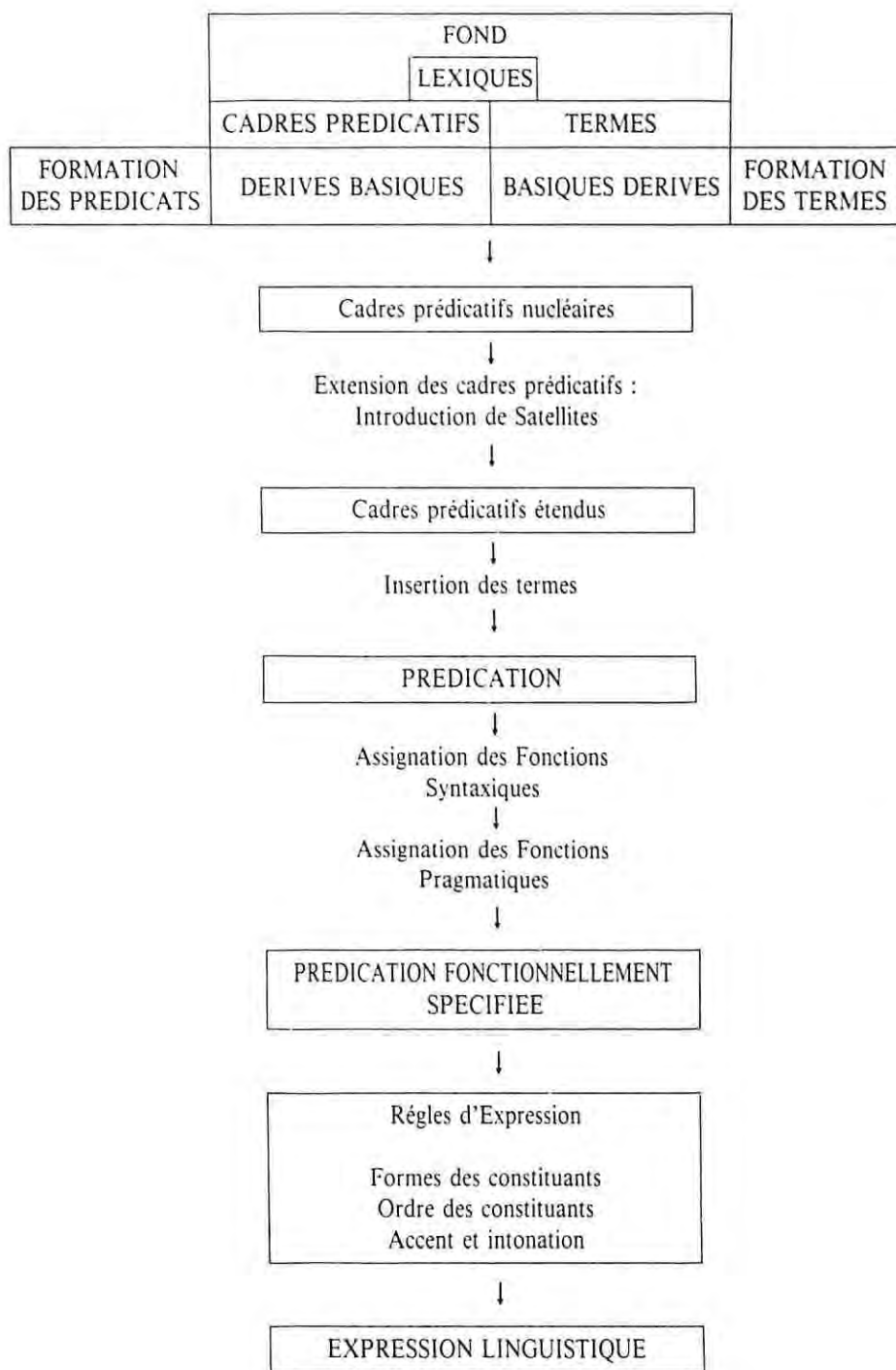


fig.3 : Organisation de la grammaire en GF

Ce schéma montre que le **Fond** contient deux sous-systèmes de règles qui produisent la Prédication représentée par un cadre prédictif : le lexique et les règles de formation des prédicats et des termes.

En tenant compte de l'hypothèse selon laquelle les items lexicaux de toute langue naturelle sont de deux types : items lexicaux basiques (que le locuteur apprend avant de les utiliser) et items lexicaux dérivés (formés à partir des items lexicaux basiques par une règle «synchroniquement productive»).

Le lexique fournit les cadres prédictifs et les termes basiques tandis que les règles de formation fournissent les cadres prédictifs et les termes dérivés. Ces règles du Fond servent d'input aux règles d'extension des cadres prédictifs. Partant de ces cadres prédictifs étendus, les règles d'insertion des termes forment «**la Prédication**». La Prédication ainsi formée permet aux règles d'assignation des fonctions pragmatiques de construire «**La Prédication Fonctionnellement Spécifiée**».

En ce qui concerne les règles d'expression, elles construisent, au moyen des informations contenues dans la Prédication Fonctionnellement Spécifiée, l'Expression Linguistique («La Forme Syntaxique» de la phrase), et ce, par la spécification de la forme des constituants, de la forme du prédicat, de l'ordre des constituants, de l'accent et de l'intonation. L'Expression Linguistique est donc une représentation pré-phonologique de la phrase.

Contraintes sur la Grammaire Fonctionnelle :

Le degré d'abstraction des analyses linguistiques en GF est contraint par les faits suivants :

- 1 - Les transformations, dans le sens d'opérations changeant la structure, sont écartées.
- 2 - Les stratégies des filtres sont désapprouvées.
- 3 - La décomposition lexicale abstraite n'est pas appliquée.

Par conséquent, une structure bien formée peut être étendue non pas changée. Une expression linguistique produite par la grammaire ne peut être tardivement rejetée comme mal-formée.

Pour être typologiquement adéquate, la GF requiert un jeu continu entre l'application de la théorie et son adaptation au résultat obtenu.

Toulouse, juin 1992

BIBLIOGRAPHIE

DIK, Simon C

- (1978) Functional Grammar. North-Holland.
- (1980) a «Seventeen Sentences» : Basic principles and application of Functional Grammar in Moravcsik et al (ed).
- (1980) b Studies in Functional Grammar Academic Press. London.

DIK, Simon C. (ed)

- (1983) b Advances in Functional Grammar.
Foris Publications.

MOUTAOUAKIL, A. Ouvrages en arabe :

- (1985) Les Fonctions pragmatiques en langue arabe. Dar ttaqafa. Casablanca.
- (1986) Etudes en Grammaire Fonctionnelle de la Langue arabe. Dar ttaqafa. Casablanca.